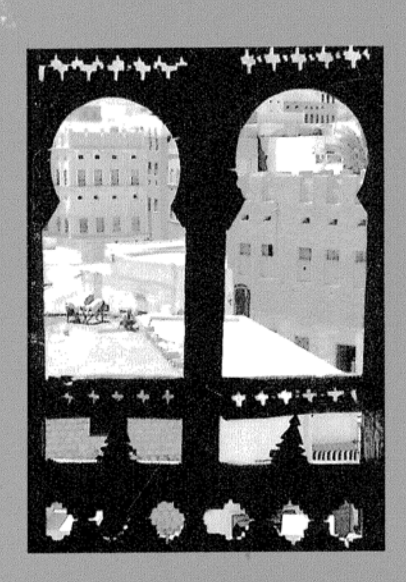
مُحسن أحمد العيني

مَعارك ومُؤامرات ضِدّ قضيّة اليمن



دار الشروق

مَعارك وَمُؤامَرات
ضِدّ
قضيَّة اليَمَن

طبعة دار الشروق الأولى

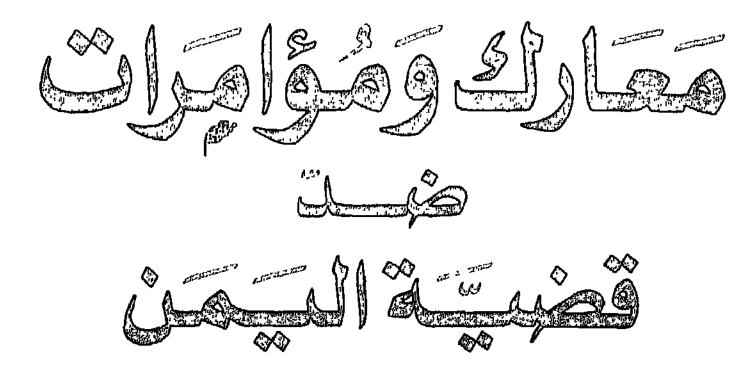
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مُحسن أحمد العيني



دار الشروق

مقدمة الطبعة الثانية

* هذا كتاب أو كتيب صدر عام 1957م أي قبل اثنين وأربعين عامًا ، ولم يكن من السهل أن يوزع في سوريا حيث طبع ، ولا في مصر حيث كنت أقيم وأدرس . ولا في اليمن طبعًا .

وقد أرسلت منه أعدادًا إلى بعض مراكز اليمنيين المغتربين في السودان وأثيوبيا وبريطانيا وفرنسا وكميات كبيرة إلى عدن . وتسربت أعداد منها إلى مدن الشمال .

* رحب به بحرارة الأستاذ سلامة موسى في يومياته في الصفحة الأخيرة من جريدة الأخبار . .

وكنت أعارض إعادة طبعه ؛ لأنى اعتبرته مجرد منشور سياسي .

* لكن كثيرين ـ وفي مقدمتهم الصديق الأستاذ/ أحمد جابر عفيف ، الذي تفضل بالإشراف والتحضير والإعداد ـ ألحّوا على إعادة الطبع ، وحجتهم أن قليلين اطلعوا عليه حين صدوره ، وأن كثيرين يتوقون لمعرفة ما كان يدور في الخمسينيات الملتهبة . . وأن الماضي هو أساس الحاضر ، وأن من حق الجيل بل الأجيال أن تعرف .

* وحتى يكون الكتاب أو الكتيب مفهومًا . . لابد من مرور عابر على الخلفية ، على قاعدة الانطلاق ، على الظروف التي ساقتنا إلى كتابته . .

* وهى ظروف لم تكن ظروفنا الشخصية ، أو الخاصة . . بل كانت ظروف اليمن والحكم ، والمعارضة ، وأجواء التحركات والأحداث . .

* * *

* شاركت اليمن في تأسيس جامعة الدول العربية ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك أبرز حضور دولي لها، وأول خروج من العزلة ، واحتكاك لرجالها بالعالم الحديث .

* وقد تعرض بعض المسئولين فيها لضغوط من بعض الشخصيات العربية ، ومن الحركة الوطنية اليمنية الوليدة ، التي مثلها اليمنيون الأحرار في عدن . .

* فكان خروج البعثة المكونة من أربعين طالبًا إلى لبنان ، التي انتقلت إلى مصر بعد عام أو أكثر قليلاً ، إثر فشل الحركة الدستورية عام 1948م .

* وبثورة مصر عام 1952م ، انتعشت من جديد حركة اليمنيين الأحرار ، بعد وصول الأستاذ محمد محمود الزبيري من منفاه البعيد في باكستان ، وتأسيس الاتحاد اليمني ، وتوجيه الأحاديث إلى الشعب من إذاعة صوت العرب ، وصدور صحيفة « صوت اليمن » .

* وقد التف الطلاب حول الزبيري والاتحاد ، وخاصة بعد التحاق عدد منهم بالجامعة . .

* وإلى جانب مكتب الاتحاد في شارع النيل بالقاهرة ، استؤجرت شقة في المنيل وتعددت اللقاءات والاجتماعات والإعداد والتدريب [1]، تمهيداً لقيام مجموعة من الطلاب بزيارة اليمن لقضاء إجازة الصيف ، وإجراء الاتصالات بالعديد من الشخصيات الوطنية .

* وقد وصلنا تعز ، واستقبلنا الإمام أحمد في قصر صالة ، ثم انتقلنا معه إلى صنعاء حيث وصلها لاستقبال ضيفه الملك سعود في زيارته الرسمية لليمن .

* وبعد يومين أو ثلاثة ، استدعيت في منتصف الليل لمقابلة الإمام في « بستان الخير » بحضور ابنه البدر ، والسفير عبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب ممثل الإمام بالقاهرة .

---

(1) انظر كتاب فتحي الديب : عبدالناصر وحركة التحرر اليمني، ص 54.

وقد أمر الإمام بسفري صباح اليوم التالي مع الزميل محمد أحمد الرعدي ، مرافقين لابنه البدر في زيارته للقاهرة وحضور أعياد ثورة يوليو المصرية .

*حاولت الاعتذار بحجة رغبتي في زيارة أهلي وقريتي بعد غياب سبع سنوات، ولكن دون جدوى .

* وفي الصباح ، وفي مطار صنعاء ، كان سيف الإسلام عبد الله وزير المعارف العتيد ، والذي كان له الفضل في إرسال البعثة إلى لبنان فمصر ، ضمن المودعين للبدر ، وعندما صافحناه . . قال ، معاتبًا : « هكذا . . مع البدر . . » فقلنا له : «إنها أوامر صاحب الجلالة . . » .

* وهكذا وجدنا أنفسنا ، في المساء ، في « المحروسة » السفينة الخاصة بالملك فاروق ، التي ألحقت بفندق سميراميس ، حيث نزل البدر ضيفًا على الحكومة المصرية . .

* فوجئ الأستاذ الزبيري بعودتنا ، وفسرها بأن الإمام، ربما ارتاب ، أو عرف ببعض الاتصالات التي أجريناها فور وصولنا في تعز أو صنعاء . . ورغب في إعادتنا إلى القاهرة ، ومرافقتنا لابنه البدر ، سيراً مع توجه الأحرار للمناداة بالبدر وليا للعهد ، وتقربًا من القاهرة ، أو تظاهرًا بالتقارب .

* وطالت زيارة البدر لمصر ، وعندما حان موعد عودته إلى اليمن ، كانت إجازتنا الصيفية على وشك الانتهاء ، ولكن الأستاذ الزبيري رأى أن من المفيد أن نواصل مرافقة البدر إلى اليمن . . وبما أننا في كلية الحقوق ، فيمكن أخذ كتبنا معنا، والحضور إلى القاهرة في موعد الامتحانات .

وعدنا مع البدر (2)، ومعنا بعثة عسكرية مصرية برئاسة البكباشي أحمد كمال أبو الفتوح.

* وفي مطار الحديدة الترابي ، طمرت الرمال عجلات الطائرة ، وتعذرت حركتها ، وخرجت جماهير الحديدة تحاول رفعها وشدها بالحبال . . دون جدوى . .

(2) انظر كتاب فتحي الديب: عبدالناصر وحركة التحرير اليمني. ص 53.

* وتعثرت هناك حتى جاءت طائرة مصرية أخرى برافعات ، وبصعوبة أنقذتها . .

* أمضينا شهوراً بين صنعاء وتعز ، وطال مقامنا في الحديدة في دار الضيافة المطلة على البحر . . والتقينا فيها بمن خرجوا من سجون حجة ، الأستاذ أحمد محمد نعمان والسيد أحمد الشامي والأستاذ إبراهيم الحضراني وغيرهم . وكانت أمسيات ممتعة . . أدب ، وفلسفة، وسياسة ، . . . . ، وأحلام وكوابيس . .

* كنت بعد « اليُقلمة» وهتاف الجنود عند الغروب « اللّه يحفظ الإمام » وصوت النفير ، أشعر بالحزن والضياع والكآبة . . وعند ابتلاع البحر لقرص الشمس ، أرتعب وأخاف ألا تظهر الشمس مرة أخرى . .

* في فبراير 1955م حضرنا الاحتفال في الحديدة بعيد النصر . . انتصار الإمام أحمد على أحرار 1948م ، وقد وقف السيد علي عقبات خطيب اليمن المفوه ، وصال وجال ، ولعل مظهري وزميلي محمد الرعدي ، بثيابنا الغربية ، ورءوسنا المكشوفة ، استفزه ، فنسي نفسه ، واسترسل في الهجوم على هؤلاء القادمين من مصر ، المتأثرين بنجيب وعبد الناصر ، المغرمين بالأفكار الثورية الخطيرة . . الذين يريدون أن يأكلوا «با لخاشوقة» . . الشوكة والسكين . . الذين لا يحترمون تقاليد اليمن . . . إلخ . .

* ولم يكن أمامى إلا أن أندفع إلى الميكرفون ، وأسحبه ، وأرد بعنف على هذيان هذه « العقبات » الكأداء التي تقف في طـــريق الشعب ، وإننا فعلاً نأكل بالخاشوقة، ونرجو أن يأتي اليوم الذي يأكل فيه كل اليمنيين بالشوكة والسكين ، وأن يكشفوا رءوسهم للهواء والسماء والشمس . وأن يستروا بدلاً من رءوسهم . . أقدامهم الحافية العارية . . فهي التي تلامس المكروب والشوك . .

* وقلت في ختام كلمتي الطويلة . . إن الحكومة هى التي أرسلت البعثة للدراسة في الخارج ، وإن الإمام يحاول تشجيع التعليم والتحديث . . ولكن هذه العقبات . . وهذه العقليات . . هي التي تحاول وقف التطور . ودخول اليمن العصر الحديث . .

* وقد اختل النظام ، وتدافع الناس ، وانتهى الحفل ، وكان نائب الإمام في الحديدة هو السيد محمد أحمد باشا رحمه الله وأكرم مثواه ، فقد منع تسرب أي خبر عن الحفل وما جرى فيه ، وحاول حصر الموضوع وتطويقه ، حمايةً لنا ، ولكن في المساء . . وصلت برقية من الإمام لابنه البدر . . « هل بلغتك خطبة العيني . . ؟» وكان جواب البدر « بلغتني . . وجُلها ثناءٌ عليكم . . » .

* وصدرت الأوامر بترحيلنا فوراً إلى القاهرة .

* لم يكن هناك خط طيران منتظم بين اليمن ومصر إلا عن طريق عدن ، ولكن الإمام عارض مرورنا بعدن بعد أن نشرت بعض الصحف ما جرى في احتفال عيد النصر بالحديدة ، وكلمة عقبات وردي عليها ، وأمر بأن ننتقل إلى الصليف ومنها إلى جزيرة كمران ، وكلف الشيخ علي محمد الجبلي وكيله في عدن ، أن يرتب سفرنا إلى القاهرة على الخطوط البريطانية BOAC التي تتوقف أحيانا في كمران .

* وهكذا سافرنا إلى الصليف ، حيث نزلنا في ضيافة عاملها الشاب المهذب السيد أحمد حميد الدين الذي أكرمنا ورعانا ، والذي كان يربي في بيته «عرجًا» صغيراً ويحاول رعايته ومداعبته عسى أن يصبح أليفًا . .

* وحينما حان موعد مرور الطائرة البريطانية بجزيرة كمران التي لا تبعد عن الصليف إلا نحو ميل ونصف ، انتقلنا إلى الجزيرة ، ونزلنا في استراحة شركة ملح الصليف ، وكانت مهجورة ، والحشرات والزواحف تسرح وتمرح فيها . . وكنت أنا والزميل الرعدي نتناوب النوم والحراسة .

* ولم يكن بالجزيرة إلا بعض الصيادين ، وبريطاني واحد هو ممثل حكومة صاحبة الجلالة ، وممثل شركة الطيران . . وهو كل شيء . . وكانت الطائرة لا تتوقف في كمران إلا من أجله إذا كانت له مراسلات أو طلبات .

وعندما مرت أيام دون توقفها . . هددنا بأننا سنرفع عليه قضية ونطالبه بالتعويض إذا تخلفنا عن موعد الامتحانات في القاهرة ، فاتصل بالطائرة وحطت في الجزيرة وحملتنا معها إلى عدن فالقاهرة . .

وكان وصولنا في الوقت المناسب للاستعداد ودخول امتحانات نصف العام .

* في أول أبريل 1955م نقلت الأنباء محاصرة الجيش اليمني بقيادة العقيد أحمد الثلايا لقصر الإمام أحمد في تعز ، وإرغامه على التنازل لأخيه سيف الإسلام عبد الله . وقد فوجئ الأحرار في القاهرة ، كما فوجئ المصريون . . إذ كان المتوقع أن البدر هو الذي سيخلف أباه عند أي تغيير .

* كلفت هذه المرة مع الزميل يحيى حمود جغمان بحمل رسالة من الأستاذ الزبيري إلى العقيد الثلايا في تعز ، للتحذير مما قد يفعله الإمام أحمد المحاصر الجريح ، وللاستفسار عن السبب في تولي السيف عبدالله بدلاً من البدر . .

* وكان الطريق الوحيد إلى تعز . . هو عبر عدن . .

* وقد وصلنا عدن ونزلنا في فندق « مارينا هتيل » في التواهي ، ولم نكد نضع حقائبنا حتى سمعنا هتافات المتظاهرين بحياة الإمام أحمد « يا جناة » الذي خرج من الحصار ممتطيا صهوة جواده . . ! وأنه قد تم اعتقال السيف عبدالله والعقيد الثلايا وآخرين كثيرين . .

* في صباح اليوم التالي . . اتصل بنا تلفونيا القاضي محمد عبدالله العمري ، القائم بأعمال وزير الخارجية ، الذي كان في طريقه إلى تعز . . وقال بلهجته الصنعانية الجميلة . . « ما سرنا . . ؟ مولانا قبل شهر واحد أمروا بترحيلكم من الحديدة إلى القاهرة عن طريق الصليف ، كمران ، حتى لا تمروا بعدن . . لماذا جئتم إلى عدن . . الآن ؟ » .

فقلنا له . . نحن مرافقون لولي العهد . . سمعنا بالأحداث فتحركنا إلى عدن وكنا في طريقنا إلى تعز للاطمئنان عليه .

والآن وقد هدأت الأمور ، فإننا سنعود إلى القاهرة ، لمواصلة دراستنا ، وإن شاء الله ، تبلغونه أنتم تحيتنا . فقال « على كل حال قد نراكم في تعز » . . .

وحدثنا بعده وكيل الإمام بعدن ، وقال : إن برقية قد وصلت من الإمام يستعجل وصولنا إلى تعز . . . وإنه سيعد لنا السيارة . .

وبعد تفكير وتردد ، تركنا رسالة الزبيري لدى الأحرار في عدن ، ربما لدى

سلام حاجب أو محمد أحمد شعلان . . وتوجهنا بالسيارة . . وعند وصولنا الراهدة بعد الظهر ، استضافنا الجنود ، وكان بعضهم من أصحابنا بنى بهلول وقد أصروا على بقائنا للغداء والمقيل . وانفرد بي أحدهم ولعله حسين بن حسين العيني وقال : إننا نحاول تأخيركم حتى نقنعكم بالعودة إلى عدن . . إننا نخاف عليكم . . إن الرجل هائج والإعدامات متواصلة . .

* عندما طمأناهم بأنه لا خوف علينا ، قالوا : على كل سيرافقكم بعض أصحابنا إلى تعز ، وإذا شعرنا بأي خطر فسنأخذكم معنا إلى الراهدة ، ومنها إلى عدن . .

* في المساء وصلنا تعز وأنزلنا بدار الضيافة والتقينا فيها بالأستاذ نعمان ، الذي كان الناس يعتبرونه بعد وقوفه إلى جانب البدر والإمام ، أبرز الشخصيات يومها ، وأن الأمور كلها بيده ، وأن الإمام يستمع إليه ولا يرد له رأيًا أو طلبًا ، وكان هو ، ساخراً ، يتظاهر بأن هذا هو الواقع . . ويقفل على نفسه باب حجرته ، ويرفض الحديث أو الاجتماع بأحد . . بحجة أنه مشغول . . ! ويردد بصوت عال . . دعونا نعمل . . لا تشغلونا . . !

وعندما يخرج يحرص على أن يتأبط أي ملفات أو أوراق ، إيهامًا للناس بأنها أوراق الدولة ، وقضايا الناس . . رحمه الله ، كم كان ساخراً ومرحًا ، حتى في أتعس الظروف . . !

* وفي صباح اليوم التالي زرنا الأمير البدر في وزارة الخارجية ، وذهبت معه لمقابلة والده الإمام فى أثناء استقباله مسيو ستيبانوف قنصل فرنسا في جيبوتى ، الذي وصل للتهنئة باسم الحكومة الفرنسية .

* وقد طلب الإمام أن أقوم بالترجمة ، فقلت له : إننى لا أجيد اللغة الفرنسية . . فقال على الفور وكأنه قد ضاق بوجودنا في مصر . . إذن يجب أن تنتقل من القاهرة إلى باريس لمواصلة الدراسة وتعلم اللغة . . أنت وزميلاك جغمان والرعدي ، وطلب من القنصل الفرنسي عمل الترتيبات اللازمة ، وكلف الشيخ أحمد حسين الوجيه بقطع تذاكر السفر وتسديد رسوم الدراسة . .

* وفي دار الضيافة ونحن على مائدة إفطار رمضان ، قال القاضي عبدالرحمن

الإرياني ؛ الذي عاد من ساحة الإعدام قبل أيام : يجب أن تغادروا تعز الليلة بعد العشاء مباشرةً إلى عدن ؛ ففي جو التحقيقات والملاحقات يخشى أن تنكشف أي أوراق أو رسائل حملتموها في رحلتكم السابقة إلينا أو إلى العقيد الثلايا أو آخرين . . وتحدث تعقيدات .

وكان الإمام قد حول لكل واحد منا مائتي ريال ولم نستلمها بعد . . فقلنا للقاضي : غداً في الظهر نستلم الحوالة ونغادر ، فقال : بل الليلة بعد هذا العشاء حتى نطمئن عليكم .

وهكذا ، غادرنا . . ولم تشرق شمس الصباح إلا ونحن على أبواب عدن . . ووفر الإمام أربعمائة ريال . . !

* * *

* في القاهرة بدأنا نستعد للسفر إلى باريس ، فوصل البدر والأستاذ نعمان والسيد أحمد الشامي وآخرون لشكر الحكومة المصرية على موقفها ، ورداً لزيارة وفد مصري برئاسة السيد حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة ، كان قد زار الإمام في تعز ، وهنأه ، وتمنى ألاّ يسرف في الانتقام ويتوسع في الإعدام . .

* كنا نسكن في شقة بالقرب من جامعة القاهرة ، في الدور الأول ، وكانت بلكونتها الكبيرة سطح جراج تتسع لجلوس العشرات والعشرات ، وقد أقمنا فيها حفلاً حضره البدر والأستاذان نعمان والزبيري وعدد من الشخصيات العربية السياسية والإعلامية .

وفي الحفل وزّع كتيب بعنوان « آمالنا وأمانينا » وفيه إيضاح بما يطالب به الأحرار من إصلاحات في اليمن .

* وتحدث الأستاذ الزبيري حديثًا طويلاً ، وآخرون ، وكان خلاصة ما تردد في الحفل هو أن الذين وقفوا إلى جانب الإمام وابنه ، ينتظرون أن تتحقق أهداف الشعب ، وأن الصراع على خلافة الإمام بين إخوته وابنه قد حسم ، ولم يعد هناك أي سبب للتلكؤ والتردد في السير في طريق الإصلاح ، وإلا فإن المعارضة ستستمر وتشتد . .

* وفي كلمتي ركزت على الوحدة الوطنية ، فلا شمال ولا جنوب ، ولا زيدية ولا شافعية ، ولا هاشمية ولا قحطانية ، وبحضور طلاب اليمن من جميع أنحاء البلاد ، طلبت من البدر والنعمان والزبيري أن يقفوا وأن يتعانقوا ، رمزاً لوحدة الشعب ، وإعلانا لإنهاء كل أسباب الفرقة والتمييز . .

وقد وقفوا بين تصفيق الجميع . . وقد غضب بعض مرافقي البدر ، وقالوا : لقد أحرجتم الأمير . . !

إنكم بهذا تعلنون إنهاء الإمامة . . !

وقيل لي إن برقية وصلت من الإمام تقول للبدر . . « ألم أحذرك من العيني . . »

والأخ عبد الله الضبي هو الذي يستطيع أن يؤكد أو ينفي مثل هذه البرقية . .

* ولا يفوتني هنا أن أذكر أن بين مرافقي البدر ثلاثة من خيرة أبناء اليمن وطنيةً ووفاءً وتواضعًا ، هم . . القاضي محمد أحمد الجرافي ، والعميد عبد الله الضبي ، والأستاذ هاشم طالب .

* * *

* وتوجهنا بعد ذلك إلى باريس ، وركزنا في فترة الصيف على دراسة اللغة الفرنسية في « الإليانس » وفي « السربون » ، وفي بداية العام الدراسي سجلنا في كلية الحقوق . .

* في اليمن . . تظاهر الإمام بالاستجابة لبعض طلبات الأحرار ، فشكل وزارة لكن من رجاله وعماله وكبار موظفيه ، وعندما وجد النعمان ألاّ أمل في الإصلاح ، وصل القاهرة ، وانضم إلى زميله الزبيري ، فجن جنون الإمام وركز هو وحكومته على محاربتهما ، وعلى إضعاف الاتحاد اليمني ، وتم ترحيل العديد من الطلاب إلى بريطانيا وإيطاليا وأمريكا ، وتشكيك من تبقى من الطلاب في الاتحاد وزعيميه .

* وقد تأثرنا في باريس لهذه الأخبار ، فوجهنا رسالة مطولة بخطي وتوقيع الثلاثة . . جغمان ، والرعدي ، والعيني ، إلى زملائنا في القاهرة ، نندد بالنشاط المعادي للأحرار ، ونحث على الصمود والثبات والمواجهة . .

* وقد قطعت عنا المنحة الدراسية ، ولكننا قاومنا ، وواصلنا دراستنا في ظروف صعبة . .

* * *

* وفي الصيف توجهنا إلى لندن ، وفي مكتب السفير قلنا إننا لن نخرج إلا إذا عادت منحتنا الدراسية أو تذاكر العودة إلى القاهرة . . وفرضنا وجودنا على السفارة ، التي ظلت في أخذ ورد مع الإمام . . دون جدوى .

فعدنا في نهاية الصيف إلى باريس .

وعندما ضاق الحال ؛ غادر جغمان والرعدي باريس للتدريس أولا في الكويت ، ثم للدراسة في دمشق .

*وفي محطة القطار وأنا أودعهما . . قالا ، مازحين . . «رسالتك أخرجتنا من باريس . . نأمل ألاّ تكتب رسالةً بعد الآن . . لا إلينا . . ولا إلى غيرنا . . ! » .

* افتقدتهما ، وخفف عني أديب النحوي ، وأحاديثه التي لا تنقطع عن العروبة والوحدة ، ومنصور الكخيا وشايه بالنعناع ، وعاطف دانيال وحماسة لوحدة الطلبة العرب في أوروبا ، واتصالاته الواسعة بمحرري « فرنس أوبزرفاتو والإكسبرس » وشرح قضايا العرب في أثناء أزمة تأميم قناة السويس . .

* وقد واصلت في باريس شهوراً وعندما تعذر العمل والدراسة عدت لإكمال دراسة الحقوق في جامعة القاهرة . .

* وفي القاهرة وعلى مائدة الغداء في ضيافة القاضي إسماعيل الجرافي ـ أطال الله عمره ـ سألني السيد حسن بن إبراهيم : « افتقدناكم في لندن » .

* فقلت له : لقد ذكر لنا البعض أن تعليمات الإمام كانت أن نسافر معكم إلى روما حيث تمثلون اليمن أيضا ، وتُسحب منا جوازات السفر ، ونواصل معكم إلى السودان ، ومنها إلى تعز . .

* وقد فضلنا ألا نضعكم في موقف حرج ؛ لأننا كنا نرغب في العودة إلى باريس أو القاهرة ، وليس إلى تعز .

*وحتى لا يتطور الحديث؛ تدخل القاضي إسماعيل وقال: «يا سيدى الشرفي، لا تحتاجون لتوجيه أي سؤال . . يكفي أن تقرءوا الكتاب» . . فقال . . «أي كتاب . . »؟

* قال: معارك ومؤامرات . . . ولعله كان قد اطلع عليه . . فقد أرسلت له نسخة إلى مكتبه في السفارة في لندن.

* * *

* وفي إجازة نصف السنة توجهت إلى دمشق، ونزلت ضيفًا على الزميلين يحيى جغمان ومحمد الرعدي، اللذين كانا يواصلان دراستهما في جامعة دمشق.

وفاجأتهما هذه المرة ليس برسالة، بل بكتاب، أو كتيب أو منشور؛ رغبةً في استمرار المجابهة مع الإمام وحكمه، وللتعريف باليمن، وتاريخها وشعبها، ونظام الحكم فيها، وإيقاظا لمواطنيها في الداخل والمهجر.

* وتم طبع الكتاب . . تحت الأرض، في مطبعة «الوحدة العربية» التي كانت تصدر عنها صحيفة «الرأي» لسان حال حركة القوميين العرب.

* وتخلصًا من ملاحقتي ومتابعتي اليومية لعمال الطباعة، ومحاولة استعجالهم؛ نظم لي الأستاذ عدنان فرج رئيس تحرير «الرأي» رحلة إلى عمان، حيث نزلت ضيفًا على الدكتور چورچ حبش، في عيادته المتواضعة، ثم أمضيت أياما في مخيم الكرامة في ضيافة الدكتور وديع حداد . . الذي كان وديعًا . . وديعًا . . كاسمه.

* وفي حديثي مع اللاجئين، وأنا أتلو: ﴿ **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** ﴾ تدخل ضابط كبير لإسكاتي، فقلت له: إن الحديث هو عن اليمن، والآية الكريمة جاءت على لسان بلقيس ملكة اليمن . . فقال . . «إن حكومة النابلسي قد سقطت، وأعلنت الأحكام العرفية . . «فغادرت إلى دمشق».

* وقد استدعاني ، وقد انتهينا من عملية الطبع ، السيد يوسف مزاحم ، مدير الأمن العام في دمشق ، وتوقعت أن يغضب، ويمنع ، ويصادر . . ولكنه ، بعد حديث طويل ، قال وهو يتأمل صور الذين سقطوا بسيف الجلاّد . . « إننا نعدم . . ولكن ليس بهذه الصورة . . ! » وقيل لي بعد ذلك إن الإمام أحمد قد أخرج الكتاب ولوح به عند زيارة الأستاذ صلاح البيطار إلى تعز ، وقال . . « أنا جزار . . ! هل تسمحون بطبع مثل هذا الكتاب في سوريا ؟ فقال له الأستاذ البيطار . . كم يكتب ضدنا وينشر . . ولا نتأثر . . ولم يكن لنا علم بهذا . . وكاتبه على كل حال غير مقيم في سوريا . . ».

* وفي مطار القاهرة ، والكتاب هو حقائبي الخمس . . تصفح ضابط الجمارك نسخةً . . منه . . وقال . . كيف نسمح بدخوله ، وهو يتعرض لرئيس دولة هي معنا في مواجهة حلف بغداد ؟

فقلت له . . ألا ترى جواز سفري الدبلوماسي ، وصفتي كمرافق لولي العهد . . ؟ إننا جمعناه، حتى لا يتم توزيعه ؟

وفي خارج المطار ، وقبل أن أركب السيارة . . لحق بي الضابط . . وقال . . ولكنك أنت مؤلف الكتاب . . ؟ كيف هذا ؟

فقلت له . . خليها على الله . . !

كان هذا في عام 1957م ، قبل أكثر من أربعين عامًا . .

* * *

* اليوم نعيد الطبع . .

لنرى أين كنا ، أين كانت اعتراضاتنا ، شكاوانا ، اهتماماتنا ، تطلعاتنا ، طموحاتنا وما تحقق منها . . وأين نحن اليوم . . ؟

* في حجة ، في سجونها التي ضمت العلماء والأدباء من الأحرار بعد ثورة 1948م ، كان الجدل والنقاش حول الإمامة، ورئاسة الدولة ، ومن يتولاها . . والشروط الأربعة عشرة في المذهب الزيدي ، كالعلم والشجاعة والكرم والعدل وسلامة البدن . . إلى آخر ذلك . .

وقد اتفق الجميع على الشروط كلها . . لكنهم اختلفوا حول الشرط الرابع عشر، وهو أن يكون الإمام علويًا فاطميًا . . وقالوا : إن هذا الشرط غير ضروري .

ولكن السيد أحمد الشامي تمسك حينئذ بهذا الشرط . .

وبعد سنوات وسنوات . . اتصل من «كنت» بضواحي لندن ، بصديقه الأستاذ أحمد عبد الرحمن المعلمي بدمشق ، وقال له . . قل للقاضي عبد الرحمن الإرياني . . إننى اليوم مقتنع بأن الشرط الرابع عشر غير ضروري . . وإننى تنازلت عنه . .

وعندما نقل هذا الكلام للقاضي الإرياني . . قال . . قولوا للسيد أحمد . . لقد تنازلنا عن الشروط كلها . . !

* وكان السيد الشامي قد قال لي مرة مازحًا : في كتابك « معارك ومؤامرات » قلت : « نريد حاكمًا اسمه مسعد ، صالح ، سعيد ، علي ، محمد ، هكذا مثلي ومثلك ومثل سائر الناس ، لا نريد حاكمًا من الآلهة ، ولا من الملائكة ، ولا من الأطهار .

نريد حاكمًا إذا أخطأ قال له الناس : أنت أخطأت ، فلا يكونون خارجين، ولا كافرين ولا مارقين . . "

وأكمل الشامي . . « تُرىَ هل وصلتم إلى ما تمنيتم . . ؟ ! ».

بقي لي أن أقول :

* إن اليمن اليوم قد تخلصت من الإمامة في الشمال ، ومن الوجود الاستعماري في الجنوب، وقامت الجمهورية ، وتحققت الوحدة ، وخطت البلاد خطوات كبيرة في العمران والتعليم والمواصلات والصحة ورفع مستوى المعيشة ، والصلة، مع العالم .

* وبقي أمامها شوط طويل . . طويل . . لتحقيق الدولة الحديثة ، دولة المؤسسات ، دولة العدل والنظام والقانون والأمن والاستقرار واحترام حقوق الإنسان . .

* والخلاص من كابوس القبلية ، والسلاح ، والثأر ، والقات ، وأكوام القمامة في المدينة والريف .

* إن المسيرة الحضارية . . طويلة . . طويلة . .

وإذا كنت قد قبلت أخيرا إعادة طبع هذا الكتيب ، فقد يكون ذلك مقدمةً لكتابي عن مسيرة الخمسين عامًا الأخيرة . .

* في هذا الكتيب . . إذا كانت هناك بعض تجاوزات أو هنات في الألفاظ أو العبارات أو الأفكار . .

* فللشباب عذره . . وللظروف حكمها . . !

محسن العيني

يناير 1999م



الرعدي والعيني وعبدالله الضبى مع الرئيس محمد نجيب



الرعدي ، القاضي محمد الجرافي والعيني



مطار الحديده عام ١٩٥٤ ـ البكباشي أحمد كمال أبوالفتوح



عبيد النصر بالحديده ـ عام ١٩٥٤ . الرد على عقبات الذي هاجم الأحرار..



مذيعو صوت العرب وعلى الخضر، والعيني يتحدث إلى الطلاب في حفل حضره البدر والنعمان والزبيري بالقاهرة في مايو ١٩٥٥



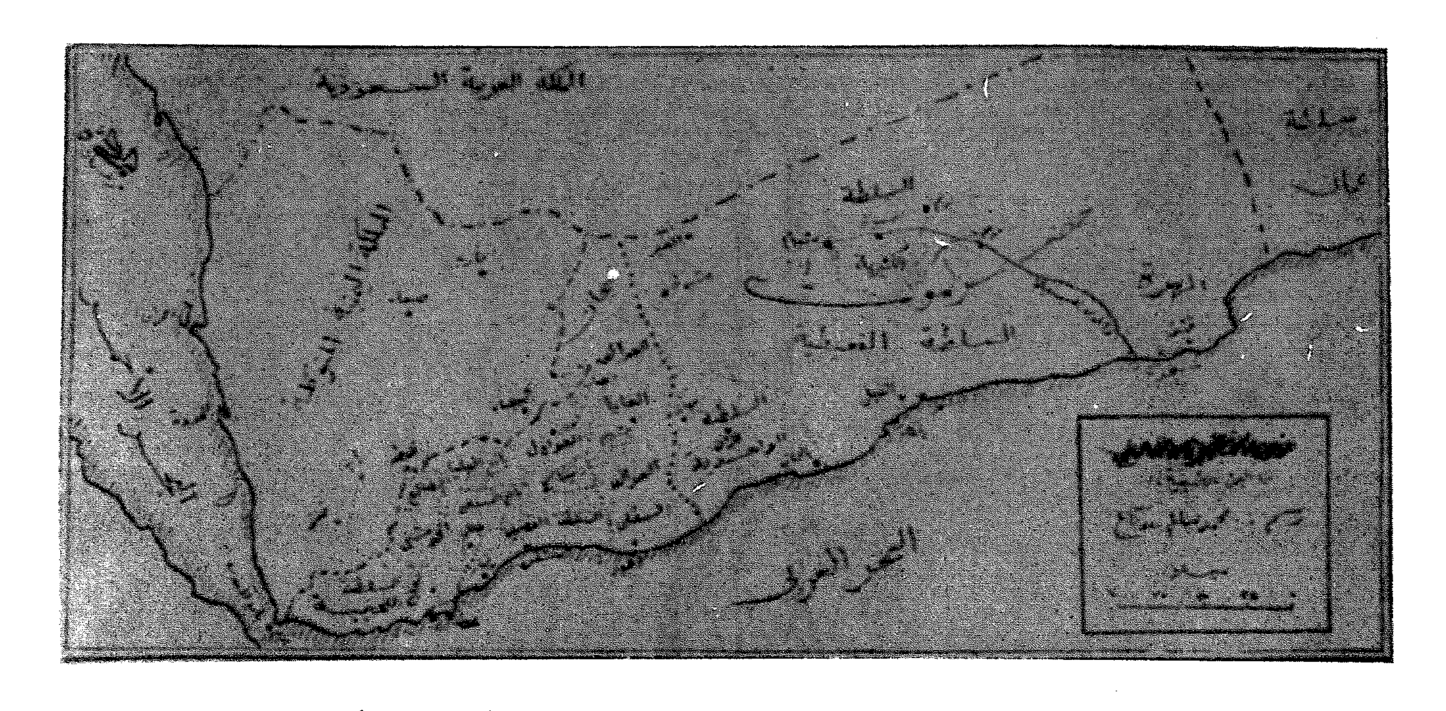
نعمان في القاهرة، عام ١٩٥٥، بصحبة الإمام البدر والشهيد محمد محمود الزبيري ويظهر إلى أقصى يسار الصورة فتحي الديب أيضاً

إهداء

إليك أيها اليمني ، حيثما كنت ، في سجنك الكبير
أو في مهجرك ، مشرداً تحت كل كوكب .
إلى كل عربي حر ، يتطلع ببصره عبر الحدود
متسائلاً عما يجري في ذلك الجزء الغالي من وطنه الكبير .

محسن العيني

1957م



﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

[سورة النمل : ٣٤]

نظرة جغرافية عابرة

تقع اليمن في جنوب الجزيرة العربية ، ويحدها من الشمال نجد والحجاز ، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق عمان . . واليمن اليوم قسمان : قسم مستقل ومساحته تتراوح بين 62 ألف كيلومتر مربع إلى 195 ألف كيلو متر مربع ، ويبدو أن التقدير المعقول هو 75 ألف كيلو متر مربع . ويتراوح عدد السكان بين أربعة ملايين وخمسة ملايين نسمة . وقسم يحتله الاستعمار البريطاني، ومساحته تقدر بـ 290 ألف كيلو متر مربع ، وتبدأ من مضيق باب المندب على البحر الأحمر حتى ظفار التابعة لسلطنة عمان . ويقدر عدد السكان بمليون نسمة .

الأقسام الطبيعية :

1 ـ تهامة وهي أرض رملية شديدة الحرارة على الساحل ، وأهم المدن فيها عدن، الحديدة ، المخا، وهذه أشهر الموانى اليمنية ، ولحج والمنصورة وزبيد في الداخل وفي هذه المنطقة وديان شهيرة ، وتنتج النخيل ، والقطن ، والتبغ ، والحبوب .

2 ـ الجبال والسهول الشرقية : ويصل ارتفاع الجبال فيها إلى 3500 متر وإلى 4500 وتهطل فيها الأمطار بغزارة في الصيف . وفيها أنهار كثيرة متوسطة أهمها أنهار بنا، ورزان ، سردود ، مور ، الخارد . وهذه هي منطقة السدود ، فقد كان فيها سد مأرب، وسد ريعان في وادي ظهير ، وسد الخانق في صعدة، وسد أضرعة بعنس، وسد شاحك بخولان . وبها حقول ووديان كثيرة . وفيها أكثر من ثلاثة

أرباع سكان اليمن . وتنتج محصولات المنطقة الموسمية ومحصولات منطقة البحر الأبيض المتوسط . وجوها معتدل طول العام ولا يكاد يشعر المرء بتغير الفصول فهي في ربيع دائم . وأهم المدن فيها : صنعاء ، عمران ، صعدة ، ذمار ، أب ، تعز ، قعطبة ، رداع ، حجة ، مناخة ، مأرب ، شبوة ، البيضاء .

3 ـ حضرموت وهي جزء من العربية السعيدة وبالرغم من أن مساحتها شاسعة واسعة فلا يزيد سكانها على 300 ألف نسمة ، وسطحها جبلي يشقه واد عظيم الاتساع هو وادي الكسر ، وفيها وديان عظيمة أخرى أهمها وادي حَجر ، وادي ميفعة ، وادي دوعن ، وأهم مدنها : شبام ، المكلا ، الشحر .

4 ـ الربع الخالي أو الدهناء : وهي صحراء مترامية الأطراف ، ليس بها عيون مائية ولا أودية ؛ وإنما تهطل بها الأمطار في مواسم معلومة فتعشب ، ويؤمها البدو بخيامهم وإبلهم فيرعونها ثلاثة أشهر .

والربع الخالي قسمان : قسم واقع إلى الجنوب والشرق وهو هضاب سهلة من الممكن اجتيازها ، ويقدر بنحو ثلث الربع الخالي . والقسم الآخر في الغرب والشمال ، وهو كثبان رملية كثيفة ، ويقدر بثلثي الربع الخالي .

وتتنازع اليمن ـ من الناحية السياسية ـ أوضاع ثلاثة .

ـ المملكة المتوكلية اليمنية . . وهي الجزء المستقل .

ـ عدن . . وقد فرض عليها الإنكليز منذ نزولها في عام1838 الاستعمار .

ـ محمية عدن الشرقية ومحمية عدن الغربية ، وهما مكونتان من سلطنات ومشيخات عديدة ويخضعان لنظام الحماية الإنجليزية .

الحالة الاقتصادية :

لليمن إمكانيات اقتصادية واسعة لكنها لم تستغل حتى الآن ، فالخصوبة الطبيعية المتوفرة في تربتها ، وتنوع المناخ . . كل هذا يسمح بمختلف الزراعات .

أما الثروات المعدنية فتوجد بصورة تجعل من اليمن بلداً صناعيا هاما ، وهذه

الثروات الضخمة موجودة بجانب الإمكانيات البشرية النشيطة الذكية . . فإذا تحسنت صحة الإنسان، وحكمت البلاد حكمًا شعبيّا سليما ، فليس ببعيد أن تقفز اليمن إلى الصف الأول من الدول الصناعية القوية .

اليمن اليوم تشبه ـ من جوانب كثيرة ـ اليابان قبل مائة سنة ، ولكن يبدو أن اليمن تستطيع أن تعوض ما فات بسرعة عظيمة ، إذا تخلصت من أوضاعها الفاسدة الراهنة.

الزراعة : اليمن حتى الآن تعيش على الزراعة وحدها . . وإذا كانت قديمًا قد بنت السدود ، ونظمت الري فهي الآن محرومة من كل هذا . ولكن حيث تسقط الأمطار توجد الزراعة ، فالفلاح اليمني نشيط ماهر في زراعته، وتشهد على هذا تلك المدرجات الزراعية في الجبال والوديان .

وقد قال وندل فليبس : « لقد كنا ونحن نتسلق جبالهم الشاهقة نعجب وندهش من تلك المدرجات الزراعية الخلابة التي يقيمونها في كل شبر من فوق قمم الجبال العالية . . إن الزراعة بتلك الصورة تدل على عمل إنساني ونشاط ومهارة لا تقارن. وحين تهطل الأمطار الغزيرة تجرف معها هذه الحقول المعلقة . . ولكن السواعد اليمنية القوية تعيدها ».

أما جوران فيقول: « إن اليمن بلد غني جدًا بالإمكانيات ، وذو طبيعة متنوعة ، وينتج المحاصيل الزراعية المتنوعة . . وخصوبته تجعل من الممكن إنتاج محاصيل ثلاثة في السنة الواحدة في قطعة أرض واحدة » ويقول « إن أهم محاصيل اليمن الزراعية هو البن وهو دون شك أحسن بن في العالم . . وقد نزل رقم إنتاجه في هذا العهد الحاضر إلى الثلث بالنسبة لما كانت تنتجه اليمن في عهد العثمانيين » .

ولعل أهم ما أثر في الزراعة اليمنية هو إهمال السدود .

الصناعة : أما الصناعة فلا وجود لها . . فاليمن بالنسبة للصناعة والحرف لاتزال في مستوى ما وراء القرون الوسطى .

التجارة : التجارة ضئيلة جدًا ؛ لأن البلاد تعتمد أساسًا على الزراعة، ولأنها محرومة من خطوط المواصلات الحديثة.

والمبادلات التجارية منذ عشرات السنين تكاد تكون كلها في أيدى الإمام وسيوف الإسلام.

ففي اليمن تاجر هو نائب الإمام وممثله ، يحتكر التجارة كلها، فلا استيراد إلا له ولا تصدير إلا عن طريقه ، وهناك بعض التجار على الهامش في داخل المدن .

والنقل : هناك مجموعات من السيارات يملكها الإمام والجبلي تقوم بنقل البن والزبيب والحبوب والجلود إلى عدن . . والأشياء المصنوعة المستوردة من عدن إلى اليمن.

كذلك هناك باخرتان صغيرتان يملكها الجبلي بالاشتراك مع الإمام تصل إلى الحديدة وإلى المخاء . . وإلى الصليف .

وهناك عدد من طائرات النقل ، للإمام وللعائلة المالكة ، وكبار الموظفين والضيوف الأجانب .

المواني : كلها غير صالحة لرسو أي سفينة بل ولا حتى لقوارب الصيد الصغيرة . وتجارة اليمن كلها عن طريق عدن ـ تعز .

الثروة الطبيعية : اليمن من أغنى الأقطار العربية، فهي تجثم على ثروة معدنية متنوعة وافرة هامة . فالبترول موجود بكميات وافرة وقد تأكد وجوده في دائرة قطرها 25 كيلو متر بين الصليف واللحية .

وقد ذكر كثير من الجيولوجيين أن في اليمن الذهب والفضة والنحاس والرصاص ، ويبدو أن الشمال غني بالفحم الجيد ، كما أن الملح موجود بكميات هائلة في الصليف وهو أجود صنف في العالم .

والحديد، أكد الخبراء الألمان وجوده في صعدة في الشمال ، والمغنسيوم في تعز، والبوتاسيوم بمأرب ، وعلى العموم فما دامت البلاد محرومة من المواصلات فلا يمكن الاستفادة من هذه المعادن والثروات .

النقد : ليس في اليمن أي بنك مركزي أو محلي ، ولا وكالة لأي بنك أجنبي ، ولا أي مؤسسة مصرفية على الإطلاق .

والعملة الوحيدة المتداولة هي ريال ماريا تريزا النمسوي . ويبدو أن الأتراك هم الذين أوصلوه إلى اليمن في القرن السابع عشر .

والميزانية لاوجود لها ، فالمالية كلها في يد الإمام ، هو الذي يقرر ما يشاء؛ كيف يشاء .

ويقول القاضي العمري في حديث له إلى صحيفة روز اليوسف: إن ميزانية اليمن تقدر بخمسة عشر مليونا من الجنيهات ، أما ثروة الإمام فتصل إلى ثمانين مليون جنيه . .

لمحات خاطفة من حياة اليمن

* يمكن إرجاع كلمة « اليمن » إلى « يمين » بالنسبة لمكة وبمقابلة سوريا . . الشام . . الشمال .

* ويمكن إرجاعها أيضا إلى اليُمن . . أو السعادة ولعل هذا هو سر التسمية «العربية السعيدة » ومنذ بدء التاريخ والعربية السعيدة تشمل الجزء الجنوبي كله من جزيرة العرب .

* عرب الجنوب . . أصلهم من أخ لإسماعيل بن إبراهيم يسمى قحطان، ويطلق المؤرخون العرب اسم عاد على سكان « العربية السعيدة » قبل اثنين وعشرين قرنًا قبل ميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ .

* وبالرجوع إلى ما كتبه الجغرافيون اليونان ، تؤيده النصوص القديمة والمكتشفات والحفريات الحديثة يمكن التمييز بين أربعة عهود في العربية السعيدة قبل الإسلام :

* دولة معين من 1200 إلى 650 قبل الميلاد، وسلطان هذه الدولة يمتد إلى شواطئ البحر المتوسط ، وشواطئ الخليج الفارسي ، وبحر العرب . . وكانت دولة تجارة وسلام لا فتح و حرب .

* دولة سبأ ـ من 970 إلى 110 قبل الميلاد ، وازدهرت في نفس الوقت حضارة قتبان في الجنوب الغربي .

* دولة الحميريين الأولى من 115 قبل الميلاد إلى 300 بعد الميلاد ، وقد وسعت سلطانها ونفوذها في جنوب الجزيرة العربية كله .

ويرجعون إلى الحميريين تشييد سمرقند وهزيمة الهنود والبرابرة .



نصب القمر في معبد بلقيس (سبأ)

غزو الأحباش لليمن :

خَيّرَ ذو نواس آخر الملوك الحميريين ـ وكان قد أعتنق اليهودية ـ نصارى نجران بين اليهودية أو الموت . وقد أحرق الكثير منهم ، وهاجر آخرون منهم وشكوا أمرهم إلى قيصر الروم . وقد أرسل القيصر سفناً محملة بالرجال والسلاح إلى

النجاشي ملك الحبشة المسيحية، وطلب منه أن يوجه حملة انتقامية ضد ذي نواس.

خرجت حمير تقابل قوات الأحباش والرومان . . ولكنها وقد بدأ انهيارها، هزمت أمامهم . . ولما رأى ذو نواس ما حل بقومه وكان بالساحل توجه بفرسه إلى البحر واقتحمه حتى غرق.

* عاث الأحباش فساداً في اليمن . . وكانوا عاملاً من عوامل انهيار الحضارة والمدنية فيها . . وقد خرج الأمير الحميري سيف بن ذي يزن إلى كسرى ملك الفرس وطلب نصرته على الأحباش واسترجاع ملك حمير . . وقد أمده كسرى بجيش من المسجونين، ولما وصل إلى اليمن انضمت إليه القبائل القحطانية، وقد هزم الأحباش هزيمة منكرة . . وتوج سيف ملكًا على الحميريين، فأقبل عليه رؤساء العرب ووفودهم يهنئونه برجوع ملك آبائه . . وكان ممن وفد عليه لهذا الغرض عبد المطلب بن هاشم رئيس أهل مكة.

* ظل حكم الحميريين حتى سنة 525 ميلادية.

* كان ملوك الحميريين يلقبون بالتبابعة.

* وتحت حكم التبابعة يبرز معظم الأحداث الخالدة التي صنعت تاريخ اليمن.

* الثروات التي كان اليمنيون يحصلون عليها من مرور البهارات والتجارة بأرضهم، كانت تهيئ لهم مستوى من الحياة المترفة تفوق التصور.

* فلوقوع اليمن على ممر القوافل بين الهند والبحر الأبيض المتوسط؛ فقد تحكمت في التجارة التي جعلت منها دولة كبرى في ذلك الزمان . . وكان اليونان والرومان يعتقدون أن كل ما يحمله لهم العرب هو من نتاج أرضهم.

* كما ان العربية السعيدة كانت مشهورة بتجارة البخور . .

* والسد العظيم، سد مأرب الذي شيده السبئيون كان يوزع المياه للبلاد كلها فيوفر الخصوبة والنماء . . وقد قال وندل فليبس: « أكثر الأطلال شهرة في مأرب هو السد . . الذي يعتبر بحق إحدى عجائب العالم القديم، ولا يزال حتى اليوم ورغم أنه أهمل وترك أطلالا . . لا يزال محيراً للألباب . . وقد كان مخزنًا مركزيًا

لمجموعة المياه الساقطة من جبال اليمن . . ومن هناك يتدفق ليخلق آلاف آلاف الحقول الخضراء .

* لم يكن سد مأرب هو السد الوحيد . . فقد برع السبئيون في تنظيم الري وبناء السدود . . وقد قال شاعرهم :

وفي البقعة الخضراء من أرض يحصب

ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً

ويحصب منطقة واحدة من مناطق العربية السعيدة العديدة .

* ليس بغريب إذن أن تستيقظ الرغبة الجامحة لدى الرومان عدة مرات لفتح اليمن . . وأشهر حملاتهم تلك التي قادها الجنرال الروماني « أيوس جالوس » على رأس عشرة آلاف مقاتل . . وقد خرج من مصر في عام 24 قبل ميلاد المسيح ، للاستيلاء على العربية السعيدة . . ولكنه فشل كما فشلت الحملات الأخرى التالية .

* كان نظام الحكم في معين لا مركزيا ، فكل منطقة لها نظامها الخاص وفيها ممثل للحكومة المركزية ، ويسمى هذا الممثل « الكبير » وكان في كل مدينة وفي كل قرية مجلس يسمى «المسود» وهو يمثل أعيان كل قرية أو مدينة . ويعقد هذا المسود اجتماعاته في أيام السلم والحرب ، ويقوم بتقديم الاقتراحات والتوجيهات للحكومة المركزية .

* كان لحكومة معين علاقات تجارية مع مصر ، وهناك نقوش في الجيزة في قصر البنات مؤرخة من عهد بطليموس بن بطليموس، وتبين هذه النقوش أنه كانت هناك جالية معينية تقيم في مصر ، وكان لمعين مندوب في مصر لقبه كبير معين . . وهذه العلاقات تتمثل في إمداد معين لمصر بالبخور والمر واللبان للمعابد .



أسد من جنود العربية السعيدة

* وهناك نقوش تثبت أن حكومة معين بلغت أقصى شمال الجزيرة العربية حتى حدود فلسطين .

* لقد كانوا صناعًا مهرة . . وذوي عبقرية أصيلة في البناء والعمران، وتذهب بهم لا إلى بناء السدود العظيمة فحسب ، بل وإلى تقطيع المرمر الشفاف؛ إلى صحائف رقيقة لنوافذ بيوتهم ذات الطوابق المتعددة .

* في لغة الحميريين اسم « الجندي » أَسَد ، « والجنود » أُسُد .

* كان اليمنيون يعبدون الشمس والقمر ونجمة الصباح .

أشهر ملوك العربية السعيدة

* بلقيس . . ملكة سبأ التي ذكرها القرآن الكريم والإنجيل . . وهي التي عبرت الجزيرة على ظهور الجمال في أطول قافلة عرفها التاريخ القديم ، محملة بالهدايا الثمينة والذهب والبخور، فقد « أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . . » وهي التي أصدرت ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ ذلك الحكم الخالد ضد الملوك عندما قالت ﴿ . . **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾ .

وهي التي قال لها قومها « نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . . » .

*ومنهم الملك شداد بن عاد، وقد قال المؤرخ الكبير الهمداني «إن هذا الملك قد دوخ الأرض وإنه وصل بفتوحاته حتى سمرقند وأرمينيا » .

* ومنهم الملك ذو الأذعار ويقال له ناشر النعم أو ياسر النعم . . وقال ابن خلدون « إن هذا الملك هو الذي غزا أفريقيا ، وبلغ وادي الرمل ، وكتب على صنم من نحاس على شفير الوادي بالخط المسند : هذا الصنم لناشر النعم الحميري ، ليس وراءه مذهب فلا يتكلف ذلك أحد فيعطب» .

* ومنهم الملك شمر يرعش بن الملك ناشر النعم ، وهو تبع الأكبر ، وقد غزا هذا الملك إمبراطورية الصين وغيرها من الأقطار .

* وقالت كريستيان شاتو في صحيفة فرانس سوار الصادرة يوم الأحد 7 يناير 1956م .

«في القرن الثاني قبل الميلاد ، خرج الملك أصعب الذي جلس على عرش آبائه المحاربين على رأس ألف راية ، تحت كل راية ألف محارب ، واخترق بلاد فارس والتركستان ، ووصل إلى سور الصين العظيم ، واخترق إمبراطورية السماء ، ثم انثنى نحو بلاد التتار الشرقية وقفل نحو الهند» .

وبعد غياب سبع سنوات عاد إلى عاصمة ملكه في العربية السعيدة مزهواً بالمجد والانتصار مثقلاً بالكنوز والثراء . .

انهيار العربية السعيدة

* قال المؤرخ الكبير فيليب حتى : « وباكتشاف أثر الرياح الموسمية دقت البواخر الرومانية ـ التي بدأت تعبر المحيط الهندي ـ دقة الحزن بالنسبة لرخاء العربية السعيدة» فلم تعد اليمن محتكرة للتجارة ولم تعد الممر الوحيد للقوافل بين الشرق والغرب . . ؟

وهناك عامل آخر : هو تصدع سد مأرب وتشققه للمرة الأولى في عام 120 بعد الميلاد ، وقد فاضت المياه على ما أمامه من القرى والحقول والوديان فأتلفتها ، وكان من نتيجة ذلك هجرة الأزد المشهورة ، وتفرقهم في البلدان نزولا على رأي رئيسهم عمرو بن عامر حيث خرج هو وعشائره ، يرتادون لهم مواضع صالحة لسكناهم ، وتقوم مزروعاتها بحاجاتهم ، وحاجة مواشيهم من إبل وبقر وأغنام وخيول . . في كل مكان حتى ضرب المثل بتفرقهم ، فيقال « تفرقوا أيدى سبأ » .

* فقد نزل ثعلبة بن عمرو . . أرض الحجاز ، وسكن المدينة ومن أبنائه الأوس والخزرج .

* ونزل حارثة بن عمرو . . الحرم المكي وأجلى منه سكانه من جرهم .

* وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فحط رحاله فيها . . وجفنة هذا هو أبو الملوك الغساسنة .

* كما سكنت قبيلة لخم بن عدي بالحيرة ، وهم من كهلان ، ومنهم نصر بر ربيعة ، أبو الملوك المناذرة .

* دخل اليمنيون الإسلام دون قتال ، وعندما بعث الإمام علي كرم اللّه وجهه إلى الرسول عليه السلام يبلغه إسلام أهل اليمن ، سجد الرسول شكرًا للّه وقال : اللّه أكبر . . جاءكم أهل اليمن . . أرق قلوبًا ، وألين أفئدة . . الإيمان يمان ، والحكمة يمانية .

* وفي كل الأقطار التي هاجر إليها اليمنيون ، نقلوا إليها ـ كما يقول جان جاك بريبي ـ أرفع درجات الثقافة التي ورثوها عن آبائهم .

* أما الجنرال بريموند فيقول : « . . ومما يجب الاهتمام به هو الدور الكبير الذي لعبه اليمنيون الذين نقلوا العربية إلى سورية وإلى بلاد فارس قبل الإسلام . . ويزيد الجنرال بريموند قائلاً : إن تاريخ الشرق الأوسط كله قد غيره اليمنيون . . من أرض الغساسنة» .

اليمن منذ الإسلام

* وقد ساهم اليمنيون في الفتوحات الإسلامية مساهمة فعالة في عهد الخلفاء الراشدين وعهد بني أمية ، وعهد بني العباس .

* فقد وصل إلى المدينة في عهد أبي بكر في يوم واحد ، واحد وعشرون ألفا من اليمنيين أرسل نصفهم إلى سورية وهم من قبيلة عك ومن قبيلة حمير . ونصفهم الثاني إلى العراق وهم من قبيلة همدان ومذحج .

* سميت بعض قلاع الأندلس بأسماء اليمنيين ومن ذلك : قاعة همدان بالقرب من مدينة غرناطة ، قلعة خولان بالقرب من مدينة أشبيلية ، وقلعة يحصب ، وغيرها من القلاع والحصون .

* بلغ خراج اليمن في عهد هارون الرشيد ثمانمائة وسبعون ألف دينار سوى الثياب .

* في عهد الخلفاء كانت اليمن مقسمة إلى ثلاثة أقاليم : صنعاء، الجند ، حضرموت . وقد ظلت حضرموت تابعة للحكام في اليمن حوالي 450 سنة ، من الهجرة إلى 1087 .

* في القرن العاشر . . انحلت الخلافة ، وكانت اليمن أول الدول التي انسلخت عن الخلافة ، وتقسمت هي إلى إمارات عديدة تتنافس وتتصارع من أجل السيطرة.

* بين القرن العاشر الميلادي ، والقرن السادس عشر ، تحطمت آمال الغزاة الأجانب من البرتغاليين والهولنديين والإنجليز والأتراك أمام مقاومة المواطنين الشرسة العنيفة .

* ولكن الأتراك مع ذلك تمكنوا ـ باسم الدين ـ أن يسيطروا على اليمن في القرن السادس عشر .

* كانت اليمن في هذا العهد قسمين : اليمن المستقلة حاليًا ومعها جزء كبير بما يطلق عليه الاستعمار اليوم محمية عدن الغربية .

وحضرموت وكانت ممتدة حتى عمان .

* كانت الأجزاء اليمنية التي تكون ما يطلق عليه الاستعمار اليوم محمية عدن الغربية يحكمها حكام وشيوخ هم على صلة باليمن الأم ، حتى انفصلت عنها كوحدات مستقلة .

* سلطان لحج قطع صلته بالإمام في سنة 1728 والتحق بعدن ، وأصبح مستقلاً في تحالف مع القبائل المجاورة .

* في سنة 1838م احتل الإنجليز عدن ، وعقدوا معاهدة مع سلطان لحج ، واشترط فيها السلطان على حكومة بريطانيا أن تدفع المساعدات التي كان يقدمها هو إلى رؤساء قبائل الفضلي ويافع والحواشب والأميري حتى يضمن حسن نواياهم . . وكان هذا بداية المعاهدات والاتفاقيات مع رؤساء القبائل التي وضعت الأساس لسيطرة الإنجليز .

*عندما عاد الأتراك مرة ثانية إلى اليمن في سنة 1872م طالبوا نظريًا بجنوب

الجزيرة كلها ، ولكنهم عمليّا قبلوا وجود المعاهدات الموقعة مع ما سماه الاستعمار بالمحميات التسع بين 1839 و 1904م .

* وقعت عدة اتفاقيات حماية مع رؤساء السواحل الممتدة حتى حضرموت وسلطنة قشن وسقطرة ، وفيما بعد وقعت اتفاقيات إضافية مع رؤساء الداخل ،

* كل هذه الاتفاقيات أو المعاهدات أو معظمها على الأقل استعمل الإنجليز للحصول عليها وسائل الاحتيال والتزوير والغش، فقد كان ـ مثلاً ـ الضباط الإنجليز يقدمون لبعض المشايخ هدايا من الملكة الإنجليزية أو الملك ويطلبون منه أن يوقع وصلاً باستلامها، فيبصم عليها هذا الشيخ . . وإذا هي معاهدة تكبله وتكبل بلاده لعشرات السنين . .

* جزيرة سقطرة احتلتها شركة الهند الشرقية في سنة 1834م، ووضعتها تحت الحماية الإنجليزية .

الأدارسة في اليمن

جاء أحمد الإدريس من المغرب الأقصى إلى صبيا من بلاد تهامة اليمن ، وأقام بها حتى توفي سنة 1253هـ، وكانت له سيادة روحية قديمة .

ومن أولاده محمد الإدريس الذي تعلم بالأزهر في مصر، وبدأ يهتم بالأمور السياسية في سنة 1327هـ، وخدع العثمانيين وأظهر الانتماء إليهم ، ولكنه كان يدبر في الخفاء للقضاء على الأتراك. وفي سنة1328 هـ حاصر أبها ، فأرسلت الدولة العثمانية شريف مكة الذي فك الحصار ، واعتصم الإدريس بجبال فيفا .

وفي سنة 1329هـ أعلنت إيطاليا الحرب على العثمانيين ، واحتلت طرابلس الغرب، ثم اتجهت إلى البحر الأحمر ، وحاصرت «ولاية اليمن » ، أطلقت مدافعها على الموانى ، ووقف الأسطول الإيطالى أمام جيزان . وقد نزل الإدريسي إلى صبيا ، واتصل بإيطاليا، وأبدى استعداده لمعاونتها ، فمدته بالسلاح . . واستأنف هو الحرب مع الأتراك .

وقد اشتد غضبه عندما عقد الإمام يحيى الصلح مع الأتراك ، فأرسل جنوده لاحتلال بعض المناطق التابعة للإمام، فأرسل الإمام والوالي التركي محمود نديم وفداً يمثلهما لعرض النصيحة على الإدريسي حتى ينفصل عن الإيطاليين، ولكن دون جدوى . . فبدأت الحرب بين الإمام والإدريسي في حجور ، وخولان الشام ، ورازح وغيرها . . واستمرت الحرب حتى مات الإدريسي سنة 1341هـ؛ فشمل نفوذ الإمام البلاد كلها .

* كانت اليمن مقبرة العثمانيين . . وكانت جبال اليمن تبتلع الحملات العثمانية الواحدة تلو الأخرى . . فلم يقر لهم قرار بل ظلت البلاد تحاربهم وتطاردهم .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى استسلم الأتراك باليمن . وخرجوا وسلموا البلاد إلى الإمام يحيى سنة 1337هـ الموافق 1919م الذي تمكن بمعاونة السيد عبدالله الوزير والأمير علي الوزير وغيرهما ، من تأسيس الدولة ، وبسط نفوذها على سائر القبائل والمناطق .

ولكنه توقف هنا ، وعجز عن تطويرها ، والعمل على استفادتها من نعمة الاستقلال والاستقرار .

عهد الاستقلال

تولى الحكم في اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، يعاونه أولاده الذين حمل كل واحد منهم لقب سيف الإسلام !

* بدأ عهده بالقضاء على الشخصيات اليمنية الكبيرة حتى يخلوا له الجو . . واستخدم السم والقتل غيلة وغدراً . . والسجن الرهيب .

* ظل أكثر من ثلثي البلاد تحت السيطرة الاستعمارية الإنجليزية .

* وقع مع إنجلترا معاهدة 1934م التي تقضي ببقاء الأوضاع كما هي لمدة أربعين سنة ؛ أي ببقاء الاستعمار في أرض اليمن أربعين عاماً قابلة للتجديد .

* انكمشت اليمن في عهده وانعزلت عن الكون كله ، فبعدت عن التأثر بالحضارة والتأثير فيها ، وحرمت من مدنية هذا القرن العشرين .

* حول مـدرسة الصنائع في صنعـاء التي بناها الأتراك إلى سجن معـروف إلى اليوم بسجن الصنائع .

*حول المستشفى الذي كان يعالج فيه سكان صنعاء إلى قصر له .

* تميـز حكـم هذا الإمـام بالجـور والظلم ، وكـان مـستـبـداً مـتـحـجـراً ، عـدواً للحضـارة، فلم تتقدم اليمن خطوة واحدة ، بل تدهورت وضعفت وزادت حالهـا سوءاً .

* يعتبر عهـده أسوأ عهـد عرفته اليمن في تاريخهـا كله . . فلم يكن للبلاد جهاز إداري ، ولا وزارات ، ولا إدارات ولا مـصـالح ، ولا مكاتب للمـوظفين . . ولا ميزانية .

* ظل يسلط القبـائل بعـضهـا على بعض ، فيكلف هذه القـبيلة بقتـال تلك حتى يفنيها كلها ويتخلص من كل مقاومة أو معارضة .



جيش اليمن اليوم

* ظل الجيش مجموعة من القبائل . . فلم يوفر له السلاح ولا التدريب الحديث، ولم يكن للجيش رتبًا معينة ، ولا مرتبا ، كما أن أفراد الجيش هم الذين يدبرون أمر معيشتهم ، فيجمعون الحطب ويطبخون ، رغم ضآلة مرتباتهم .

* لجأ إلي كل وسيلة لإضعاف الجيش وتحطيمه، لأنه يرى أن مهمة الجيش الوحيدة هي جمع الضرائب ، واحتلال القرى ، ومحاربة القبائل .

* ابتدع أقذر نظام عرفته البشرية وهو نظام الرهن الآدمي . . فقد جمع أبناء المشايخ وأبناء كبار رجال القبائل وأعيانها ووضعهم في سجونه ؛ ضمانًا لولاء آبائهم وخضوعهم، ويظل هؤلاء الأطفال معرضين للخطر ؛ إذا بدرت أي بادرة من آبائهم بمعارضة الإمام أو استنكار جرائمه .

ولا يزال أبناء القبائل في سجون صنعاء وتعز وحجة .

* لم يكن في اليمن في عهده المظلم سوى مطبعة واحدة خلفها الأتراك واستولى عليها .

* لم تنشأ في عهده صحيفة يمنية واحدة سوى « الإيمان » التي كان يحررها هو، يشرح فيها فضائله ومعجزاته . ولا تزال اليمن إلى اليوم محرومة من الصحافة ، بل إن الصحف العربية محرم دخولها وبيعها دائمًا .

* في اليمن كتاتيب ، فليس في اليمن مدارس ابتدائية ولا إعدادية ولا ثانوية .

* وقد قتله اليمنيون وأفرغوا في جسده خمسين رصاصة بعدد السنين التي ظلل فيها اليمن بحكمه البغيض ، وقبره في صنعاء مشهور مزار .

* قتل إذن الإمام يحيى في عام 1948م، وتشكلت بعده حكومة جديدة برئاسة السيد عبدالله الوزير، ونشر اليمنيون الأحرار الميثاق الوطني المقدس وأشرفت اليمن على عهد جديد .

* وكان الإمام أحمد قد تمكن من النجاة والفرار؛ فأخذ ينظم القبائل ويحرضها على النهب والسلب .

* فلم يمض شهر حتى تكالبت الظروف من الداخل والخارج وأسقطت الحكومة الجديدة، ونهبت صنعاء، وعادت البلاد إلى قبضة الزبانية من جديد .

* استعاد الإمام أحمد الملك عام 1948م وبدأه بسلسلة من المجازر، وكان يقتل من يشاء دون تحقيق أو محاكمة .

* ولأن الإمامة نظام فوضوي ، فقد بدأ الصراع بين سيوف الإسلام إخوة الإمام وابنه فيمن يخلف هذا الإمام .

* أيد الأحرار في هذا الصراع البدر ابن الإمام أحمد لأنه أبدى استعداده لتحقيق مطالب الشعب .

* في أبريل عام 1955م حوصر الإمام أحمد، وأرغم على التنازل لأخيه سيف الإسلام عبدالله .

* استعاد الإمام سلطته فأعدم أخاه سيف الإسلام عبدالله، وأخاه سيف الإسلام العباس، وشرد أخاه سيف الإسلام الحسن، وأعدم مع أخويه أكثر من سبعة عشر رجلاً من الضباط والمشايخ والعلماء .

* لا يدري أحد ما تخبئه الأيام .

الحكم الإمامي والاستعمار

إننا معشر العرب أمة واحدة، لا لأننا نفكر هذه الأيام في وضع الأسس لوحدتنا العربية، بل لأننا هكذا خلقنا في منطقتنا وفي تاريخنا وفي أحاسيسنا، وفي مصيرنا المشترك الذي تجلى في القتال، وإن الجبهة الاستعمارية تود من أعماق قلبها لو استطاعت أن تلغي وحدتنا وتقضي على هذه الحقيقة الأزلية، وتجاري منطق التجزئة. هذا المنطق السياسي الطارئ المفتعل الذي صنعته ظروف شاذة، بيد أن الجبهة الاستعمارية، لا تستطيع ذلك، بل ولا تستطيع أن تعاملنا منذ اليوم على أساس الأوضاع المجزأة المصطنعة، وذلك لأن المسألة بعد انبعاث الأمة العربية لم تعد مسألة كلام في كلام، بل لقد أصبحت معركة فعلية بيننا وبين الطامعين فينا مما يجعلهم في حالة عجز عن إخفاء شعورهم وإيمانهم بأننا أمة واحدة.

لقد اضطروا تحت ضغط المعركة القاهرة أن يصرحوا بأنهم يحاربوننا في القناة خوفًا على البترول، وجزعًا من ثورة الجزائر، وبهذا أعلنوا وحدتنا من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.

فلنأخذ هذا الدرس عنهم ولنضع مناهج حياتنا على أساس هذه الحقيقة الأزلية.

ولنكن حذرين وواقعيين، ولنثابر حتى نصل إلى ما وصلت إليه الأجهزة الاستعمارية من معرفة لكل جزء من أجزاء وطننا العربي.

إننا اليوم ندرك وبجلاء أن الاستعمار لا يحاربنا في القنال من أجل القناة نفسها، بل من أجل المناطق العربية التي تقع في قبضة الاقتصاد الاستعماري والشركات الاستعمارية، هذه المناطق التي ورثتها دول الاستعمار منذ عشرات السنين ووضعت أجهزة إدارية لمواصلة بحثها وفهمها، ومعرفة كل شيء يجري فيها،

وللدول الاستعمارية اليوم في هذه المناطق العربية التي يجهلها العرب مئات من الاختصاصيين في دراسة هذه الأجزاء العربية، التي لا نكاد نحن العرب نعرف عنها شيئًا. إننا داخلون مع الاستعمار في معركة طويلة مريرة، وليست معركتنا محصورة في ميدان واحد. . ولكنها في ميادين بعيدة المدى واسعة النطاق.

يجب أن نتوسع في فهمنا للوطن العربي ، وأن ندرس أجزاءه، المجهولة الغامضة التي نسرد أسماءها الآن ، فلا تحرك مشاعرنا ولا تثير اهتمامنا ، بينما هي الهدف الأكبر لهذه المعركة الدائرة الآن.

ماذا صنعنا من أجل عمان، ذلك الجزء الكبير الخطير في وطننا العربي الغالي. . ؟

ماذا عملنا من أجل مناطق الخليج العربي وإماراته وسلطاناته. . ؟

كم عدد الأبطال المغامرين الذين مكنتهم شجاعتهم ونزعتهم القومية العربية من زيارة هذه الإمارات، أو دراستها، أو توطيد الصلات بينها وبين أجزاء الوطن العربي الأخرى. . ؟

لماذا نحجم نحن الحكومات والهيئات والأفراد عن ارتياد هذه الربوع العربية المجفوة المهملة. . ؟

إن رواد الاستعمار الأوائل قبل عشرات السنين كانوا يغامرون بزيارة هذه المناطق ويجازفون بحياتهم في سبيل الارتباط بها ، وهم أجانب عنها، فاستطاعوا أن يحققوا للإمبراطوريات الاستعمارية تركة من العبيد والأجراء والجماهير الكادحة العارية الجائعة ، تكدح وتعمل من أجل توفير الرفاهية لشعوب الإمبراطوريات السعيدة؛ حتى ينبعث رجل مثل إيدن فيصيح بملء فيه (إن جمال عبد الناصر يهدد كل بيت في بريطانيا بالفقر والجوع . .).

ونحن كلنا نعلم أنه لا مصر ولا سورية ولا لبنان هي الأجزاء العربية التي يخشى الاستعمار أن تفلت من يده . . فقد أفلتت من قبل وتخلصت من قبضته، ولم يعد يحلم بأن يعتمد عليها في توفير الرفاهية لبلاده . . وإنما يخاف الاستعمار على الأجزاء المجفوة المهملة المنسية أن يتنبه إليها العرب وأن يذكروها، وأن يفطنوا إلى ما

تدره على الاستعمار ، وما تضمه في جوانبها من ثروات هائلة دفينة . . بعد أن انبعثوا انبعاثًا حقيقيًا بقيادة رجل عبقري يقال له جمال عبد الناصر . .

فلنحقق للاستعمار مخاوفه لأنها مخاوف حقيقية . . فالاستعمار لم يجزع ولم يستعر دمه المتبلد؛ إلا لأنه يعرف أننا نستطيع أن نصنع شيئًا كثيراً لهذه الأجزاء المهملة من بلادنا، وإننا نحن رغم تأخرنا وضعفنا سوف نكون في هذه المناطق العربية أقوى من الاستعمار وأقدر منه على التأثير، وأنفذ منه إلى أعماق الشعب العربي الذي يعيش هناك . . ولأننا سنصل وسنعمل لأننا وإياهم شعب واحد . .

لماذا لا نضع مناهج قومية واسعة النطاق لتنظيم رحلات وزيارات ودراسات لهذه المناطق العربية . . ؟

ولماذا لا نبث فيها دعوتنا القومية في الصحف والنشرات . . ؟ لماذا لا نخصص لها في إذاعاتنا برامج خاصة تستهدف بعث مشاعر شعبنا الذي يعيش في تلك الربوع القصية . . ؟ لماذا لا نمد أيدينا للطلائع الواعية من الأحرار في هذه الأجزاء . . ؟ لماذا . . ؟ ولماذا . . ؟

أسئلة كثيرة؛ تعجب وتدهش للإمكانيات الكثيرة التي نملكها ولا ننتفع بها ولا نفكر فيها .

اليمن

لم يكن إهمال العرب مقصوراً على المناطق الواقعة تحت سيطرة الاستعمار، بل إن هذا الإهمال يشمل المناطق التي لا تزال مستقلة، بل إننا لنرى الأجزاء العربية التي وقعت في يد الاستعمار لم تنلها يد المستعمرين إلا لأننا أهملناها من قبل، ولأن الاستعمار في البلاد العربية المتقدمة كان يوجهها توجيهًا إقليميًا شعوبيًا ، يحملنا على ألا نفكر إلا تفكيراً محليًا ضيقًا، وقد كانت نتيجة ذلك أن سقطت هذه الأجزاء الغالية من يدنا واحدة بعد الأخرى، حتى كانت النكبة الكبرى وضاعت فلسطين وعندئذ تنبه العرب وأدركوا الخطر الذي يحيط بهم . . ولم تكن نكبة فلسطين هي النكبة الأولى، بل إنما جاءت في أعقاب سلسلة من نكبات عربية

صامتة خرساء . . والفرق بين نكبتنا في الأجزاء الأخرى أن الشعب العربي في فلسطين كان شعبًا واعيًا حوله أجزاء الوطن العربي الواعية التي كانت محتكة به ومدركة لمأساته . . لكن المناطق المنكوبة البعيدة لم تكن تتمتع بمثل هذا الوضع، لذلك فقد مرت بها الكوارث والنكبات دون أن يشعر بها أحد أو يرثيها أو يذرف عليها دمعة . .

لقد أتى حين من الدهر على قضية فلسطين كانت فيه مشكلة سهلة الحل يسيرة العلاج ، ولكن العرب لم يكن عندهم من الإحساس القومي ما يدفعهم إلى التضحية في سبيل الحلول اليسيرة الرخيصة التي يطلب العون من أجلها أبناء فلسطين . . وجاء اليوم الذي يود العرب فيه لو افتدوا هذه الأرض المقدسة بكل ما عندهم من جيوش وأموال ، وبكل ما يملكون من إمكانيات . . إن هذا درس يجب ألاّ ننساه ، وألاّ نسمح للأحداث أن تسوقنا إلى نكبات تشبه نكبتنا في فلسطين . . وأن يكون عندنا من الوعي السياسي ما يجعلنا نعالج النكبة قبل أن تصبح نكبة . .

وها نحن الآن أبناء منطقة من المناطق العربية المهملة جئنا إلى البلاد العربية روادًا للشعب العربي ، نضع بين يديه مصير قطر عربي مستقل من أغلى الأقطار العربية على العرب . . ذلك هو القطر اليمني الذي عرف العرب وقرءوا عنه في كتب التاريخ والجغرافيا بأنه البلاد العربية السعيدة، وظلوا بهذه المعلومات الغامضة في قناعة صوفية عجيبة لا يطلبون شيئًا وراءها يزيدهم من المعرفة والإحاطة بمصير هذا الشعب وحياته وظروفه . .



الإمام وابنه البدر

استقلال اليمن

منذ أكثر من أربعين عامًا استقل جزء من اليمن بعد جهاد طويل مرير قام به الشعب ضد الاحتلال التركي ، وكلنا يعرف أن الاستقلال عند كل الشعوب وسيلة وليس غاية ، ورغم هذه الحقيقة البسيطة الواضحة فإن الرأي العام العربي ظل طوال هذه المدة يكتفي في علاقته باليمن بمجرد الاغتباط بأن اليمن بلد مستقل . . ورغم أن حكام اليمن ظلوا طوال أربعين عامًا قابعين في جنوب جزيرة العرب معتزلين بشعبهم عن الأمة العربية . . عزلة قاسية مريبة ، فإن مهمة العرب لم تزد على مجرد الاغتباط باستقلال اليمن ، ولم تتطور بتطور الوعي العربي ، والاتجاهات الحديثة نحو تفسير الاستقلال وفهمه .

لقد نشأت في البلاد العربية في مطلع القرن العشرين خرافة رائعة تفيض بسلسلة من الأخطاء والنظريات الساذجة . . تلك الخرافة هي أن العرب أصبحوا يعللون

كل النكبات في اليمن، وكل الجهل والفقر، وكل الإباحية والإرهاب، وكل عملية من عمليات الإبادة لعرب اليمن بأنها كلها محافظة على استقلال اليمن . . وخوفًا عليه من المستعمرين الطامعين ، وتعارف الرأي العام العربي على الاستسلام لهذه النظرية الساذجة الخطيرة . . وكأن الأمة العربية كلها قد أجمعت على إباحة الشعب العربي في اليمن لفرد واحد. أو لعائلة واحدة تنكل به وتطحنه طحنًا وتلغيه من دنيا العروبة بحجة أن اليمن دولة عربية مستقلة ، ويعجب اليمنيون ، ويتألمون ويستغيثون من العذاب الذي يعانونه . ويستنجدون شهامة الأمة العربية . . فلا يجدون إلا الرد التقليدي الذي سمعوه منذ أربعين سنة . . فاليمن مستقلة وحكام اليمن خائفون على استقلالها . . فلنمسك على هذا الجزء في البلاد العربية لأنه مستقل ، ولنصم أسماعنا عن كل نداء لهذه الملايين العربية التي تعيش فيه . . عجبًا . . لقد أصبح في البلاد العربية بلدان عربية مستقلة إذن فلماذا لا ينطبق عليها هذا المنطق السياسي الذي تفرضه على شعب اليمن . . ؟ لماذا كل هذه الصحف في البلاد العربية . . ؟ لماذا كل هذه المدارس . . ؟ لماذا كل هذه الإدارات . . ؟ لماذا كل هذه المنافع الإصلاحية . . لماذا هذه الأحزاب والهيئات والبرلمانات والوزارات . . ؟ لا شك أنها ليست من أجل الاستقلال لأن الاستقلال في هذه البلاد أصبح شيئًا واقعًا . . بل إنها في سبيل حياة الشعب العربي . . تلك الحياة التي هي الغاية للاستقلال ولولاها ما كان هناك مبرر للتضحية والاستماتة من أجل الاستقلال .

لماذا لا يفرض هذا المنطق العجيب على الأقطار العربية الأخرى . . ؟ لماذا لا يطلب من الشعب العربي في مصر وفي سوريا ولبنان أن يعلن العطلة الأبدية عن ممارسة أي عمل من أعمال الحياة، وأن يتنازل عن كل حق من حقوق الإنسان، وأن يعيش فقيرًا جاهلاً محرومًا مكبلاً بالأغلال والقيود، صابرًا خائفًا، راضيًا عن حكامه ما داموا حكامًا يحافظون على الاستقلال .

إننا كلنا ندرك أن معركة القناة انبعثت عن معركة السد العالي، ذلك المشروع الذي يستهدف سعادة الشعب العربي في مصر، ورفع مستواه الاجتماعي وخلق قوة حقيقية تبعث هذا الشعب وتجعل استقلاله حقيقيًا وتعطيه المناعة ضد أي خطر يهدد استقلاله ، ومن هنا نستنتج على البداهة أن الاستقلال ليس شيئًا حقيقيًا ثابتًا إذا لم يحصن نفسه بقوة الشعب اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وعسكريًا . .

ماذا صنع حكام اليمن من أجل المحافظة على الاستقلال؟

إن الخرافة السائدة في الرأي العام العربي القائلة بأن حكام اليمن يخافون على الاستقلال ويتصرفون في سياستهم على هذا الأساس . . هذه الخرافة لا تستطيع أن تقف أمام أية مناقشة . .

دعونا نستعرض هذه البديهيات :

حكام اليمن لم يبنوا مدرسة حديثة واحدة منذ أربعين عاما ؛ لأنهم يخافون من الاستعمار ، حكام اليمن لم يستقدموا لأربعة ملايين من البشر إلا ستة أو عشرة من الأطباء ؛ لأنهم يخافون من الاستعمار ، ولتأكيد هذا الخوف فإن الأطباء دائما من الطليان والإنجليز والفرنسيين ، ويندر جدًا أن يستقدموا طبيبا عربيا واحدا .

حكام اليمن لا يسمحون للشعب بإصدار جريدة ولا بناء مدرسة ولا مكتبة ولا استقدام آلة كاتبة ، ويحرمون على أبناء الشعب الاتصال بالبلاد العربية بأية وسيلة من الوسائل .

حكام اليمن يجيعون الجيش اليمني ويذلونه ، ويدعونه حافيا ، ويحملونه على جمع الحطب لنفسه ، يطبخ الطعام لنفسه ، ويعيش في أماكن لا تعيش فيها الحيوانات ، ويجعلونه عالة على الشعب ، يقتحم بيوتهم ، ويسلب منهم قوتهم ، لأنهم يخافون من الاستعمار .

حكام اليمن يتهربون من كل المشاريع ، فلا يقبلون أي اتفاقية ، ولا يقرون أي مشروع ، إلا إذا أخذوه حبرا على ورق . . لأنهم يخافون من الاستعمار . حكام اليمن تبذل الدول العربية لهم كل معونة في حقل التعليم والزارعة والطب والمالية والإدارة . . وتعرض عليهم قبول أساتذة عرب ، وينصحهم كل زعيم وكل هيئة وكل حكومة عربية مخلصة فيرفضون ذلك كله ولا يستجيبون لأي صرخة من صرخات الحياة ، ولا لأى مطلب من مطالب الشعب العربي في اليمن . . ذلك محافظة منهم على استقلال اليمن !! أليس كذلك؟ إن وجود خوف حقيقي من الاستعمار يقتضي من الحكومة الحذرة الخائفة . . أن تنتهج طريقين اثنين سلبيًا وإيجابيًا .

أما الطريق السلبي فهو أن تتجنب التورط في الارتباط مع الدول الأجنبية الاستعمارية ، وأما الطريق الإيجابى فهو أن تدعم استقلالها بأسباب القوة والمنعة ماديا ومعنويا .

فلنتساءل عن تصرف الحكومة اليمنية في الناحية السلبية :

إنها لم تحذر من الارتباط بالدول الاستعمارية لقد ارتبطت بإيطاليا في علاقات قوية ، حتى لقد كان موسوليني يعتبر اليمن الحبشة الثانية ، وكان وزراء الإمام يحيى يتقاضون مرتبات من إيطاليا بصورة ثابتة وعلنية وبمعرفة الإمام يحيى نفسه ، وحينما قامت الحرب السعودية الإمامية طلب الإمام يحيى من إيطاليا النزول في المخا ، ونزلت القوات الإيطالية فعلا بميناء المخا ، و قدمت لحاكم الميناء الشيخ محمد أحمد نعمان برقية الإمام يحيى التي تطلب منها النزول في هذه المدينة ، ولكن الشيخ نعمان رفض هذا الأمر ، وقال إن البلاد ملك للشعب لا للإمام .

وفيما يتعلق بصلة اليمن بالإنجليز نجد الإمام يحيى يتسلم بعد عهد الأتراك معظم المناطق التي يطلقون عليها المحميات اليمنية ، التي كان الأتراك يحكمونها ، حتى لقد كان الإنجليز لا يطمحون بالبقاء هناك ، بل إنهم كانوا يعترفون بشيء من حق اليمن في عدن في أن تعين قاضيا شرعيا يستمد سلطته من الإمام .

وقد وفد كثير من رجالات هذه المناطق وزعماء حضرموت وعلمائها يطلبون من الإمام أن يحكم بلادهم ويمد سلطته إلى هناك ، حيث كان الإنجليز عاجزين عن التوغل في تلك المناطق الشرسة الأبية . . ولكن الإمام يحيى كان يتنصل من ذلك تنصلاً غامضًا لم تعرف مبرراته ، إلا يوم انكشف فيما بعد أن الإمام كان قد تفاهم مع الإنجليز سرًا على أن يساعدوه على طرد الأدارسة من بعض مناطق تهامة في مقابل أن يطلق أيدي الإنجليز في المحميات .

ولقد تحقق هذا الاتفاق فامتد نفوذ الإنجليز إلى كثير من المناطق التي كانت تابعة لليمن ، واستحكم نفوذ الإنجليز في المناطق التي لم يكن لهم نفوذ يذكر .

إن الأتراك جلوا عن اليمن بما فيها معظم المناطق التي يسمونها اليوم المحميات . . ولما تسلمها الإمام يحيى سالم الإنجليز ، وترك لهم الأجزاء المحتلة ورفض نداء الشعب الذي كان مصممًا على الوحدة .

لقد جاء الإمام يحيى واليمن جزء منها محتل بيد الأتراك والجزء الآخر محتل بيد الإنجليز . . فحارب الأتراك حتى جلوا عند هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى . . ولكنه لم يحارب الإنجليز ، بل ولم يسمح للشعب اليمني في الأجزاء المحتلة أن ينضم إلى اليمن الأم . . وذهب إلى أبعد من ذلك ، فعقد معاهدة مع الإنجليز لأربعين سنة تقضي بوضع ثلثي اليمن في يد الإنجليز الذين يكونوا قد تمكنوا من التسلط على القبائل هناك ، وبسط سلطان حقيقي عليها ، فكانت هذه المعاهدة بمثابة الإذن بالاستعمار ، ومن هنا نعرف أن الإمام يحيى لم يكن متصلبًا مع الإنجليز ولا متعصبًا ضدهم ، بل لقد منحهم مناطق واسعة من اليمن بمحض اختياره ، ولو أن حكومة من الحكومات الوطنية تنازلت وسكتت عن جزء كبير من أرضها للاستعمار مقابل استقلال الجزء الآخر لجردها الناس من الوطنية ، وحكموا عليها بالخيانة والمروق .

ولقد عقد الإمام يحيى معاهدات عديدة مع دول أجنبية ، واستقدم الأطباء من هذه الدول . . ولكن فيما يتعلق بالدول العربية كان دائمًا منعزلاً حذرًا لا يقبل التعاون الحقيقي مع أية دولة عربية ، وإذا اضطر إلى نوع من التعاون فإنه لا يقبل إلا على أساس أنه حر في أن ينفذ أو لا ينفذ ، فكان كل اتصال له بالعرب وكل اتفاق معهم يبقى حبرًا على ورق .

تلك هي الطريقة السلبية التي سلكها الإمام يحيى في سبيل الاستقلال ، وهي طبعًا لا تصدق دليلاً على تزمت حكام اليمن ، وتصلبهم ضد النفوذ الأجنبي . . وأما الطريق الإيجابي الذي كان يجب أن تسلكه حكومة اليمن لتدعيم استقلالها فهي أهم من الناحية السلبية وأكثر دلالة على نفسية الحكام . إنه من الممكن أن يقول الناس إن حكام اليمن لم يرتبطوا بالدول الأجنبية خوفًا على الاستقلال . ولم يبنوا إلا ثلاث مستشفيات صغيرة . . . ولم يبنوا مدرسة ابتدائية واحدة خلال أربعين عامًا خوفًا على الاستقلال . . . ولم يسمحوا لشعبهم بإصدار صحيفة واحدة ولا استقدام مطبعة ولا آلة كاتبة ولا تأسيس مكتبة أو ناد أو فندق أو مصنع أو شركة ، ولم يفكروا في بناء سد واحد من عشرات السدود التي كانت قائمة في اليمن قبل آلاف السنين ، ولم يصلحوا الجيش ولم يعلنوا ميزانية الدولة منذ أربعين سنة ، ولم

يؤلفوا وزارة شعبية ، بل ولم ينظموا إدارة واحدة حديثة ولم يُعَبِّدوا طريقًا ، ولم يحاكموا فردًا واحدًا من مئات الأفراد الذين قتلوهم بالسيوف والسجون، ولم يعنوا أي عناية بصحة الشعب أو غذائه أو ثروته أو زراعته أو تعليمه، فلا يزال كل شيء في اليمن كما كان قبل ألف سنة، وليس في البلاد أي أثر للحكومة إلا القصور والضياع التي كان يملكها الأمراء والسيوف .

ولا يمكن أن يقال بلغة المنطق إن هذه الأوضاع البالغة السوء إنما كانت نتيجة لخوف الحكام على استقلال اليمن .

إن أكثر من نصف مليون يمني هاجروا من مزارعهم وقراهم خوفًا من بطش الحكام. . . وذهبوا يعيشون في أقطار مستعمرة . ويعانون المذلة والهوان والتشرد في نكبة لا تقل عن نكبة النازحين الفلسطينيين . .

فهل نستطيع أن نفسر تشريد الشعب بأنه جزء من السياسة الاستقلالية التي ينتهجها حكام اليمن . . . ؟

إن تحطيم الشعب وإذلاله وإفقاره وتجهيله وتقطيع أوصاله وحرمانه من كل حق من حقوق الحياة؛ لا يمكن أن يكون تفسيرًا للخوف من الاستعمار . فالاستعمار لا يمهد له شيء كما يمهد له هذا الحكم الرجعي المدمر .

إن الحالة السيئة في اليمن أصبحت هي الدعامة الأولى للاستعمار في جنوب جزيرة العرب ، بل وفي الخليج العربي . . إن الإنجليز في هذه المنطقة يشعرون بأن اليمن منطقة أشبه بالمناطق المعزولة المحرومة المنزوعة السلاح . . . والإنجليز بذلك يستفيدون من هذا الوضع، ويطمئنون على نفوذهم، ويمارسون في هذه المنطقة استعمارًا فذًا لا يحتاجون في حراسته إلى جيوش ولا أساطيل؛ لأنهم يعتمدون على وجود الحكم الإمامي الرجعي المدمر الذي يجعل أبناء الشعب المستقل يلوذون إلى المناطق المحتلة بل ، إن الأمر لأدهى من ذلك وأمر، فقبائل المحميات الحرة الأبية والشباب الحر كل هؤلاء يحسون بروح القومية والتحرر تجري في أعراقهم ويودون أن يساهموا بالنصيب الأوفر في معركة الحرية ولكنهم لا يجدون سندًا عربيًا إلى جوارهم . . بل يجدون نكبة مروعة خرساء تحل بشعب اليمن وتجعل

الإنجليز يباهون بالحكم الاستعماري ، ويفخرون به عند المقارنة بينه وبين الحكم في اليمن المستقلة ، مما يفت في عزائم المناضلين الأحرار . . وبدلاً من أن يصبح الحكم الاستعماري مهربًا للجنود اليمنيين والعمال والفلاحين والتجار ، وبدلاً من أن يخاف الاستعمار .



آل الحسيني .. شقيقان من أبطال القبائل ، في ساحة الإعدام

من انضمام المناطق المحتلة إلى المناطق المستقلة ، أصبحنا نخاف نحن اليمنيين المستقلين أن ينهار الجزء المستقل فيلاقي مصير القطاع المحتل .

لقد اتصل الأحرار بعدد من سلاطين الجزء المحتل وذوي النفوذ ، واستنكروا رضوخهم للحكم الاستعماري في عصر التحرر والقومية ، فكانوا يردون ردّاً ساخراً ولاذعًا قائلين :

أتريدون مزيداً من الرءوس لتذبحوها ، أم تريدون أن نملأ لكم السجون بعد فراغها ، أم تريدون أن تضمونا إلى آلاف المشردين اليمنيين في أنحاء العالم . . أم تريدون أن تدمروا المدارس القليلة التي استطعنا أن نبنيها في بلادنا . أم تريدون لنا مصيراً كمصير القردعي والرصاص وقبيلة الزرانيق ورؤساء الحجرية وتعز والعدين وآل نعمان وآل أبو راس وغيرهم و غيرهم . .

لو كان في اليمن حكومة حرة لاستطعنا أن نناضل ونكافح وأن نكون أحراراً . . . تلك نظرة مؤلمة قاسية . فالأحرار هناك يجدون أنفسهم بين نارين ، بين الحكم الاستعماري الغاشم وبين حكم القرون الوسطى وعصر الغاب .

والأخطر من ذلك أن الإنجليز يتخذون من هذه الأوضاع مادة شيطانية ، يسممون بها الشعور القومي وينفرون الشعب في اليمن المحتلة لا من حكام اليمن فحسب بل من العرب جميعًا . إنهم يقنعون الأمراء والسلاطين بأن السياسة العربية سياسة عائلات تتآمر ضد الشعوب . . . ويقولون هاهي اليمن . . وأنتم تعرفون ما تعانيه ؛ ماذا صنعت البلاد العربية من أجل شعبها . . ؟

وهكذا نجد الأمراء في المناطق المنسية المجفوة ، وإنهم ليصرحون بأنهم لو وجدوا عونًا أو عناية أو وجدوا دولة في اليمن ؛ لكان الوضع يختلف عما هو عليه الآن اختلافا شديداً .

ولقد اعترف أمين عام الجامعة العربية الذي زار بعض هذه المناطق بأن إصلاح الأحوال في اليمن هو الطريق الناجح لتحرير الأجزاء المحتلة .

ونود بهذه المناسبة أن نقرر حقيقة لا سبيل إلى إغفالها ، وهي أن روح الثورة في مصر وما تبثه في دماء العروبة من حياة ، كان لها الفضل الأكبر لهذه السنين الأخيرة في تحطيم المشاريع الاستعمارية التي وضعها الإنجليز .

لقد أعادت إيمان العرب بأنفسهم وصنعت مثلاً أعلى من الحكام الأحرار ، لا يستطيع الاستعمار أن يطعن فيهم أو ينال من مكانتهم .

والحق أنه لولا ثورة مصر ومثلها العليا ورسالتها القومية التي تبثها في صوت العرب ، لكان الاستعمار في اليمن المحتلة قد دخل في أخطر مراحله ، ولربما كان استقلال اليمن كلها قد أصبح خبراً من الأخبار .

وهناك حقيقة أخرى هي أننا نعترف الآن ولا نذيع سرّاً إذا قلنا أن اليمن العربي كله سواءً منه المحتل أو المستقل إنما يعيش اليوم بخيط واحد من الأمل وهو الأمل في الروح القومية التي انطلقت في مصر وسوريا والأردن ، فإذا تخلت عنا هذه الروح أو انطفأت لا سمح الله فسوف تسقط اليمن كلها في هاوية لا يعرف مداها أحد .

والجزء المستقل من اليمن ليس كما يظن البعض نقطة انطلاق للأحرار ضد الاستعمار . ففي عدن شبان كثيرون يعانون الاضطهاد، ولكنهم لا يفكرون في الالتجاء إلى اليمن المستقلة بأي حال من الأحوال؛ ليأسهم من الحرية فيها بأي شكل من الأشكال حتى حرية الدعاية المنظمة ضد الإنجليز، بل إن الأمر أشد عسراً وغرابة من هذا. لقد نفى أحد الشبان عن عدن وهو من رعايا الإمام، وقد اختار عندما نفاه الإنجليز أن يطلب منهم ترحيله إلى أفريقيا الشرقية بدلاً من اليمن، رغم أنه من أنصار الإمام ومن رعاياه . وأعجب من هذا كله سلطان لحج السابق فضل عبد الكريم الذي هرب إلى اليمن؛ ولكنه لم يجد أي مجال يشجعه على مجرد البقاء في اليمن فانتقل إلى المملكة العربية السعودية لاجئًا سياسيًا.

تلك هي سياسة الحكومة المتوكلية ومواقفها من قضايا الوطن ، وتلك هي خرافة الخوف على استقلال اليمن ، والتزمت المزعوم في العلاقات الدولية سواءً في عهد الإمام يحيى أو في عهد الإمام أحمد .

إنها حكومة أضاعت ثلثي اليمن بمحض اختيارها وسلمت شعبنا للاستعمار وخذلت الأحرار المناضلين ، ووقفت من أمراء المنطقة وسلاطينها مواقف منفرة حملتهم على الرضوخ للإنجليز، ثم إنها منذ هادنت الأتراك لم تفكر في الوقوف بوجه الإنجليز في معركة واحدة كما فعلت ضد الأتراك . كما أنها لم تعد نفسها ولا جيشها ولا شعبها الإعداد الذي يحوط اليمن من الأخطار التي قد تتعرض لها في يوم من الأيام ، بل بالعكس حطمت الشعب وقطعت أوصاله وفرضت عليه الفقر والجهل والسجون والمرض حتى أصبح لقمة سائغة للاستعمار .

إن الحكومة اليمنية ملزمة منذ زمن طويل بتحسين حالة الجيش اليمني وتدريبه وتسليحه؛ حتى يستطيع أن ينهض بالأعباء الملقاة على عاتقه ، وكان في إمكانها الاستعانة بالدول العربية في هذا المجال، ونحن نعلم أنه ما من دولة عربية ترفض أن تبعث إلى اليمن أفضل ضباطها لتدريب الجيش اليمني .

إن الإمام يحيى تسلم من الأتراك الجزء المستقل من اليمن، وهو مستقل استقلالا تامًا . وإذن لا يمكن أن يقال بأنه قام بأي جهد من أجل الاستقلال؛ لأن الاستقلال

كان أمراً واقعًا ، وإنما توزن مواقفه الاستقلالية إزاء الإنجليز في الأجزاء اليمنية المحتلة وإزاء الدول الأجنبية بعد ذلك .

لقد ضاع ثلثي اليمن في غير معركة وفي غير حرب ، وظل أربعين عامًا يحكم الجزء المستقل فلم يعد الجيش ولم يحضر البلاد لمعركة فاصلة لتحرير الجزء المحتل ، وهو بهذا يحمل مسئولية تاريخية ثقيلة لا تكاد تحمل مثلها دولة عربية أخرى .

ثم انغمس في التعاون مع إيطاليا إلى حد السماح لوزرائه بتقاضي المرتبات من موسوليني ، وإصدار الأوامر للقوات الإيطالية بالنزول إلى ميناء المخا ، وكان يعتمد في استقدام الأطباء والخبراء على الدول الأجنبية دون العرب .

وفي آخر أيامه في عام 1948 استقدم بعثة أمريكية للتنقيب عن البترول في سائر أنحاء اليمن ، حتى منعه الشعب وقامت المعارضة في وجهه ، فعدل عن ذلك .
وجاء ابنه الإمام أحمد وأعلن في أول الأمر أن الشركات الأجنبية خطر على الاستقلال ، وأنها استعمار مقنع ، وبعد حين قصير بعث أخاه الحسن إلى أوربا ، فعقد معاهدة سرية مع شركة ألمانية للتنقيب في اليمن ، رغم المعارضة الشديدة وتدخل زعماء العرب وتحذيرهم له .

وأخيراً جاءت الشركة الأمريكية الأخيرة فمنحها الإمام أحمد امتيازا واسعًا للتنقيب عن جميع المعادن في معظم أنحاء اليمن ، وقد أقدم على هذا رغم تحذير الجامعة العربية والأحرار اليمنيين ، ورغم علمه بأنها شركة صهيونية يتزعمها صهيونيون عالميون .

سياسة الخداع

وبعد ؛ فإن حكام اليمن لم يجيدوا شيئًا كما أجادوا الضحك على الرأي العام العربي والتلاعب بمشاعره ومخادعته وتضليله ، ولم يحسنوا شيئًا كما أحسنوا التمثيل وإجادة أدوار البطولة الزائفة الكاذبة .

وهذه أضواء تكشف حقيقتهم هذه :

لقد جاءت ثورة مصر ، وكانت صدمة عنيفة لهذه الفئة أن ترى فاروق يخرج طريدًا مهزومًا أمام الأحرار . . وأن تشهد مصرع الملكية وقيام الجمهورية . . جمهورية الشعب التي تزيح عنه ظلم السنين . رأوا كل هذا ، ورأوا أن القاهرة قد أصبحت مصدر إشعاع للوطن العربي كله . . فلم يقفوا ضد التيار . . وإنما تمالكوا أعصابهم وأخفوا حقيقتهم . . وتوافدوا على القاهرة أميرًا بعد أمير . . يصطنعون الابتسام . . ويتكلفون الرضاء . . ويلتقون برجال الثورة . . وبرجال الصحافة . هنا وهناك ويتحدث كل أمير في همس عن آماله وأحلامه وعن عطفه على الشعب وثورته على الأوضاع الفاسدة وهو الذي صنعها هو وعائلته . .

وظن الرجال الذين لم يتعودوا الكذب ، ولم يألفوا النفاق أن أمراء اليمن قد يكونون صادقين وأنه يجب أن تمد لهم حبال الصبر . . والمسألة مسألة وقت . . ومبالغة في الخديعة قَبِلَ الإمام أحمد أن توفد مصر بعثة عسكرية من خيرة ضباطها لتدريب الجيش اليمني وتنظيمه . . وخرجت البعثة ومعها كميات من الملابس العسكرية والأسلحة الحديثة والبرامج والمشروعات لتكوين جيش يمني حديث . ووصلت البعثة ويبدأ صراع مصطنع . . أين تقيم البعثة . . في صنعاء . . في تعز . . في الحديدة . . ويظل الأمر هكذا ، والضباط المصريون في دار الضيافة في تعز لا يعملون شيئًا . . حتى مر عام . وعادت البعثة إلى القاهرة . . وظهر حكامنا على حقيقتهم . .

ولم يمر وقت طويل حتى سارعوا أو بدءوا بلعبة جديدة يخدعون بها الرأي العام العربي . . فانضموا إلى ميثاق جدة . . ووصل الإمام أحمد بنفسه إلى جدة ووقع مع الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود الميثاق ، وجعل جيشه تحت قيادة اللواء عبد الحكيم عامر . . ورضي الرأي العام العربي واستبشر ، وكان اليمنيون وحدهم هم الذين يعرفون الحقيقة .

وقد نشر الأحرار بيانًا في ذلك الحين أعلنوا فيه تأييدهم المطلق للميثاق ، ولفتوا النظر إلى أنه من جانب حكام اليمن سيظل حبرًا على الورق .

وتحررت السياسة العربية من الخضوع للغرب ومدت يدها للمعسكر الشرقي . فتقدم الإمام الصفوف وأرسل ابنه البدر لزيارة الاتحاد السوفيتي . .

وبكل بساطة . . بل لعله استغرب الضجة التي أحدثها خبر احتمال زيارة الرئيس جمال عبد الناصر لروسيا . . واستغرب أن يعلق الناس هذه الأهمية على مجرد زيارة . . ! أجل إن الأمر لا يعدوا في نظر حكام اليمن أن يكون زيارة . . فسحة . . . طائرة روسية تحمل الأمير إلى موسكو . . ويتجول في أنحاء الاتحاد السوفيتي وقبل عودته يوصي على كمية من السكر الروسي والسلام عليكم . . ! والناس هنا في الوطن العربي . . ينظرون في إعجاب إلى هذه الزيارة . . وينتظرون نتائجها . . ويسترسلون في الأحلام . واليمنيون وحدهم هم الذين يعرفون الحقيقة .

وعقدت مصر صفقة الأسلحة . . ذلك الحدث التاريخي الذي قلب الأوضاع في الشرق الأوسط رأسًا على عقب . . ونظر حكام اليمن إلى بعض وقالوا : بسيطة . هيا نشتري شوية أسلحة من تشيكوسلوفاكيا ؛ حتى ننافس جمال عبد الناصر ، وينظر إلينا الرأي العام العربي كما ينظر إلى جمال . . وشاع أمر الصفقة وذاع . . وظل الناس ينتظرون . . وذات يوم وصلت باخرة إلى ميناء الحديدة . . وكان الجنود على الميناء ينتظرون الصفقة . . ونزل من الباخرة شيء . . حمل إلى دار الضيافة . . وتوجه الجنود إلى ضابطهم يعاتبونه لأنه أخفى عنهم أن الصفقة ستصل إلى الحديدة ذلك اليوم . . فأبدى الضابط دهشته واستغرابه وأقسم لجنوده أنه لا يعرف شيئًا عن هذه الصفقة ، فقال له الجنود لقد وصلت الصفقة فعلاً ، وهي هناك في دار الضيافة ، اذهب . . واستقبلها . . !

فخرج الضابط الشاب مهرولاً ووصل دار الضيافة وأنفاسه تتصاعد ، وصعد إلى الدور العلوي حيث وجد عمال دار الضيافة ملتفين حول . . حول ماذا . . ؟ حول فتاة رائعة الحسن والجمال ، تتكلم الإنكليزية بطلاقة أحضرت من تشيكوسلوفاكيا .

ونزل الضابط فوجد جنوده أمام باب دار الضيافة يضحكون . . فابتدره أحدهم قائلاً : متى يبدأ التدريب على الأسلحة الجديدة ، يا حضرة الضابط؟ وقد قالوا فيما بعد إن باخرة قد وصلت فعلاً إلى ميناء الصليف تحمل كمية من الأسلحة . . ووصلت الباخرة وظلت بعيدة عن الشاطئ تحاول إنزال السلاح . . ونزل السلاح

بعد جهود شاقة . . وكان الرجال الذين أحضروا السلاح ينظرون من على الباخرة إلى العمال اليمنيين وهم يسحبونه سحبًا بالحبال ويجرونه بين الرمال . . وكانت المشكلة التي واجهت المسئولين اليمنيين هي أنه ليس لديهم سلاح للمهندسين، ولا سلاح صيانة، ولا مخازن، ولا عربات نقل، بل ولا رجال يستطيعون أن يشرفوا بمعرفة على نقله وحفظه وتكديسه. وكان اليمنيون وحدهم هم الذين يعرفون الحقيقة.

وجاء الاختبار الحاسم . . اعتدت إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر وكان العدوان على العالم العربي كله . وكانت هذه الحقيقة واضحة للعيان من اللحظة الأولى . وانتظر الناس أن تنفذ الدول العربية المتحالفة التزاماتها فوراً. وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب له فى أثناء العدوان في الجامع الأزهر إن الرئيس القوتلي والملك سعود والملك حسين قد اتصلوا به في الأيام الأولى للعدوان، وأبدوا استعدادهم للدخول فوراً في المعركة ووضعوا جيوشهم وإمكانياتهم كلها في الميدان ولم يذكر الرئيس شيئًا عن هذا الإمام . لم يذكر الرئيس أنه قد اتصل مجرد اتصال وسأل مجرد سؤال . .

قد يقال إن أحداً لم يكن ينتظر أن يساهم هذا الكسيح في المعركة . . ولكن اذكروا يا رجال أن هذا الرجل لم يقطع حتى العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ولا زالت مفوضيته موجودة في لندن حتى اليوم ورغم العدوان على اليمن نفسها . .

بل إن مسئولاً يمنيّا كبيراً قال إن الإمام كان قد طلب من فرنسا بعض مشتريات فى أثناء العدوان وإنهم ذكروه أن هذا لن يظل سرّا وسيعرفه الجميع .

إننا نقولها بصراحة ونحن على ثقة وعلى يقين مما نقول . . لقد كان الإمام أحمد ورجاله يودون من صميم قلوبهم أن يحقق العدوان كل نتائجه . . كان الإمام أحمد يريد من أعماق أعماقه أن يختفي جمال عبد الناصر وأن تختفي الثورة في مصر، وأن يقضى على القومية العربية الصاعدة . . كان الإمام أحمد ونحن نتحدى كل من يكذب هذا يريد أن ينهزم الشعب العربي في معركته . . وأن تنطفئ هذه الشعلة المتقدة .

وكان اليمنيون وحدهم الذين يعرفون الحقيقة . . .

وانتصر العرب . وتوهجت الشعلة من جديد و أقوى مما كانت . . فماذا يفعل هذا الإمام .

لا بد أن يعمل شيئًا . . لا بد أن يظهر نفسه أنه ضحية عدوان . . وأنه نفسه بطل صنديد ؟ عدو للاستعمار . تماما مثل جمال عبد الناصر .

وبدأت حوادث اليمن . وكان الإنجليز حساسين هذه المرة بعد هزيمتهم في بور سعيد . . فبدءوا هم يستعيدون هيبتهم ويثبتوا لليمنيين في القطاع المحتل أنهم لا يزالون كما كانوا ، وبدأ الرأي العام العربي يرهف السمع لأحداث اليمن . ويظنها جادة ضد الاستعمار . وبدأ المتطوعون الأبطال يسجلون أسماءهم في شجاعة وشهامة .

وكان اليمنيون وحدهم هم الذين يعرفون الحقيقة . . .

وبعد؛ فهذه الحقيقة يتجاهلها الكثيرون في غمرة الحماس وينسونها . .

هذه مصر في ظل الملكية الفاسدة العابثة كانت اثنين وعشرين مليونًا من النفوس . . وكانت القنال في يد الشركة الاستعمارية المستغلة . . وكان النفوذ الأجنبي متغلغلا فيها . . وكانت روسيا موجودة . . والدول الإفريقية الآسيوية موجودة . . والسلاح؛ كانت المصانع في الدول الشرقية قد أنتجته وصنعته منذ زمان طويل والأمم المتحدة كانت موجودة . . وبنفس النظام . . مصر هذه في ظل الملكية الفاسدة سقط من بينها عشرات من الشباب الجامعي على شواطئ القنال . . مصر هذه خاضت كثيرا من المعارك العسكرية والسياسية . . وكان العالم هو العالم . . وكانت مصر تنهزم دائما . . لم تنتصر أبدا . .

واليوم هذه مصر . . مصر الثورة . . مصر الجمهورية . . مصر الشعب . . مصر العرب ـ خاضت هذه المعركة . . وانتصرت . . انتصرت لا ضد إنجلترا وحدها . . بل وفرنسا وإسرائيل . .

هل أنتم جادون . . هل تريدون النصر . . . ؟

قولوا معي . . تسقط الإمامة الفاسدة من جذورها .

ولتحيا الجمهورية . . .

والله أكبر . . .

والمجد للعرب . . .

وقــالـت لي الأرض لما ســألـت : «أيا أم هل تكرهين البــشــر؟»

«أبارك في الناس أهل الطمـــوح ومن يســتلذ كـــوب الخطر»

«وألعـن من لا يماشي الزمـــان ويقنع بالعـيش ، عـيش الحجر»

« هو الكون حي يحب الحــيــاة ويحـتـقـر الميت مـهـمـا كـبـر»

« فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم مــيت الزهر»

«ولولا أمـــومــة قلبى الرءوم لما ضــمت الميت تلك الحــفــر»

فــويل لمن لم تشــقــه الحــيــاة من لعنة العــدم المنتــصــر!»

الشـابي

بشيء من التفصيل أتناول قصتنا معهم.. مع حكام اليمن.. وأنا مضطر إلى هذا ، فقد يظن الناس ، حين نتناول الموضوع بصورة مجردة أننا نبالغ ونتجنى .. لأن الحقائق الرهيبة في حكم هؤلاء الأسياد قد بلغت من البشاعة حدًا لا يصدق ..

أجل.. هذه قصتنا معهم .. نسوقها لا لأهميتها.. ولكن .. لونًا من ألوان التعسف والتجبر .. لونًا من ألوان الفوضى والانحلال والفساد في الفئة التي تحكم اليمن..

الحسن والبعثة

في نهاية 1952 غادر اليمن للمرة الأولى سيف الإسلام الحسن الذي كان رئيسًا للوزراء ونائبًا للإمام في صنعاء ، وقطبًا من أقطاب الرجعية والجهل والتعصب . . وقد دعته البعثة اليمنية إلى دارها بحلوان وأقامت له حفلاً كبيرًا دام ساعات ، وقد سمع في هذا الحفل ما لم يسمعه في حياته ، ولم يكن يحلم أنه سيقع في مثل ذلك الشرك ، وأنه سيحاسب على تصرفاته وقسوته وأن الشباب سيقف منه الموقف الباسل ، وقد خرج من دار البعثة وهو لا يكاد يصدق أن أولئك هم أبناء اليمن الذين عهدهم في بلادهم وادعين ، قانعين ، ساجدين حامدين الله الذي أنعم على بلادهم به وبعائلته المقدسة . خرج وتبعه الطلاب إلى القاهرة ، ينبثون في كل محفل ويتصلون بكل ناد ويستنجدون بكل شهم من رجال العروبة ، للتأثير على هذا الأمير وإقناعه وتحريره من عقليته الرجعية المتحجرة . كان الشباب يريد أن يغير هذا الأمير القاسي رأيه في الحضارة . . . هذا الأمير الذي عاش حياته يعذب المواطنين ، ويستنزف أرزاقهم ، ويزج بالأبرياء في السجون والمعتقلات . . . هذا الأمير الذي جعل رسالته في الحياة أن يشنها حربًا لا هوادة فيها ضد العلم والحضارة وضد كل شيء جديد . . وقف الشباب موقفهم الباسل هذا منه ليذكروه أن طريقته وطريقة

إخوانه في حكم الشعب لم تعد ذات موضوع، وأنه قد آن للشعب أن يتنفس الصعداء، وأن يزاح عنه الكابوس الذي جثم على صدره أربعين عامًا.

لقد كان الناس ينتظرون أن تكون زيارة السيف الحسن هذه لمصر وللعالم الخارجي بداية الانطلاق.. كان المنتظر أن تنتهي العزلة التي فرضت على الشعب، والتي حرمته النور والعلم والسير في ركب الحياة والمدنية.. كانت حجتهم دائمًا أن هذه العزلة ضرورية للحفاظ على الاستقلال والسيادة الوطنية.. ولكن هذا هو الحسن يشهد بنفسه معالم الحضارة في مصر... هاهو قد زار المدارس والجامعات والكلية الحربية والجيش ومصانع الأسلحة... ها هو قد رأى بنفسه آثار العلم ونعيم المدنية.. وفي بلد عربي حر مستقل.

وكانت الأفكار مركزة والجهود مبذولة لإقناع الحسن بهذه الأمور البسيطة اليسيرة:

الحذر وعدم المخاطرة بتوقيع اتفاقيات مع الدول الاستعمارية تؤدي في النهاية إلى السيطرة على البلاد في وقت يخوض فيه العالم العربي كله معارك للخلاص من النفوذ الأجنبي.

الاستعانة بالحكومات والشركات والخبرة العربية لإصلاح دائرة الحكم في اليمن، وتكوين جهاز إداري سليم والنهوض بالتعليم وإصلاح حال الجيش، والرقي باقتصاد البلاد.

والإفراج عن المعتقلين الذين قضوا أكثر من سبع سنوات في سجونهم. وغادر الحسن القاهرة وفي نفسه ما فيها.. وزار إيطاليا وألمانيا والعراق وإنجلترا.. وعاد إلى صنعاء.. وهناك كان الناس يتوقون إلى رؤيته وسماع كلامه ومعرفة أفكاره. وفي مدرسة صنعاء، راح الحسن يبكي أمام طلابها. نعم بكى الحسن، وعلا نشيجه وتساقطت دموعه. أسفًا وحسرةً وخوفًا من الله. على طلاب البعثة الذين رآهم في القاهرة. قال الحسن والعبرات تخنق صوته إن هؤلاء الطلاب قد كفروا وقد أصبحوا زنادقة.. لأنهم لم يعودوا يوقرون خليفة رسول الله وسيف الإسلام الحسن زين العابدين.. قال الحسن إن ضميره يوبخه، وإنه يخشى الوقوف أمام

الله . فالمسئول عن مروق هؤلاء الطلبة هي هذه الأسرة المالكة المقدسة . . لأنها هي التي بعثتهم إلى القاهرة وهي التي دلتهم على المدارس ، والدال على الشر كفاعله . . بكى الحسن أمام طلبة صنعاء الصغار لأن إخوانهم قد أفسدتهم القاهرة . . ومدارس القاهرة وصحافة وإذاعة القاهرة . . وكان يعلو نياحه كلما تذكر مسئولية والده الشهيد ومسئولية العائلة كلها في خروج هؤلاء الطلبة من المعبد الكبير . . اليمن . . وانغمارها فيما بليت به الدنيا هذه الأيام من أفكار ودراسات شغلتهم وألهتهم عن ذكر الله والتفكير في فضائل الأئمة المجددين . . ومناقب أمير المؤمنين . . وسيوفه الميامين . . قال الحسن هذا: إن خروج البعثة كان غلطة منكرة يبرأ منها ويستغفر الله .

هذا الأمير . . زار الجيش في صنعاء أيضًا . . وخطب فيه . . وقال للجيش اليمني . .

أنتم أعظم جيش في العالم . . لقد زرت مصر ، ورأيت جيشها ، وزرت العراق . . وزرت إيطاليا وزرت ألمانيا . . ورأيت جيوش هذه البلاد . .



سيف الإسلام الحسن في حديقة الحيوان ..!

أنتم أعظم جيش في العالم . . لأنكم تشبهون جيش رسول الله . !

وفي القاهرة كان سموه ينزل بفندق الكونتنتال وذات مساء ، سأله البعض عن انطباعاته ورأيه في القاهرة وأنوارها . . فلم يزد أن قال : تبذير . . !

مستحيل أن تكون هناك يمن حديثة على رأسها هذا الأمير ، سيف الإسلام الحسن، وجاء القاهرة سيف الإسلام عبدالله وقوبل بنفس الجرأة والحماس .

أهوال الاستبداد

وفي هذا العام بالذات ، 1952 كانت الدفعة الأولى من طلبة البعثة قد انتقلت إلى كليات الجامعة المختلفة بالقاهرة . . وبين الانتصارات المتلاحقة التي يحققها شعب مصر . . وفي هذا الجو الثائر الذي عاشته مصر بعد طرد فاروق . . هل كان من الممكن أن يعيش طلاب البعثة اليمنية ودماء الشباب الفوارة تسري في عروقهم وهم يشهدون وطنهم الجريح ودماءه تنزف وخيراته تستغل ، وكرامته تداس وبنوه يعيشون في الهوان . . ؟ هل كان في إمكان الشباب أن ينسى أن له وطنًا يعيش في ظلام القرون الوسطى . . وما قبل القرون الوسطى وشعوب الكون قد استفاقت وخطت وتحررت ؟ هل كان في إمكان الشباب أن يتجاهل هذه الثورات التي تتفجر في كل بقعة من بقاع وطننا العربي . هل في مقدور الشباب أن يتجاهل معارك الحرية التي يخوضها العرب ضد السيطرة والرجعية والتحكم؟ وثورات وانفجارات في مراكش وتونس والجزائر ،في مصر وسوريا والأردن . . وفي كل مكان . . ماعدا الجزيرة العربية . . الحالمة . . النائمة . . المسبحة بحمد الله والشاكرة لنعمائه على ما وهبها من أمراء وسلاطين و إقطاعيين . . !

الحياة بنورها وتجددها تدعونا إليها . . وأسيادنا يسحبوننا إلى أعماق الظلام . . ! لقد كنا نخجل . . كنا نرى كل وطن . . وبه حركات وطنية متسلسلة . لا تهدأ ولا تقف . . كنا نرى الشعوب كلها زاخرة بالمكافحين الأحرار . . وكنا نتلفت إلى هناك . . إلى حيث تعيش الملايين من مواطنينا . . فلا نسمع إلا الأنين . . ولا نسمع إلا وقع السياط . . ولا نسمع إلا زمجرة الأسياد ولا نسمع إلا صراخ المظلومين . . وأنات المعذبين كنا نتلفت من حولنا . . فنرى الحياة تدب . . والتطور سنة الحياة والأحياء . . ونمد أنظارنا إلى هناك . . إلى حيث آبائنا وأمهاتنا . . إلى حيث إخواننا و أعمامنا . . إلى حيث الملايين من مواطنينا محرومة من كل نور ومسلوبة من كل حق . . صابرة على القسوة والوحشية لا تبدي حراكًا، وإذا سمع

منهـا شـيء . . فليس إلا الأنين والنحـيب وحـشـرجـة الموتى . . وصـراخ الأرامل واليتامى . .

قـرأنا أهوال الاسـتبـداد . . أيام كـان هـناك قيـاصـرة في روسـيـا . . وشـاهدنا في السينما نزوات نيرون . . وقـرأنا في المدارس تاريخ ثورات قـامت في هذا الجزء من العـالم أو ذاك . . فاهتزت ضـمـائرنـا . . وعـرفنا بعـد هذا كله . . أن مـا يحـدث في بلادنا . . هو ظلم . . هو الظلم بعينه . . هو لون صارخ من أقسى ما عرفته البشرية من صنوف التعذيب والوحشية والغلظة . .

رأيناهـم في كتـاباتهم يهـاجمـون الطغـاة الذين عـذبوا شعـوبهم . . ورأيناهم في الكتب يمـجدون الشـعـوب التي ثارت . . وينتـقـدون التـعسف والظلم . . ورجـعنا بأفكارنا إلى بلادنا . . فإذا بنا نجد أن كل ما وصفوه من الاضطهاد والتنكيل والتعزير ليست شيئًا يذكر بجانب ما يقاسيه أهالينا في اليمن . . لقـد تفتحت عيوننا أول ما تفتحت ونحن نرى مـواطنينا يفـدون على صنعـاء جمـاعات جمـاعـات . . ينتشـرون في الشـوارع والأزقـة والحـواري . . وكنا في « مكتب الأيتام» . . وكـانت أعـمـارنا الصغيرة لا تسمح لنا بالتمييز . . والتفكير . . أجل كانت هذه الجماعات تتوافد على العـاصـمة . . على الخليفـة . . خليفـة المسلمين . . أمير المؤمنين . . المتوكل على الله رب العـالمين . . من تهـامـة . . كـانت تتـوافـد لأنهـا جـائعـة . . فتك بهـا الجـوع . . فخرجت من قـراها رجالا ونساء . . هائمة على وجوهها . . وظلت تهيم وتتعثر في خطاها . . وفي الطريق يتسـاقط الأطفـال . . والنسـاء والشيوخ . . صرعى، ويظل الشباب . . ويستمر الرجال . . يسحبون خطاهم إلى صنعاء . . عـاصمة مملكة ابن رسول الله . . وفي صنعاء . . يمنع أمير المؤمنين هذه «السوائم »أن تقترب من مقامه « الشـريـف» . . فتـدق أبـواب البيـوت . . « يا مـؤمنين . . حـاجـة الله » وتمتلئ بهم المساجد والشوارع والحارات . . ويفتك بهم الجوع فيموتون . . ويقدم أهل الخيرات فضلات مـوائدهـم فيتناولهـا هؤلاء . . فـيمـوتون . . لقد ظلوا أيامًا لا يأكلون فإن واصلوا الإمساك ماتوا . . وإن أكلوا ماتوا . .

كنا نـخرج إليـهـم بما تـبقـى في «قـروانـاتنا» ونقـدم لهـم ما تـبقـى من «كـدمـنا» من خبزنا، ونتداعى لنشاهدهم يلتهمونهـا التهـامًا، ونقدم لهم بعد هذا كـوزًا من الماء،

ونتجمع حولهم ، لنرى المشهد الأخير . . حشرجة الأنفاس . . طلوع الروح . . هل نسي أهل صنعاء هذا؟ هل نسوا أنهم ملوا هذه المناظر وتعبوا ؟ وأنهم كانوا يضعون خمسة أجساد وستة في حفرة واحدة . ؟

أجل ، هذا لون مما شاهدناه ونحن أطفال . . هذا بعض ما وقعت عليه عيوننا ونحن صغار ، وكنا لا نعرف أن هذا هو ما يقولون له ، الظلم ، كنا لا ندري ما هو الطغيان ، لم يحدثونا عنه شيئًا . . كنا فقط نسمعهم يسبحون بحمد الله . . عفواً بحمد الإمام . .

كانوا يقولون لنا في المكتب الذي نقرأ فيه إن الإمام هو الذي ينفق علينا . .وإننا أيتام وهو يتصدق علينا ويؤوينا ، كانوا يجمعوننا كل مساء في طوابير طويلة ، ويجعلوننا نردد، الله يحفظ الإمام . . الله يحفظ الإمام . . كانوا يأخذوننا كل جمعة لنرى عساكر الإمام . . فيرهبوننا بها ، ويقولون لنا . . هذا كله ملك للإمام وكنا نمر أمامه ، وننكس علم بلادنا ونحن نمر أمامه . . كانت تختلط علينا الألفاظ : الإمام ، الله ، الإمام ، الله . . فقد كان اسم الإمام متداخلاً مشبوكًا مع اسم الله : أمير المؤمنين المتوكل على الله يحيى بن المنصور بالله ، نصره الله ، وكنا نساق إلى الجوامع يوم الجمعة فنسمع الخطبة الثانية وهي كلها تدعونا إلى أن نردد مع الخطيب بصوت عال آمين ، بعد كل اسم من أسماء أجداده وآبائه ، من الإمام علي ، إلى اسمه ، كلهم منصور بالله . . هادي إلى الله . . وكيل الله . . نعوذ بالله . . وكانت سننا الصغيرة لا تبين لنا الفارق الدقيق بين الإمام . . والله . . أجل . . لن أواصل . . فقد لا أنتهي . كل الظروف إذن كانت تهيب بنا أن نعمل . . أي عمل . . وبأنا وقد وضعنا أرجلنا في الكليات نعمل . .

ونواصل دراستنا في آن واحد . . ولكن هل تركونا؟

لقد تنبهوا إلى الخطر . . لقد شعروا أن عنصراً جديداً على وشك الظهور ؟ . . فبدءوا يعملون . .

أبرق السيف الحسن بمجرد وصوله إلى إيطاليا إلى المفوضية اليمنية في القاهرة، يطلب انتقال مجموعة من الطلبة الجامعيين إلى إيطاليا لمواصلة الدراسة

هناك . . فهمنا مباشرة أنهم قد قرروا تشتيتنا . . وإبعادنا عن القاهرة الثائرة . . رفضنا . . وقدمنا حججًا ومعاذير مختلفة . . ذهبوا إلى ألمانيا . . وعادوا إلى القاهرة . . وأعادوا نفس النغمة . . لماذا لا تنتقلون إلى ألمانيا للدراسة . . ؟ تهربنا . . عادوا مرة ثالثة وأمروا آخرين بالانتقال إلى لندن . . وهددوا البعض بقطع مرتباتهم وإعادتهم إلى اليمن إن لم يسافروا . . وقد اعتذروا وكانت المعاذير في هذه المرة التي قدمها بعض الزملاء طريفة ومضحكة لا يحسن ذكرها لأنها تتصل اتصالا مباشرًا واضحًا بشباب قد تسبب لهم بعض المتاعب .

واستمررنا في دراستنا . . وتكون اتحاد اليمنيين الأحرار بالقاهرة ومرت الأيام . . وجاء صيف 1954 وخرجت مجموعة من الشباب لزيارة الوطن . وفي صنعاء قرر الإمام أن يوفد ابنه سيف الإسلام البدر لحضور أعياد الثورة في القاهرة وذلك بعد زيارة الصاغ صلاح سالم لليمن . . وزيارة الملك سعود للإمام في صنعاء وأمر الإمام بسفر اثنين [1] من الطلاب الواصلين لمرافقة ابنه في هذه الزيارة .

بلقيس.. أين هي ..؟

وقد انتهت زيارة البدر لمصر فعدنا معه إلى اليمن حيث قضينا ثلاثة أشهر في صنعاء وتعز والحديدة . . ونحن مدينون لهذه الأشهر الثلاثة بالكثير . . لم يكن أحد قبلنا من طلاب البعثة قد قضى باليمن مثل تلك الفترة . . لقد عرفنا كيف تحكم بلادنا عمليًا . لقد احتكينا بالقبائل . . بالعساكر . . بالموظفين . . بالشباب . . بالتلاميذ الصغار وتبينت لنا عقلية الطبقة الحاكمة . . ونظرتها إلى الحياة والأحياء . . وحكمها على الحضارة وعلى الكون الذي لا يخضع لنفوذ الأسياد وطاعتهم . . لقد كنا نشعر أننا عدنا فجأة خمسمائة سنة إلى الوراء . . لقد كانت تساورنا كثير من الوساوس وتعاودنا أفكار . . غريبة غاية في الغرابة . لقد قررنا في الحديدة أن نتبنى الدعوة إلى أن تكون اليمن شعبًا بلا حكومة . . ملكت علينا هذه الفكرة إحساسنا وشعورنا . . وكنا نأخذها مأخذ الجد . . حاولنا أن نتلمس أي أثر من آثار

---

(1) محمد أحمد الرعدي ، محسن العيني .

الحكومات«الشريفة» التي تعاقبت على بلادنا منذ ألف عام . . فلم نجد أثرًا ، اللهم إلا بعض المؤسسات هنا وهناك كان الأتراك في أثناء وصولهم اليمن قد شيدوها لعساكرهم أو مراكز لإدارتهم أو مستشفيات وقد حولها أسيادنا الشرفاء إلى معتقلات وسجون وقصور لهم ولنسائهم . .

كل ما جنته بلادنا من الحكومات هو الذل والعبودية والاستسلام . . لقد كان العربي يعيش في جرف في أعلا الجبل يغني ويضحك ويمرح ويخرج للصيد، فلا يعود إلا ومعه غزال يشويه ويأكله وعائلته وصحبه ، وكان هذا العربي لا يقبل بحريته بديلاً، إن العربي ما عرف إلا حرا، فما الذي حوله هكذا، ذليلاً، جبانًا، خاضعًا مستسلمًا.

هذا إذا تجاهلنا أنه على أرضنا عرفت البشرية الديمقراطية والشورى والحكم الشعبي لأول مرة في التاريخ الإنساني . . ألم يقل القرآن الكريم على لسان بلقيس ملكة سبأ ﴿ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ . . أفتوني ما رأيكم ، لن أقطع في الأمر حتى أسمع ما عندكم، هذه بلقيس اليمنية الخالدة هل كانت ملكة؟ وهل كان النظام في اليمن ملكيًا . . كلا إنها الجمهورية . . أليست بلقيس هي التي تقول﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

لكأن هذه اليمنية الكبيرة تنظر عبر القرون إلى بنيها اليوم وقد أذلهم الملوك وأفسدهم الطغاة، وأحنوا جباههم، وقضوا على كل عزة فيهم وأنفة، لقد قطعوا أوصال البلاد . . ونشروا الحقد والحزازات والضغائن بين بنيها، سلطوا قرية على قرية وقبيلة على قبيلة، ومذهبًا على مذهب، لقد أفسدوا الأخلاق وخربوا الذمم وجعلوا البلاد مسرحًا للرشاوي والمحسوبيات ، ومرتعًا للدس والوقيعة . .

وكأني بها وهي تشهد بنيها وقد تسلطت عليهم الحماقات وعزلوا عن الدنيا وسكان الدنيا ولم يسيروا مع تيار الإنسانية بحجج سخيفة بلهاء .

أجل لقد عمل حكامنا على مر الأيام على فصل اليمن عن الكون كله، لقد علموا أبناء اليمن أن الدنيا كلها كافرة ضالة ، وأن الغرب والمسلمين قد تخلوا عن

الدين والتقاليد والأخلاق، وأن القابض على دينه كالقابض على الجمر وأن الجمرة هذه لا وجود لها إلا في اليمن . .

هل ننسى ذلك الخطيب المسعور الذي وقف في الحديدة يهاجم الدنيا كلها، ويلعن العلم والحضارة ويسخر من الصحافة والراديو ويتهكم على العرب ويلعن المسلمين، هل ننساه وهو يتحدث عن فضائل حكامنا ويعيد، وكأنه يتيه على الدنيا فخراً وزهواً . . يردد عبارات الادعاء والدجل والخداع وكأنه يسبح . . كأنه يتبتل!!

لقد ظل هذا وأمثاله يرددون هذه الأسطوانات على اليمنيين في كل مجتمع . . ظل الشعب مستسلمًا لهؤلاء الدجالين وهم صباح مساء يلعنون له الدنيا ومن عليها . . لقد قضوا على كل معنى للحياة ويعيش اليمنيون موتى ينتظرون على حافة القبور أن يهال عليهم التراب . .



سموم يجرعونها للشعب منذ ألف عام

وعدنا إلى القاهرة وكانت الامتحانات قد بدأت . ولم يمر وقت طويل حتى سمع الناس تفاصيل حركة جريئة في تعز، هو الانقلاب اليمني الثاني في أبريل سنة 1955.

ثورة عام 1948

هذا الانقلاب اليمني الثاني الذي فوجئ به الناس في أبريل سنة 1955 هل قام به الجيش؟؟ ما دوافعه . . ماذا وراءه ؟ ما سره؟ هل رحب به الشعب ؟ ما كان موقف الأحرار منه ؟ أسئلة كثيرة تتوارد على الخواطر ولا أستطيع الاسترسال دون التوقف عند هذا الحدث السياسي الهام .

الواقع أن الحركة الوطنية اليمنية التي بدأت منذ قبيل الحرب العالمية الثانية ما تزال غير واضحة الجوانب في أرجاء الوطن العربي كله بل وفي اليمن نفسها . لقد وجهت هذه الحركة أول ضربة قاصمة مذهلة إلى الاستعباد في الوطن العربي ، هل يعرف العرب شيئًا عن الثورة التي اندلعت في اليمن عام 1948 والطغيان في أوج انتصاره في هذه المنطقة كلها؟ هل عرف العرب شيئًا عن ثورة قامت في اليمن الجزء العربي المعزول الذي يحيط به الاستعمار من جانب والاستبداد من جانب آخر . . ؟

أجل ، إن الحركة اليمنية لا يعرف عنها أحد شيئًا . . ولست أنا الذي أؤرخ لها ، بل أدع هذا لأبطالها وفي مقدمتهم الأستاذان: أحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري . . ولكني سألقي بعض الضوء على الأحداث اليمنية منذ حركة 1948 حتى انقلاب أبريل عام 1955.

كانت العمليات الأولى للثورة التي اندلعت في أواخر عام 1948 هي الإطاحة بالإمام يحيى حميد الدين أكبر ملوك العرب قداسة ومكانة ، وبرئيس وزرائه القاضي عبدالله العمري الذي ظل رئيسًا للوزراء طول حكم الإمام يحيى ، وباثنين من سيوف الإسلام أبناء الإمام يحيى هما الحسين ، والمحسن ، وقد استلمت الحكم حكومة برئاسة الإمام السيد عبد الله الوزير ، ونشر اليمنيون الأحرار الميثاق الوطني المقدس لأول مرة في تاريخ اليمن . . وبدأت الاستعدادات لدعوة جمعية وطنية تمهيدًا لحياة برلمانية حديثة . . وعاشت الحكومة الجديدة قرابة شهر ، ساد فيها الأمن ربوع اليمن ، ولكن الملوك في البلاد العربية هالهم أن يطوح الأحرار بآلة الاستبداد والدجل والشعوذة في اليمن ، وأرادوا أن يقضوا على هذه الثورة رغم أنف

الشعب، رغم أنف الحرية والأحرار ليجعلوا من هذا عبرة للأحرار في كل جزء من أجزاء الوطن العربي ، فتشاوروا واتفقوا على أن تحطيم هذه الثورة يجب أن يكون فوق خلافاتهم التقليدية، وقد علق عربي كبير هو الأستاذ أسعد الأسعد مندوب لبنان في لجنة الجامعة العربية التي أوفدت إلى الرياض من أجل حركة اليمن «لو اتحد ملوك العرب في قضية فلسطين كما اتفقوا ضد الأحرار في اليمن ما كان في فلسطين حكومة يهودية » . . اتفقوا وأرسلوا ممثليهم إلى الرياض ليكونوا على مقربة من الأحداث.

تجدد الأمل لهذا الأمير سيف الإسلام أحمد بن الإمام القتيل يحيى. . فعاد وأخذ يؤلب القبائل التي جوعها أبوه. . ويغريها بخزائن صنعاء وقصورها . . ويثير فيها الحقد ضد صنعاء ومن في صنعاء. . وقد أباح لهم كل ما في صنعاء حتى قصورهم . . قصور أبيه وإخوانه. . وأخذ يوزع الأموال والسلاح. . فاندفعت هذه القبائل طائشة مجنونة. . وهاجمت صنعاء العاصمة . . واستبسلت صنعاء. . ودافعت عن الحكومة الجديدة وظل القتال دائراً على أبواب صنعاء أسبوعًا حتى انهارت المقاومة وفقدت كل أمل. . ففتحت الأبواب . . ودخلت القبائل مشحونة بالتعصب الأحمق الذي أثاره نيرون الجديد. وإن بقت المقاومة في مناطق مختلفة وخاصة في العدين التي ظلت المقاومة ولم تستسلم إلا بعد شهر من سقوط صنعاء في أيدي القبائل. واستعاد السيف أحمد الحكم وبدأه بسلسلة من المجازر البشرية الرهيبة . وكانت نتيجة الثورة آلاف القتلى في صنعاء وفي مناطق أخرى وقد أعدم الإمام أحمد الناصر لدين الله الجديد. . أكثر من سبعة وثلاثين رجلاً ضربًا بالسيف. . دون تحر أو تحقيق أو محاكمة. قتلهم بعد انتصاره مباشرةً.



الرئيس جمال جميل عربي من العراق قدم حياته من أجل اليمن العربية



هذه البركة من الدماء الزكية .. هي دماء بطل عربي من العراق
هو الرئيس جمال جميل .. قدم حياته فداء للحرية العربية في اليمن ..

واكتظت السجون بالمئات من رجال القبائل ، والضباط والعلماء والمفكرين والشباب . وكان الإمام في المناسبات الدينية والأعياد يخرج الأبرياء من هذه المعتقلات ويذبحهم أمام الناس في المدن المختلفة كحجة وصنعاء وتعز و الحديدة . . والعجيب أنه كان يذبحهم في المواسم الدينية وبعد صلاة الجمعة . وكان يتخذ هذا لونًا من ألوان التعبد والتقرب إلى الله . وكان الحاضرون يرددون بعد كل رأس يسقط . الله يحفظ الإمام . الله أكبر . على كل حال انتهت الحركة . وما من شك أنها هزة قوية عنيفة للحياة اليمنية وللفكر ، والرأي العام ، لقد ظلت اليمن خلال ثلاثين عامًا هادئة هدوء الأموات ، بعيدة عن التيارات العالمية ، والصراع الدولي . لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد . لم تدخلها من منتجات الحضارة الحديثة سوى سيارة واحدة أو عدة سيارات للإمام يحيى ولأولاده . بلد في القرن العشرين تعيش تتناقل الأقاصيص على عنترة العبسي وعلى بن الجارية وأبو زيد الهلالي . وعن «أم صياد» والجن والعفاريت وقيام القيامة ورأس الغول . بلد معزول عن سكان هذا الكوكب لا يشاركهم حياتهم ولا يعرف ما عندهم . . ولا يكاد يتخيلهم . بلد كيانه الاجتماعي قائم على أسس القرون الوسطى . فلا يصله شيء مما تزخر به هذه الدنيا من نظم وأوضاع وأفكار . تصوروا بلداً لا صحافة فيه ولا راديو ولا سينما ولا مطابع ولا مدارس ، ولا هيئات ولا جمعيات ولا أحزاب .

بلاد في القرن العشرين لا تدري شيئًا عن الطرق المعبدة ، والمواني ، والآلات والمصانع ، والعمال ورجال الأعمال ، والشركات والمشروعات .

هذه البلاد يحكمها رجل واحد ، واحد فقط هو الإمام يحيى المتوكل على الله رب العالمين . ولا يحتاج هذا الإمام لإدارات ومصالح ووزارات تساعده في عمله بل يكتفي بأولاده وزبانيته وقيوده وسجونه . هكذا كانت بلادنا . فأيهما أفضل . . الحياة في ظل هذه الأوضاع أم الانتحار . ؟

على هذا لا نملك إلا أن نقف وقفة تجلة واحترام لهذه الثورة التي قامت ، لا نملك إلا أن نحييها . وأن نعدها حدثًا هامًا ، وأن ننظر إليها كعامل من عوامل التحرير والتقدم في هذا الجزء من الوطن العربي .

إننا ننظر إلى هذه الحركة كعامل دافع إلى الأمام ، إنه التطور ، إننا نحبو . . وغداً سنقف على أقدامنا وسنخطوا . . ولكن معتمدين على جدار . . فهل يكون هذا الجدار قويًا . . يقاوم عوامل الفناء والانهيار . . ؟ المهم . . ألا ينهار على من اعتمد عليه .

نعم انتهت الثورة . . ثورة 48وذبح فيها زهرة شباب اليمن من ضباط وأساتذة ومفكرين ، ورجال قبائل . وشعبنا ينحني باحترام أمام جميع هؤلاء الشهداء الأبرار .

هل كسب الشعب في هذه الحركة . . ؟ نعم . . كسب الشعب ، وإلى أرواح الشهداء الذين خطوا السطور الأولى في صفحات الكفاح والبذل . . إلى أرواح أولئك الشهداء الأبطال ، نقول لهم إن دماءهم لم ترق سدى . . وإن أرواحهم التي صعدت إلى الله لم تزهق عبثًا ، وإن شعبنا سيذكر في مستقبل أيامه ، أنهم هم الذين شقوا الطريق . . وافتتحوا الاكتتاب .

هكذا تمخضت الأحداث ، الأحرار . . ذبح الكثير من رجالهم ، وامتلأت السجون بمن بقى . . و القليل جدًا ممن نجوا وتشردوا . . البلاد كلها لقمة سائغة . . لأمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد بن يحيى حميد الدين ملك اليمن أعز الله نصره . . ولإخوانه السيوف المسلولين . .

ضيعة كبيرة يمرح فيها ويسرح ، الإمام أحمد وإخوانه وشركاه ليمتد . . سنوات أربعًا رهيبة مرت باليمن ، قسوة ووحشية وفظاعة في الداخل . . مطاردة وتعقب للمشردين في الخارج. سنوات أربعٌ والكابوس الرهيب جاثم على صدر الشعب فلا يستطيع أن يستأنف الصراع بطريقة منظمة جادة . . وأخيرا هبت نسمات منعشة من أرض الكنانة ، طرد فاروق . . فهبت رياح الحرية عاصفة عنيفة تطارد المستبدين والمستعمرين . . وتنعش آمال الأحرار . . وقد اتجهت أنظار اليمنيين إلى مصر . . الثائرة المتمردة على الطغيان ، وكانوا يتابعون الانتصارات المتوالية بالحماس والفخر والأمل والرجاء . . كانوا يشعرون أن جمال عبد الناصر يثأر للمظلومين جميعًا ، كانوا يرون في هذه الانتصارات ، هزائم المستبدين والآلهة في كل مكان ، ولم

يكن صراخ النساء وعويل الأطفال في قصور العائلة المالكة في اليمن وتجمعهن حول الإمام والسيوف، لم يكن هذا الصراخ وذاك النعيب والعويل يوم طرد فاروق إلا تجاوبًا مع ما يدور في أذهان المظلومين في اليمن لقد كانوا يشمتون بالملوك المستبدين ، المستبدون قد تعاونوا وسحقوا حركتنا ، وعذبونا وشنقوا رجالنا وأبطالنا . . هاهو ذا قد جاء من ينتقم للشعوب ويسحق العتاة . . ويجدع أنوفهم . . ويعلن انتصار الشعوب . .

الإمامة

وصل الأستاذ محمد محمود الزبيري إلى القاهرة بعد الثورة مباشرةً . . وفي المطار قالوا له إنه في القائمة السوداء ولا يمكن دخوله . فقال لهم هذه القائمة قد احترقت يوم أرسلت المدفعية في سواحل الإسكندرية طلقاتها إلى الفضاء معلنة للدنيا أن مصر قد أصبحت أرضًا للأحرار ، ودخل الزبيري الأرض التي كانت منطقة حرام .

ومن جديد . . شيئًا فشيئًا . عادت الحركة اليمنية إلى الظهور . وبدأت الاتصالات في الداخل والخارج . وتبودلت الآراء . . وكان الأحرار في هذه المرة يستفيدون من أحداث حركة 1948وركزت الجهود في بداية الأمر لدعوة الإمام أحمد إلى إعادة النظر في سياسته . وكان المنتظر أن تجد هذه الدعوة أذنا صاغية لا سيما وقد عب من الدماء وشرب ما يكفيه . . ولأنه قد يتعظ ويستفيد من الأحداث التي مر بها أبوه وأسرته . . ومن غضبة الشعب التي لا ترحم ، ومما وقع في مصر وفي الأردن ، ولكن الإمام كان أكثر عنادًا .

وبدأت المحاولات الكثيرة لمعرفة مواقف الأمراء وسياستهم واتجاههم . كان من الجائز أن يغيروا أساليبهم وأفكارهم . . وأن يسيروا مع التيار العربي المتحرر حتى يجنبوا أنفسهم ونفوذهم السخط الذي ينتهي بكارثة . ولكن لا سيف الإسلام عبد الله ،ولا سيف الإسلام الحسن فكرا مجرد التفكير في تغيير خط السير . . لقد تبلدت أحاسيسهم، فلم يعد زمام أنفسهم بأيديهم وبدأ العمل لإنقاذ الشعب من يد

هذه العصابة. وساءت صحة الإمام أحمد نتيجة تعاطيه بعض الأشياء الضارة.. وكان من الطبيعي في ظروف كهذه أن يبدأ الصراع حول من يخلفه على العرش. وهي مواسم يعرفها اليمنيون جيداً منذ أكثر من ألف عام. وتاريخهم خلال هذه المئات من السنين ما هو إلا صراع متواصل من أجل هذا أو ذاك من أبناء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذ إن من أنس في نفسه أنه قد حفظ كتاب «المتن» عن ظهر قلب، وأنه قد توافرت له شروط الإمامة فإن عليه أن يهيئ نفسه وأن يستعد لإعلان نفسه إماماً على البلاد متخذاً لقباً: المتوكل على الله، الناصر لدين الله وكيل الله، المستعيذ بالله. السفاح لله. وهكذا وقد ولى أمر اليمن بهذه الطريقة أكثر من سبعين إماماً. كل واحد منهم يقضي السنوات في إخماد حركات القبائل والمنازعين له من السادة آل البيت فيدخل هذه المدينة وينهب هذه القرية، ويحل دم هذا أو ذاك من القبائل أو من الفقهاء. وتاريخ اليمن خلال هذا الحكم الهاشمي ما هو إلا صراع وحروب أهلية يذكيها الأسياد بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية الكريمة.. يستبيحون بها الدماء.. وينتهكون الأعراض وينهبون الأموال.

وهذا نظام عجيب لا مثيل له في الأرض ولم ينكب به شعب من شعوب العالم غير اليمن.. ليس نظاماً جمهورياً.. ولا ملكياً.. ولا دكتاتورياً.. ولا فاشيستياً ولا نازياً.. ولا أي نوع من أنواع الحكم التي عرفتها البشرية على مر الأيام.. ولكنه يجمع بين أسوأ ما في هذه النظم جميعا.. لم يتح للبلاد فترة من الهدوء والاستقرار تتفرغ فيها للتعمير والبناء..

وفساده يأتي من أنه جعل لكل من توافرت فيه شروط معينه من أبناء فاطمة أن يعلن نفسه إماماً على البلاد.. ويحدث في الوقت الواحد أن يدعى الإمامة أسياد كثيرون.. هذا من صنعاء.. وذاك في شهارة.. وثالث في جبلة.. وما أن يموت الإمام حتى يبدأ هؤلاء في دعوة القبائل إلى حمل السلاح.. ويحرضونهم على الفتك بمنافسيهم.. ويبشرونهم بالجنة التي وعد الله بها عباده المجاهدين، ويدفعون هذه القبائل لقتال بعضها البعض باسم الله واسم كتاب الله و أبناء رسول الله.. وقد يحدث أن تعيش اليمن سنوات خاضعة لعدة أئمة.. فتعيش موزعة مشتتة منقسمة، ولم تتوحد اليمن منذ عرفت الأئمة إلا في فترات نادرة..

ويكفي لفساد هذا النظام أنه يقوم على التعصب السلالي والعرقي والمذهبي والقبلي . . وهي كلها أمور أثبتت على مر التاريخ أنها لا تتفق مع كرامة الإنسان كإنسان . . ولا مع رخاء الشعوب واستقرارها . . ولا مع الحضارة والتقدم والسير الصاعد للحياة .

ويبدو أن الإنسانية في تاريخها الطويل لم تشهد نظامًا بشعًا كهذا . . يحل الحرب الأهلية الدامية . . وأن يقتل المواطنون بعضهم بعضًا دفاعًا عن نزوات هذا أو ذاك من المضللين الدجالين ذوي الأغراض والأهواء . . بل ويحل أن تقتتل العائلة فيما بينها . . وأن يقتل الأخ أخاه ويذبحه ذبحًا . . ويجري كل هذا باسم الإسلام المفترى عليه . . وباسم محمد بن عبدالله . . وعلي بن أبي طالب عليهما صلوات الله وسلامه ومع كل هذا الفساد الصريح فالدنيا ضالة كافرة . . واليمن وحدها في نظر أئمتنا المجددين هي التي يذكر فيها اسم الله . . محال أن تكون رسالة الإسلام هي هذا الهراء ، محال أن تكون رسالة محمد بن عبدالله هي إخضاع العرب لهذه العائلة أو تلك . . وهو الذي حطم الأصنام . . وحارب العصبية . . وقاوم القبلية . محال أن يرضى بهذا الدجل والكهنوت . . وهذه الطلاسم والألغاز . . وهذه الأحاجي والمفتريات . . محال أن يأتي ليحصر الحكم والمناصب والثروات في عائلة . . محال أن يرضى محمد الرسول العربي أن يكون في المسلمين أسياد وعبيد .

لقد عذب شعبنا اليمني ونكل به وعاش أكثر من ألف عام في حروب وقتال من أجل آل محمد و أبناء علي . . وإنه لواضح وبيّن أنهما مظلومان ولا يقران هذا . . إن اليمن لا تزال مسرحًا لهذا العبث وذاك الاستهتار .

ولاية العهد

وقد حدث ما يحدث كل مرة منذ ألف عام كلما أشرف إمام على الزوال . بدأ سيوف الإسلام يتحفزون وبدأ الصراع ، ولكن لا بين عائلات هذه المرة ، بل بين أمراء من العائلة الواحدة . وكان واضحًا أن هناك معسكرين : معسكر البدر وهو

الابن الأكبر للإمام أحمد ، ومعسكر ثان يلتف فيه سيوف الإسلام عبدالله والحسن والعباس وبقية أفراد العائلة . .

اتصل الأحرار بالأمير البدر وتفاهموا معه ، وعرضوا عليه وخاصة عند زيارته للقاهرة مطالب الشعب التي يرفضها سيوف الإسلام جميعًا ولا يقبلون مجرد الكلام فيها ، والتي يعتبرها الأحرار الأساس لكل نهضة وكل إصلاح ، وقد نشرها الأحرار في « مطالب الشعب» وفي «أهداف الأحرار» . . ويمكن إبراز أهم نقاطها في : وزارة شعبية لا يشترك فيها سيوف الإسلام . . بل تتألف من أبناء الشعب وتكون مسئولة . . ومجلس شورى يتكون من ممثلين لطوائف الشعب المختلفة تبعث إليه القبائل والمدن نوابها ، يتولى هذا المجلس رسم السياسة العليا للدولة في شئونها الداخلية والخارجية وتكون الوزارة مسئولة أمامه ، عدم الارتباط بالدول الاستعمارية باتفاقيات أو معاهدات ، والتعاون مع الحكومات العربية المتحررة . .

وحتى تنتهي المجازر التي تحل باليمن كلما هَلَّ إمام أو مات ، طلب الأحرار من الإمام أحمد أن يفصل الأمر قبل موته ، حتى تستقر الأحوال ويسود الأمن وتهدأ البلاد ، وطلبوا من الإمام أن يعلن ابنه البدر وليًا للعهد . . ومرت فترة والبلاد من أعلاها إلى أدناها لا حديث لها إلا ولاية العهد . . كان الممكن أن يعلن الإمام أحمد ابنه وليًا للعهد وتستقر الأمور وتهدأ ، ولكن الإمام ظل مترددًا حائرًا تتنازعه عاطفة الأبوة وحنانها ، وحب الفتك بالشعب والطغيان والاستبداد بأموره وإبقاء الأوضاع كما هي .

كانت هاتان الرغبتان الشريفتان تتنازعان الإمام : حبه لابنه ، وحرصه الشديد على تعذيب شعبه العزيز ، إن استسلم لعاطفته الأبوية وأعلن ولاية العهد فإن الشعب سيفلت من قبضة الزبانية سيوف الإسلام . وما يعدونه من وسائل السيطرة والتحكم ، والإمام لا يريد أن يفلت شعبه العزيز من العنف والرجعية والعنجهية«الشريفة» .

وإن انضم الإمام إلى معسكر عبدالله والحسن والعباس ومن معهم فسيحقق

بذلك أغلى أمانيه، ولكنه سيضيع على ابنه ـ وهو ابنه على أي حال ـ فرصة الإمامة والعرش.

ظل الإمام متأرجحًا لا يهدأ ولا يقر له قرار، يحب ابنه ولكنه يكره الأحرار وابنه مرشحهم، يكره الأمراء الآخرين، ولكنه معجب بهم وبما يعدونه للبلد.

هذا هو حال الإمام..

أما الأمراء، فقد تكتلوا جميعًا لدفع الخطر عن مجد الأسرة وتراث الآباء.. لقد تجمع سيوف الإسلام ومعهم أعضاء الأسرة حتى النساء وحتى الأطفال ضد ولاية العهد للبدر، وتكتلت مع الأسرة المالكة العائلات الرجعية كلها، تجمعت القوى كلها ضد البدر، وكان السبب الوحيد هو أن البدر مرشح الأحرار، وأن عهد البدر هو عهد الأحرار، وأن البدر قد اعترف بحقوق الشعب، وقد أقر أهداف الأحرار وألا يظل الحكم حكرًا لفرد أو لأسرة أو طبقة، بل للشعب كله.

وزاد قلق السيوف عند زيارة البدر التي قام بها إلى مصر واجتماعه باليمنيين الأحرار واتصاله بهم علنًا وارتباطه أمام الناس جميعًا بالحركة التقدمية، كذلك اتصاله الوثيق برجال الثورة في مصر، وكان من الأسباب أيضًا تأثره بأفكار وآراء قادة مصر وعزمه على التعاون الصادق مع البلاد العربية المتحررة..

وكان واضحًا جدًا موقف الأمراء والأسر الكبيرة في اليمن من السياسة العربية المستقلة، وكيف كانت تقاوم البعثة العسكرية المصرية والبعثة التعليمية وتضع أمامها العقبات..

لهذه الأسباب مجتمعة ائتمر السيوف واتفقوا على أنه لابد من اليقظة والحذر وعمل المستحيل في سبيل إبعاد البدر عن الحكم، وللقضاء على البدر لابد من القضاء على أبيه في الوقت نفسه.. فكان انقلاب أبريل سنة 1955.

الانقلاب العسكري

حاصر الجيش بقيادة العقيد أحمد يحيى الثلايا قصر الإمام أحمد في تعز

وأرغمه على التنازل عن العرش لأخيه سيف الإسلام عبدالله. ودام الصراع بين الجيش والإمام أسبوعا . . انتهى باستعادة الإمام أحمد السيطرة على الأمور . . وقد أعدم أخواه سيف الإسلام عبدالله وسيف الإسلام العباس كما أعدم العقيد الثلايا وسبعة عشر رجلاً دون تحري أو تحقيق أو محاكمة . . وشرد الأمير سيف الإسلام الحسن الذي كان رئيسًا للوزارة، والذي هو الآن ممثل في أمريكا.

تُرى هل كان العقيد أحمد الثلايا متفقًا مع السيف عبدالله، وهل وضع معه تدابير الانقلاب من البداية ؟ أم أن السيف عبدالله استغل حادث الحوبان الذي تألب الجيش بعده ضد الإمام؟ .

هل كان العقيد الثلايا راضيًا عن إمامة السيف عبدالله أم أنه اضطر اضطرارا إلى تنصيبه؟

الذي لاشك فيه هو أن عبدالله والعباس والحسن ومعهم بقية أفراد الأسرة والعائلات الكبيرة كانوا يعدون شيئًا . . كانوا يعملون على القضاء على البدر وعلى الإمام.

والذي لاشك فيه من جهة أخرى هو وطنية الشهيد العقيد أحمد الثلايا. إن هذا البطل وطني . . وعربي ،وحر ، وليس من المعقول أبدًا أن يقبل التمشي مع عبدالله وسياسة عبدالله.

لقد كان عبدالله كما بدا من كلامه في الأيام الأولى للانقلاب يريد أن يزيح الثلايا وأن يغيره . . ولكن . . هل كان العقيد يفكر هو أيضًا في القضاء على عبدالله فيما بعد . . ؟



العقيد أحمد يحيى الثلايا .. راح شهيداً

لقد رحب الناس بالانقلاب لأول وهلة عندما سمعوا اسم الجيش . . واسم الثلايا ولكنهم ما لبثوا أن وقفوا ضده عندما عرفوا أن السيف عبدالله قد أصبح إماماً . . وأن العباس قد سيطر على صنعاء باسم الانقلاب . . وأن السيف الحسن من القاهرة . . معهم في الانقلاب . . وأن العائلة كلها مشتركة .

موقف الأحرار

لقد فشلت الحركة لأنها مسالمة . . اكتفت بتنازل الإمام أحمد . . فشلت لأن على رأسها السيف عبدالله ومعه إخوانه الأمراء . . وبعض الأسرة ، فشلت لأن الناس عرفوا أن الغرض منها وأن هدفها القضاء على ولاية العهد للبدر ، خوفاً من الأحرار المتحالفين معه .

وأعتقد أن الجيش في تعز لو كان قد تخلص من كل من الإمام أحمد والسيف عبدالله لوقف الشعب في الداخل والخارج معه ، ولانتصر .

لقد كانت الحركة في نظر الأحرار تجديداً لشباب الكارثة التي يعانيها شعبنا في ظل أسرة حميد الدين ، لقد كانت في نظر الأحرار تقوية لسلطان سيوف الإسلام المتداعي .

لقد كانت تثبيتًا لأمراء يعملون على عزل اليمن عن الوطن العربي ، أمراء من أجل مصالحهم يرتبطون بالاستعمار . . ويقدمون اليمن للشركات الأجنبية ، أمراء كان حلف بغداد في رأس قائمة برنامجهم .

لم يكن بد من أن يقف الأحرار في الداخل والخارج ضد هذا السيف الجديد . . لا من أجل الإمام أحمد . . بل من أجل الشعب . . وأهداف الشعب . . ومستقبل الشعب ، وما حدث بعد الانقلاب يبين بوضوح أن الأحرار لم يتخلوا لحظة واحدة عن مبادئهم ولا عن فهمهم لعقلية حكامهم ، وإدراكهم لطبيعة القضية التي يعملون من أجلها . . ولو كانوا قد أرادوا التخلي عن طريقتهم النضالية أو التعاون مع الحكام في اليمن للوصول إلى الغنائم والمكاسب . . لكان الجو صالحًا والطريق ممهدًا . . ولعل هذا هو السر فيما لاقاه الأحرار من متاعب ومشاكل لا من الحكومة وحدها ، بل ومن بعض الأشخاص الذين كانوا قد دخلوا في صفوف الأحرار ، لقد فهم البعض أن تأييد الأحرار للبدر بعد موافقته على مطالب الشعب معناه أن يسيروا في ركب الإمام وأن يتعاونوا معه ، وأن يشتركوا في الحكم حتى ولو كان الإمام هو هو لم يتطور ، ولم يقبل أي تغيير في سياسته وطريقة حكمه . . وحتى لو بقي الفساد وبقيت العزلة وبقي الطغيان . . المهم عند هؤلاء أن يحصل بعض رجال الأحرار على مراكز ومناصب ، وقد دخل هذا الصراع في صفوف الأحرار ، وجاء المسئولون اليمنيون فأضرموا فيه النار وأججوها بالرشاوى والوعود . . بل وكان بعض هؤلاء المسئولين يتباكى على القضية الوطنية . . ويظهر استنكاره للتشدد والتطرف وقد لقيت الدعوة إلى التخلي عن معارضة الإمام آذانًا صاغية وجيوبًا مفتوحة وأيادي ممدودة . . وجباهًا معدة للتمرغ بين أقدام الطاغية .

ومن المناسب أن نذكر أنه عندما وصل الأستاذ محمد محمود الزبيري إلى الرياض ، والتقى بالأمير البدر والأستاذ أحمد محمد نعمان ، بحضور الملك سعود، عرض عليه الاشتراك في الحكومة التي كان من المتوقع تشكيلها ، والتي كان الناس جميعًا يعتقدون أن الإمام أحمد لن يعارض في تأليفها من عناصر شعبية ، خاصة بعد كل الذي حدث وبعد أن أيد الأحرار الإمام . . ولكن الزبيري رفض رغم أن الملك سعود قدم ضمانته الشخصية للزبيري . . لقد رفض الزبيري

قائلاً إن الرجال في اليمن كثيرون ، وإنه ما على الإمام إلا أن يبدأ بهؤلاء الرجال يعهد إليهم بالمسئوليات ، ويبدأ في سياسة إصلاحية إنشائية ، وسيجد الناس جميعًا معه يؤيدونه ويشدون من أزره . . لقد رفض الزبيري لأن الأوضاع كانت ما زالت هي هي والإمام هو هو ، بعقليته المستبدة المتحجرة . . لأنه لم يكن يكافح من أجل الحصول على مغنم أو الوصول إلى مطلب أو منصب .

وفي القاهرة ـ بعد الانقلاب مباشرة ـ بدأ جماعة ممن كانوا محسوبين على الأحرار في التفكير في هذه الظروف الجديدة ، وكيف يكون موقفهم ، وقد سرحوا في أحلامهم واسترسلوا في أفكارهم ، فقد توهموا أنهم ومن أقرب طريق قد توصلوا إلى أهدافهم ومقاصدهم . . توهموا أنهم يستطيعون أن يوهموا الناس أن الشعب قد نال كل حقوقه ، وأنهم قد آن لهم أن يحتلوا أماكنهم في كراسي الحكم حتى يشبعوا غرورهم ويرضوا أهواءهم . . لقد فكروا في أن يقيم الاتحاد اليمني بالقاهرة حفلة كبرى بدار المفوضية اليمنية ابتهاجًا بانتصار الإمام ، وإعلانًا للولاء والخضوع ، وتأكيداً بأنهم قد انصهروا وإلى الأبد في البوتقة المتوكلية الشريفة . . وكان كبح جماحهم عسيراً .

والعجيب أن هؤلاء الأشخاص كانوا هم أنفسهم الذين يقاومون فكرة ولاية العهد للبدر في صفوف الأحرار . . وكانت حجتهم أنها مخاطرة غير مأمونة العواقب لأن البدر ضعيف ، والإمام لم يعلن تأييده الصريح لابنه . . ولأن منافسي البدر هم عبدالله والحسن والعباس . . وعندما كان يقال لهم إن المسألة ليست من ينتصر ، بل من يقبل الخضوع لمطالب الشعب ، وإن المسألة هي مصلحة البلاد . . كانوا لا يقتنعون . . نعم هؤلاء الذين كانوا يرون تأييد البدر مجازفة قد عادوا وغيروا رأيهم عندما اختفى عبدالله والعباس والحسن من على المسرح السياسي اليمني .

هؤلاء الذين كانوا على اتصال بالمراسلات وغيرها مع السيف عبدالله قد تزاحموا وتدافعوا بالمناكب ليثبتوا إخلاصهم وولاءهم بالانحناء والسجود . . تهالك الكثيرون وفقدوا أعصابهم وتخلوا عن وقارهم ، وبالغوا في التزلف والخضوع . .

ومن أجل أن يسمع هؤلاء . . وأن يعرف الناس جميعًا موقف الأحرار ورأيهم فيما حدث ، ومن أجل إعلان سياسة الأحرار أقيم بالجيزة حفل كبير لتكريم البدر وصحبه . . وقد حضر الطلاب اليمنيون جميعًا ورجال الاتحاد ، ورجال المفوضية، ونذكر منهم البدر والنعمان والزبيري وأبو طالب وصالح محسن .

وفي هذا الحفل الذي دام ساعات أعلن شباب البعثة تمنياتهم ورجاءهم أن يكون هذا هو نهاية الظلم والفساد ، وبداية لعهد جديد تحل فيه الحرية والعدالة والمساواة محل الاستعباد والظلم وأن تنتهي المذهبية والفرقة والتمييز السلالي الذي تميز به الحكم المتوكلي . وقد أكدت جميع الكلمات أن الأحرار ليسوا ضد أمير بعينه ولا مع أمير معين ولكنهم يهدفون إلى تحرير وطنهم وتحقيق مطالبه وأهدافه، ومن تقدم الصفوف على هذا الأساس فسيسير الجميع معه .



الأستاذ / أحمد محمد نعمان يخاطب الشعب

ووقف الشيخ أحمد محمد نعمان وكان مستشارًا للأمير آنذاك فألقى كلمة قال فيها : «إن ما يعانيه الشعب من ظلم واضطهاد وما يقاسيه من مذهبية وفرقة وتمييز إنما هو نتيجة للحكم الفاسد، وقد انتهى الحكم الفاسد، ونحن في بداية عهد جديد» .

واكتفى الأستاذ بهذه الكلمات القوية الواضحة نظراً لصفته الرسمية كعضو في الوفد الذي يرافق الأمير ، ولأنه على وشك العودة إلى اليمن .

أما القاضي محمد محمود الزبيري فقد كانت كلمته بيانًا هامًا عن موقف الأحرار وعن سياستهم وكان حديثه موجهًا إلى البدر وإلى رجال الإمام ، وإلى الإمام في تعز .

قال الزبيري : « إننا قد أيدنا ولاية العهد لأن البدر قد وافق على أهداف الأحرار، وقد وعد بتحقيق مطالب الشعب كاملة ، أيدناه الآن لأن من عداه من سيوف الإسلام كانت صفحاتهم ملطخة بدماء الأبرياء ، ولأن نواياهم كانت شريرة سوداء، أيدناه لأنه اقتنع معنا بحق البلاد في الحرية والعدالة والحياة ، أيدناه لأنه يؤمن معنا بالأمة العربية ، وبالسياسة العربية المتحررة ، أيدناه لأنه يشترك معنا في هذه الأفكار والآمال . ووقفنا نعارض السيف عبدالله لأن ماضيه الطويل سواء في داخل البلاد فى أثناء حكم والده أو في الخارج ، بعد هذا كان كما يعرف الجميع، ولأن ميوله واتجاهاته ومشروعاته للمستقبل كانت تحمل في طياتها كارثة محققة لا لليمن وحدها بل وللأمة العربية في مجموعها » .

قال الزبيري : «إننا لسنا أعداء شخصيين للإمام أحمد ، وإننا نتمنى أن يقود هو حركة الإصلاح في اليمن ، ولكننا نحتفظ بحقنا في معارضته ومقاومته ، فنحن لا نعارض إلا من أجل الشعب ، ولا نؤيد إلا من أجل الشعب. وإن العقبات التي كانوا يحتجون بها قد زالت والظروف التي كانوا يجعلونها المسئولة عن الظلم والاضطهاد قد ولت . . لقد كان الشعب حائراً بين الإمام والبدر . . فلم تعد هناك أية حجة لبقاء الأوضاع الظالمة . . فلتظهر صفحة جديدة ناصعة ولينته الظلم . . وليقضى على الفرقة والمذهبية والامتيازات ، ولتمد اليمن يدها إلى العرب . . ولتخرج من هذه العزلة المضروبة حولها . . والتي أبقتها في ظلام القرون الوسطى البهيم» .

قال الزبيري هذا أو أكثر منه ؛ ليسمع من به صمم، وليفهم من لا يحسنون فهم الأشياء إلا إذا كانت متمشية مع أهوائهم ونزواتهم . . وليفهم الإمام وولي عهده

ورجالهما أن القضية لم تنته بعد . . وأن كل شيء مرهون بما يكسبه الشعب . . قال هذا؛ لتفهم الفئة التي كانت قد بدأت تتهافت أن الطريق لا يزال طويلاً . .

التنابلة

وقبل أن ينتهي الحفل انبرى الأول من الجماعة . . لقد كان هناك تضاربًا كبيرًا حول شخصية هذا الرجل كانت الفكرة العامة ليست في مصلحته ولا تشرفه . . ولكن كان هنا من يدافع عنه وعن وطنيته . . ومن هؤلاء بعض من نعزهم . . ونسمع كلامهم . . هذا الرجل في ذلك اليوم كالملسوع لم يقر له قرار . . كان يأخذ أنفاسه وهو يحدثني وكأنه يهددني : ما هذا الحفل ؟ . . كيف ؟ . . ما هذا الهتاف الذي يردده الطلاب ؟ . . ما هذا الجنون؟ . . يجب أن تغيروا لهجتكم إن هذا يغضب الإمام ؟ . . هذا جنون !! . . هذا حماقة !! . . وظل يهذي كالمحموم . . وأنا مبهوت استمع إليه . . ترى ما اعترى هذا الرجل؟ . . ما دخله ؟ . . ما الذي يؤذيه ؟ . . ها نحن نتكلم بالميكروفون وأمام ابن الإمام فما الذي حشر رجلاً كهذا . . !!

إن هذا الذي نقوله؛ نحن نعلنه على رءوس الأشهاد . . هؤلاء الشباب . . ما هتفوا قط مأجورين . . ما تحمسوا قط متصنعين . . هاهم يرفعون أصواتهم أمام ممثلي الإمام ، أمام الجميع ، فما الذي هز هذا ، إن الأمر لا يعنيه لقد بهت من هذا الموقف العجيب ، رجل يدافع عن الإمام ، عن الظلم والفساد عن المذهبية والفرقة ، عن الرجعية ، عن السخف ، عن مخالفات عصور الظلام بما لا يدفع عنها آلهتها ، يا هذا مالك . . !!

المهم فهمنا في هذا اليوم أن هنالك مجموعة من التنابلة سيظهرون حالاً وسيؤدون دورهم ، ويقومون به خير قيام .

وقد قيل فيما بعد إن الإمام كان يتلوى ألمًا وحزنًا؛ لأن الشباب هتفوا بحياة الزعيمين النعمان والزبيري ، وأنهم رفعوهما على الأعناق ، في حين لم يقابل البدر بمثل هذا الحماس وتلك القوة .

تفاؤل وانتظار

عاد نعمان إلى اليمن مع الأمير البدر ، وبقي الزبيري وصحبه بالقاهرة . وبدأت مرحلة كان الجميع ينتظرون أن تكون الفاصلة في حياة الشعب . كان الكثيرون ينتظرون أن ينتهي الصراع بين الشعب وحكامه ، لتتوجه الجهود نحو البناء وتعويض ما فات ، ولعل اليمن لم تعهد في السنوات العشر الأخيرة فترة أكثر تفاؤلاً واستبشاراً ، وحسن نية من تلك الفترة التي تلت الانقلاب اليمني الثاني : الإمام تخلص من إخوانه الذين كانوا يناوئون ابنه ، والذين كان يدعي أنهم هم العقبة في سبيل الإصلاح . . الأحرار جمعتهم الأحداث في صف واحد مع الإمام وابنه . . طوائف الشعب اليمني كلها ملتفة حول الإمام . . مصر والمملكة العربية السعودية في جانب الإمام تشجعانه .

لقد كان كل شيء يوحي بالأمل والرجاء بل والثقة في المستقبل ، ولكن الأيام تمر . . والآمال تتبخر والثقة تتضاءل ، والإمام لا يزداد إلا نفوراً وعتواً ، كان الناس ينتظرون حتى يستعيد الإمام توازن أعصابه وتهدأ ثائرته، ولكن كل يوم كان يمر ، كان يثبت أن الإمام يمعن في استخفافه بالشعب ، وإنكاره لمطالب الشعب ، كل يوم كان يمر كان يثبت أن الإمام يريد أن يتخلص سريعًا من الأشخاص الذين كان يمكن أن يفتنوه ، وأن يوقعوه في شراك الإصلاح وتغيير خط السير الذي سار فيه منذ نعومة أظفاره ، كل يوم كان يحمل دليلاً جديدًا على الغطرسة والتجبر وعلى استهجان ما قام به الشعب لمناصرته ، كان الإمام يردد بمناسبة وغير مناسبة أنه نصر نفسه بحد السيف ، وأنه لا فضل لأحد عليه . . لم تقبل نفسه المغرورة أن يرى أحدًا ممن ساهموا في انتصاره ، كان يريد أن يقضي على هذه الظروف السيئة التي تكالبت عليه ، تدعوه في رفق إلى إنهاء حكم الغاب ، يا لها من كارثة . لقد قضى على كل الذرائع والعقبات التي كان ينسب إليها نتائج حكمه الفاسد ، مسكين الإمام هذا . . إنه في وضع لا يحسد عليه . . القبائل ، الجيش ، الشعب كله في الداخل ، الأحرار في الخارج ، المهاجرون كلهم، مصر ، السعودية ، العرب كلهم. أجل الجميع مع الإمام . . معه ينتظرون منه إشارة البدء ليعملوا معه ليسدلوا الستار على الماضي . . ماضي أجداده وأبيه ، ماضيه هو ، بما في هذا الماضي من بشاعة ، وبما حل على الشعب خلاله من كوارث ونكبات .

أجل كانت الدنيا كلها تفتح ذراعيها لتستقبله محرراً ، مصلحًا ، ثائرًا على واقعه وعلى نفسيته وأفكاره ، رغم الدماء الزكية ، دماء الأبرياء التي أراقها والأرواح التي أزهقها ، لقد عاش طول حياته وحشًا مفترسًا كاسراً ، عاش وميزته الوحيدة أنه وحش ، تسكره الدماء ، دماء الأبطال من شيوخ القبائل ورجالها ، ومن ضباط الجيش وجنوده الأشاوس ، ومن رجال العلم وطلابه ومن دماء الأطفال والعجائز الذين أهال عليهم أنقاض بيوتهم كلما حلت به نزوة أو مسه شيطان رجيم .

أجل ، رغم هذا الماضي الملطخ بالدماء ، رغم هذا الماضي الأسود الكالح ، رغم هذا الماضي الذي أحال العربية السعيدة إلى مقبرة تعسة . . رغم كل هذا كان الجميع يريدون أن يبنوا وأن يعمروا . . وأن يعيدوا تشييد ما أفسده الأئمة . . ولكن هيهات . . لقد عاش وحشًا . . عاش فاجعة على الشعب ، ومحال أن يستحيل إنسانًا ، محال أن يترك هذا الماضي ، هذا التراث الحافل ، وأن يبدأ إنسانًا من جديد ، شأن كل الطغاة .

امتد هذا الانتظار وطال ، مر الشهر الأول ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، وأخيراً الخامس ، والرجل سادر في غيه لا تزيده الأيام إلا إخلاصًا ووفاءً للتقاليد ، التقاليد الشريفة ، تراث آبائه من الأئمة المجددين رضوان الله عليهم أجمعين . . !! إنه « أحمد يا جناه » فهل يتنكر لتعاليم أبيه . . ؟؟

عودة

هنا هل يستمر الأحرار في الانتظار ، وإلى متى ؟ . . هنا تهتك الأستار ، وتنقشع الغلالات الرقيقة التي كانت مسبلة على عدد كبير من الأشخاص ، هنا يظهر موقف الأحرار ، وموقف من حكمت عليهم الظروف أن يعيشوا فترة في صفوف الأحرار ، بدأ الزبيري من جديد يوجه أحاديثه من راديو صوت العرب ، وكانت هادئة أول الأمر ، مقصورة على تذكيره بأن الشعب لا يزال نفسه يتردد وأن من الخير للإمام وللشعب وللناس جميعًا أن يسير الإمام في طريق الإصلاح ، وأن ما وقع من حوادث في اليمن خلال السنوات الأخيرة كاف لإقناع الإمام ومن مع

الإمام أن السياسة العرجاء لا تعود عليهم إلا بالنكال . وزادت قوة الأحاديث مع الوقت واشتدت لهجتها ، وخاصة حينما اتضح إصرار الإمام وأذناب الإمام وتشبثهم بالسياسة العتيقة ، سياسة التدمير والضحك على الشعب والقضاء على كل أمل في الإصلاح والسير بالبلاد في الطريق الذي يداوي جراحها ويزيل ويلاتها ونكباتها .

ولعل الناس لا ينسون من تلك الأحاديث «من حقي ألا يقطع رأسي» ، فهل من حق أحد أن يزهق الأرواح بدون « محاكمة » و « عبر من التاريخ » .

وهكذا عادت النفوس ثائرة حانقة ساخطة ، أما في الداخل ، فإن الأستاذ أحمد محمد نعمان ، بطل الانقلاب الثاني ، صبر وانتظر وحاول ، ولما نفد صبره ، واتضح له أن الإمام غير جاد ، وأنه يتلاعب ، ويضيع الوقت ، وأنه لا جدوى من الانتظار ، رفض البقاء ، والنعيم المقيم ، وترك الأسماء الضخمة ، التي كانوا قد أرادوا إرضاءه بها ، مستشار المعارف ، مستشار الخارجية ، مستشار ولي العهد . . إلخ .

رفض النعمان كل هذا لأن مصلحة الشعب التي عمل لها طول حياته لم تكن تتحقق بكل هذه الأسماء . . وهاجر النعمان . . خرج وشرد عائلته معه . . من الأراضي التي أحبها وقضى في سبيلها العمر شريداً سجينًا .

مهدداً بالموت في كل لحظة . . خرج ليستأنف الكفاح ، ليعلن للدنيا من جديد مظلمة أمته ، خرج ليكشف للعالم جراح شعبه ، خرج ليعيش شريداً من جديد . . يشارك مواطنيه المهاجرين السعي والتشتت تحت كل سماء . . خرج ليشارك من في الداخل الحرمان وقسوة الحياة ، وشظف العيش .

وتعالت الأصوات . . هذا جحود . . هذا نكران للجميل . . لقد حفظ له الإمام حياته في الثورة الأولى . . لقد عطف عليه الإمام وأكرمه ، وعينه مستشاراً للمعارف وللخارجية ومرافقًا لابنه البدر . . لقد كان في وفد الإمام إلى الرياض . . وإلى القاهرة . . ماذا يريد هذا الرجل . . انظروا إنه متعنت ما الذي يرضيه بعد هذا . . ماذا يعمل له الإمام . . ؟؟

هكذا تعالت الأصوات ، دهشة ، مستنكرة ، مبهوتة من خروج الأستاذ نعمان والتجائه إلى القاهرة .

لقد كان هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم مولولين ، على حق في كل ما قالوه كانوا على أكثر من حق ، فقط ، هم أرادوا أن يجعلوا نفوسهم وما فيها من أهواء وأمراض وفهمهم للوطنية ، وإدراكهم للمثل العليا ، مقياسًا أو معيارًا للناس جميعًا ، هم صعب عليهم أن يدركوا أن هناك بونًا شاسعًا بين الوطنية من أجل الوطن ، وبين الوطنية التي يدفع إليها بعض الناس دفعًا ، تدفعه ظروفه ، وتجعل منه بقدرة قادر أحد رجال الصف الأول ، كانوا على حق فأعصابهم لا تحتمل أن يطول الصراع ، لقد انضموا إلى صفوف الأحرار ، لأن أوضاعهم ومصالحهم ومنافعهم الذاتية كانت تسول لهم المغانم والأرباح ولو على حساب الشعب ، وقد طال الصراع ، وها هم الآن قد وجدوها فرصة سانحة للتمسح بأذيال الحكام ، والحصول على كل ما تهدف إليه نفوسهم ، فلماذا يواصلون الكفاح . . ؟

ولكن كيف وصلوا إلى صفوف الأحرار . . وكيف احتلوا تلك المكانة . . هذا أمين عام الاتحاد ، وذلك نائب رئيس الاتحاد ، هذا سكرتير الرئيس ، وذلك رئيس لجنة المهاجرين أو لجنة النشر . . إلخ . كيف انخدع بهم الأستاذ محمد محمود الزبيري ، وكيف تعاون معهم، وكيف دعا الناس إلى الثقة بهم . . ؟؟

لقد وصل الزبيري إلى القاهرة ، ولم يكن بها من اليمنيين سوى أفراد قلائل ، هذا موظف بالجامعة العربية ، وذلك في ضيق مالي وعلى خلاف مع الحكومة اليمنية ، وذلك نزيل بهذا أو ذاك من المعاهد المصرية ، وكان شباب البعثة تلاميذ صغارًا بمدارس حلوان ، لم يكن أمام الزبيري مجال للاختيار ، لم يسيء التقدير وفهم أشخاصهم ، ولكنه كان أمامه إما أن يعمل وإما ألا يعمل ، وإذا أراد أن يعمل فليس إلا مع هؤلاء ، لأنه لا يوجد غيرهم ، وقرر أن يعمل ، مهما كانت الظروف، وكان يرجو أن يستطيع ـ حسب تعبيره ـ أن ينوم جراثيم الهزيمة والضعف وحب الذات في دمائهم ، أجل لم ينخدع ، ولم يقع في حبائلهم كما يقول الكثيرون ، ولكنه ـ وأنا واثق من هذا ـ كان يفهمهم جيدًا ، وكان يضيع جهودًا كثيرة في معالجة نفوسهم ومداواة أمراضهم ، وكان يشعر أنه يدير عيادة نفسية للمهووسين والمعتوهين ، ومرضى الضمائر .

وقد وجدوا بعد الانقلاب الثاني ، أن الفرصة قد سنحت ليكسبوا شيئًا ويحققوا غرضًا ، ورغم أنه لم يتغير شيء ، الحكام ، الأوضاع ، الشعب ، جراح الشعب ، كل شيء كما كان .

لقد تعبوا ، ولم يعد في إمكانهم أن يواصلوا ، لقد آثروا الانسحاب ، إلى متى يستمر الكفاح ؟ . . إلى أن يأخذ الشعب حقه؟ . . ومتى يأخذ الشعب حقه ؟ . . وما الذي يعنيهم والشعب ، وحقوق الشعب ؟ . . لقد اتخذوا من الشعب ، وسيلة للوصول إلى أغراضهم ، لقد أهملتهم الحكومة ، ولم تعرف قدرهم ، وكان أحدهم يردد في مناسبات كثيرة ، ما الفرق بيني وبين أبي طالب ؟ . . إنه زميلي ، وغيره كثيرون فلماذا يتناولون هذه المرتبات الضخمة ويطمئن إليهم الإمام . . ؟

ولعله أخيراً عرف السر ، ولكن هل حقق أغراضه . . ؟؟

أجل إنني أذكر هذا ليعرف الشعب أن من ربوا في أحضان الاستعباد ، ومن رضعوا لبان الاستبداد هم وحدهم الذين استسلموا ، تعبوا وانهاروا وباعوا قضية البلاد ، إنهم خريجو ذلك المصنع الكبير الذي يخرج منه الطغيان زبانيته في اليمن ، أما الشباب ، أبناء الشعب ، أعضاء البعثة ، فلم يرتد منهم أحد ، استعرضوا الوجوه التي باعت نفسها للطاغية كلها ، استعرضوها وجهًا وجهًا ، وستجدوها كلها دخيلة ، على الشباب المتعلم ، ستجدوها كلها ، أهملتها الحكومة لسبب أو لآخر ، وتجاهلها الأسياد ولم تتحقق مطامعها ، مطامع ، أو مكاسب شخصية . استعرضوا هذه الوجوه كلها وستجدوا وراء كل وجه قصة ، سببًا دفعه إلى الخروج من اليمن ، وارتداء البنطلون والانخراط في صفوف الطلبة ، وارتداء لباس الوطنية . لقد ظنوا هذا طريقًا سهلاً قصيراً للوصول إلى المغانم والمكاسب .

وزارة ..!

ووصل الأستاذ النعمان إلى القاهرة واستقبله الشباب استقبال زعيم وطني كبير ، وهلل اليمنيون في مهاجرهم ، واستبشر الناس في كل مكان ، فقد عادت وحدة الشعب ممثلة في زعيميه ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور القضية اليمنية .

استلم الأستاذ نعمان الاتحاد اليمني ، وبدأ النشاط يدب في أوساط اليمنيين ، وظهرت «صوت اليمن» الصحيفة اليمنية الكبرى التي اختفت عقب الثورة الأولى سنة 1948م . واستمر الأستاذان النعمان والزبيري في توجيه أحاديثهما إلى الشعب اليمني ، وكان المطلب الشعبي الرئيسي هو تأليف وزارة شعبية لا يشترك فيها سيوف الإسلام تتولى إدارة شئون البلاد الداخلية والخارجية ، وتكون مسئولة عن أعمالها ، وذات يوم يفاجأ الناس بالإمام أحمد يعلن أنه :

نزولاً على إرادتنا قررنا تشكيل وزارة يمنية برئاستنا من الأولاد الآتية أسماؤهم :

ـ سيف الإسلام البدر نائبًا لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية ووزيراً للدفاع .

ـ سيف الإسلام القاسم وزيراً للمواصلات .

ـ سيف الإسلام إسماعيل وزيراً للصحة .

ـ سيف الإسلام علي وزيراً للمعارف .

ـ السيد حسن إبراهيم وزير اليمن المفوض بإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وزيراً للدولة مع احتفاظه بعمله الأصلي .

ـ السيد عبدالرحمن أبو طالب وزير اليمن المفوض بالقاهرة وباكستان والصين الشعبية وروسيا وتشيكوسلوفاكيا وزيراً للدولة مع احتفاظه بعمله .

ـ القاضي محمد العمري وزير دولة ونائبًا لوزير الخارجية .

ـ السيد أحمد زبارة « زوج ابنة الإمام» وزيراً .

ـ القاضي أحمد السياغي نائب الإمام وحاكم لواء إب وزيراً للداخلية مع احتفاظه بمنصبه .

ـ القاضي محمد الشامي حاكم منطقة البيضاء ، وزيراً مع احتفاظه بمنصبه الأصلي .

المهم الإمام رئيس الوزراء وابنه وأخوته ووزراؤه في الخارج وحكامه في الأقاليم أعضاء الوزارة مع احتفاظهم بأعمالهم .

وبهذا أصبحت اليمن ، إمامة رئاسية . . الله ، لماذا تضحكون ؟؟ . . أليست أمريكا جمهورية رئاسية . . ؟؟

الشعب يطالب بوزارة ؟؟ . . هذه وزارة

وزارة شعبية ؟؟ . . طيب ، وهذه وزارة شعبية ، هل يجرؤ أحد على أن يقول إن الإمام ليس من الشعب ؟؟ . إنه الشعب .

وبهذا يكون الإمام قد أجاب المطلب الرئيسي ، وبدأت الوزارة الشعبية الشريفة عملها ، وكانت نشيطة ساهرة .

أرسلهم الإمام إلى الرياض حيث قضوا أيامًا التقوا فيها بالملك سعود . . ووصلوا بعد ذلك إلى القاهرة ليحطموا حركة اليمنيين الأحرار ويقضوا عليها ، لقد جن جنون الإمام ، وأصبح سجينًا في قصره ، بل إنه جمع الحبوب والمياه والتموين وأعد السلاح والمدافع الرشاشة في أسطح قصوره ونوافذها استعدادًا للدفاع ، وكان كالملسوع ، لقد حطمت صوت اليمن أعصابه وأصبح يخور كالثور الهائج ، وكان لا يطلب إلا رأس نعمان والزبيري ، وصوت العرب ، يسمع في كل بيت . . ماذا يفعل ؟؟ . . إن الجيش ثائر ، والشعب متذمر ، والمنشورات في كل مكان وأجهزة الراديو في كل بيت ، وصوت اليمن تصل كل أسبوع . . ما العمل . . ؟؟

حملة متوكلية

لقد جمع أصلب رجاله عودًا ، وأكثرهم حيلة ودهاء ، وأعظمهم إخلاصًا وولاء ، جمع أحسن من فهم عنه ، وعن أبيه دروس الاستبداد ومكر المستبدين ، جمع كل هؤلاء وأرسل منهم حملة متوكلية مزودة بكل الأسلحة والإمدادات ورسم لهم الخطة أو رسموها له لا ندري :

1 ـ إسكات صوت العرب وأحاديثه عن اليمن .

2 ـ إيقاف صوت اليمن .

3 ـ حل جمعية اتحاد اليمنيين الأحرار بالقاهرة .

4ـ التشكيك والنيل من سمعة الأستاذين أحمد محمد نعمان ، ومحمد محمود الزبيري .

5ـ تشريد الشبان الأحرار ، واضطهاد الطلاب .

وفي القاهرة؛ أقام رجال الحملة المتوكلية أكثر من ثلاثة أشهر استخدموا فيها كل الوسائل .

كانت البلاد العربية كلها في تلك الآونة هدفًا لمؤامرات صهيونية واستعمارية ، حلف بغداد والضغط على الأردن ، عدوان اليهود ومعركة الصبحة ، مؤامرات على سوريا ولبنان .

استغلت الحملة الإمامية هذا الظرف العصيب وقامت بمساعيها الدبلوماسية باسم ملك اليمن لدى حكومة الثورة المصرية ، وكانت قبل ذلك قد قابلت في الرياض الملك سعود ، وقدمت له رسالة من أخيه الإمام أحمد ، فوقع ضغط ثنائي من اليمن والمملكة السعودية ، وكانت مصر إزاء أخطار سياسية ومؤامرات دولية ، والسياسة الخارجية في تلك الفترة كانت تلعب دوراً مهمًا في مستقبل القومية العربية ذاتها .

هذا من الناحية السياسية .

وفي صفوف الطلاب ، بدأ رجال الحملة في الاتصال بصفوف الطلاب سرّاً وعلانية ، يقدمون الرشاوى ، ويوزعون الأموال ، وينشرون الوعيد والتهديد والوعود ، ولكن دون جدوى ، لقد عرف الشباب ما يراد بهم وبحركتهم وبشعبهم، عرفوا كل هذا ، ولم يستجب أحد من شباب البعثة ، نعم نقولها ونكررها ونفخر أن نرددها ، لم ينجحوا في أن يجدوا عميلاً واحدًا من الطلاب ، الطلاب الذين يتعلمون في مدارس مصر ، الذين خرجوا من بلادهم للدراسة والتحصيل ، هؤلاء الطلاب الذين تفتحت عيونهم أول ما تفتحت على الحرية وأصوات الأحرار ، ولكنهم وجدوا مجموعة من أولئك الذين احترفوا العمل الوطني وانتسب بعضهم إلى الطلاب .

في صفوف الشباب

هؤلاء الأنفار بدءوا حملة من التشكيك في الأستاذين نعمان والزبيري ، بدءوا يثيرون كثيراً من الزوابع والعواصف ، وأخذوا ينتشرون في صفوف الطلبة ويتصلون بأوساط اليمنيين في المهاجر ، ويقولون هنا وهناك إن نعمان والزبيري ، يستبدان بالقضية الوطنية ، وإنه لا يجوز أن تظل القضية في أيديهما ، وإنه لابد من أن يتكون مجلس أعلى . وقالوا إن هذا المجلس الأعلى يجب أن يدخله السيد عبدالرحمن أبو طالب وزير اليمن المفوض في مصر ، مع احتفاظه بمنصبه كوزير للإمام أحمد .

وقد قال لهم نعمان والزبيري : أنتم تطالبون بالديمقراطية ، وتقولون إننا مستبدان ، وتطلبون تكوين مجلس أعلى للقضية ، نحن نقبل تكوين المجلس الأعلى على أن ينتخبه الشباب الموجودون في القاهرة . فرفضوا ، وقالوا إن الشباب ما زالوا في دور الدراسة ولا يحق لهم هذا . قال لهم النعمان والزبيري ، إذن الديمقراطية عندكم هي أن تكونوا أنتم قطب الرحى في الاتحاد ، الديمقراطية التى تفهمونها هي أن تكونوا أنتم مجلس الوصاية على القضية .



بعض الطلبة الجامعيين

قال هؤلاء الأنفار، لا، ليس هذا بل سيشترك معنا آخرون، وقدموا أسماء هؤلاء الآخرين، فإذا هم جميعًا في عدن والسودان، ولا يوجد أحد منهم في القاهرة.

وبهذا يكون المجلس كله في يد أبي طالب، وقد حاولوا أن يجمعوا الطلاب وأن يقوموا بمظاهرة (هكذا) إلى دار الاتحاد اليمني ويحتلوا الاتحاد . . !!

كما كانوا يعملون على أن يقوم الطلاب بالاحتجاج لدى الحكومة المصرية على إذاعات الزبيري والنعمان في صوت العرب، وأن هذه الإذاعات تسيء إلى شعور اليمنيين.

لقد كانوا يريدون أن يشعروا ثوار مصر أن نعمان والزبيري لا يمثلان الشعب، وأن الشعب كله مع الإمام أحمد وحواشيه .

وقد صدهم الطلاب صدًا عنيفًا، ولم يتعاون أحد معهم .

وصلتنا صورة عما يحدث في القاهرة إلى باريس، فكانت صدمة قوية عنيفة، وكان من العسير أن نظل بعيدين عن هذا الصراع، خاصة وهو صراع كان الطغاة والأذناب قد اختاروا أن يكون سلاحهم فيه الشباب .

وقد بعثنا برسالة إلى سبعة عشر طالبًا نهيب بهم أن يطهروا صفوف الطلبة من أذناب المرتزقة .

رسالة من باريس

بسم الله الرحمن الرحيم

باريس في 21 سبتمبر 1955م .

الأخوة الأحباب السادة: علي الجناتي، حسين علي عبدالله، إبراهيم الوزير، محمد أنعم غالب، حسين محمد المقبلي، طاهر رجب، عباس الوزير، محمد عبدالله عبده، أحمد هاجي، إسماعيل الأكوع، يحيى المطاع، أحمد الخزان، عبدالله الكرشمي، محمد الرباعي، محسن السري، محمد خشافة وعلي العيني.

السلام عليكم جميعًا أيها الأحباب . .

وقد شاءت الأقدار أن نبعد عنكم ، ولكننا في هذه الأيام المليئة بالأحداث ، نشاركم أفراحكم وأحزانكم ، ونشاطركم أفكاركم ، ونعيش بعقولنا وقلوبنا معكم ، وقد تستغربون أن نكتب لكم من هنا مجتمعين، وقد يعتبرنا البعض متطفلين إذ نتدخل في أمور تحدث في مجتمعكم الصغير ، رغم بعدنا عنه ، ولكننا أيها الأحباب سنكتب لكم دائمًا ، وسنظل على اتصال بكم مهما باعدتنا الأحداث وفرقتنا الظروف .

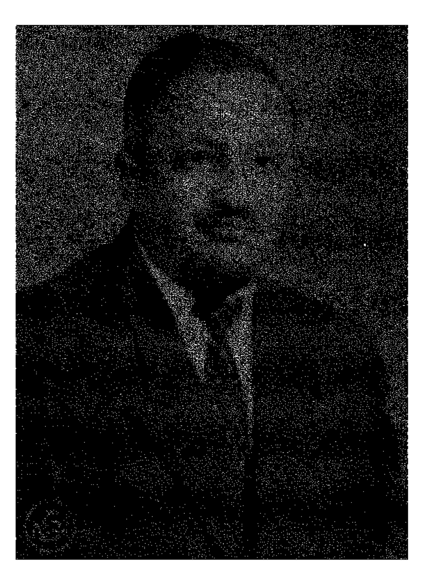
أيها الأحباب ، إنكم تعيشون في زوبعة ، وفي وسط دوامة صاخبة هائجة لا تترك لكم فرصة لتسمعوا ما يصدر منكم أو ما يصدر من عندكم ، فمن يعش وسط الجلبة والصراخ لا يمكنه أن يقدر ما تحدثه هذه الجلبة والصراخ ، ولا ما يثيره هذا الدوي الهائل .

وعليه ، فنحن ـ ونحن هنا بعيدون عن جلبتكم وضوضائكم ، بعيدون عن مركز هذه الدوامة ـ نستطيع أن نحكم على الأثر ومداه .

أيها الأحباب ، لقد كان وصول الأستاذ أحمد محمد نعمان إلى القاهرة حدثًا اهتزت له مهاجر اليمنيين في كل مكان ، حتى هنا في مرسيليا ، حيث توجد جالية كبيرة كانت أبعد الجاليات عن دعوة الأحرار وحركتهم ، وقد أحسسنا أن شخصيات لها أثرها في محيط هذه الجاليات قد صحت وبدأت تنشط ، وعاد الأمل إلى النفوس التي كان اليأس والخور والضعف قد خامرها . لقد ملأ النعمان الفراغ الذي ظل شاغرًا طوال السنوات السبع في حركة الأحرار ، وكان هذا الفراغ سببًا رئيسيًا في ضعف الحركة وبطء سيرها ولا نخال أحدًا ينكر هذا ، وقد لمسنا الحال هذه في عدن والحبشة والسودان واليمن، بل والقاهرة نفسها .

إن خروج الأستاذ النعمان كان حدثًا من الأحداث التي سيذكرها تاريخ الحركة اليمنية ، إنه حدث استبشرت له مهاجر اليمنيين في كل مكان ، وكان نقطة انطلاق كان المفروض أن تستغل ، ولكن يظهر أنكم وحدكم بالقاهرة أعمتكم الجلبة والدوي فلم تشعروا ولم تحسوا ولم تهتزوا ، فعدتم إلى الصراخ القديم ، وإلى الفنجان لتثيروا الزوابع فيه ، ونشطت بعض الطفيليات والخنافس ، وتحرك بعض

ذوي النفوس المريضة المحبة للظهور؛ فخلخلت صفوفكم يا شباب ، وجعلتكم تتخلفون عن القيام بالدور الذي كنا وكان اليمنيون جميعًا ينتظرونه منكم - عدتم إلى السخافات والترهات ، عدتم إلى الدكتاتوريات والمناقشات البيزنطية ، ونسيتم أن الشعب في كل مكان ينتظر صوتكم ، وينتظر أعمالكم أيتها الطليعة المباركة .



الأستاذ محمد محمود الزبيري

والحدث الآخر الذي هز أوتار القلوب ، وأيقظ النائمين ، هو تلك الأحاديث التي وجهها الأستاذ محمد محمود الزبيري ، من راديو صوت العرب إننا نعلم أنكم قد لا تكونون قد سمعتموها ، وقد لا يعرف الكثيرون ما هي ، لأننا كنا بالقاهرة أيام كان يوجه أحاديثه منها ، وكانت القلة هي التي تهتم بالاستماع إليها ، هذه الأحاديث أيها الشباب كانت قنابل يطلقها الزبيري فتفتح كلها فمها دهشة وعجبًا ، لقد أعلن الزبيري فيها مظلمة الشعب ، وأسمع الدنيا كلها صراخ المظلومين ، إنكم قد لا تقدرون أهميتها ، ولكن اسمعوا لقد نشرت صحف فرنسا فقرات من تلك الأحاديث باللغة الفرنسية ، بل لم يعد غريبًا أن نسمع في مجالس الطلاب العرب في الحي اللاتيني النقاش والجدل حول قضية اليمن ، ضمن المسائل العربية التي يناقشونها ، إن هذه الأحاديث قد أخرجت القضية اليمنية من حيزها

الضيق إلى مجال واسع ، وبدأ الناس اليوم يعطفون عليها ، أما بالنسبة لليمنيين في المهاجر والداخل فأثر لا يحتاج إلى تعليق .

والقنبلة الثالثة التي أطلقت من القاهرة هي « صوت اليمن » وهذا حدث قد يكون في وسطكم تافهًا عاديًا ، لأنكم تقرءون أخبار اليوم ، وآخر ساعة والأهرام والجمهورية ، وهي صحف ضخمة فخمة أنيقة ، فلا تجد « صوت اليمن» منكم سوى نظرة عطف عابرة حانية ، ولكن يا شباب ، إنها الشرارة التي أشعلت ثورة 1948م ، إنها صوتنا يصل إلى إخواننا ويتغلغل في نفوسهم ، ويعمل على إذابة رواسب الماضي .

إنه حدث ضخم من الأحداث الجسام . .

أيها الأحباب . . هل يحق لنا ولكل مخلص لحركة الأحرار أن يرسل اللوم والعتاب على موقفكم المؤسف من نعمان والزبيري . . في هذه الأوقات العصيبة التي يكافحان فيها ويعملان ويرفعان قضية الشعب إلى السماء . . ؟! هل يجوز أن تقف الطبقة الواعية المثقفة مواقف أقل ما توصف به بأنها مخزية ، تدل على السخف والبساطة والسذاجة ؟!

هذا الذي يفكر في ذهاب الطلاب إلى الاتحاد في شكل مظاهرة ، إنه معتوه ، بليد ، غير جدير بالجلوس في صفوف الأحرار ، هذا الذي يحرض الطلاب على خذلان النعمان والزبيري فى أثناء صراعهما الجبار ضد الطغيان ، إنه ملعون بلسان الأرض والسماء ، مطرود من صفوف الأحرار ، هذا الذي يهمهم ويشوش ويتباكى على مصالح الشعب ، ويتخوف عليها من تصرفات الزبيري والنعمان ، إنه حقير جاهل إذ يعمل هذا في الوقت الذي جمع الطاغية رجاله كلهم وأرسلهم إلى الرياض ، وأبقاهم في القاهرة .

إننا من هنا نعتبر كل من يعمل ضد النعمان والزبيري خائنًا ، عدوًا للأحرار عدوًا للشعب ، دعوا عنكم السخافات والخرافات ، « الإخلاص للمبادئ » ، لا أهمية للأشخاص ، هذا كله وهم باطل وفهم سقيم .

فالمبادئ لم توجد في يوم من الأيام معلقة في الفضاء ، ولكنها دائمًا متجسدة

أشخاصًا من لحم ودم ، ثم ما قيمة هذه المبادئ وما فائدتها ، وما أهميتها إذا لم يكن لها أشخاص يخلقونها ويحملونها ويدعون لها ، ويحمونها ؟!

ثم لنلمس الواقع التاريخي للحركات العالمية كلها ، لم تنجح حركة من حركات الكون إلا وكانت مقرونة بالأسماء اللامعة ، لا يمكن أن تنجح حركة إذا لم يكن لها زعماؤها ورجالها ، بل وبقدر ما يكون لهؤلاء الرجال من قيمة ومنزلة ، تكون أهمية هذه القضية واحترام الناس لها وعطفهم عليها .

لندع النفخة الكذابة ، ولنكبح جماح نفوسنا ، ولنؤثر المصلحة الوطنية الأولى، اسمعوا هذه الدروس من مراكش ، إن الأبطال والفدائيين يموتون بالعشرات والمئات كل يوم دون أن يسمع الناس اسم أحد منهم ، ولكن العالم كله يسمع أن هناك محمد بن يوسف ، علال الفاسي . تعالوا انظروا الشباب المراكشي في جامعات فرنسا ، إن هذه الأسماء ، أسماء مقدسة مجللة ، لأنها قضية مراكش ، ثم تعالوا عيشوا مع الشباب العرب المنتمين إلى مختلف الهيئات والأحزاب؛ انظروا كيف يتعصبون لقضاياهم ، وكيف يدافعون عن رجالها ، وكيف يستغلون كل مناسبة للدعوة لقضاياهم ، إنه لأمر مخجل محزن أن نظل مسوقين برواسب الماضي اللعين، تتحكم فينا النزعات الفردية والأنانية ، والدوافع النفسية الطامعة ، فإذا ارتفع منا شخص عملنا جميعًا على شده ، وتشويه سمعته ، وإنزاله إلى الحضيض الذي نحن فيه ، إن هذا هو عمل الحاقدين المتنافسين ، لن يرتفع الشعب ولن يخطو، ولن يقال من عثرته إذا ظل الشباب الحر يتدافع بالمناكب ويتزاحم ويترامى على الزعامة .

إن فينا أشخاصًا لم نعرفهم إلا منتقدين ، إنهم ينفسون على نعمان مكانته وعلى الزبيري مقامه ، وما الذي يمنعهم وأبواب المجد واسعة أن يلجوها . . ؟!

إننا ونحن نبعث لكم هذه الرسالة لا نجهل ما ستحدثه في بعض النفوس من أثر، بل إننا لنكاد نتصور تعبيرات بعض الوجوه ، وهي تقرؤها أو تسمعها ، ولكننا لا نبالي مما يمكن أين يقال ، لأنها كلمة حق تقال ، للأسف الشديد لا لملك جائر ، بل لشبان جائرين ، إن هناك أشخاصًا نقطع بأن الحقد والمرض النفسي وحب الظهور

والتنافس ، كل هذا قد أعماهم وأنساهم كل شيء ، فطفقوا يعملون دون وعي أو إدراك . وإلا فكيف نبرر هذا الموقف من أشخاص نعلم جيداً أنهم يعرفون كل شيء ، ومطلعون على كل شيء ، أجل كيف نبرر مسلك هؤلاء الشباب وهم اليوم يتعاونون مع الخونة ، أجل مع أعداء الشعب ، يتعاونون مع أشخاص وقفوا ضد حركة الشعب ، ضد الأحرار .

إن التاريخ حسابه عسير ، وإننا ونحن في مطلع الشباب ، وبداية الحياة لن ننسى مواقف هؤلاء الزملاء المزعجة ، هذه المواقف التي تمليها عليهم نفوسهم الطامعة الحاقدة المريضة .

أيها الأحباب . . إنه لأمر مزعج مؤلم ، مخيف ، هذا الموقف ، نريد أن نسمع أن الشباب الحر قد اجتمع لتأييد حركة الأحرار ، لإعلان الفدائية ، للتطوع نريد أن يسمع العالم ، وأن يسمع اليمنيون القابعون في جحورهم ومهاجرهم أن الشباب يصرخ ، ويزأر ضد الفساد ، ورجال الفساد . أما أن نسمع ، ويسمع الناس معنا ، أن الشباب يعقد الاجتماعات هنا وهناك للتآمر ، على من ؟ . . على نعمان والزبيري ، الدكتاتوريين ، المستبدين ، المتجبرين ، الخائنين.

نعم وفي نفس الوقت تكال الكلمات الحلوة اللينة الطرية ، لأنصار الطغيان وحوارييه وزراء صاحب الجلالة ، مولاكم المعظم . . !!

يا لها من فجيعة يا شباب ، يا ناس عار عليكم ، استحوا ، اخجلوا ، تكسفوا ، نعمان والزبيري أبا القضية اليمنية وصانعاها ، تضعفون مركزهما ، وتذلونهما فى أثناء وجود وزراء مولاكم العظيم ، يا للخزي والعار ، صفعات . . صفعات لكل نفس حقيرة جبانة بلهاء .

إن القلب ليكاد يتفطر حزنًا وألمًا وفجيعة . . واحد سخيف . . يتباكى على قضية اليمن . . ومصلحة اليمن من أن يعبث بها نعمان والزبيري ؟ . . من عرّف أبوه . . ما هي مصلحة اليمن . . من الذي أدخل في روعه أن لليمن مصلحة وأن للأحرار قضية . . ؟

أيها الشباب . . ارجعوا قليلاً . . ارحموا هذين الرجلين . . لقد عملا ونحن

جميعًا نيام . . عملا وأشعلا الدنيا لهيبًا . . ولم نكن قد وجدنا . . ارحموا ماضيهما . . ارحموا يوم اليمن ومستقبلها . . إنه لصعب عسير على المرء أن يتحدث ، وأن يدافع عنهما عند الطبقة الواعية المهذبة المثقفة المتعلمة الجامعية ، بل إنه كريه إلى النفس ويثير الاشمئزاز .

أيها الشباب . . إننا نطالبكم إذا كنتم حريصين على قضية اليمن . . أن تطهروا صفوفكم من المرتزقة والمرضى ومحبي الظهور والطفيليات والخنافس ، وأعداء الأحرار الذين لا يهمهم من أمر البلاد إلا عائلاتهم . . طهروا صفوفكم ، وكونوا جنوداً وجنوداً فقط ، فنحن الآن بحاجة إلى الجنود . . أما الزعماء فلسنا بحاجة إليهم . . اعلموا أن كل من يدس عليكم ضد النعمان والزبيري إنما هو خائن لكم . . أنتم . . عدو للأحرار يستحق أن يلقى أشد الصفعات من الجميع . . صدقونا ، إنه ليس حريصًا على الشعب ولا على الأحرار . . ولكنه خائن . . عدو لقضيتنا . . عدو لمستقبلنا . . وقد يكون سخيفًا أبلهًا ساذجًا لا يقدر الأمور ، ولكننا في نفس الوقت لا يمكن أن نضيع قضيتنا من أجل أمثال هؤلاء السذج .

إن قضية اليمن قد طفرت بفضل نعمان والزبيري ، ومن معهما من الشباب الحر المؤمن عشر سنوات إلى الإمام ، وحرام أن يتقدم الحاقدون ، والمرضى والخونة فيشدونها مائة سنة إلى الوراء ، وأنتم في الوجود يا شباب .

اذكروا أن الدفاع عن نعمان والزبيري في هذه الظروف دفاع عن صميم القضية اليمنية المقدسة المفداة ، كما أن محاربة شخص المستبد ، نعم شخصه هو محاربة الفساد والخبث والاستبداد اللعين ، إذ إذا قضى على المستبد ، فقد قضى على الاستبداد ، وبالمثل إذا قوى الأحرار واشتدوا وعاشوا ، نمت شجرة الحرية وقويت وعاشت وخاصة في ظروفنا ، ومن هذا ترون أن المبادئ لا توجد لوحدها ، مجردة .

إن المبدأ حقيقة ذهنية مجردة لا تغني ولا تسمن من جوع ، وليس لهذه الحقيقة حول ولا طول إلا إذا تجسدت لحمًا ودمًا وعظمًا وروحًا وعقلاً ، بل إن هذا اللحم والدم والعظم والمخ ، هو الذي يخترع هذا المبدأ ، هو الذي يخلقه ، هو الذي

ينشره ويدعو له ، وهو الذي يحميه ويدافع عنه ، وبدون هذا الشخص يكون المبدأ خرافة وأسطورة .

إننا كنا ننتظر منكم شخصًا شخصًا أن تباركوا هذه الأعمال وأن تساهموا وأن تشدوا من عضد العاملين ، كنا ننتظر أن تنوبوا عن اليمنيين في بقاع العالم فتوجهوا الشكر والاعتراف بالجميل إلى ثورة مصر ، وأن تعلنوا في نفس الوقت أن الشعب معكم في هذا ، وأن الزبيري ونعمان يمثلان جماهير البلاد ، أما أن تحدث هذه الأعمال اللعينة تحت سمعكم وبصركم ، فأمر لا يمكن استساغته ولا فهمه .

نعم . . كنا ننتظر أن ينتهي الهمس واللمز والغمز وأن يتجه الجميع إلى الإنتاج خاصة وعلى رأس الحركة الآن رجلان معروفان بماضيهما .

اذكروا أيها الشباب لتتصوروا مقدار الجريمة التي ارتكبها بعضكم ، اذكروا وتصوروا كفتين أو جانبين أو جبهتين ، نعمان والزبيري بصبرهما ، وكفاحهما وماضيهما ، وتشردهما وصراعهما الطويل من أجلنا ، هما في جانب ، وفي الكفة الأخرى ، فلان وفلان وزملاؤهما من وزراء الطاغية وحوارييه وأنصاره .

يا لها من جريمة ، يا لها من نذالة ، إننا ما كنا نتصور أن يحدث هذا من يمني جاهل بسيط ، ناهيكم من شباب متعلمين ، يدعون انتسابهم إلى الأحرار .

قد يكون لهذا البعض رأي معين في إصلاح أو تنظيم ، ولكن يجب على هذا البعض أن يختار الوقت المناسب والطريقة المعقولة ، إذ كيف يبرر موقف هذا البعض والطاغية قد حشد رجاله كلهم في القاهرة للصراع مع الأحرار . كان يجب أن تتكتل كل القوى ، وأن يكون الشباب هو الكتلة الحديدية التي لا تفل ، فيعلن عن بكرة أبيه انضمامه إلى الأحرار ، الأبطال في المطالبة بحقوق الشعب .

أيها الشباب ماذا نقول لكم . . ؟!

يجب ألا ننسى الإساءة ، يجب أن يحاسب كل فرد على أعماله ، إننا ننسى الإساءة ، وإلا فكيف أيها الشبان الأحرار يتخلل صفوفكم أشخاص وقفوا دائمًا ضد حركة الشعب ؟ . . كيف يشترك معكم هؤلاء الأشخاص في التوجيه والنقد ، ضد نعمان والزبيري ؟ . . كيف نسيتم يا أطفال . . ؟!

أيها الشباب يجب أن نكون حذرين وأن ننتبه؛ فإن العائلات التي عاشت على رقاب الشعب ، وشربت دموعه وعرقه ودمه ، وشاركت الطغيان ، وكانت زناجيره وقيوده ومغالقه ، هذه العائلات تنظر اليوم والطغيان ينهار بناؤه حجراً حجراً فيهولها الأمر ، ولكنها لا تستطيع أن تسنده لأنه لا أمل في تقويته ، هذه العائلات ترى اليوم أن الزمام قد أصبح في أيدي الأحرار .

وإذن؛ فالطريقة الوحيدة للاحتفاظ بمصالحها ومراكزها هي أن تدخل في صفوف الأحرار ، وتشترك معهم ، وتطالب معهم ، وتمثل نفس الدور الذي مثلته مع الطغاة . هذه العائلات أيها السادة ، ستوجه اليوم ، وستشترك في النصح وسيكون أهم أهدافها التشكيك في رجال الأحرار ، والتشهير بزعماء الشعب الحقيقيين . . لقد حرم شعبنا من الرجال الذين يدافعون عنه ، وقد نسيه هؤلاء أيام محنته ، وكان نعمان والزبيري وزملاؤهما يعملون في الميدان منفردين .

إن الشعب في اليمن لا يعرف أن أحداً عطف عليه في محنته . إن نعمان والزبيري هما الممثلان الحقيقيان للشعب ، هما زعيما حركته النقية الصافية الخالصة . أما نحن جميعاً أيها الأحرار ، فنحن القوى التي تسير عليها القضية ، نحن حراسها ، نحن المدافعون عنها ، نحن رجالها ، نحن حماتها .

أخيراً يجب ألا تستغربوا منا هذا فالقضية قضية الجميع ، ونحن لم ننسحب من الميدان ، وإن بعدنا عنكم فالموضوع موضوع غدنا المشترك ، موضوع مستقبلنا ، تقبلوا نصيبنا من الهذيان ، فلو كنا بينكم فربما تكلمنا أكثر من هذا . . وأخيراً نحييكم والعاملين جميعاً والزملاء الطلاب جميعاً ، ويشاركنا في تحيتكم جمع من أبناء الجالية اليمنية ، ومن الشباب العربي .

وسلام عليكم» .

إخوانكم المخلصون :

يحيى حمود جغمان ، محمد أحمد الرعدي

محسن أحمد العيني

غدر وتزييف

هذه هي الرسالة ، وهي في الواقع تقرير أو بيان بوجهة نظرنا بعثناه إلى زملاء لنا عشنا معهم ، وتعاونا بل وكانت بيننا صداقة ، وكنا نتوقع أن يثور بعض الأشخاص، ولكننا لم نتصور أن تتعدى ثورته الرد علينا بوجهة نظره مصحوبة بما شاء من الهجوم . ولم يخطر ببالنا أن هذا البعض سوف يلجأ إلى وسيلة جبانة للرد علينا .

بعثنا هذه الرسالة في مظروف خاص بالأستاذ علي الجناتي الذي كان سكرتيراً أي أمينًا لسر اتحاد اليمنيين الأحرار ، ومعها رسالة له قلنا فيها له أن واجب الزمالة يفرض علينا أن نبدي وجهة نظرنا إلى زملائنا هؤلاء ، ورجوناه أن يقرأها عليهم ، أو أن يتخذ أي طريقة لإطلاعهم عليها ، على أن تظل الرسالة في يده حتى لا يستغلها مستغل ، وكان أساس تقديرنا ليس هو وطنية الجناتي فحسب ، بل والزمالة والصداقة أيضًا .

وقد وصلتنا رسالة من الجناتي يقول فيها إن أحدهم أراد أن يرد علينا حرفًا حرفًا، وأنه نقلها بخطه ولم يسمح له بأخذ الأصل ، ثم بعث لنا الأستاذ الجناتي برسالة ثانية يبدي رغبته في التخلص من الرسالة وإعادتها إلينا .

مرت الأيام ونحن ننتظر على أحر من الجمر الرد « حرفًا حرفًا» . . ووصل الرد فعلاً؛ ولكن لا من القاهرة ، بل من تعز . وكان ردًا مقتضبًا بليغًا في برقية « أمر مولانا ـ أيده الله ـ بعودتكم بحرًا فورًا عن طريق جيبوتي ، استعدوا وأبلغوا وكيلنا لنأمر بتسهيل سفركم » .

وظنوا هذا ردًا مفحمًا سيسكتنا إلى الأبد . . وعرفنا يومها أن السادة الزملاء

الأصدقاء الأحرار قد صوروا رسالتنا بالزنكوغراف ، وبعثوها إلى إمام تعز إثباتًا للإخلاص والولاء ، ودليلاً على أنهم قد عادوا إلى الملة أو على الأصح إلى الحظيرة .

ترى لماذا لم يرسلوا للإمام أصل الرسالة وقد كانت بين أيديهم؟ . . لقد ظللنا نتساءل عن السبب . . حتى فوجئنا ذات يوم بمن يقول لنا إن رسالتنا قد حوت تفصيلات مؤامرة واسعة النطاق ، وأن فيها خطة لاغتيال مائة وخمسين رجلاً من المسئولين اليمنيين ، بل وأن في هذه الرسالة أو على الأصح الصورة الزنكوغرافية التي قدمت إلى الإمام الترتيبات للقيام بهذه الثورة . . ! !

هنا فقط عرفنا لماذا لم يقدموا أصل رسالتنا إلى الإمام ، لعله كان من العسير أن يضيفوا شيئًا إلى الرسالة أو أن يشوهوها أو يبدلوها ، لأنه من العسير الحصول على ورق مماثل تمامًا لورق الرسالة كما أن الخط سيظهر اختلافه ، ولكن عند التصوير تختفي المعالم المميزة الدقيقة للخط ، ولا يظهر الفارق في الورق .

بقيت أسئلة . . لماذا زيفوا رسالتنا هذه ، وأضافوا إليها أشياءً من عندهم ؟ هل حقدًا علينا وتجسيمًا لجريمتنا؟ . . هذا غير معقول ، لأن رسالتنا وحدها دون أية إضافة أو تشويه كانت كافية لتشريدنا ، وغضب الإمام علينا .

هل أراد هؤلاء المرتدون أن يعيدوا سبب التطرف إلينا ، وأن يقدموا للإمام ما يغفر لهم ماضيهم . . ؟

هذا أيضًا بعيد ، إذ قد عرف هذا التزييف ، وهذه الإضافات شخصيات يمنية كبيرة كانت في القاهرة آنذاك ، بل إن بعض الشخصيات قد اشترك في هذا التزييف .

يتضح من هذا أن التزييف كان له مبرر قوي ، وهذا التزييف ليس له أي أثر بالنسبة لنا ، بل إنه ليس تزييفًا علينا ، إذ ما كتبناه يكفي لقضاء مآربهم ضدنا . . إنه تزييف على الإمام أحمد . هؤلاء الرجال الذين يلتفون حوله لماذا يضحكون عليه ؟ . . لماذا يخيفونه؟ . . لماذا يهولون الأمور ويجسمونها ؟ . . لماذا لا ينقلون له الحقائق المجردة ؟ . . لماذا يظهرون له اليمنيين الأحرار كأفراد عصابات ، لماذا

يصورون له جمعية الاتحاد اليمني كجمعية إرهابية ؟ . . لماذا يصورون له نعمان والزبيري هذين الرجلين المسالمين كقاطعي طريق ؟ .

وبعد ، فقد كانوا جميعًا يهدفون إلى إشعار الإمام بأنه في خطر ، كانوا يعملون على أن يفهموا الإمام أن اليمنيين جميعًا ضده ، يتربصون به الدوائر ، وأن هناك دولة أو دولاً تساعدهم ، كانوا يريدون أن يتأكد الإمام أن الدنيا كلها تريد القضاء عليه ، وقد زادوا من عندهم أن مصر تعطف على حركة الأحرار .

وكانوا يريدون من كل هذا ، أن يرتمي الإمام في أحضان الشركات الاستعمارية ، كانوا يريدون أن يثق الإمام بهم ، وأن يتجه معهم إلى الغرب ضاربًا عرض الحائط بالعرب والسياسة المتحررة الجديدة ، كانوا يريدون أن يشعروا الإمام أن العرب ضده ، وأن الأحرار ضده ، وأن الناس جميعًا يدبرون الفتك به والقضاء عليه ، وأنه لابد له من الارتماء في أحضان شركاتهم الأمريكية والصهيونية ، ليقوي نفسه ونظامه .

العنف

ونريد هنا أن نقول إن الأحرار حتى الآن لم يلجئوا إلى العنف ، ولم يدعوا إليه ، نريد أن نقول هنا إن الأحرار حتى الآن قد سلكوا طرقًا مسالمة هادئة ، اكتفوا بالالتماسات وتقديم الرجاء تلو الرجاء ، والتحذير تلو التحذير ، اكتفوا بإظهار مخازي الحكم القائم أمام الشعب ، عسى أن يخجل الحاكمون ، اكتفوا أن يبينوا للشعب المظالم والمهازل والفضائح التي يزخر بها الحكم المتوكلي ، وكانوا حتى الآن يرجون أن يصلح الحكام من أنفسهم ، وأن يقودوا هم نهضة البلاد .

إن الإمام أحمد يعرف كم لجأ إليه الأحرار وعرضوا عليه مطالب الشعب ودعوه إلى تزعم حركة الإصلاح مذ كان أميرًا ، إن سيوف الإسلام كلها يعرفون كم بذل الأحرار من جهود لإقناعهم بحقوق الشعب ، ودعوتهم إلى أن يغيروا من سياستهم . إن الشخصيات اليمنية المسئولة الكبيرة كلها تعرف كم فاوضها الأحرار ، وكم اجتمعوا بها ، وكم ناشدوها أن تعمل من أجل مصلحة البلاد .

إن الجميع يعلمون بخطوات اليمنيين الأحرار ويعرفون أنهم مسالمون بل وأنهم غير متشددين ولا متطرفين ، وأنهم لم يلجئوا إلى العنف ولا يحبذون اللجوء إليه .

وإن الإصرار على تشويه حقيقة اليمنيين الأحرار وإظهارهم بالإرهابيين ، لن يكون له نتائج طيبة لأحد ، إن الإصرار على الزعم بهذه المفتريات سيدعو كل من يريد العمل لليمن أن يتخذ طريقًا أخرى .

وحركات العالم كلها التحريرية سواءً ضد الاستعمار أو ضد الاستعباد تلجأ اليوم إلى العنف ، إلا حركة اليمنيين الأحرار .

ولنا أن نسأل لماذا ظلت حركة اليمن حتى اليوم تستجدي الإصلاح استجداء ؟ .

وهل تظل الحركة تسلك هذا السبيل ؟ . . وإلى متى ؟ . . هل يظل زعماء الأحرار يلتقون برجال الوضع الحاضر في اليمن ، ويناقشونهم ، ويجادلونهم ويستجدون منهم في لين ، خطوات الإصلاح والنهضة ؟

إن الظلم في اليمن أشد وأقسى وأكثر وحشية من ظلم فرنسا للجزائريين .

إن حكومة اليمن تعذب اليمنيين في الداخل وتشردهم وتتعقبهم في الخارج ، وتعتقلهم بصورة لم تقم بها دولة استعمارية في العالم .

إن ضحايا الحكم المتوكلي في اليمن من المشردين واللاجئين والتائهين تحت كل سماء أكثر من ضحايا اليهود.

إن الموتى والقتلى ، والذين قضى عليهم الجوع والأوبئة والظلم المتوكلي يزيد عددهم عن ضحايا حرب فلسطين .

إن اللاجئين اليمنيين في العربية السعودية والسودان ومارسيليا وكارديف أكثر من اللاجئين الفلسطينيين .

إن حياة الشاردين اليمنيين أكثر تعاسة وبؤسًا وشقاء من حياة اللاجئين العرب الذين نزحوا من فلسطين .

إن اللاجئين الفلسطينيين يجدون عطفًا ورعاية من كل دول العالم ومنظماته ، ولكن اللاجئين اليمنيين لا يلقون إلا الطرد والتعقب والاعتقال .

إن اليمنيين مشردون تحت كل سماء ، يحملون أوراقًا مزيفة ، وأسماء مختلفة ، وتاريخ ميلاد مخترعًا ، لأن الحكومة المتوكلية لا تصرف لمواطنيها شهادة ميلاد ، ولا جوازات ولا أي ورقة إثبات شخصية .

إن اليمنيين المشردين هنا وهناك يحملون أوراقًا إنجليزية من عدن أو فرنسية من جيبوتي ، وهم على ذلك رعايا إنجلترا أو فرنسا ، وهم يشتركون أحيانًا في الحروب مع هذه البلاد التي بفضلها يأكلون ، وبفضلها يمشون على الأرض .

إن الحكم المتوكلي ليس له مفوضيات ولا قنصليات ولا وكالات ترعى شئون اليمنيين أو تحسن من أوضاعهم ، وقد فتحت أخيراً وكالة في السودان ومفوضية بالقاهرة وإنجلترا ، واليمنيون يعرفون أن الكوارث قد لحقتهم إلى هذه البلدان التي كانوا فيها مستقرين هادئين .

إن حقوق الإنسان لا تنتهك في أي بلد في العالم كما تنتهك اليوم في اليمن . إن الحيوانات في أمريكا قد أسست لها نقابة للدفاع عن نفسها .

واليمن حتى اليوم ليس فيها مؤسسة واحدة ولا جمعية واحدة ولا ناد واحد ولا هيئة واحدة ، إن اليمن ليس فيها نقابة واحدة ، بل وليس فيها عمال حتى اليوم .

إن اليمنيين محرومون من كل حق في التعبير عن آرائهم فليس في اليمن صحيفة يمنية واحدة .

إننا نناشد العالم كله أن يتدخل .

أين الأمم المتحدة ؟ . . أين لجنة حقوق الإنسان ؟ . . أين جمعية الرفق بالحيوان؟ أين الهلال الأحمر ؟ . . أين الصليب الأحمر ؟ . . أين من يؤمن بالإنسان . . وبحياة الإنسان ؟

أين الجامعة العربية ؟ . . أين الهيئات الشعبية العربية ؟ . . . أين الأحزاب العربية ؟ . . أين العرب ؟

لو كان في بلادنا مستشار إنجليزي ، أو أي شكل من أشكال الاستعمار ، إذن لعطفتم على شعبنا ، ولنصرتم حركتنا ، ولفتحتم لنا بلادكم ، ولآويتم مشردينا .

إننا نعجب حين نرى بلادنا ضحية لوحشية وهمجية حكام مستبدين ، ونرى البلاد العربية تجاملهم ، وتفتح لهم صدرها ، ونرى هذه البلاد العربية تهب لمحاربة الاستعمار .

إننا نؤكد للعرب أن شعبًا في الأرض لم يقاس من الاستعمار ما يقاسيه اليمنيون من الاستعباد الوحشي « الشريف » .

إن صراع الأمة العربية ضد الاستعمار يجب ألا ينسيها المستبدين ، أعداء الحرية وخصوم العروبة ، وإن النضال في الوطن العربي يجب أن يسير جنبًا إلى جنب ضد الاستعمار وضد العبودية والرجعية ، ويجب ألا يكون وجود الاستعمار في جزء عربي مبرراً لبقاء المستعبدين في جزء آخر .

بل إن صراع العرب ضد الاستعمار يقويه ويعضده تحرر العرب من الاستعباد .

ماذا قدم حكام اليمن للحركات التحريرية في الوطن العربي خلال حكمهم الطويل ؟ .

ماذا كان دور حكام اليمن في حرب فلسطين ؟

ماذا قدم حكام اليمن المتوكلون للمعركة العربية الراهنة في مصر ؟

إننا نصرخ ، يا عرب ، فهل تسمعون ؟ . . إننا نستغيث ؛ فهل تستجيبون ؟ . . إننا منكم ؛ فهل أنتم معنا ؟ .

إلى الأبطال الثائرين ، الذين حملوا الشعلة والمعول لتمهيد الطريق.

إلى أرواح الشهداء ، الذين تفجرت دماؤهم سيلاً عرمًا ،

تروي الأرض ، وتغرق الظلام ، وتشق مجرى

للتاريخ جديداً ، في جنوب الوطن الكبير .

بذور الحرية

عندما توضع الجثث في مراقدها الأخيرة
ملطخة بالدماء
وقد أعدت المشانق وتطاير رصاص الأمراء
فإن عناصر القوة تضحك ساخرة
إن كل هذه الأشياء تؤتي ثمارها وهي ثمار طيبة
وجثث هؤلاء الشهداء الذين أعدموا على المشانق
وهذه القلوب التي اخترقها الرصاص
هي على ما يبدو عليها من البرود
تعيش في عالم آخر بقوة لم يصبها الفناء
إنها تعيش أيها الملوك في أجسام شبان آخرين
في أجسام أخوة على استعداد لأن يتحدوكم
وقد طهرهم الموت وزادهم العلم
فليس من قبر لشهيد
إلا وقد نبتت فيه بذور الحرية
سوف تؤتي أكلها بعد حين
وستنشر الريح هذه البذور في كل مكان
فإن أسلحة الطغاة لا تقضي على الأرواح الأثيرية

وإنما هي تسعى في الأرض بعيدة عن الأبصار

هامسة ، موحية ، محذرة

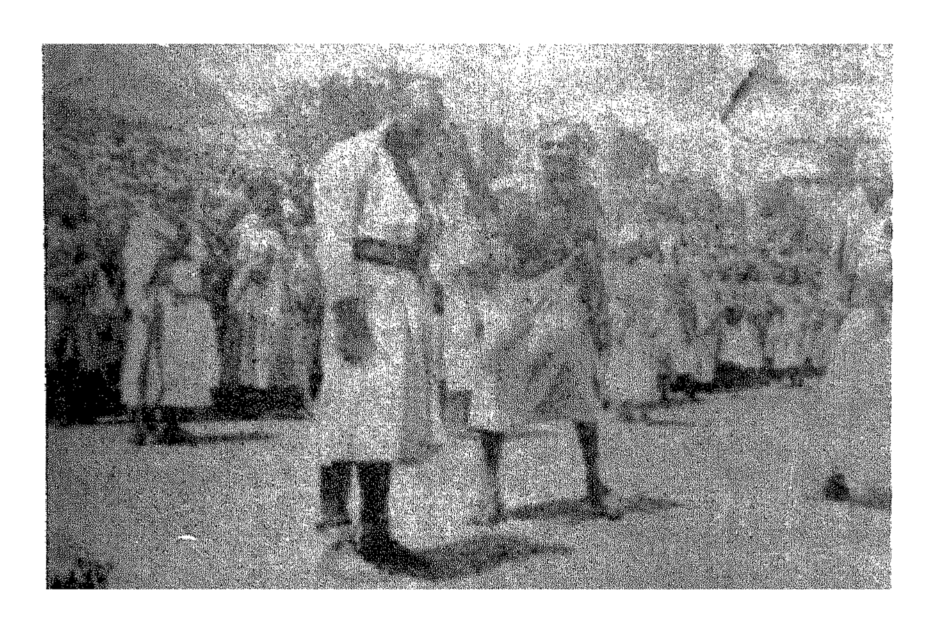
أيتها الحرية . . فليدب اليأس إلى قلوب الآخرين

أما أنا . . فلن أيأس أبدًا .

(عن الشاعر الأمريكي . . ولت ويتمان)



القاضي يحيى السياغي .. جريمته أنه كتب وثيقة تنازل الإمام عن العرش



عبدالرحمن الغولي .. أحد رؤساء القبائل .. ينتظر الضربة الأولى



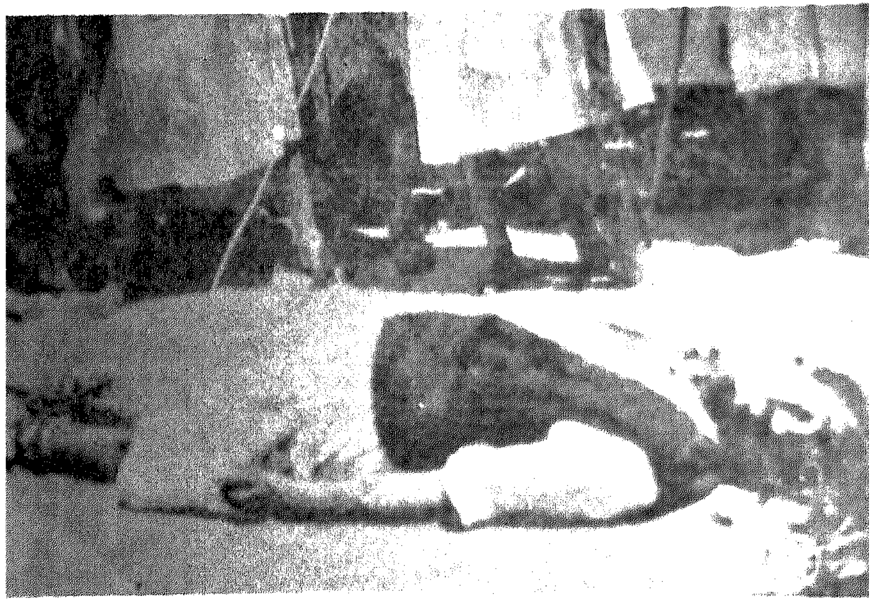
الضربة الثانية من سيف الجلاد ولا يزال الغولي واقفًا كالجبل



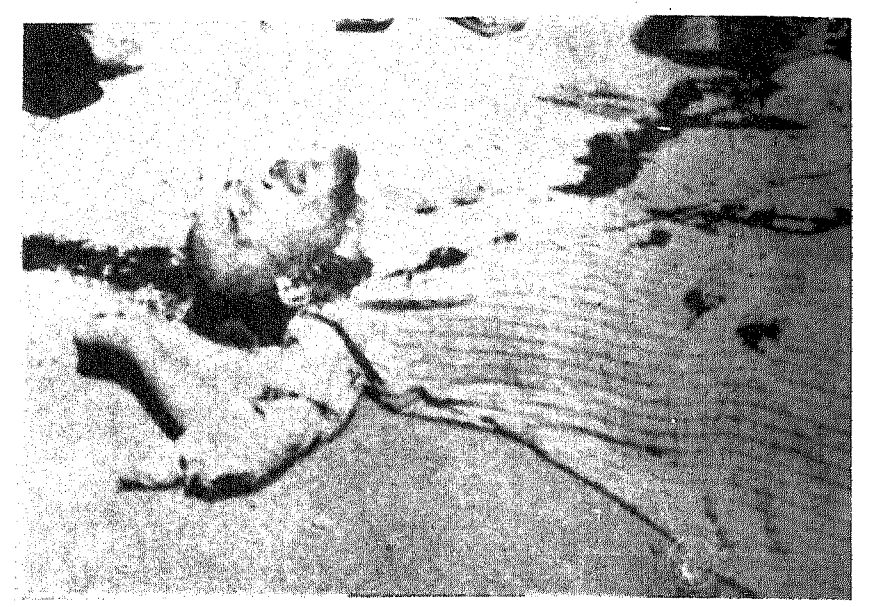
سقط البطل الغولي بعد الضربة الثالثة



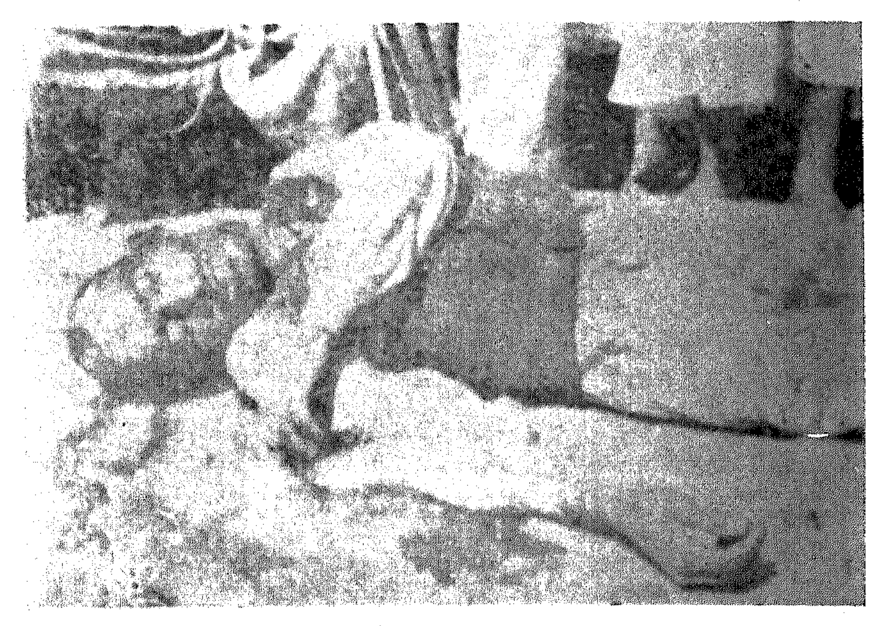
الحدري .. أحد رؤساء القبائل لم تشفع له شيخوخته .. فقتله الجبناء .



النقيب أحمد الثلايا ..بطل انقلاب 1955 ..يسبح في دمه..قدماه مثقلتان بالحديد!



علي حسن المطري .. من رؤساء القبائل .. ذبحوه هكذا



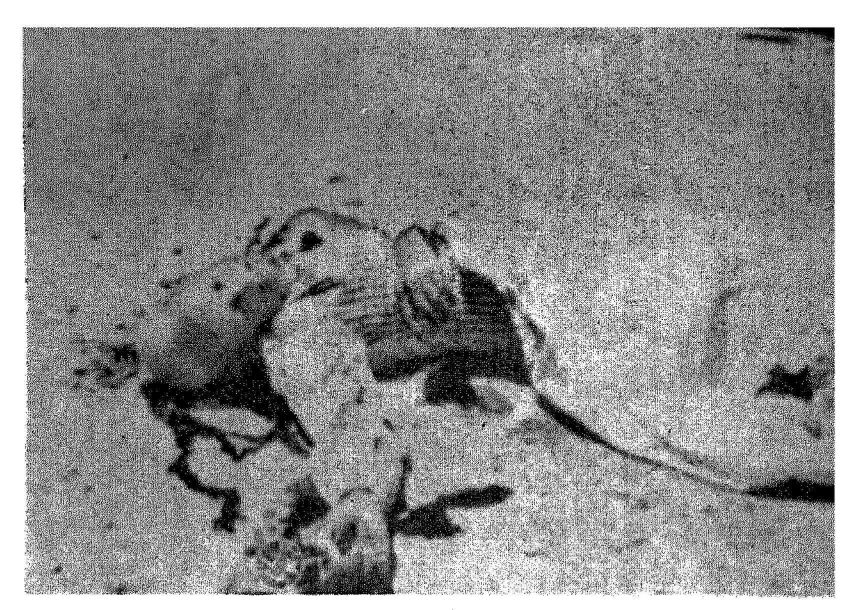
قائد معصار..أحد ضباط الجيش ذبحه الطاغية لأنه ركل باب مخزن السلاح بقدمه ..



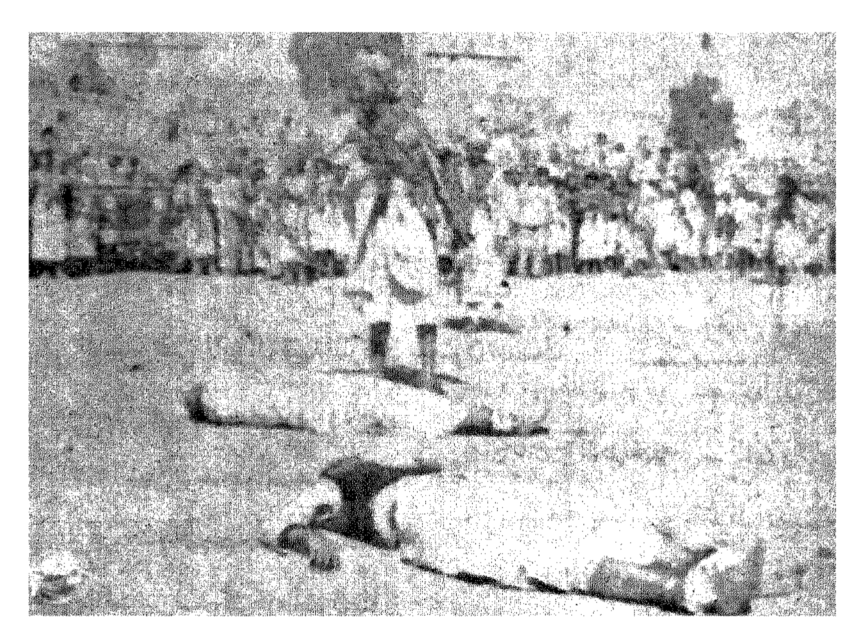
الجناتي .. ضابط .. يسبح هو الآخر في دمه .



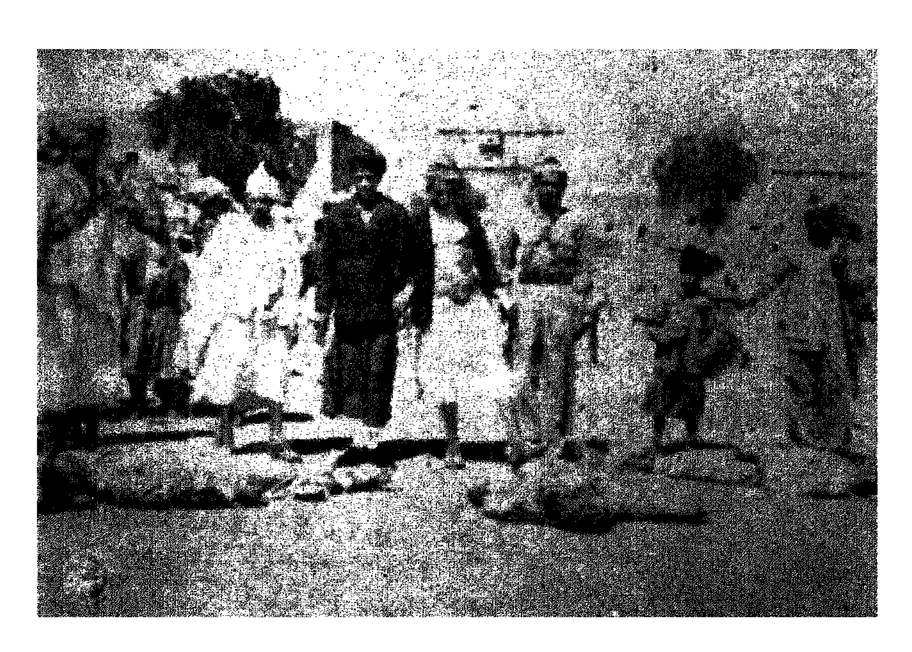
أحمد الدفعي من ضباط الجيش ذبحوه .. ذبح النعاج .



قتلوه .. لأنه أحب الحياة



في اليمن .. هكذا يذبح البشر



اليمن تسير في ركب العروبة المتحرر

الجمهورية

أيتها الجمهورية ، يا ابنة الحرية ، وأم الحرية البارة بالعالم

أحييك من بعيد قبل الأوان

أريد أن أكرمك ، فكرة تلوح في ضمير الغيب

في الساعة التي لا يزال فيها المارقون يلعنون اسمك

بينما يرفل في ثياب الشرف والمجد

أولئك الذين يريدون أن يصلبوك

أريد في هذه اللحظة أن أقدم لك ولائي

وفي الغد سوف يكثر المعجبون بك



جاملوا حكامنا .. يا قادة العرب .. يا أحرار ..

عندما يكلل النصر هامتك ، وينطوي أعداؤك صرعى ، مضرجين بالدماء

إن من لا يخضع لسحر عينيك

فلا بد أن تبطش به يدك القوية ، التي يلمع فيها سيف بتار

سيكون النصر حليفك .

وسيمتد لك قوس نصر عظيم .

ربما يقيمونه بين المروج المزهرة .

وربما في عباب بحر من الدماء .

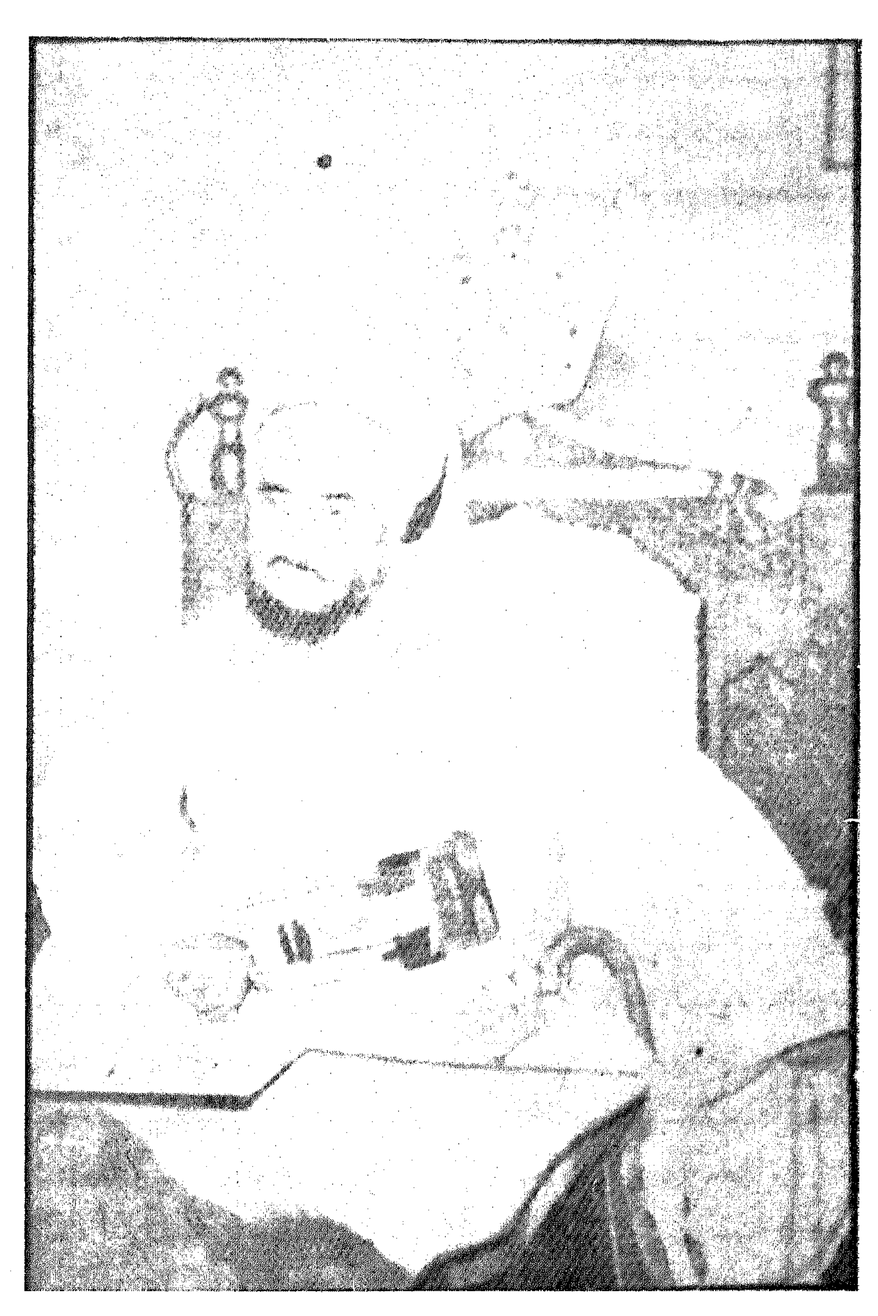
(بيتوفي)

ردوا ..

لك الله من ربع تجوع به الأسد ... ويمرح في أرجائه شابعًا قرد
وتقتحم الأغيال فيه ثعالب ... وكان حريًا أن حارسها فهد
لك الله شعب كان بالأمس معقلاً ... لكل كمي جيشه ما له عد
همو قوم عاد و التبابعة الألى ... بنوا إفرقيس الفاتحون إذا جدوا
همو سبأ أهل المشورة والحجى ... أولو البأس يجثو تحت عرشهم المجد
بنوا مأربا و السحب قالوا لها أمطري ... فإن بخلت بالغيث وافاهم السد
همو حمير، سادوا وشادوا وحاربوا ... بكل خميس جحفل ما له صد
ومن نسل قحطان اليماني أمة ... تتيه بتاج الغار رصعه الورد
ونحن بنوها الوارثون لتاجها ... تركناه نهب الغاصبين كما ودوا
لك الله شعب بعد ما كان سيداً ... عزيزاً أبيًا صار يحكمه عبد
يدوس بنعليه العدالة قائلاً : ... أنا العدل! وهو الظلم أبشع ما يبدو
يخاطبكم بالسوط طوراً وتارة ... يقوم خطيبًا فيكم سيفه الحد
فيسقيكموا كأس المنون ويحتسي ... كئوسًا من الصهباء مازجها الشهد
ويبني على أجداثكم من دمائكم ... وأعراضكم عرشًا دعائمه الحقد
بني وطني، ما الخطب، كيف استنمتموا ... وكنتم أباة لا يلين لكم عقد
وكيف، أولو الشورى وبلقيس منكم ... يذودكم كالشاء طاغية فرد ؟
وكيف ، وكنتم فاتحين أشاوسًا ... تهابون صعلوكًا يعاضده وغد ؟
ألم تسأموا الليل الطويل ، وتكرهوا ... الظلام؟ ألم تهفوا إلى الشمس أن تبدو؟

بني وطني، والعـار يصـرخ في دمي، كـفـاكم سبات ، فـالسبـات له حـد !
بني وطني، والضيم يحرق مهـجتي، أفيـقـوا . . فـخيـر من سبـاتكم اللحد
بني وطني ، والحـقـد يأكل خـافـقي ، أمـا لبـدء في الغـيل ، أو مـخلب . . ؟
ردوا . . !

يحيى حمود جغمان



وهذا هو الجزار ..!

نجاح .. !

توجت الحملة المتوكلية بالقاهرة بانتصارات ملكية رائعة كانت باختصار ما يلي :

ـ دخول كل من : نائب الرئيس وسكرتيره والأمين العام لجمعية اتحاد اليمنيين الأحرار ، ورئيس لجنة المهاجرين ، ورئيس لجنة النشر ، وبعض أعضاء الإدارة في الجمعية ، دخول كل هؤلاء في الحضيرة . . « الشريفة » .

ـ توقفت صحيفة « صوت اليمن » عن الصدور ، وهي لسان الأحرار .

ـ إيقاف نشاط الاتحاد اليمني .

ـ سكوت الأستاذين نعمان والزبيري عن الحديث في راديو صوت العرب .

تلي هذا :

قيام المرتدين المحترمين بالحج إلى محط رجائهم وكعبة آمالهم الإمام أحمد في تعز ، تنقلهم الطائرات جماعات وأفرادًا من القاهرة إلى تعز وصنعاء .

وفي هذا الذهول يفاجأ الناس ، باعتقال أكثر من ثلاثين رجلاً في صنعاء وتعز والحديدة ، وقطع مصروفات خمسة من الطلاب اليمنيين في القاهرة ، وطالب في إيطاليا ، وثلاثة في باريس ، وتوعد وتهديد وإنذار الطلاب الشباب في كل مكان بالويل والثبور وعظائم الأمور .

ولا بد أن نذكر أنه كان لهول هذه الكارثة رد فعل في أوساط اليمنيين في الداخل والمهجر ، وكانت هزة عنيفة للأحرار في كل مكان ، لقد قوبلت بالوجوم والذهول، لقد كانت حادثًا بشعًا .

رجال الأحرار ، الذين خدع بهم الناس ، وأودعوا إليهم أسرارهم، وتعاونوا معهم ، وأكرموهم وساعدوهم ، مرة واحدة ، في أحضان الإمام .

أظن أن حادثًا كهذا لا يمكن أن يكون له مثيل .

في باريس

وفي باريس قضينا عامًا بعد قطع مصروفاتنا . . ولن أصور الحال والحياة التي عشناها لأن أحدًا من أبناء الشرق الحبيب موطن الرخاء والكرم وسهولة العيش لن يتصورها .

لقد توجهنا إلى البنك الذي كانت مصروفاتنا تصل عن طريقه ، فقال الموظف المختص ، لا شيء من أجلكم ، وخرجنا نتبادل النظرات : لم يكن معنا ثمن وجبة واحدة ذلك اليوم ، وقد كان غذاؤنا قطعة خبز مع ماء الحنفية . وكانت ألذ أكلة تناولناها في حياتنا .

وقد توجهنا إلى مراكز الطلاب وعرضنا اثنين من أجهزة الراديو كانا معنا للبيع وتوافد الطلاب الفرنسيون في اليوم التالي لشرائهما وقبضنا مبلغًا أودعناه لدى أمين الصندوق الزميل محمد الرعدي . وكان يخرج يجلب لنا ثلاثة أرغفة من الخبز الناشف ويدخل بهما من باب الفندق بتكتم وكأنه يقوم بعملية تهريب حشيش أو أفيون . . إذ إنه من الممنوع تناول الطعام في الغرف في الفنادق الفرنسية .

بعنا إذن جهازي الراديو ، واجتمعنا الثلاثة في غرفة واحدة ، وبدأنا حياتنا الجديدة .

ومرت الأيام ، أبرقنا للوجيه ، وكيل الإمام في عدن . . « حولوا مرتباتنا أو سهلوا عودتنا » ، فرد علينا : « راجعوا المقام الشريف أعزه الله تعالى» . أجل المقام الشريف أعزه الله تعالى . .

وإلى باريس !! . . كتبنا إلى المفوضية اليمنية في لندن : « سفرونا » ! .

ماذا نعمل ، نسيتنا حكومة اليمن ، ليس معنا نفقات للعودة . . برد شديد ، درجة الحرارة وصلت إلى ١٧ تحت الصفر ، غلاء فاحش .

معزولون عن الدنيا كلها ، ليس في باريس يمني واحد ، ليس في باريس مفوضية ولا وكالة لليمن ، لا شيء على الإطلاق .



من اليمين : جغمان ، العيني ، الرعدي .. في شتاء باريس

ماذا نعمل ، عائلاتنا فقيرة ، إلى من نلتجئ . . !

ولا بد أن أذكر أننا كنا سذجًا ، كنا ننتظر أن الدنيا ستهب لإنقاذنا ، كنا نتوقع أن أصدقاءنا وإخواننا هنا وهناك لن يتركونا هكذا في باريس .

كنا نقول لأنفسنا أننا قد وقعنا ضحية طاغية مفترس ، ولأسباب عامة لن يتركنا الأحرار ، ولن يتخلى عنا اليمنيون .

ويجب أن أذكر أيضًا أن هذه كانت سذاجة فقط ، إذ ليس من واجب أحد وليس أحد مكلفًا بمثل هذا .

مع وزير اليمن

وفي أواخر ديسمبر سنة 1955م وصل إلى باريس السيد حسن إبراهيم وزير الدولة اليمنية؛ وزير اليمن في لندن وإيطاليا وألمانيا ودعانا ، وجلسنا معه ساعات ، حدثنا عن الإمام وتعز والوزارة اليمنية التي كانت قد شكلت ، واعتقال أحمد مفرح ، الذي كان يدرس في باريس وعن القاهرة .

وقال إن سر الخلاف مع النعمان والزبيري هو رفضهما أن يكون نظام الاتحاد اليمني وتكوينه متوافق مع رغبات الإمام ورضاه وأنهما لا يفكران إلا في الناس وإرضاء الناس . وقال : إنه لا ينبغي معارضة هذا الإمام . . ويجب أن نقبل منه ما يقدمه ، وألا نطلب منه شيئًا . أما المستقبل فها نحن قد اتفقنا على رجل المستقبل . . فلماذا الإذاعة في صوت العرب ؟ . . ولماذا إصدار صوت اليمن ؟ . . إن هذا يؤذي الإمام ويعكر مزاجه . . وأضاف ؛ وإلا فما الذي يمنع اليمن من الانضمام إلى حلف بغداد ؟!

وقال السيد حسن إبراهيم : إنه سمع إشاعات وأقاويل مؤداها إننا الثلاثة نكون اللجنة المنظمة للقيام باغتيالات واسعة النطاق وأن من بين مائة وخمسين شخصية يمنية يراد اغتيالها : الإمام والبدر ووالد السيد حسن ، ولم نكلف أنفسنا مجرد التكذيب للخيال الخصب الذي نسج هذه الأكاذيب ، ولفق هذه الاتهامات الخرافية واكتفينا بالقول : إذا كان الأمر كما تقولون فلماذا نحن في باريس ؟ .

فقال : ألا تعرفون أن باريس وبيروت وكران من أخطر أوكار المؤامرات ؟!

ترى هل قالوا للإمام إننا سنلقي عليه الصواريخ الموجهة ، أم أنهم لم يكونوا قد عرفوا شيئًا عنها قبل تصريحات بولجانين . . !

وقد قال السيد حسن فيما يختص بمرتباتنا إنه يحسن أن نكتب للإمام رسالة مغلقة لأن جلالته يخجل من البرقيات المفتوحة في مثل هذه الموضوعات .

برقيات

وقد واصلنا دراستنا في باريس في ظروف قاسية لا يتصورها إلا من عرف باريس ، ومستوى الحياة في باريس ، والحقيقة إننا كنا حيارى ، أين نذهب ؟ . . إلى اليمن ؟ . . أقل ما ينتظرنا فيها هو السجن ، وقد سبقنا إلى السجن الزميل أحمد مفرح الذي غادر باريس لزيارة والدته ، وبعد الزيارة ، وبينما كان على وشك العودة اعتقل وهو بريء كل البراءة ، فكيف بنا ؟ . . هل نذهب إلى القاهرة؟ . . إن زملاءنا الخمسة الذين قطعت مصروفاتهم يستجدون هناك ، ويمدون أيديهم في نهاية كل شهر .

إن الدنيا كلها سواء في نظر المشردين

وذات يوم تلقينا هذه البرقية :

« من الإمام إلى الرعدي وجغمان والعيني ، سلكت هتيل باريس ، عجلوا الوصول إلينا » .

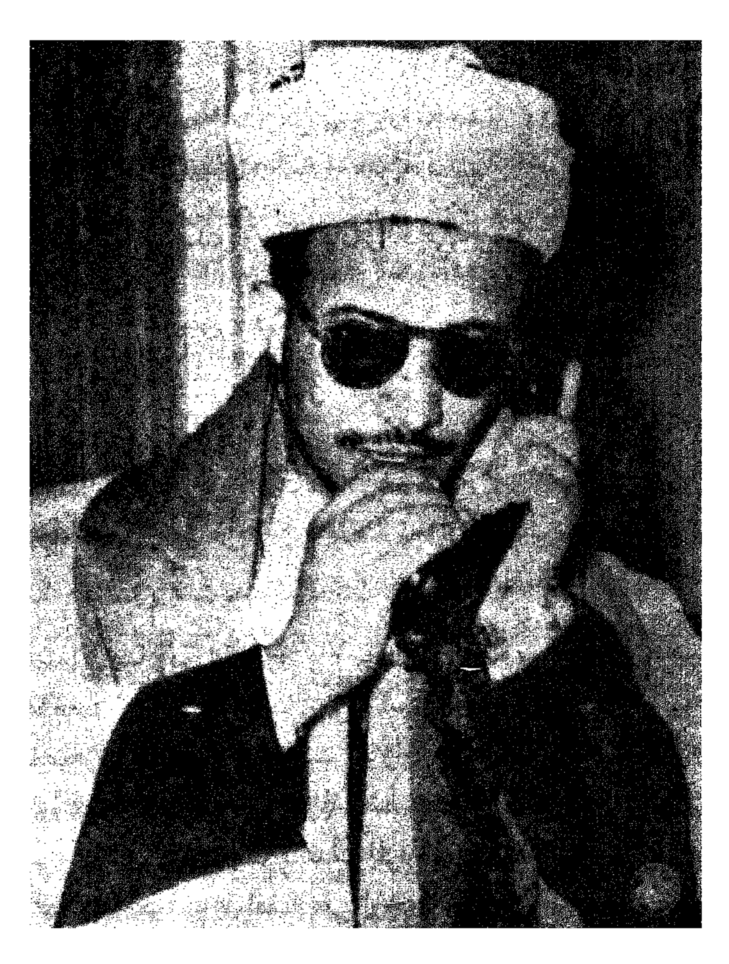
فأجبنا : «جلالة الإمام المعظم - تعز ، مستعدون ، أمركم بتحويل ديوننا وتذاكر السفر » .

فأبرق في اليوم التالي : « الديون لمن هي ، وضحوا » .

فأجبنا برقيًا : « للفندق وآخرين » .

وتلى هذا صمت . . لم يرد ولم نعقب .

ثم جاءت الأخبار من القاهرة : الإمام أمر بإعادة مرتبات الطلاب بالقاهرة ، واستلموها فعلاً . . وصلتنا رسالة من السيد عبدالرحمن أبو طالب وزير اليمن المفوض بالقاهرة يقول فيها : «كنت قد راجعت عندما كنت باليمن بخصوص مقرراتكم ووعدت بتسوية ذلك ، ولما وصلت قصدني الأخ علي العيني فشرح أنه لم يصل شيء ثم وصلني كتابكم فأعدت المراجعة ، ويومنا استلمت برقية من وزارة الخارجية ، إنها حصلت الموافقة على إرجاع مقرر عبدالله الكرشمي وزملائه بباريس ، أرجو إفادتي بما يتم في ذلك ، وأنا آسف لكل ما حدث ، ولا يد لي فيه كما يعلم الله ، وإن حاول البعض هنا دس العظام في جحر عريج ؛ وهو الأسلوب الذي اعتدنا عليه» .



السيد عبدالرحمن عبدالصمد أبو طالب وزير الدولة ، وزير اليمن المفوض في روسيا ، وفي تشيكوسلوفاكيا وفي الصين الشعبية ، وفي باكستان وفي مصر وبقية الأقطار العربية .. ما دوره .. ؟

ومرت شهور ثلاثة وهم يتلاعبون . . أبو طالب يقول إنه تلقى تبليغًا ، العمري يقول إنه تلقى أمرًا ، الجبلي يقول إن الأمر وصله ولكنه لا يعرف كم هي مرتباتنا حتى يحولها ، الوجيه في عدن يقول إنه تلقى من الإمام «من أمركم بصرف مرتبات طلبة باريس . . لا تعتمدوه . . احذرو » . . وهكذا . .

ضعه

وقد بلغنا أن الأمر كان قد صدر فعلاً ، لو لا ذلك الحقير . . الذي وثقنا به فترة ، وكنا نلقاه في الحديدة وتعز والقاهرة كرجل حر . . إن القصور تقتل فيه كل معنى للرجولة والإنسانية والشهامة ، وتحيله إلى عبد ذليل يلجأ إلى أبشع الوسائل ، وأسفلها لخدمة الضمير الشريف ، تذكروه يا يمنيون عندما كان يتردد بين الحديدة وحجة وتعز ، وهو منفي من قصور سيده ، وكيف كان ، هادئًا وديعًا . تبدو عليه البراءة والطيبة ، وانظروا إليه اليوم، وهو يستبسل في حربه ضد البعثة في القاهرة ، إنه مريض يشعر بالنقص ، ويحس بالضعف والهوان ، فيقدم على كل ما يظن أنه يقربه من سيده ، ويعتقد أن حياته في قصور سيده ترفع مكانته . . وهو مخطئ كل الخطأ . . إنه ينزل إلى الحضيض .

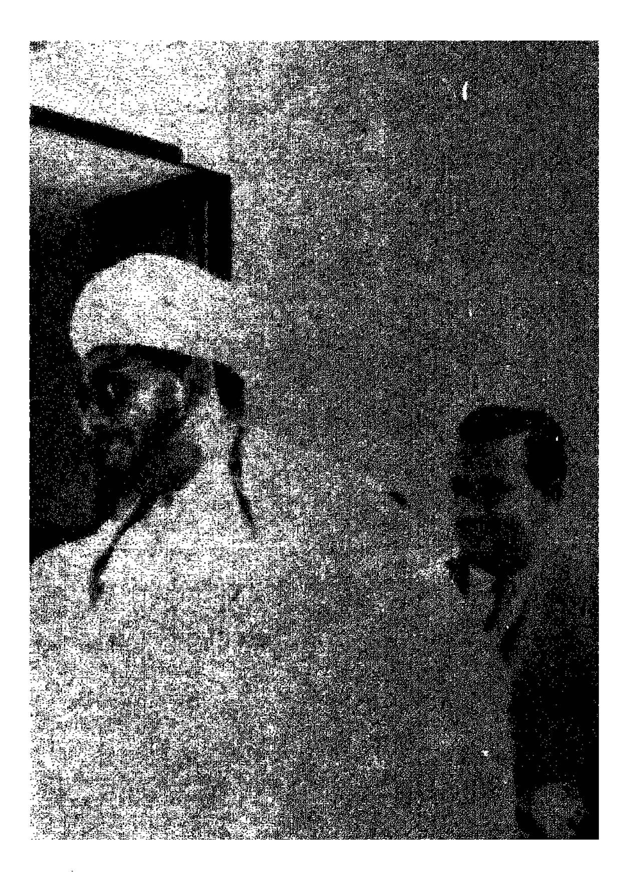
قالوا إنه تعهد لمولاه أن يكسر شوكة البعثة ، وأن يذل طلابها ، وأن يخضعهم ، وقد طلب أن يفوضه الإمام للقيام بهذا .

نحن لا ندعي هذا ظنًا أو تخمينًا ، ولكننا نعرف هذا من باريس ، لقد حدثنا عن هذا كل من كانوا بجانب الإمام، وكيف تَبَنَّى تشريد الطلبة وقطع مصروفاتهم . . وتعزز هذا وتؤكده مواقفه من البعثة في القاهرة . وطبعًا هو ليس وحده ، فمعه آخرون ، وكلهم مسئولون .

في لندن

وفي 14 يونيه 1956م أبرقنا من محطة باريس إلى المفوضية اليمنية بلندن «توجهنا إليكم للضرورة » ، ووصلنا إلى دار المفوضية، وقلنا للمسئولين ، إننا سنظل في ضيافتكم في لندن حتى تحل مشكلتنا ، وينتهي التلاعب وبسطنا لهم المشكلة .

بعثتنا الحكومة اليمنية إلى باريس للدراسة ، ولم تمر شهور حتى قطعت مصروفاتنا ، ولم تبلغنا قرارها هذا ولا أسبابه ، ورفضت أن تسفرنا وتركتنا في باريس عشرة أشهر ، وليس لها مفوضية أو وكالة .



السيد حسن إبراهيم وزير اليمن المفوض في إنجلترا وألمانيا وإيطاليا ،
وهو الآن وكيل وزارة الخارجية اليمنية بالإضافة
إلى الوظائف السابقة ، وبجانبه محسن العيني .

وما أقدم عليه المسئولون في اليمن لا تقدم عليه إلا عصابة ؛ لا حكومة تحترم نفسها ، وتقوم بوظيفتها وواجباتها والتزاماتها .

وقلنا لرجال المفوضية : لن نخرج من هنا إلا بمصروفنا ، أو بتذاكر سفرنا إلى القاهرة ، ونترك لكم الاتصال بالإمام .

قالوا : ليس لكم أن تشترطوا العودة إلى القاهرة ، ولنا أن نشترط عودتكم إلى اليمن بلادكم .

قلنا لهم : إن هذا الأمر طبيعي جداً ، وهو ما كان يجب أن يكون ، ولكن الحكومة المتوكلية الشريفة قد أحالت بلادنا إلى سجن كبير ، قد جعلت بلادنا جحيمًا لا يطاق ، وقد جردت بلادنا من كل شيء . . إننا طلاب . . ولم تنته دراستنا بعد ، وليس في اليمن بفضل المقام الشريف جامعات .

وأنزلونا في أحد الفنادق وقالوا انتظروا وستتصل بالإمام .

وبعد أيام اقترحوا علينا أن نسافر إلى اليمن مع الوزير المفوض فرفضنا ، فعادوا واقترحوا سفر واحد منا فقط ، ليقدم للمقام الشريف باسم الثلاثة آيات الولاء والخضوع والطاعة . . وقد أقنعنا المسئولين في المفوضية أن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا فنحن طلبة ، وحتى لو كنا قد أخطأنا فهاهم قد حرمونا مصروفًا أشهر طويلة ، ومع ذلك فلم نصل إليهم إلى لندن لإعادة مرتباتنا ، وإنما فقط لتسفيرنا .

وسافر الوزير إلى تعز واجتمع بالإمام . . وعاد؛ ومن إيطاليا اتصل بالمفوضية تليفونيًا وقال : إن الإمام يصر على وصولنا إليه . . وإننا سنعود مباشرة لمواصلة دراستنا في باريس .

ووصل الوزير إلى لندن وشرح لنا أن الإمام يرفض كل كلام في موضوعنا حتى نصل إليه . . وقال الوزير : إنني أعجب . . لماذا ترفضون . . والإمام يستدعينا دائمًا ونخرج إليه ؟

فقلنا له : أنتم موظفوه . . أما نحن فطلبة .

ثم قال : هل تخافون منه . . ؟

فقلنا : لا . . وكيف نخاف من جلالته . . ؟

قال الوزير : ادخلوا في حمايتي . . وأنا أتعهد بألا يمسكم سوء .

قلنا له : ومن يتعهد بسلامتكم أنتم . . إننا لم نعد نثق . . إن الأوضاع في بلادنا لا تقيم أي وزن للشرف ولا للقانون . . وعلى أية حال فنحن طلبة . . و الطلبة لا يقابلون الملوك . . أما أن الغرض من دخولنا هو إذلال الأحرار والكسب السياسي الرخيص ، فيكفي من دخلوا حتى الآن ، والأمر بالنسبة إلينا أمر كرامة ، ولن نخرج حتى ولو تأكدنا أننا سنعود سفراء في باريس لا طلابًا .

فقال : هذا منطق السربون . . !

وهكذا أظهرنا بوضوح وصراحة إننا لن نعود إلى تعز نقبل الثرى أمام صاحب الجلالة . . ونطلب الرحمة و الغفران . . وكنا صرحاء لأننا لم نرد أن نخدع رجال المفوضية ، ونعدهم بالخروج إلى اليمن ثم نتخلف في أحد الموانى أو المطارات . . وطال الأخذ والرد بين المفوضية والإمام .

وطوال هذه الفترة التي طالت حتى وصلت إلى سبعة أسابيع ، ونحن نقيم بفندق ألكسندراهيتل ، وتراكمت حسابات الفندق وتضاعفت ، وقد شعرنا بهذا منذ وصولنا ، وكنا في كل مناسبة نذكر المسئولين بهذا ، فكانوا يغضبون ويقولون يجب ألا تفكروا في هذا ، أنتم ضيوفنا ، ولا شك أنهم كانوا يتوقعون أن تنتهي الحالة بإعادة مرتباتنا أو بتسفيرنا ، ولكن الإمام رفض الأمرين معًا ، وكانت مشكلة . . كنا نريد أن نتعاون معهم إلى أبعد حد حتى يأمر الإمام بدفع تكاليف الفندق حتى لا نكلفهم هم ، أما نحن فلم يكن معنا شيء ندفعه .

قلنا لهم : كيف يكون العمل ؟

قالوا : اخرجوا إلى اليمن ! .

قلنا لهم : سنغادر لندن ونقبل العودة إلى اليمن ، ونستلم تذاكر السفر من مكان غير لندن حتى يحول الإمام نفقات الفندق من جهة ، ومن جهة أخرى حتى لا تكونوا أنتم مسئولين عن سفرنا .

قالوا : لا . . هذا غير عملي . . وليس هناك من حل سوى تنفيذ أمر الإمام والوصول إليه .

فنظر بعضنا إلى بعض وتشاورنا قليلاً وقلنا : الله . . وما الذي يمنعنا من السفر إلى اليمن . . إنها بلادنا ، هيا بنا أبرقوا إلى الإمام بأننا على أتم استعداد للوصول . . يا سلام ، بس هذا . . وراحت البرقيات للإمام ، وطمأنونا وقالوا : خلاص الآن ، ولا يهمكم نفقات السفر سيأمر بها الإمام ، وسيأمر بكل ما يلزم ، وسيسافر معكم معالي الوزير نفسه .

ومرت الأيام ولا خبر . . وأخيراً وصل الوزير إلى لندن واتصلنا به فقال إنه سيسافر إلى أمريكا ، ويعود بعدها إلى لندن ، ثم نسافر معًا إلى اليمن .

وفكرنا . . إن دخولنا اليمن في هذه الظروف مستحيل ، سفرنا مع الوزير وتخلفنا في أحد الموانى أو المطارات أمر يحرج الوزير . . وقد كان الوزير وإخوانه كرماء في معاملتهم الشخصية طوال أقامتنا .

واتخذنا قراراً . . اتصلنا بالقائم بالأعمال يوم جمعة واستأذناه بالخروج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ضاحية من ضواحي لندن ، وخرجنا .

وفي ظهر يوم 30 يوليو سنة 1956م كنا نأخذ القطار من محطة فيكتوريا في لندن في طريقنا إلى باريس .

في باريس من جديد

وبعد منتصف الليل وصلنا باريس ، وكانت لا تزال كعادتها ساهرة صاخبة ، وكنا سعداء غاية السعادة ، لقد استعدنا حريتنا التي شردونا من أجلها ، حريتنا التي نهيم بها والتي لن نقبل عنها بديلاً ، الحرية التي سنعمل ونكافح من أجلها ، لا لنا وحدنا ، بل لمواطنينا جميعًا ، أجل استعدنا حريتنا بعد أن كانوا يريدون شراءها منها .

دخلنا باريس والسعادة تملأ جوانحنا ، لقد استأنفنا حياتنا ، لقد عدنا إلى باريس المدينة التي شهدتنا ونحن نقاوم عصور الظلام وهي تشدنا إليها ، باريس التي عشنا فيها شهوراً والثلوج تغطي كل شبر فيها ونحن نام جياعًا ؛ باريس التي قطعت رأس الملك لويس السادس عشر ، والتي ضربت عنق الملكة الجميلة ماري أنطوانيت ؛ باريس التي شهدت شوارعها وميادينها أعنف ثورة دامية ضد الملكية العابثة الفاسدة ، التي كلما ذكرناها ؛ ذكرنا متحف اللوفر العظيم وفي أحد أبوابه تمثال بلقيس اليمنية الخالدة وهي تقول : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» .

إن باريس قد شهدت مأساة ثلاثة قبائل من أفقر طبقات الشعب . . صمدوا أمام

حكومة رجعية جاهلة مستبدة ، لقد واصلنا دراستنا في باريس حتى نفقدهم نشوة الانتصار ، كانوا يريدون بعودتنا أن يقولوا لليمنيين ، وراءكم وراءكم ، أينما ذهبتم . . إننا نستطيع أن نتعقبكم ، وأن نخضعكم ونذلكم أينما كنتم .

كانوا يريدون أن يثبتوا للشعب في الداخل والخارج أن الأحرار ضعاف . . ضعاف نفوس ، يستسلمون . . ويركعون بمجرد إشارة من الطغيان في اليمن لقد ذهل الشعب فعلاً عندما رأى من كانوا في صفوف الأحرار الأولى تحملهم الطائرة إلى تعز ، يعفرون جباههم في الأرض وبطريقة مسرحية ، ويذيع راديو صنعاء أخبار تنقلاتهم ، لقد كان الغرض هو أن يزعزعوا ثقة الشعب في أبنائه ، وأن يفقدوا اليمنيين الثقة والإيمان بعدالة القضية الوطنية .

ولهذا كله . . بقينا في باريس . . رغم كل شيء وبطريقة مسرحية أيضًا ، حتى نفهم الطغيان أن شراء الرجال قد انتهى ، وأن الرق لم يعد له مكان . . وحتى يعرف اليمنيون أن «أحمد يا جناه» ينتهي في حدود اليمن . . كنا نريد ببقائنا في باريس أن نقول لليمنيين في مهاجرهم . . لا تخافوا من الإمام .

إنه أعجز من أن يقوم بشيء . . لقد عرفنا تجاراً كباراً من اليمنيين يخافون الإمام وهم في فرنسا أو إنجلترا أو أي مهجر . . إنه شبح وحشي مرعب . . يظنونه سيبطش بهم في مهاجرهم . . سيهدم دورهم . . دورهم التي في المهاجر ، أما في اليمن فلا دور لهم . . ومن هؤلاء الخائفين من يحمل أوراقًا إنجليزية من عدن أو فرنسية من جيبوتي . . ومع كل هذا فأحمد لا يزال في رءوسهم هو . . هو . . «أحمد يا جناه» .

لقد كان ينفق علينا . . أردنا أن نقول لليمنيين إن الحرية قد عمت أرجاء الأرض . . وإن العبودية لا وجود لها إلا تحت الظل «الشريف» .

وداع

وفي الحي اللاتيني الذي قضينا فيه أجمل أيام العمر بدأنا نعد أنفسنا للرحيل . . زرنا أصدقاءنا وزملاءنا وجمعنا ما أمكن من الكتب ، وتجولنا في باريس وفي

ضواحيها مودعين ، حتى كان يوم 10أغسطس 1956م ، وخرجنا في ذلك الصباح ومعنا زميل ليبي كان لنا أكثر من صديق؛ هو الأستاذ منصور رشيد الكخيا . . ووقفنا في المحطة . . وودعت ـ والدموع تكاد تطفر من عيني ـ محمد ويحيى . ودعتهما للمرة الأولى منذ تعارفنا . . ضحكنا كثيراً قبل أن يتحرك القطار . . وتبادلنا النظرات . . نظرات الحب والزمالة والتفاهم . . نظرات الإخاء الصادق . . والتقدير العميق . . وتعاهدنا على الوفاء والإخلاص للمبادئ الوطنية المقدسة ، ودعتهما وكأني أودع قطعة من كياني اقتطعت مني ، وأنا أراها ، تحركا لأول مرة من دوني وتركاني . . وظللت أتابع القاطرة بنظراتي حتى غابت وشعرت بعدهما بالوحدة . . وأحسست بالوحشة . . لقد عشنا لا نفترق . . وتعود الناس ألا يرونا إلا مجتمعين . . لقد قضينا فترة باسمة رغم الغيوم . . لقد ضحكنا في أحلك الساعات . . كان الواحد منا يستمد الشجاعة من زميليه .

ودعتهما واستقر بهما المقام في دمشق . . الأمويين . . أما أنا فعلى غير رغبة مني بقيت في باريس . . فقد كان علي أن أؤدي بعض الامتحانات ، وكنا نخشى أن تتعقبنا المفوضية اليمنية فتحاول خلق صعوبات أو سحب جوازات . . فقررنا أن يرحلا ، وكانت رسائلهما من مرسيليا ومن الإسكندرية وبيروت توقع بأسمائنا الثلاثة لهذا السبب ، إذ إننا في البلاد العربية في مأمن طبعًا من الغضب المتوكلي .

اغتيالات ..!

وقبل أن يصلا بيروت هبت المفوضية اليمنية في القاهرة كالمسعورة ورفعت مذكرة للحكومة اللبنانية تحذرها من الإرهابيين الثلاثة . . وتطلب منها تشديد الحراسة على سيف الإسلام البدر . . والمحافظة على حياته . . وقالت : إن الزميل عبدالرحمن نعمان كتب إلى أخيه محمد أحمد نعمان في عدن وإلى جغمان والرعدي والعيني في باريس ودعاهم للوصول إلى لبنان للاشتراك في اغتيال الأمير البدر . . والأعجب من هذا كله أنهم وجهوا الاتهام أيضًا إلى أستاذنا القاضي / محمد محمود الزبيري ، بأنه وصل لبنان لاغتيال سيف الإسلام القاسم .

وفي ميناء بيروت فتش الزميلان تفتيشًا دقيقًا . . حقائبهما . . أوراقهما . .

ومـلابسـهـمـا . . ودهشت السلطات اللبنانيـة إذ لـم تجـد دليـلاً واحـداً على أن لوصولهما صلة بالبدر أو القاسم . . بل إنهما لم يكونا يعرفان ، وزيادة على هذا فلم يغادرا باريس إلا بعد أن غادر البدر لبنان .

ومن هذا ومن تعقب السلطات اللبنانية للأستاذ/ الزبيري وزميله من آل نعـمان عرف لبنان أن المسئولين اليمنيين في ارتباك وأنهم في حاجة إلى الرثاء والشفقة والستر!

وبعد هذا سأل صديق كريم في رسالة له : « كيف وصل المفوضية بالقاهرة خبر قدومكم لبنان . . ؟ » ، ترى هل تنقلاتنا تحركات عسكرية حتى نحيطها بالسرية والكتمان . . ؟ ولكن الصديق يعود فيقول في رسالته : « أما المؤامرات فهذه تأتي عفو الخاطر . . وهم لا يتكلفونها . . لأنها تجري في دمائهم . . » .

أجل أيها الصديق العزيز . . إنها تجري في دمائهم . . إن جرائمهم تصور لهم أن الناس يترصدون لهم في كل شبر . . وأن الموت يلاحقهم بشبحه في كل مكان . . والحماقات التي يقدمون عليها ما هي إلا مظهر للقلق والارتباك وفقدان الأعصاب .

اللهم لا شماتة . .

في سويسرا

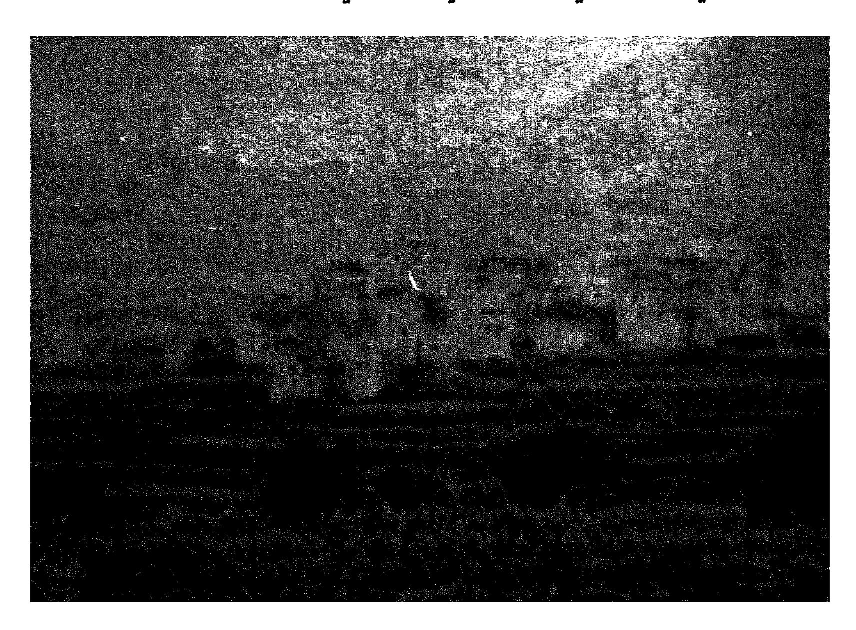
وقد انتهت امتحاناتي وأعددت نفسي للرحيل ، وعملت حتى تهيأت لي لوازم السفر . . وكانت الظروف قد تأزمت بعد تأميم القنال ، وأصبح مرور البواخر نادراً وعسيراً بين مرسيليا والإسكندرية ، فلم يبق إلا أن أركب الباخرة من أحد مواني إيطاليا . . وبهذا أتيحت لي الفرصة لزيارة بعض مدن ألمانيا وإيطاليا ، وأهم من كل هذا لأرى سويسرا ، هذه الأرض التي كلما تحدث أحد عن بلادنا العربية السعيدة شبهها بسويسرا .

وكان الوزير المصري البكباشي حسين الشافعي قد أجاب علينا حينما سألناه مرة في دار السفارة المصرية في باريس أمام الطلاب العرب عن انطباعاته ومشاهداته في اليمن قائلاً :

«إن الكثيرين لا يعرفون أن اليمن هي سويسرا الشرق ، وأن جبال اليمن الشامخة ووديانها وسهولها شبيهة بأراضي سويسرا الخلابة الفاتنة » .

أما العالم الألماني « هانس هلفر تس » فقد قال : إن جبال مناخة في اليمن هي أجمل ما وقع عليه نظره ، وشبه سكان هذه الجبال وهم يغادرون منازلهم في البكور بالصقور تبدو وتظهر من بين السحب والغمام .

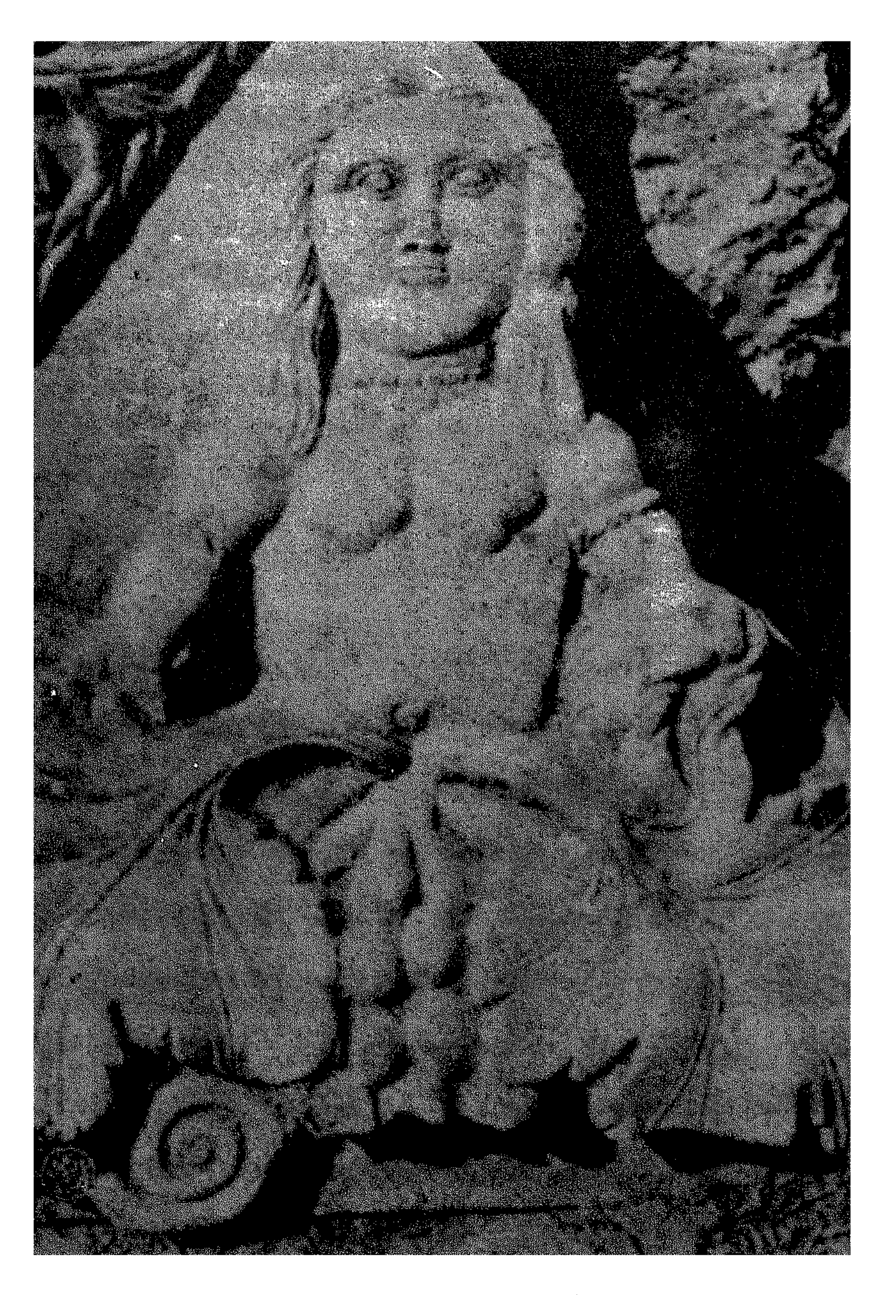
أما « كريستيان شاتو » الصحفية الفرنسية فقد قالت : « إن الإنسان في بعض جبال اليمن ينسى نفسه ، ويخيل إليه أنه في بعض المناطق المتوحشة في جبال الألب، وهذا وغيره ولد عندي رغبة عارمة لرؤية هذه الأرض ، وقد رأيتها وقضيت أياماً في لوزان وفي جنيف وفي بيرن وفي لوسرن» .



الريف اليمني

ذي سفال .. قرية يمنية .. تذكرتها في سويسرا

ولا أدري ما الذي كان يهيجني ، لقد بكيت في جبال سويسرا كأنى لم أبك في حياتي ، لأنهم يشبهون جبالنا وسهولنا ووديانا ، بأراضي سويسرا ، فلماذا لا يكون سكان اليمن هذه مثل سكان سويسرا . . ؟ إن شعب سويسرا في نظر العالم هو أرقى شعوب الأرض قاطبة ؛ فما الذي جعل شعبنا في اليمن أكثر شعوب هذه الأرض تأخراً وتخلفاً وفقراً وجهلاً وشقاءً . . ؟ !



إلهة الخمرة في عهد اليمن الخضراء ..

قال لي أحد الذين رأوا اليمن : إن كل شيء في بلادكم جميل . . الهواء . . الماء . . الجبال . . الوديان . . الحيوانات . . الطيور؛ كل شيء جميل ، إلا اليمنيين .

قال : كنا نرى في سفوح جبالكم وفي روابيكم ووديانكم قطعان الأغنام تسرح وتمرح وتتمتع بهذه الأرض الطيبة ، سمينة ، بادية الحيوية والصحة . . فإذا ظهر الراعي . . بدا هزيلاً ، ممتقع اللون ، غائر العينين ، يحمل تشكيلة من أمراض سوء التغذية ، لكم كنت أتمنى لو كان هذا الراعي نعجة ينطلق مع تلك الأغنام ، وينسى همومه . .

وقاطعته أنا : وإمامه .

ودخلت في لوزان مكتبة أشتري منها كتابين بالفرنسية عن اليمن، فظلت عاملة المكتبة تسألني أين هي هذه اليمن . . ؟ وكيف تحكم . . ؟ هل جمهورية أم ملكية . . ؟ هل بلد متقدم تحضر أم ما يزال بدائيًا . . ؟ وظللت أرد . . وتجمع من في المكتبة يستمعون إلى حديث اليمن . . وقدمت لي كرسيًا وظلت تطلب المزيد . . حدثتهم عن الشرق القريب . . مهد الحضارات ومبعث الديانات . . وذكرت لهم إن بلادي هي موطن بلقيس ملكة سبأ ، التي بهرت سليمان ملك الملوك . . وحدثتهم عن أول رحلة تشهدها الإنسانية على ظهور البعير . . وقلت لهم مفتخراً في بلدي «اخترع » أجدادي الجمل . . سفينة للصحراء ، فقد كان حتى ألف سنة قبل الميلاد حيوانًا متوحشًا ، وكانت مهمة أجدادي عسيرة في تأليفه في ذلك الوقت الموغل في القدم .

وحدثتهم عن سد مأرب وعن الحضارات الرائعة التي تفجرت في بلدي ، وشرحت لهم طبيعته الخصبة الغنية الخلابة ، وقلت لهم : إن اليمن هي تلك الأرض التي تسميها كتبكم العربية السعيدة الخضراء . . وإن كتابكم يشبهون بلادي . . جبالها ووديانها وسهولها وروابيها ببلادكم سويسرا ، فقاطعني أحد الحاضرين وقال . . بل إن الشبه بين اليمن وسويسرا يصل إلى المواقف السياسية . . فسويسرا بلد محايد . . واليمن كذلك لا نسمع لها صوتًا ولا دويًا؛ بل إنها في الحرب الثانية لم تعلنها على ألمانيا ، قالت له : تمامًا .

ومضينا على حالنا حتّى انتهينا إلى الشقرة من بلد شهران[1] حتّى صرنا إلى ترج بالسلامة بعد مشقّةٍ من الخوف وانقطاع الزاد . فلمّا أفضينا إلى تَرْج مضى الشريف قاصداً إلى المعافى بن بدر . ومضى الشريف الأمير صنوه محمد بن جعفر إلى محمد بن منيع إلى المرفق[2] . وأقمْنا هنالك في أحسن حال وأنعم بالٍ ، ليس لنا اشتغالٌ إلاّ بقراءة كتابٍ أو صلاةٍ أو مُدارسة . وتزوّج الأمير محمد بن جعفر بالشريفة ابنة عمه سليمان بن القاسم بن علي ، وتزوّج الشريف الفاضل امرأةً من آل صُهيب[3] . فلمّا أرادوا الخروج إلى اليمامة طَلّقَها .

قال مفرّح بن أحمد ؛ سألْتُ الأمير الأَجَلَّ ذا الشرفين عن سفره إلى مكّة فقال : لمّا صِرْنا بترج بقيت معا فَرسانِ وبَغْلتانِ وخشينا أن يلحقنا من الأمير ابن أبي الفتوح عتبٌ إذا لم نتّصِلْ به لأنّ يده كانت تصل البلاد التي نحن بها فأمَرَني الشريفُ الفاضلُ بالتقدُّم إليه بتلك الدوابّ وتسليمها إليه على سبيل الهدية . فنهضْتُ مسافراً إلى مكّة معي حشمر بن عبد الأعلى وأحمد / بن طريف ويوسف بن يحيى حتّى إذا صِرنا بتربة[4] حضرتنا الصلاة بمسجد تربة ونحن مُنيخون بفناء رجلٍ يُقالُ له جبير بن بدر فنحن بالمسجد وجعل قومٌ يتذاكرون فضائلَ الصحابة ويقدّمون أبا بكرٍ وعمر على عليٍّ عليه السّلام فَخُضْتُ معهم في الحديث وقلتُ : مَنْ قَدَّمَهُما عليه فقد أخطأ حظَّه . وكان هنالك غرباء من العجم فغاظهم كلامي ، فتقدّم رجلٌ منهم أمامي فقال : ما تقولُ في القرآن أمُحْدَثٌ أم قديم ؟ قلتُ : أقول كما قال الله السميع

[م ق 24أ]

(1) شهران : بطن من قبيلة خثعم ، وتنقسم إلى عدة بطون . وتقع منازل هذه القبيلة على ضفاف وادي شهران وأهم مراكزها خميس مشيط . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 88 ، 230 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 304 ؛ فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص 59 ـ 61 ؛ البلادي : بين مكة وحضرموت ، ص 17 ـ 21 .

(2) المرفق كما سيذكرها المؤلف بعد ذلك : قرية في أعلى وادي بيشة .

(3) الصهب من دحيم من قبيلة بالقرن من قبائل بشة ؛ فؤاذ حمزة ، في بلاد عسير ، ص 61 .

(4) وادي تَرَبَة ، ينشأ من أطراف جبل حضن الجنوبية ، ويسير في ديرة البقوم مسافة طويلة حيث تقوم على جانبيه بلدان البقوم التي أهمها قرية تربة . وينتهي الوادي في عرق سبيع ويغور في رماله . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 265 ، 278 ؛ فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص 26 ـ 27 ؛ البلادي ، بين مكة وحضرموت ، ص 170 ـ 171 .

العليم : ﴿ ما يأتيهم من ذكرٍ من ربِّهم مُحْدَثٍ إلّا استمعوه وهم يلعبون ﴾[1] فجعل إصبعه في أذنيه ، ثُمّ صاح بأعلى صوته : يا لَعبادِ الله ! هذا الكفرُ بالله ! يقول هذا كلامُ الله مُحْدَث . فوقعْنا في خلطةٍ من الناس وأجمعوا علينا الكلمةَ وهمّوا أن يبطِشوا بنا لولا مناخُنا بفناء الجبير بن بدر وخِيفة العاقبة من قِبَل الأمير شكر . ثمّ شدّ عزم رفاقنا على سريّة الليل ، فسَرَينا . ثم إنّ أهل تلك الناحية أجمعوا وتحالفوا على أن يسطوا بنا في ممرِّنا عليهم لا يرقُبون فينا إلاًّ ولا ذِمّةً . ومضينا حتّى دخلْنا مكّة من ذات عِرْق[2] مُحْرِمين بعمرةٍ في شهر رجب . وسعينا ليلاً ثمّ أحللنا ونهضْنا من الغد إلى الأمير شكر بالبرقة[3] فلقينا أمره بالرحب والسعة ، وقُبِضت منا الدوابُّ في الوقت والحين بسرعة . وأمر لنا بمضربٍ فضُرب على ناحية ، فكُنّا فيه . ولم يلبث أنْ واجَهَنا بالبشاشة والبِشْر والاهتشاش ولبثْنا عنده إلى مستَهَلِّ ذي الحِجّة . فلمّا دنا الحجُّ سألْناه الإذن إلى مكّة ففعل وأَمَر لنا إلى هنالك بالكفاية . ومضينا فحججنا . فلمّا كان يوم الموقف صَبيحة عرفةَ أذَّن المؤذِّنون فما سمعْنا أحداً يؤذِّنُ إلّا الصلاة خيرٌ من النوم ، فقلتُ لأصحابي : تَقَرَّبوا بنا إلى الله بالأذان حيّ على خير العمل . فَعَلَونا فوق صخرةٍ عاليةٍ ثم أذَّنْتُ بأعلى صوتي وأذّن أصحابي معي . ثمّ وصل الأمير شكر فٱلتقينا به في الموقف فرَحّب وسَهّل وتفقّد وأجمل وقضينا حَجَّنا ولم نشعر برسوله حتّى وصل بنفاذنا فأثاب على الفرسين بمائتي مثقالٍ ، وعلى البغلتين بخمسين ومائة مثقال . وأمر لي رسماً بمائة مثقال . وتعذّر علينا الخروجُ بخروج الحاجّ فلبثنا بعدهم مدةً غيرَ بعيدة ، فٱلتمسْنا الرفاق فلم نجد إلّا رفقةً من بعض أهل تهامة من ناحية

---

(1) سورة الأنبياء/2 .

(2) ذات عرق : بكسر العين وسكون الراء في أعلى نخلة الشامية وتفصل ما بين تهامة ونجد والحجاز . وقيل عرق جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 89 ، ح 5 نفس الصفحة ، ص 256 ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ 4 ص 107 ـ 108 .

(3) البرقة حصن بالمراغة من بلد خثعم . وبرقة : إحدى المواقع بمفازة صيهد . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 231 ، 337 . وبرقة حسنا جنوب بدر ما بين مكة والمدينة . انظر : حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص 193 ، 199 .

وقد ذكر ياقوت العديد من الأماكن التي تسمى برقة ، منها : برقة العناب ، والعناب جبل في طريق مكة ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ 1 ص 396 .

يحيى بن عويد وقد حبس(*) الأمير شكر رفيقاً لهم في حالٍ لا أدري ما هو فسألوني المسألةَ فيه ففعلْتُ فأَطْلَقَهُ لهم لسؤالي .

ومضينا في صحبتهم حتّى انتهينا إلى بلاد بني عويد فشَكَر لنا ما كان من إطلاق ذلك الرجل كأنّه كان منه بسبب وأَجْمل إلينا وبدا معنا صاحباً . واعترضنا السراة ووقعنا في عَقَبةٍ كَؤدد صعبةٍ أُعْيَتْ فيها / ركابُنا فخلّيناها إلاّ جَملاً واحداً . فلمّا صرنا [م ق 24ب] بحوران[1] من أعلى تَرْج ووقعت علينا عيون من يعرفنا فابتدروا بالبشارة إلى الشريف الفاضل بقدومنا وكان قد ساءه تأخُّرُنا عن الحاجّ واغتمّ لذلك غمًّا شديداً فلقِيَنا رحمةُ الله ورضوانُهُ عليه في جماعةٍ من بني بدر ووجوه أهل البلد ومَحَابّهم ، وقفلْنا بالسلامة .

وكنت[2] لمّا وصلْتُ بشكر بن أبي الفتوح سألني مواجهة الشريف الفاضل وكأنّه أبان عتباً في انقباضه ، فلمّا وصلْتُ إليه رحمةُ الله ورضوانُهُ عليه بالسلامة عَرّفْتُهُ بقصّتي وخَبَري وما واجهْتُهُ في جميع سفري ، وأوصلْتُهُ تلك الرسالة بما أعاده عليَّ الأمير شكر من المقالة . فقال الشريف : كم لله من أمرٍ إلى حولٍ قابلٍ ! فلعلّ الموسمَ يأتي وقد هلك أحدُ الثلاثة إمّا صاحب اليمن أو صاحب مكة أو هلكْتُ ! فأفضيتُ إلى الراحة ! فما حال الحول حتى هلك شُكْرُ بن أبي الفتوح وخرج الشريف الفاضل حاجّاً ، وخرجْتُ لخروجه حتّى انتهينا إلى الحرم فأحرمنا بعمرةٍ ولبثْنا هنالك إلى وقت الحجّ . فكان الشريف الفاضل عليه السّلام يطوف أكثر أوقاته ليلاً لاختلاط الناس ، وتارةً يطوفُ نهاراً ، وتارةً يقفُ في المسجد ونحن كذلك معه . فبينا نحن ذات يومٍ في الحِجْر إذ ضربوا شيئاً يؤذّنون به للصلاة ويسمّونه الفرقلة[3] من أذناب ثورٍ مدبوغٍ على سبيل الدرة إلاّ أنه أطول منها باعاً ، أشدّ صعاقاً

(*) في الأصل : حبسه .

(1) حوران من قرى وادي ترج . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 334 ؛ فؤاد حمزة : في بلاد عسير ، ص 57 .

(2) قارن باللآلي المضية م2/ص 156 وما بعدها .

(3) الفرقلة : كانت تصنع في الريف المصري على هيئة سوط كبير مصنوع من التيل وله يد خشبية ويضرب بها في الهواء فتحدث صوتاً عالياً . وكان استخدامها لقيادة المواشي وإخافتها .

من المشطاة اليمانية . ثم قام المؤذنون للصلاة ونحن في ناحيةٍ منهم لا نقوم بقيامهم فنحن كذلك مَرّةً بعد أخرى حتّى أتانا ذات يومٍ رسولٌ يقول : إنّ فُلاناً الشيبي يقول الدعوة في هذا اليوم إسماعيلية فإنْ كنتم تُصَلّون بصلاةِ الناس وإلاّ فآخرُجوا إلى مسجد علي ، فهل من المحنة شيءٌ أعظم من إخراج آل محمد عليهم السّلام من بيت الله الحرام ومَنْعهم الصلاة من دون الإمام وهو أولى به وبوراثته ، وأولى بالدين والدعوة ، وهم الأعلام والقدوة ؟! وهذا والله من أعجب النوادر وأعظم الكبائر ، قال : ثمّ كنتُ أطوفُ ذات يوم إذا بباب الكعبة قد فُتح ورُفع مقامُ إبراهيم عليه السّلام إلى جوف الكعبة ، وكان المتولّي لذلك شريفٌ يقال المتقدى فلمّا رآني أشار إليَّ بيده وهو في جوف الكعبة ، فطلعْتُ إليه وتباركْتُ بذلك المقام والكعبة . ثم قال : امض للشريف السيّد فأسرعْتُ إليه وعرَّفْتُهُ ، فمضى معي حتّى ارتقى إلى جوف الكعبة ، وتبارك بذلك المقام . ودعونا وصلّينا ، وقضينا حَجّنا ، وقفلْنا إلى تَرْج بالسلامة .

قال : وكان الشريف الفاضل قد بنى على الخروج من مكّةَ إلى الكوفة وقد كَلَّم رجلاً يقال له : شبانة بن الأحيمر من بني هلال ، فأنعم له بالرفاق ، / وعقد له [م ق 25أ] الصحابة إلى العراق . فطلبنا ركابنا وكانت متخلِّفةً بعرفة ، فخرج الرجل وفاتنا . قال : وكان الشريف الفاضل قد همّ بمحلّ الدرب المعروف بهرجاب وإثارة المزرعة التي كانت للقاسم بن علي عليه السّلام . قال : وروى لـي عليُّ بنُ محمد بن أبي الجيش أن ذلك الرجل شبانة بن الأحيمر الهلالي قال له : إن كنتَ تَفِدُ على ملوك العراق وتطلب فوائدهم ، وتأكل موائدهم وإلاّ رُميت بالعداوة ! فقال : إنما أنا أفِرُّ بديني فإذا كان عادني فيما فررْتُ منه[1] لم أَخْرُجْ إلى العراق . فآنثنى من السفر إلى العراق وعمل عليه السّلام على محلِّ الدرب المعروف بهرجاب[2] وإثارة المزرعة

---

(1) في اللآلي المضية م 2/ص 157 : إنما أنا أفر بديني وإذا كان وقوعي فيما فررتُ منه لم أخرج إلى العراق .

(2) هرجاب : من الأودية العظيمة في بلاد شهران ؛ وهو من روافد بيشة مثل وادي ترج وغيره من الأودية الأخرى . وربما كان هذا الدرب (درب هرجاب) إحدى المناطق القليلة الصالحة للزراعة على وادي هرجاب . انظر ، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص 58 ـ 59 .

التي كانت للقاسم بن علي عليه السّلام على نحو ما أشار به ذلك الشريف فكأنّ صاحب تَرْج كَرِهَ ذلك وتخوّف مما هنالك فأضربْنا عنه لعلمنا بكراهته . ثمّ عرض علينا أن نزرع في المكان عنده وسلّم إلينا بئراً من أبياره تسمى الصيعانية وربط لنا رباطاً من نخلِهِ وقُمْنا في أُهبة ذلك فبينا نحن كذلك إذ ورد علينا كتابٌ من بعض أصحابنا باليمن يقول : إنّ هذا الصُّليحي قد سَرَّح مخرجاً كبيراً وجهّز له جهازاً كثيراً وهو خارجٌ إلى ناحيتكم لا محالة .

فلما وصلتنا هذه الرسالة أضربنا عن الزراعة وخشينا إن نهضوا أن يكون لهم في البلاد طاعة . فشاور الشريف الفاضل عليه السّلام مَنْ معه من الجماعة على ظعنٍ أو إقامة ؛ فكان من عزمه الخروج إلى اليمامة ، وكان غرضهم العراق ، وعمل الشريف الأمير محمد بن جعفر على العودة إلى اليمن . فلمّا فارَقَهُمْ آستوحش لفراقهم وأنشأ يقول[1] :

أبى لي عظم الوجد أن أتصبّرا ... فَحُزْني مُزْدادٌ إذا قلتُ أقْصِرا

سلا الصحب عن ذكر الديار وأظهروا ... عزاءً وأبدى القلب وجداً وأظهرا

إذا ذكرت نفسي العداة على النوى ... علياً ونَسْلَ القاسمَين وجعفرا

وأحمد والفتيان من آل قاسمٍ ... وصنواً لنا شمسان يوماً تديَّرا

ومن قد حوى السور المحيط تفتّقتْ ... عُرى الصبر حتّى مَنْ رأى الصبرَ أنكرا

عليّ ولولا الشوقُ ما كنت واجداً ... ولكنّه أشجى الفؤادَ وأحْسرا

ألم تر أنّا اليوم من بعد كوننا ... بِتَرْجٍ معاً كُلٌّ يُحاولُ مَصْدَرا

أخِلّايَ من عُليا بكيلٍ وهاشمٍ ... وحامٍ يرومون العراقَ وتَدْمُرا

[م ق 25ب] ولستُ أروم اليوم إلّا زيارةً ... لصحن عِيانٍ[2] فالسبيع[3] فورورا[4] /

---

(1) ذكر صاحب اللآلي المضية م 2/ص 157 (تحت) مطلع القصيدة فقط .

(2) عَيَّان بتشديد الياء وفتح العين من بلاد حجة ، وعِيَان بكسر العين وفتح الياء من قرى بلاد سفيان . الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 3 ص 618 .

(3) السبيع بفتح السين وكسر الباء وسكون الياء ، قرية من عزلة بني قيس ناحية خمر . النتائج الأولية لتعداد 1986 ؛ التقسيمات الإدارية لعام 1985 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 3 ص 415 .

(4) ورور : بفتح الواو وسكون الراء : جبل وواد في بني جبر ناحية ذيبين ، شمال شرق قرية ذيبين . =

فبيتِ شعيب[1] فـالـرسـوم التي بـه … سقته الغـوادي الجَـوْدَ حتّى تعـرعـرا
رسـومٌ لـنـا كـانت مـداراً ومـلعبـاً … وللغـانيـاتِ البيضِ ملهًى ومَـسْمَـرا
فـمن ينس إذ بـان الـديـارُ فـإنني … لـربـعٍ بشمسـان[2] الغـديّـة أقفـرا
لـعمـرُك ذو ذكـرٍ وإن كـان لَـهْـوُنـا … بـه كـان من ذكـر المـهيمن أكثـرا
فـذكـر الصبـا واللهـو يـا قلبُ خُلّةٌ … ولا تنس عصـراً كـان لا شـكّ أظهـرا
ليـاليَ إذ كـنّـا بـذعبـان قـد تـرى … بـه مصحفاً يُقـري ولـوحـاً ودفتـرا
وإخـوان صـدقٍ لا تَبَـاغُضَ بينهـم … ومـجلس عـلمٍ يُستفـادُ ومـحـضـرا
إذا عـلـم مـولانـا الـحسيـن أداره … ذوو الحفظِ منـا خِلْتَ مِسكـاً وعنبـرا
فَسَقيـاً لعـصـر كـان ثُمّ تتـابعت … عليـه صـروفُ الـدهـر حتّى تغيَّـرا
لقـد كِـدْتُ من وَجْـدٍ عليـه ولـوعـةٍ … أصيـر شجيـاً نـاحِـلَ الجسم أصفـرا
سـأنْـدُبُ ذاك الـعصـر حـقـاً وأهله … وأذكُـرُهُـمْ مـا دمتُ حيـاً مُـعَـمَّـرا
وأنـدُبُ أيّـام الـهِـرابـةِ مـا بـدت … نـجـومٌ ومـا لاح الصبـاحُ وأسـفـرا
فقـد كـان في أيّـامهـا العِـزُّ والعـلا … وكنّـا بهـا العـالين يـا من تـحيـدرا
وكنتَ تـرى الفتيـانَ والخيـلَ والقنـا … بهـا عُكّفاً يشجـون مَنْ قـد تَجَبَّـرا
يقـودُهُمُ الـطهـر الـزكيُّ أخـو التُّقى … وأكـرم خَـلْقِ الله أصـلاً وعُـنْـصُـرا
رئيس بني الـزهـراء قـاسم ذو العـلا … فـأظهـر معـروفـاً وأخمـل منكـرا
وبـايـن مَـنْ بـادى الإلّـه بـكُـفْـرِهِ … وواصـل مَنْ والى الكبيـر المكبّـرا
زمـانـاً وأردى الـدهـر غـدراً وأهله … فَبُعداً لأهـل الـدهـر مـا كـان أغـدرا
فـأصبـح منّـا اليـومَ بعضٌ مُشَـرَّداً … وأهلك ريبُ الـدهـر بعضـاً وأَقبَـرا
فيـا دهـرُ أمّـا حين أبعـدْتَ قـاسمـاً … وأحمـد نفّـاع الـصـديق وحشمـرا
وَفَـرّقْتَ بيني اليـوم كـرهـاً وبينهـم … فـمـا لـي إلاّ أن أنـوحَ وأسـهَـرا

= الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 764 ؛ خريطة ج . ع . ي . 1 : 50000 صفحة 1544A1 .

(1) بيت شعيب : قرية من حزة سهمان ناحية بني مطر قضاء صنعاء . التقسيمات الإدارية لعام 1985 .

(2) شمسان : حصن مطل على علمان من ناحية بني الحارث أسفل وادي ظهر . وشمسان حصن في غربان من بلاد حاشد . وشمسان حصن في مدام من ناحية همدان قرب صنعاء . انظر : الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 3 ص 457 .

لقد كان مني الوجد من أجل قُربهم ... ومن قبل أن يرموا اليمامة أحسرا
فلمّا استمرّ السيرُ منهم وودّعوا ... تكاثف نَبْتُ الوجد حقاً وأزهرا
وأصبحتُ ذا هَمٍّ وحُزْنٍ ولوعةٍ ... فلو أنّ ما بي اليوم بالصخر أخبرا
لعظم الذي لاقاه من شدّة الأسى ... ومن مِحَنٍ شتّى ودهرٍ تنكّرا
[م ق 26أ] فما لي إلّا الصبر إذ صرتُ مُفْرَداً ... ببيشة[1] لا ألقى العداة ولا أرى /
صفياً من الإخوان أو ذا قرابةٍ ... فيا لك خَطْباً ما أَجَلَّ وأكبرا
كذا المرء والأيام إنْ قيل إنّه ... قد أيسر يوماً قيل لا شكّ أعسرا
فلا تجزعنْ من ريب دهرٍ وصَرْفِهِ ... ولا تبغ إلّا عيشةً لن تُكَدَّرا
لَعَمْرُكَ في جَنّاتِ عَدْنٍ نعيمُها ... مقيمُ لمن والى الإلّه وشَمَّرا
إذا الحُرُّ حقاً صام عن لَذّة الفنا ... على لَذّةِ التخليدِ لا شكَّ أَفْطَرا

تَمّ الشعر . وكم له رحمةُ الله عليه من الشعر في هذا الجنس .

قال : ثم أمر بحريمه أن تُنقل من بيت شُعيب إلى عِيان وصاحب ذلك مواجهة الصليحي في بعض طيافته لصوافيه ، وعمل في ذلك بعض أهل البغي بغية فنبذ بالأمان إليه ، وقابل صنوه الحسن بن جعفر بالنقض عليه فأرسل إلى صنوه محمد بن جعفر بذلك العلم . قال : وصادف وصول العلم به وصول أحمد بن مظفر من صعدة إلى عِيان فواجهه وهو على رحيلٍ قد ركب في عمارةٍ له فقال له : لي إليك حاجة ! فقال : إلحقني إلى بركة الضرك[2] فلحقه فشكى إليه القصّة وقال له : أعطني موثوقاً عل المحلّ في مخاليفك وكن أُولى بحيازنا فأنت أقربُ الناس إلى ديارنا ! فقال : أنا أكفيك ! قال : أعطِني خطاً ! قال : أنا أكفيك ! قال : أعطني خطاً ! قال : أنا أقول لك أنا أكفيك فلا تقنع ؟ فلجّ عليه في الخطّ فقال : إلحقني إلى أثافت . قال : فصرت في أمر مَريجٍ إن تقدَّمْتُ فالتقدُّمُ يُتْعِبُني وإن تأخّرتُ

(1) بيشة : أكبر أودية السراة الشرقية . ويبدأ وادي بيشة من سراة عَبِيدة ورُفيدة . وروافد بيشة أودية عظيمة مثل ترج وتبالة وهرجاب وبطنة . ويعتبر هذا الوادي وادي خثعم إذ أن جميع البطون القاطنة فيه وفي معظم روافده هي بطون من خثعم . وتقوم على أطراف الوادي إحدى وعشرون قرية . انظر، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص 54 ـ 59 ؛ والبلادي : بين مكة وحضرموت ، ص 172 ـ 173 .

(2) ذكر الهمداني أن الضرك من بلد همدان . ويتضح مما ذكر أن الضرك هي إحدى قرى ناحية حرف سفيان . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 218 .

صارت وحشة ؛ فلم أر إلاّ التقدم . قال : فعدْتُ فلمّا كان متى تقدَّمْتُ إلى مشهد القاسم بن عليّ عليه السّلام وتباركْتُ به وتقدّمْتُ حتّى لحقْتُهُ بأثافت فدخلْتُ عليه وهو في مجلسه وإنّ عنده لجماعةً من الأصحاب والإخوان والمَحَابّ فما رَدَّ أيُّهُم عليَّ سلاماً ولا هَمَّ لي بقيامٍ فكلّمتُهُ في شأن الرقع فكتبه لي وعدت إلى عيان . قال : وكان سبب تلك الوحشة التي أُلقيت إلى الصليحي حركة الشيعة الحسينية بالظاهر[1] . قال : ونهض الأمير محمد بن جعفر إلى صنوة الحسن بن جعفر ببيت شعيب يريد أن يمضيا إلى الصليحي ويسكتان هذه القالة ويغطّيان سبب هذه الحالة . فنهضنا إلى صنعاء ، وصاقب وصولُهُمامَرَاحاً للقوم من مخرجٍ لهم خرجوه وهم مجتمعون بمسجد الحُرّة الذي بالميدان خارج المدينة . فاستأذنا عليه فلم يؤذَنْ لهما . قال : فمضى الأمير محمد بن جعفر حتى دخل القرية ، وبقي صنوه الحسن بن جعفر / فأذن له بعد مُضِيٍّ صنوه فدخل ، ثمّ قال له الصُّليحي : [م ق 26ب] يا شريف ! تعلم أنّ أخاك هذا يتعرّضُ لنا ، ويفسد عشائرنا ، ولم يقبل العافية منا وأنا فقد برئتُ من ذمّته فلا أمانَ عليه مني ! قال : ثم قدم إلى صنوه داخل المدينة فأخبره الخبر . قال : فأقمْنا خائفين نترقّب الهلكة لولا العصمةُ من الله عزّ وجلّ . ثمّ سِرنا إلى دار أحمد بن مظفَّر نسألُ أن يُجَدِّدَ لنا أماناً أو يغفل عنّا زماناً . فلقينا كاتبه عبد الله بن محمّد في دهليز داره فتحدّث معنا وأخرج لنا كتباً من الشيعة الحُسينية من بعضهم إلى بعض يذكرون فيه أنهم قد اشتوروا على قتل أحمد بن مظفّر في الفقع[2] وأنّا قد شاورْنا على ذلك الشريف محمد بن جعفر . وكان الواصل إليهم بتلك الكتب الزبير بن معمر الوادعي . قال : فوقعنا في هذه ما كدنا أن نخلص منها إلاّ بفضل الله ! قال ؛ فقلْتُ : ما فتحْتُ في هذا باباً ، ولا كتبْتُ فيه كتاباً ، ولا أجريتُ فيه خطاباً ، ولو كنتُ فعلْتُ هذا لَقُلْتُهُ . وما إذن أتيتُ هذا المكان ولا وصلْته ! ثم سألْناه مواجهة أحمد بن مظفَّر فأذِن لنا فطلعْنا إليه فابتدأْناه بالكلام وطلبْنا منه الأمان

(1) الظاهر : كل ماارتفع من البلدان يسمى ظاهراً ، كذا بالإضافة إلى محله كظاهر همدان وظاهر المحويت . الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 3 ص 563 .

(2) الفقع من وادعة ، وهو نقيل وأحد مسايل وادي حبش . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 160 ، 222 ، 364 .

والذِّمام . فما زاد على أن قال : أفسدتم الناس بمُحالكم وكذبكم تَعِدونهم بحياة عمِّكم ولم ترعوا ما فعلْنا لكم وأسدينا من المِنَنِ إليكم ! هذا أخوك أجملْنا في أمره وأطلقْناه من أُسْره فمضى يطلب لنا الغوائل ، ويحالِفُ علينا القبائل ! وأنتَ في اليمن تُفسد العشائر وتُحالف شيعتكم بالظاهر ، وليس عاد اليمن يسعُنا وإيّاكم فآحمِلْ منا نفسك والحق أخاك . قال ؛ ثمّ قلتُ له : افسح لي في الكلام ! فقال : تكلّمْ بما شئتَ! وأصغى إلى كلامي . قلتُ له : أمّا قولُك أنّ في رقابنا مِنناً لكم فَلَعَمري ما جحدْنا فعلَكُم ولو أردْنا جَحْدَها ما انجحدَتْ لاشتهارها ، وأمّا أنا فما حالفْتُ ولا خالفْتُ . وأمّا قولنا بحياة عمّنا فذلك قولُنا واعتقادُنا وعليه نبتت لحومُنا ودماؤنا ، وإذا سُئلنا عن ذلك أخبرنا فإنْ أمرْتنا أن نرجع عن ذلك رجعنا . قال : لا والله ما أنا آمُرُك بالرجوع عن دينك هؤلاء تحت لهوجنا يهود ونصارى ومجبرة وزيدية ما جبر أحداً منهم أحدٌ على دينه ! ثم قلت : أنا أُحِبُّ أن يُعمل معي أحد ثلاثة أوجُهٍ ! قال : وما هي ؟ قلت : قد صار تحت أيدينا حريمٌ وعيالٌ وضعفى وأطفال وأنا أُحِبُّ أن تدعني سبباً لمساكهم ولا يكن بيديك سببُ هلاكهم ، وتتركني أقوم عليهم وأتسبّب في الرزق إليهم ، ولا تسمع عليَّ كلاماً ولا تصدّق فيّ باغياً ولا نَمّاماً ، وإمّا كفيتَني مؤونتَهم وأجريتَ ما يقومُ بهم وأُغلق عليّ بابي وأُلزمُ منزلي ولا أخرُجُ من الباب ولا أُواجِهُ أحداً بخطاب ، وإمّا أعنْتَني على نقلهم بالحمول / والزاد ونقلتُهُم منكَ إلى بعض البلاد . قال : نعم أُريد أُقَوّيك وأفعل لك ولأخيك كما فعلنا فيه أوّلاً فكفر نعمتنا وجحد مِنّتنا ! قلتُ : ما كفر نعمتكم ، ولا أساء إليكم ، ولا جحدها ، ولا خالف عليكم ! إنما هو رجلٌ أعداؤه كثيرٌ من أهل اليمن وبينه وبين كثيرٍ منهم بسبب القيام عليكم الضغناء ، وهذا طاهر بن الحسين قُتل في فنائكم وكان من أمره ما علمْتَ ، ومن مثلها خرج أخي . قال : قد عرضنا قَتَلَتَهُ على بني عمّه ! قلتُ : لو جرى على أخي جارٍ ثم أفنيتُم الخَلْقَ بعده ما أغنى عنّا شيئاً ، فما خرج إلاّ فاراً بنفسه ، خائفاً على رأسه ! قال : فامتلأ غيظاً وقال : فخف على رأسك والحق أخاك فليس يسعُنا اليمنُ وإياك ! قال : فلطفنا به وترفّقْنا في خطابه وقلنا له تسبَّبْ في أماننا وأقِرَّنا في مكاننا ! قال : قد حَتّم مولانا حتماً وليس عادتي أقدر على مراجعته فيه . فما زلنا به حتى قال أفعلُ بكرهٍ منه ، ثم لم نشعر برقعه حتّى أتانا يقول : قد واجهْتُ

[م ق 27أ]

مولانا فيما سألاه فما أنعم في شيءٍ من ذلك ! قال الأمير محمد بن جعفر : فتطاير عنّي أصحابي وبقيتُ وحدي خائفاً أترقّبُ وقوعَ البلية ونزول المنية في مسجدٍ بإزائهم . ثم تلطّفْت حتى صرتُ إلى دار أخي أبي الفتح نوح بن يحيى بن زنجي . فلبثْتُ عنده لا يعلم أحدٌ بمكاني ثمّ سألْتُهُ أن يكتري لي ركوباً فأتاني بحمّالَين من أهل الجوف الأعلى قد حملا عنباً فركبْتُ معهما بين قفصين وخرجْتُ في غَسَق الفجر متنكّراً وأفْضَت الطريقُ بي من خطرٍ إلى خطرٍ حتّى صرتُ إلى مهدي بن أبي ليلى رحمةُ الله عليه بعد أن كدتُ ألّا أصِلَ إليه فأبثثْتُهُ أمري وأطلعْتُهُ على سِرّي ، فسلّى عني بعض ما كنت فيه وجمل حالي عنده ثم صَحِبَني هو وبنو عمّه إلى ريدة[1] . ثم توجّهْتُ طريق الحصن متنكّباً عن الطريق خوفاً حتّى انتهيتُ إلى هنالك فشكوتُ ما لقيت إلى بعض الإخوان فقال : أنا أرى أن يُؤْمَرَ بصائحٍ في هذا السوق يعني سوق بني ربيعة[2] أنّ محمد بن جعفر يقول : لا يواجِهُهُ أحدٌ ، ولا يصلُ إليه . فما زاد ذلك الصائح على أن أغرى بي الإخوان ، فما شعرْتُ إلّا وعندي منهم جماعةٌ في الليل يعرضون بذل أنفسهم وأموالهم والمُنابذة للعدو والمجاهدة ؛ وذلك في شِدّةٍ من أمور بني الصُّليحي وقوةٍ منهم ولأنّهم في جميع الإقليم يأخذون البريء بالسقيم ، فكرهْتُ ما عرضوا عليَّ وعرّفْتُهم أنّ غرضي في الخروج إلى الشام فتكفّلوا لي بالقيام بمن خلّفْتُهُ من الأولاد والأحرام . ثم قلتُ : اصحبوني ! وخرجْت متنكّراً فذكرتُ قول زيد بن عليٍّ عليه السّلام[3] :

---

(1) ريدة : بفتح الراء وسكون الياء بالدال المهملة المفتوحة ، قرية وناحية في قضاء عمران . وتقع ما بين : 8" 49′ 15° شمالاً ، 34" 102′ 44° شرقاً . انظر ، الهمداني ، الإكليل ، جـ 8 ص 165 - 166 ؛ البكري ، معجم ما استعجم ، جـ 2 ص 688 ؛ السياغي ، معالم الآثار اليمنية ، ص 64 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1544A1 .

(2) ربيعة بن عبد : بطن من أرحب بن الدعام . . . بن دومان بن بكيل من همدان القحطانية . كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ 2 ص 422 . وقد ذكر الهمداني أن بني ربيعة وبني صريم هم سكان بلد حرب بن وادعة وهي مناطق تقع حول قرية حوث . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 128 ، 160 .

(3) مقاتل الطالبين ص 205 أنّ المتمثّل بالأبيات هو محمد النفس الزكية الثائر عام 145 هـ على المنصور .

مـنخـرقُ الـخفَّـين يـشكـو الـوجـى | تـنـكُـبُـه أطـرافُ مَـرْوٍ حِـداد
[م ق 27ب] قـد كـان فـي الـمـوت لـه راحـةٌ | والـمـوتُ حَتْمٌ في رقـاب الـعبـادْ/
شـرّده الـخـوفُ عـن أوطـانـه[1] | كـذاك مـن يـكـرهُ حَـرَّ الـجِـلادْ

قال : ومضى معي أصحابي حتّى فارقوني ببركة خيوان[2] ، وتمّمْتُ أنا والشريف الحسن بن إبراهيم إلى عِيان وأقمْتُ متخفّياً بها عن الأهل وغيرهم زهاء السبع أو الثمان حتّى عرض رَكْبٌ يريدون الحجاز من سنحان ، فودّعْتُ في ليلتي تلك جميع الأهل والإخوان وداعَ من لا يرجو الاجتماعَ بهم ، وخرجْتُ مع الركب وسألْتُهُمُ الصحابة فقالوا : من اسمك ؟ فقلتُ : عبد الله . قالوا : ابن من ؟ قلت : ابن محمد ، وما قلتُ إلّا حقّاً . وجَدَّ بنا السيرُ إلى بعض الطريق فلمّا حططْنا خلا بي رجلٌ منهم ثم قال : ألستَ بفلان ؟ قلت : لعلك شَبَّهْتَ ! قال : ألستُ أودعتُ عندك وديعةً ، وفي رقبتي لك صنيعة ؟ وأثْبَتَني معرفةً وقال : لستُ لك بعدوٍّ ولا شانىء . قلتُ له : فلا يعلم أحدٌ بمكاني . فقال : القومُ عدوٌّ للجميع منا .

قال العبّاس بن يوسف الشريفي : هذا الرجل الذي واجهه هو رجلٌ شريفيٌّ من أهل راحة يقال له : الجابر بن عمرو المحصني . قال : ثُمَّ انتهى بنا السير إلى بلد سنحان وتفرّقَ القومُ إلى أماكنهم وأصحبونا بصبيٍّ منهم . وحثثنا السير حتى وصلنا إلى وطن جنب ؛ وكان الرجلُ جنبياً ؛ ثمّ قال : لا تكتُمْ شيئاً من شأنك فإنك قد بلغْتَ إلى أمانك ! ثم لم يدع شيئاً من الجميل حتّى أسداه إلينا . ثم استصحب لنا رجلاً يقال له الوجيه من بني فضلة حتّى أوصلَنا إلى رجلٍ يقال له المرتفع بن المزراق من شهران ، وبلغنا إلى تَرْج بالسلامة .

---

(1) في مقاتل الطالبيين : شرّده الخوف وأزرى به .

(2) خيوان بفتح الخاء وسكون الياء . أرض خيوان بن مالك وهي الحد بين حاشد وبكيل . وخيوان عزلة في ناحية حوث . وقرية خيوان على بعد 10 كم جنوب مدينة الحرف ، وتقع ما بين : 44" 16′ 16° شمالاً ، 51" 03′ 44° شرقاً . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 115 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 215 ، 223 ؛ التقسيمات الإدارية لعام 1985 ؛ التعداد السكاني التعاوني لمحافظة صنعاء ، جـ 2 ص 445 ، 458 ؛ خريطة ج. ع. ي، 1: 50000 ، صفحة 1544C1 .

قال مفرِّح بن أحمد : سألْتُ الحسن بن واقد عن سبب خروجه إلى الشريف الفاضل عليه السّلام فقال : اعلم أنّي لما تعلّقْتُ بالدين والإسلام ووقعت في قلبي محبّةُ الشريف الفاضل عليه السّلام عقدْتُ على الخروج والهجرة إليه بالشام فنهضْتُ أنا وزيد بن أبي العشيرة النعامي وأحمد بن طريف ـ وهما من أهل خدمته ومحبّته ـ حتى إذا صِرْنا بصعدة التمسنا رفيقاً فألفينا هنالك عليّ بن ناهض الشاعر الخثعمي فسألناه الصحابة فقال : حباً ونعماً ! ثمّ قال متمثّلاً :

إصحب رفيقــك حتّى ينقضي السفــر   إنّ الــذي أنـت مــوليــه سينـتـشــرُ
ولا تـكـن كـلـئـام مَـسَّـهُـمْ ضَـجَـرُ   إنّ اللئـام إذا مـا سـافـروا ضَجِـروا

ثمّ سِرْنا في صحبته إلى بلد خثعم ، واستصحب لنا إلى ترج فوصلْنا إلى الأمير محمد بن جعفر وهو بقرية الحبل[1] من ترج فَسُرَّ بنا وأكرمَنا ثم نهض بنا إلى الشريف الفاضل وهو بالحضير في زراعةٍ له منفرداً يقاسي بنفسه يظلّ صائماً قائماً ولا أهلَ له ولا ولد فإذا أمسى عليه قام يقاسي شيئاً يفطر عليه فلمّا قدمْنا إليه سُرَّ بمقدَمِنا ورحّب بنا وأكرمنا ثم ذكر لنا / المِحَنَ والعوارضَ فقال : اعتزلْتُ ها هنا عن سماع ما أكره [م ق 28أ] ورؤية ما لا يجوز رؤيته فاستأجرْتُ هذا الأجير ليسوق لي هذين الناضحَين فهو يتغنّى ويترنم ويذكر ما لا يجوز ذكره . قال : فبينا هو يذكر ذلك إذا براعٍ قد دخل إلى عريشٍ في جانب الموضع وجعل ينفخ في قصبةٍ له ويزمر . قال عليه السّلام : وهذا أيضاً . ثم خاف بالموضع وانتقل منه إلى مكانٍ يسمى أبا نجاش فَرَتّب به زراعةً وأقام مدّةً ثمّ رجع بعد ذلك إلى ترج وذلك بعد موت حشمر بن عبد الأعلى رحمةُ الله عليه ؛ وتخلّى للعبادة وعقد على نفسه التخلّي والتعبُّد والدراسة ، ولزم منزله . ثمّ اشتهى العزلة عن القرية إلى موضعٍ يقال له القصر فآبتنى به منزلاً وآبتنينا بإزائه بيتاً ثمّ قال لنا ذات يومٍ : قد رأيتُ رأياً ! قلنا : ما هو؟ قال : يأخذ كلُّ رجلٍ منا كتاباً يقرأ فيه سنةً كاملة ؛ فيأخذ رجلٌ كتاب (المُعْجِز) ورجلٌ كتاب (المختصر) ورجلٌ

(1) أرض الحبل في مسيل وادي السوادة شمال وادي بيشة . فؤاد حمزة ، في بلاد عسير ، ص 52 . بينما يذكر الهمداني أنّ الحبل من بلاد الحِجر يسكنها بنو مالك بن شهر ؛ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 234 ؛ والبلادي : بين مكة وحضرموت ، ص 27 .

كتاب (التفسير) ورجلٌ كتاب (المنتخب) ورجلٌ كتاب (التفريع)[1] وكنّا خمسة نفر الشريف الفاضل وصنوه محمد بن جعفر وولده سليمان بن القاسم وزيد بن أبي العشيرة وأنا . وعملنا على هذا الرأي وعقد الشريف الفاضل على نفسه أن لا يجلس في غير منزله إلاّ أن يزوره المعافى بن بدر فيجلس معه لِحَقّ الجيار . فأقمنا على ذلك مدةً من الزمان حتّى لحق الشريفَ سليمانَ بن القاسم جفافٌ في دماغه من كثرة الدراسة فزال عقلُه . وكان سليمان بن القاسم يقول : ما أَظُنُّ المِحَنَ تَدَعُكُمْ وإتمامَ ما عقدْتُم عليه ! فكان كما توسَّم رحمه الله . وروى لي الحسن بن واقد عن الأمير محمد أنه قال : قد كنتُ أحسستُ شيئاً من الدراسة فتداركْتُ نفسي وعالجتُها فزال عنّي ذلك . قال : ثُمّ اشتغلْنا بمقاساته في عِلّته حتّى خَفّ عنه منها شيءُ . ثمّ تناهى إلى الشريف الفاضل أخبار وتحوّر الغوائل بترج فبنى على السفر فقال لي ولزيد : إعلما أني قد عزمْتُ على السَّفَر إلى العراق والشام والانقطاع من اليمن بالكلية فإنْ أحببْتُما الانقطاعَ معي بنيتُما على ذلك وإن أحببتُما الرواحَ عَرّفْتُماني . فقلنا : نحن معك حيث توجَّهْتَ من أرض الله ! فعرض عليَّ الخروجَ إلى مكّة فأمرنا بالزاد وعلفنا ركابَنا وقمنا عليها أربعين يوماً ثمّ نهضنا متوجِّهين إلى مكة ، فلمّا صرنا ببعض الطريق وقد التأمت إلينا قافلةٌ فآعترض لنا عربٌ من بني هلال[2] ليأخذونا فقال لهم الشريف الفاضل : أنا رجلٌ من بني حسن فأقْدِمُوا على ما شئتم مني ! قالوا : فاطلُب لنا من هؤلاء التجّار سبباً ! قال : هم رفاقي وليس إليهم سبيل ! ومضينا حتّى دخلْنا مكّةَ في شهر رجبٍ سنة تسع وخمسين وأربعمائة فأحرمْنا بعُمرةٍ ، وحططْنا في مسجد عليٍّ رضي الله عنه ثمّ أحللْنا .

[م ق 28ب] وكان الشريف يطوف قليلاً والاسم للصُّليحي بمكّة فنحن بها / أخوافٌ فأشرنا على الشريف بمواجهة ابن أبي هاشم فمضى ليواجهه فاعتذر عن المواجهة فزادنا

---

(1) أمّا كتب المعجز والمختصر والتفسير فهي للمهدي الحسين بن القاسم (قارن بالتمهيد عنها) . وأما التفريع فلوالده القاسم بن علي العياني . وأما المنتخب فهو كتاب في الفقه جمعه محمد بن سليمان الكوفي مما سأل عنه الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين .

(2) هلال بن عامر بن صعصعة ، من هوازن . . . كانوا يقطنون الحجاز ونجداً حول مكة . ومن ديارهم بيشة وتربة . كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ 3 ص 1221 . وانظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ 2 ص 21 .

اعتذارُهُ خوفاً . فبنى الشريف على الخروج إلى المدينة فخرج معه رَكْبٌ من بني جعفرٍ فصحِبونا بأحسن صحابةٍ حتّى خرجْنا من بلادهم وصرنا إلى بلاد بني حرب[1] فلمّا انتهينا إلى بعض المياه استقينا وصليّنا ومضينا . ثمّ أتى سَرْحُهُم فوردوا الماء فقصُّوا أثرنا على الماء فما شعرنا باليحاوية(*) إلاّ وهي على أثرنا فما لبثوا أن أحاطوا بنا . فلمّا رأينا ذلك لزمنا ، فقالوا : ادفعوا الصحابة إن أحببتم السلامة ! وكان معنا رفيقٌ لنا مَدَنيٌّ فلم ينظروا فيه فقال الشريف : أنا رجلٌ من بني حسن ! قالوا : فهؤلاء اليمانيُّون ؟ فوهبنا لهم شيئاً من زادنا ومضينا حتّى دخلْنا المدينةَ من بعد أن عُدي علينا مرةً أخرى . فلمّا دخلْنا المدينة أمرنا الشريف بالاغتسال وقال : هذا حَرَمُ رسول الله يجبُ له ما يجبُ لحرم بيت الله فاغتسلْنا ودخلْنا المسجدَ ، وازدرْنا قبر رسول الله صلواتُ الله عليه ، ووصلنا وقد انقطع الزاد فأجمع رأْيُ الشريف على قصد الحسين بن المهنّا الحُسيني[2] وهو يومئذ خليفة أمير المدينة مخيط بن أحمد الحسيني[3] ومخيط غائبٌ بمصر فأضفْنا إليه وذلك في شهر شعبان سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة سنة فأنزَلنا منزلاً من بعض أزقّة المدينة وأجرى لنا صاعاً من دقيقِ ذُرةٍ وأوقيتين من سمنٍ ونحن ستّةٌ فأقمْنا في منزلنا ذلك في شقٍّ منه وفي الشق الثاني قومٌ يعملون بالمعاصي إلا أنهم يُسِرُّونها جهدهم فشقّ علينا ذلك فواجهْتُ الشريف في ذلك فواجه رجلاً من أهل المدينة كان يحضر مجلسه ، إلاّ أنه اثني عشري في مذهبه وكان يتحدّث معه ويناضلُ عن دينه حتّى يقطَعَهُ الشريف فكان يشتهي كلامه ويتفقّه منه في الدين فشكى إليه ما شقّ علينا من ذلك المنزل ، فطلب لنا منزلاً على ناحيةٍ أُخرى فانتقلْنا إليه فما شعرنا إلاّ والمعازفُ محيطةٌ بنا جِهاراً ! فقال الشريف : ما رضيتُ يا أبا فلان أن نُجاور قوماً يعصون سراً حتى جاورْنا قوماً يعصون الله جهراً ! قال : ثمّ تعبنا من تقاصر الأسفار فأمر الشريف ببيع أواعي زاده وخُرُوج راحلته . فكنّا

(*) كذا في الأصل .

(1) حرب : قبيلة أكثرها من العدنانية ، تقع أماكنها في نجد وفي الحجاز . أما في الحجاز فتمتدّ ديارها من جنوبي ينبع حتى القنفذة . انظر : فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ص 147 ـ 151 ؛ وكحالة : معجم قبائل العرب ، جـ 1 ص 259 .

(2) في اللآلي المضية : الحسين المهنا الحسني .

(3) في اللآلي : محبط بن أحمد الحسني .

نأخذ الشيء اليسير من الثمن بالثمن الكثير وكنّا ننتظر قدوم أمير المدينة مخيط نرجو منه أن يزملنا بزادٍ وركابٍ ويُعيننا على السفر ، وغرض الشريف الفاضل الكوفة وزيارة قبر أمير المؤمنين والوقوف بمشاهد العراق والتوصُّل إلى بيت المقدس . فنحن على تلك النية إذ ورد قُلٌّ من الناس قد ظفر بهم اللصوص في طريقهم وهم من العراق ، فأخذوا زادهم وركابهم فكأن ذلك ثنى عزائمنا . ثم هممنا بقرى الشام / فأخبِرْنا [م ق 29أ] بشكلٍ من ذلك ، فنحن ما بين صادرٍ ووارِدٍ في أمرنا إذ قدم أميرُ المدينة مخيط من سفره ونفوسُنا مُشْرَعَةٌ إلى قدومه فما زاد إلاّ أن قطع عنّا ذلك الصاع وصرنا على غايةٍ من الانقطاع ! فأمر الشريف ببيع مدرعة صلاته والقناع . فلمّا لم نجد شيئاً نبيعه ؛ نهض الشريف إلى مخيط على كرهٍ منه ؛ فكلّمه في إعادة ذلك الصاع فأعاده . فلمّا أهلّ علينا شهر رمضان تقدّم الشريف الفاضل عليه السّلام فاعتكف في مسجد رسول الله صلواتُ الله عليه وأقبل على القراءة والدراسة لكتب آبائه عليهم السّلام . وكان يتنقل من الروضة إلى المنبر ويثابر على مقام جبريل الأمين عليه صلواتُ ربّ العالمين . فكان يُكثر الدعاء بمقام جبريل فسألْتُهُ عمّا يدعو فقال : سألْتُ الله أن يرزُقَني الجهادَ في سبيله ، وأن ينتقم من الصُّليحي وقبيله ، وأن يُعينَني على الزهد في كثير الحُطام وقليله .

فما لبثْنا غير شوّال وقُتل الصُّليحي[1] في ذي القعدة فكان بعد وصوله اليمن ومقاساته لما قاسى من المحن يقول : يا أبا فلان ! استُجيبت الدعوة ! وقد كان لمّا عظُمت عليه المخافة يأمرنا باستبطان السكاكين وبالصلاة في المسجد مجمعين يقول : إنْ عدا علينا عادٍ أخذ كُلٌّ منّا بنفسه . قال : واشتهر أمر الشريف الفاضل هنالك عند الشرفاء والعرب وصارت الزوار يقصدونه ويتباركون به ويحضُرُون مجلسه باشتهاره .

(1) قام سعيد الأحول بن نجاح وأتباعه من الأحباش بقتل علي بن محمد الصليحي في يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة وقتلوا معه عدداً كبيراً من بني الصليحي وكبار دولته بالقرب من المهجم . انظر : مجهول : السيرة الصليحية ، ص 30 ـ 31 ؛ عمارة : تاريخ اليمن ، ص 126 ـ 127 .

فلمّا اشتدّ بنا الأمْرُ عزم الشريف على الاختلاط ببني حسن بالصفراء[1] وينبع فواجَهَ رجلاً من رجالهم فسأله الصحابةَ فانسلّ عنه . فلمّا رأى ذلك عزم على النهوض إلى اليمن والكمون به في بلاده وأوطانه وبين بني عمه وأخواله . فمضى إلى أمير المدينة مخيط بن أحمد فسأله الزاد والركاب . فوجّه إليه بشارِفين من الإبل لا يخرجان ثمناً ولا يحملان راكباً . فأمر فيهما الشريف شبل بن عمرو ببيعهما فلم يخرجا له إلاّ ديناراً واحداً ، فعاد بهما شبل إلى باب مخيط فارتبطهما هنالك وولّى وهو يقول :

إلى اللّهِ أشكو ما تردّد قاسمٌ	إلى مِخْيَطٍ صبراً نِهافاً غلائله
أقمنا زماناً نرتجي فضل مِخْيَطٍ	وهو غائبٌ حتّى أتتْنا جمائلُه
فيا ليتنا متنا(*) ولم نلق مِخْيطاً	وغالته منّا دون مصرٍ غوائلُهْ
كفى ابن المهنّا مخيطاً طرق الندى	ونرجو نوالاً نائل النجم نائله

ووصل إلى الشريف فعرّفه بذلك ثم سأل الشريف الحسين بن المهنّا زاداً فبعث إليه بثوبين / من حوك الحجاز وكان قد أرسل غلامه مبارك بن سليمان إلى [م ق 29ب] الشريف أبي هجري سليمان بن محمد بن علي الرستي فبعث إليه بمثقالين . قال : وتجهّزْنا للسفر إلى اليمن حتّى انتهينا إلى السوارقية[2] ونحن من صاحبٍ إلى صاحبٍ ومن خوفٍ إلى خوف ؛ ونحن نلتمسُ الرفاق مجاوزين مكة سرقةً منتحين عن طرقها لأنّه حقّق لنا أنّ الغريب أبا البقاء وزير الصليحي قد حطّ بمكّة في الأموال والرجال مقدّمةً لخروج الصُّليحي إلى مكة وقد ابتدأ بها العمارة يُكاتبُ عربها ويستدعي أدِلّة الطريق إلى العراق فنحن له خائفون وعن طريق مكة صارفون . ثم

(*) في الأصل : منا .

(1) الصفراء من أرض هوازن . ويقع وادي الصفراء شمال شرق بدر على الطريق من مكة إلى المدينة . الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 286 ؛ الأصفهاني ، بلاد العرب ، ص 410 ، حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص 186 ، 193 .

(2) السوارقية ، قرية لبني سليم من أرض جهينة . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 286 ؛ وحمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص 222 .

صرنا إلى حيّ عَدْوان[1] فلقَينا تصريحٌ من الأخبار بقتل الصُّليحي فلم نأخذ بذلك . ثمّ تقدّمْنا برفيقٍ من عدوان حتّى هجمْنا على عربٍ بِعُكـاظ[2] فأنخْنا بإزائهم فهمُّوا بأخذنا فرفعنا عجلاً حتى أنخنا بين أبياتهم فكفّوا عنا وضافونا وصحبونا إلى تربـة والأخبار في ذلك مطّردة بقتل الصُّليحي ولا يعمل الشريف على شيءٍ من ذلك حتّى إذا صرنا بتربة لقيَنا بها جمعٌ كثيرٌ من أخلاط الحجاز ونجد ومن خثعم وسواءة[3] ونهد[4] وسنحان وجنب ويام[5] يريدون لقاء الصُّليحيّ إلى مكة ووجدوا تلك الأخبار فلم يأْخذوا بها فذكر لهم أنّ الخبر عن الشريف الفاضل فاجتمع إليه رؤساؤهم وسألوه عن ذلك فقال : ما تكلَّمْتُ بذلك ولا تكلّم به إلاّ صاحبُكُم هذا فـاسألـوه ! يعني شبل بن عمرو الهروي الخثعمي فسألوه فأخبرهم عمّا وقع معه من الخبر فلم يأخذوا به وسرنا برفيقٍ حتّى اتصلنا بترج .

وصحّت الأخبار بقتل الصُّليحي ، وبنى الشريف على الإقامة بترج لخبـرته بتمكُّن بني الصُّليحي باليمن وكثرة أموالهم وأعوانهم وضعف هِمَم كثيرٍ من الناس وخِذْلانهم . ثمّ ذكر مَنْ خَلّفه من آله وأوليائه وشيعته وأحبابه فأزعجه ذلك عن المقام فعزم على السفر وبقينا نتوقّعُ الرفيق . فنحن بذلك إذ قدم ذلك الجمعُ الذي لقيَنا بتربة قد وصلوا مكّة وصحّت لهم الأخبار وعادوا ، فسألهم الشريف الصحـابة فـأنعموا

(1) عَـدْوان : من قبائـل قيس عيلان ومـوطنهم في سراة بجيلة . الهمـداني : صفة جـزيرة العـرب ، ص 131 ؛ ابن رسول : طرفة الأصحاب ، ص 52 .

(2) عكاظ : من أسواق العرب القديمة من بلاد سراة الطائف في أعلى نجد بالقرب من مدينة الطائف . الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 131 ؛ حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص 225 ؛ البلادي : بين مكة وحضرموت ، ص 187 .

(3) بنو سواءة بن عامر من الأزد وبلادهم في نجد سـراة زهران . الهمـداني : صفة جـزيرة العـرب ، ص 131 .

(4) نهد : من قبائل قضاعة ولهم مساكن في عسير ونجران . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 227 ـ 228 ؛ ابن رسول : طرفـة الأصحاب ، ص 51 . 78 ؛ الحجـري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 745 ـ 746 .

(5) يام من قبائل حاشد ، وموطنهم بنجران . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 154 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 734 ، 774 ؛ فؤاد حمزة : قلب جزيـرة العرب ، ص 211 .

ونهضْنا معهم من تَرْج حتّى إذا صرنا على بريدٍ من تَرْج اجتمع رؤساؤهم فاشتوروا من أجلنا فأشار بعضُهم بقتْلنا، وأشار بعضهم بردِّنا. ثم أقبل القومُ إلينا بعد إجماعهم على ردِّنا فواجهونا بذلك. فقال الشريف: إذا كرهتم صحابتنا فنحن نكثر من خيرة الله سبحانه فأنثنى منهم ومعنا رفيقٌ لنا خثعميٌّ. ثم بنى الشريف الفاضل على المُضيِّ إلى بلد نهد ثم منها إلى نجران[1]. فبينا نحن في الطريق إذ عرض لنا ثلاثةُ ركبان فاستعرضناهم فإذا هم من آل صُهيب من خثعم فعرفهم الشريف الفاضل وعرفوه للمصاهرة التي كانت بينه وبينهم. فسألهم الصحابة إلى أكلب[2] بأسفل بيشة فسأله الرجل الصُّهيبي عن / غرضه فلم يخبره فَلَجَّ عليه وقال: لعلّ عندي فيما تؤمّله رأياً! [م ق 30أ] فأخبره الشريف فقال: معي وحبًّا ونعماً فأهلي على سعفٍ من الطريق مما يلي بلد عنز بن وائل، وعليَّ لكم الصحابة إلى أن تصلوا العوسجيَّ بجرش فمضينا معه ثلاثة أيّامٍ لا نلقي أنيساً حتّى أفضينا إلى أهله فقرى وأجزل. ثمّ وَجّه معنا رجلين فسارا بنا نهاراً ثم ليلاً حتى وقفا بنا على باب العوسجي بجرش قرب الصباح فظهر إلينا فرحّب وقرَّب ثمّ سأله الشريف الصحابة فأنعم فإننا لكذلك إذ ورد علينا عليٌّ بن عبد القادر الجنبي فقال: يا شريف قد أتى الله بالرفيق فواجه لنا ذلك الرجل وسأله صحابتنا فأنعم. فنهضنا مع رجلٍ أكرِمْ به مصاحِباً.

فلما كان يوم ثاني صادفْنا سوقاً يجتمع الناسُ إليه فكلّما رآنا ناسٌ هشّوا إلينا، وأغاروا علينا، وتلقّاهم رفيقنا فيدفعهم عنا ويكتم من يغير إلينا شأننا. فلم نزل من ناسٍ في ناس ونتخلص من ناسٍ حتّى أشرف بنا على الراحة[3] فصلّى الشريف في صلاحه وخُفَّيه من < الخوف >(*) والعجلة. وقد بنى صاحبُنا على أن يَسْري بنا بلد جنب خوفاً علينا فمضينا حتّى أفضينا إلى عقبةٍ صعبةٍ قد لزمنا فيها الليل فسقط

(*) عن الهامش الأيمن من الصفحة.

(1) نجران: بفتح أوله وسكون ثانيه إقليم واسع يقع بين نجد واليمن وعسير. وتقع مدينة نجران ـ مركز الإقليم ـ في الشمال الشرقي لمدينة صعدة. البكري: معجم ما استعجم، جـ4 ص 1298؛ الويسي: اليمن الكبرى، ص 117 ـ 118؛ فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، ص 207.

(2) أكلب من قبائل بيشة وتنقسم إلى بطنين الأول: عامر. وفيه من الأقسام خمسة. والثاني: المخْلَف. وفيه من الأقسام أربعة. فؤاد حمزة: في بلاد عسير، ص 59.

(3) راحة من بلاد جنب؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 227.

الشريفَ من راحلته فصار ذلك الرجل يتلهّف للشريف وسقْطته ثمّ أقسم لا زدْتُ سرتُ بكم الليلة بعد سلامة الشريف فللّه الحمد . ثمّ أمسى بنا عند رجلٍ من بني عمّه فأخبره بمكاننا ولم يكتم عنه شيئاً من شأننا . فلمّا كان من الغد نهضْنا ونهض معنا نهاراً حتّى وصلْنا إلى مكانه ظُهراً فقرّب لنا طعاماً وسألنا أن نقف عنده أياماً فتخوفنا أن يقع علمنا مع حسين بن عمر الشواحطي وهو بشواحط يومئذٍ فلم نقف . ومضينا من فورنا حتّى وصلنا أدنى بلاد وادعة .

قال : واشتهر مكان الشريف الفاضل عليه السّلام وتسامع به العرب ، وأقبلت وادعةُ من جميع نواحيها وأمسينا في بلدهم ففرِحوا بنا وأكرمونا وكان من الغد ونهض معنا منهم جماعةٌ حتّى صرنا إلى بلد بني حي من خولان ومنها إلى الحقل .

قال : وكان الأمير المنتصر بالله محمد بن جعفر لما فارَقنا من تَرْج ورجع اليمن كان له ولشيعته محاضر وأخبار ومواجهات وأسرار ؛ فلمّا قُتل الصُّليحي أبدوا أمرهم وأظهروا سِرَّهُم .

ولمّا قُتل الصليحي كتب الأمير إلى صنوه الشريف الفاضل كتاباً يعرّفه بقتل الصُّليحي وقيام الشريف الطاهر حمزة بن الحسن[1] رحمة الله عليه ودعا الناس للمسير إليهم وأنه يجب علينا القيام لمناصرته فمضى ثواب بن محمد بذلك الكتاب وبما حمله الأمير من الخطاب حتّى لقي الشريف الفاضل عليه السّلام ببلد بني حيٍّ ببلد يقال له قتام . فلمّا قرأ كتابه وسمع خطابه عمل على حسب ذلك وعزم / على [م ق 30ب] القيام ، والتأم إليه جماعةٌ من وادعة وخولان فدخل الحقل في عسكرٍ عاملاً على ما وصل في كتاب صنوه ولقيته عساكر الحقل[2] من بني مالك ومن الربيعة[3] وأهل القرية مادّين برقابهم للطاعة فما مكث بالبطنة[4] إلاّ ليلةً واحدةً حتى ورد عليه صنوه

(1) المقصود الشريف حمزة بن أبي هاشم ، الذى دعا لنفسه ، ثم ما لبث أن قُتِل .

(2) المقصود هو : حقل صعدة .

(3) الربيعة : من بطون خولان بن عمرو بن قضاعة . ابن رسول : طرفة الأصحاب ، ص 51 .

(4) البطنة : من أودية صعدة . الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 224 . والبطنة عزلة من ناحية القفلة قضاء خمر . التعداد السكاني التعاوني لمحافظة صنعاء ، جـ 2 ص 427 ـ 428 ؛ التقسيمات الإدارية لعام 1985 .

الأمير في جماعة آل القاسم بن علي رضي الله عنه ووجوه عشـائرهم وأصحـابهـم وشيعتهم ومحابّهم مسلِّمين عليه مسرورين بقدومه مبادرين إليه ، وأنهَوا إليه ما كان من قتل الشريف الطاهر حمزة بن الحسن رضوان الله عليه فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً وتوجّع واسترجع وانكسر شـأوُهُ(*) عن تلك النيّة وعزم على إغفال القيام بالكلية لما يعرفه من ضعف هِمم كثيرٍ من الناس وقلّة صبرهم على شدّة المحنة والبأس . فَغَبَّى على أهل تلك الناحية أموره وحثّ إلى ناحية عِيان مسيره في شهر الحجة سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة بعد كثرة الأخطار وبُعْد الأسفار والمِحَن الكبار ، يتخلّصُ من خطرٍ إلى خطرٍ ، ويرتحلُ من سَفَرٍ إلى سفر ؛ وهو في خلال ذلك لا يدع الصيام ، ولا يُغفل القيام مع خوفٍ من الأنام ، وقلّةٍ من العوام حتّى باع القناع وأكل الرعاع ، ونقل قدمه لطِلْبة الصاع .

كان مسيره في مدة سفره زهاء مائتي مرحلة ، ولقي فيه ما يزيد على خمسةٍ وسبعين كؤيه(**) . وكان طول إقامته فيه قياس سبع سنين وأقـام في حربهم بعـد مراحـه من الشام عشر سنين . وأقام في الدراسة والتعليم ست عشرة سنة وقبيل بلوغ الحلم خمس عشرة سنة < وكان مدة جهاده عشر سنين >(***) .

واستُشهد رحمةُ الله ورضـوانه عليـه ومغفرتـه وإحسانـه وله من العمـر سبع وخمسين سنة في يوم الثلاثاء لسبعٍ باقيةٍ من شهر صفر من شهور سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة . وتزوّج خمساً من النساء أولهن ابنةُ عمّه عبد الله بن القاسم ، وهي أمُّ أولاده : سليمان ومحمد ابني القاسم ، وأختهما فطيمة زوجة حميدان بن القاسم . فأمّا سليمان بن القاسم فمات صغيراً ولم يُعْقِب . وابنة عمّه المهدي لدين الله تُوُفّيت قبله رحمةُ الله عليها . وامرأتين بنجد من العرب طلّقهما . وابنة ابن عمّه القاسم بن عبد الله مات عنها ؛ وُلد منها ذكران : جعفر وعبد الله ابنا القاسم ، وامرأةٌ حدثت بعده .

* * *

(*) في الأصل : شاءه ـ وربما كانت : شيئاً .

(**) كذا في الأصل . وربما كانت صحتها : كونة . وهي في اللآلي المضية م 2/ص 158 : كؤنة!

(***) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيسر من الصفحة .

بسم الله الرحمن الرحيم   الحمد لله وصلّى الله على محمّدٍ وأهله .

قال مفرِّح بن أحمد الربعي : لمّا كان في شهر ذي الحِجّة منسلخ سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة وصلت بنو الدِّعام وبنو بحير وعيون من نِهم إلى الشريف الفاضل عليه السّلام وهو بعيان وصاقب وصولهم وصول الجماعة من شيعته / من وادعة [م ق 31أ] وغيرهم فَرَحَّب وسَهَّل وقَرى وأجزل ، ثمّ إنهم فتحوا معه الكلام وسألوه واستدعوه للقيام فأبى عليهم لقِلّة ما في يديه ، واعتذر إليهم فأبَوا عليه وعرضوا عليه بذل الأنفس والأموال والمواساة في الإكثار والإقْلال فقال لهم : إنّ بني الصُّليحي أهل حصونٍ وأموالٍ وخيولٍ ورجال ؛ فلو لم يبق منهم إلاّ جاريةٌ لقاتلت بالأموال ، ولستُ بمُسْعِدِكم إلى هذا الحال فكلّما اعتذر إليهم عاودوه ، وكلّما أبى عليهم راودوه . وكانت بنو بحير له شيعةٌ ومحابٌّ ، فما زالوا به حتى أسعدهم ودنا إليهم بعدما أبعدهم فأعطوه المواثيق والعهود وعقدوا له أشدّ العقود على دفع الخُمس من أموالهم والفتنة معه بخيولهم ورجالهم والأُسوة له في جميع أحوالهم ؛ وهم يومئذٍ بقرية غُـرَق(1) قد أُجْلتهم بنو الصُّليحي من بلادهم فصاروا هنالك بحريمهم وأولادهم . وراحوا منه على ميعاد الوصول إليهم . فكان بعد مدة أيام ووصل إلى ما لديهم فصار بالجوف الأسفل فاستقبله الجميع من بني بحير وبني الدِّعام وغيرهم . فدخل في موكبٍ كثيرِ الخيل والرجال واستقام بها على أحسن الأحوال .

قال : وعزم بنو الصُّليحي على نزول تهامة لاستخراج حريمهم فحرصوا على تسكين الفتنة وخاطبوا الشريف الفاضل في المحاددة والهدنة .

وكان الأمير ذو الشرفين قد دعته حاجةٌ إلى الوصول ببيت شعيب ، فلما وصل إلى هنالك قال له صنوه الحسن بن جعفر : ما ترى يا مولاي في الوصول إلى هؤلاء القوم بصنعاء وتسكين الأمر بيننا وبينهم ؟ فأبى عليه فقال : إنّي أخشى أن يكونوا قد أُعلموا بمكاننا فيلزمون الطريق علينا فلم يزل به حتّى أسعده على المُضِيّ إليهم

(1) في الأصل ، وفي غاية الأماني جـ 1 ص 268 : عرف . وغُرَق واد وقرية بالجوف الأعلى . وقرية غرق هي ما يسمى الآن سوق دعام . انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 161 ، ح 6 نفس الصفحة .

والقدوم عليهم . فوصلا صنعاء وصادفاهُم في مخرجٍ لهم في اليمن والخليفة لهم يومئذٍ على صنعاء إسماعيل بن أبي يعفر الصُّليحي فوصلا إليه وسَلَّما عليه فأكرمهما وبَجَّلهما . فلما همّا بالانصراف قال : لا عذر من الإيقاف إلى ما يصل مولانا السلطان فهم واصلون في أقرب أوانٍ فعملا على ذلك ولم يجدا سبيلاً إلى غير ذلك . قال : فما لبثوا أن قدموا بعد أيامٍ فخرجنا في لقائهم للسلام . فلما صاروا في ديارهم قال الأمير ذو الشرفين عليه السّلام : لم نشعر برسول السلطان أحمد بن مظفر حتّى قدم يأمرنا بالوصول إليه فوصلنا . فلمّا دخلْنا عليه إذا هو في المجلس الذي كنتُ دخلتُ عليه آنفاً فآذاني فيه بما الله يسأله عنه ويجازيه ، قال فاستقبلنا بإسعادٍ وبشاشٍ وإقبالٍ وإهشاشٍ وأومأ إليَّ فجلسْتُ إلى جنبه على مرتبةٍ كانت تحته ثم استفتح الكلام بعد أن فرغنا من التحية والسلام فقال : يا مولاي الشريف نحن لكم عبيدٌ وخدمٌ وقد لحقَنا ما تعلم من قتل أميرنا وسبْي حريمنا ونحن نشير المناصرة / [م ق 31ب] والأنفة علينا والمظافرة . فنحن أنصارُ أجدادكم والبلاد بلادكم . وهبوا أنّا مشركين فقد قال ربُّ العالمين : ﴿ **وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتّى يسمعَ كلامَ الله ثُمّ أبلِغْهُ مأْمَنَه** ﴾[1] . ولا بد من الخروج إلى ناحية زبيد والمناجزة لهؤلاء العبيد فإن قتلونا فالبلاد وَمَنْ فيها لكم وإن قتلْناهم وأخذْنا حريمنا كان ذلك بفضلكم . وقد أنا أُحِبُّ منكم يا مولاي الشريف أن تكلّم لنا مولانا الشريف في العفاف من الفتنة ، وتسأله لنا المحاددة والهدنة ، وتؤنس لنا مدينتنا هذه برجلٍ منكم فإنّه لا غنى لنا في مغيبنا عنكم . قال : وأمر لنا بِحِباءٍ وكساءٍ وثلاثٍ من الخيل ، وأشخص معنا رجلاً من حراز يقال له : دلهام[2] وسرنا حتّى صرنا بعيان . وكتبْتُ إلى مولانا الشريف الفاضل عليه السّلام أُعَرِّفه بخبرهم وخبرنا وما واجهْنا في سفرنا وسألْتُهُ الوصول عليه السّلام وهو إذ ذاك بقرية بني الدِّعام فأعاد إليَّ الجواب أني قد حالفْتُ رجالاً ولستُ بالذي أقطع عنهم حالاً . قال : فنزلْتُ إليه وعَوَّلْتُ في الطلوع معي عليه وطلعنا إلى عِيان وواجه ذلك الرجل دلهام بخطابٍ وعقودٍ وكتابٍ .

---

(1) سورة التوبة/6 .

(2) في اللآلي المضية م 2/ص 159 : دولهام بن عبد الله الحرازي .

قال مفرّح بن أحمد : سألْتُ السلطان يحيى بن محمد بن أحمد المالكي عن المحادة التي كانت أين كانت وكيف كانت؟ قال : سمعت الأمير ذا الشرفين وهو بناحية الجراف[1] من بلد بني صريم في موكبٍ كبيرٍ وعسكرٍ كثيرٍ فشرح على الناس ، فكان من كلامه أن قال : تعلمون يا إخوتنا وعشيرتنا أنّا قد حاددنا هؤلاء السلاطين على بلد وادعة وبكيل والحدّ نقيل عجيب وأعطونا على ذلك شروطاً بيننا وبينهم ثلاثة مناشير فمنها منشور على هذا الحدّ المذكور ، ومنشور منها ثاني على الشيعة الحسينية قاصيهم والداني حيث كانوا وأين كانوا ، والمنشور الثالث على قرى معروفة بنا ومنسوبة إلينا كحمده وحاز وبيت شعيب وبيت سود[2] . فهذا ما جرى الشرط به بيننا وبينهم[3] .

قال : وكانت هذه الكتب والعقود على يدي إسماعيل بن أبي يعفر الصُّليحي ودلهام بن عبد الله الحرازي . قال : ولم يجد الشريف الفاضل بُدّاً مما عقد صنوه الأمير ذو الشرفين فأجابه إليه وعمل عليه وسيّر ولده محمد بن القاسم إليهم إلى صنعاء فلم يزل هنالك حتى قُتل العبيد ودُخلت زبيد ، وراحوا بالحرير والأموال وقد حالوا عن جميع تلك الأحوال وجحدوا الكتب والعقود الشروط والحدود .. ومناشيرهم مقرَّة محفوظة الآن بالحضرة العالية بشهارة وإن كان لا حاجة لحفظها إلاّ لبيان غَدْرهم وما كان من نكثهم وخَتْرهم .

قال : ولما راحوا من سفرهم خرجوا إلى الجوف الأعلى من فورهم فَعَقَّروا [م ق 32أ] الأعناب والنخيل وكتبوا إلى بني الدِّعام كتاباً / ، وجعلوه استعطافاً لهم وعتاباً فيه فأوقفوا الشريف على الكتاب فأمرهم بردّ الجواب بما آيَسَهُم من استفساد بني الدِّعام ورجعوا من هنالك على أشرّ حال . وأُخذت منهم في المولدة[4] خيلٌ وبغالٌ ، وقُتل

---

(1) الجراف الأسفل والجراف الأعلى : قريتان من عزلة الجراف والسنتين ناحية خمر؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 1 ص 63 .

(2) ربما كان المقصود بيت سودان من عزلة بني قيس ناحية بني مطر ؛ انظر : التقسيمات الإدارية لعام 1985 ، عزلة بني قيس ، التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 251 .

(3) قارن باللآلي المضية م 2/ص 159 .

(4) المولدة : قرية من عزلة بني جبر ناحية ذيبين . التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 309 .

منهم رجالٌ وراموا الهدنة بعد زمانٍ على يد الشريف السيد إبراهيم بن سليمان وأكثروا فيها المخاطبة كلّ ذلك بعد وقعة الرحبة فلم يُجِبْهُمُ الأمير ذو الشرفين إلى شيءٍ من ذلك . وفي ذلك يقول مفرّح :

أَسْرَتْ إليك دُجى الظلامِ فأرتْك طيفاً في المنامِ
فصبا فؤادُكَ في المنام وكأنّ ضِغثاً في المرامِ
فغضضتَ طرفك دونها وَرَعاً عن النظر الحرامِ
فسطت إليك بكفِّها سَطْوَ التحيّةِ والسلامِ
فقبضت كَفّاً دونها فتلثّمَتْكَ على اللِّثامِ
سبحان مَنْ دفع العـ ـقوبةَ والحسابَ على النيامِ
وارتحاح(*) جل بقاسمٍ لِدُعا البريّة والأنامِ
وجلى بطلعة وجهه غَسَق الدُجُنَّة والظلامِ
يا ابن النبوّةِ والوصيةِ والإمامة والمقامِ
يا دعوة الطهر الخليل وصفوة الله السلامِ
لا تركننَّ إلى الذي يرجو انخداعك من قيامِ
وهُمُ وإنْ لم تنخدعْ خدعوا رجالك بالحُطامِ
والسم إن باشرته باللحـ ـم دَبَّ إلى العظامِ
قد قال الأول دس لي رجلي وذرني والزحام
عَدِّ الحدودَ وذكرَها فالحدُّ في حَدِّ الحُسامِ
أو لم يكونوا أوثقو كَ وهادنوكَ على التمامِ
فكففْتَ عنهم كفَّ سام وتركتهم ورجالَ حامِ
فثنوا أعِنَّتَهُمْ وقد كفروا بأنعُمك الجِسامِ
فحميت حَدَّك دونهم بشبا القنا الأسل الصّوامِ
وهززْتَ صنوك ذا المـ ـنار كهزّةِ السيفِ الحُسامِ / [م ق 32ب]
ذاك الأمير أخو الأميـ ـر ابن الأمير ابن الإمامِ
فجعلْتَهُ في معقلٍ عالٍ يُناغي النجمَ سامِ

(*) كذا بالأصل . ولم نهتد للقراءة الصحيحة .

ما إن ينـي متعمِّماً دكناءَ من نَسْجِ الغمامِ
وترى البوارق تحته وسوائِل المطر الرّهامِ

قال : وفي هذه السنة رسم الشريف الفاضل عليه السّلام مخرجاً إلى صنعاء اختصرتُ ذكره لأنه مشهورٌ وهو في كتاب السيرة مذكور . قال : فلمّا صار الشريف الفاضل عليه السّلام بالجوف وصله سفيران من سعيد بن نجاح[1] يُراسِمُهُ على اللقاء إلى صنعاء فأنهض الشريف الفاضل معهما صنوه الشريف الأجلّ سنان الدولة أحمد بن جعفر والقاضي عيسى بن الحسين بن أحمد وأعاد معهما على الخطاب خطاباً وللكتاب جواباً وأكرمهما وحباهما وصرفهما بعطيةٍ سنيةٍ وكساء زهية والعطية ألفا دينار شهابية وأوقفهما على ميعادٍ مرسومٍ ليومٍ معلومٍ فما وصلا إلى الشريف إلاّ وقد وصل الخبر بقتله ، فاتّصل خبره بالشريف الفاضل وهو بناحية خرفان[2] فاستعاد من هنالك إلى ناحية عيان ، وهو في ذلك عليه السّلام يدبّر الأمر في طلوع شهارة قد كان وجه صنوه الأمير ذا الشرفين إلى بلد الأهنوم ملتمساً طلوع هذا الجبل فوصل إلى موضعٍ يسمى النجد[3] فتعذّر عليه لأنه لم يكن بينه وبين أحدٍ من الأهنوم مراسمةٌ عليه فاستعاد من هنالك(*) .

ثمّ إنّ الشريف الفاضل عليه السّلام وجّه الشيخ الفقيه عليّ بن محمد بن أبي الجيش والشيخ يعقوب بن سليمان العبيدي ومعهما جماعةٌ من أصحابه فواطئا رجلاً من الهنوميين والظليميين على لزوم هذا الجبل فرجعا إليه بتمام الحال وهو في الجوف الأسفل . فنهض عليه السّلام فيمن معه من أهل بيته وجماعة من النهميين[4]

(*) في الهامش الأيسر من الصفحة بخطٍّ مختلف ، أول دخول القاسم بن جعفر وإخوته شهارة . وقارن باللآلي المضية م 2/ص 159 وما بعدها .

(1) صاحب زبيد ، وعدوّ الصليحيين ؛ قارن بمقدمة ماديلونغ ، ص .

(2) خرفان بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء آخره نون : جبل وقرية من بلد مرهبة الدعام . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 160 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 352 .

(3) النجد : موضع على بعد 2 كم غربي شهارة . خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1643D3 .

(4) نهم : من قبائل بكيل ، ينسبون إلى نهم بن عمرو . . . بن بكيل . وتقع بلادهم في الشمال الشرقي لصنعاء بناحية نهم . انظر ، ابن رسول ، طرفة الأصحاب ، ص 62 ؛ الحجري : مجموع بلدان

والسفيانيين[1] حتى إذا صار بحوث[2] من بلد وادعة أنهض صنوه الشريف سنان الدولة وركنها أحمد بن جعفر في نفرٍ قليلٍ زهاء عشرة رجال ، وجعل الشريف الفاضل بينه وبينهم شعاراً أنهم إذا طلعوا الجبل أوقدوا في رأسه ناراً . فنهضوا مبادرين حتّى جنَّهم الليل عند رجلٍ من الأهنوم يقال له : غليس بن عباس ، واختفوا عنده جانباً من ليلتهم . ثمّ تقدّم عبد الله بن أبي الهزام الصوري إلى الحرس الذين على الباب فشغل وجوههم بسببٍ من الأسباب . وطلع الشريف بأصحابه معه لمشايخ الهنوميين الذين كانوا في ناحية الجبل وجنابه . فلمّا صاروا في رأس الجبل أمر الشريف / بضرب الريح ففزعت العشائر وكثرت الغوائر . [م ق 33أ]

فلمّا علموا بمكان الشريف وواجههم مشائخ الأهنوم الذين كانوا معه تفرّقوا وانصرفوا . فلمّا كان في الليلة من قابل أمر الشريف بإيقاد النيار فتحقق الشريف الفاضل عليه السّلام طلوع الجبل بذلك الشعار وانصرف راجعاً إلى الجوف الأسفل . فلمّا كان بعد أيامٍ نهض الشريف الفاضل في نفسه في خيلٍ ورجال من نهم وسفيان وجماعةٍ من الشيعة الحسينية وافرة باكِرَ آخِرِ يومٍ من رمضان سنة ستين وأربعمائة فطلع من ليلته وخلّف ثقله بأقر حتّى صلّى صلاة العيد بالرحبة تحت شهارة[3] .

اليمن ، جـ 4 ص 746 ؛ كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ 3 ص 1198 .

(1) سفيان : قبيلة من قبائل بكيل ، وهم ولد سفيان بن أرحب بن الدعام ، وتعرف بلادهم بحرف سفيان . انظر : ابن رسول ، طرفة الأصحاب ، ص 62 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 424 .

(2) حوث بضم الحاء : من بلاد حاشد وهي مركز ناحية حوث بقضاء خمر ، وتقع ما بين :"55 ′13 °16 شمالاً ، "54 ′58 °43 شرقاً . خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1643D4 ؛ البكري ، معجم ما استعجم ، جـ 2 ص 474 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 221 ـ 222 ؛ الويسي ، اليمن الكبرى ، ص 83 .
ص 83 .

(3) شهارة : من المعاقل المشهورة باليمن . وقد أفاض مؤلف السيرة في وصفها في صفحات تالية . وتقع شهارة ما بين : "5 ′11 °16 شمالاً ، "11 ′42 °43 شرقاً . على بعد 15 كم شمال حبور ظليمة . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 238 ؛ الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 95 ـ 96 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 50000/1 ، صفحة 1643D3 .

فلمّا طلع الجبل أرسل لمشائخ الأهنوم[1] ووجوه ظليمة[2] وأجرى معهم كلاماً نبيلاً وبذل لهم صيانةً وجميلاً وأوصاهم بشريفهم وجبلهم . وأوصى صنوه سنان الدولة بتبجيلهم وإكرامهم ، وعاد إلى ناحية الجوف الأسفل وقد أحكم فيه الترتيب وحمل إليه أحمالاً من الزبيب وجعل يذمر جميع الشيعة بالانتقال إليه ، ويحضّهم بالمصير بالأهل والمال إلى ما لديه .

ثم خرج الأمير المسمّى بالمكرَّم[3] إلى ناحية نجران وأرسل الشريف الفاضل إلى صنوه الأمير ذي الشرفين عليهما السّلام جميعاً حتّى وصله وهو بالخارد[4] وكان في بلد خولان بالقدّ فأمره بالمصير إلى هذا الجبل وسأله أن يعزم . قال : فأخبرت أنّه أقسم لئن لم ينهض إلى هذا الجبل لأعودنّ من فوري هذا إلى الشام ! قال : فنهض في جماعةٍ من الشيعة جامعة ؛ فلقيه من كان منهم ببلاد وادعة ومضى حتّى طلع شهارة . قال : فأكرم الأمير ذو الشرفين حراسة بوابتها ومراشيها ، وفرّق جماعةً من أصحابه على جميع نواحيها واشتهر أمرها وشاع في البلاد ذكرها ، وعظُم على بني الصُّليحي كون الحسينية إليها فعملوا عل الخروج للحصار عليها وذكر لهم قلة الحبوب وضعف المطعوم والمشروب فدسّوا الغوائل والأعمال وبذلوا الرغائب والأموال ، فكان من ذلك أنّ رجلاً من الجنبيين يقال له : عليُّ بنُ يحيى ابن عبد الرحمن الصهباني عَامَلَ رجالاً ورتّب خدعاً وأحوالاً ؛ وكاتب بني الصُّليحي ووعدوه بولاية الجبل وأعماله ، ووعدهم قتل ذي الشرفين أو إنزاله عندما يصيرون قبل الجبل وهو في خلال ذلك يدبر الغدر والحيل ؛ وكان ممن يستخصّه الأمير

---

(1) الأهنوم : بطن من همدان من ولد الأهنوم بن شاحذ بن حاشد وديارها في الشمال من حجة في نواحي شهارة وظليمة حبور والمدان وغير ذلك .انظر ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 95 ـ 98 ؛ السياغي ، معالم الآثار ، ص 69 ـ 70 .

(2) ظليمة حبور : ناحية من قضاء شهارة محافظة حجة ، ومركز الناحية قرية حبور ظليمة . وتقع ما بين : 04" 03′ 16° شمالاً ، 23" 42′ 43° شرقاً . الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 3 ص 568 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 50000/1 ، صفحة 1643D3 .

(3) الأمير المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي ، تولى رئاسة الدولة بعد مقتل والده .

(4) الخارد : من أكبر أنهار اليمن ، ويسمى غيل الخارد ، منابعه في بلاد أرحب . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 155 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 200 .

ذو الشرفين عليه السّلام ويعتدّ به لنوائبه الجسام ، فرفع عنه الخبر وكثُرت فيه القالة واشتهر فعاتبه في ذلك فقال له : يا مولانا لا تؤخذني إلاّ ببيِّنةٍ وأجمعت معه الشيعة على تلك الكلمة .

وكان ممن اتّهم لتهمته / إنسانٌ يقال لـه : محمد بن يحيى العثيثـة الكباري [م ق 33ب] فلما بغيا على الله وأوليائه وكاتبا حزب الشيطان من أعدائه ، كشف الله لأوليائه أمرهما وهتك من حيث لم يحتسبا سِرَّهُما . قال : وكتبا كُتُباً فيها سبٌّ فظيع وكلامٌ شنيع لا يحْسُنُ إعادةُ ذكره لِمَا كان من قبيح أمره ؛ ويحثّان ويؤلّبان ويذكران معهما جماعةً من الشيعة أو العشائر . وكانا لعمر الله يكذبان ، كانا في أول كتابٍ من كتبهما يتمثلان بقول التهامي[1] :

الـهـون في ظِـلِّ الـهـوينـا كـائـنٌ وجـلالـةُ الأخـطار فـي الإخـطار

قال : فواجها رجلاً من مشائخ الأهنوم يقال له : أحمد بن عبـد الله بن أبي مدين فطمعا أن يستفسداه وبذلا له ووعداه وقالا : تمضي بكتبٍ ها هنا من ليلتك هذه إلى المكرَّم من حيث لا يدري أحدٌ ولا يعلم وقد كتبنا لك بالعطية والجوائز السنية . قال : وقد كان الأمير ذو الشرفين لمّا صَحَّ كـون بني الصُّليحي بالـظاهر قاصدين إليه ومحاصرين عليه ، جمع أهل بيته وشيعته وحاشيته وجمـاعته فجـدَّد عليهم الأيمان المؤكَّدة ، وأخذ منهم العقود المشددة . فلمّا تقدّم علي بن يحيـى هـذا اللعين فحلّفه اليمين البـالغـة مـا بـه يمينٌ بـالله . قـال أحمـد بن عبـد الله بن أبي مدين : كنتُ مع الجماعة ومولانا يستحلف هذا الرجل فارتعدت فرائصي وسـال عَرَقي حتّى وقع على قدمي لجرأة ذلك الإنسان على اليمين . قال : فلمّا افتـرق الناس ودخل الأمير منزله استأذنْتُ عليه فلمّا أذِن لي وصلْتُ إليه وكلّمْتُهُ بما معي من النصيحة . فقال عليه السّلام : وكيف لي بهذه المقالة حتّى أعلَم أنها صحيحة ؟ فقال : عندي كتبهما . قال : كيف لي بها ؟ قال : آتيكَ بها في آخِر ليلتي هذه إن

(1) ديوان أبي الحسن التهامي ص 155 ـ 160 من قصيدة مطلعها :

حكـم المـنيـة في البـريـة جـاري مـا هـذه الـدنـيـا بـدار قـرار

شاء الله . فما كان في آخِر الليل إلاّ وقد وصل بالكتب . فلمّا وقف عليها الأمير ذو الشرفين عليه السّلام ، فهم جميع ما فيها من الكلام وعرف خطَّ الملعون محمد بن يحيى العثيثة أصبح فأمر باجتماع الناس فاجتمعوا وأمر بعلي بن يحيى فلُزم . فلمّا استُوثق منه أظهر الأمير عليه السّلام الكتب فقرأها . فلمّا فرغ من قراءتها طواها ثمّ قال للعثيثة : هذاخط يدك ؟ قال : نعم . قال : فما حملك عليه ؟ قال : النفاق يا مولانا ! فأمر بضرب عنقه . ثم قال لعلي بن يحيى : ما حملك على ما جئتَ به ؟ فجحد . فأمر أحمد بن أبي مدينٍ أن يتكلّم فتكلّم وشهد . فعند ذلك أمر بعليٍّ بن يحيى فَقُيِّد .

قال : ووصل الأمير المتسمِّي بالمكرَّم في عساكر كالتراب ، وضرب مضاربه في رأس ذرى[1] / . فلمّا نظر إلى شهارة فعلم أنّ الشيطان دلّاه بغرور واستدبر ما لم يستقبله في الخروج إليها من الأمور . ونظر إلى جبلٍ صعب المرام . [م ق 34أ]

قال مفرِّح بنُ أحمد[2] : رأيتُ أن أصِف شهارة في ذاتها بما يجبُ من جميع صفاتها : جبلٌ شامخٌ ومعقِل باذخ . مـزرٌ على أربعة جبال ، مركوز بين شناخيب(*) طيال ، أصلهن واحد ورؤوسهن متباعدة ويعيا أن يحاط به في يومين ، لا يتهيّأ له حصرٌ ولا يُخشى فيه قهر . وهو جبلان فليقان ليس لكلٍّ واحدٍ منهما إلّا طريقٌ ببابٍ بينهما فِرْقٌ بعيدُ الغَور في الأرض ، ومقدار قاب القوس في الطول والعرض ، يتناجى الرجلان بخفيِّ الأصوات فيما يحتاجان من الأسرار والحاجات . تنظر من فوقه الشمس وهي تدرج فوق السحاب ، وترى البرق والرعد تحته في الأودية والشعاب . ذاهب في السماء لا يكاد يفارقه الغيم والغمام . وإذا كنت في الليل في أساسه وأوقدت النيران في رأسه اختلطت عليك الوهوم فلا تكاد تفرّقُ بين النيار والنجوم . وإنما سُمّيت شهارة لاشتهارها . وسأذكر ما كان في قديم الزمان من أخبارها . وكان يُسمَّى مُعْتِقاً فيما تقدّم وفيه يقول مفرِّح < بن أحمد

---

(1) جبل ذرى على بعد 3 كم شمال شهارة . وجوة ذرى على بعد 3 كم شمال غرب شهارة . خريطة ج . ع . ي ، 50000/1 ، صفحة 1643D3 .

(2) قارن باللآلي المضية م 2/ص 160 ـ 161 .

رحمه الله >(*) :

وإذا امرؤٌ أمَّ النجاة فإنّما ... سببُ النجاة بمعنقٍ في معنقِ
ثبتت قواعد أُسِّه بمحمَّدٍ ... لصلاح دين محمد المستغرقِ

وإنما سُمّي مُعْتِقاً لأنّه كان يلتوي به الطريد وتأتي إليه العبيد فإذا لحقهم مواليهم قالت الأهنوم شاوروهم وشاوروا معتقاً . وذُكر ـ والله أعلم وأحكم ـ أنّ أسعد الكامل طلعها في مبتدى أمره في ثمانين رجلاً <وجمع القوت في رأسه>(**) وأنّ صاحب اليمن في ذلك الزمان حاصره عليها ونزل بمكانٍ يقال له : أقر < فقال : استقروا ها هنا فسُمّي الموضع أقرّ>(***) وأنه نزل عليهم فقتلهم . فقال صاحبُ اليمن : شهرنا هذا الجبل شهره الله فَسُمّي شهارة لهذه الرواية . وروى بعض أهل الأخبار أنه كان يسمى قبل ذلك بظفار ويقوّي ذلك ما قاله بعض القدماء حيث يقول :

حين سيلت ظَفَارُ قيل لمن ... أنتِ فقالت لحمير الأخيارِ
ثم رَدّتُ وأخبرتْهم فقالت ... إنّ ملكي إلى قريش التِجارِ

< وإنما حداني على صفته تعريف من يسمع به ولم يحقّق معرفته مع عظيم اشتهاره >(****)

قال مفرِّحُ بنُ أحمد : روى لي حيٌّ والدي قال : لم يَنْجُ من القرامطة في الزمان الأول إلّا جبل الأهنوم[1] والعنان[2] من بلد شاكر . ومن أوصاف شهارة أنّ منابتها الشثّ والعرعر والعُتم والصندل والتالب والبطم وغير ذلك . ومن مغارسها / [م ق 34ب]

(*) ما بين الحاصرتين على السطر بخطٍّ مختلف .

(**) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن من الصفحة .

(***) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن من الصفحة ـ وبعدها علامة (صح) .

(****) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيمن من الصفحة .

(1) جبل الأهنوم : عبارة عن سلسلة من الجبال أهمها جبال سيران وذرى وشهارة وعيشان وظليمة . انظر : الويسي ، اليمن الكبرى ، ص 107 ؛ السياغي ، معالم الآثار ، ص 69 ـ 70 .

(2) العنان : مركز ناحية برط يحيط بها سلسلة من الجبال ويسكن هذه المناطق قبائل ذو غيلان بن محمد بن شبعان . . . بن دهمة بن دهم بن شاكر من بكيل . انظر ، الحجري ، مجموع بلدان اليمن ، جـ 1 ص 107 ـ 109 .

الكروم والعنب والآس والخوخ والأترنج والتفاح والمشمش والبلس والخرنوب . وفي مغايضها شيءٌ من النخل وقصب السكر الأبيض والعلس والبر والشعير والذرة والقضب(*) وهو القتّ بلُغة أهل الشام والعصفر والورس وهو الخلوق < يأتي منه شيءٌ لا يُقاسُ بغيره في اللون والفعل >(**).

ومن معادنها شيءٌ ذكره الرواةُ في قديم الزمان وشيءٌ موجود بالمشاهدة والعيان ؛ فمن الموجودات المشهورة : فمنها حجر البلّور يوجد منها الشيءُ منفرداً . ويمكن أن لها معادن مستورة . وقد روى ذلك الحسن بن يعقوب المعروف بابن الحائك في كتاب الإكليل . ومن ذلك الكحل < يوجد في شيءٍ من مساقط أوديتها والله أعلم بعنصر ذلك أين هو>(***) . ومنها الشبّ شبّ الفوّة والشب الحميدي الشبّ الفائق المعروف بشب الفؤاد ، ومنها عروقٌ من الملح لطاف . ومنها طينٌ في معادن منها أبيض ليّن لزج أشبه شيءٍ بالصابون وله في غسل الأدران فعل .

وفيها الموز واللوبيا والأقطن واليقطين والصبغة . وذكر ـ والله أعلم ـ أنّ بجبلٍ من نواحيها يقال له عيشان[1] معدنٌ من الذهب . ومن خصائص أوصافها أنّ معزرها في غور متهمٍ ينشأ السحاب من مغابنها عياناً لا يحتاج مَنْ شاهد ذلك إلى إسناد ؛ يُرى منها بحرُ تهامة على مسافة ثلاثة أيام ، وسمعْتُ الشريف الحسن بن علي الزيدي الحُسيني يقول : وطئتُ معاقل اليمن وحصونها فما فيها لشهارة نظير . وسمعْتُ كثيراً ممن عرف حصون اليمن ووطئها يقول قوله .

وروى الشريف المحسِّن بن محمد الحسني الديلمي الحليط بطبرستان وكان وصل إلى شهارة في شهر جمادى من شهور سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة ؛ فتحدّث على مذهب الزيدية وله في الحديث لسانٌ وفي الأدب حظٌّ ، خَرج الحديث إلى ذكر الشيعة الحسينية بشهارة فقال : عندنا بطبرستان ونواحيها من الشيعة الحسينية

(*) عن الهامش الأيسر من الصفحة .

(**) ما بين الحاصرتين عن الهامش الأيسر من الصفحة .

(***) بياض في الأصل .

(1) عَيشان بفتح العين المهملة من الجبال المسنمة يقع في الشمال الشرقيّ من شهارة . الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 239 ؛ المقحفي ، معجم البلدان والقبائل ، ص 483 .

< قياس >(*) ستة عشر ألفاً ولهم هناك شريفٌ فاضلٌ يمتاحون من علمه ، عندهم من كتب المهديِّ عليه السّلام كتاب (المُعْجِز) و (التفسير) ثمّ خرج إلى ذكر شهارة فقال : اسمها واشتهارها ببلدنا أكثر وعندنا أشهر وما ينسب إليها أو يذكر أنه ما وصلها إنسان إلا كان له في بلادنا حالٌ وشأنٌ يُتبارك به . قال : وهي عندنا مذكورةٌ في قصّةٍ أنّ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب صلواتُ الله عليه يذكُرُها باسمها ويسمّيها قُبّة الإسلام باليمن . حولها ثلاثمائة وستون / وادياً وفي ناحيتها معادنُ [م ق 35أ] أربعةٌ ؛ معدنا ذهبٍ ومعدنا فضّةٍ وكحل . فهذا ما كان من روايته والله أعلم .

وذكر(**) لي الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الجيش أنه وجد بصعدة كتاباً قديم الخطّ ؛ قال ؛ بخطّ الهادي عليه السّلام أو من عصر الهادي يقول إنه يكون أول عزّ أهل بيت محمّدٍ صلّى الله عليه من موضعٍ بناحية تهامة أول اسمه شين وآخره هاء .

رجع الحديث إلى خبر المنقل(1) وغارة الرحبة ووقعة ذيبين(2) وغارة الجراف وطلوع ذروة لبن . ذلك كُلُّهُ كان قبل الحصار .

فلما كان في سنة(***) خرج بنو الصُّليحي <على> طريق تهامة ورَتَّب الشريف الفاضل عليه السّلام مخرجاً من الجوف الأسفل فخرج في خيلٍ من نهم وبنى الدعام ثم صار بناحية شوابة(3) فالتأم إليه بنو بحير وذبيان(4) . وقد كان أحمد

(*) عن الهامش الأيسر من الصفحة .

(**) كُتب فوقها : وروى .

(***) بياضٌ في الأصل .

(1) المنقل : قرية بالقرب من السبيع . مؤلف مجهول : أخبار الهجرة المنصورية ، ورقة 1 ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ 1 ص 202 ؛ العسجد المسبوك ، ص 262 ؛ ابن الديبع ، قرية العيون ، جـ 2 ص 43 ح 3 .

(2) ذيبين : قرية ومركز ناحية ذيبين ، على بعد 20 كم شمال شرق ريدة . وتقع ما بين : 40" 58' 15° شمالاً ، 53" 07' 44° شرقاً .
خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1544A1 .

(3) شوابة بضم الشين : واد من أعمال ذيبين ، ينحدر ماؤه إلى الجوف وإليه تنسب قرية شوابة في عزلة سفيان ناحية ذيبين . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 128 ؛ الويسي : اليمن الكبرى ، ص 82 ؛ النتائج الأولية لتعداد 1986 .

(4) ذبيان : بفتح الذال وسكون الياء ، قبيل ووطن في بلاد أرحب . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، =

ابن المظفر بعدُ رجوعهم من تهامة أنكر المحاددة والهدنة وعزم على المحاربة والفتنة لأنّ البلاد التي وقعت عليها الحدود مما كان في يديه فطمع أن يستظهر على الشريف الفاضل . فخرج فيمن بقي معه من بني الصُّليحي وعساكرهم إلى بلد وادعة حتى حط بالمدحك(1) فلمّا سمع به الشريف الفاضل طلع حتّى حطّ بالمنقل من خرفان فيمن معه من الناس ، وشاورهم على الهجيمة على ابن مظفَّر بالمدحك ، فكُلٌّ صرف الرأي إليه فقام الجحّاف بن مربع الدعامي فقال : يا مولانا ! إنّ الهجايم لا تكون إلّا بالرجال والضرَّابة الذين يضربون الناس في مراقدهم ولا يبلعونهم الريق ، وليس معك إلّا خيلٌ ليس لها في القوم عملٌ حيث هم . قال : فقبل الشريفُ الفاضلُ رأيه واستعاد فأمسى بورور . فلمّا كان من ليلته رتّب طِلائع من ذبيان وخيلاً من بني بحير تعود إلى خرفان . ثمّ نهض أحمد بن مظفَّر إلى أثافت فأرسل خيله وعسكره فيهم محمد بن إبراهيم بن محمد الصُّليحي وعبد الله بن محمد الحرازي في عدّةٍ من الوجوه والمقدّمات وعسكرٍ من الديوان وغيرهم حتّى وصلوا المنقل فطلعوا الدرب وطمعوا بما فيه . واستعادت عليهم جماعةٌ < من بَحير >(*) ومن ذبيان فهزموهم منه وأزاحوهم عنه واعترضت خيلهم خيل بني بحير في سهل خرفان فوقع فيهم السيف وكثُر فيهم القتل والسلب حتّى وصلوا موضعاً يسمّى عرام . وأتى الخبر إلى الشريف الفاضل فطلع من فوره حتّى أمسى في المنقل . ولمّا وقع أفلال عسكر ابن مظفَّر معه بأثافت منهزمين مكسورين أمر بالشدّ والرحيل وولّوا منهزمين طريق عجيب لا يلوي أولُهُم على آخرهم حتّى استعادوا إلى صنعاء .

وكان من الغد ونهض الشريف إلى أثافت فأخرب الدار التي كانت لبني الصُّليحي بها ، ولم يعرض لأهل الناحية إلّا بخير . ثم نهض حتى حط بين ذي قين(2) فأقام بها أياماً وأرسل لصنوه الأمير الأجلّ ذي الشرفين أن يصله في حاشيته

= ص 159 ، ح 5 نفس الصفحة ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 2 ص 351 .

(1) المدحك من القرى الخربة ببلاد وادعة بالقرب من حوث . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 221 ، ح 6 نفس الصفحة .

(*) بياضٌ في الأصل .

(2) ذي قين موضع من أوطان بني صريم . أبو فراس ، بن دعثم ، السيرة المنصورية ، جـ 3 ص 646 .

وشيعته وأهل طاعته فنهض من شهارة واستخلف عليها الشريفَ الأَجَلَّ ناصر الدولة وعزَّها الحسن بن إبراهيم بن سليمان ومضى من فوره وأخذ عبّاس بن الخدين وكان عاملاً لبني الصُّليحي ونهب ما في دربه وأخربه وأمر به إلى شهارة . ثمّ مضى حتّى اتّصل بالشريف الفاضل ، لحقه الشريف بعسكره إلى بركة الجراف .

وتقدّم العسكران جميعاً حتّى أمسيا بِسِرّ بكيل . وكان من الغد وأمر الشريف الفاضل بالشيعة فجُمعوا له فأَجرى معهم كلاماً ، كان مما قال : تعلمون يا معاشر شيعتنا وأهل محبتنا وطاعتنا أني قد دُرْتُ في أقباض الحجاز والشام وخالطت بني الحسن بن علي عليهم السّلام فما رأيتُ أفضل من شريفكم هذا ولا أطهر ولا أورع ولا أعلم . وقد مَنَّ الله عليكم به فائتموا بأمره وازدجِروا بزجره ، وارفعوا حريمكم إليه وهاجِروا من أهل المعاصي إلى ما لديه .

وفي هذا المخرج أخرب الشريف الفاضل الكولة من بلد خولان . وكان سبب خرابها أنّ ابن مظفَّر قد كان هَمَّ بلزمها . وأخرب أيضاً درب السنتين[1] . ثمّ نهضا جميعاً عليهما السّلام إلى درب الثابتي من بلد الأقهوم[2] . فلما وصلا استقرّ الشريف الفاضل في الخيل في ناحيةٍ مُطِلَّةٍ على بلد الأقهوم ، وهبط الأمير الأَجَلُّ ذو الشرفين فقاتل مع أصحابه على الدرب حتى نالته جِراحٌ في وجهه ثمّ أعطاه الله النصر والظَفَر ففتح الدرب ونهبه وحَرّقه وأخربه وأخذ ابن الثابتي وولديه أسارى بين يديه وذلك بسبب ما نُسب إليهم من قتل الشريف عبد الله بن القاسم بن عبد الله فوصل بهم إلى الشريف الفاضل ورجع العسكر المنصور سالماً غانماً ، وصار الأمير ذو الشرفين إلى مستقرّ عِزِّه وأنهض صنوه سنان الدولة وركنها من فوره بالعسكر إلى بينة[3] فغنمها وقتل ناساً من أهل الدعوة واستعاد مؤيَّداً منصوراً . قال : واستعاد

---

(1) السنتين : قرية على بعد 3 كم جنوب خمر ، وتقع ما بين : 16" 59' 15° شمالاً ، 16" 57' 43° شرقاً . خريطة ج . ع . ي، 1/ 50000 ، صفحة 1543B2 .

(2) الأقهوم وهي الأكهوم ، عزلة من ناحية جبل عيال يزيد قضاء عمران . انظر ، إسماعيل الأكوع ، أفعول ، ص 23 ؛ الشامي : تاريخ اليمن الفكري ، جـ 3 ص 142 ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 303 .

(3) وادي بينة : يقع على بعد 7 كم غربي حبور ظليمة ؛ خريطة ج . ع . ي، 1/ 50000 ، صفحة 1643D3 .

الشريف الفاضل إلى ناحية شوابة وأعطى عسكره أرزاقهم . واستعاد إلى الجوف الأسفل .

قال : ولمّا راح بنو الصُّليحي من تهامة رتَّبوا مخرجاً إلى شوابة فطلعوا المشرق حتى حطوا بحياس من بلد ذيبان . وباتت ذيبان ترميهم في الليل ، ونهضوا فحطّوا بشوابة من ناحية ثريان[1] فتلقّتْهم / خيلُ الشريف الفاضل من بني بحير ونهد وبني [م ق 36أ] الدعامي . وصار القتال في أعقابهم من ذيبان فغُنمت منهم غنائم من السلاح والكُراع والإبل والمتاع وأخذت عمارية أبي الحسين بن جناح ولحمهم القتال حتّى أقبل الزواحي عامر بن سليمان من ناحية المولّدة فنفش عليهم ومالت الخيل التي كانت تقاتلهم منهم وتموا حتى حطوا بموضع يقال له المديد[2] من ناحية الشمط[3] غير بعيد . وخيل الشريف الفاضل بِهرَّان[4] تشارف إليهم وتُغيرُ عليهم وتلتقي الخيلان بموضعٍ يقال له الميدان ما بين الغيل الأعلى وهِرّان . قُتل هنالك رجل من بني الحراس يقال له الحسن بن همدان . وقُتل من الحجاز رجلٌ قتله منيع بن محمد بن ذعفان . قال : فلم يزالوا بني الصُّليحي يتعمّلون ويعطون المال ويبذلون حتّى استفسدوا بني الدِّعام فواجههم الجحّاف بن منيع وأبو النار بن عليان . وراحوا على هذا الوجه وذيبان لازمةٌ عليهم الطرق فجاءوا طريق العرض فوق ورور بعد أن لزم لهم الزواحي رؤوس الجبال وقد كانت شِرْذِمةٌ منهم خرجوا طريق المولّدة فقُتل منهم رجالٌ وأُخذت منهم خيلٌ وبغال . وراح الكُلُّ منهم إلى صنعاء خائبين مكسورين .

---

(1) ثريان : وطن بني علي ، قبيلة من زهير من أرحب . الأكوع : البلدان اليمانية ، ص60 ؛ المقحفي : معجم البلدان والقبائل ، ص 467 .

(2) المديد : قرية من عزلة عيال منصور ، ناحية نهم ، على بعد 44 كم شمال شرق صنعاء . وتقع ما بين : 40" 38′ 15° شمالاً ، 27" 28′ 44° شرقاً . التقسيمات الإدارية لعام 1985 ؛ التعداد السكاني التعاوني لمحافظة صنعاء ، جـ1 ص 220 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1544A4 .

خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1544A4 .

(3) يبدو أن الشمط هو أحد الأسماء القديمة غير المتداولة الآن .

(4) هران : بلد وواد من عزلة هران ، ناحية ذيبين قضاء عمران ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 159 ح 6 ؛ الحجري : مجموع بلدان اليمن ، جـ 4 ص 751 ؛ التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 311 .

قال : ونهض الشريف الفاضل من الجوف الأسفل في خيلٍ من نِهْم وَمَنْ بقي معه من بني الدعام حتّى صار بشوابة وأرسل إلى صنوه الأمير ذي الشرفين فخرج إليه من شيعته جماعةٌ وافرةٌ فيهم ناصر الدولة وعزُّها الحسن بن إبراهيم في جماعةٍ من أهل بيته ونزل بهم الجوف الأسفل . فلمّا صار به انهزم أهل الفساد من بني الدعام إلى درب الحشرج . وصار الشريف الفاضل بالقرية وجرى الخطاب بينه وبين أهل الحشرج فلم يقبل منهم شيئاً دون أن يطأوا فراشه وينزلوا على حكمه ويطردوا من عندهم من بني الدعام . ففعلوا وأوقفهم عنده وأمر بدرب الحشرج فأُخرب . وفي ذلك يقول مفرِّح بن أحمد :

أُبنا بأفضلِ أوبةٍ عن مخرج ... أسر العُداةِ وهَدْم دربِ الحشرجِ
وخضوع كلِّ مخالفٍ متمنِّعٍ ... وثبات كل أخي صعارة أعوجِ
لمّا دعاهم قاسمٌ فتمنّعوا ... وطغَوا ومالوا عن طريق المنهجِ
نهض ابنُ جعفر قاسمٌ في فيلقٍ ... جمّ الجياد كعارضٍ ذي زِبْرِجِ
فأنصاع جيش بني الدِّعام وجمعهم ... هرباً إلى نَعمان غير معرج
فأتى لهم من خلفهم بكتيبةٍ ... نقضت عليهم كُلَّ رأيٍ مُدْرَجِ / [م ق 36ب]
وأتت جيادُ الخيل من قُدّامهم ... والشمس في جلبابها لم تَخْرُجِ
وآنذرَّ قَرْنُ الشمس وهي قواربٌ ... يمعجن بالسهلاب صعب المخرجِ

هذا ما حُفظ من الشعر . قال : ولمّا كان يوم الخميس من عيد الأضحى جَهّز الأمير الأجلُّ ذو الشرفين منسراً إلى ناحية الجراف وكان بها خدمٌ لبني الصُّليحي ولقيته خيلٌ من عند الشريف الفاضل إلى ناحية بهمان[1] فأغار يوم العيد بالجراف فقتل خدم بني الصُّليحي الذين وُجدوا في الجراف ونهب ما كان في الدار . واعترض ناسٌ من بني صريم فقبض منهم على الشيخ المرداس بن محمد وحرب بن كهلان . واستعاد الأمير طريقه بلد الجواشة[2] فلحقته الغوائر من بني صريم كلّها إلى

---

(1) بهمان : اسم لعدة مواقع وأودية ، والمقصود هنا قاع بهمان إلى الجنوب من حوث . انظر ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص 221 ، ح 6 نفس الصفحة .

(2) الجُواشة بضم الجيم من الأماكن الدارسة ، ذكرها الهمداني متصلة بسراة عذر وهنوم ، أي في المنطقة الواقعة غربي خمر . انظر ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 127 ، ح 4 نفس الصفحة .

موضع يقال له ضلع عيان . فأرسل إليهم بهاء الدولة وحسامها القاسم بن إبراهيم بن سليمان يقول : يا عشيرتنا لا تعرضوا لنا فلم نعرض لكم وإنما قصدنا خدم بني الصليحي ، وعاوِدوا منا فقد خرجنا من حدود بلادكم ، وقد وضح عذركم عند سلطانكم فلم يفعلوا ولم يرجعوا ولاحموهم القتال فعطف عليهم عليه السّلام في جماعة خيلٍ من أهل بيته فقُتل من الصريميين رجالٌ وولّوا منهزمين على أسوأ حال . وراح الأمير ذو الشرفين مؤيَّداً منصوراً بعد أن أخرب دار السلطنة بالجواشة وقبض عاملهم الشيخ الهريف بن عبد الله .

وقد ذكر بعض الرواة أن مخرج الشريف سنان الدولة وركنها إلى بينة كان بعقب هذا المخرج .

رجع الحديث إلى ذكر الخبر عن وقعة ذيبين .

قال : ثم إنّ الشريف الفاضل رتّب مخرجاً إلى ناحية شوابة فنهض في خيلٍ كثيرةٍ وجماعةٍ من فوره حتّى صار بناحية الغيل الأعلى من شوابة فلقيه العلم هنالك أنّ أحمد بن مظفَّر طلع ذروة[1] ونُظر المضارب من ذلك المكان فأرسل عليه السّلام من ذلك المقام إلى صنوه الأمير ذي الشرفين فخرج إليه جماعةٌ من الشيعة ونهض حتّى صار بورور والتأمت إليه عساكرُ كثيرةٌ من ذيبان وسفيان وبني بحير ونهم وبني الدعام . وقد صار محمد بن عبد الله الحرازي بذروة وأحمد بن مظفَّر بيناعة[2] من بلد الصيد ، فلمّا اجتمعت إلى الشريف الفاضل تلك العشائر وتكاثفت عليه العساكر حَمَلَهُ أهل الرأي من مقدماتهم على النهوض إلى ذيبين والمكاسرة وهو لذلك كاره . فلم يزالوا به حتى نهض إلى ذيبين فأقام هنالك نهاراً واستقرّ على بركة مذود[3] وله

(1) ذروة من الحصون المشهودة التي ذكرها الهمداني ، ويقع جبل ذروة على بعد 3 كم جنوب غرب ذيبين ؛ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص 238 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 1/ 50000 ، صفحة 1544A1 .

(2) يناعة : قرية من عزلة خميس حرمل ناحية ريدة على بعد 12 كم شمال شرق ريدة . وتقع ما بين : 25" 09′ 44° شمالاً ، 50" 05′ 44° شرقاً . التوزيع السكاني في محافظة صنعاء ، جـ 2 ص 315 ؛ خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1544A1 .

(3) واضح من النص أن هذه البركة تقع ما بين يناعة وذيبين اللتين احتشدت فيهما الجيوش . والمسافة بين =

عينٌ مختلفٌ بينه وبين ابن مظفَّر يأتيه بعلم ما عند ابن مظفر ، ويأتي ابن مظفَّر بعلم ما عنده ، صاحب وجهين / . قال : وكان ابن مظفَّر بيناعة في قِلّةٍ ، فأرسل الصريخ [م ق 37أ] إلى صنعاء وأرسل عبد الله بن محمد رسلاً إلى الشريف محمَّد كالمخاطب في الإصلاح . وبات الشريف عليه السّلام في محطّته تلك على البركة وتَفَرَّقَ العسكر إلى أوزال الجبال . فلم يبق معه إلاّ نفرٌ قليلٌ من أهل بيته وشيعته في خيل ورجال خائفاً يترقّب . قال : فرأيتُهُ وقد توضّأ للصلاة وهو يغسل رجليه وكنت بالقرب منه فأومأ إليَّ فدنوتُ إليه فقال : احرسني ما دمتُ في صلاتي وأنا أحرس في سائر أوقاتي ! فدعوتُ نفراً من أوليائه حتّى جلسنا بإزائه وبتنا في ليلتنا تلك في ضرّةٍ عظيمةٍ من البرد والخوف والجوع . فلمّا أصبح أقبل العسكر من نواحي الجبال وقد دخل الفساد في بعض العسكر ، وهم ذيبان ضربوا لهم ديناراً صُفْراً وبهرجوا عليه تِبْراً فأقاموا الناس يسبّون بها الذيبانيين عصراً ويقولون دنانير ذيبانية إذا وجدوا تلك الدنانير الرديئة(1) . ثم إنّ الشريف الفاضل عبَّأ عسكره فجعل ذيبان في الميسرة وجعل سفيان على الميمنة ، وجعل الخيل قلباً . وتنكّب من العسكر جانباً بإزائه بقرب شيعته قليل .

ثم أقبل عسكر بني الصليحي فلمّا توطّأت خيلهم إلى بركة مذود طاردتهم من أهل بيت الشريف الفاضل أفراسٌ ومعهم من شيعته وخاصته قليلٌ من الناس . وأُخذت لبني الصُّليحي راية تأم(*) ذيبان . فلمّا حَقّقوا عليهم ولّوا منهزمين ولم يلتفتوا إليهم ، وانقضّت الخيل كأنّ دويّها الرعد القاصف . فقُتل من الشرفاء خمسةُ رجال منهم الحسن بن جعفر بن القاسم وسليمان بن علي بن القاسم وعبد الله بن عبّاس ويحيى بن علي من أولاد الهادي والحسن بن قاسم الأثيبي رحمةُ الله عليهم . وقُتل من سائر العسكر ناسٌ ، وخلص الشريف الفاضل في أفراس . قال : وتمّ الشريف الفاضل من فوره فأمسى في الجوف الأسفل خائفاً لما خلفه من الفساد والدغل .

= ذيبين ويناعة 8 كم . انظر : خريطة ج . ع . ي، 1/ 50000 ، صفحة 1544A1 .

(*) كذا في الأصل ، ولم نهتد للقراءة الصحيحة .

(1) قارن بالقصبة منقولة عن السيرة عند مسلّم اللحجي في م 4/ص 211 ـ 213 ؛ وقد أوردناها ضمن نصوص مسلّم في الملحق ، ص ؟ .

فلما صحّ الخبر لبني الدعام المفسدين وأهل الحشرج المعتدين ، أظهروا ما كانوا يكتمون من خلافه وأوقعوا في أهل طاعته وأحلافه . فأخذ هو ومن معه من أهل طاعته إلى أسفل الوادي بالقرب من معين . وقد كان مع بني الصُّليحي من بني الدعام همدان بن ربيع ، ونعمة بن يحيى ، وجحّاف بن منيع ، وأبو النار بن عليان حضروا الواقعة . ثم إنّهم جرّوا بني الصُّليحي إلى بلادهم فلم يجدوا بُداً من إسعاف مسألتهم وإسعادهم . فساروا طريق ورور ثم أخذوا على حاوسن(*) ثم نزلوا الباطنة فقصدوا قرية بني الدعام فأقاموا بها زهاء ستة أيام ثم راحوا وبقيت بنو الدعام محيرين بنعمان[1] ؛ ووعدتهم / بنو الصُّليحي أنهم يُمِدُّونهم بالمال فكان كذلك . [م ق 37ب]

قال : ثمّ عاد الشريف الفاضل حتّى ضرب مضربه إزاء قرية بني الدِّعام واجتمعت إليه البوادي والأصرام وصارت القرية خاليةً تقلع العشاير أبوابها وينقضون أخشابها فأقامت بهذه الصورة عشرة أشهر .

قال : ولما صار أحمد بن مظفر بذروة وأمر بعمارتها وأقام بنفسه فيها وسخّر فيها العشيرة وأنفق في عمارتها الأموال الكثيرة ، وعمل فيها مآثر كمآثر المتقدمين واستدعى لها القطّاعين أساطين المرمر والخروب المحكوك ، وزخرف سقفها بالذهب والجص والآجور ، وعمّر فيها مناهل أحكمها غاية الإحكام ، وجعل فيها المحلّ والمقام حتّى جاء أَمْرُ الله وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً .

ذكر الخبر عن غارة الرحبة وما كان من شأنها وأسبابها :

قال: لمّا وصل الشريف الفاضل أبو الفتح ابن الحسين الحسيني الديلمي[2]

(*) كذا في الأصل ؛ ولم نعرف المكان .

(1) نعمان : واد بناحية المطمة بالجوف وهو أحد فروع وادي مذاب ويقع على بعد 8 كم شمال غرب سوق دعام ؛ خريطة ج . ع . ي ، 1 : 50000 ، صفحة 1644C2 .

(2) خبر ظهور أبي الفتح ناصر الديلمي في هذه الفترة وهمٌ محضٌ . فقد ظهر عام 439 هـ ، وقُتل عام 444 هـ ، ولا ندري سبب هذا الوهم فقد كان كاتب السيرة معاصراً لتلك الأحداث . وقد نقل صاحب اللآلي المضية م 2/ص 160 ـ 161 هذا الخبر عن مختصر السيرة دون أن يشير إلى وهم مفرّح ! .

هذه الفقرة من المنهاج تشير إلى اختلاف الرؤيتين بين الإمام وبين الجمعية ، فقد كانت أشدّ مخاوف الحكم في الشطر الشمالي من الاستعمار البريطاني ، لهذا رفض الإمام كلّ تفاوض معه وكوّن العلاقات مع القوى المناوئة له : كإيطاليا والاتحاد السوفيتي ، وتبعاً لهذا كان توجّس الإمام من مناطق نفوذ الانجليز كتوجّسه من الانجليز ، من أمثال (مصر) فاروق و(عراق) فيصل بن الحسين ودولة الباكستان الإسلامية المسيرة بخبرة إنجليزية ، بالإضافة إلى هذا فإن العالم الإسلامي كان مختلفاً أشد الاختلاف على الزعامة وعلى الرجل الأليق بها وعن المكان الصالح لقيامها ، فقد امتد الصراع بين الخديويين وبين الوهابيين منذ قيام (محمد علي) إلى قيام (توفيق) ، وكان الإنجليز يرشحون للزعامة الإسلامية عدة رجال على حسب تقلب الرياح ، فقد أطمعوا الشريف حسين أمير مكة رشحوا بعده الملك عبد العزيز ، كما رشحوا في مطلع الأربعينات الملك فاروق وأعطوه نسباً علوياً فاطمياً عن فتوى أزهرية ، وكان الإمام (يحيى) يرى نفسه بحق أشرف هؤلاء نسباً وأكثر علماً ، وفي هذا الخصوص نشر قصيدته المعروفة داعية للوحدة الإسلامية :

مغلغـةٌ منشـورةٌ فـي المحـافـل   تنادي بني الإسلام في كل حافلِ

وكانت هذه الدعوة الشعرية ردّاً صريحاً على منهج جمعية الأمر بالمعروف وبالأخص الإشارة إلى الوحدة الإسلامية ، وبهذا فوّت الإمام الفرصة على الجمعية لأنه يتبنى رسمياً نفس مادعت إليه ، وإن كان في تحدّثه يتهم زعماء الدول الإسلامية بالعمالة للأجنبي وإباحة المحرّمات : كالمشارب والسفور والمباغي . لكن جماعة الأمر بالمعروف كانت تستدرك كل إشارة بالرجوع إلى الإمام : « جدير بالشباب أن يستمد من حكومته الهاشمية المتوكلية النصح والتوجيه وأن يصغي لما يبديه أمير المؤمنين نصره الله وما يراه جلالته من الطرق الناجعة فإمامنا المعظّم قد خبر الأمور وعرك الدّهر ؛ كما يجب على الشباب أن

يستعينوا برجال حكومتنا الأفذاذ فهم الآباء ونحن الأبناء » .

ومع كلّ هذا الولاء الذي أبداه المنهاج فقد لمح الإمام طوايا هذه الدعوة لأن هذه الجماعة تريد الاتصال بالشعب من وراء ظهر الإمام فتوجهه كما تريد وتقاوم ما رسب في نفوس المواطنين من قداسة الإمام ومن الأفكار الشيعية ، ولأن هذه الجماعة كانت ترى نفسها غير قادرة على المزاولة السرّية استجدت موافقة الإمام على نشر دعاتها وخطبائها ، غير أن الإمام سبقهم ببث الدعاة في الأرياف كما سبقت الإشارة واعتبر هذا المنهاج شقاً لعصا الطاعة ، فأمر بسجن (الزبيري) باعتباره منظّر المنهاج وأهم أفراد الجمعية ، غير أن الزبيري كان يوقّع في مقدمة المنهاج كنائب عن رئيس : (القائم بالأعمال محمد محمود الزبيري) ، وهذا التوقيع يشير إلى رئيس غير معروف أو يشير إلى كاتب بأمر الجماعة عن أفكارها ، ومن المعروف أن مثقفي تلك الفترة كانوا دون مستوى الزبيري الكتابي والشعري ، فلا يمكن أن يصيغ هذه الوثيقة سواه ، لكثرة قراءاته المعاصرة ولمعرفته بالبرامج السياسية كما تكتبها التنظيمات ، فقد كان أنْبَه الكتّاب في تلك الفترة كإنشائيين ، على حين تميّز الزبيري بتنظيم الكتابة وترتيب أغراضها ، وإن كان المنهاج لم يقسم إلى بنود كالمناشير السياسية ، إلا أنه كان يحدد الأغراض بعبارة (يريد شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، فهذا المنهاج أول وثيقة حزبية بقلم الزبيري ولم يكن معبراً عن حزبيته بمجرد الكتابة وإنما كان عضواً تحركيّاً دائب النشاط ، فعلى الرغم من أنه شاعر فإن أغلب أشعاره من مستوى تنظيره الحزبي في كل عمره الفني ، ولعل هذه الفترة من الأربعينات أول خطواته الحزبية .

تكوّنت جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام ٤٠م في شكل خلايا من خمسة أشخاص على رأس كل خلية رجل دين أو صاحب وجاهة على أي مفهوم : كحسين الدعيس في (لواء إب) ، وأحمد عبد الله الكبسي وحسين

عبد القادر في (صنعاء) ، وعبد الله العيزري في (ذمار) ، وعلي بن حمود شرف الدين في (الطويلة) ، وعباس بن علي في (تعِزّ) . . . وقد كان هؤلاء من رجال السنة المستنيرين ، وقد اعتبروا الدعوة (بنت زمانها وملبيّة أوانها) كما ردّدت مجالسهم ، لأنهم شعروا بجهل الناس في الدين وعداوة الغالبية لرجال السنّة ، ولعل الزبيري أول من فطن إلى مكافحة الجماعات بالتجمّع ، فقد كان أتباع السلطة الشيعية يؤلبون الجماهير على رجال السنة من جهة ويتغاضون عن تصرفاتهم من جهة أخرى ، أما الإمام فكان لايبدي ميلاً إلى مذهب معين في ظاهر الأمر وإن كان لايقمع جماهير الشيعة بكل ثقافتها ومدارسها مالم يؤدّ إلى الاعتداء ولو فردياً ، هناك يقمع كل الجهات بدون تحيّز ، بل كان يحاول إيجاد توازن في الشعائر والطقوس ، فيتغاضى عن شعائر (جمعة رجب) كمعادل نفسي باحتفال (يوم الغدير) . . إلى جانب هذا كان يتغاضى عن قراءة كتب (البخاري ومسلم) وأشباهها في البيوت وفي الزوايا غير الرئيسية في الجوامع وبالأخص في شهور رمضان ، وعندما تشكلت جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتّضح أول تحدّ سنّي للحكومة الشيعية بكل ثقافتها ومدارسها .

ولكن هل كانت هذه من مفاجآت الأربعينات ؟

ربما ترجع أولياتها إلى آخر العشرينات ، وأول من شم روائحها (محمد البدر) نجل الإمام (يحيى) الذي كان ينازع أخاه (أحمد) ولاية العهد ، فلئن ركّز والده على المذهب الشيعي كسلاح وطني في وجه الأتراك شعر بسخط رجال السنّة ، فقام في آخر العشرينات بنشر المؤلفات السنية اليمنية : كبعض كتب الشوكاني والجلال والمقبلي والوزير والأمير ، فاعتبر رجال السنة (البدر محمد) نصيرهم وزاد في إجلاله في النفوس أنه مات غرقاً بعد رجوعه من سفره لهذه المهمة العلمية .

ولعل هذه الحادثة أول مؤشر إلى الاهتمام برجال السنّة التي تنامت حتى

تشكّلت منها جمعية عام ٤٠م وأصدرت أول منهاج ديني يتبنى التوجيه والتعليم وتصحيح المفاهيم وتقوية الأجساد بالرياضة ، فلم تقف الوثيقة عند الإرشاد وإنما دعت القادرين إلى إرسال أبنائهم للتعليم في الخارج كما دعت إلى أسباب القوة البدنية بالرياضة وأسباب القوة النفسية بمغالبة الجبن :

« هل تعلمون ما الذي يهدم السعادة ويمحي الشخصية ويفني الأمم ، ياقوم هل تعرفون ذلك إنه أمر يسير لو تمعنتم وتأملتم لوجدتموه واضحاً جلياً هو الذي جعلكم في اضطراب وانزعاج ، هو الذي أضاع ماضيكم وحيركم في حاضركم وسيقضي على مستقبلكم إن لم تتنبهوا له وتقتلوه في مهده ، إنه ياقوم الجبن اقهروه قاوموه حاربوه في أبنائكم » .

هذه دعوة صريحة بمغالبة القهر السياسي ، لأنها ليست دعوة حزبية آنية ، وإنما دعوة إلى نضال مستمر ينازل الطغيان وإن كانت الوثيقة لاتفصح فإن ظروفها تفسّر هذه الغاية ، فقد كان الخوف من الإمام يرجف في كل نفس وكان استحضار مهابته يمنع كل يد عن الحركة ويعقد كل لسان عن التعبير ، وكان الآباء يزرعون في نفوس الأبناء قداسة الإمام وقوة بطشه رؤيته للغيب ، وبهذا اتصلت بالإمام كل المشاكل الشجارية والمعيشية ، فكان في كل قرية مأمون محل يبلغ بكل حادث حتى اشتجار امرأتين أو خصام على مرعى ، وقد أحسَّ الداعون إلى التحرر من الجبن ، مدى مهابة الإمام فأرادوا أن يحولوا هذا الخوف من إنسان إلى خوف من (الله) ربّ الناس كما يلمح المنهاج في مضمون دعوته .

لقد فطن الزّبيري وجماعته إلى متطلبات المرحلة فأعلن ميثاق جمعية تجمع مهماتها بين الإيقاظ الديني والإيقاظ السياسي على أساس ديني ، وكان الزبيري لايخرج عن هذا المنحى لافي كتاباته ولافي أشعاره ، ففي قصائده في الأربعينات كان يركّز على الإيقاظ حتى في الأماديح والمراثي ، ففي تقريضه

لكتاب (التاج المُذهب) لأحمد قاسم العنسي يقول :

والعلم إن لم ينشر بين الورى　　　فـذهـابـه وبقـاؤه سيـانِ
إنَّ التأني في الشيوخ فضيلةٌ　　　لكنـه عـار علـى الشبـانِ

فهذا التعبير على قاعدة منهج الجمعية ، دعوة إلى العلم واستنفار للعمل على غرار نظام الإخوان المسلمين بمصر (الاتحاد والنظام والعمل) ، إن حزبية الزبيري في أغوار نفسه وعلى طرف لسانه . فلا نجد له في تلك الفترة قصيدة ذاتية تامة ، وإنما كان حزبياً في ذاتيّاته وموضوعاته وبالتعبير الحرفي عن روح الجمعية :

خرجنا من السجن شُمَّ الأنوف　　　كما تخرج الأسد من غابها
نمـر علـى شفـرات السيـوف　　　ونـأتـي المنيـة مـن بـابهـا

وكل القصيدة تعبّر بضمير نحن ويختفي فيها صوت الأنا .

صحيح أن الشعر العربي كان لسان القبيلة أو لسان الجماعة أو صوت الأمة ولكن لايخلو شاعر من تجارب ذاتية كتجارب عاطفية أو معضلات عائلية ، أو نزاع فردي . . لكن هناك فرق بين التعبير عن القبيلة والتعبير عن تنظيم مهما كان سلفيّ الرؤية .

لقد كان الزبيري حزبياً من أعلى طراز ، كتابته حزبية وسجنه حزبي وتحركه حزبي وحتى صلواته الجهرية كانت لاتخلو من لمح تبشيري وتحذيري ، روي أنه كان في صلواته يؤم الناس ويختار قراءة الآيات الداعية إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً ، والداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وماأكثر الآيات في هذه الوجوه الاجتماعية والخلقية .

لقد نشأت حزبية الزبيري وجماعته على أساس سنّي يقاوم سلطة شيعية ، ودلّت على سنيته وسنية جماعته تجاوزهم المذاهب بدون اجتهاد فقهي ، فقد

سمّت الأمة الإسلامية - الكتيبة المحمدية - كما تنص الوثيقة حرفياً :

« لقد أراد ذوو الأغراض المجهولة أن يعطوك أيها الشعب اليمني فكرة شنيعة عن الأمم الإسلامية لكي يفصلوك عن الكتيبة المحمدية » .

وكان الزبيري إذا سئل : هل أنت زيدي أو شافعي ؟

أجاب أنا محمدي .

أليس هذا مبدأ سنّي ؟ ولكن بدون اجتهاد فقهي وإنما عن اجتهاد سياسي يحاول تثبيت إسلام بدون مذاهب وبدون طائفية .

لكن السؤال هل كانت المذاهب غير محمدية ؟ إن مالك والشافعي وأبا حنيفة وزيد بن علي وأحمد بن حنبل والهادي يحيى بن الحسين شكّلوا المذاهب عن صحة استدلال وعن ارتباط بالأصول ، فأضافوا الفكر الديني إلى الدين الفكري ، وتكوّن ما تسمّى الفكر الإسلامي فتلاقى الأصل الإلهي بالنظر البشري لأن الدين جاء إلى بشر لكي يفكروا ، فكانت المذاهب على مختلف نظرياتها فكرياً وفقهياً أكثر تقدماً وأغنى نظرياً من السنيين الحرفيين ، لأن التيارات الثقافية رفدت الأصول الإسلامية بثقافات الحضارات باعتبار الإسلام أهم حدث غيَّر العالم القديم وامتدّت منه التغيرات والتحولات النظرية والمذهبّية ، فلا يمكن المجتهد في القرن العشرين أن يتجاوز هذه المذاهب إلى استخلاص الأحكام إلا بنفس الطريقة التي سلكها الشوكاني كأحد الراسخين في العلم ، لعل جماعة الزبيري نظرت إلى مافي اليمن من طوائف مذهبية فتبنت إسلاماً بلا مذاهب لكي لاتتنازع الوطن الأغراض البالية .

ولكن هل هذه الإيديولوجية معاصرة ؟

لقد تحولت جماعة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) عدة تحولات ولكن مع التمسك بالأصول ، ففي عام ٤٤م انتقلت إلى (عَدَن) وأسست

(حزب الأحرار) ، غير أن ظروف الحرب العالمية وامتداد آثارها إلى عَدَن ألغت التسمية الحزبية فتسمت (الجمعية اليمنية الكبرى) كامتداد متطور لجمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأصَّلت نضالها على هذا المفهوم حتى أسقطت الإمام (يحيى) قتيلاً في شباط ١٩٤٨م .

من ذلك الحين تشتت (الجمعية اليمنية الكبرى) كنيجة لسقوط حكومة الدستور ، فأصبحت الجمعية جماعات ، وفي مطلع الخمسينات أصبح الاتحاد اليمني الاسم الرابع لجمعية الأمر بالمعروف : فهل تطور هذا التنظيم بتطور أسمائه ؟

نرجع إلى أول أعماله السياسية نجاحاً وإخفاقاً ، لأن الفشل والنجاح يثيران التساؤل عن أسبابهما .. هل تحققا عن مصادفة ؟ عن أسباب عيانية ؟ عن أسباب غير منظورة ؟

لقد نجحت الجمعية اليمنية وأخفقت في وقت واحد ، نجحت في مقتل الإمام (يحيى) وفشلت في إقامة سلطة بديلة قادرة على البقاء فبعد عشرين يوماً من مقتل الإمام (يحيى) سقطت حكومة الدستور بعد أن تراءى لها إمكان البقاء .

فكيف نجحت ؟

لقد اعتمدت على كبار الموظفين وأبناء كبار الموظفين من طلّاب دار العلوم إلى جانب مجموعة من الضباط بدون جنود ، وكانت هذه الطبقة متعاطفة مع الجمعية اليمنية عن بعد وعن قرب وملتقية معها في الشعور بضرورة التغيير وإن كانت غير محدودة نوع التغيير ، وبهذا التجمع حقَّقت الجمعية مصرع الإمام (يحيى) وفشلت في قتل الإمام (أحمد) ولي عهده رغم الكمائن التي أعدت له في طريقي (صنعاء - تَعِزّ ، تَعِزّ - حجة) كما قيل في ذلك الحين .. فهل

فشلها في تحقيق قتل (أحمد) يرجع إلى قلة خبرة أو إلى استهانة به ؟ أو لعدم اعتمادها على الشعب ؟

لقد كان المتذمرون يعرفون خطورة (الإمام يحيى) ولايتبينون شيئاً هاماً من ترصّد (أحمد) وارتباطه بعدة شخصيات وجماعات ، لقد أدى فشل الكمائن في قتل (أحمد) إلى إحباط الانقلاب كليّاً ، لكن لو نجحت الجمعية في قتل (أحمد) . . هل سينتهي كل شيء ؟

ربما كانت هناك صعوبات أخرى لم يكن (أحمد) إلا مجرد إثارة لها ، فقد كانت السلطة الدستورية مسيطرة على (صنعاء) العاصمة ومرافقها القريبة ، وبهذا كان يمكنها البقاء حتى مدة أطول ، غير أن الجمعية وأتباعها في صنعاء لم تعط الاحتمالات اهتماماً كافياً ، وإنما كان يهمها قبل كل شيء التخلص من (يحيى) أولاً ثم من ولي عهده ثانياً ، وعندما حدث الإخفاق في المهمة الثانية لم تتماسك حكومة الدستور أمام هجمات (أحمد) بل سقطت في أول هجمة بعد حصار أيام عن حركة داخل العاصمة من قبل الجنود المتمركزين داخل صنعاء وعلى جبل (نقم) المطل على مقرّ الإمام الجديد ، إن النقص في التخطيط ملحوظ إلى حد عدم السيطرة على المرافق الهامة كاللاسلكي الذي أبلغ أحمد مقتل والده في حينه ، وكانت ظروف العاصمة غير قادرة على سدّ هذا النقص . . فكيف كانت صنعاء الأربعينات ؟ لقد تعرضت صنعاء للهجمات والسقوط عدة مرات من القرن التاسع إلى الأربعينات وقلّما ثبتت فيها سلطة في وجه الزحف والحصار ، وقد ظلت صنعاء الأربعينات نفس صنعاء القرون الخالية . . فماذا كانت تملك من إمكانيات الثبات ومصارعة الحصار ؟

لم يكن في مقدور صنعاء الأربعينات أن تواجه الحصار أكثر مما واجهته فقد كانت المواد الاستهلاكية غير كافية لمدة طويلة ، كان في صنعاء مخازن حبوب ومخازن أسلحة وكانت فيها آبار مياه لكنها كانت لاتملك الوقود الذي

تسوقه الأرياف يومياً ، فبمجرد انقطاع الوقود بفعل الحصار أحسّت العاصمة بالاختناق وكان الوقود في ذلك الحين الحطب المجلوب من الأرياف والقطع المعجونة من فضلات الحيوانات ، وهذا من بضائع الريف تستورده العاصمة كل يوم وقلّ من يدخر من هذه المادة مايكفي شهوراً . . لهذا كانت مادة الوقود أول ضغط تجويعي لسكان العاصمة ، حتى اقتطع مالكو البساتين الأشجار الخضر غير أنها لم تكن كافية ولاتملك الغالبية بساتين ولم تكن مواد الغاز موجودة في ذلك الحين ولا الطرق المؤدية إلى الميناء مرصوفة كاليوم ، وإنما كانت جبالاً شاهقة تشكّل مسافة عشرة أيام بين (صنعاء والحديدة) في أفضل الأحوال . . إذن فأول ما نقص العاصمة هو الوقود اليومي لإنضاج خبز الجنود والمواطنين ، أما الحبوب فقد كان في مقدورها أن تكفي لمدة عام كذلك المياه وإن كانت أغلب البيوت لاتملك آباراً إلا أن نقله من حي إلى حي ممكن بفضل الجبال المنتشرة جوار كل جامع ، غير أن الماء والحبوب يفتقدان عنصر الوقود ، لهذا أحسّت العاصمة خنق الحصار في بضعة أيام ، بالإضافة إلى هذا فإن سكان العاصمة لم يعتادوا القتال وإنما اعتادوا التسليم في أول هجمة ، بل إن إطلاق بندقية إلى العاصمة أو منها كان يؤرّق لياليها لانطباعها على الهدوء كعاصمة تحتمي بالسلطة ولاتحميها .

لهذا بدا لبعض الانقلابيين نقل حكومة الدستور إلى البيضاء ليمكن حمايتها بقوة المناطق المجاورة مهما كانت غريبة ، غير أن إمام الانقلاب رفض نقل الحكومة من العاصمة لمفاجأة هذا الرأي . . أو لانطوائه على خدعة ضده ، لأنه كان بمنأى عن أطروحاتهم ، وربما كان التقارب بينه وبينهم آنياً لمواجهة الضغط .

فهل كان يؤدي نقل الحكومة إلى سلامتها ؟

بمجرد سيطرة (أحمد) على العاصمة ستسقط حكومة الانقلاب أينما كانت

لأنه تمكن من (حجة) أن يسقط السلطة بصنعاء . . فهل يصعب عليه إسقاطها في (البيضاء) من صنعاء ؟

لقد كان (الوزير) أبعد نظراً من (جمال جميل) الذي رأى نقل السلطة إلى مدينة (البيضاء) لأن الطريق إلى البيضاء غير مأمونة في ذلك الحين ولأن البقاء غير مضمون لو أمنت الطريق . . لقد كان في مقدور الجمعية أن تفكر في جملة الاحتمالات قبل الانقلاب ، أما والحصار يقترب من العاصمة فإن الخوف قد سيطر ، إلى جانب سيادة سوء الظن بين الانقلابيين ، فقد اعتبر إمام الانقلاب الانتقال إلى البيضاء من تدبير الجمعية لإقصائه أو اعتبر هذا هروباً من المواجهة ، كل هذا ممكن وتأتي إمكانيته من ضعف التنظيم أو من تباين آرائه ، فقد اختلفت بعد تشكيل الوزراء على رئاسة الوزراء ، وأصبح أهم رجال الجمعية اليمنية الكبرى ثانويين في السلطة لأنهم غير مباشرين في الانقلاب ، ولعل هذا الاختلاف كان امتداداً للانقسام الذي انفجر في (عَدَن) بين الجمعية حتى انقسموا إلى ثلاثة أقسام : (مطيع دماج) على رأس قسم ، (النعمان والزبيري) على رأس فئة ، على حين ترك البعض عَدَن عائداً إلى تَعِزّ من أمثال (أحمد الشامي وزيد الموشكي) . كما كانت ظروف صنعاء لاتقبل الصمود أما الحصار فقد كانت ظروف الجمعية لاتعطي مدد الثبات على الوقوف في وجه العاصفة ، إذا كانت ظروف العاصمة على هذه الدرجة من الضعف فلا يمكن أن تفرز تنظيماً يمتلك القدرة على الحاضر وعلى الرؤية إلى الممكنات والمغيّبات . . لقد نجحت الجمعية بقتل الإمام (يحيى . .) فلماذا أخفقت في تكوين سلطة قابلة للبقاء ؟ مع أن الاستيلاء على العاصمة أهم عوامل البقاء والامتداد إلى المناطق ، فأوّل ما يمكّن كل انقلاب من الصمود هو السيطرة على العاصمة ، وقلّما عاد إليها حاكم طرد منها على يد ثورة أو انقلاب كما رأى (ابن خلدون) .

لقد كان التنظيم يعتبر الشعب مُمَثلاً في كبار الموظفين وفي مئة طالب من

دار العلوم وفي نحو أربعين ضابطاً من خريجي الكلية الحربية بلا جنود ، وبهذا أنقصته النظرية الأبعد إلى الاحتمالات وإلى مواد النظرية من القوى البشرية ، وكانت الجماهير غير مشاركة في الانقلاب كما كان الجيش على غير علم إلا بعد حدوث الانقلاب ، وهذا التكتم على الجيش ينم على فكرة أساسية عند الجمعية ، فقد كانت تصر على عدم اشراك الجيش كما كانت أميل إلى القوى القبلية ، لهذا نفذ قتل الإمام (يحيى) خمسة من الشيوخ في غياب قبائلهم ، وكان الاعتماد على جماعة من الضباط بقيادة (جمال جميل) كمنظّر عسكري إلى جانب (الفضيل الورتلاني) كمنظّر سياسي ، لأن الحزب كان يخاف فاعلية الجماهير بل كان يسميهم بالغوغاء . . فهل كانت النظرية فوقية ؟ إنها تختلف عن الفوقيات المعروفة : كالانقلاب العباسي ضد بني أمية ، وصراع الأئمة اليمنيين ضد بعضهم . . إن نظرية الجمعية فوقية من نوع آخر ، تعتمد على المستنيرين من كبار البيوتات وليس على واقع الغالبية كمصدر الأفكار والسلطات . . لقد كانت تخطط الجمعية اليمنية الكبرى تخطيطاً إصلاحياً : بدأ بالدعوة والنصح للإمام لكي تنفذ عن مشيئته الإصلاح الديني والسياسي ، ولكنه نفذ مايريد متجاوزاً الدعوة والنصح أو متجاوباً معهما بطريقة أخرى .

لهذا لاحظنا منهاج جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفكر نفس تفكير الإمام في التوجيه الديني وبث الدعاة . .

لكن هل كان الشعب مفتقراً إلى الصلاة أو مفتقراً إلى ضروريات الحياة ؟

إن الدعوة الدينية ممتدة منذ إشراق النبوة والوعظ والإرشاد مستمران ، لهذا لم يكن في دعوة الجمعية جديد ولا وعد بتجديد وإنما هي تقول نفس ماقال الأئمة ودعاتهم من الترغيب في (الله) والترهيب به ، والإضافات الصغيرة التي أضافتها الدعوة من رياضة جسدية ووحدة إسلامية لم تكن صدى لأهواء النفوس ولامعبرة عن تجاوز الضروريات إلى العيش الأفضل .

مثل هذا نوع التنظيم فقد كان من صنف رجال الحكومة وأتباعهم من مخمنين وجباة ضرائب ، ورغم هذا لم يكونوا على دراية كافية أنهم يدعون إلى ماهو قائم إمامياً وتاريخياً . . لهذا انتقلت الجمعية إلى ماظنته طوراً آخر قريباً من الأول وهو التنديد بالرشوة واسترهان أبناء الشيوخ ، غير أن التنديد بالرشوة كان قائماً في خطب المساجد كما كان العقاب على ظهورها بالمرصاد هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، أن الذين كانوا يدفعون الرشوة أقلية من القادرين على الاكتساب الباطل كما أن الذين كانوا يرهنون أبناءهم من الشيوخ كانوا يحققون مكانة عند الدولة ومكاسباً من المواطنين ، فكانوا ينالون من الدولة أرباع أعشار الضرائب كل شيخ على منطقته ، وكانوا يقبضون من المواطنين ضريبة سنوية باسم (مصروف الرهينة) ، وكان الشيوخ يتنازعون في المحاكم على مشيخة الضمان ومَن الأولى بها عندما بزغت مشيخات تنازع المشيخات الكبرى ، فقد كان تقديم الرهينة على شكلين : للطاعة من شيوخ البدو ، وللمكانة والكسب من شيوخ الأرياف ، ولم يكن تقديم الرهائن مدعاة تذمر عند الشيوخ ولاعند الفلاحين لاعتياده . . من هنا يتبين المرء أن أفكار الجمعية الكبرى لم تصعد من الشعب عن استقصاء لرغباته وإنما عن وعي ثقافي غير واضح للتغيير . . ولهذا نجح الانقلاب وأخفق في مدة شهر ، وكان نجاحه بفعل الفترة التي ألحت على تغيّر لم تتبين القصد إليه أو نوعه ، وكان الفشل لنفس الأسباب ، هذا دليل على أن الجمعية كانت تجمعاً لاتنظيماً أو تنظيماً أفرزته نفس الظروف المتخلّفة ، وكل تنظيم من نوع الظروف التي تفرزه . . لقد تحولت الجمعية من جمعية أمر بمعروف إلى حزب الأحرار الذي لم يعلن إلى الجمعية الكبرى التي أعلنت وانتكست كتنظيم عام ٤٨ من هذا القرن ، لأن بعضها استضافه السجن وبعضها حصده السيف وبعضها أنجاه الفرار ، والملحوظ أن السجناء من أعضاء الجمعية في شطري اليمن الوافدين من عَدَن وذوي الحماس الآني بصنعاء كانوا في

الدرجة الثانية من الخطورة عند الإمام (أحمد) ، لأنه ركّز على الفاعلين وأخطر النظريين ، فقد أعدم من آل الوزير خمسة كما أعدم الشيوخ الخمسة المباشرين لقتل أبيه إلى جانب عدد من المثقفين المتحمسين للدستور : كأحمد الحورش والمسمري والبراق ومحيي الدين العنسي عبد الوهاب نعمان ، ولم يعدم من أعضاء الجمعية إلا زيداً الموشكي لاتهامه بنقل الأسرار الأميرية من تَعِزّ إلى صنعاء . أما زميله أحمد الشامي فلم يسجن غير نحو أربع سنوات ، أما الزبيري فقد كان غائباً عند سقوط العاصمة ويوم إيابه كان الحصار قد أطبق عليها فعادت طائرته إلى مطار عَدَن ومن هناك تقاذفته الملاجئ حتى استقر على مضض في الباكستان ولعل التجاءه تسبب في نجاة الأستاذ نعمان أهم المنظّرين سياسياً للجمعية ، وقد أطلق الأستاذ نعمان بعد أحمد الشامي وأصبح من حاشية الإمام (أحمد) ومن أنصاره في انقلاب ٥٥ حتى اعتبره الإمام (أحمد) ثاني نجله البدر .

إذن فقد تشظّى هذا التنظيم داخلياً ودلّ اختلاف العقوبات وفترات الإطلاق على درجات الخطورات بين أعضاء الجمعية وهذا يستدعي التساؤل : هل كان الانقلاب من تخطيطهم أو أنه معتمد عليهم كمنفذ لرغباتهم ؟

لقد نجح الانقلاب وفشل ، وكان سبب نجاحه نفس عوامل فشله ، إنها الظروف المعقّدة وغياب الاستبصار عن تعقدها وإقصاء الشعب عن ساحة الفعل ، حتى أدى قيام السلطة الدستورية وسقوطها إلى إرهاصات جديدة كانعكاس للحدث ، لأن هذا الحدث رغم إخفاقه قد دلّ على إمكانية بزوغ بديله ، وهذا البديل الواعد ممكن التأصل لأن نفسية الشعب أخذت تتفتح لتقبل التغيير الصاعد منها والمعبّر عن نوازعها .

انتهت الأربعينات وفي أعينها مئات الأسئلة :

ماذا حدث ؟ ولماذا حدث ؟

فقد كانت سنة ٤٩ سنة الغضب على الدستوريين عن سخط عليهم وعن مجاراة للسلطة وعن مجاراة للساخطين ، ذلك لأن مثقفي تلك الفترة من صنفين : صنف دستوري ، وصنف إمامي ، وهناك صنف ثالث كان يريد أكثر مما حدث ويرى الانقلاب إجهاضاً لإمكانيات أحداث خلاقة . . إذا كان الدستوريون من المثقفين والشيوخ ، فإن الذين أسقطوه من المثقفين والشيوخ والجماهير ، كان الزبيري ونعمان ألمع الأدباء الساسة ، وكان عبد الله الوزير أشهر الإماميين بالتدين والورع وإدارة الحروب ، وكان من مستوى هؤلاء ديناً وأدباً إلى جانب الإمام (أحمد) جماعة مقابلة : كالشاعر (عبد الكريم الأمير) رئيس تحرير صحيفة (الإيمان) والشاعر (محمد موسى) رئيس تحرير جريدة (النصر) ، ومن رجال الدين (قاسم العزي) (بصنعاء) و(مجد الدين)(بصَعْدة) و(حمود الدولة) (بذمار) وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة عبد الله الوزير ، كما كان عبد الكريم الأمير موسى من صنف الزبيري ونعمان .

لهذا لم تستوعب الجمعية أغلب المثقفين ، وإنما كان هناك مثقفون من نفس المستوى ضد سياسة الجمعية اليمنية الكبرى وضد إمامة الوزير ، ولعل المضادّين كانوا أقرب إلى اليمنية والنزوع اليمني ، على حين كانت الجمعية تعتمد على برامج التنظيمات دون أن تيمنها أو تستهدي بها إلى طوايا اليمنيين ، كما كان الانقلاب قابلاً للسقوط فقد كان تشظّي الجمعية قابلاً للالتئام ، فبعد أن خَبَت جذوتها من ٤٨ إلى ٥٢ بدأت تستجمع عوامل اشتعالها بفعل تغيرات الظروف العربية ، فبعد قيام ثورة مصر ٥٢ انفتح قلب القاهرة لسائر المناضلين ضد الاستعمار والاستبداد ، وفي عام ٥٣ تحولت الجمعية اليمنية الكبرى إلى القاهرة وامتدت الحياة إلى أفرادها (بعدَن) وتغيرت التسمية إلى الاتحاد اليمني وواصلت جريدة صوت اليمن إصدارها من القاهرة بعد عَدَن .

لقد قام الاتحاد اليمني عام ٥٣ عن مفهوم جديد لأنه انبعث تحت ضوء جديد وإن كان ممتداً من أصول قابلة للتحول والثبوت ، لأن الاتحاد تفاعل باتّقاد الفترة كما تدل كلمة الافتتاح التي ألقيت يوم افتتاح دار الاتحاد اليمني وهي أشبه بمنهاج نظري للتنظيم .

« في فجر اليوم الذي صنعناه من أنفاسنا وعرقنا ، ومن ذروة الشوامخ التي شيدناها بكفاحنا وسواعدنا ، وعلى مقربة من حرم الغاية المقدسة التي أنفقنا في طريقها العمر واستهلكنا في سبيلها الحياة ، نزفّ إلى الملايين من أبناء اليمن السائرين في بواديه الكادحين في سهوله ووديانه القابعين في كهوفه وأكواخه المبعثرين الحائرين المتطلعين إلى السّماء ينشدونها ضوء الفجر ويستجدونها المعجزة وإلى مئات الألوف من اليمانيين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها ، الباحثين عن الحياة المكافحين في سبيل البقاء المجاهدين في سبيل العزة والكرامة والطمأنينة إلى الذين عاهدوا الله أن يعيشوا كراماً أحراراً وأن يظلّوا أوفياء لمبادئهم يتمسكون بها إلى آخر رمق في الحياة ، إلى هؤلاء جميعاً نزفّ بشرى نجاحهم ، انبلاج صباحهم وظهور الفجر الصادق الذي نسجوا أشعته من أطياف أرواحهم . هذا هو اليوم الذي آن فيه لمبادئنا أن تظهر ولجراحنا أن تجبر ولأمانينا أن تنتصر ، هذا هو اليوم وهذه هي المبادئ والأهداف التي سعينا لأجلها طويلاً وحملنا ثقيلاً وجوزينا عليها اليوم جزاء جميلاً ، فقد تمّ التفاهم والاتفاق بين أبناء اليمن على تجديد أهدافهم بحيث يكون أبناء اليمن على قلب رجل واحد تحكمهم المثل الوطنية العليا على اختلاف طبقاتهم وقبائلهم ومشاربهم ، وقد كان لابدّ من هذا الاتجاه فإن اليمن اليوم تكتنفها الأخطار والمؤامرات ، فلو لم يجتمع رجال اليمن حول مبادئ شورية تضمن سعادة الشعب واستقلاله فإن الله وحده الذي يعلم ماكان يمكن أن تتعرض له اليمن من أحداث جسام ، وإننا إذ ندعو الناس إلى الإخاء والتضامن على أساس هذه

المبادئ الشورية فإنما نحاول إنقاذ اليمن من التيارات الشخصية الخطرة التي بدأت تعصف بأبنائها ذات اليمين وذات الشمال ، فهذا يعطي اليمن لزيد وذاك يهبها لعمرو وهذا يحاول أن يضعها في المزاد بسوق الطامعين لكأنما الشعب اليمني بوطنه العظيم وكنوزه الغالية وعروبته العريقة سلعة تباع وتشترى ، لذلك فإن الاتحاد اليمني وكل من ينتمي إليه أو يؤمن معه بهذه الفكرة وبهذه المبادئ الشورية الخالدة يعلن أن هذه المبادئ الوطنية هي المحور الذي تتجه إليه قلوبنا وترتبط به مصائرنا ، وإن الشعب ليعلم أنّا لسنا طلّاب ملك ولاجاه ولامال ، لذلك فإننا ندعوا الشعب حكاماً ومحكومين أن يبدؤوا عهداً جديداً على أساس هذه المبادئ التي هي جديرة أن تعطي كل ذي حق حقه ، فإلى صاحب الجلالة الإمام (أحمد) المعظّم نقدم هذا المنهج الذي انتهجناه في دعوتنا وجعلناه ذروة النظام الذي ننشده هي حقوق الإمام على الشعب إيماناً بأن هذا الحق في مصلحة العرش ومصلحة الشعب معاً واعتراف منا بأن الإمام هو رمز البلاد واجبه المقدس أن يحمي حقوقها ، وإننا نعتقد أن كل من يوهم الناس أن مصلحة العرش وحقوقه تناهض مصلحة الشعب فهو عدو للشعب وللعرش . » .

محمد محمود الزبيري

رئيس الاتحاد اليمني بمصر

أعلن الاتحاد اليمني هذا المنهاج عام ٥٣ وبثّته إذاعة صوت العرب وردّد الاتحاديون القسم الوطني على الالتزام بهذا المنهاج والعمل بمقتضى نصه وروحه ورحّب المنهاج بكل الاقتراحات لتعديل المنهاج بعد مضي عام كامل بعد أن تدرس الاقتراحات وتبين إيجابياتها وتتجلى قيمة الإضافة والحذف .

إذا نظرنا إلى هذا المنهاج المنشور في كتاب (مسار الحركة الوطنية اليمنية) لعلي محمد عبده فسوف نلاحظ الفروق العظيمة بين هذا المنهاج وبين مناهج الأربعينات من دعوة الأمر بالمعروف إلى الميثاق المقدس مروراً بأدبيات

صحيفة (صوت اليمن) ولعل أهم الفروق هو الاعتماد على الشعب في موطنه وفي مهاجره وعلى القبائل في كل مكان وعلى الحاكمين والمحكومين معاً والوشيجة التي تجمع بين هذا المنهاج وبين منهاج عام ٤٠م هي تقديم المنهاج الأول إلى الإمام (يحيى) وتقديم المنهاج الثاني إلى (الإمام أحمد) ، غير أن المنهاج الأول يستجدي الإمام رخصة الإرشاد الديني .

أما المنهاج الثاني فهو كبرنامج سياسي يرى الإمام مجرد رمز للبلاد ترتبط مصلحة حكمه بمصلحة محكوميه وثقابة النظر في المنهاج هي التنبيه إلى الخطر المتعدّد الأيدي الذي يتنازع اليمن من الخارج ويلقى قابلية في الداخل كما يقول المنهاج حرفياً ، فهذا يعطي اليمن لزيد وهذا يهبها لعمرو وهذا يطرحها بالمزاد كسلعة .

لقد صدر المنهاج في القاهرة بعد غياب الزبيري عن اليمن خمسة أعوام . . فماذا استجدّ في الساحة من أخطار تهدد استقلال اليمن واستلاب سيادة بنيه ؟

بعد انتصار الإمام (أحمد) على الدستوريين عام ٤٨م أسكت الأطماع في نفوس إخوته لأنه انتزع الملك بحدّ السيف لا بالوراثة وحدها ، إلا أن إخوته لم يقتنعوا بهذا الحق ولم يقبلوا وضعهم كموظفين بدرجة وزراء أو نواب لأخيهم ، فتفاقم النزاع العائلي سرّياً وكان الإمام (أحمد) على أقرب ذكرى من انتماء أخيه (إبراهيم) إلى الجمعية اليمنية بعدَن ، فعمل في سرية على قتل أكثر إخوته طموحاً وهو الأمير (يحيى) الذي رأى نفسه شريك (أحمد) في النصر ، لأن المدفعيين بقصر غمدان أطلقوا القذائف على مقر (إمام شباط) عن تدبيره وعن أمره فأسقط الوضع الدستوري من الداخل ، وبهذا سهّل على المحاصرين اقتحام صنعاء ، وكان لكل أمير حاشية تثير فيه الطموح وتدنيه من غايته ، وعلى صغر سن الأمير (يحيى) فقد لحظ (أحمد) توقه إلى الملك أو احتمال توقه إليه بما

كان يبدي من التبجح وبما كانت تنشر حاشيته من الدعاية ، لهذا مات الأمير يحيى مسموماً كما قيل ، وكان هذا أول حادث روّجته الإشاعات عام ٥١م ولاشك أن دسائس القصور التي تعددت تزايدت بعد قتل أبي السيوف وبعد انتصارهم على قتلته .

وقد أشار إلى هذا الأمير (علي بن يحيى) في عرس ابنه الأمير (الحسن) عام ٥٣م :

ونحـــن بنـــو أســـرة كلنـــا   خيـولهـم للمعـالـي جمـاح

وقد كان هذا البيت من قصيدة الأمير علي محور نقاش المحتفلين بالزفاف وكلهم من كبار الموظفين وأتباع الإمام والسيوف ، وكان الأمير علي معروفاً بطموحه من أيام أبيه ولو لم يستلب وعيه السكر لكان خطره أكثر فقد هاجم أباه في زحمة التذمر عند مثقفي الأربعينات ورددت له الروايات قوله :

بني وطني إلى كم نحن نشقى   وأنتم في المضاجع راقدونا
وهـذا المستبـد الغـرّ يحيـى   عـدوّ الله يظلمكـم سنينـا

ودعاية الأمير علي ضد أبيه دعوة لنفسه كما هي عادة الحكم الوراثي ، وعندما أعلن طموحه وطموح أخوته في الخمسينات في قصيدة تهنئة بزفاف ابنه كان في هذا إشارة إلى نزاع عائلي ، دلّت عليه زيارة (الملك سعود) لصنعاء عام ١٩٥٤ لقصد إصلاح ذات البين ولتصافي الإخوة في ظاهر الأمر ، ونتيجة هذا النزاع السرّي تلمست الآراء الرسمية حلاً لحماية حكم العائلة قبل أن يتداعى : فرأى البعض أن توثيق العلاقات مع بريطانيا مستعمرة الجنوب أجدى للحكم ، لأن عدائية الإمام (يحيى) للإنجليز جرّت عليه مؤامرة المناوئين في الأربعينات ولابد للإمام (أحمد) من إغلاق هذا الطريق في وجه من يحاول الحماية بمستعمرة عدَن كما حدث في الأربعينات ، وهناك من رأى أن حسن

العلاقة مع الجيران تمنع إمداد أي خارج على السلطة ، غير أن ثورة مصر القومية أخذت تزلزل الأرض تحت أقدام الاستعمار بما في ذلك الاستعمار البريطاني ، وكان الاستعمار الجديد بزعامة الولايات المتحدة يحتلّ مواقع الاستعمار القديم أو يعدّ نفسه للاحتلال بعد جلائه . لقد شمّ الزبيري رائحة الصراع العائلي ولمح عبارة المنهاج : « هذا يعطي اليمن لزيد وذاك لعمرو وهذا يتاجر بها » ، لعل في هذا أهم الإشارات إلى مؤامرة السيف (عبد الله) على أخيه (أحمد) وتأييد إخوته لهذا التآمر ، وقد دلّت على صحة هذه الإشارة حركة مارس ١٩٥٥ حين قام عبد الله بانقلاب على أخيه (أحمد) بدفع من الولايات المتحدة الأمريكية ، كما دلّت إشارة الزبيري إلى هذا الحادث قبل وقوعه دلّت على أمريكية الانقلاب غضبة الإمام (أحمد) على الإمبريالية كصانعة انقلاب ، لهذا قوّى الإمام (أحمد) علاقاته مع الاتحاد السنوفيتي والصين وتبنّى فكرة اتحاد مع مصر وسورية عام ١٩٥٨ كردّ فعل على المؤامرة الأمريكية ، وقد اتضح موقف الاتحاد اليمني من ذلك الانقلاب الأمريكي فشنَّ الزبيري من إذاعة صوت العرب هجوماً عنيفاً على الانقلاب والانقلابيين كمؤامرة ذات شقين ، تنتزع سيادة اليمن وتعيد الدورة الدموية إلى الإمامة المتداعية ، وقبل هجوم الزبيري وقف الأستاذ (نعمان) إلى جانب (البدر) في وجه الانقلاب وافتتح إذاعة لاسلكيّة (بحجة) تتوعّد الانقلابيين (بتَعِزّ) كما قام برحلة إلى المملكة العربية السعودية يطلب تأييدها للبدر ، غير أن الإمام (أحمد) سبق كل تدبير فقضى على الانقلاب في يومه الخامس بتدبيره الخاص .

فمن هم الذين يريدون توزيع اليمن للطامعين ؟ .

إنهم حاكموها وليس الشعب لأن الطموح إلى السلطة والتشبث بها أثار الخوف على وحدة الوطن وعلى سيادة بنيه ، وقد كان منهاج الاتحاد بتأييده للإمام أحمد كرمز للوحدة الوطنية يشمّ المؤامرة الإمبريالية التي ألقت أقنعتها في

مارس عام ١٩٥٥ غير أن المنهاج دعا الإمام أحمد إلى تنظيم حكمه وصلته بالشعب كخادم للأمة التي سوّدته عليها .

ألا يتجلّى الفرق بين نهج الاتحاد اليمني ونهج جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نشأ الاتحاد منها وتطور عبر تجاربها تحت شعارات وتسميات حتى نضجت كل التسميات ، فوصلت إلى صيغة تنظيمية تنتمي إلى الأصالة وتتجذر في المعاصرة ، غير أن الاتحاد راقب التحولات والتغيرات ، من أين وإلى أين ؟؟ .

لعل مقاومته لانقلاب ٥٥م ينتمي إلى نزعتين :

الأولى معارضته الإمامية كحكم ، الثانية رفض الانقلاب العسكري توجّساً من العسكريين كسلطة ، وقد دلّت على النزعتين مواقف لاحقة للانقلاب الأمريكي ، فعندما عقد الإمام صفقة الأسلحة مع السوفيت عام ١٩٥٦م أصدر الاتحاد منهاجاً ثانياً بعنوان (مطالب الشعب) والفرق بين العنوان وموضوع المنهاج السابق يدل على رصد التحولات ونوعيتها في تلك الفترة المتفجرة ، وقد كان عنوان منهاج الاتحاد الذي صدر عام ٥٣م (آمالنا وأمانينا) وكان مرفوعاً إلى الإمام أحمد كرمز للوحدة الوطنية وكحاكم يجب أن يعرف واجبه الشعبي لصالح الشعب كقاعدة وللحكم كقمة تبقى بوجود القاعدة ، وقد كان هذا المنهاج يشير إلى المخاوف المنتظرة ويرى بقاء الإمام ضماناً لوحدة الوطن . أما منهاج (مطالب الشعب) فهو دستور للحكم الشعبي . يرئ الملك يسود ولايحكم ، ويحكم الشعب نفسه من خلال ممثليه ، إنَّ (مطالب الشعب) برنامج ثوري ولكن بدون سلاح لتخوف الاتحاد من الثورة المسلحة كما يشير المنهاج (مطالب الشعب) ويمكن مناقشته على ضوء نصوصه والانطلاق منه على هدى التحولات الشعبية والتغيرات العالمية وتطور حزب الاتحاد من خلال التغيرات العامة والخاصة .

الاتحاد اليمني بين الاجترار والتحول

أول ما يتعين على دارس الحركات اجتناب التعميم حتى لايسود الخلط : بين ماهو شعبي وغير شعبي ، فليست كل حركة شعبية ، لأن اصطراع البنى الفوقية والتي تليها طبقياً تعبّر عنها أكثر مما تعبّر عن الشعب ، فمجرد إبدال ملك بملك أو سيئ بمثله لايدخل في حساب الشعب وإن كان محسوباً عليه كتضحية ومضحّي ، ولعل أغلب الحركات اليمنية إلى سبتمبر ١٩٦٢ تتّسم بالصراع الفوقي بين أنداد من طبقة عليا أو مايتصل بها ، غير أن هذه الحركات قد خلقت جواً قابلاً لإبدال لون بلون ووجوه بوجوه حتى أدّت التحولات إلى اصطراع الشعب مع سلطات القهر ومع نفسه التي قبلت القهر . . ولقد أحسّ الاتحاد اليمني عام ١٩٥٦ مقدار بعده عن الشعب فأخذ يقوّم صلاته ويغير علاقاته بالقطاعات الشعبية التي نعتها في الأربعينات (بالغوغاء) وبالرعاع وبالجهلة . . غير أن هذا الالتفات إلى الشعب كان بعد حينه ، لأن الشعب كان قد تجاوز مرئيات (الاتحاد) وأصبح يفكر في إحلال حكم الشعب محل الإمامة بدلاً من دعوة الإمامية إلى تحسين علاقتها بالشعب كما تدل أدبيات الاتحاد ، ولعل نقطة البداية في التحول الشعبي تنتمي إلى مطلع الخمسينات بفعل الهزات العالمية والعربية وفاعلية تأثيرها في الجماهير اليمنية كعضو في الكيان البشري يتأثر ويؤثر ، ولكن لم يحدث هذا فجأة وإنما جاء من تفاعل حي له عراقة في تربة التحرك السفلي ، ويمكن الالتفات إلى بداية الينبوع في التطور المعاصر .

كان القرن الثامن عشر في أوربا عصر الاقتتال بين البرجوازية والإقطاعية ، حتى سقطت الاقطاعية الأوربية ، ملكت السلطة القوى البرجوازية فأرادت أن

تستفيد بتجاربها وبالخيوط الحية من موروث الإقطاع ، فبزغت في منتصف القرن التاسع عشر قوة العمال كمناهضة للبرجوازية وريثة الإقطاع ، وكان الاقتتال سجالاً بين الرأسمالية و (البروليتاريا) حتى نهاية الحرب الأولى ، هناك انقسم العالم إلى ثلاثة عوالم : العالم الرأسمالي ، العالم الاشتراكي ، والعالم الثالث الخاضع للاستعمار . . ونتيجة وجود معسكرين تنامى العالم الثالث وتصاعد تناميه حتى نهاية الحرب الثانية ١٩٤٥ . . من ذلك الحين بدأت المستعمرات تتفجر ويتلاحق انفجارها من قارة إلى قارة ، واهتدت الشعوب إلى أنجح وسائل النضال ، فشكّلت التنظيمات وراقبت تحركها على مقتضى برامجها ، وفي هذه الفترة تشكّل الاتحاد اليمني تحت اسم (الجمعية اليمنية الكبرى) وعلى إثره تشكّلت (رابطة أبناء الجنوب) . . فهل يشبه هذان التنظيمان سائر التنظيمات المعاصرة كالوفد في مصر أو كالحزب الديمقراطي في غانا أو كالبعث العربي الاشتراكي أو كجبهة التحرير الجزائرية ؟

إن كل تنظيم إفراز واقعه ، كما أن العالم الثالث ينطوي على عوالم متباينة . . يمكن أن نعتبر (اليمن) أغنى بالثقافة التراثية ولكن على حساب المعاصرة ، على حين اصطرعت المعاصرة والتراثية في سائر أقطار العالم الثالث من منظور إيديولوجي بعضه سلفيّ محافظ وبعضه سلفيّ مستنير وبعضه معاصر استعماري وبعضه معاصر تقدمي ، وكان الاستعمار يشجع هذا الخلط في المنظور لكي يكون هو الخصم والحكَم ، غير أن وجود معسكر اشتراكي بنفس القوة المتصاعدة قد برّر تنامي مجتمع ثوري في العالم الثالث ، وكان لابد أن تتفجر الثورات على الاستعمار وأن تقوم أنظمة ثورية تختلف عن رأسمالية الاستعمار وعن إشتراكية المنظومة الاشتراكية ، فنشأت الاشتراكية الثالثة المختلفة عن الفابية وعن الماركسية وذلك لاختلاف تجربة العالم الثالث واختلاف إقطاعيته وبرجوازيته عن إقطاعية أوربا وبرجوازيتها ، وكانت (اليمن) أكثر اختلافاً ،

كان الشطر الجنوبي مستعمراً وكان الشطر الشمالي مستقلاً سياسياً مستعمراً اقتصادياً كسوق لمحتل أحد شطريه ، وكان التفكير في وحدة الشطرين غائباً عن بال أول تنظيمين : الجمعية والرابطة ، فكانت الجمعية اليمنية الكبرى تعتبر اليمن من قعطبة إلى صَعْدة ، وكانت رابطة أبناء الجنوب تعتبر الجنوب عربياً غير يمني كما سبقت الإشارة ، وكان هذا يساعد الاستعمار على امتداد بقائه سياسياً واقتصادياً في الشطرين ، غير أن انقلاب ١٩٥٥ على (الإمام أحمد) بقيادة أخيه عبد الله في شمال الوطن أثار الانتباه إلى وجه الاستعمار الامبريالي بزعامة (واشنطن) كبديل للاستعمار القديم وكبديل للاستقلال التام اقتصادياً وسياسياً ، وكان الاتحاد اليمني يراقب التغيرات في الداخل والخارج ، فقد أخذ (الإمام أحمد) يتبنّى تحرير الجنوب لكي يكسب رضاء التقدميين في الوطن العربي وفي غيره ، وكانت صفقة الأسلحة السوفييتية عام ١٩٥٦ البرهان الرسمي على تبنّي (أحمد) نضال الشطر الجنوبي وتحريره ، غير أن وجود الاتحاديين بالقاهرة والرابطيين بالجنوب وفي السعودية لم يكن كافياً لخوض الميدان المشتعل ، فاستدعت الظروف إفراز تنظيمات جديدة ، فتشابه تشكيل التنظيمات في الشطرين ، فكما تحوّلت الجمعية اليمنية إلى الاتحاد اليمني بالقاهرة بعد ثورة يوليو ، تحولت النوادي العَدَنية إلى تنظيم المؤتمر العمالي وانضم إليه كل اليمنيين ، وباختلاف التنظيمات اختلفت الإيديولوجيات ففي الوقت الذي كان يتبنّى فيه الاتحاد (إمامة دستورية) ، كانت التنظيمات في الداخل على امتداد الشطرين تستعجل ميلاد جمهورية متحررة ، وكاد الاتحاد (بعَدَن) أن يصبح نقيضاً للاتحاد بالقاهرة رغم تبنّي الأحزاب التقليدية فكرة العروبة بديلاً عن التحرر اليمني ثورياً ، غير أن الاتحاد كان متوجّساً من تطرّف الداخل كشعب ومن عداوة السلطة كقوة لاتقبل تغيير بعض أشكالها كاستجابة إصلاحية ، وفي نفس العام ٥٦ أصدر الاتحاد اليمني بالقاهرة (مطالب الشعب) مصحوبة بميثاق يدعو فيه إلى قيام جمعية تأسيسية وحكومة تنفيذية وسلطة قضائية مستقلة في ظل

ملكية رمزية تسود ولا تحكم ويحكم الشعب في ظل سيادتها ، وهذا الميثاق يختلف عن المواثيق التي أصدرها الاتحاد من مطلع الأربعينات حتى ٥٦ فهو يتجه إلى الشعب لا إلى الإمام كسوابقه وهو يعبّر عن شعب جديد وإن لم يَلمح نوع الجِدّة التي يناضل الشعب لها ، ولعل اللغة هنا تبرهن على تطور الاتحاد ثقافياً وسياسياً وإن لم ينقطع عن الإصلاحية ، كما تُنْبي هذه السطور من المطالب :

« باسم الشعب اليمني الجديد يعلن الأحرار الدستوريون المطالب القومية :

١ - الملك يملك ولايحكم .

٢ - تأليف حكومة انتقالية من أبناء الشعب تقوم بإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية .

٣ - تلتزم الحكومة الانتقالية بالميثاق الوطني المرفق بهذا كدستور مؤقت أمام الشعب الممثل في الجمعية التأسيسية » .

والملحوظ أن المطالب والميثاق لاتشير إلى تحرير الجنوب ثم إنها تؤكد على قومية اليمن واستقلاله وتشي الروائح أن (الاتحاد) يعني باليمن الشطر الشمالي ولايلمّح إلى الشطر الجنوبي أو يدعو إلى تحرره ، بعد صدور هذا الميثاق ألقى (الإمام أحمد) خطابه المشهور :

« يقولون إننا لانحب أن نستعين بأهل الرأي والمشورة ويشهد الله أننا نستعين بكل أهل الفضل وعندما نريد لاستعانتنا مزيداً من أصحاب الرشاد والقصد الحسن لانجد أحداً :

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً »

بعد هذا الخطاب بأيام تحدّث الأستاذ (أحمد محمد نعمان) من إذاعة

صوت العرب مفنّداً دعاية (الإمام) في انعدام الرجال ومندداً بمن كتب للإمام هذا البيت الشعري :

(لارحم الله من كتب له هذا البيت أو من رواه له أو من أراه كتاباً هو مدوّن فيه) .

وهذا البيت مع سابق له لدعبل الخزاعي من شعراء القرن التاسع الميلادي :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهمُ   والله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأغمض عيني ثم أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحداً

وقد أثار البيت الثاني ثائرة النعمان وكان رده تجهيلاً للإمام بالأدب أكثر من تفنيده لسياسته ، وردّ (النعمان) ينطوي على إشارة إلى زعماء الاتحاد بأنهم أصحاب الرأي وبأن تعاونهم مع (الإمام) ممكن ، لأن هناك خطاً مشتركاً بين الإماميّن والمعارضة من مطلع الأربعينات حتى آخر الخمسينات ، فكما بث (الإمام يحيى) الدعاة إلى مزيد من التدين وكما تبنّى الوحدة الإسلامية لكي يغلق أفواه المعترضين من جمعية الأمر بالمعروف ، تبنّى (الإمام أحمد) في أول الخمسينات تشكيلاً حكومياً يختلف عن عهد أبيه ، فقد عيّن رجالاً من غير إخوته كوزراء وأعطى نوابه صلاحيات محدودة على حين لم يكن لأبيه نواب ، بل زاد (أحمد) على تشكيل الوزارات توسيع العلاقات الدبلوماسية مع دول العالم والمشاركة في المنظمات العالمية والمؤتمرات الدولية ، فأوهم أنه قد استوعب كلّ ما تبنّى الدستوريون من أوضاع ، وتوالت تشكيلاته على مقدار ارتفاع المعارضة أو خفوتها ، فبعد أن أصدر الاتحاد (آمالنا وأمانينا) افتتح (الإمام أحمد) مكتب شكاوى سمّاه (الديوان الملكي) ، ثم شكّل هيئة شرعية كقضاء مستقل ، وعندما أصدر الاتحاد عام ٥٦ (الميثاق) حدث تقارب بين

اليمن وبين السعودية ومصر ، وكانت دوافع ذلك التقارب خوف السعودية من العرشين الهاشميين في بغداد وعمان ، وخوف الإمام أحمد من اكتساح المدّ الناصري وفضّل (جمال) التقارب على التخاصم . ثم عقد (الإمام) صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفيتي وعقد اتفاقية بناء ميناء (الحديدة) مع السوفييت وعقد اتفاقية تعبيد طريق (الحديدة صنعاء) مع الصين ، وكان هذا الإصلاح الرسمي مقابلاً للدعوة الإصلاحية عند (الاتحاد) ونفياً لدعواهم عزلة (اليمن) عن العالم ، من هنا دخل (الاتحاد) أحرج ميدان لأن (الإمام) بدأ يحتمي بموضة العصر وينهي ماكان يسمى بعزلة (اليمن) والخوف من الإصلاح ، ولأن الجماهير دخلت مواقع نضالية أكثر تقدماً من مواقع (الاتحاد) ، وثّق (الإمام) علاقاته (بالكرملن) وهذه التنظيمات البازغة تخلُّف (الاتحاد) وراءها متجاهلة سبقه رافضة أطروحاته ، وهذه الثورات تجتاح العالم الثالث وتستقبل اعترافات (الإمام) ووفوده ، بل حدث ما هو أدهى : فعندما أراد (أحمد) سحب البساط من تحت (الاتحاد) أعلن انضمامه إلى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ عقب قمّة (جدّة) الثلاثية بعامين ، وبهذا أسكت (الاتحاد) مؤقتاً ، أو حال بينه وبين أجهزة الإعلام المصري ، فلم يبق إلا الشعر بطاقته الطيَّارة ، وقد نفث الأستاذ الزبيري كل مرارات (الاتحاد) في قصيدته : (من أحرار اليمن إلى أحرار العراق) وهي دعوة تآخ بين الثوار كما أنها تحذير لثوّار العراق من الانخداع برجعية حكام اليمن :

صيحة الشعب في بلاد الرشيدِ	أشعليها ناراً وثوري وزيدي
إزحفي كالطوفان ياثورة الشعب	إلينا ودمدمي كالرعودِ
طهّري جوّنا من الموت والصمت	وهزي لنا بقايا لحودِ
إخوة نحن في القيود فهيا . .	لنكن إخوة بخلع القيودِ
فالطغاة الأولى أغصوكم الريق	بقاياهمُ لنا في الوريدِ

هم حبال للشنق ترعب بغداد وتبدو عريانة للشهودِ
وهمُ عندنا أراقم تخفي السم في لونها الجميل الودودِ
تتشكى العدا وتبني لهم طرقاً إلينا مفروشة بالورودِ
دمرتنا لهم كآلات حربٍ أطلقتها يدا عدو لدودِ
حققت للغزاة أكثر مما يتمنون من خراب مبيدِ
نصف قرن عشنا ينام بها المحتل في أرضنا كنوم الوليدِ
هجَّعاً كالفراغ لايزعج المحتل منا غير السراب البعيدِ
أو شكاوى كشهقة الطفل يبكي من دلال لأمه يوم عيدِ
شطرنا يستغيث من غاصب فظٍ وشطر من مستبد عنيدِ
وكلا القاتليَن ينهش في جثة شعب نهش النهوم الحقودِ
فإذا ماتصايحنا فكقطين . . إستباحا أشلاء جسم بديدِ

وتمضي القصيدة منددة بالإمامة محذِّرة ثوار العراق ، مذكِّرة إياهم بإخفاق مهمة البعثة العسكرية العراقية برئاسة (إسماعيل صفوت) في ضحوة الأربعينات ، وهذا الالتفات إلى الماضي القريب والبعيد يبرهن على انجرار (الاتحاد) وراء ثورة العصر ، وعلى الالتفات إلى الماضي النائي والداني . . فمستهل القصيدة يسترجع بلاط (الرشيد) مقروناً بصيحة الشعب الثائر ، مع أن الثورة كانت إنهاء لزمن البلاطات : من هارون الرشيد إلى فيصل الثاني ، فالوعي السياسي بالثورة واختلاف الزمن غائب عن القصيدة ، أما الالتفات إلى الماضي القريب فالتنويه (بإسماعيل صفوت) وبالفترة التي كان الدستوريون يعلقون أملاً على حكومة العراق في آخر الأربعينات ، كما تدل رسالة الرئيس (جمال جميل) إلى حكومته مطالباً فيها مؤازرة حكومة العراق لحكم الدستور المنتظر يومذاك ، فقد تجدّد أمل الاتحاديين في العراق آخر الخمسينات دون أن يتفهموا اختلاف الوضعين الملكي والثوري ، فالماضوية والإصلاحية النهضوية

فكرة أساسية في أطروحات الاتحاديين شعراً وكتابة ، حتى وحدة اليمن التي عبّرت عنها القصيدة بوصف مأسوية الشطرين - على حداثتها بالقياس إلى أطروحات الاتحاد - فإن واحدية اليمن في رؤية الشعر ممتدة على امتداد مسيرة الشعر العربي ، كما قال الشاعر الأموي :

تقـول عيسـي وقـد أمَّـت نـواظـرهـا
(لحجاً) ولاحت ذرى الأعلام مِن (عَدَنِ)
أمنتهـى الأرض يـاهـذا تـريـد بنـا
فقلـت كـلا ولكـن منتهـى (اليمـنِ)

وقد لمح شوقي واحدية اليمن قبل الزبيري بثمانية وعشرين عاماً وذلك عندما رثى (محمد ابن الإمام يحيى) في أول الثلاثينات :

مضى الدهر بابن إمام اليمنْ وأودى بـزيـن شبـاب الـزمـنْ
وبـاتـت بصنعاء تبكي السيوف عليه وتبكـي القنـا فـي عَـدَنْ

غير أن نظرة (الزبيري) أكثر توهجاً بالثورة ، لأنه يستمد اتّقاده من ثورة تموز في (بغداد) كما استمدّ التحول النسبي من اتّقاد الداخل ضد الاستعمار وضد (الإمام) ، فلم تكن تجدي (الإمام) العلاقة بالثوار في الخارج لأن ثورة الشعب كانت أذكى من أنت تنخدع بدعوى الإصلاحيين الثورة ولا بتمويه (الإمامة) ، كان الشعب أكثر وعياً بما يريد وماذا يريد ، لأن الحركات السابقة كانت على بعد منه وعليه أن يكشف البداية من أين ، فتجلى أن إنهاء (الإمامة) وقيام (جمهورية الشعب) أصبح البدايات لطرق التحرر من الاستبداد والاستعمار معاً ، وكان الشعب في الشطر الجنوبي ملتقياً مع الشعب في الشطر الشمالي في الإرادة والعمل لتحقيق الإرادة ، فقد ركّز الاستعمار على تكريس الانفصال بطرد الشماليين من وطنهم في الشطر الجنوبي ، وكانت الجماهير تقاوم هذا الطرد بالمظاهرات العمّالية والطلاّبية وبالعمل المسلّح ، لأن واحدية (اليمن) أصبحت

أهم عناصر الثورة الشاملة وبالأخص عندما أصبح مؤتمر العمال تنظيماً نشيطاً يمتلك الميدان في الشطرين وكلّ ما نشأ من تنظيمات كان امتداداً منه ، فعندما تشكّل حزب الشعب الاشتراكي انتقل العمال إلى خطوة ثانية ، غير أن (الإمام) رفع شعار الاتحاد مع الدول المتحررة كمظلّة من الشعب ، وكان (الاتحاد اليمني) رغم تحوّله الجديد متمسكاً بأصوله الدستورية والثورية ، فكوّن علاقات مع (البدر) ومع (الحسن بن علي) وذلك لنشوء تنظيمات جديدة رفعت شعار القومية وشعار العالمية ، وصاحب هذا تجنّح (الاتحاد) فكما تشظى آخر الأربعينات وأول الخمسينات أخذ في التشظي آخر الخمسينات ، فخرج عنه بعض مؤسسيه (كعلي الجناتي) وآخرين فاصطرع (الاتحاد) مع نفسه ومع القوى الجديدة ، كما تدل قصائد الزبيري من ٥٧ إلى ٦٠ ففي قصيدة (إلى الغاضبين علينا) يدعو (الزبيري) إلى الوئام والاعتناق في النضال ولكن من منظوره الاتحادي :

أيها الغاضبون من ثقة الشعب — بنـــا والمـــؤلّبـــون علينـــا
أيها المرهَقون يأساً وغماً .. — وانهما كافي هدم ماقد بيننا
لو حملتم من أمره ماحملنا .. — لاشتكيتم من الأسى مااشتكينا
أيهـا الـزاعمـون أنّـا احتكـرنـا — دعـوة الحق وحدنا وانـزوينا
مـااحتكـرنـا نضـالنا بـل دعـونـا — فـرفضتـم أن تفهمـوا مـاعنينـا
هالكم صبرنا على كل خطبٍ — فـوقفتـم من ذعـركـم ومضينا
سـاءكـم أننـا انفـردنـا بعـزمٍ — وصمـــود وأننـــا مـــااثنينـــا
أنتـم ليس نحـن غبتـم ليبقـى — شرف الحق كلـه في يدينا
يعلـــم الله أننـــا نتمنـــى — لـو رجعتم بعـد العقـوق إلينا
بل وندعو أن تسبقونا وتجنوا — ثمـرات الختـام ممـا ابتـدينـا

كان انقسام اليمنيين في الخارج انعكاساً للانقسام في الداخل ، فقد كانت

الخلايا والتجمعات متعددة الرؤية إلى الغد واحدية النظرة إلى التغيير ولكن بأي وسيلة ، كان البعض يرى فشل أي حركة مسلحة قياساً على فشل ٤٨ و٥٥ يعتبر التطور الهادئ أضمن لتطور مسيرة الشعب وكان البعض يرى إنضاج المراحل أجدى من حرقها وكان البعض يعتبر الثورة المسلّحة السبيل الوحيد ، وكان البعض يرى حتمية الثورة ويخاف حدوث ماحدث على امتداد الستينات ، وكانت التنظيمات والطلاب والعمال في الخارج انعكاساً لجماعات الداخل ، وكان اليمنيون في المهاجر يشكّلون تجمعاً كثير العدد ، فمن مطلع الخمسينات إلى الستينات أصبح الطلاب اليمنيون بالقاهرة يعدّون بالمئات وكانوا يخرجون بعدة صفات : بعضهم مبعوثون من قبل الحكومة ، وبعضهم كانوا يصلون القاهرة فارّين من عَدَن ، وكان البعض يتنقلون من السعودية والخليج إلى الثانويات والجامعة المصرية ، وكان بعض الأمراء الصغار مبعوثين للدراسة فشكّلوا مع السفارة اليمنية جبهة (إمامية حسنية) ، وكان الفارّون شعبيين طبقياً وهدفاً ، لهذا وقع (الاتحاد) بين جبهتين : جبهة أكثر رجعية منه وجبهة أكثر تقدماً ، وكان (الاتحاد) بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة أكثر مجاملة للرسميين . . وفي عام ١٩٦١ شمّ الإمام روائح الناصرية في الكلية الحربية وفوج (البدر) بصنعاء ومعسكر (العرضي) بتَعِزّ ، وكان الضباط المصريون يتغاضون عن المضايقة من الإماميين ، غير أن (الإمام) تردّد بين طرد المصريين وبين الميل إلى أشباه نظامه فاستبدل الضباط المصريين بضباط أردنيين لتهدئة الحماس العسكري ، غير أن الغضب الشعبي تجاوز مجالس القات إلى الثكنات والمدارس فأصبحت المواجهة بين حقيقة (الإمام) ومداجاته علنية في قصيدة إمامية تندّد بالاشتراكية العربية وتدعو إلى الوحدة بلا ثورية ، وكانت قصيدة (أحمد) مادة اخبارية هامة لأنها ذات طابع فقهي سياسي ولأنها بيان شعري

ولا يجوز أخذ مال الغير   إلا بأن يرضى بدون ظير

بحجـة التـأميـم والمعـادلَـةْ   بين ذوي المال ومن لا مال لَهْ

وكانت الدوائر الاستعمارية ترى خطر (الناصرية) يتفاقم فتجسم كل الدعايات كعادتها في استغلال الحقائق لصالحها ، وبهذا تجمّد (الاتحاد) بين المملكة المتوكلية والجمهورية العربية المتحدة وإن بقيت اسميته إذاعياً في صنعاء : (إذاعة المملكة المتوكلية اليمنية للدول العربية المتحدة) بقي الشعار الإذاعي إلى عشية ثورة سبتمبر ١٩٦٢ كما بقيت اسمية الجمهورية العربية المتحدة إلى بعد الانفصال بثمان سنوات ، ولعل هذا امتداد لتسمية ملك بريطانيا ملك فرنسا حتى بعد أن أصبحت فرنسا جمهورية .

لقد كان الاتحاد بين المملكة المتوكلية والجمهورية العربية المتحدة غير منطقي كما كان تجميده غير منطقي أيضاً ، لقد أتى بلا سبب وانتهى بلا سبب كاف ، ولعل حزب الاتحاد اليمني بالقاهرة قد شعر بالتنفس بعد توتر العلاقات بين القاهرة وتَعِزّ ، غير أن الفترة قد أفرزت قوى جديدة مختلفة عن (الاتحاد) ولعل هذا منسجم مع المنطق الزمني ، ففي مقدور عشرين عاماً أن تفرز قوى جديدة مختلفة التفكير ومختلفة القواعد ، فإذا كان همّ الأربعينيين منصبّاً على قيام سلطة دستورية ، فإنَّ طموح الستينيين قد تجاوز القصوريات إلى الشعب وتخطّى دعوة الإصلاح إلى الثورة . لهذا انكمش الاتحاد اليمني من ٦١ إلى ٦٩ بل لم يعد يبدو كتنظيم في القاهرة ، لأن الدور استدعى وجوهاً جديدة وكان التيار القومي وحيد الميدان .

فماذا يعمل الاتحاد ؟

كما فشل في تحقيق انقلاب ٤٨ فشل في استمالة (البدر) إلى أهدافه أو عجز (البدر) عن التجاوب مع تلك الأهداف لتضامن العائلات التقليدية ضده .

نتيجة لهذا عبَّر (الاتحاد) عن إرادته في قيام جمهورية ديمقراطية ولكن

في غير بيان سياسي أو بيان شعري وإنما في بيان شبه روائي كما في (مأساة واق الواق) التي عبرت الأجواء في رحلة حلمية رأت علم الجمهورية أحد خيوط ذلك الحلم ، غير أن صاحب (واق الواق) كان يعاني توجّساً من تحريك مصر لثورة يمنية لأن هذا يَصِم اليمن بالعجز عن صنع مصيره كما تدل مقدمة ثورة الشعر لشاعر الثورة (الزبيري) ، ومن الملحوظ أنَّ (الاتحاد) أصبح مقطوع الصلة بالداخل في ظاهر الأمر إما لسرّية واقعه أو لقلة مواقعه ، فلم يصدر أي بيان عن مظاهرة الطلاب في يونيه ٦٢ أو عن استشهاد (اللقيه) وزميله عام ٦١ أو عن فدائية (سعيد ذبحان) في عام ٦٠ الذي اقتحم القصر وأراد اغتيال (الإمام) ومغامرة هذا البطل مدعاة للتساؤل إلى الآن ، فبعض المتتبعين يرون فدائية (سعيد ذبحان) من تدبير (الاتحاد اليمني) كسبق ثوري يقطع الطريق على الثورة العسكرية ، ولعل هذا منسجم مع تفكير (الاتحاد) من بداية تكوينه ، فقد أسقط (الإمام يحيى) بقوة قبلية وقاوم انقلاب عام ٥٥ لمجيئه على أكتاف عسكرية وتحت عمامة (إمام) ، فمن الجائز أن يكون (سعيد ذبحان) معبراً عن (الاتحاد) ومرتبطاً ببعض القوى القبلية ، وبالأخص قبائل خولان ، فقد أشاد (الاتحاد) بانتفاضة قبيلة خولان دون أن يصدر أي إشارة إلى حادثة (اللقية) أو مظاهرة الطلاب سنة ٦١ ، وفي انتفاضة خولان يقول الزبيري مقطوعة ثائرة :

المـلايين العطـاش المشـرئبـة   بدأت تكتسح الطاغي وصحبه

.. الخ

وقد انفجرت غضبة (خولان) على أثر فشل (سعيد ذبحان) واستشهاده عام ٦١ وقيل : إن (سلطان بيجان) كان يمدّ قبيلة خولان بالأسلحة على أمل سلاطيني في الشمال ، غير أن الأحداث كانت تتجمع كالسحب الحبالى حتى انفجرت كلها ليلة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ وجاءت هذه الثورة

العسكرية كصدىً شعبي لكل القطاعات اليمنية وعن تحالف بين المثقفين الثوار وبين أقسام من العسكريين ، لأن الثورة قد عمت كل الطبقات وكان الضباط من مختلف الطبقاب ، فأغلبهم من طبقات الفقراء وأقلهم من أبناء الطبقات الوسطى وأقل القليل تناسى عرقيته وارتبط بعمومية الشعب ، كان هذا الحدث التأريخي تتويجاً لكل الحركات لنقاوة شعبيته ولانفجاره من واقع الشعب بكل طبقاته وفئاته ، ولعل الأهداف كما أعلنت :

« ١ - التحرر من الاستبداد والاستعمار ومخلفاتهما وإقامة حكم جمهوري عادل وإزالة الفوارق بين الطبقات .

٢ - بناء جيش وطني قوي لحماية البلاد وحراسة الثورة ومكاسبها .

٣ - رفع مستوى الشعب اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً .

٤ - إنشاء مجتمع ديمقراطي تعاوني عادل يستمدّ أنظمته من روح الإسلام الحنيف .

٥ - العمل على تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة .

٦ - احترام مواثيق الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والعمل على إقرار السلام العالمي والتمسك بمبدأ الحياد الإيجابي وتدعيم مبدأ التعايش السلمي بين الأمم . » .

انتزعت هذه المبادئ شكليتها وروحها من خبرة الثورات ومن إرادة الواقع الجديد ، واستجاب الشعب للثورة كمعبرة عنه فماجت المظاهرات وقدّمت التنظيمات تأييدها المطلق إلى قيادة الثورة ، وكانت هذه التنظيمات من يسارين عربيين ومن يسار أممي ، وجرف الحماس جماهير الشعب من الشطرين إلى التطوع بالنفس ، فتشكّل الحرس الوطني من العمال والطلاب والمغتربين وكل قادر على القتال ، وأصبحت الثورة الراية المنسوخة من عروق القلوب ودم

البطولة ، وشارك (الاتحاد اليمني) في هذا التأييد بل شارك في مسؤولية القيادة ، فأصبح الأستاذ الزبيري وزيراً للتربية والتعليم ، وتقلد الأستاذ نعمان وزارة الحكم المحلي وشغل عبد السلام صبرة عدة مناصب وزارية كما شغل حسن العمري وزارة المواصلات عقب الثورة وعندما أعادت بوارق الحرب ذكريات العهود القديمة انبعث ماكان ميتاً فتساجل النار معسكران : الجمهوري والملكي ، وكالعادة لعبت بعض القوى القبلية على الحبلين وتمسك بعضها بالجمهورية عن اقتناع وبعضها بالملكية عن اقتناع ، وكما هو ملحوظ كان (الاتحاد اليمني) أميل إلى القوى القبلية من الأربعينات إلى الستينات ، ولعلّه كان يراها أقرب إلى أهدافه وأطوع لقيادته رغم ماأدّت التجارب من تناقض ، من منتصف عام ٦٣ تأكدت الصلة بين القبائل الجمهورية ورجال (الاتحاد) كردّ على طائفية (البيضاني) وكتقليم لأظفار العسكريين ، وسائر التنظيمات ، وكان لابد من شعار يتحرك في ظلّه (الاتحاد) فنادى إلى تشكيل مجلس للشورى على تخطيط الأربعينات متناسياً التغيرات ، وفي عام ٦٤ مثّل شيوخ القبائل ثلث عضوية (المكتب السياسي) الذي صار (الزبيري) من أعضائه وكان الشعار (جمهورية عادلة) ، وعندما تزايدت أعداد القوى المصرية رأت وجوب إشرافها على الكوادر الوظيفية ، لأن الحرب سياسة يجب أن يكون للمحارب فيها أهم الآراء في نوع رجال الحكم ، وأدى هذا إلى صراع طائفي خفي لأن أغلب مناوئي الوضع من مناطق شمال الشمال ، غير أن هذه المناطق كانت تمتاز بكثرة المحاربين بمقدار ماكانت تمتاز مناطق (تَعِزّ) و(تهامة) بكثرة القياديين الحزبيين ، وكانت القيادة المصرية تتوجّس من القوتين : من شراسة القبلية ومن طموح الحزبية ، وكانت الثورة المصرية قد حظرت الأحزاب القديمة وشكّلت أحزاباً جديدة وانتقلت من تشكيل إلى تشكيل : جعلت هيئة التحرير بديلاً عن كل التنظيمات وتطورت هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي لكي يصبح في الستينات الاتحاد الاشتراكي ، وأرادت نقل هذا الواقع حرفياً من القاهرة إلى صنعاء فتشكّل

(الاتحاد الشعبي الثوري) بصنعاء عام ٦٦ ودل هذا التشكيل على حذر القيادة المصرية من الحزبيين والمحاربين القبليين ، فاعتمدت في تشكيل (الاتحاد الشعبي) على المناطق الوسطى وبالأخص منطقة (رداع) كبديل غير كامل لأبناء (الحجرية) ، فأفرز هذا الواقع الذي تنامى من عام ٦٣ إلى خروج بعض الجمهوريين عن الجمهورية ، فدعا (الأستاذ الزبيري) إلى مؤتمر عمران ولم أخفقت قرارات مؤتمر عمران ترأس الزبيري المعارضة الصريحة في (برط) من نهاية ٦٤ إلى استشهاده في أبريل ٦٥ وظل الأستاذ نعمان (بصنعاء) كجسر اتصال بين كل المواقع ، ولعل فكرة الاتحاد اليمني قد انبعثت بكل تقاليدها ، غير أنها لم تتحقق في لجة الحرب ، فارتفعت دعوة السلام من قبل (الاتحاد اليمني) لكي يحلّ الحوار العقلي محل هدير السلاح ، وظلّت الدعوة تتردد بدون تمييز بين حرب وطنية وحرب استعمارية وبدون تمييز بين الوجوه الدفاعية والوجوه العدوانية ، فتألبت الريبة حول دعوة (الاتحاد) إلى حدّ اتهامه بإلغاء النظام الجمهوري وإبداله بنظام (دولة إسلامية) ، فكان الاتحاد قوة ثالثة من ٦٤ إلى ٦٥ حين قطعت رصاصة خائنة حبل الجدلية بإسكات قلب (الزبيري) في منطقة (برط) أبريل ٦٥ . . من هنا رفع (الاتحاد) دم الزبيري كقميص عثمان ولكن بدون معاوية وظل مرفوعاً حتى انقلاب نوفمبر ٦٧ وكان هذا آخر انبعاث لمبادئ الاتحاد اليمني فتشكّل المجلس الوطني عام ٦٨ كتمهيد لمجلس الشورى ثم تشكّل مجلس الشورى عن انتخاب إرهابي يكاد يتفرد بالهزلية في كل تواريخ الانتخابات وكان المعينون في هذا المجلس كأعداد المنتخبين على اختلافها تزييفاً ونقاوة ، وفي ذلك العام انبعثت فكرة إحياء (الاتحاد اليمني) وظلت تبدو وتختفي حتى غيَّر الشطر الجنوبي اسم النظام من جمهورية يمنية شعبية إلى يمنية ديمقراطية ، وهناك أعلن (الاتحاد اليمني) قيامه كردّ على تسمية اليمن الديمقراطية ، وكان الاتحاد الجديد خليطاً من حزب الشعب الاشتراكي والاتحاد اليمني ومن بعض كبار الضباط وبعض كبار الموظفين ، غير أنه ظلّ ساكناً لغيمية

المناخ وتخثر الفكرة واختلاط الوجوه وخوف ردود الأفعال ، وفي عام ٧٢ وصلت العضوية فيه حد الإجبار على صغار الموظفين والعمال والطلاب ، ورغم التركيز على دفع الحياة إلى (الاتحاد) فإنه لم ينبض له عرق ، لأن أكثريته متعددة الانتماءات والمصالح ، ولأن التشكيلات الأخرى كمجلس الشورى والمجلس الجمهوري اشتغلت بصراعاتها الخاصة ، فظلّ (الاتحاد اليمني) كهيكل من القش المنخور ، حتى أعلنت حلّه حركة ١٣ يونيو عام ٧٤ وكان هذا الحل كدفن أخير لهذا التنظيم الذي انطوت آخر صفحاته في سبتمبر ٦٢ ولم تكن صحواته المتعددة إلا كتحرك المخدَّر .

لهذا انتهى عام ٧٤ عن أربع وثلاثين سنة بذل فيها محاولات جادة وإذا كان لم يوفق في محاولاته فقد حقق أول هزة في صميم المياه الراكدة ، حتى تواثب الموج أصبحت تلك الحجر الهزازة مجرد ذكرى تستحق الدراسة والتقدير كأول تنظيم في تأريخ الحركات الوطنية ، مهما كان موقعه في الساحة اليمنية .

* * *

الفصل الخامس

حركات الفصائل

١ـ حركات الجنود .

٢ـ التيار الطلابي .

٣ـ موقع المرأة . . في واقع التطور الاجتماعي .

حركات الجنود

كما أن الزروع تينع بتأثير بعضها في بعض وبتفاعلها مع الطبيعة .. وكما أن البراعم والسنابل لاتبزغ دفعة واحدة ولاتبلغ الإيناع دفعة واحدة .. فكذلك الشعوب لاتنضج دفعة واحدة ، وإنما يسبق أفراد أو جماعات يؤثّرون على أفراد وجماعات ، لأن إمكانيات الإيناع والإنضاج متفاوتة بتفاوت المناخات العامة ، والمحصولات الثقافية ، والاستفادة من تأمل الظواهر ..

لهذا يبدو من المفيد دراسة كل فصائل الحركات الوطنية ، كيف بدأت ، وكيف اختلفت مجاريها ، ومن أين جاءت ، وأين التقت ؟؟

ولعل الجنديّة في بلادنا تختلف عن غيرها من بعض الوجوه : من حيث نشأتها الطبقية ، ومن ناحية انضباطها للقيادة ، وتأثيرها على القيادة .. فالمعروف أن الجندية طاعة عمياء ، تنفِّذ بلا سؤال وتتحرك بإرادة الانضباط .. على حين للجندية في بلادنا رأي ومواقف : قد تتّفق مع الفوْقيات ، وقد تختلف ، وقد تكون الطاعة عن اختيار ، أو عن اتفاق في الاختيار ، لأن الجندي - في هذه المرحلة التي تناولها هذا البحث - لم يكن من صنع التدريب ولا من صنع القسَم العسكري ولا من إعداد أي مرحلة من مراحل التعليم ، وإنما كان عسكرياً بالفطرة ، ثم عسكرياً بالنظامية .. فقد تكون له أوامره على آمره كما أشار (محمد الزبيري) عندما قاد عمه حملة عسكرية لاقتحام بيته عن أمر الإمام (يحيى) في مستهل الأربعينات :

غفرت لك الحيف الذي سمتني بهِ فما أنت جانيه ولا أنت كاسبه

لقد كنت فيما جئت قائد عسكرٍ   تصـرّفُـه فيمـا تـريـد كتـائبـه

إن أغلب الجنود : من أبناء الفلاحين الفقراء أو من أبناء العاملين ، أو من أبناء العاطلين . . أمّا أبناء المزارعين الكبار والمتوسطين فقد كانوا يفرُّون من الجندية ويرونها استراقاً للإنسان من ملكية نفسه ويوميات عمله الاعتيادي . .

لأنهم يملكون مزارع واسعة ، وأعداداً من الأغنام والمواشي متفاوتة الأرقام . . فخافوا من العسكرية ، لأنها تنتزع أيدياً من العمل ، ولأنها تجرِّئ الدولة على امتلاك النفوس ، إلى جانب ابتزازها الحق والباطل من الضرائب والزكوات ، وعندما تشكَّل الجيش النظامي في بلادنا عام ٢٣ من هذا القرن انسلك فيه أبناء الفقراء فترة بعد فترة . . وكان دافع هذا الانخراط : إما البحث عن القوت ، وإما الفرار من اضطهاد الشيوخ وسادة الأودية .

هذا بالنسبة إلى الجيش النظامي ، أما ماكان يسمى بجيش الدفاع : فقد كان تجنيداً إجبارياً على حسب عدد النفوس في كل بيت باستثناء المدائن ، وكان البعض يتجند لمدة ستة أشهر ، وكان البعض يؤجِّرون عن أولادهم إذا تم قبول التأجير . . ولكن هذا لايعدّ جندية ملتزمة ، وإنما هو من قبيل الاحتياط أو خدمة العلَم على التسمية الجديدة أو من قبيل حضور (الإمام) في النفوس وكانت المدارس معفية من التجنيد إلا بعد افتتاح الكلية الحربية عام ٤٠ لأنها لاتقبل إلا متعلمين لتخريج ضباط لأن الشعب كله كان يجيب داعي الحرب عند رفع كل نداء . . أما الجندية الباحثة عن ارتزاق عند ولاة المناطق والبلديات في كل مدينة فتمثل في (البرانية) وأمراءهم ، أما أمراء العكفة والقوة الخاصة بالإمام فقد كان هؤلاء الأمراء من أصحاب المكانة في مناطقهم يعززونها بالقرب من (مقام الإمام) . . وكان أغلب أمراء العكفة وحراس المقام من أبناء مشايخ الضمان ، يرهنون صغار أولادهم في سجون (الإمام) وقصوره ويقدمون كبارهم كعرائف في العكفة ونقباء برانية . . وكانت مهمة العكفة : حماية القصور ورئاسة

حماتها ، ورئاسة حماية السجون ، على أن هذه الفصائل لم تكن كالجندية التقليدية ، كالجنود النظاميين فقد كان النظامي ، يطلب الالتحاق بالجيش ، ويقدم ضماناً على سلوكه وسلاحه وملابسه ، ثم ينضم في أحد (البلوكات) (الكتيبة) ولايقبل بديل عنه ، وعلى الضمين إرجاعه إذا فرّ ، أو إبداله بسواه إن تعذر الرد أو تسليم ثمَنْ سلاحه إذا لم تتمكن الدولة أو الضمين من العثور على الهارب . . وكان سبب الضمان يرجع إلى فقر الجندي ، لأن جنود النظام في الأغلب من الفقراء الذين احترفوا الجندية لالتماس العيش وشغل الوقت وللاحتماء من سادة المناطق . . وكان المعروف أن الجندية تُعِزّ الذليل وترفع قدر الخامل ، بفضل المظهر من حمل سلاح وامتلاك لباس مميز على ملابس الفلاحين والرعاة .

لهذا توالت الأعداد الطالبة الانتماء إلى الجيش النظامي ، فقد كان الجندي يحمل بندقية وعدداً محدوداً من الذخيرة لايستعملها إلا في أقصى الضرورات ، أو في أوقات الحرب . . ومع هذا تبدّت للعسكري امتيازات على أمثاله في القرية ، لأنه يملك ثياباً أنظف وسلاحاً نارياً ، ويضمن دخلاً مرتباً من النقود والحبوب في كل شهر وكسوة وفراش في كل عام . . غير أن الجندي ظلّ على حاله الفلاحية . . فلم يستزد معرفة لانعدام الثقافة العسكرية ، ولم يتخل عن تقاليد قريته ، إلا لأنها تخلّت عنه .

لهذا ساد النظام العسكري لضعف التقاليد القبلية في معسكر النظام ، فقد كانوا في قراهم من الكادحين ، ولكن من الشجعان ، وقد أعدّتهم قسوة المعيشة ، وجبروت الكبار من قراهم للجندية ، فضربوا المثل في طاعة (الإمام) وقلة الانقياد للأمراء المباشرين ، فكانت تصدر الأوامر إليهم مصحوبة بأمر (الإمام) وعبَّروا عن مرارتهم بقهر مناوئي (الإمام) وانتزاف المواطنين ، لكي تنتفخ بطون الخزينة . . وكان يجد الجنود في (التنافيذ) على المزارعين

وعلى العصاة فرصة لإضافة دخل قليل إلى دخل أقل . .

وكان غياب السلاح عن غالبية الفلاحين ، يمكّن الجنود من تحقيق استغلال (الإمام) . وترسيخ مهابته وبالأخص في العشرينات فترة تأسيس الحكم الوطني ، حتى تميز الجندي برواية (الإمام) فاكتسب محبة الخوف من المزارعين ، وكان كل الجنود من أبناء المزارعين الصغار ومن البائسين ، أو من الرعاة الأُجراء وكانوا يتعرضون للقبض عليهم إذا تفشّت السرقات وقطع الطرق لأن (المقام) كان يطلب حصر من يسمونهم الأشرار عند كل حادث مجهول الفاعل . . فعرفوا مداخل التهديد ، ومواطن المهابة . . غير أن الجنود كانوا مضطرين لاثبات الولاء للإمام على الطريقة التي يعرفونها : أن يكونوا قساة أو منفِّذي قسوة ، وبالأخص في عهد التأسيس بعد الاحتلال العثماني ، فأخمدوا التمردات في المناطق حيناً معزَّزين بقوى قبلية وحيناً بقواهم الخاصة .

هكذا ظلّ الجندي يمارس هذا (الروتين) : من بداية العشرينات ، إلى أول الأربعينات . . وفي ذلك الحين استجدَّت دعوة إلى تطوير العسكرية تتجاوز الوظيفة الجندية للجيش التي كانت تتكوَّن من : الانتظام في الثكنات ، التجمع عند إعلان الأبواق كل يوم ، أداء التناوب في الحراسة ، الانتقال إلى المراكز ، الاستعراض الأسبوعي .

أصبح هذا الانتظام الوظيفي تقليداً ، وعندما أرادت دعوة تحديث الجيش أن تتجاوز المألوف لم تجد حماساً في الثكنات لمجيء هذه الدعوة من البعثة العسكرية العراقية : التي أرادت خضوع الجندي لقيادته المباشرة ، وتغيير ثياب الجندي إلى ملابس موحّدة أصلح للتحرك ، وتحسين وجباته اليومية ، وزيادة كفاءته العسكرية .

هنا أحس الجندي إمكانية التغيير ، أو اهتز اعتقاده فيما كان ، دون السؤال عن ماذا يريد ، لأن المعتاد قد سيطر عليه . . إلا أنه لم يغلقه عن تقبل

الأفضل ، وبالأخص الإنسان الفطري لأنه أسرع تقبلاً لبريق الجديد ، مهما كان تقبله فجاً ، وعن غير تصور مسبق ، لأول مرة يسمع الجندي بالتدريب ولأول مرة يسمع بالمطبخ العسكري وبطاعة الضابط ، فقد كانوا يحسنون الرماية بالبنادق بدون تدريب ، وكانوا يطبخون وجباتهم بالتناوب ويمضغون القات في ثكناتهم ، عندما يملكون ثمنه الزهيد يومذاك .

لهذا كانت دعوة مطبخ عسكري وتدريب أعلى من الطوارئ المعاصرة ، ولأن هذا كان طارئاً عليهم ، استطاع (الإمام يحيى) أن يجاريهم بتمادي المعتاد باعتباره الأفضل لأن الجديد جاء من خبراء عراقيين وأمثالهم وكان الإمام يحيى يحتاط من الخبرة الخارجية . . وبهذا شكّل حاجزاً بين الجنود وبين ضباطهم ، خريجي الكلية الحربية ، والعائدين من البعثة العسكرية ببغداد . . غير أن الجنود كانوا يشاهدون بعض تمردات قبلية ، وبرغم أنهم كانوا يخضعونها ، فقد كانت تؤثر عليهم تأثيراً يسيراً . . ولعل ضعف هذا التأثير يرجع - إلى نوعية المتردين - ، فقد كانوا في ذلك الحين من الشيوخ وأتباعهم ، وكان أغلب الجنود من الموتورين على تسلّط هؤلاء لمرارة ما كابدوا منهم قبل جنديتهم .

لقد ظل الجنود في معسكري (صنعاء) و(تَعِزّ) وسائر المراكز ، مجرد أدوات قمع وكانوا في كل هذه المراكز كقبيلة واحدة ، من شتى العادات ، ولكن من طبقة واحدة ، أو من طبقات شديدة التقارب . . وقد كانت النظامية مصدر اعتزازهم ورزقهم ، ومصدر حمايتهم من سادة الأودية والمواشي .

صحيح أن بعض الأفراد من طبقة وسطى عرقياً ولكنهم اقتصادياً من طبقة الكادحين المسخَّرين .

لهذا ظلوا أمناء على معتادهم ، وظلّ الطامحون في الإصلاح على خوف منهم ، أو على غير أمل في جدواهم لأن الاصلاحيين يومذاك من الطبقات العليا .

فعندما قام انقلاب عام ٤٨م لم تُسند إليهم القيادات أية مهمة مباشرة ، حتى عند الاضطرار إليهم لضبط الأمور في العاصمة يوم الانقلاب ، مارسوا دورهم عن أمر منتحل باسم (أمير الجيش النظامي) الذي التزم بيته ، حتى يرى كفة من أرجح ، كما هي عادته وأمثاله عند الأحداث .

لقد لحظ الجنود بأن شيئاً ماقد حدث وعزز هذا الحسّ قرار زيادة مرتباتهم من ستة ريالات إلى خمسة وعشرين ريالاً للفرد ، ولعل هذه الزيادة المفاجئة ، وزّعت نفوسهم بين الفرحة والشك ، ككل مفاجئ لم يسبقه احتمال . . وحتى عندما أبدوا تأييدهم للحركة لم يطمئنوا إليها كلياً لثلاثة أسباب :

لتمادي الاعتياد ، لقتل الإمام (يحيى) على يد جماعة من الشيوخ ، لغرابة بعض الوجوه في الحركة من أمثال : الفضيل الورتلاني الجزائري ، عبد الحكيم عابدين المصري ، الجماعة الفدائية الوافدة من مستعمرة عدن .

هنا أحسّ الجنود نفوسهم بدون فاعلية في وقت الانفعال والفعل ، وكانت هذه الهزّة الثانية في نفوسهم ، إلا أنها كانت أقوى من هزة تغيير الملْبَس والمأكل والتدريب ، لأنهم رأوا قائماً يسقط وكانوا حماته ، وقاعداً يقوم كانوا أولى بتنصيبه ، أو بالرأي في تنصيبه ، وبالأخص أن أكثر أتباع (الإمام الجديد) من رجال (الإمام القديم) ، فهم يعرفون الآتي كمعرفتهم الذاهب ، فقد كانوا حماة البعض من القائمين قبل قيامهم ، فهاج في نفوسهم نزوع التحرك مع أي أحد ضدّ أي أحد . . غير أن هذا النزوع انكبت مؤقتاً ، ولكن في ترصّد سانحة ، لأن (الإمام الذاهب) قد أقام حاجزاً نفسياً بينهم وبين ضباط الكلية والبعثة العراقية التي وفدت في مطلع الأربعينات برئاسة العقيد (إسماعيل صفوت) ، فلم تكن بينهم أية علاقة عملية عند الإعداد للانقلاب ، وأوان تنفيذه فأحسّوا غربتهم بين المتحركين ، واستعادوا صورة دعوة التغيير ، التي ترددت في مطلع الأربعينات ،

وتوجّسوا من تطبيقها على أيدي أناس غير معروفين طرؤوا على السلطة الجديدة كما شكوا في استيعاب الطوارئ المنتظرة ، لأنهم وإن نبوا عن قراهم لم يتخلصوا من تقاليدها ، لأنهم انتقلوا من روتين تركي ، له جمود التقاليد القبلية ، وإن اختلف عنها . . فتلك التجمعات في الصباح والمساء والاستعراض في كل جمعة ، وتناوب الحراسات . . كل هذه الأعمال يعتادونها بشكل آخر : كرعي المواشي ، وبذر الحقول ، وحصد الزروع وحراسة الأجران وحقول القات ، لأن تلك كانت أعمالهم بالأصالة أو بالنيابة عن سادة الأرض . . وعندما انتظموا في الجيش ، انتقلوا إلى شبه المعتاد لاإلى نقيضه ، ولا إلى الأفضل منه ، إلا بالعيش المرتب وأبّهة الدولة . . وعندما حدث الانقلاب تجددت المخاوف عندهم من بديل عنهم لأن سلطة الدستور بدأت تسلّح طلاب المدارس وأغلبهم من طبقات وسطى وعليا وتسلّح وتموّل بعض الشيوخ ، فبدؤوا يشعرون أنهم قوة يمكنها الإسقاط والتتويج ، إلا أن هذا الشعور لم يتبلور ، فأدّى غموضه في الباطن إلى قيامهم بأي تحرك .

لهذا استجابوا للإشاعات عن الانقلاب ، وعن الزاحف لإسقاطه ، فتسقّطوا الأخبار عن الأمراء السجناء بصنعاء والسيوف الزاحفين من (حجّة) ، حتى أن حراس الأمراء في سجنهم أطاعوا أوامر سجنائهم فشكلوا جسراً من التفاهم بينهم وبين مدفعية قصر السلاح وبمقتضى هذا قصفوا مقرّ (الإمام الجديد) بالقصر ، وأشعلوا النيران إيذاناً بانتصار (أحمد) وأسقطوا الانقلاب ، قبل دخول القوى القبلية التي عسكرها السيوف من إخوة الإمام الجديد .

وبهذا اتّقدت حركة الجنود مع الجماهير فقبضوا على الكثير واستعدوا لتنفيذ الأوامر الجديدة ، وامتدت هذه الاستجابة إلى كل المراكز ، بل إن بعض المراكز ناوأت الانقلاب من بدايته كمعسكر (صَعْدة) و(حجّة) إلى جانب أفراد من معسكرات متعددة .

لقد كانت هذه الانتفاضة ضد الدستوريين ، أول حركات الجنود . . فهل كانت بمعزل عن نظاميتهم وفلاّحيتهم ؟

لقد كانوا معبِّرين عن الجندية والقرية معاً لأن القرى التي جاؤوا منها ، أنكرت الحادث ، والجندية التي انطبعوا عليها ، أنكرت الحادث أو رأت غيابها عنه ، ولم تحقّق زيادة المرتبات ولاءهم ولا وقوفهم إلى جانب الانقلابيين ، لأن الشك النفسي أجج فيهم نزوع التحرك وتوقع انقطاع تلك الزيادات في ذلك الهيجان الذي أوحى بعدم ثبوت تلك السلطة الانقلابية ، ووجَّهت العوامل الخارجية هذا النزوع ، لأن ضجيج الخارج وبريقه ، يخرجان الإنسان عن طواياه ويربطانه بالإيقاع والهدير .

لقد كانت حركة الجنود ضد الانقلاب ، أول تحرك مهما كان عكسياً ، فإنه يؤدي إلى غيره . .

كانت الأخبار تتردد من منتصف العشرينات إلى آخر الأربعينات ، عن التمردات القبلية برئاسة شيوخ أو أشباههم : (كالرصّاص) في البيضاء و(الدباغ) في دمت ، و(القردعي) في حريب وشبوه ، وعن إخضاعها عسكرياً ، ولم يتردّد خبر تمرد معسكر أو مغامرة جندي ضد النظام . . وفي مارس عام ٤٨ سجل الجنود حركة ضد الانقلاب الذي أغدق عليهم من أول أيامه ، وجاروه في حذر وانتظار . . وربما كان ذلك الإغداق سبب الشك لأنهم ظنّوه ثمناً لولائهم أو مغالطة لغايات تعاكس مصالحهم مستقبلياً ، لهذا عاكسوا حركة الدستور وشعروا بعدها بقدرتهم على التحرك العسكري ولو في شكل تمردات تجريبية . . وعند أول الحركة استجابت نوازعهم الدفينة إلى التحرك . . .

من هُنا دخلت الجندية خطّاً جديداً ، تواصل فيه حوار الداخل بنفسه ، وحوار الداخل بالخارج . . فبدأت التمردات الصغيرة في بعض المعسكرات ،

وأخذت بعض الأفواج العسكرية ترهب الفلاحين لمصلحتها ، لا لمهابة (قصر تَعِزّ) . . وأدّى هذا النثار من الأحداث إلى حادثة قرية (الحوبان) بلواء تَعِزّ عام ١٩٥٥ فقد اقتحمها الجنود وأعملوا في أهلها الضرب وفي بيوتها النهب ، وفي مواشيها الذبح لأن أحد الجنود تعرض للإهانة في تلك القرية لاحتطابه من حميً ممنوع ، فانتقم الجنود لنفوسهم من تلقاء أنفسهم ، ويقال أن وراء هذا العمل تفكير سياسي ، لاستفزاز الشعب ، أو لتحريك المياه الراكدة . . وربما كان (الإمام أحمد) على علم بما وراء الحركة ، فأراد تأديب الجنود ، فأشعل النار في الفتيل ، وكان أول المتحركين والمفجِّرين (بلوك القناصة) ثم تضامن معه جيش - تَعِزّ - وأراد (المقدم أحمد الثلايا) استغلال تلك الغضبة لهدف أعلى ، وأراد (عبد الله) شقيق الإمام أن يمتطي الحدث إلى العرش .

فهل كانت غضبة الجنود حركة أو متحركة ؟

لقد كانت أول حركة هادفة مهما كانت مسبباتها ، لكنها تنتمي إلى التحرك العكسي في مارس ٤٨ ، فقد أحسّ الجنود قدرتهم على إقعاد القائم وإنهاض القاعد بدليل قدرتهم على إسقاط (إمام) شباط ٤٨ بعد أقل من شهر من تأريخ تولّيه .

فهل كانت حركة الجنود بمعزل عّن تيار الحركات الوطنية ؟

لقد كانت وثيقة الصلة بكل التدفقات الأحداثية ، فقد أسقطت وضع شباط بصنعاء ، فأثار هذا فيها إلحاح الشك عن صحة مافعلت ، وأثار إلحاح التساؤل عما تفعل ، فكانت تلك التمردات الصغيرة تعبيراً عن الإرادة وعن غموض المراد ، حتى تفجرت كل المكبوتات في غضبة مارس عام ٥٥م بتَعِزّ .

لقد كانت تلك الحادثة حركة جنود ، ولقد كان إسقاطها على أيدي جنود ، فكان الجنود التحريك والتسكين ، أو الاشتعال والإطفاء . . فقد أسقط

معسكر (القاهرة التعزية) بقذائف المدفعية حركة جنود (العرضي) عن أوامر (الإمام) ، الذي أعلن تنازله عن السلطة كتابياً تحت ضغط النار ودبّر عملياً إطفاء النار بالنار .

فهل كان معسكر المدفعية كالجنود في شباط على غير علم بما حدث أو سوف يحدث ، فوقف إلى جانب الذي أراد الجنود خلعه ، وما في أيديهم أسلحة ثقيلة ؟

كان هناك عدة مؤثرات خارجية وداخلية ، فقد تفجرت انقلابات عسكرية في بعض الأقطار ، وأثارت الاهتمام والتنبيه في الداخل ، وأنهت أكثر المسلّمات في نفس الشعب ، وفي نفوس الجنود كجزء من الشعب .

بعد فشل ٥٥م بتَعِزّ أطبق الذهول ، ولكن مدة أقصر ، كالعادة بعد كل إخفاق . . فلم يكد يمر عام واحد حتى هاجت النوازع القديمة مبطّنة بدواع جديدة ، فقد امتلأت المعسكرات بالتساؤلات والجدال عن سبب ضرب بعضهم ببعض ، بعد أن كانوا أداة واحدة . .

ولماذا لايصبحون قوة واحدة كما سمعوا عن الجيوش ؟ وبالأخص بعد قيام ثورة مصر العسكرية .

وتنامى هذا الحسّ حتى انفتحت الكلية الحربية مرة ثانية عام ١٩٥٨ وجاءت أسلحة جديدة أكثر تعقيداً .

هنا فطن الجنود بحاجتهم إلى الضابط والمدرّب والنظام المطاع ، ولم يستقبلوا هذا التغيير كمحاولة تغيير أول الأربعينات بالشك ، بل تأكدوا من الضرورة إليه ، بفعل تغيرات الخارج واستقبال الداخل . . فبعد سنة من التدريب على الأسلحة الجديدة ، شعر الجنود بالتهاب نوازع التحرك وباتّقاد الشعور بالكرامة ، فتلاوموا فيما بينهم على الهوان الذي يعانون ، وبالأخص الجنود

المسخرين لحراسة القصور ، وشدّ البغال ، وخدمة الدُّور المنعمة على شقائهم وهوانهم ، وكان هذا امتداداً متطوراً لتذمرهم من اضطهاد كبراء عشائرهم قبل التجنيد .

لقد اشتدّ الشعور بالجندية وكرامتها ، وأصبح قبول الاشتعال أشد وأقوى ، وبمجرد رحيل (الإمام أحمد) للاستشفاء في (روما آخر الخمسينات) تفاقم التذمر والحسّ بالتحرك في الثكنات إلاَّ أن فترة العلاقة بين الجنود والضباط ، كانت قصيرة المدة لاتلغي التعقدات القديمة ، فتحرك الجنود بلا قيادة انضباطية ، فأشعلوا بعض دور المسؤولين في صنعاء وتَعِزّ ، لكي يواجه الضباط الواقع ، فيتحملوا واجبهم القيادي ، مستغلين غياب (الإمام) مستضعفين ولي عهده محمد البدر . . إلا أن تلك الغضبة على حدَّتها وتوحّد الجنود فيها ، لم تجد تقبل الضباط لمهمة قيادة الثورة . . ولقد كان الجنود يطالبون الضباط بإلحاح أن يقودوهم لإنهاء الوضع الإمامي ، ولكن لم تستجب لهم جماعات الضباط العاملين أو الذين تعدّهم الكلية للعمل . . وكانت الشكوك من الجيش ضباطاً وجنوداً تتطور في نفس الحاكمين ، قياساً على ماحدث في الخارج ، واعتباراً لتغير الداخل .

هنا لجأ (البدر) في غياب أبيه لاستدعاء الشيوخ المحاربين لإخماد حركة الجنود متجاوزاً ضباط الجيش ، لتوجّسه منهم ، ولقد لاقت هذه الدعوة رغبة عنيفة في نفوس الشيوخ ، لخوفهم من استيلاء الجنود على السلطة ، فاعتبروا حماية الإمامة ، حماية لمكانتهم من تحركيين يرونهم دونهم مكانة ومالاً ، حتى أن جلسات الشيوخ كانت تؤكد على ضرورة هزيمة هؤلاء : (الذين كانوا رعاتنا وأجراءنا) على حدّ تعبيرهم .

هنا تبدّى وجه من وجوه الصراع الطبقي يعتمد على العرقية ، والقواعد الوراثية والمكانة الاقتصادية . . وإلى جانب هذا تبدى طمع الشيوخ في السلطة ،

استناحاً للفرصة وسبقاً لمن سموهم رعاتهم .

لقد أخفقت الحركة الثانية للجنود ، وكانت حركة ٥٩ مختلفة عن حركة ٥٥ لم تسبب الحركة الأخيرة (حوبان ثانية) ولم يرتكب الجنود أي دموية ضد المواطن ، ولم ينهبوا من تلك القصور أي شيء ، وإنما اندفعوا عن وطنية أجّجتها عوامل ثورة فقدت القيادة . . ومجرّد الشعور بضرورة القيادة ، يدل على اختلاف النفسية ، لأن مغايرة الأسلوب ، دليل تغيير الباطن .

لم يتّقد الهياج في معسكرات الجنود ، كما اهتاج آخر الخمسينات ، فقد تأهبوا جماعياً للثورة واستعدوا حتى لمقاتلة قباتلهم إذا استدعى الأمر ، ويؤكّد البعض أن ضياع تلك الفرصة من أيدي الضباط ، تسبب في بعض مشاكل سبتمبر ٦٢ وليس معروفاً إلى الآن : لماذا لم يستغل الضباط الذين ثاروا في سبتمبر تلك الغضبة الجماعية ؟ مع أن استغلال حماس الجماهير أهم عوامل الحسم ، ومع أن الحسّ بالثورة كان قوياً عند الضباط !

لقد أدّى إخفاق هذه الحركة إلى إسكات وساوس الطموح في نفوس الجنود ، كما ساءت ثقتهم بالضباط بعد الشيوخ . . وعاد الإمام من (روما) فاستغل تمزقات الجنود ، وأكد السوء القديم في العلاقة . . ومضت الدعاية الإمامية تسفّه حركة الجنود . عن طريق بعضهم ، وعن طريق أشباههم من الفلاحين ، باعتبار هذه الدعاية أنجح .

بعد فشل الحركة بدأت حركة الضباط . ولكن على حذر من الجنود أو من أكثرهم ، حتى أن - (عبد الله اللقية) وزميليه - وهم ضباط في الجيش باشروا إطلاق النار على (الإمام أحمد) عام ٦١ ، دون أن يستعينوا بأي جندي ، حتى للحماية أو الاستطلاع بل كانت خطتهم في منتهى السرّية ، حتى تبدى التنفيذ كمفاجأة . . وكما أخفقت حركة الجنود عام ٥٥ و٥٩ . . أخفقت حركة ضباط

مستشفى (الحديدة) عام ٦١م . لأن الجنود في الحركة الأخيرة بلا ضباط ، ولأن حركة الضباط بمستشفى الحديدة بلا جنود ، غير أن الجنود لم يعودوا كما كانوا من الطاعة للإمام (أحمد) فعندما تفجرت مظاهرة الطلاب والجماهير عام ٥٦ تأييداً لمصر ضد العدوان الثلاثي لم يعنفوا عليهم بل كانوا متجاوبين إلى حدّ ما ، وعندما تدفقت مظاهرة الطلاب عام ٦٢ كان العساكر كمتفرجين فلم يطلقوا النار إلا على الذين أرادوا اقتحام الإذاعة .

وعندما انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ كانت نفسية الجنود شبه مشتتة لكثرة ماتنازعتها الرياح ، فقد حاولت وأخفقت مرتين وجربت سادة الأودية وسادة النجمات مرتين . . ولكن هذه الرياح على تعاقبها لم تخمد كل شيء في نفسية الجندي ، فقد ظلّت الجمرات تتقد وتنطفئ لكي تتقد وترفع لهيبها في صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر .

من ذلك اليوم تعددت خنادق الجنود ، ورفدتهم أمواج الثورة بأفواج تلو أفواج ، فتجند إلى جانب الجيش آلاف المتحمسين من شباب المدارس . وعمال المقاهي والمطاعم . . فاعتنق الحماس بالحماس ، وتفجرت الثورة من الثورة . . . فبعد أن كانت غالبية الجنود من مناطق معينة . أصبحت كل المناطق جنود الثورة .

جاءت الافواج المعبأة بالنار : من عَدَن ، وحجة ، من تعز وآنس ، من لحج وخولان ، من إب وعتمة ، ولم يشعر الجنود النظاميون بأن هذه القوى بديلة عنهم كما أحسّوا في ٤٨ وإنما أحسّ أغلبهم بأن هذه القوى مدد لهم .

أصبح كل شارع مسلّح ، وأصبحت كل ربوة شلالات قذائف . . ولأن الثورة كحدث من أعظم الأعمال لابد أن تؤلّب عليها الأخطار لكي تتجاوز خطورتها ، لأن عنف الموج يخلق أمهر السبّاحين .

لقد شكلت المؤامرات على الثورة أشق امتحان فميزت الثوري الأصيل من الثائر بالعدوى ، والثائر على نظرية من الثائر على منفعة ... فرأت عيون الشمس الفاضحة : من باع نفسه كالنعاج ، ومن اشترى سيادة الوطن بالدم .. فسجّل أغلب جنود الحرس الوطني لكل ذرة ملحمة حمراء ، وسجّل أغلب جنود النظام لكل حصاة ملحمة وردية ، لأن الثورة قد أشعرت كل الجنود بالثقة فانضبطوا عن ولاء للوطن ، وعن إرادة للثورة وبالأخص أنهم شاهدوا أكثر مستغليهم من الشيوخ في المعسكر الملكي .

لقد شعروا بالانتصار ، بعد محاولات وإخفاق فتعددت مواقعهم وتوحّد الهدف ، تنوعت الأسلحة والاختصاصات .. فبعد الجيش (الدفاعي والاسكي) وبعد (السوارية والنقلية والبرانية) تشكّلت قواتنا بعد الثورة : من مشاة ، وبحرية ، وطيران ، ومدرعات ومدفعية ، وإشارة ومظلات ، فكونت الثورة جيشاً متكامل الجندية ... متكامل الأسلحة وقيادة الأسلحة .

وهذا بفضل الثورة التي عبّدت طريقها حركات الجنود على طول الخمسينات ، إلى جانب حركات الطلاب ، وحركة المثقفين .. إلا أن حركة الجنود كانت مباشرة دموية ، ترتب عليها دماء وضحايا .

صحيح أن كثيراً من المثقفين كتبوا بدمائهم ، إلا أن ضحايا الجنود في حركات الإرهاص ، وفي حروب الثورة : كانت أكثر عدداً ، وأغزر دماءً .. فلشهداء كل الفصائل من كل الحركات أعطر الذكر وللإحياء أمل النصر ، وهناءة الغد .

* * *

التيار الطلابي

لقد اهتمت كتاباتنا بتأريخ حركاتنا الوطنية ، وكان بعضها دعائي وبعضها إحيائي ، كما كان بعضها تسجيلي وبعضها تفسيري ، وجمع بعضها بين التسجيلي والتحليلي في كتابات السبعينات ، بيد أن هناك تياراً حار الاتصال من حركة إلى أخرى لم تلمسه كتاباتنا بالتخصيص : كتأريخ متّسم بالطرافة بالقياس إلى ثورية الشباب العالمي التي تبدت من أول السبعينات إلى منتصفها معضلة اجتماعية وإنسانية استدعت الدراسات المتعددة بتعدد خيوط المعضلة ، أما التيار الطلابي اليمني ، من مطلع الأربعينات إلى السبعينات ، فقد كان أقوى توهج الحركات وأحرّ نبضاتها في تلك الفترة المطبوعة بالتفجر الشعبي ، واليوم في أول الثمانينات التي صدر فيها هذا الكتاب ونحن نسمع الكثير عن ثورات الطلاب وتمرد الشباب بصفة عامة . . يحلو الالتفات إلى الحركات الطلابية في بلادنا كأعمدة ضوئية لِعَلَم الثورة . . وكأنهار نارية على طول الخط التحركي . . وقد تكون الكتابة حول هذا الجانب الطلابي أوفر دواعي اليوم ، بفضل الدراسات العديدة حول ثورات الشباب في العالم ، وحول أسباب التمرد الشبابي كظاهرة من صراع الأجيال ، وكميزة من ميزات الشباب ، لأن الإنسان الشاب أقوى صلة بالإنسان الطفل ، ومن المعروف علمياً أن الطفل شديد العداء لرتابة الأوقات والأشياء . وهو يعبِّر عن هذا العداء بكسر الأواني ورفع الصراخ وتحطيم الأشكال المنسجمة ، وهذا تعبير ثوري بدائي لتمزيق الرتابة وتفجير الهدوء ، لأن الطفل يشعر بثقل وطأة السَكيْنة الرتيبة فيحاول أن يهدم جدرانها بأي وسيلة في متناوله ، وإذا لم يجد ماهو قابل للكسر والنقش والتمزيق عوَّض

النقص بالعدوانية على الأنداد أو الحيوانات أو الكبار ، وإذا لم يتوفّر فيه النزوع العدواني كان الصراخ والبكاء أقرب الأسلحة إليه ، وهذا هو السرّ الثوري كالنبات المخلوط بتربة الأرض ، أو كماء السحاب الممزوج بالألوان الترابية .

إذن فالإنسان ثائر بطبعه ، وإنما تتنامى ثوريته مع نمو غصنه وترقّي ذهنيته ، فعندما يصل الإنسان الطفل إلى العشرين يتحول عناده الطفولي إلى التوتر والقلق ، فيطمح إلى تغيير كل قائم ، لأن ثوريته قد تهذبت وتفكّرت ولمحت أول طريقها وأول إيماءات غاياتها . . وهنا تتحول طبيعة تحطيم الآنية إلى فكرة تحطيم القيود وخلع النير وتجاوز الواقع السيئ ، لأن الشباب قد انتقل من أنايية الطفل إلى جماعية الشباب بفضل تفاعله مع رفاق الملاعب وزملاء المدارس وعطايا الدروس .

لهذا تتسم ثورة الشباب بالتواصل الحار وبالنشاط الذي لايهدأ ، لأنه عجول الغاية وقوي على التحمل . . وقد كان شبابنا الطلابي من مطلع الأربعينات مختلفاً عن شباب العشرينات والثلاثينات التي كانت أهم صفاته عدم التدخل فيما لايعنيه على حد تعبير الآباء وأساتذة ، لأنه أحسّ نفسه معنياً بالوطن بتأثير بواكير الثقافة المعاصرة ، فبدأ يخوض عدة ميادين نضالية ، كان يوزع المنشورات الوافدة من (عَدَن) ويواصل الدراسة ، ويتلمس آثار دعوة الثورة الدستورية في مجاميع القات والأسواق ، وكان أشق عمل يمارسه هو حمل الرسائل الداعية إلى الحركة الدستورية من (صنعاء إلى تعز إلى مراد إلى إب إلى بعدان إلى زَبيد) ، وكانت الحمير والأقدام هي وسائل المواصلات في ذلك الحين ، وربما كان يؤدي توصيل الرسائل إلى عَدَن إلى أشق الخطورات ، لأن الداخل إليها من الشمال مرقوب إذ ذاك ، وكانت هذه المناشير وهذه الرسائل تحتاج إلى تستّر شديد ، لهذا شاركت المرأة في هذا المجهود في المسافات القريبة وفي المدن بصفة خاصة كما سيأتي تفصيل هذا في بحث التيار النسائي ،

إلى جانب هذا فقد كان طلاب دار العلوم ينشرون التوعية الهامسة في بيوتهم وفي عواصم الأقاليم حين تتاح لهم فرصة الخروج لامتحان المدارس في سائر المناطق الريفية ، وكان الذين يقومون بمهمة الامتحانات آخر كل عام هم طلاب (الشُعَبْ العليا) من دار العلوم من الشعبة السابعة إلى الثانية عشرة ، وكان هؤلاء أكثر وعياً وحماساً للثورة الدستورية باستثناء أفراد قلائل وصل إليهم التيار المتعالي إذ كانت تؤثر عليهم العدوى من جهة المتحمّسين عن أصالة ، لأن السنوات الأخيرة من الأربعينات بلغت ذروة الغضب الطلابي . . وعندما وقع انقلاب شباط ٤٨ زاول هؤلاء الطلاب أدوارهم بكل استبسال فثوّروا الجموع بالخطابات الحماسية والقصائد الإيقاظية التي كانت تُنشَر خارج اليمن ، ثم انتقلوا إلى ميدان الفعل فحملوا البنادق وتعسكروا حول أسوار صنعاء ، فأصبح طلاب الثانوية وطلاب دار العلوم وطلاب الصحة وطلاب الإشارة أصبح كل هؤلاء معسكراً واحداً مختلف المواقع والقيادات لكي يكسروا الحصار عن العاصمة ، إلا أن خبرتهم في استعمال السلاح كانت غير كافية أمام قوة الحصار المدربة ، وأمام الخيانة من الداخل . . لهذا سقطت العاصمة في شهر مارس فدفع زعماء الطلاب ضريبة الحماس ، فمنهم من استشهد كعبد الله محمد الوزير ، ومنهم من كابد السجن كعبد الملك الطيب وعلي البوني وعلي الواسعي ، ومنهم من لاذ بالفرار كأحمد الخزّان وحسين عثمان الوزير وحسين المقبلي ، وكانت حركة ٤٨ قوية الاعتماد على الطلاب وبالأخص طلاب دار العلوم والكلية الحربية لكون الأولين من أبناء الطبقات العليا والوسطى ، ولكون الآخرين القوة العسكرية الواعية ، وذلك منذ نشأت فكرة الحركة الدستورية من أول الأربعينات إلى قيام الدستور ١٨ شباط ٤٨م إلى سقوطه في ضحوة آذار .

لقد كان طلاب دار العلوم والثانوية أصدق جنود ثورة ٤٨ وأحسّهم تقبلاً لها وتوعية عنها إلا أن طلاب تلك الفترة لم يشكّلوا جمهوراً عريضاً ، فلا

يتجاوز طلاب الثانوية مئتي طالب ولايتجاوز طلاب دار العلوم ثلاث مئة طالب ، إضافة إلى هذا أن طلاب دار العلوم كانوا ينظرون إلى غمار الجماهير نظرة دونيَّة ، فهم في مفهومهم : قبائل جَهَلة أو أولاد سوق ، ولابد أن أربعين في المئة من مجموع الطلاب غير متحمّس عن أصالة ، لأن التيار لم يهزّ الوسط الاجتماعي كلياً ، ولأن زعماء الحركة اعتمدوا على البيوت العالية وعلى قلة من الأفراد النابهين ، مهما كانت النظرة قصيرة في ذلك الحين عند القيادة والقواعد . . فإن الحركة الطلابية كانت أروع ظواهر ثورة الشباطيين التي كانت هدف سخط جماهير العاصمة مهد الحدث ، وهذا يستدعي قراءة الخلفية الثقافية والذهنية لطلاب الأربعينات . . لقد كان منهج الثانوية لايصل إلى مستوى إعدادي اليوم ، إلا أنه كان لايخلو من معاصرة بفضل استنارة الأساتذة من أمثال (أحمد الحورش وأحمد البراق) وبعض أفراد البعثات التعليمية من مصر وسوريا وفلسطين ، وقد كانت الثانوية تتأجج بالحماس الأناشيدي على انخفاض مستواها الدراسي ، وكانت الأناشيد القومية أبهى جمرات حسّها الثوري من أمثال (بلاد العُرب أوطاني) (أيها الخفّاق) (شمائل الهدى تنير حكمة الوطن) وكانت هذه الأناشيد وبعض المحفوظات الشعرية هي الزّاد الثقافي المختلف لطلاب الثانوية والمتوسطة ، أما طلاب دار العلوم فقد كانت دراستهم تتنفس برد القبور ورتابة القواعد والأمثال ، فلا يمكن أن يتمخض عنها حسّ مستقبلي لأنها كانت معلَّبة من مئات السنين بدون تأليف جديد يضيف إليها ويمدّ تطورها ، لأن منهج دار العلوم كان مجرّد حفظ مسائل جاهزة في العبادات والمعاملات ، في النحو الصرف والبلاغة ، في أصول الدين وفي أصول الفقه ، إلا أن هذا التراث وقع في مناخ قابل للتأجج ، فكّون أساسيات لتقبل الحديث وإمكانيات التحديث وبالأخص عند النابهين ، لهذا أمكن الانتفاع بأوائل الكتب والدواوين الجديدة بفضل الأصل اللغوي والبلاغي ، غير أن الّذين تفاعلوا مع جِدّة هذه الكتب هم المتفوقون وذوو الاستعداد ، فإذا كان (الوريث) وزملاؤه في آخر الثلاثينات

وهم قدوة طلاب الأربعينات - قد تفاعلوا بمؤلفات العشرينات والثلاثينات لكثرة القراءة والتفهم ، فإن طلاب الأربعينات لم يستفيدوا جيداً من أوائل مؤلفات طه حسين والعقاد والرافعي وشوقي وحافظ والشبيبي والكاظمي ، ومن تمرديات (جبران) وقوميات (الريحاني) لاختلافها عن فهمهم ولبعدها عن مستوى طلاب الثانوية والمتوسطة ، وإذا تذكّرنا الشرارات التي اتّقدت في وجدان طلاب الأربعينات فسوف نجدها في عدد محصور من القصائد وأبرزها ثلاث : قصيدة العلى والمعالي . . للشريف الرضي ، قصيدة الديمقراطية لمحمد الأسمر ، قصيدة آلة السلاطين للرّصافي . . كانت هذه القصائد الثلاث تجري مجرى أنفاس طلاب دار العلوم ، إذ كان حفظهن وترديدهن علامة النجابة ودليل الثورية وآية المعاصرة .

لهذا كانت هذه القصائد أقباس الحسّ وشعلة الحماس ، وكانت الخلفية البهيّة لثورة طلاب ذلك الحين ، وفي الإمكان تلمّس السبب من نصوص القصائد وملاءمتها لذلك الظرف على تباعد أمكنتها وأزمانها ، وكانت قصيدة الشريف الرضي - من شعراء القرن الرابع هجري - جذوة من الحماس الطموحي إلى الخلافة ، وكانت بركاناً ثورياً على الحكم العباسي ، وكانت تتّقد بالشجاعة والمغامرة لأنها نشيد حربي علوي :

نبهتم مثل عوالي الرماحْ	إلى الوغى قبل نموم الصباحْ
فوارسٌ نالوا المنى بالقنا	وصافحوا أغراضهم بالصفاحْ
لغارة ، سامع أنبائها	يُغض منها بالزلال القراحْ
ليس على مضروبها سبةٌ	ولا على المجلب منها جُناحْ
دونكُمُ فابتدروا غنمها	دُميً مباحات ومال مباحْ
فإننا في أرض أعدائنا	لانطأ العذراء إلاّ سِفَاحْ
لابد أن أركبها صعبةً	وقاحة تحت غلام وقاحْ

يجهـدهـا أو ينثنـي بـالـرَّدى   دون الذي قُدّر ، أو بالنجاحْ
إمـا فتـى نـال العُـلا فـاشتفـى   أو بطلاً ذاق الرَّدى فـاستراحْ

وكـانت هـذه القصيـدة أنجح التعـاويـذ مـن الجبـن وأسـرع الأجنحـة إلى المغامرة ، وقد استظهرها كل أديب وكل متأدّب ، لأن طلاب دار العلوم كانوا ينشدونها في كل مناسبة وبلا مناسبة ، وكانت تحمل تصريحاً من اسم شاعرها (الشريف الرضي) أشعر العلويين أو القرشيين قاطبة ، لأنه نقيب الأشراف وجامع نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ، فرواية أعماله الأدبية منسجمة مع رغبة السلطة يومذاك ، لأن التشيّع كما نعرف أساس الحكم الإمامي ، لهذا كانت القصيـدة عنـد الرسميين كـالـدروس المقـررة يتّصـف راويهـا بـالنجـابـة ولايتَّسـم بالثورية ، دون أن يعرفوا أنها كانت خميرة ثورية ، لكن قِدمها وعلَوية شاعرها أجاز لها حرية الإنشاد والذيوع بغض النظر عن مكوّناتها ، لأنها لاقت صدى عند كل الطامحين على مختلف أهداف الطموحات ، هذه هي القصيدة الأولى .

أما الثانية فقد كانت معاصرة بالنسبة لذلك الحين وكانت من الثقافات المحظورة ، ولكن الخطر يولع بالاقتحام ، لأن تلك القصيدة كانت جواب التساؤل النفسي في (اليمن) على عراقيتها وعراقية شاعرها ، إلاّ أنّ الأمور تتشابه ويجرّ بعضها بعضاً ، وهذا ماجعل قصيدة (آل السلاطين) للرّصافي أغنية ثورية بين طلاب الأربعينات ، والقصيدة توضح الفروق بين ترف الحاكمين وشقاوة الشعب ، وبين إرهاق الجنود بالدفاع وراحة القادة في أفخم المكاتب وأبهج الغرف ، وهذه أبيات من القصيدة :

هـم يُعـدون بـالمئـات ذكـوراً   وإنـاثـاً لهـم قصـور مشـالَـهْ
ولهــم أعبــد بهــا وإمــاءٌ   ونعيــم ورفعــة وجــلالَــهْ
فكـأن الإلـه قـد خلـق النـاس   لمحيـا آل السـلاطيـن آلَـهْ
ذاك منهـم حمـاقـة وشنـارُ   وهـي مِنـا دنـاءة وضـلالَـهْ

تلك والله حالة يقشعرّ الحق   منها وتشمئز العدالة

القصيدة تضمر إلماحاً إلى قصور (الإمام يحيى) وأبنائه السيوف . بفضل الطلاب وتغنيهم بهذه القصيدة ، تعممت على كل الأدباء والمتأدبين بل الطامحين إلى التأدب والأدب ، لأن هذه الرّصافية أفصحت عن أحوال اليمنيين بمقدار إفصاحها عن عراق الأربعينات ، لأن الكلمة المستمدة من تجربة جماعة تنطبق على كل المجاميع ، وهذا ماجعل الأدب أشواق النفوس الإنسانية وصوت الضمير البشري ، تلك الرّصافية كانت الخلفية الثانية لطلاب (صنعاء) في منتصف الأربعينات ، وفي تلك الفترة استجدّت قصيدة ثالثة ألمح إشارة وأجمل موضوعية وشكلاً ، وهي بعنوان (الديمقراطية) للشاعر محمد الأسمر :

إنما الناس من تراب وماءِ   ليس منهم من ينتمي للسماءِ
آدم والد الجميع فحمقٌ   وضلال تفاخر الأبناءِ
ماعلى الأرض فهو كاف بنيها   لو أقاموه بينهم بالسواءِ
من بنى ملكه على الظلم والجور   بنى مابناه فوق الهواءِ

هل كان البيت الأول والثاني من هذه القصيدة غير تقرير المقرّر ؟ نعم إنها عرَّفت ماهو معروف ، ولكن بعض المعروف يضيع في الجهل أو يغيَّب في التجاهل ، فكل الناس من نبت الأرض وليس منهم من ينتمي إلى السماء ، وكلهم أبناء آدم ومن الحماقة أن يتفاخروا بالتمايز على واحدية المأتى الأصيل ، ولعل الإشارة واضحة إلى دعوى الحاكمين بالامتياز على الناس ، أما البيتان الآخران فقد حملا أول صيحة بتساوي الناس في المعايش ، لأن كل أرض تكفي شعبها لو سادت المساواة وسيطر العدل ، لأن القصور القائمة على الظلم قائمة على الهواء الذي لايثبت على حال . . . فما أساس تقبّل هذه القصيدة عند طلاب الأربعينات حتى أصبحت على الشفاه أسير من التحيّة وردّها ؟

السبب أنه كان هناك تمايز بين الطبقة ونفسها وبين الطبقة والأخرى ، وكان (الإمام) وآله يرون أنفسهم أكثر من بشر وأعلى من الناس ، فكأن الطالب يتحدى هذا التعالي بهذه القصيدة ويتوق إلى المساواة من خلال هذا الإنشاد . . . ولعل للنفسية التي عبّرت عنها هذه الأبيات خلفية قريبة العهد ، فقد كان (أحمد عبد الوهاب الوريث) و(أحمد المطاع) على هاشميتهما يستفزّان الحسّ القحطاني ، كما في قصيدة الوريث (حيّ تلك الربوع) المنشورة في الحكمة ، وكما في كتابات (المطاع) المنشورة في نفس المجلة عن العمران السبئي والمجد المعيني ، وقد سئل أحمد عبد الوهاب الوريث عن سرّ هذه الإثارة العرقية فأجاب : (إن هذا أجدى سلاح لمواجهة الطاغية ، لأنه قد سخّر دعاية الدين لصالحه فلم يبق إلا الوطنية ولو جرّدناها من أصولها التأريخية لاعتبرها دعاية أجنبية ضد الشعب) .

إذن فقد كانت إثارة القحطانية في آخر الثلاثينات وبداية الأربعينات منطلقاً وطنياً دون أن يثير حسّاً طائفياً أو عرقياً في ذلك الحين ، لأن الحاكم المتعالي على كل الفئات كان هو المستهدف ، لهذا كانت قصيدة (الأسمر) برؤيتها إلى تساوي الناس امتداداً لدعوة الوريث ورفاقه ، وإذا تساوى الناس في الحقوق والواجبات أصبح الشعب هو المنطلق ، وغاياته ملتقى كلّ الأهواء .

إذن فقد انتمت حركة الطلاب إلى خلفية ثقافية أحرّ عناصرها الشعر الاجتماعي والسياسي فبلورت رؤيتها وكهربت عقائدها ، وامتدّ التوهج بالتوهج حتى سقوط الدستور ، وأطلّت الخمسينات بقسماتها وسمات ينابيعها المختلفة عن عالَم ماقبل الحرب الثانية ، فكانت الانتفاضات الطلابية البشير بالوعد المنشود والدليل إلى المنتظر ، وقد زاد عدد المدارس في الخمسينات لكي تزداد أعداد القوة الثالثة كما يسميها السياسيون ، فبعد أن كانت تنطلق الشرارات من (دار العلوم) (الثانوية) بصنعاء ، أصبحت مدارس (تعز) و(الحديدة)

و(حجة) و(كلية بلقيس) بعَدَن مواقعاً جديدة تضاف إلى المواقع القديمة وتطيل ألسنة اللّهب ، فبعد استشهاد (الثلايا) وزملائه عام ١٩٥٥ خمد الشعب كخموده بعد سقوط الدستور ، فدلّت (المدرسة الأحمدية) بتعز على أن في العرين أسوداً ، ففجّرت أول تظاهرة على قطع الرؤوس الكثيرة في تلك الحادثة وعلى هذا العنف برغم أن انقلاب (الثلايا) لم يستند إلى جبهات جماهيرية ، وإنما كانت التظاهرة العنيفة أول احتجاج شعبي على قطع الرؤوس الوطنية الذي كان من يوميات الحكم الأحمدي ، وكان هتاف المظاهرات يتّقد بالغضب : (لا إعدام لا إعدام يحيا الشعب يحيا الشعب) ، وكانت هذه أنصع صفحة في التأريخ الطلابي لأنها انتقلت من الهمس والإنشاد إلى التفجُّر الشامل بين غمار الملايين وتحت الشمس لكي تشهد تيار التحوّل يمتدّ ويتّسع ، لقد كانت هذه المظاهرة أول نقاط التحول في التأريخ الطلابي بل وفي التأريخ الشعبي إذ لم يعتد شعبنا قبل هذه التظاهرة الطلابية ما يسمى بالمظاهرات الجماهيرية ، فكانت تلك المظاهرة أول تنبيه إلى قيمة تحريك الشارع الشعبي تلتها مظاهرة ٥٦ ضد العدوان الثلاثي على مصر وطالبت الجماهير بالتسليح والتطوع وعندما تزايد أعداد الخريجين من دار العلوم عام ٥٩ ألحّ الطلاب على فتح مجالات العمل ، فأراد (الإمام أحمد) أن يسكت هذا الطلب فأمر بفصل مئتي طالب من جميع المدارس حتى لاتتفجر المظاهرات ويتمادى تيار الشباب في الاكتساح ، غير أن أوامر (الإمام) لم تعد مقدّسة بل مرفوضة بطريقة أو بأخرى ، لهذا تجمّع طلاب (دار العلوم) وقرروا أن يجتمعوا في جامع (قبة المتوكل) كل ليلة ويطلقوا احتجاجهم من هناك على مقربة من القصر (بصنعاء) في مأمن من القبض عليهم ، إلا أن هذه الظاهرة السطحية تطورت بما حولها من الاشتعال الاجتماعي ، والعامل الأكثر أهمية تضامن طلاب (التحضيرية) و(الثانوية) مع طلاب (دار العلوم) فقد تبلورت فكرة مظاهرة عامة ضد الأوضاع بجملتها ، غير أن طلاب (دار العلوم) أحجموا لأن وقار العمائم يجانب طفور المظاهرة

وتدفّق أمواجها ، وحسم (الإمام) الأمر بإلغاء فصل الطلاب ، وهذه الفترة تتطلب التقصّي في ثقافة طلاب الخمسينات واختلاف المستويات إلى حد التباين رغم الهدف الجامع وهو التغيير السياسي ، فقد كان طلاب (دار العلوم) متباينين منهم الثائر بلا حدود ، ومنهم المستنير ، ومنهم منتظر الوظيفة والخائف على أن تعوّقها التطورات . أما طلاب الثانوية والتحضيرية والمركز الصحي ودار المعلمين ، فقد كانوا أكثر صلة بتغيرات العصر نفسياً وقراءة بفضل مايصلهم من الصحف وما يسمعون من إذاعات الأنظمة الثورية . . أما (طلاب دار العلوم) فكانوا يمّدون زمن طلاب الأربعينات إلى حدّ ، لأن الأسلوب النضالي قد اختلف باختلاف المجابهة ، فلم تعد الثورية تكمن في إلقاء قصيدة أو في خطبة مناسبة أو في تلميحات غيمية ، لأن الشعب أصبح أمام المصير وجهاً لوجه ، لهذا تبدّى الاعتصام بالمسجد ظاهرة سلبية في نظر طلاب المدارس الأخرى ، وكانت الكلية الحربية في شهور ميلادها ، كما كان طلابها خليطاً من كل المدارس الدرعمي إلى جانب الثانوي ، والثانوي إلى جانب التحضيري ، وعلى هذا التباين النسبي صهرت الكلية الحربية جميع العناصر لكي تتقد بروق الثورة في غمام واحد ، فاختلفت المهيئات فكأنما انقطعت أواصر الطلّاب عن خلفياتهم التقليدية بفعل التعليم الجديد الشاق والثقافة المستبصرة ، وقبل أن يصبح طلاب (الحربية) ثوار سبتمبر . . تفرض الخلفيات الثقافية نفسها ، كان طلاب (دار العلوم) بحكم وقار المكان وتزمّت الرسمية ورتابة المنهج أقرب إلى التقليدية ، ولاتفجّر ركودهم إلا توهّجات الشعر الثوري مهما كان تقليدياً كشواهد البلاغة التي يدرسونها ، ولم يخرجهم عن تقليدهم إلاّ حداثة الدروس العسكرية وجديد الكتب والوجوه الموعّية ، أما طلاب الثانوية والصحية فقد كان يسمح لهم وضعهم وتطلعهم تتبع الصحافة على قلتها وممارسة الألعاب الرياضية بدلاً من جلسات القات ، فكانوا أكثر تعبيراً عن طبقتهم لأنهم ينتمون إلى البيوت المتوسطة والفقيرة ، فكانوا بمجموعهم من أبناء المحكومين ، على حين كان

طلاب (دار العلوم) وأغلبهم من القضاة والمحافظين والكتبة ومديري المال والحسابات ، ورغم اختلاف الطبقتين فقد كانت النوازع الوطنية ممتزجة أو متقاربة ، فإذا كان طلاب (الثانوية) وأمثالها ينتمون إلى الطبقات الوسطى والدنيا كالضباط والجنود ، فإن طلاب (دار العلوم) قد اختلفوا عن آبائهم قليلاً أو كثيراً وأصبحوا من صميم الشعب أو قريباً منه بفعل التيّار الزاحف من هدير العصر ورياحه ، غير أن ثقافة الخمسينات وقعت في منعطفات تكاد تبعد عن واقعية النفوس ولكن مؤقتاً ، فقد وفدت في تلك الفترة بعض الكتب المترجمة عن الفلسفة (البرجماتية) من طراز : (دع القلق وابدأ الحياة ، والثقة بالنفس ، واعرف نفسك) . . فخلّف هذا النوع قدراً من التراخي وضرباً من الغرور ، حتى أن بعض العناصر من طلاب الثانوية ودار المعلمين استهترت بأصالة الرأي وخبرة المجربين وبالثقافة الشعرية بدعوى الثقة بالنفس ، كأن الثقة بالنفس تكون بإغلاق منافذها عن التفهّم والفهم ، والحقيقة أن الثقة بالنفس غير الغرور ، كما أن الاستهانة بطاقة النفس يرادف الضعف والتبعية ، فقد كاد هذا الجنس من الثقافة النفسية يحوّل الثقة إلى غرور مغلق ، ويحوّل النزوع إلى التغيير ملجأ من القلق الخلّاق إذ اتخذ البعض من عبارات تلك الثقافة شعاراً : (عِشْ في حدود يومك ، ولاتبك على اللبن المراق) ، وهذا إلهاءٌ عن الأساسياتْ لأن تلك المرحلة كانت أدعى إلى القلق لأن الشعب كان بين خيارين : إما الانقراض ، أو الثورة .

لهذا تجاوبت النوازع الثورية في النفوس وأصبح الواقع الشعبي أقوى من ثقافة الكتب والصحافة الإلهائية ، لكي تتّقد الثورة في العروق ، حتى تنفجر يوم ٢٦ سبتمبر ، وقد كانت الحركات الطلابية بمجموعها عناصر وقودها وعوامل انبلاجها كما دلّت تلك المظاهرة الطلابية الكبرى في منتصف عام ٦٢ كعلامة على اقتراب الثورة ، لأن الطلاب في آخر الشوط اقتبسوا من نار الشعب أكثر مما

اقتبسوا من الكتب وأوراق الجرائد ، فإذا كان لهم فضل الاستجابة النارية فللشعب فضل الإلحاح والاستثارة ، لأنهم تعلّموا منه أكثر مما تعلموا من المدارس والقصائد والصحافة ، وإن كانت هذه على اختلافها قد وسّعت مناطق الحسّ الثوري .

لقد انتهت الحركات الطلابية إلى ثورة تحولية أخرجت الشعب من قيوده إلى رحاب وجوده تحت أسطع الأضواء ، وكانت مظاهرة أفواج الطلاب التي سبقت الثورة بشهور أصدق الإرهاصات ، لأنها قادت أفواج الجماهير فامتدت من طلابية إلى شعبية وإذا كان الطلاب قد أصبحوا ثواراً فإن الذين مازالوا طلاباً قد أصبحوا زنود الثورة وسرّ خصوبة امتدادها ، فعندما أعلنت الثورة (الجمهورية) تدفق طلاب المدارس إلى المعسكرات للانصهار بالثورة والاندفاع في موجها العارم مردّدين الهتاف بحياة الثورة وموت خصومها ، فتشكّل الحرس الوطني منهم ومن مجمل القطاعات الشعبية ، فمنهم من قاتل ومنهم من انتشر في المناطق يقاتل الخوف والجهل بسلاح التوعية ، ولما انتهت مهمة الارشاد الذي لاضرورة له عرف الطلاب أن الشعب قد بلغ الرشد وعليهم أن يلتحقوا كلياً بمواقع قتال المؤامرات ، وسجّلوا على كل ذرة تراب أشعّة من شروق المستقبل ، وعندما كانت الأسلحة تدفن المؤامرة وتمد ضحوات النصر كانت المهود والملاعب والمدارس الابتدائية تزخر بمئات التلاميذ المنتظرين ، فعندما أصبح طلاب آخر الخمسينات قادةً وجنوداً أصبح أطفال ذلك الحين طلاب مدارس لكي يلتحقوا بالموكب المضيء ، وشهدت لهم منتصف الستينات عدداً من الانتفاضات كمظاهرة ٦٥ على انتهاك مقررات مؤتمر عمران ومظاهرة ٣ اكتوبر عام ٦٧م على لجنة التصالح التي أرادت أن تجعل ثمار الدماء رماداً وتضحيات البطولة استسلاماً .

لهذا أحبطت مظاهرات الطلاب الأكتوبرية خطة الوساطة المشبوهة ، ولكي

تشرق الأفكار أعمالاً ميدانية تجنّد كل الطلاب في المقاومة الشعبية عام ٦٧ كما تجنّد زملاء لهم في الحرس الوطني من قبل ، وكانت المشاهد تثير الروعة والإعجاب ، فابن الثالثة عشرة كان يقاتل إلى جانب ابن الأربعين بنفس المستوى حتى قال بعض معمرينا وهو يرى مظاهرة طلابنا عام ٦٢م :

« من يدري أن شعب المستقبل هو هؤلاء التلاميذ الصغار » وقال بعض المجربين في حرب السبعين :

« إن هؤلاء الأطفال يغرون المرتزقة بما في أيديهم من سلاح فلا يحصلون إلا على مصارعهم السريعة » .

ذلك أن المظاهرة الطلابية العارمة قبل الثورة بشهور كانت إنذار الطغاة باليوم الأخير ، لأن تلك الآلاف الهادرة المشبوبة أروع الحلقات في مسلسل النضال الطلابي ، لأنه كان عن وعي بالثورة وعن استعداد لمواجهة الاحتمالات ، فلم تكن حركة طلابنا موقوفة على الهتاف التظاهري وإنما هي على أتم استعداد للثورة العملية وللذّود عنها كما دلت مظاهرة أكتوبر ٦٧م ومقاومة السبعين يوماً من نفس العام حتى كسروا الحصار إلى جانب الجيش والشعب . . ويعد سكوت الحرب امتدّ التحرك الطلابي في أكثر من مجال : قاموا بمهمة التعداد لأول مرة في مطلع السبعينات ، كما قاموا بمهمة الإشراف على انتخابات التعاونيات كما تجندوا للتصحيح . . فحركة طلابنا متصلة الحلقات متواصلة التيار من وقت لآخر ومن ميدان إلى ثان ، وهذا ليس بالغريب لأن القراءة تغيير ، وتجدّد الأجيال حتمي حتمية طلوع شمس كل يوم ، وليس القادة الأنجح إلاّ الّذين كانوا التلاميذ الأنجب ، باعتبار الطلاب الثروة الأبقى والثورة الدائمة ، وإذا كانت بعض القيادات الشبابية تقع في أخطاء فذلك طبيعة العمل الأول أو تغرير المنظّرين ، لأن الشباب يمتلك قوة الدفع ويمكنه أن يكتسب أبعاد التجربة في ظل فهم أكثر خبرة أو أطول مدة في المراس ، ومن

مزايا طلابنا الكثيرة أن طموحهم لايتجاوز مصالح الشعب ولاينطلق من غير مشروعية ، فكما أنهم الربيع الدائم للامة ، فهم التجدّد المستمر في جذور الحياة وفي دفع الإرادة من تحقيق إلى تحقيق ، وأمام طلاب اليوم مهمات قد تختلف عن مهمات سابقيهم ، وقد تكون مشاكلهم أعقد ، إلا أن كفاءتهم على المجابهة والتجاوز سوف تكون أقدر مواقعاً وإعداداً ، والغد على ذلك من الشاهدين .

* * *

موقع المرأة في واقع التطور الاجتماعي

عندما يهلّ شهر مارس ، تهلّ معه الأمطار والخضرة ، وتنثال أبهج الذكريات . . لأن هذا الشهر يزدان بأخصب مناسبة طبيعية وإنسانية ، فاختيار (عيد الأم) في هذا الشهر ينبي عن توفيق الاختيار ، لأنه شهر تفجّر الخصوبة من أرحام الأرض ومن نهود السحائب وملكات الإنسان ، فما أجدره بذكرى الأمومة التي هي أصل الإنسان ، وأجمل مانقدم للأم اليمنية في عيدها ، هو تأريخ حركة المرأة مهما كانت متواضعة ومهما كانت الكتابة عنها أكثر تواضعاً ، لأن المرأة في المجتمع المتخلّف أكثر تخلّفاً لأنها الأضعف ، باعتبار المجتمع الذكري أو الرجالي يرى المرأة نصف مواطن عليها كل شيء وليس لها شيء من أعالي الأمور إلا في النادر وفي نطاق محدود من وراثات السيادة عن الآباء ، وعلى رغم السيطرة الرجالية فإن المرأة قد شاركت الرَّجل في أكثر المجالات الممكنة لها وللرجل على السواء . . وعندما يتناول الباحث المرأة اليمنية وتحركاتها التأريخية تتداعى في ذهنه صور مئات البطلات من التأريخ ومن العالَم لواحدية الجنس في أكثر من منبت . . تتجلى له (أسماء بنت أبي بكر) بشجاعتها النادرة في عالم الأمومة ، وتهزّه صورة (الخنساء) بشعرها المأسوي وتضحيتها الصابرة ، وتروعه من صور نساء العالم صورة (جاندارك) وهي تحترق فداء للوطن وصورة (الأم شُجاعة) التي كانت تغامر ببضائعها إلى المعسكرات الحاشدة فاغتنت من التجارة في الحرب وخسرت أولادها الثلاثة في الحرب حين انفجرت على بيتهم قنبلة وأمهم تحت القذائف تكتسب قوتهم كما في مسرحية (برخت) التسجيلية ، إلى جانب عشرات الصور في التأريخ الفكري

والدموي .. فبمقدار تفجّر المجتمع بالأعمال الخلاّقة ، تتألق حركة المرأة كنجمة بين نجوم ، باعتبار المجتمع كياناً واحداً لايؤدي كل مهماته إلا بحيوية كل أعراقه وأعضائه وكل طاقاته .

كانت (أسماء بنت أبي بكر) نبتة المجتمع الجديد الذي تصدى للجبروت الاحتكاري والعصبي ، فلأن المجتمع كان يتبازغ تحت شمس جديدة كانت (أسماء) إحدى نبتات ذلك المناخ ، جاءت من ميراث شجاع .. فقد كانت المرأة العربية في الجاهلية كأحد مقاتلي القبيلة وإن وضعها الرجل في دور ثانوي كقيادة الخيول وعَلْفها وتضميد الجرحى ، غير أن هذا الدور كان يوازي دوراً أمامياً للمرأة ، فقد كان هناك من يُسَمَّين (بالنافضات) ، وكانت مهماتهن الاستطلاع قبل الهجوم أو قبل ذود المهاجمين ، وكُنَّ يقدرن عدد جيوش الأعداء جملة ويفصِّلن بالتقدير أعداد الفرسان والرجَّالة ونوع السلاح : هل الأكثر السيوف أو الرماح أو السهام ! وكان يقوم تقديرهن على كثافة الغبار وحركات وبريق اللمعان .

فقد كان دور (النافضات) يسبق الرجال كأسطورة (زرقاء اليمامة) ، كما كان دور (الضامدات) و(الساقيات) يؤازر خلفيات الرجال ويشكل حامية للمباغتة من الخلف ، وقد أشار إلى هذا عمرو بن كلثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسانٌ ... نحاذر أن تُقسَّم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

فقد كانت المرأة في الجاهلية نفير غارات وطليعة وخلفية ، فهي في الاصطلاح العسكري اليوم : عصب الحرب كسلاح الإشارة .. وكانت بطولة الرجل تُحببه إلى المرأة ، لأنها شجاعة تحب الشجاع في سواها بمقدار إعظامها في نفسها .. فقد كانت (أسماء بنت أبي بكر) امتداداً لشجاعة الأمهات ،

خاضت مغامرة الهجرة وهي ثالثة اثنين يتعقبهم مجتمع (مكة) ، فتسمَّت (ذات النطاقين) لأنها شقَّت نطاقها إلى نصفين لكي يتوازن حمل الراحلة .

أليس التفكير في ساعات الخوف أبهى الدلائل على قهر الخوف ! وقد كانت (أسماء) تفكر في عملها وإنجاحه وهي في مرصد الموت ، فكرت كيف توازن الحمل كما لو كانت تشد أحمالاً في غير خوف ، فدلّ حضور بديهتها على امتلاكها نفسها وتجاوزها أخطار الخوف ، كان هذا أبرز مواقف (أسماء) في الحياة النبوية . . وعندما أصبح أبوها خليفة الرسول كانت كإحدى النساء بلا مميزات معيشية أو عائلية ، وإنما تبدّت آثار شخصيتها البطلة في ولدها (عبد الله ابن الزبير) الذي اتّسم بالجرأة إلى حد الحماقة .

قال (الدينوري) : « عندما أشرف (مسلم بن عقبة) قائد جيش (يزيد) على جبل (قُبيس) أصابته الذبحة الصدرية ، فقال : مَنْ يصلح بعدي لحرب (ابن الزبير) ؟

ليس في رجالي غير (الحُصين بن نُمير) ولاعيب فيه إلا أنه (يمني) رقيق القلب كأهله .

ولمّا مات (مسلم) خلفه (الحُصين بن نُمير) وعند اشتداد الحرب بينه وبين (ابن الزبير) بمكة فاجأه خبر موت (يزيد بن معاوية) فطرح السلاح ونادى بلقاء (ابن الزبير) على انفراد فهمس إليه : لقد مات (يزيد) ولا أرى أصلح منك للخلافة ، فتعال معنا إلى (الشام) لبيعتك .

فردّ (ابن الزبير) بأعلى صوته : والله لا أدخل الشام حتى أقتل بالرجل الحجازي عشرة من أهل الشام .

فقال (الحُصين بن نُمير) : والله ما رأيت أحمق منك ، أكلّمك سرّاً وتكلمني جهراً ، أدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الخلاف » .

ألم يرث (ابن الزبير) عن أمه الشجاعة مضيفاً إليها الحماقة كتطرف بطولي أو كتهوّر قتالي ، لأن التهوّر يتجاوز الشجاعة إلى الحماقة ، ولكنه آت منها كإتيان (عبد الله بن الزبير) من أمّه (أسماء) ؟!

وبعد أعوام من هذا الحادث هاجم (الحجاج بن يوسف) (عبد الله بن الزبير) عن أمر (عبد الملك بن مروان) و(الحجّاج) يختلف عن (ابن النُمير) بمقدار اختلاف (ابن الزبير) في موقفه مع (الحجّاج) ، إذ فرّ ابن الزبير من الحرم طلباً للسلامة فاستحضرت أمه كل شجاعتها المعهودة وقالت له : « عد إلى أصحابك تموت معهم أو تنتصر معهم » . وعاد إلى الأسر ثم إلى الصلب ، وبعد أيام مرَّت أمه بجذعه ، ولما رأته مصلوباً منذ أيام قالت كلمتها الشهيرة : « أما آن لهذا الفارس أن يترجّل ؟ » .

بدون أن تنتحب كأم ودون أن تصعق كامرأة ، لأن المعروف رجالياً إلى اليوم أن البكاء مهنة نسائية .

لهذا أدهشت (إنديرا غاندي) جميع الصحفيين عندما كانت تخرج من المحكمة وهي تغنّي هازئة بصدور أي حكم ضدها ، لأنها كانت تعرف أن تهمتها ملفَّقة .

ألا تشبه (أسماء بنت أبي بكر) التي شبَّهت جذع الصلب الذي عليه ابنها بفرس والمصلوب بفارس ؟

إنها روح الفروسية لم تتخل عن (أسماء) ولاتخلَّت عن (إنديرا غاندي) .

فلماذا حققت (أسماء) هذا التفوّق البطولي ؟

لأنها ورثت البطولة ومارستها في ضحوة العمر الباكر في مجتمع تقديس

الأبطال والبطولات .

تشبه (أسماء بنت أبي بكر) من وجه مختلف (هند بنت عتبة) على اختلاف موقفها وموقف معسكرها .. كانت (هند) تتلقى أخبار مصارع أبنائها وإخوتها وهي تحث الزحف بهذا الحداء :

إن تقبلوا نعانقْ ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارِقْ فراق غير وامِقْ

لقد كابدت (هند) أفجع المآتم وهي تستثير نار القتال ، وكانت تعجب لاشتهار (الخنساء) وخمولها هي ، لأنها شاعرة كالخنساء ، ومرزوءة في أقاربها كالخنساء أو كالشاعرة الجاهلية (جليلة بنت مُرَّة) .

لقد لمحت (هند) القياس وأغضت عن الفروق .. فالخنساء من بنات الشعب ، و(هند) من طبقة الاحتكار والتسلّط .

أجابت (الخنساء) الدعوة المحمدية الجديدة ، ووقفت (هند) مع الرجعية المحتكرة ، فقدت (الخنساء) أولادها الأربعة راضية بما عند الله بديلاً ، وفقدت (هند) إخوتها وبعض أولادها بدون مقابل ولا انتظار مقابل غيبي ، لكنها لم تفقد الأمل كلياً ، لأنها زوجة (أبي سفيان) ذلك الرجل الذي حقق بالحيلة ماعجز عنه السيف وبالدهاء ماعجزت عنه مجابهة (بدر) و(أُحد) ، حتى أصبح بيت (أبي سفيان) يوم الفتح ثاني الحرم بمعادلة محمديَّة ، وقد استنكرت هذا الموقف (أسماء بنت أبي بكر) حتى أسكتها أبوها بصرامة الرجال .

إن هذه النماذج النسائية من أمثال : (أسماء) و(الخنساء) ، و(هند) .. تشبه بطلات بلادنا في خط الحركات الوطنية ، في مستهل خطواتها

والتشابه ينعقد بعدة خيوط :

أولاً : تماثل مجتمعنا بمجتمع العصور الإسلامية الأولى من ناحية الثقافة الدينية والتقاليد العائلية والمجتمع الرجالي .

ثانياً : بيئة الفروسية ، فقد كانت الفارسات اليمنيات من بيئة الفروسية ومن بيوت السيادة : (كأروى بنت أحمد الصليحية ، وتحفة الصليحية ، وأسماء بنت ذي الجيش ، وريًا بنت الحارث) .

ثالثاً : نوع الأحداث الحربية وأسلوب الصراع .

بمقدار ما يشبهن هؤلاء : (أسماء وهند والخنساء وخولة) ، فإن (سعود المرهبية) اليمنية تشبه (أم حكيم) فكما كانت المرهبية إلى جانب الثوار اليمنيين على تعسّف باذان الفارسي كانت (أم حكيم) أشجع فارسات الخوارج ، وكانت تعلن فدائيتها في كل معترك كما في قولها :

من لي برأس قد سئمت حملَهْ   وقد مللت دهنه وغسلَهْ

ألا فتى يحمل عني ثقله

في المجالات الثقافية يمكن التشابه :

كانت (الشريفة دهماء) من مؤلفات القرن الثامن الهجري تعقد حلقات دراسية للرجال ، كما كانت (سُكينة بنت الحسين) - في العصر الأموي - تستحضر شعراء عصرها وتستنشدهم وتنتقدهم عاطفياً وفنياً . . وكانت كلتا المرأتين تفهم مغازي أحاديث الرجال وتردّ على السخرية بأمر منها .

استنكرت (سُكينة) على (جرير) .

ختام هذا البيت :

طرقتك زائرة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

فقالت : هلا قلت لها مايقال لمثلها فادخلي بسلامٍ ، إنك عفيف وفيك

ضعف .

عقب (ابن أبي عتيق) على رأي (سُكينة) بقوله : لو كانت الطارقة كمولاتي .

فقالت (سُكينة) : حتى وصيفات مولاتك لسن من الطارقات .

مثل هذا الموقف : موقف (الشريفة دهماء) عندما وصلت في كتاب (الحج) إلى الإحرام (وفي تحريك الساكن شاه) أراد أحد الطلاب أن يمزح بتخابث .

فقال : وماذا يجب في تحريك الساكنة ؟

فأجابت : شاه أيضاً .

فتمادى وسأل : وكيف تتحرك الساكنة ؟

فأجابت : كشفتيك .

على مرارة الردّ ، فإنها لم تتجاوز الحقيقة العلمية لتحريك الفمين الأعلى والأوسط ، وكان هذا الحوار ملائماً المبدأ الفقهي (لا حياء في الدين) . مثله موقف (سُكينة) في ردها على الذي سألها : لم لا تكوني كأختك (زينب) ؟

فقالت (سُكينة) : ليس الناس من صنع حدّاد .

مثل ردّ سُكينة ردّ (الشريفة دهماء) على الذي قال معرّضاً بها : النساء للفراش والرجال للعلم ، فقالت (الشريفة) : العلم للناس جميعاً .

فقد كانت المرأة فقيهة في ازدهار الفقه ، شاعرة في انتعاش مواسم الشعر ، فارسة في أزمان عبادة الأبطال والبطولة .

ولأن ظروف اليمن تشبه ظروف العواصم العربية قبل الإسلام وإبان الفتوح والحضارة ، فإن المرأة اليمنية – من عهد استقلال اليمن عن الخلافة العباسيّة

آخر القرن الثالث الهجري - مدَّت أفضل موروثات البطلة والفقيهة والناقدة والشاعرة ، عن اقتداء وعن استجابة لطوائف المؤثرات المحلية .

كانت السيدة (أروى بنت أحمد الصليحي) في القرن الحادي عشر الميلادي فارسة (كأم حكيم) الخارجيّة ، ومتذوقة للأدب ، كإحدى العقائل القرشيات ، وفقيهة في المذهب الإسماعيلي (كرابعة العدوية) في الزهد الصوفي ، بالإضافة إلى الممارسة السياسية المباشرة كأحد خلفاء (بغداد أو دمشق) . . وقد كانت شهيرة بمكائدها الحربية ، ومن أشهر هذه المكائد في أيام حكمها ورطة (سعيد الأحول) التي دبَّرتها حتى قضت بقتله على ألدّ الأعداء الفاتكين . . وقد كانت الأنثى أقل ما في (أروى) . .

روي عنها أنها لم تذق الحياة الزوجية إطلاقاً ، وكانت تقول لزوجها : (التي تُدبِّر الملك لاتصلح للفراش) .

هل كانت فاقدة الأنوثة كما يقول الأدباء المعاصرون عن الأديبة (مي زيادة) ؟

هناك فرق بين الأنوثة ، وبين الاشتغال عنها بما هو أعلى من السرة وأطول من ثواني السرير .

لقد كانت السيدة (أروى بنت أحمد) ألمع امرأة :

فهل أنتجها محيط رجالي أو محيط نسائي ؟

لابد أن لها مثيلات في عصرها - القرن الخامس كـ(شجرة الدر) آخر حكم الأيوبيين ، ولابد أن هناك بطلات توارين في الظل ، لأن محيط الفروسية لاينتج فارسة وحيدة أو فارساً وحيداً .

لكن هل كانت السيدة (أروى بنت أحمد) من عائلة مميز/ة ؟ لقد كان

(الصليحيون) من صفوة المثقفين وليس من أعلى الطبقات الاجتماعية اقتصادياً ، وكان المثقفون ينتمون إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وكانت الطبقة العليا تتثقف بالوراثة ، على حين كانت تتثقف الطبقة الوسطى بدافع الطموح إلى الأعالي ، أو بحافز الحظوة عند أصحاب الأعالي .

ولقد وصل (الصليحيون) إلى الحكم عن جهود (علي محمد الصليحي) الذي تتلمذ على يد (عامر الزواحي) الحرازي الإسماعيلي المذهب ، وتفوق في ثقافته حتى أوصلته إلى الحكم ، ثم توارثهُ عَقِبُه من بعده نحو مائتي عام كما توارث الصراع مع العلويين والنجاحيين .

فهل (أروى) الصليحية تعبير عن الشعب أو عن السلطة ؟ .

عندما تُعبّر السلطة عن الشعب تنتمي إلى أصالته ، لأنها ارتقت منه لتحقيق أغراضه . . ولقد كانت (أروى) رغم وراثتها للملك شعبية الانتماء ، لم تتميز بالمكاسب والإقطاعيات ، وإنما بعبء المسؤولية ، وكانت بالقياس إلى الملكات والملوك شعبية العيش ملكية القلب ، ولاشك أن الدعاية العلوية قد وجدت في تأمير امرأة مغمزاً جيداً لو لم تتحصّن بفروسية الرجال ونقاوة السيدة .

ولابد أن (لأروى) خصوصيات شخصية ميزتها عن الرجال فضلاً عن النساء ، لكن النادر لايشكّل قاعدة ، كما لايشكّل الوصول إلى الحكم ميزة ثقافية ، لأن تحقيق هذا الغرض يرجع إلى استناح الفُرَص أكثر مما يرجع إلى التفوق الثقافي .

ولابد أن السيدة (أروى) قد أثارت في النساء كوامن الطموح . فكانت (الشريفة دهماء) في القرن الثامن الهجري من أبرع المحققات في الفقه ، حتى أنها كانت صاحبة حلقة دراسية كأئمة العلم من الفقهاء ، وكانت صاحبة رأي في التأريخ الصوفي ، وكانت في كتابها (الزنين) تترجم لأصحاب المذاهب قبل

طرح آرائهم المذهبية . . فالحس التأريخي يغلب على فقهيتها كامتداد لمسألة (الجَرْح والتعديل) عن معرفة سِيَر الرواة عند المحدّثين ، أما كتابها (الأنوار) فهو شرح لكتاب (الأزهار) تأليف أخيها (أحمد بن يحيى المرتضى) اعتمدت فيه على مفهوم المنطوق لكتاب (الأزهار) ، ولم ينل شرحها للأزهار اهتمام المحققين بل اعتمدوا على شرح (ابن مفتاح) مولى (أحمد المرتضى) باعتباره أكثر تفصيلاً لمسائل (الأزهار) وأوسع استيعاباً لسائر المذاهب غير الزيدية ، وأول من تبنّى شرح (ابن مفتاح) مقرر المذهب (القاضي حسن الشبيبي) ، لكن لشرح (الدهماء) قيمة أخرى من حيث الإضاءة على النص المشروح بدون إضافة المذاهب الأخرى ، وقد كانت في كل شروحها تعتمد على الدلالة الحرفية للنص المشروح ، كما فعلت في (شرح منظومة الكوفي في المواريث) إلا أن (القاسم بن محمد) قرر على المدارس (شرح الفرائض) (للناظري) ، أما شرحها (لمتن ابن الحاجب) في الأصول ، فقد نال مكانه وأصبح مقرراً في المناهج المدرسية ، على حين شرحها لكتاب (الجواهري) في علم الكلام برهان معرفتها بعلم الكلام ، غير أنها لم تكتشف التجلي الفلسفي الذي تفرّع عن علم الكلام وانقطع عنه لكي يشكل الفلسفة الخالصة : من (الكندي) إلى (ابن خلدون) .

لقد كان (للدهماء) في حركة التأليف نشاط خصب فاقت به معاصراتها من أمثال : (صفية بنت المرتضى) إحدى فقيهات القرن الثامن الهجري . ومن الملحوظ أنها لم تضع كتاباً في الفقه غير (الزنين) وكراسة تراجم لشعراء أهل الفضل لم يتّسمْ بعنوان ، وربما حالت دون إكماله مشاغل دنيوية أو موتها ، فأغلب مؤلفاتها شروح لمتون ، وهذا يدل على التحقيق ولاينم عن إبداع ، كأغلب مؤلفات عصور الانحطاط التي اهتمت بشروح الكتب القديمة وتلخيص مطولاتها ، ذلك لأن فترات الاجترار تعجز عن الابتكار ، فَتُغطِّي هذا العجز

بإحياء التراث أو تطويله أو تشذيب زوائده ، حتى أن بعض هذا التشذيب والتلخيص أخلَّ بالأصول ، إذ تصوَّر تبسيط الأصيل زائداً على الحاجة كما في تلخيص الأغاني لابن منظور مثلاً . . غير أن نهج (الدهماء) يختلف لأنها كانت تشرح كتباً لم يسبق شرحها ، وأغلبها من مؤلفات عصرها .

من معاصرات (الدهماء) (فاطمة بنت علي) اشتهرت بالإصلاح الاجتماعي وهو على مفهوم القدماء : الإحسان إلى الفقراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكانت تتصف هذه السيدة ببعد النظر السياسي ، حتى أن أخاها (الإمام الناصر) من زعماء القرن الثامن كان يرجع إليها في أهم المعضلات . . ويجد لديها أنجع الحلول ، إلى حدّ أن جلساء (الناصر) كانوا يتفكهون عليه حين يستبصر القضايا ويقولون : هذا رأي أميرة المؤمنين ، وقد انطبق عليها هذا الإصطلاح حتى قال أحدهم فيها :

أميـر المـؤمنيـن أخـوك فينـا وأنـت أميـرة للمـؤمنينـا

ألا تشبه (فاطمة بنت علي) الملكة (زُبيدة) التي كانت تدير سياسة الخلافة من وراء الستار ؟

ألا تشبه (خَولة) أخت سيف الدولة في إشارات (المتنبي) ؟ كما أشبهت (فاطمة) بعض جداتها النابهات ، أشبهتها (فاطمة بنت أحمد بن يحيى) في حل المشاكل العلمية ، وكانت من نابهات القرن التاسع الهجري ، وقد عرف معاصروها سَداد رأيها فكانوا يرجعون إليها فيما يتجادلون فيه من مسائل الفقه واللغة ، ولم ينسُب إليها مترجمو حياتها أي عمل تأليفي ، ولعلها كانت تقرأ للتمتع بالمعرفة أو لعل الأمومة أعاقتها عن التأليف .

ومن النابهات التي شغلت مؤرّخي عصرها (زينب الشهارية) فقد كانت ذات رأي في مسائل الفقه واللغة ، وكانت حسنة المحضر والحديث ، ولعلها

كانت تخالط الرجال وتناقش المسائل الثقافية السائدة في عصرها القرن الحادي عشر الهجري وكانت هذه الحقبة من أزهى مواسم الشعر في اليمن .

كان من أبرز شعرائها (حسن بن جابرْ الهَبَل) و(المخلافي) ، وكان من أبرز شاعراتها (زينب بنت محمد الشهارية) ، وقد تناولها أغلب مؤرخي عصرها بالوصف التعميمي وإن لم يخل وصفهم من حسّ تغزلي لأنهم كانوا يبدؤون الحديث عنها : بحلاوة حديثها وإثارة وجهها ، من أمثلة هذا وصف المؤرخ (يوسف بن يحيى) في كتابه (نسمة السَحَر فيمن تشيَّع وشَعَر) : « كانت فاضلة تحلَّت بالأدب في عصابتها ونظمت مااشتبه حسناً بقلادتها ولم يُدر أشعرُها أم وجهها أم حليها أجمل ؟ » .

فإذا كان (يوسف بن يحيى) قد جمع بين الإعجاب بحسن وجهها وبديع شعرها ولمعان عقودها . . فإن (أحمد الحيمي) في كتابه (طيب السمَر) يفضّل (الشهارية) على المليحات النابهات في التأريخ من أمثال (سُكينة بنت الحسين) ومن أمثال (الخنساء) ، ويقرنها بـ(ولّادة بنت المستكفي) مليحة الأندلس وعشيقة (ابن زيدون) وإحدى شواعر تلك الحقبة من عهد ملوك الطوائف . وهذا يدلّ على سعة ثقافة مؤرخي تلك الفترة ، كما يدل على مباهاتهم بفاتنات عصرهم . . فإن استحضار (الحيمي) للشواعر المليحات يوحي بأن اليمنيين كانوا يحاولون التفوّق على الأوائل رغم انتهاجهم لآثارهم . . . ولعل هذه القطعة من وصف (الحيمي) للشهارية يكشف لنا أسلوب النثر الفني في تلك الحقبة ، فقد كانوا يُغرقون في السجع حتى في الكتابة التأريخية ، قال الحيمي عن الشهارية : « صدفة مصورة ودّرة فخار مكنونة ، أقرّ الله بها من الأدب عينه ورزقها من الظرف بألا تذكر معه (سكينة) ، ولها كلم يتيه على يواقيت الأحجار بالفخر ، ولآلئ ألفاظ تعد عندها كلمات (الخنساء) منحوتة من صخر ، فهي (ولّادة) الزمان إلا أنها لم

تستغل حجارها تلك » .

يدل تعبير (يوسف) و(الحيمي) على أنهما أقرب إلى المؤرخين التسجيليين وإن غلب عليهما الحسّ الوصفي وتصور ظواهر الصورة الأنثوية .

أما (محسن أبو طالب) فقد عني بغير ماهو تأريخي : كزواج الشهارية وطلاقها ، وهذان لايتصلان بالتأريخ إلا بمقدار ما يترتب عليهما من أحداث تأريخية ومن تأثير أدبي ، أما الزواج والطلاق لذاتيتهما فهما من يوميات الناس والحيوان ، والأمر الاعتيادي غير العمل التأريخي ، يقول (أبو طالب) عن الشهارية في كتابه (ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت بعصري من أهل الأدب) : « كانت أعجوبة الدّهر في الفضل والعفاف وبدائع الأوصاف ، تزوجها علي بن إسماعيل ففارقها ، ثم تزوجها بعده علي بن أحمد ففارقها أيضاً » .

وهذا الوصف التعميمي لايحدد مزية ، إلا أن تعدد زواجها وطلاقها قد يشير إلى تعقد شخصيتها ، لأن الاستقرار الزوجي كان يعدّ من ألمع فضائل المرأة ، وبالأخص الفقيهة التي من ثقافتها حسن عشرة الزوج .

فهل كانت (الشهارية) تعاني شذوذ الحسن كالأديبة الفرنسية (جورج صاند) مثلاً ؟ ربما !!

ولعل لثروتها الموروثة إلى جانب حسنها الموصوف دخل في شغبها الزوجي ، غير أن أشعارها تناقض هذا الزعم ، لأنها تحمّل أحد أزواجها مسؤولية الملل الزوجي كما تقول :

أهكذا كل من قد مل يعتذرُ	ويعقب المدح ذم منه يبتكرُ
أما أنا فلقد حمّلتني شططاً	بالأمر والنهي فيمن ليس يأتمرُ
ما كان قصدي لكم إلا مؤازرةً	والسعي في الخير جُهدي لست أعتذرُ

فالشهارية ترى نفسها أميرة لاتقبل الأمر الزوجي ، أو ترى نفسها زوجة

تعرف واجبها بلا أوامر ، ولعل تفردها يكمن في الإلماح إلى دخائل النفس الرجالية من حيث إشارتها إلى الملل الزوجي ، ولعلها من القليلات اللواتي يفطن لهذه الطبيعة في الرجال ، فما أكثر اللواتي يزعمن العمر الزوجي عشقاً متصلاً ، غير أن الملل الزوجي يعوّض بعواطف أخرى : نقاوة الحياة العائلية ، وطول العشرة ، أمومة الأولاد . فهل كانت الشهارية غير منجبة ؟

لم يُنوِّه مؤرخوها إلى إنجابها على كثرة مانوَّهوا بفضلها ، وتعدد أزواجها ، وتفننوا في وصف حسنها وإطراب حديثها وتفوّق شعرها ، وحوادث زواجها وطلاقها ، وإذا نظرنا إلى القيمة الأدبية لشعرها ، لانجدها تجاوزت النظم المألوف في أدب تلك الحقبة ، وقد استطرف لها معاصروها هذا الجناس في رسالة شعرية تستمنح فيها إعارة كتاب (القاموس) من العلاّمة موسى ، وقد استغلت الجناس الاعتيادي كما تقول :

مولاي (موسى) بالذي سمك السما	وبحق من في اليم ألقى موسى
أمنن علي بعارة مردودةٍ	واسمح بفضلك وابعث القاموسا

ولعل التجانس بين ألقى موسى النبي والقاموس الكتاب قد فتن معاصريها لحسن الجناس بين الجملة الفعلية وبين الاسم ، ولأن في البيت الأول اقتباس من القرآن ، وفي الثاني مراعاة النظير ، فاجتمع في البيتين فنّان من فنون البديع : الاقتباس والجناس التام ، وقد كانت هذه المشاكلة التجنيسية دليل الذكاء الاجتماعي عند الوسط الأدبي . . كما كانت المفاضلة بين الأمكنة من علامة الحصافة ، وقد فضَّلت (زينب الشهارية) شهارة على صنعاء بنفس أسلوبها البديعي رغم قلة الإبداع :

يا من يفضّل (صنعا) غير محتشم	على (شهارة) ذاك الفضل عن كمَلِ
شهارة الرأس لا شيء يماثلها	في الارتفاع وصنعا الرِجْل في السَّفلِ

أليس (صنعا) تحت الظهَر مع ظلعٍ　　　أمَّا (شهارة) فوق (النَّحر) و(المُقَلِ)

ينطوي هذا المقطع على عدة وجوه ومرام ، فالتعبير الحرفي يصور مقارنة حرفية : « شهارة » الفضل الكامل ، أو عن كُمَل على حد تعبيرها ، لأن شهارة الرأس وهو موطن التفكير والسمع والبصر ، وصنعاء هي الرِّجل لالتصاقها بالتراب ، ثم تنتقل الشاعرة إلى التورية : أليس صنعا تحت الظهر مع ظلعٍ !

عبارة تحت الظهر تحتمل الإشارة إلى وادي ظهر ، وتحتمل الإشارة إلى ظهر الإنسان وما تحته من المناطق المستورة ، ولعل التورية إلى الإنسان أقرب ، بدليل الشطر الأخير الذي جعل شهارة فوق النحر والمقل .

وهذا التصنيع الأدبي يحتمل دلالات سياسية أهم ، فقد كانت (شهارة) مركز المقاومة ضد الأتراك ، على حين كانت (صنعاء) سهلة الاستسلام ، وقد عاصرت الشاعرة أواخر الاحتلال العثماني الأول ورضعت ذكرياته مع لبن الأمومة .

فتفضيلها (شهارة) ينتمي إلى منزع وطني بطولي ، وقد كانت البطلات في القرن العاشر الهجري عطر الأحاديث الرجالية ، كما روي عن (نخلة الحياسية) التي عوَّقت القوافل التركية عن التقدم إلى (صنعاء) عشرين يوماً ، وكانت (نخلة) على رأس مجموعة من بنات (صعفان) وكان سلاحهن الأحجار لاغير ، وكن يمطرن جيش الاحتلال بالحجارة من حيث لايدرون مصدرها ، ولم يوقفهن إلا إطلاق المدافع عدة ساعات .

وقد كانت بطولة (نخلة الحياسية) مضرب المثل ، لثباتها في وجه سلاح ناري ، لأن البطولة اليمنية كانت تتألق في معارك السيوف والرماح ، أما الصمود في وجه القذائف فقد كانت الفلاَّحة (نخلة الحياسية) أول الفدائيات أو أبرع نماذج البطولة .

ولعل أبيات (الشهارية) في مناعة (شهارة) تنتظم كل الربوات البطولية ، فتنطبق على جبال (حراز) كانطباقها على (شهارة) المنيعة ، فمقطوعة (الشهارية) تدخل في البديع من حيث المفاضلة واستعمال التورية ، وتنتسب إلى النضال السياسي لانتمائها إلى زمن المقاومة أو ذكراها . .

إذا كانت (زينب الشهارية) ومثيلاتها قد لفتن المؤرخين ، فإن (نخلة الحياسية) وأندادها لم يدخلن دائرة الكتابة إلى الآن ، لأن تأريخنا إلى قبل عشرين عاماً كان رسمياً ، ولم ينوّه المؤرخون بأمثال (زينب الشهارية وصفية المرتضى) ، إلا لأنهن بنات أئمة أو زوجات أئمة ، وإن كن قد أصبحن الآن من تراثنا الثقافي ، والمرأة الوحيدة من غير الإماميات التي حظيت بلفتة تأريخية هي (الميّاسة بنت عرفجة) في أول القرن السادس الهجري .

قال عنها (عمارة) اليماني : « المياسة بنت عرفجة اليمنية أدركتُها ولايحسن الوصف أن يأتي على بعض محاسنها ، ولقد تزوجها رجل دميم الخلقة من قومها ، وكانوا يعجبون من دمامته وجمالها ، وأذكر أنهما اختصما ذات ليلة إلى والدي ، فقال زوجها : إني قد عجزت عن الاحتمال والصبر على ما أسمعه من كثرة الإعجاب بجمالها وقولها إنها ليست من نسائي فإن أجَّرتني منها أحببتها . قال الشيخ والدي : لست أجيراً عليها إلا بأمرها . قالت : أجَّرتني قبل ما أراد . قال زوجها : فإني خير منك لأنني صاحب . . فلما انتهى قال الشيخ : لا والله ماانقطعت (ميّاسة) ولاخجلت من ذكره عضو تناسله ، بل قالت : ردوا عليه فوراً من غير رؤية إنك لم تأت بشيء ولا أفلحت وإنما افتخرت بالذكورة » .

وهذا الموقف على قلة أهميته تأريخياً ، يدل على أن (ميّاسة) من طبقة الفلاحين ، لأن الفلاحات يتحدثن عنما تحت مآزرهن ، كما يتحدثن عن سائر الأعضاء كاليد والوجه ، واللواتي يتحرَّجن ويستعملن التورية للمناطق المستورة

هن بنات الخاصة في المدائن .

من هنا نتبين أن تأريخنا من القرن السادس إلى الثالث عشر الهجري ، أو من القرن الثاني عشر إلى التاسع عشر الميلادي ، قد تقصّى عدداً من نوابغ النساء وحركتهن في التأليف والسجال الأدبي والإبداع الشعري ، ومن الملحوظ أن المؤلفات اليمنيات في تلك العصور أكثر من المؤلفات في بغداد ومصر والشام والأندلس ، بغض النظر عن نوع التأليف ودرجة الإبداع فيه . . وإذا لاحظنا أن الفقه والفلسفة الهدوية الزيدية إلى جانب الحروب قد أجَّجت الجدلية العقلية ، حتى أنجبت مفكرين وإصلاحيين دينيين ، فإنها فقد أنجبت مؤلفات متفلسفات وإن كانت فلسفتهن من طراز (علم الكلام) أو القريب منه . . ولقد امتدت الجدلية الدينية حتى نشأت من أرومتها الجدلية الوطنية ، فكما كوّنت الخلفية الفقهية والسنّية : الرعيل الأول من مناضلي النصف الأول من القرن العشرين ، فإن فقهية المرأة وفلسفيتها وأدبها قد كوّنت أعداداً من المناضلات على مختلف المستويات ، وعلى مختلف نوعية النضال . . وربما تواكبت الثقافة السلفية والحماس الوطني عند الرجال وعند النساء على السواء ، حتى أخفَت حماس الوطنية سائر المزاياالفقهية ، فلم تعد تتردد في النصف الأول من هذا القرن أسماء الفقيهات إلا في لمحات ممزوجة من الإعجاب والتفكّه ، من أمثال هذه الحكاية :

تزوج أحد أدباء (صنعاء) امرأة كوكبانية ، وفي السَمَر لم يجدا مفتحاً للحديث كعادة أزواج تلك الفترة ، فخطر للزوج سؤال وجيه :

هل كان السفر من كوكبان شاقاً ؟

فأجابته بنصف شطر لابن النحاس :

(لا أذم العيس للعيس يدٌ) في تلاقينا وللأسفار نُجحُ

فاكتشف لطف عروسه وروايتها للشعر الغَزَلي ، وشاعت هذه الأحدوثة

على سرِّيتها يومذاك .

ويروي ظرفاء صنعاء : أن الشاعر عبد الكريم مطهر مر من جانب بيت فوقع عليه ماء ، فصاح : نجستينا يابنت الخير . فردّت على الفور : كل مغيَّب طاهر .

فقال في تفكه : فيهن من هي أبو حنيفة .

فهاتان الحكايتان من المسموعات عن أديبة وعن فقيهة .

ولعل العشرينات من هذا القرن كانت تعاني قحطاً أدبياً في عالَم المرأة وعالَم الرجل ، ولو كانت الحياة الثقافية رخيّة عند الرجال ، لكان للمرأة فيها نصيب كالعهود السابقة ، غير أن المرأة لم تتوقف كما لم يتوقف الرجل فقد برزت في الثلاثينات بطلات شعبيات : (كأم أولاد أبو دنيا) ، و(فندة الدرويشة) . . فقد روي عنهما : أنهما كانت تصدان زحوف العساكر الإمامية وإن انتهت هذه المقاومة بالاستسلام . . وفي مطلع الأربعينات لم يفح ذكر بطلة أو أديبة أو متأدبة ، بيد أن هناك إشارة شعرية إلى مقاومة المرأة للعسف من قبل الجنود ، وألمح الإشارات إلى هذا قول (زيد الموشكي) :

تُخاصمنا بالدين والدين موجعٌ	لأنك قد أدميت مهجته عدّا
وإلا فهل هتك النساء وضربها	حلال ولو في دين من يعبد الصلدا

فهذه دلالة على مجابهة المرأة ، وعلى تعرّضها للضرب كنتيجة لتلك المجابهة ، وقد بَسّطت مقاومة المرأة أكثر ، مقطوعة (محمد محمود الزبيري) بعنوان (العجوز وعسكري الإمام) وإن كانت لاتدل على إنطاق الشعب من الداخل ، لأنها حوار بين كادحة من الفلاحات وبين من هو أكثر كدحاً ، لأن الجندي من أكثر الطبقات بؤساً . . لكن المقطوعة تشير إلى وجود العنصر النسائي في الأربعينات كجزء من الحركة الوطنية .

إشارة الموشكي ومقطوعة الزبيري ، إلماح جيد يدل على أن هناك بطلات في أكثر من موقع ، لأن الهياج الاجتماعي يتصاعد بالعدوى ، وقل مَن يتفرد بالحسّ الخاص وينتفع به بدون روح جماعية تتفاعل به وتمد تيار التفاعل .

لهذا تزايدت أعداد البطلات المجهولات في آخر الأربعينات ، فقد كن يحملن الرسائل بين المناضلين من بيت في المدينة ، ومن (صنعاء) إلى بعض المناطق ، ومن بعض المناطق إلى (صنعاء) .

لكن هل كانت تلك النساء يعرفن خطورة تلك الرسائل ؟

وبأنها تتضمن معارضة لحكم الإمام يحيى ؟ وتحمل دعوة إلى حكم الدستور ؟

إن بعضهن من عائلات المناضلين ، وبعضهن من العاملات في دُورهم ، وبعضهن من عائلات أجراء مزارعهم ، فكان تحركهن بتكليف رجالي : إما أبوي ، أو زوجي . . وقد دفعت هؤلاء النساء أفدح الضرائب لوجه ذلك التحرك ، فبعد سقوط الدستور كابدن الإرهاب والتأيّم وأبوة الصغار نيابة عن الأب القتيل أو السجين .

صحيح أن الأم اليمنية تنوب عن الأب في غيابه ، لكنها في الريف أسهل حملاً منها في المدينة ، لأن الريفية تعوّدت حمل العبء في حضور الزوج وغيابه ، أما بنت المدينة فقد فاجأتها المسؤولية الثقيلة ، فأخرجتها من نعمى الدلال إلى مواجهة الريح والهجير وزحام الأسواق .

لقد أدى مصرع بطل الاستبداد (الإمام يحيى) ومصرع الدستور إلى إرهاصات مختلفة في صميم الحياة الاجتماعية بجنسيها ، فبدأت المعاصرة تلوح على استحياء وابتدأ تقبلها يلوّن أكثر من بقعة ، فتزايد عدد القارئات في البيوت بصنعاء وتَعِزّ وذمار ، وأقل الصغيرات انتظمن بين الصغار في الابتدائية غير

الرسمية ، من أمثال : معلامة طلحة والنهرين بصنعاء ، ومعلامة دادية بذمار . . وكان أغلب هذه الابتدائيات غير الرسمية من فصل واحد ، فكوّنت هذه البداية إلى جانب المعلمات في البيوت أول المجتمع القارئ من النساء .

وفي عام ٥٧ افتتحت مدرستان للتمريض بصنعاء وتَعِزّ فالتحقت بهما جموع من القارئات : من زوجات وأبكار وأرامل ومطلقات ، وقد واجهن معارضة قاسية ، لم يخفف من قسوتها إلا أنها عن أمر (الإمام) . . وهذا أول خروج نسائي من سجون الجدران إلى الحياة العملية المباشرة ، وكما كانت هذه أول خروج فقد شكّلت النقطة الأولى من التحوّل . . ففي عام ٦١م قامت الممرضات بأول إضراب في تأريخ بلادنا احتجاجاً على إهمالهن من المرتب الشهري ، ونجحت تلك المغامرة الناعمة كباكورة التحديات . . تلت هذه الباكورة المظاهرة الطلابية في المدائن الرئيسية عام ٦٢ ، وبعد شهور أشرقت الثورة في أرديتها العسكرية والثقافية .

واستقبلت هذا الحادث العظيم مظاهرة الجماهير ، فتظاهرت النساء بتَعِزّ إلى جانب الرجال صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ٦٢م .

ومن عام ٦٣ اتسع تعليم المرأة نسبياً وافتتحت عدة مدارس ابتدائية وإعدادية ، وقامت الممرضات في حروب الثورة بمواصلة السهر بالسهر لمساعدة الممرضين والأطباء ، مهما حصرت المجافظة عمل المرأة في الأقسام النسائية بجميع المستشفيات ، فقد تجاوزت بهن الضرورة هذا الحصر إلى المشاركة الخلفية في إسعاف مصابي الحرب .

وفي ٣ اكتوبر عام ٦٧ أشعلت أفواج من النساء المظاهرة إلى جانب مواكب الشباب ، وكانت أعداد النساء تقرب من أربعين في المئة وأغلبهن من طالبات المدارس والمدرسات وعاملات المصنع على حداثة عهدهن بالعمل

الوظيفي والعمّالي .

في تلك الفترة أصبحت المرأة عاملة في مصنع الغزل والنسيج وفي مجال التدريس وفي الحقل الإذاعي ، وكان التمريض النواة الخصبة لهذا التيار المتسارع نسبياً .

ومن بداية ديسمبر ٦٧ إلى فبراير ٦٨ اشتركت المرأة في الدفاع عن العاصمة ، وحملت عاملات المصنع السلاح عن اندفاع ثوري ، وعن اختيار لذلك الموقف .

وفي عام ٦٩ تزايدت أعداد الخريجات والمثقفات ، فأصبحت المديرات لمدارس البنات من اليمنيات بدلاً عن الرجال وعن المعارات من الخارج .. في ذلك العام بدأ نضج تفكير المرأة ، وحاولت طلائعهن قيام اتحاد نسائي ، فشكلت (حورية المؤيد) و(فتحية الجرافي) و(فتحية النظاري) أول اتحاد ، ولأن تلك الفترة كانت عهد التراوح بين الثورة واللاثورة ، وعهد التصالح بين المنقرض والقابل للانقراض ، ارتطمت فكرة الاتحاد النسائي بنقيض نسائي ، فكانت (عاتكة الشامي) تمثل الموقف المعارض للاتحاد الجديد ، أو موقف الداعي إلى اتحاد من لون الفترة- التراجعية كانعكاس طبيعي ليمينية السلطة ويسارية الشعب ، أفرزت هذه التداخلات مايمكن أن يصنف : يميناً ويساراً في عالم المرأة .. برغم أن القياديات الثلاث ينتسبن إلى الطبقات الوسطى القريبة من العليا .

إلا أن التخلخل مدة عشرة أعوام قطع أكثر الجذور الطبقية وعلق أعلاها بذيول الريح .

مهما تصارعت تلك القيادات النسائية فإنها لم تخمد فكرة قيام اتحاد نسائي ، بل أدت إلى قيام اتحادات سرية وشبه علنية ، رغم المضايقة المصوَّبة

على الجناح الشعبي .

وفي منتصف السبعينات دعت (ليلى الوادعي) إلى اتحاد تحت اسم (جمعية نهضة المرأة) لتقلل الخوف من اسم الاتحاد ، فتشكّلت من ذلك الحين جمعية المرأة بدون عبارة نهضة أو اتحاد ، ولعل في إزالة الصفة مايعطي الجمعية هوية أكثر قبولاً ، وهذا التطور المتسارع في حركة المرأة يمتّ إلى الفقيهات الشاعرات وإلى بريديات الأربعينات التي أشار إليهن الموشكي والزبيري ، واللواتي فصّل بطولتهن الشاعر محمد سعيد جرادة والشاعر لطفي جعفر امان .

كما ألمح الموشكي والزبيري إلى نماذج البطلات ، أفصح محمد سعيد جرادة عن بطولة المرأة كأصل لفدائية الرجل ، كما يقول عن مناضلات (ردفان) :

ورب فقير عرسه قد تمنّعَتْ — عليه ، وهزت فيه نخوة جبّارِ
وقالت له : فيما وقوفك والحمى — محاط بشر مستطير وأشرارِ
فقال لها : قد تعلمين بأنني — أخو فتكات في الوغى غير خوّارِ
ولكنني من عدة الحرب أعزلٌ — وذلك ظرف لايضير بمقدارِ
فأهدت إليه قرطها وسوارها — وما تذخر الأنثى لحالات أطوارِ
وقالت له : بِعْها لتشري كرامةً — وحرية لايشتري مثلها الشاري

إذا كان (جرادة) في هذه القصيدة صوَّر المرأة حافز قتال ، فإنه في قصيدته (فتاة ردفان) سنة ٦٣ قد صوّر المرأة مقاتلة كأشجع الرجال مضحيَّة عن الوطن كعاشقة للموت العظيم .

إذا كانت الستينات والسبعينات قد سجلت تضحيات البطلات ومغامراتهن الإنسانية . . فإن الفضل في هذا الاقتحام يرجع إلى تربية الأمهات العظيمات

اللواتي أرضعن أولادهن وبناتهن قداسة الوطن وعشق التضحية لوجهه ،. كما يقول (لطفي جعفر امان) في الأم الثائرة والدافعة إلى الثورة :

أمي
أجل هذي التي انحدرت من الشرق القديم
اليوم تصرخ في الشبيبة حين جار على الديار
المجرمون اللاحقون بأرضنا الموت ، الدمار
أمي تزمزم كالرياح :
العار لو وطني يباح
وتهيب بي قتلوا أباك
أسروا أخاك
الثأر يابني أفق ، الثأر ليس له سواك .

فقد تغيَّرت صورة الأم من خائفة إلى محرضة على قهر الخوف ، وتغيُّر صورتها في الواقع غيَّر صورتها في رؤية (لطفي) .

إن اليمنية المعاصرة ، قد تجاوزت الحريمية من مطلع الستينات ، فأعلنت أول إضراب ، واتقدت في المظاهرات الجماهيرية ، وقاتلت إلى جانب المقاومة والجيش ، واندغمت في المليشيا الشعبية ، وكوّنت جمعية المرأة في الشمال ، والاتحاد النسائي آخر الستينات في الشطر الجنوبي من الوطن ، ودخلت لجان التصحيح عام ٧٤ بشمال الوطن واللجان الشعبية من نفس العام في الشطر الجنوبي .

فهل هذا كثير على حفيدات (بلقيس) وبنات (أروى) و(الشريفة دهماء) ؟

إن المنتظر أكثر مما تحقق ، وإن المرأة كالرجل في حاجة إلى التجاوز

الدائم لحجاب النفس وحجاب الوجه ، فعلى الرغم من أن أعداد الجامعيات يشكل الآن ٢٠٪ تقريباً فإن الشعور الحريمي مايزال يرسب داخل النفوس ، وليس الاحتفاظ بالأنوثة هو الاحتفاظ بالضعف والنزوع البكائي .

إن الإناث أقوى من الذكور في الحيوانات والبشر ، ولكي تحقق المرأة قوتها ، لابد أن تجمع بين الصون الأنوثي ، والاقتحام المشروع إلى ذروة الغايات الاجتماعية ، لكي تتواصل الحركات النسائية عن اختبار أكثر .

والحقيقة أن المرأة ليست ضعيفة بالطبع ، ولا مجتمعاً خلفياً بقانون قاهر ، وإنما الطينية الرجالية تصيب المرأة بالضعف بفعل نزعة الامتلاك الحيوانية .

إن الحقوق الغريزية مشروعة ، ولكنها ثمرة لحظات عجلى ، أما إتصال الاقتحام بالاقتحام إلى الغايات الاجتماعية المنشودة فلا حدود له ، لأن حدود الشعب أن لا حدود .

* * *

الفصل السادس

حركة ٤٨

١ـ أثر الحركة وتأثيرها .
٢ـ ثقافة الانقلابيين .
٣ـ حركة ٤٨ بين واقعها . . وواقع الكتابات عنها .

أثر الحركة وتأثيرها

لايمكن أن تتحرك موجة في البحر بدون قوىً تحرّك كل مياهه ودون أن تتحرك بتحركها كل الأمواج إما بالعامل الذي حرّك الموجة الأولى أو بتعدد عوامل التحريك ، مثل كثافة الرياح مثل الهيجان غير المعهود ، لأن البحر كل يهيج بعضه ببعض ، أو يسكن كله لكي يهيج . . كذلك الشعوب ، فإن تحرك فئة – أياً كان موقعها – يسبب تحرك الفئة الأخرى ، سواءً كانت منسجمة معها ، أو معاكسة لها ، لأن تحرك جانب يستلزم تحرك مثيله أو جَيشان عكسه كعواصف الغابات ،وقد لاحظنا توالي الحركات في مناطقنا ، وتعاقب حركات الفصائل على امتداد (العهد المتوكلي) إلى (اليمن الجمهوري) . كما لاحظنا إخماد هذه الحركات ، واستعصاء التحركين على الفناء ، وربما كانت شدة القمع سبباً في توالي اتقاد الحركات ، لأن انتكاس الشعلة يزيدها اشتعالاً .

لهذا عجز القمع عن إيقاف حركة الشعب أو حركة جماعات منه ، فعندما تبدّى الهدوء سائداً على أرجاء شمال الوطن ، من منتصف الثلاثينات إلى شباط ٤٨ ، ظن القامعون أنهم قد استأصلوا كل نبض ، مخدوعين بظواهر الهدوء الآني ، فإذا بالتحرك ينجم من وراء حسبان سلطة ذلك الحين ، فقد نجم في مطلع الأربعينات من قصور أتباع السلطة الذين كانوا أدوات قمعها ومن بيوت الذين كانوا (خُدّاماً) للمقام (اليحيوي) فحمل هذا التحرك راية الإصلاح ، ودعوة الحكم القائم إلى تبنّي أطروحاته الإصلاحية ، وإن كانت تلك الأطروحات لاتغاير ماهو قائم من كل الوجوه .

من هنا وجد (الإمام يحيى) من يقارعه بسلاحه وهو الدين الذي قام باسمه ، وأخضع بدعواه ، ويزعم الخروج عليه . . وكانت الوجوه التي تحركت غير مشبوهة - عند مجتمعات المدائن - : في دينها ، أو في مكانتها الحسَبية ، أو في ولائها للإمام ، فقد كانت ترى تلك الوجوه : من رواد بيوت الله ، ومن أعمدة (المقام الشريف) ، ومن موضع ثقته .

ألم يكن (عبد الله الوزير) من قادة إخضاع المناطق ثم محافظاً لذمار ، ثم الحديدة ، ثم ليزم (الإمام يحيى) في مقامه كمستشار ؟ .

ألم يكن (محمد محمود الزبيري) من أبناء الفقهاء الذين شربوا حب الأئمة مع لبن الأمهات ، ثم رسَّخوا هذا الحب بتعلّم كتب الأئمة وأشياعهم ، فأفتوا بها وحكموا بمقتضى نصوصها ؟.

بالإضافة إلى الثقافات الأدبية والتأريخية والدينية من منظور تشيعي .

أليس (علي عبد الله الوزير) قائد حملة المناطق الوسطى ، وأمير الجيش في قعطبة ، ثم أمير تَعِزّ ، ثم مدير منطقة المحويت ؟؟

أليس تقلبه في هذه المناصب برهان الولاء للإمام (يحيى) من قِبَل (الوزير) ، وشاهداً على الثقة من (الإمام يحيى) في (الوزير) ، بل هناك ماهو آكد صلة بين (علي الوزير) و(الإمام يحيى) ، ذلك هو تزوج (عبد الله الوزير بن علي الوزير) بالأميرة (تقية ابنة الإمام يحيى) . . وهؤلاء الثلاثة : عبد الله أحمد الوزير ، علي عبد الله الوزير ، محمد محمود الزبيري . . أبرز الوجوه (الصنعانية) في الانقلاب التي بدأت معارضتها من منتصف الأربعينات ، وهؤلاء الثلاثة من طبقات السيادة والفقه ، ومن أعمدة ذلك العهد ، باستثناء (الزبيري) الذي لم يصل إلى منصب وظيفي مرموق .

ألم ينجم التحرك المناوئ من مأمن السلطة اليحيوية ، ومن نفس المدرسة

التي أعدّت الأئمة ؟.

لأن كبار هؤلاء من أعمدة العهد ؟؟.

فإذا كان (الوزيران) من قمة السلطة أو عنقها ، فإن زملاءهما كانوا من خُدّام السلطة على مختلف المستويات : كحسين عبد القادر الذي كان مدير مدينة صنعاء ، وعبد السلام صبرة الذي كان رئيساً للبلدية . وحسين الكبسي الذي كان (ممثل الإمام) في الجامعة العربية وفي أكثر المؤتمرات .

فهل كان الأستاذ (أحمد نعمان) خارجاً عن دائرة هؤلاء ؟؟.

صحيح أنه كان يغاير (الزبيري) في بعض نواحي تعليمه ، لأن (الزبيري) كان تلميذاً بصنعاء ، وكانت مناهج تعليمها (هدوية) ، على حين كان (نعمان) تلميذاً في جامع (زبيد) ، وكان يتعلم (الزُبَد) بدلاً من (شرح الأزهار) ، وحيناً إلى جانبه .

فهل انضمام (نعمان) إلى المعارضة كان غريباً ؟.

إنه بالقياس إلى تعليمه يبدو غريباً ، لأن (الشافعية) أصولية الرأي لاترى إلا عن أصل من صميم الكتاب والسنّة ، فأتباعها كأهل (السنّة) : يرون وجوب طاعة الحاكم وعدم جواز الخروج عليه ، لأن ذلك (شق لعصا الطاعة وفرط لعقد الجماعة) فتعليم (النعمان) يحول بينه وبين معارضة الحاكم ، كما أن تعليم (الزبيري) يعلّم حب (الإمام) ووجوب الخروج على الظالم ولو من الأئمة .

ألم ينفجر التحرك من مأمن السلطة ، أو من حيث لاتحتسب ؟

هذا هو الذي جعل حركة رجال ٤٨ مغايرة لحركة (المقاطرة) أو (الزرانيق) ، لأن تلك الحركة لم تفجر سلاحاً على الحاكم في بدء تنظيمها ،

وإنما لجأت إلى تشكيل تنظيم تسمَّى في مطلع الأربعينات (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولقي بعض أعضاء ذلك التنظيم عقوبات بالسجن ، لأنهم أعلنوا مايريدون ، على حين لم يمس (الوزيريِّين) والذين في طبقتهم أي عقاب ، سوى التنقل من منصب إلى آخر ، وإن تفاوتت مناصبهم ، فإن هذا التفاوت لايخرجهم من دائرة أعمدة السلطة ، إذ لم يكن يتولى إدارة أي منطقة كبيرة أو صغيرة ، إلا الموثوق به من (الإمام) وصاحب الحظوة عند مقامه .

فهل نشأت (هيئة الأمر بالمعروف) فجأة في صبيحة الأربعينات ؟

لاشك أن نواتها تكوَّنت في منتصف الثلاثينات تقريباً ، ثم تنامت حتى أصبحت تنظيماً في صبيحة الأربعينات ، عندما توافرت أعدادها من موظفين كباراً أو صغاراً .

هناك تبدَّى تنظيم حقيقي يعارض السلطة في عقر دارها ومن نفس طبقتها ومن الطبقات القريبة منها ، وصادف ذلك التنظيم مناخاً قابلاً لتصاعده ، نتيجة زيادة طلاب (دار العلوم) وزيادة (أولاد الإمام) ، وهذه الزيادة في الفريقين ، كانت أهم أسباب اتساع التنظيم ، لأن أصحاب الوظائف العليا والطامحين إلى وظائف ، خافوا أن يستأثر (أولاد الإمام) بالمناصب العليا ، كما استبد أبوهم بقمة الحكم وأجهزته .

كان هذا من أسباب تنامي المعارضة ، وكان تناميها أسباب خوفها والخوف منها ، فلجأ الجناح الأدبي من التنظيم إلى (عَدَن) ، عام ٤٤م .

ولاشك أنهم شكَّلوا من هناك تحالفاً مع بعض التجار ، وأكدوا صلاتهم بآل الوزير وآل عبد القادر وببعض أساتذة ثانوية صنعاء ، وكان (علي الوزير) أهم عون للاجئين في عَدَن ، وأقوى التحركيين في داخل الشمال ، أما (عبد الله الوزير) فقد استطاع أن يتستَّر على معارضته مدة سبع سنوات . فهل كان خارج

ذلك التحرك ؟

يبدو أنه كان قريباً بعيداً ، بدليل أن (الإمام يحيى) عزله من محافظة (الحديدة) وأدناه من مجلسه في المقام ، وهذا يدل على استخطار (الإمام) إياه ، وعلى محاولته لاستبقائه بجانبه .. فهذا يدل على شبهة في (الوزير) ولايبرهن على تأكيد تنظيميته ، لأن (عبد الله الوزير) أبدى للإمام نفس ماكان يبديه له من الولاء أيام قيادته للحملات العسكرية على المناطق ، وأيام ولايته على الحديدة وذمار ، فظل يتردّد على (المقام اليحيوي) بانتظام كأكثر الموظفين التزاماً وطاعة حتى عام ٤٧ ، هناك بدأت إيماءات إلى (عبد الله الوزير) كخليفة للإمام يحيى ، عزز هذا التوقع مجيء (الفضيل الورتلاني) الجزائري ، الذي جدّد برنامج (الزبيري) بشكل آخر ، إذ قدّم للإمام يحيى رسالة مطوّلة مفعمة بالولاء لشخصه ، والاقتراحات لنظامه .. فدعا في رسالته (الإمام) : أن يستعين بالمخلصين من المؤمنين ، وأن يستوفد خبراء من الأقطار الإسلامية لإنعاش الزراعة وتطوير أدواتها ، ولإخراج مكنونات الأرض من ذهب وفضة ونفط ونحاس ، وكان (الفُضيل) يتملق (الإمام) في أكثر جمل رسالته ، حتى يبدو ناصحاً لامقترحاً .. وفي الوقت الذي كان (الورتلاني) ينصح فيه (الإمام) ، كان ستعجل الانقلاب ضده ، ويتردّد على العائلات العريقة والشخصيات النابهة ، مقنعاً إياها بضرورة القيام بانقلاب ، وبسرعة العمل في تنفيذه قبل أن تنقلب عليهم السلطة فتنعكس الأمور إلى الخلف .. حتى قال جمال جميل العراقي : (إن هذا الرجل يسوقنا إلى الميدان بعصاة) .

مع أن (جمال) من أهم التحركيين عسكرياً ، ولكنه كان يستأني إلى الوقت الأنسب أو لم تكن عنده مفكرة معارضة وانقلاب في بدء التحرك ، على حين حثّ (الفُضيل) على السرعة ، وكان قوي التأثير على الأسر العريقة وعلى شبابها بصفة خاصة . كان عام ٤٧ ذروة التمخض التحركي الذي ظهر (آل

الوزير) فيه كقياديين ، على حين أصيب (الإمام) في صحته ورأيه إزاء هذا التحرك ، فلا يدري ماذا يفعل ، لأن الحركة نجمت من حوله ولم تتفجر من أي منطقة كالعادة وكان أهم رجالها من أهل ثقته ، إلى حد أن المنشورات والرصاص وصلت إلى غرفة نومه ذات ليلة وباتت تحت وساده ، وهذا أشد نذير بنهايته ، لأنه لايملك أجهزة مخابرات على كل مستوى .

لكن كيف ينتهي ؟

هل يمكن إرغامه على التنازل كـ(عبد الحميد) عام ١٩٠٩ ؟ . .

إن التنظيم لم يبلغ درجة القدرة على إنزال الحاكم ديمقراطياً وابداله بغيره ديمقراطياً أيضاً ، لأن خلفاءه في داخل الشمال كانوا يتحركون سرّاً ، لايعلنون طلباً تغييرياً ولايبدون معارضة للإمام القائم .

بهذا استحال تنازل (الإمام) عن سلطته بالأسلوب الديمقراطي .

فهل مقتله يؤدّي نفس الغرض ؟ إن كل أدبيات التنظيم ، كلّ ما نشرته صحيفة (صوت اليمن) لم تطالب (الإمام) بالتنازل ولم تحرّض على قتله ، وإنما ظلّت تردّد دعوته إلى تنفيذ المشاريع الإصلاحية : كتشكيل حكومة ، واستشارة أهل الرأي واستخراج كنوز الأرض ، لقوة صلته بالعالم الإسلامي . فلماذا لم يطالب التنظيم (الإمام) بالتنازل بعد أن رأى عدم صلاحيته ؟؟

هل مردّ هذا إلى يأس التنظيم من استجابته ، أم أنه كان يعلن الإصلاح ويبطن الاغتيال ؟

لقد دلّت تمخضات عام ٤٧ على إمكان حدوث أي شيء ، وفي ١٧ فبراير سنة ٤٨ حدث انقلاب شباط ضد (الإمام يحيى) ، وأُعلن : (عبد الله بن أحمد الوزير) إماماً بالبيعة الشرعية بعد أن أجاب الإمام يحيى نداء ربه بدون إشارة إلى مقتله ، إلا أن الإشاعة الاخبارية كانت أقوى من الإعلان ، فتلقى الشعب مقتل

(الإمام يحيى) كأعنف مفاجأة ، فأطبق الذهول على الشعب ، نتيجة عنف المفاجأة ، لأن الذين كانوا يعرفون تنامي الحركة قلة من الناس ، وكان أكثر هذا القليل لايتوقع مقتل (الإمام) ، لأن تقاليد تلك الفترة كانت تقضي بتنازل الملوك لاقتلهم ، كما برهنت الثورة المصرية بنفي الملك فاروق عام ١٩٥٢ ، وأقامت ولي عهده مقامه تحت الوصاية حتى يبلغ الرشد ، أما الغالبية العظمى من الشعب اليمني فقد أذهلتها مباغتة قتل (الإمام يحيى) .

فهل كان قتل (الإمام) أنجح الوسائل ؟؟

لقد عرف التأريخ اليمني مصرع (أئمة) قبل (الإمام يحيى) ، ولكن بطريقة مغايرة ، إذ كان يخرج على (الإمام) القائم (إمام) قاعد ، فيتقاتل الإمامان ومن معهما ، حتى يُقتل أحدهما في المعركة تتم الغلبة للقاتل . . أما الاغتيال السياسي فلم يعهده اليمن ، لهذا تعاطف الشعب مع (الإمام) القتيل ، ورأى قتله غيلةً أفظع النكرات ، لأنه في غير حرب ، ففرَّق الشعب بين القتال والقتل الاغتيالي ، وبين المقاتلين والقَتَلة .

بهذا سقط الانقلاب بعد عشرين يوماً بيد الشعب وبزعامة (أحمد حميد الدين) (أمير تَعِزّ) وأكبر أولاد (الإمام يحيى) . . فأثار قيام الانقلاب وسقوطه بتلك السرعة اهتمام الباحثين ، وبالأخص في السبعينات ، حتى أصبح ذلك الانقلاب من محاور الكتابة والجدل : فهل ينتسب ذلك الانقلاب إلى حركات العصور الوسطى ، أم أنه أقرب إلى طبيعة الأربعينات ؟؟.

إنه ينتسب إلى العصور الوسطى من حيث قيام (إمام) على أشلاء (إمام) ، وينتمي إلى فترته لكونه من عمل تنظيم أراد ديمقراطية الحكم ، ولكنه دخل من غير باب الديمقراطية وإنما من باب الاغتيال : كغلمان (الناصر) الذين قتلوا (المتوكل) العباسي في القرن الثالث الهجري . . فكان الانقلاب خليطاً من

شعائر الفترة ومن طابع الماضوية ، لأن الفترة كانت خليطاً من المؤثرات العامة : كانت شعوب العالم الثالث في بدء يقظتها ، أو في طفولة حركتها . . ففي تلك الفترة سمع اليمنيون بتحرر (الهند) من الاستعمار وقيام حكم وطني من (حزب المؤتمر) ، كما سمعوا بمظاهرة (مصر) المطالبة بحكم دستور عام ١٩ ، ثم سمعوا بيوم (الجلاء) عن مصر عام ٣٦ ، كما سمعوا عن الانتخابات والمجالس النيابية في أكثر من قطر ، فتأثروا بحركة الشعوب في ذلك الحين ، وأرادوا أن يعملوا كما عمل الآخرون ، فيتخلَّصون من الاستبداد .

إن تأثر الشعوب بالشعوب سُنَّة نضالية ، شريطة أن تعرف الجماعة المناضلة حاجة شعبها إلى التغيير وإلى نوع التغيير الذي يَنشده ، وربما لم يكن (اليمن) في حاجة إلى شكليات الحكم ، بمقدار احتياجه إلى الحكم الذي يتجاوز به الضرورات مهما كان شكله ، ولو كان بدون أشكال مُسمَّاة ، فقد اشمأز الشعب من اسم (الدستور) ، ونجح أولياء (الإمام يحيى) في تفسير اسم الدستور ، وفي تصويره في أشنع المخلوقات ، وتقبَّل الشعب هذا التشويه للدستور ، لعدم معرفته إياه أو لغياب تصور صورته .

فلماذا لم يعلن العدل بديلاً عن الدستور ؟ . لأن شعبنا كان أحوج مايكون إلى العدل الحقيقي ، لأن العدل في الثلاث سنوات الأخيرة من الأربعينات كان شبه غائب بمقدار ماكانت الحاجة إليه شديدة الحضور .

لكن : هل كانت فترة الانقلاب كافية لإبدال شعار بشعار عن دراية بحاجة الشعب ؟؟.

لقد كان ينبغي أن تسبق حملة التوعية مقتل (الإمام يحيى) ، ولأن سبق التوعية كان غير ممكن ، سبَّب مقتل (الإمام يحيى) في الشعب ردود أفعال عنيفة : أولها البكاء ، وآخرها الانقضاض على حكم الدستور . . حتى أثَّر

الانقلاب الدستوري على سرعة التحرك الشعبي ، لأن الناس رأوا (الدستورية) مرادفة للقتل ، وللخروج عن موروثات الشعب ، ولكن لم يكن هذا التأثير الوحيد في النفوس ، فبعد سقوط حكم الدستور وانقشاع الذهول ، أحسّ المواطنون إمكان انتقال السلطة من يد إلى يد حتى تملكتها قبضة الشعب . . فكما أثَّر الانقلاب في الشعب كراهية الانقلابيين ، فإنه أثَّر الحسّ التحركي وإمكان زوال أي سلطة سوى سلطة الشعب . . فإذا كان الانقلاب خليطاً من الإرادات ومن الوجوه المريدة ، فإن آثاره كانت خليطاً من حسّ التحرك ومن خوف عواقب الحركة ، لأن الذين قتلوا (الإمام يحيى) لاقوا مقتلهم على يد ابنه ، وكانوا معروفين بقوة النفوذ .

لهذا سبَّب سقوط الانقلاب أثرين متناقضين : الحسّ الحركي ، والخوف من الحركة . . فكما أصبح الانقلابيون محور الحديث والنقاش من آخر الأربعينات إلى منتصف الخمسينات ، كان حضور المحور الثاني وهو المنتصر على الانقلابيين إلى جانب الانقلابيين ، لأن الشعب بدأ يحس نهاية (العهد الحميدي) بنهاية (الإمام أحمد) .

فلماذا عجز (الإمام يحيى) عن تأسيس عهد أطول ، ولماذا عجز (أحمد) من بعده عن مدّ عهده إلى أعقابه ؟؟

هل قيام الانقلاب في شباط ٤٨ أوهن التأسيس المتوكلي ؟ .

إن هذا التساؤل لايفرّق بين العهود الملكية والعهود الإمامية ، فليست (الإمامة) وراثية وإنما لكل (إمام) شروطه الخاصة كما ينص (المذهب الهدوي) وإن كان كل وريث يدَّعي اكتمال الشروط تسويغاً لتوارث السلطة هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن قوة الشخصية الفردية لا تؤسّس عهداً طويلاً ، إلاّ إذا كوّنت نظاماً سياسياً لا يؤثر موت الفرد على امتداده ، وقد كان عهد (الإمام

يحيى) فردياً غير قابل للامتداد إلا بصفة فردية كعهد (الإمام أحمد) ، إلى جانب الظروف الهائجة في العهدين ، فمن يرجع إلى سنوات (الإمام يحيى) لا يجدها عهد تأسيس حكم وراثي طويل العمر ، لأنها كانت مشحونة بالاضطرابات والانتفاضات ، ولم يستتب الاستقرار على رقعة الشطر الشمالي إلا من منتصف الثلاثينات إلى انقلاب شباط ٤٨ ، وكان استقرار تلك السنوات سبب تحرك المدينة التي أنجبت قادة إخضاع المناطق المنتفضة من أمثال : عبد الله الوزير الذي أخمد أكثر من حركة ، لكي تؤثر فيه قوة الإخماد قدرة التحرك ، فقد كان يقول الصنعانيون عندما تهيج أية منطقة يُنتدب (الوزير) لإطفائها : (لقد رماهم الإمام بعبد الله الوزير) .

لأنهم عهدوا عنه إخماد كل تمرد مهما كان عنفه .

ألا يؤدي إخماد المتحركين إلى تحريك الذي أخمد التحركات ؟

إنه يؤدي إلى هذا ولكن بشكل آخر : فهل تلك السوابق الوزيرية أساسيات هامة لبناء العهد الوزيري أو الدستوري ؟؟ لقد اطمأنت صنعاء إلى قيام (عبد الله الوزير) إماماً لانقلاب شباط : فوالاه غير الموالي ، ودستر غير الدستوريين ، كمجاراة للعهد الجديد الذي على رأسه (عبد الله الوزير) المعروف بصيت الغَلَبَة وقوّة التديّن ، فلم يتوقع الموظفون من مختلف الدرجات سقوط (الوزير) ، لما عهدوا عنه من المهابة ، حتى أن إرسال خطاب منه يؤدي إلى طاعة جميع القبائل لحكمه ، فمعرفة صنعاء للوزير ، كانت على حساب معرفتها لأحمد ، فعندما سقط الدستور ، تحولت مزايا (الوزير) عند الصنعانيين إلى شكوك في قدراته وأخبار انتصاراته ، ونسبوا صفاته إلى من أولاه الأمر (الإمام يحيى) ، لأنه لم يثبت وحده . . وكان تركيز الصنعانيين على (الوزير) ، نتيجة استقالة (علي الوزير) من رئاسة الوزراء للسيف إبراهيم الذي كان رئيس مجلس الشورى ، لم تهتم صنعاء بذلك الاختلاف ، وإنما بدأت تتساءل : كيف سيواجه (إمام)

الانقلاب زحوف (أحمد) التي تقترب من (صنعاء) ، ولاسيما بعد هزيمة (محمَّد بن علي الوزير) في (ضروان) وهو الذي أعلن نفسه (إماماً) في منطقة بني حشيش قبل سنوات من الانقلاب وأخفق في خلال أيام !.

لقد كانت (صنعاء) قوية الثقة بعبد الله الوزير ، ولكنها على علم بتواتر سقوط (صنعاء) وانتهابها بأيدي المحاصِرين في عدة فترات . فهل ستقع هذه المرَّة في قبضة المحاصِرين ؟.

بدأت الثقة تتراجع في نفوس العاصمة بمقدار تقدم الزحوف الأحمدية .

وبسقوط صنعاء ونظامها الدستوري ، همد الفضول الصنعاني وخبا ذلك المرح المعهود عن (صنعاء) ، وحلَّت الكآبة وسوء الثقة بكل حركة ، محل التطلع والفضول والمرح ، لأن (إمام) الانقلاب المعروف بتدويخ الشجعان وقع في الأسر ، كما وقعت عاصمة حكمه فريسة للنهب .

من ذلك الحين عادت الأسطوانة القديمة تردّد لغتها في مجالس صنعاء : (لاتتدخل فيما لايعنيك ، اطلب عُمُر تنظر عجب ، خلّ السياسة لأهلها) .

فقد أثّر سقوط الحركة على (صنعاء) التي كان يَعِدها الدستوريون بالرخاء التجاري ، حتى كادت لاتشعر بدوران الزمان ، كما تمادت في نفسها كراهية (القبيلي) الفلاح ، لأنها رأت تحوله من كادح إلى فاتح في ذلك الحين .

لهذا تأججت حركة الخمسينات وأول فجر الستينات : في (تَعِزّ) و(الحديدة) و(حاشد) و(خولان) و(ذو محمد) .. ولم تنفث (صنعاء) غضبتها إلا في عام ٦٢ بالمظاهرة الطلابية ، وبانفجار ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ، وذلك بفضل ما استجد في (صنعاء) من طلاب عسكريين ومدنيين أتوا من الأرياف ، فشكَّلوا جيلاً مختلفاً عن جيل شباط ، لإتيانهم من مناطق مختلفة إلى مدارس صنعاء المدنية والعسكرية ، ورغم القوة الثورية ظلت

(صنعاء) إلى عهد التصالح عام ٧٠ تتوجس من عودة الملكيين وزحف القوى القَبَلية ، لأنها لم تنس مرارة سقوط انقلاب شباط ، لقرب عهده من انطلاق الثورة ، ولوقوع السقوط بدون توقّع ومن عادة المرارة ألاّ تنقشع إلا بأمرّ . . فكما كانت حركة شباط متأثرة بصراع الأئمة في الماضي ، وبالاغتيال الصبياني في العهد العباسي ، كانت متأثرة بانتفاضات الشعوب وبالشعارات الدستورية والنيابية في بعض أقطار العالم الثالث ، فبمقدار تعدد طوائف المؤثرات في نفوس الشباطيين ، كان أثر الحركة في الشعب اليمني من لونين : حسّ التحرك إلى الأفضل ، والتوجّس من عواقب أي تحرك . . وظل ذلك الأثران يتنازعان نفوس المواطنين حتى انفجار ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢ .

* * *

ثقافة الانقلابيِّين

من عام ٧٨ تزايد الاهتمام - في مركز الدراسات والبحوث اليمنية وفي جامعة صنعاء - بانقلاب ٤٨ ، وربما كتب فيه من الأماديح الإنشائية ، وذلك بقصد تفنيد الآراء والدراسات ، التي سَبَرَتْ أغوار ذلك الانقلاب ، وأسبابه العامة ، فقد حقَّقت بعض الدراسات ارتباط الانقلاب بعجلة الاستعمار البريطاني ، الذي كان يحتل الشطر الجنوبي من الوطن يومذاك ، كما عثرت بعض الدراسات على وثائق من أمثال : رسالة جمال جميل العراقي إلى حكومته في بغداد مطالباً مؤازرة الانقلابيين اليمنيين ، من جهة حكومة العراق التي كانت تدور في فلك الاستعمار البريطاني أيضاً ومن أمثال رسائل السيف إبراهيم ابن الإمام إلى أخيه أحمد التي كشفت ظلوع الاستعمار في الانقلاب ، كما كشفت صدمة نعمان والزبيري بمقتل الإمام يحيى ، ولعل أول الإشارات التي ألمحت إلى تبعية الانقلاب الشباطي للاستعمار : هي تلك اللمحات الأدبية في كتاب (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه) وذلك من خلال دراسة نتاج شعراء انقلابيين أو تابعين لقادة الانقلاب من أمثال علي عبد العزيز نصر وقاسم غالب أحمد ، نتيجة لهذه الإشارات وتلك الدراسات ، سخَّر مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، إمكانيته الرسمية والاقتصادية لتمجيد انقلاب ٤٨ ، وهجاء الذي يسبرون أغواره ، أو يتكشَّفون دوافعه وارتباطاته ، وبالأخص من عام ٧٨ إلى الآن ، حتى لاح المركز منقطعاً لانقلاب ٤٨ ، جاعلاً من ذكراه السنوية موسماً هجائياً ضد الباحثين والمؤرخين العلميين من أمثال الدكتور محمد الشهاري والدكتور البرّاو ، فسنة يحيي ذكرى الانقلابيين ، وسنة يحاول أن يخلق لهم من

الأفكار الوطنية ، مالا تدل عليه حياتهم وأطروحاتهم ، وسنة يضيف إليهم من النظريات الثورية ، مالا يخطر على بال الأربعينات والأربعينيين ، غير أن الجمهور المثقف أخذ يقاوم أطروحات مركز الدراسات بأطروحات معززة بالوثائق وصحة الاستنتاج الموضوعي .

لهذا حاول المركز أن يدنو من الموضوعية قليلاً ، فخصص احتفاله بالانقلابيين عام ٨١ بثقافتهم فركّز ندواته في هذا العام على ثقافة ثوار شباط ٤٨م ولعل هذه من أهم اللفتات إلى ذلك الحدث وصانعيه ، فقد كان التقريض والتنديد أكثر الموضوعات حول أولئك الرجال ، وحول الحدث من إبان قيامه في شباط عام ٤٨ . في ذلك الحين ولدت عدة قصائد مبشّرة ومندّدة بذلك الحدث ومفجريه . فكما سمعنا صوت (محمد محمود الزبيري) و(أحمد الخزّان) يبشر بالثورة ومستقبلها . سمعنا (عبد الكريم الأمير) يندّد بالانقلابيين من نفس بحر (الزبيري) ، ألم يقل الزبيري :

سجل مكانك في التأريخ ياقلمُ   فها هنا تبعث الأجيال والأمم

ومن نفس البحر البسيط واختلاف القافية رد (عبد الكريم الأمير) مخاطباً (الإمام يحيى) بعد مصرعه :

الأرض بعدك قفر .. والدُنى طللُ   ياشمس يابحر يافردوس ياجبلُ

ولعل هاتين القصيدتين أحد الشواهد على اختلاف المثقفين حول قيام الدستور وعدم قيامه ، فقد كان (الأمير والزبيري) من مستوى ثقافي واحد وعلى طرفي نقيض في الفكر السياسي وعلى قدر من المنافسة الأدبية رغم انتسابهما إلى التعليم الديني وأوائل المعاصرة الثقافية .

من هنا كانت دراسة ثقافة تلك الفترة من أهم الالتفاتات التقويمية ، فقد كان (الزبيري) و(الأمير) من أكثر مثقفي ذلك الحين معاصرة وصلة

بالمعاصرين ، لأن (الزبيري) تعلَّم بدار العلوم في (القاهرة) سنتين ، كما كان للأمير صلة وثيقة بالثقافة المعاصرة وبالأخص الثقافة الصحفية بحكم أنه كان رئيس تحرير جريدة (الإيمان) من ٤٧ إلى ١٩٥٩ وعن طريق التبادل الصحفي المعروف اتصل (الأمير) بالصحافة العربية على اختلاف اتجاهها ونوعها من : سياسية وأدبية ، واجتماعية ، ومع هذا كان (الزبيري والأمير) على طرفي نقيض على واحدية الثقافة والفترة والهواية الأدبية ، أما غير هؤلاء الشعراء فلم ترتفع أصواتهم إلا بعد سقوط الانقلاب ، وربما كانت بعض تهنيآتهم (الشعرية) للإمام أحمد أقرب إلى تملق المنتصر منها إلى التهجم على الانقلابيين ، فقد توالت القصائد المندِّدة بالدستوريين من أيام سقوطه إلى منتصف الخمسينات وحملت تلك القصائد الصحف الرسمية (النصر وسبأ والإيمان) ولعل أبرز الشعراء الذين تهجموا على الانقلاب هم : (صالح الحامد) من حضرموت (حمود دولة) من ذمار (محمد موسى) رئيس تحرير النصر تَعِزّ ، (علي حمود الكوكباني) من الطويلة محمد حسن الوريث ، وعلي بن علي صبرة ، (أحمد الخزان) من دار العلوم بصنعاء ، والأخير من الذين أشادوا بالانقلاب عند قيامه وندّدوا به بعد سقوطه ، غير أن هذه القصائد وأمثالها لا تكوّن رأياً تقويمياً للحدث الدستوري وإنما هي وسائل تقرب إلى (الإمام) المنتصر ومنبراً ثقافياً ، كما أنها محاولة تبرئة من التهمة بالدستور لكثرة الأدباء في رجاله من أمثال : زيد الموشكي ، إبراهيم الحضراني ، أحمد محمد نعمان ، المؤرخ محمد الأكوع ، أحمد الشامي ، محمد صبرة ، أحمد المعلمي ، أحمد المروني ، محمد عبد الله الفسيل ، عبد الرحمن الإرياني ، فبعد انتصار (أحمد) استضافت السجون في (صنعاء) و(حجة) المئات من المتهمين بالمشاركة والمتهمين بالسكوت على اغتيال (الإمام) والمتهمين بمجاراة الدستوريين ، فقد سجن الكثير من أعمدة العهد اليحيوي من أمثال : (حسن مظهر) و(على لطفي) من كتاب مقام (يحيى) ومن أمثال : (الصفي الجرافي) و(قاسم إبراهيم) و(عبد

القادر بن عبد الله) و(زيد عقبات) ، إلاّ أن سجن هؤلاء كان قصير المدة لايتجاوز شهوراً أو عاماً ذلك لأن (أحمد) أراد أن يقمع رجال صنعاء حتى الذين لم يستنكروا الحادث أو الذين لجؤوا إلى الصمت ، من هنا لم يكن السجن دليلاً على المشاركة في الدستور ، وإنما (الإعدام) وطول مدة الاعتقال هو الذي دل على خطورة الرجال لعلمهم المباشر في الانقلاب أو لتخطيهم لذلك الحدث من بداية الأربعينات .

إذا لاحظنا جميع الذين سجنوا من انقلابيين ومجارين ومتفرّجين على الدّور ، فسوف نلاحظ أنهم كانوا أبناء مدرسة ثقافية واحدة ، لكن متى كوّنت تلك الثقافة نظرية معرفة سياسية ثم تحوّلت إلى منهج نظري في السياسة ؟ إنَّ الثقافة وحدها لاتشكل حسّاً ثورياً ولا وعياً ثورياً مالم يكن المثقف ثائراً عن حسّ اجتماعي تزيد الثقافة من بُعد رؤيته وشمسية استبصاره ، من هنا يبرر البحث الرجوع إلى أول الخط الثقافي من بداية القرن العشرين ، لأن أغلب رجال الدستور من مواليد آخر القرن التاسع عشر والعقد الأول والثاني من القرن العشرين ، ولاشك أن هؤلاء ولدوا في ظل عهد كانت كل دراسته : الفقه وأصوله القرآن وتفسيره واللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها ، كانت هذه هي الدراسة السائدة من بداية القرن التاسع ميلادي في كل منطقة يحكمها (إمام) أو (سلطان) أو (ملك) ، وتداخلت هذه المعارف الهدوية بالمذهبية الشافعية كجبهة واحدة ضد (الإسماعيلية) و(القرمطية) ، ولم تكن سنّية (الرسوليين) و(الطاهريين) في القرن الرابع عشر والخامس عشر على طرفي نقيض مع (الزيدية الأصلية) ، وإنما كان صراعهم مع (العلويين بصَعْدة) سياسياً خالصاً ، ومن مطلع القرن السادس عشر تنامت الثقافة (الهدوية) في ظل (القاسميين) كامتداد لفلسفة (الهادي) المتفرعة عن (الزيدية) وكفقهية ابن المرتضى وتفلسفه ومعتزلية نشوان بن سعيد الحميري وحماسية الهمداني للسلف

اليمني الحضاري وكانت الفترة التركية الأولى أعجز من أن تسيطر على المدارس الزيدية الهدوية في (صَعْدة) و(شهارة) بل كان الوجود العسكري التركي أدعى إلى التشبث بالثقافة (الهدوية) في الاحتلال الأول وفي الاحتلال الثاني ، ومن بداية القرن العشرين لم تعد الثقافة (الزيدية الهدوية) مجرد تراث ، وإنما أصبحت سلاحاً في وجه الاحتلال التركي باعتبار أنها عقيدة الشعب ودستوره خصوصية ثقافته المحلية ، وعزز هذا تولية (المنصور محمد بن يحيى) كإمام محلي على الزكوات والأوقاف والقضاء الشرعي كما سبق التنويه ، ولما مات (المنصور) انعقدت البيعة على يد أربعة وعشرين من فقهاء البلاد للإمام (يحيى) وهذا تقليد هدوي مارسه الإمامان في ظل الطربوش التركي ، وإذا كان (المنصور) يكتفي بمطالبة الاستقلال عن طريق الرسائل إلى (الآستانة) ، فإن (يحيى) استخدم الوسيلتين المراسلة والقتال ، وكان العرش العثماني يتداعى من جراء الانتفاضات العربية والمؤامرات الأوربية ، فزادت قبضته على (اليمن) تراخياً فأصبحت الكتب الهدوية مقروءة علناً حتى في (صنعاء) ، وكلما زادت سلطة (الإمام يحيى) عن طريق القتال والمعاهدات زاد إنتشار الثقافة الهدوية لكي يحلّ الفقهاء والفقه محل الأتراك ومحل القانون التركي ، وعندما حققت اليمن استقلالها عام ١٩١٨م كان رجال الدولة مرشحين للحكم لأنهم من رجال الفقه وأصول الدين وأعلام اللغة أو أبناء مدرسة شهارة كما كان يقال ، في ذلك الحين نشأ الجيل الجديد الذي بلغ الرشد في الأربعينات ، من عام عشرين اتجه مقام (الإمام يحيى) إلى طبع المخطوطات من الكتب الهدوية ، وبالأخص (أحكام الهادي) واختياراته وكتب (القاسم بن محمد) وأصوليات (الحسين بن القاسم) وكتب (أحمد بن المرتضى) ولاسيما (فقه الأزهار) و(البحر الزخّار) وكان هذان الكتابان مقررين في (دار العلوم) التي افتتحها (الإمام) في أول العشرينات فكانت أول دار علوم تعد القضاة الشرعيين وحافظي المناطق ، بل كان تعلم تلك الكتب مفروضاً على كل الموظفين وعلى سائر

التجار ، لأن الفقه كان مرشحاً لكل وظيفة حتى الوظائف الحسابية والوظائف المدنية في الجيش : كالإدارات والمكتبيات كما كان مبصراً للتجار بشروط البيع وتحريم الربا لأن(دار العلوم) كانت امتداداً متطوراً لجوامع (شهارة) و(صَعْدة) ومواكبة لها إلا أنها تميزت بالرسمية ، تحتم على (الإمام) توظيف خريجيها بحكم دراستهم على نفقة الدولة لخدمتها وقبض نقودها ، وفي هذه المدرسة (دار العلوم) وأمثالها من الجوامع تتلمذ رجال الدستور من منتصف العشرينات إلى منتصف الأربعينات لأن دراسة الفقه كانت تمكنهم من نيل الوظيفة حتى تخمين المزارع وقبض الزكوات ، فقد كان من مهنة الفقهاء إلى قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م التخمين وقبض الزكوات ومقدمية الجيوش ، وكانت العاملَ الترشيحي للوظائف الكبرى ، مثال على ذلك (عبد الله الوزير) (إمام شباط) فقد كانت أول أعماله قبض الواجبات في لواء (ذمار) مدة ثلاثة أعوام ثم تعين محافظاً على (ذمار) وكان في أثناء هذا العمل يتعين (مقدمي) أي قائد جيش عندما يحدث أي تمرد حتى أنه قاد عدة حملات - حملة (صعفان) حملة (حاشد) وحملة (براع) ضد الإدريسيين - ثم تَعيّن بعد تصالح (الطائف) محافظاً للواء (الحديدة) آخر الثلاثينات ، ومثله (الموشكي) فلم يصل إلى محكمة (شرعب) إلا بعد أن خمّن مزارع (عتمة) و(وصاب) وقدر كمية الزكاة ثم ارتقى من التخمين إلى قبض الزكوات ثم إلى (حاكم شرعب) . والوحيد الذي لم يترق من قبض الواجبات إلى المحكمة هو (الأستاذ الزبيري) الذي مارس قبض زكاة (ماوية) عاماً وقبض زكاة (ذي السفال) عاماً آخر ثم فرّ إلى (عَدَن) عن طريق (جدة) . وكل هذه الأعمال من تخمين وقبض زكوات و(مقدمية جيوش) كانت تستدعي وفرة المحصول الفقهي والأصول الدينية واللغوية وكل الثقافات السائدة من منظور هدوي ومعتزلي ، وكانت هذه ثقافة العشرينات الرسمية ولاتختلف عنها كثيراً الدراسات الخاصة في الجوامع : كجامع (المدرسة الشمسية) بذمار أو جوامع (ضوارن) و(صَعْدة) و(شهارة)

و(حوث) ، وإنما كانت تختلف مدارس (زبيد) و(المراوعة) و(تَعِزّ) و(لحج) و(جبلة) و(عدَن) ، فقد كان الفقه الشافعي يدرس في (جبلة) و(زبيد) غير أن القضاء الشرعي والجنائي كان في كل المناطق على (المذهب الهدوي) حتى الذين تولوا القضاء من المناطق الشافعية كانوا من المحققين في الفقه (الهدوي) كآل الحداد وآل المفتي في (إب) وآل باشا في (العدين) وآل السماوي في (عتمة) بل إن أغلب القضاة في تلك المناطق من (صنعاء) و(شهارة) من أمثال : عبد الله علي الوزير في (ذي السفال) وأحمد الآنسي في (مقبنة) وعلي صبرة في (ماوية) والجنداري والحلالي في (الحجرية) ، ولم يكن لكل منطقة قضاء بمقتضى مذهبها كما كان الحال في (مصر الأيوبية والمملوكية) إذا كان تعلّم الفقه سبب التوظيف الرسمي فإن تعلّم اللغة وفلسفاتها كان السبب المؤدي إلى الثقافة المعاصرة ، وكانت الهدوية الزيدية أميل إلى تحصيل الأفكار وصنعتها فكانت ثقافة جميع أتباع المذاهب . لقد كان الأئمة يؤاخون الشافعية دينياً ويفرضون على كل المناطق مذهبهم سياسياً ومدنياً وجنائياً ، لهذا كانت دراسة الفقه (الهدوي) مدعاة النباهة الاجتماعية ووسيلة العمل الوظيفي ، فهي أهم مكونات (الشباطيين) ، وقد تتلمذ رجال ١٩٤٨م في العقد الثاني من القرن العشرين وفي العشرينات على الكتب الهدوية وشيوخها من أمثال : (علي المغربي) و(عبد الله اليدومي) و(قاسم العزي) و(سيدنا حسين العمري) و(زيد الديلمي) على سنّيته و(يحيى الإرياني) الذي كان يرأس الاستئناف في مطلع الأربعينات .

إذن فقد كان التعليم الفقهي واللغوي أول دراسة رجال شباط . صحيح أنهم مزجوا دراسة الفقه بالقراءات الخاصة في كتب التأريخ ودواوين الشعر القديم ، وكان الفقه (الزيدي الهدوي) يرى الشعر أهم وسائل الدعاية وأوعى معاجم اللغة ، فأغلب الأئمة كانوا شعراء أو من محبي الشعر ، وكان (الإمام يحيى) أثقف الأئمة بالشعر والتأريخ ، حتى أنه كان يجالس جملة من النابهين

في الحياة القلمية (كعبد الكريم مطهر) و(يحيى الذاري) و(راغب بيه) المعني بالسياسة الخارجية ، إذن كانت فقهيات العشرينات الأساس الأصيل الذي كوّن رجال شباط ورجال النظام . فمن (دار العلوم) تخرج (زيد الموشكي) كما تخرج (الحورش) من (دار المعلمين) ببغداد وهي يومذاك نسخة منقحة من (دار العلوم بصنعاء) .

من مطلع الثلاثينات بدأت المطابع المصرية تخرج كتب السنّة كبعض مؤلفات (الشوكاني) و(المقبلي) و(الأمير) و(الوزير) و(الجلال) ، وكانت هذه الكتب تعنى بالسنّة وتتجاوز المذاهب إلى الخلف لكي تستخلص أحكامها من آيات القرآن والمأثورات النبوية ، وهذا وماتسمى بالاجتهاد لتجنبه تقليد أي مذهب من المذاهب الخمسة ، وقد شجعت السلطة الإمامية في مطلع الثلاثينات نشر كتب السنّة لأنها ترفض الخروج على الظالم وتسمي أي تحرك اجتماعي ضد السلطة فتنة مستدلة على هذا بقول النبي عليه السلام (الظالم سيف الله في أرضه ينتقم به ثم ينتقم منه) ، وإلى جانب هذا عشرات الأحاديث في النهي عن الخروج وشق العصا وإيقاظ الفتنة ، فلماذا شجعت السلطة الإمامية نشر تلك الكتب ؟ لأنها لم تعد مضطرة إلى التشيع المتحمّس بعد خروج الأتراك ، وإنما رأت الكتب السنية أجدى دعوة إلى الجمود السياسي . ومع هذا لم تعلن قصدها وإنما استمرت في منع هذه الكتب بدار العلوم وتغاضت عن دراستها في البيوت والمساجد ، حتى أن بعض رجال السنّة كانوا في موضع ثقة (الإمام يحيى) (كزيد الديلمي) و(عبد الرحمن الشامي) ، وكان يعادلهما في مجلسه باثنين من الشيعة (عبد الله الوزير) و(قاسم العزي) ، لأنه كان يرى جدوى الإمساك بوسط العصا .

المهم أن الثلاثينات أتاحت المجال لكتب السنّة لما فيها من ترغيب عن الخروج الثوري وترهيب من عواقب الفتنة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن

(محمد البدر الأول) أراد استرضاء رجال السنّة بنشر مؤلفات أعلامهم ، عندما تبرجت هذه الكتب للعيون رأى فيها الساخطون على (الإمام) مصدر معارضة للحكم الشيعي فمال الكثير إليها لأنها اجتهاد يخالف مذهب الحكم المنتمي إلى (الهدوي الزيدية) .

من آخر الثلاثينات تسللت أوائل كتب النهضة إلى جانب التواريخ القديمة والشعر القديم ، فاتسعت دوائر الثقافة وتمازجت الأشعار بالفقه واللغة بالفلسفات والسنّة بأولى الجرائد والمجلات ، ولعل أول الكتب التي دخلت البلاد تسللت عن طريق (عَدَن) وعلى أيدي البعثات الوافدة من مصر والعراق والسودان ، وربما كان كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) للكواكبي و(أم القرى) له أيضاً من أوائل الكتب التي وقعت في أيدي رجال شباط وأمثالهم ، وربما كان هذا الكتاب عن الاستبداد وأشباهه أصعب هضماً على المعدات الفقهية ، حتى أن بعض رجال تلك الفترة لم يفهموا أسلوب (طَه حسين) و(العقاد) في دراستيهما الماضي الأدبي والديني لمغايرتهما بعض الشيء لأساليب (أحمد بن يحيى المرتضى) و(المسعودي) و(الجاحظ) ، بل إن بعض نابهي تلك الفترة استغربوا (شوقي) ، حتى أن (علي عقبات) كان يسخر بأشعار شوقي ويفضل عليه أي شعر قديم أو نثر قديم كمقامات الحريري ، وأشعار (البهاء زهير) مع أن شعر (شوقي) كان قليل الاختلاف عن شعر القرن الرابع هجري .

غير أن الكتب الجديدة والقديمة تمادت في التيسلل إلى بلادنا لكنها كانت نزّاعة إلى القديم وليس فيها من المعاصرة إلا العناوين والأسلوب التحليلي ، من أمثال : (حياة محمد) لهيكل الذي كان يوزعه (الحورش) كما يروي البعض وكتاب (حياة محمد) رغم اختلافه عن (سيرة ابن هشام) لايكوّن وعياً ثورياً وإنما أهم ما فيه تحليل إنسانية النبي ، وفضله بين ما هو عن وحي وما هو بشري

ومثل حياة محمد كتاب (وحي القلم) للرافعي وهو لايحمل أي نفحة معاصرة بل إنه دعوة عنيفة إلى التقدم إلى إبعادّ الماضي ، لأنه على غرار أسلوب الجاحظ بلا ثقافة الجاحظ ، ولعل أهم كتاب في ذلك الحين هو رواية (الانقلاب العثماني) لجرجي زيدان لأنه تمحور موضوع الانقلاب وأدار الأحداث حول مايطلبه (أنور ونيازي) ، فهذه الكتب كلها تنتمي إلى الماضي البعيد وإلى الماضي القريب ، لأن كتاب (الانقلاب العثماني) يؤرّخ الحركة التركية ضد (عبد الحميد) عام ألفٍ وتسع مئةٍ وتسعة ، أي قبل ثورة الدستور بتسعة وثلاثين عاماً بعد أن أصبحت تركيا جمهورية .

إذن فما هي ثقافة رجال ثمانية وأربعين ؟ إن معرفة ثقافتهم من أهم الوسائل لتفكيرهم ، ولكن هل تلك الكتب هي التي كونت ثوريتهم ، كما ترى ندوات المركز الدراسي ؟ ليس فيها كتاب واحد يتّسم بالمعاصرة السياسية أو يركز على موضوع أحداث العصر ، ومثلها المجلات التي منها : الرسالة والمقتطف فإنها خالصة الأدبية ، وأغلب أدبياتها رومانتيكي غير ثوري وكتابات بلاغية ، لأن الفترة إلى آخر الأربعينات كان يغلب على ثقافتها إحياء ثقافة الماضي ومحاكاتها ومحاولة عصرنتها ، وإذا افترض البعض أن تلك المقروءات تشكّل أسياسيات ثورية ، فإن تحوّل الثقافة إلى وعي ثوري يحتاج إلى مدة أطول وإلى أصالة ثورية ، فقد قامت (الثورة الفرنسية) بعد ثقافة ثلاثة قرون ، من أول القرن الرابع عشر إلى آخر القرن السابع عشر ومع هذا لم تنجح الثورة وإن أثّرت على نجاح الثورة البرجوازية في كل أوروبا وكان كبار الروائيين ملكيين . فإذا اعتبرنا بعض رجال ثمانية وأربعين متأثرين بالثورة الفرنسية التي وصلت بعض الكتابات عنها عام ٤٥م ، فهل يمكن أن يتحول التأثر الثقافي إلى وعي ثوري في خلال ثلاث سنوات ؟ إن أوروبا القرن العشرين وصلت إلى الثورة الصناعية والثورة التقدمية بعد خمسة قرون من الثقافة التغييرية والأعمال الثقافية

السياسية ، فهل نهضم في سنوات ثقافة خمسة قرون ؟ إن الثقافة مجرد بذر يتحول إلى نظرية معرفة ثم إلى منهاج عمل ، فهل بمقدور تلك الكتب التي وصلت إلى بلادنا في الأربعينات أن تحوّل المرء إلى ثوري ثم إلى نظري ثم إلى منهجي ؟ إن تلك الكتب التي تسلّلت إلى بلادنا كانت أقرب إلى فهم الماضي أكثر مما هي إضاءة على العصر . تدل كتابة (عبد الله العزب) المتوفى عام ٤٦م عن الأدب ونصيب اليمن منه في (مجلة الحكمة) على أنه يرد على الدكتور طّه حسين (في الشعر الجاهلي) .

وهذا يدل على وصول كتاب (طّه حسين) إلى بلادنا في آخر الثلاثينات مع أنه نشر عام ١٩٢٥م يمكن أن نأخذ في الشعر (الجاهلي) لطه حسين و(حياة محمد) لهيكل و(طبائع الاستبداد) للكواكبي و(الانقلاب العثماني) لجورجي زيدان وسوف نلاحظ أن هذه الكتب ماضوية رغم كتابتها في العشرينات والثلاثينات وأنها إضاءة للماضي وليست توعية ثورية ولانظرية سياسية مستقبلية . إذا كان لابد أن نعرف ثقافة (الشباطيين) فسوف نتأكد أن الثقافة السلفية هي التي كوّنتهم لأنهم هضموها وهضموا مايمتد منها ، وإذا كانوا على إطّلاع ببعض كتب فترتهم فإنهم لم يستوعبوها جيداً ، وإذا استوعبوها فلم تكن سبب تثويرهم لخلوّها من الثورية المعاصرة ونظرية الحكم .

إذن فهل ثاروا بلا ثقافة ؟

إن الثورات سبقت الثقافات الكبرى : كانت حركة (سبرتاكوس) على إمبراطورية (روما) قبل المطابع لأن الناس لايحتاجون إلى كتب تعرّفهم عبوديتهم .

إن العبودية والقهر والاستبداد معروفة بلا قراءة وبلا جرائد ، لأن كل إنسان وكل حيوان يحسّ بوقع السوط عل جلده ويحز السكين في عروقه ،

لاشك أن الثورة عن ثقافة خصبة أصح منطلقاً وأبعد رؤية واستبصاراً . إذا كانت ثقافة الشباطيين أبعد عن أن توعّي ثورياً ، فما هي المؤثرات العامة فيهم ؟ لعلهم قد عرفوا - بأي مقدار - أنظمة الحكم في غير (اليمن) لهذا حاولوا نقل الحكم من الاستبداد الفردي إلى النظام الدستوري على غرار ماكان قائماً في مصر والعراق والشام . لكن هل كانت تلك الشعوب في ذلك الحين راضية عن أنظمتها الدستورية والنيابية ؟ لقد كانت مصر في عام ١٩٤٨م تخطط لقيام الجمهورية التي أطلعتها ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ وكانت سوريا في ذلك الحين تسقط رؤساء الجمهوريات في كل عام وربما في كل عام مرتين وكذلك العراق فإنه استهل الانقلابات من منتصف الثلاثينات ، فمجرد الانتقال من الاستبداد إلى الدستور خطوة هامة بالنسبة لبلادنا ، ولكن ما كيفيّة تطبيق الدستور ؟ مامدى تعبيره عن الواقع العام ؟ إنَّ دستور (تركيا) لم يحمها من الانهزام أمام الحلفاء ، كما لم تخرجها الأوربة الكمالية إلى أوربا ولم تبقها تركيا ، الحركات مجرد وسيلة والدستور مجرد ضوابط لسير الأعمال وشرعية القرار وترتيب المنجزات والخدمات العامة .

من هنا نتبين أن ثقافة (الشباطيين) لم تكن من السلفية والمعاصرة كما يرى البعض ، وإنما كانت سلفية خالصة ، فعلى اختلاف مستويات الانقلابيين ثقافياً واقتصادياً فقد كان يجمعهم أساس واحد هو شدة التدين ومحاولة إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . حتى أن الشيخ (أحمد محبوب) - وهو من كبار المقرئين - تعيّن وزيراً للإرشاد ، لأن الإرشاد في مفهومهم توجيه ديني يقوده أحد رجال القرآن وعلم القرآن ، مع أن مفهوم هذه الوزارة يختلف عن رأي الأربعينيين في بلادنا . فهل كان ينقص (الإمام) ورجاله التدين المتشدّد ؟ .

لقد كانت الصفات الدينية أعظم المرشحات للتوظيف ، وكانت الحدود

منفذة ، فكم شاهد الناس في صنعاء وسواها طيلة الثلاثينات والأربعينات تنفيذ حدّ القصاص ، وقطع الأيدي على السرقات ، والجلد على السكر والزنا ، وإجراء حد الخلف على قطاع الطرق . . فالتشدد الديني أصل جامع للسلطة اليحيوية والانقلابيين ، إلا أن الانقلابيين أخذوا على الإمام يحيى بعض التهاون في الحدود وعدم تقصّي بيوت باعة الخمر ، لأنه كان يرى الشريعة على الظاهر ووجوب درء الحدود بالشبهات كما في الأثر .

فهل كانت ثقافة (الشباطيين) أكثر استنارة من رجال الحكم ؟ إن (الإمام) و(الأمراء) كانوا أقدر على امتلاك الكتب الحديثة فقد كانت المطابع المصرية والسورية والعراقية واللبنانية تهدي إلى الإمام و(الأمراء) كل كتاب جديد تصدره ، كما لاحظ الناس يوم الثورة عندما خرجت كتب القصور إلى مكتبة الجامع الكبير ، صحيح أن الأمراء أقل قراءة كما أن الأحرار كانوا أقل كتابة تدل على معاصرتهم ، ومع هذا يمكن تقسيم تنظيم الأحرار إلى ثلاثة أصناف .

١ - سلفيّ خالص السلفية .

٢ - معاصر قديم .

٣ - أقرب إلى المعاصرة في ذلك الحين .

وعبارة المعاصرة هنا مجرد تجوّز بالقياس إلى السائد ، لأن التأريخ العلمي يعتبر عهد الحداثة من أول القرن السادس عشر إلى مابعد الحرب العالمية الثانية ، ويعتبر العصر الجديد من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن . وهذا يشكل فرقاً بين الحداثة والمعاصرة ، ولعل المعاصرة بمفهومها التأريخي تسللت إلى بلادنا من بداية السبعينات ثقافياً وإلى الآن لم تسد المعاصرة كل حياتنا ، لأن معاصرة الخارج تنبجس من معاصرة الداخل ، فيمكن أن نقول إن ثقافة

(الشباطيين) سلفية ومزيج من السلفية والحداثة إذا ابتغينا الدقة ، ومهما يكن فإن رجال ١٩٤٨م لم تخلقهم الثقافة وحدها ، وإنما الضرورة هي التي أنتجتهم ، لأن المثقفين الحقيقيين هم الذين تغيرهم الثقافة لكي يغيروا بها ، ولعل تلك الفترة القصيرة من تشكيل التنظيم عام ١٩٤٤م إلى الانقلاب عام ١٩٤٨م لم تكن في ذلك الحين كافية للتغيير بالثقافة والتغيير من خلالها .

* * *

حركة ٤٨ بين واقعها
وواقع الكتابات عنها

ليس تفجر الحركات بدعة ابتدعها عصر ، وإنما كل التأريخ الإنساني مليء بالحركات منذ شعر الإنسان بالخطر ودرء هذا الخطر ، بل إن الحركات مدد التأريخ وسببية كتابته ، سواء كان تسجيلياً أو تحليلياً ، ولعل تأريخ بلادنا أحفل بالحركات الدموية من أول صفحاته ، غير أن حركات الماضي كانت موسومة بالعشائرية ، وإن كانت أهم دوافعها اقتصادية ، ومهما كانت عشائرية تلك الأحداث ، فإن تواصلها يؤدي إلى الحركات الهادفة ، لأن الوجه الثوري الوطني يتجلى من غبار الأحداث المتلاحقة . . ولعل حركة شباط ٤٨ أعلى ذروة الأحداث المتواصلة على امتداد التأريخ الإمامي والسلاطيني والعشائري ، لأن الأحداث التي سبقت شباط كانت معارك الرؤوس العالية من أئمة وملوك وشيوخ إقطاع ، وإن كان الشعب أدواتها وضحاياها وميدان ركضها ، ومع هذا كانت كل هذه الأحداث الينبوع التي تفجرت منه ، وبالأخص معارك التحرير ضد الأتراك ، لأنها عن نزوع وطني توخّى التحرير من الأجنبي ، وكان الصراع أبرز عمل وطني نقل الشعب من الحروب العشائرية إلى قتال محتل الوطن .

فهذا النضال أول تفجر وطني ، لأنه اتّقد في الوطن من أجل الوطن ، وهذا هو الفرق بين الأحداث التي تشتعل في الوطن ، وبين الأحداث التي تتوهج للوطن ، ولامراء أنّ حركة ٤٨ عريقة الانتماء إلى معارك التحرير ، لأنها جاءت منها وامتدت بشكل مختلف عنها ، لأن قتال المحتل يؤدي إلى الاختلاف على

كيفية النظام الذي يليه ، كما يثير الصراع بين المنتصرين على نوع الوضع بعد رحيل العدو المنهزم ، وهذا ماحدث في تأريخنا المعاصر في أكثر من موطن ، ولعل أسبابه تنتسب إلى ماقبل الاستقلال ، إذ كان (المنصور محمد بن يحيى) إماماً دينياً قضائياً في ظل الاستعمار التركي ، بمقتضى اتفاقات بين (شهارة) و(الآستانة) ، وبعد وفاة (المنصور) انعقدت البيعة لابنه (يحيى بن محمد) ، فمدّ عهد أبيه في التفاوض مع الأتراك وفي ممارسة الإمامة الدينية في ظلّهم ، وكانت سلطاته تتسع بمقدار زيادة قوّته وبمقدار ضعف الأتراك ، ولما انتقل التفاوض إلى العمل المسلح أصبح (الإمام) الديني قائد الصراع العسكري حتى تحقق الجلاء عام ١٩١٨ ، فلم يأت (الإمام) إلى قيادة التحرير من غمار الشعب ، وإنما من الإمامة الدينية والقضائية ، إلى الإمامة السياسية .

بهذا تعددت الجبهات ضدّه لكونها شريكته في الحروب وتريد مشاركته في غنائم الحروب ، غير أنه كان أقدر بطول تجاربه على امتلاك السلطة وإخضاع الطامحين من أبناء الأئمة ورؤساء العشائر ، فأصبح بعد سنوات من قمع القلاقل (الإمام) الذي لايُنازَع ، لأنه احتاج إلى كفاءة رجال لحرب (الأدارسة) في (تهامة) وإخضاع المناطق الوسطى والشرقية ، أصبح هؤلاء الرجال شركاءه في ترسيخ الحكم ، كما كان الذين قبلهم شركاؤه في ملاحم التحرير ، وقد تمكن من إخضاع زملاء السلاح بأيدي الّذين آزروه في تأسيس العهد من أمثال (محمد ابن عبد الله الشامي) ، (عبد الله أحمد الوزير) ، (علي عبد الله الوزير) (يحيى محمد عباس) . . وكان يختار هؤلاء عن معرفته بولائهم وعن معرفتهم بتميزه ، ولم يختر لقيادة إخضاع المتردين ولقتال (الأدارسة) ضباطاً عسكريين من بقية الأتراك وأوائل الضباط اليمنيين ، لأنه كان يريد انقياد العسكريين للسياسة لاالعكس ، ولايخلو هذا من بعد نظر ، لأن الحرب سياسة أو أدوات تنفيذ الأغراض السياسية .

لهذا كان الفقهاء في تلك الأحداث بمثابة الضباط السياسيين من تنظيم السلطة ، لكي يملك القياد السياسي للحرب وكان يسمى هؤلاء الفقهاء الساسة (بالمقادمة) ، لهم حق إصدار الأوامر إلى الجيش بالهجوم أو الانسحاب ، كما كانوا مخوّلين بالتفاوض مع المتمردين إذا دخلوا في الطاعة أو جنحوا إلى السلم ، وكان أشهر هؤلاء (المقادمة) أو الضباط السياسيين (عبد الله بن أحمد الوزير) (إمام شباط ٤٨) ، فقد جاء (الإمام يحيى) إلى السلطة من منبعين : المبايعة ، وقيادة النضال . .

كما جاءت معارضته من بناة عهده أو أعمدة نظامه ، وكان اختلاف المعارضة بمقدار اختلاف الوضع الذي تعارضه ، فلأن (الإمام يحيى) أسّس نظاماً مختلفاً عن نظام آبائه ، غاير رجال المعارضة له خروج آبائهم الذي كان يتوخّى إسقاط (إمام) بقيام (إمام) ، وهذا بفضل الحداثة النسبية الذي تمتع بها نظام (الإمام يحيى) ، فقد شكّل جيشاً نظامياً وجيشاً دفاعياً وجيشاً برانياً ، وقوة أمن كان يسمى أفرادها بالقوانين .

وفرض تجنيداً إجبارياً على سكان الريف ، وهذه نقلة نوعية بالقياس إلى حكم الأئمة السابقين ، إذ كان كل (إمام) يستعين بالأنصار من القبائل ، وكان يسقط بغضبة هؤلاء الأنصار أو بغلبة أنصار (إمام) منافس من قبيلة أخرى ، ولم يتمكن أي (إمام) أو (ملك) من تشكيل جيش محترف تضبطه سياسة (الإمام) وتسيره أنظمة عسكرية .

أما (الإمام يحيى) فقد استفاد من النظام التركي لتكوين الجيش ونظام انضباطه ودرجات رتبه ، كما استفاد الروتين الإداري وبالأخص الحسابي والجمركي ، فانتزع الضرائب الزكوية والتجارية من كل المناطق ، حتى امتدّ نفوذه إلى شعاب البدو رغم عصيانها في أول الأمر ، بالإضافة إلى هذا افتتح

مدارس فقهية ومهنية مثل : دار العلوم ، مكتب الكتّاب ، المدرسة الصناعية بصنعاء . . فاقتدر في خلال عشر سنين تكوين نظام وظيفي ، وكانت هذه حداثة بالقياس إلى العهود المنصرمة .

لهذا نشأت المعارضة في ظلّ سلطة منظّمة ، فانتهجت تشكيل التنظيم بدلاً من القتال العشائري ، لأن السلطة القائمة كانت ذات نظام استبدادي ، ومهما كانت فرديته واستبداده فإنه نظام متعدد الأجهزة وإن خضعت لرأس واحد هو (الإمام) . . كانت هذه الحداثة في النظام سبب الحداثة في التنظيم المعارض فيما بعد ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الثقافة الفقهية كوّنت أصولاً لنظرية الحكم وشروط صلاحية الزعيم وعظمة مسؤوليته على الناس ، وكانت هذه الثقافة قادرة على تقبل ثقافة جديدة ولو بعد حين ، لأن الفقه وما يتطلب من حصيلة لغوية ، يصلح أساساً لثقافة معاصرة سياسية .

لهذا لاحظنا جيل الثلاثينات والأربعينات ينقسم إلى صنفين : فقهاء توقفوا عند الفقه ، فقهاء تجاوزوا به إلى غيره وواصلوا به سواه . . باعتبار المعارف تعزز بعضها وتهدي إلى غيرها . .

كان النظام والتنظيم المعارض في هذه الفترة ناشئة ثقافة واحدة ، البعض تطور منها والبعض تطور بها على مفهومه . . فكما انتهج (الإمام) الحكم الديني ، انتهجت المعارضة الدعوة الدينية الإصلاحية في مطلع الأربعينات ، وسمّت نفسها (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كمرادف لجماعة (الإخوان المسلمين) أو (شباب محمد) بمصر يومذاك ، أو كامتداد لأحد مبادئ المعتزلة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ألا يدل هذا التشابه في النظام وفي التنظيم المعارض على واحدية الثقافة ، وعلى الحداثة النسبية في المفهوم السياسي ؟؟

ومع هذا التشابه تفاقم الصراع بين (الإمام يحيى) وتنظيم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فزج ببعضهم في السجون مثل : حسين الدعيس وعبد الرحمن الإرياني ومحمد المطاع ومحمد علي الأكوع الحوالي وتغاضى عن البعض ، على أساس أنهم يعانون طفرة شباب أو يتقبلون تحريض المغرِّرين ، تمادت هذه الحال من آخر الثلاثينات إلى عام ١٩٤٤ ثم أخذت منحى جديداً بفرار الجناح الأدبي للمعارضة من تَعِزّ إلى عَدَن .

هناك دعت إلى الإصلاح السياسي ، وكانت صحيفة فتاة الجزيرة التي ولدت عام ٤٠ منبر المعارضين والمدافعين عن النظام إلى أن تمكن المعارضون من إصدار صحيفة ناطقة باسمهم إذ أصدر الأستاذ (نعمان) والأستاذ (الزبيري) صحيفة (صوت اليمن) فأثار هذا التطور في المعارضة (الأمير أحمد) (حاكم تَعِزّ) فاحتجّ إلى (المندوب البريطاني) ، وأدى هذا إلى التقليل من حرية الأستاذين ومن انضم إليهما إذ اشترط المندوب السامي على (تنظيم الأحرار) الشماليين ترك العمل السياسي ، فأخذوا ينشرون ضد (الإمام يحيى) في (فتاة الجزيرة) ومجلة الصداقة بمصر وتبنت نفس الصحيفة حرية الردّ على الأحرار من وجهة إمامية ، فكانت صحيفة (فتاة الجزيرة) منبر النظام والمعارضة كما سبقت الإشارة ، حتى تغلب النظام بإقناع (محمد علي لقمان) بأن الأحرار خارجون على الشعب ، وبعد أن زار (الأمير أحمد) (عَدَن) عام ٤٦م استقبلته جموع الشماليين هناك ، فشكّل هذا برهاناً على شعبية (الإمام) وانعدام شعبية الأحرار ، حتى كتب (محمد علي لقمان) عن مكانة (الإمام يحيى) وإجماع الشعب على إجلاله ، كتب لقمان مامعناه : إن الشعب اليمني مطبوع على حب (الإمام) واستدل على هذا بالأسلوب الرسائلي في ذلك الحين إذ كان يستهل المواطن اليمني خطابه إلى أهله بالدعاء للإمام وأنجاله السيوف الكرام ، فردّ على (لقمان) الأستاذ (أحمد البراق) ناقضاً هذا الاستدلال على شعبية الحكم بأنه

ضرب من التقاليد عند بعض القبائل وبأنه قد أخذ يتلاشى ، وفي عام ٤٧ استهلّت صحيفة صوت اليمن صدورها غير المنتظم حتى يناير عام ٤٨ ، فقابلتها السلطة الإمامية باصدار صحيفة معاكسة (الشباب) في (عَدَن) .

وسبب وجود (تنظيم الأحرار) في (عَدَن) مزيداً من الشكوك في دعوتهم ورفضها عند غالبية الشماليين ، باعتبار صحيفتهم تصدر من تحت ظل الاستعمار في الجنوب وتحت توجيهه ، وتندد بالإمام شخصياً ، وكان هذا مستنكراً عند المواطنين ، ولعل هذا تسبّب في تعدّد وجهات دعاة الحركة ، حيث بدأت محاولة الانقلاب في (صنعاء) تتزايد من عام ٤٧ ، وبدأت الإشارات تتوالى إلى (عبد الله أحمد الوزير) الذي لم ترد إليه إشارة من التنظيم في (عَدَن) ، وكان يكابد حرجاً شديداً ، لأنه كان واقعاً بين تأثير الانقلابيين بصنعاء وبين مكانته عند (الإمام يحيى) ، لأنه أكبر مستشاريه يومذاك .

فكيف يحقق غاية الانقلابيين وغايته وأداء الوظيفة الاستشارية ؟ .

وهذه المهمة تتطلب غاية السرّية ، ولعل (الفضيل الورتلاني) الجزائري الأصل الوافد إلى صنعاء من مصر كان أشدّ المحرضين على تعجيل الانقلاب ، وكان قوي الحجة عند العائلات الكبرى ، لما أثار من مطامعها إلى السلطة ومخاوفها من سلطة (الإمام) القائم وتسلّط بنيه ، فاتّسع تأثير (الورتلاني) في كبار الموظفين وأعلى البيوت من أمثال : (حسين عبد القادر) عامل صنعاء ، (عبد السلام صبرة) رئيس البلدية ، (علي محمد السنيدار) سكرتير الشركة التجارية .. وامتدّ هذا التأثير إلى عدة بيوت عريقة وشخصيات مشيخية ودينية وأدبية من أمثال : الصفّي محبوب ، إسماعيل الأكوع ، حسين الكبسي مندوب اليمن بالجامعة العربية ، علي حمود كوكبان عامل الطويلة أحمد الشامي ، محمد الشامي .. رأت هذه الجموع جدارة (عبد الله الوزير) بالإمامة إذ لاندّ له في التجارب الحربية ، فاتصل بأتباعه من (شيوخ بني حشيش) و(بني الحارث) ،

كما استعان (علي الوزير) بأصهاره من بيت (أبي رأس) وصديقيه علي ناصر القردعي وأحمد ناصر القردعي ، واكتملت حلقة صنعاء فنفذت قتل (الإمام يحيى) في ١٧ شباط عام ٤٨م بأيدي القردعيين والحسيني وهارون وولدي أبي رأس إلى جانب المواطنَين علي العتمي ومحمد ريحان سائق سيارة (علي الوزير) التي حملت المنفذين إلى (سواد حزيز) إحدى ضواحي صنعاء ، وفي يوم ١٩ من شباط ٤٨ انعقدت بيعة الإمامة (لعبد الله أحمد الوزير) ، وبعد ثلاثة أيام من قيامه ردّد خطباء الجمعة في صنعاء وذمار الدعاء للإمام الجديد باسم : الإمام الشهير عبد الله بن أحمد الوزير ، وهذا اللقب منبري لا رسمي ، لأن (الوزير) لقب نفسه بالإمام الهادي ، غير مصحوب بأية شعائر ، وبعد أسبوع من قيامه نشرت الطائرات الإنجليزية حزماً من المناشير كلها تدعو إلى عهد الشورى والحرية والديمقراطية والدستور ، هنا تجلّى الفرق بين صناع الحدث في صنعاء وبين أهداف حزب الأحرار ، لأنهم شركاء (الوزير) في العمل ضد (الإمام يحيى) ودعوته إلى الإصلاح ، وفي الوقت الذي كان يتجادل فيه الأحرار والإمام الجديد على صيغة العهد الجديد وتشكيل الدولة ، كان (الأمير أحمد) يزحف من (حجة) على (صنعاء) حتى انفجرت من داخلها ، وانثغرت لأفواج محاصريها من كل جهة .

وفي مارس سقط حكم الشورى وقام (الإمام أحمد) مقام أبيه . . هذا مجمل واقع الحركة كما هي ، أما واقعها في الكتابات التأريخية والتحليلية فقد تعدّدت صوره وتغايرت الأنظار إليه ، باختلاف الثقافات والأنظار التأريخية ، وهذا الاختلاف صحي من ناحية الكُتَّاب وواقعي من ناحية الحركة ، لأن الّذين كتبوا عنها كانوا من المحايدين أو من المتعصبين لها ، أو من المحللين لأسرارها أو لموقعها في مسلسل الحركات الوطنية ، ولعل الأنموذج المحايد يتبدّى في كتابة المؤرخ التراجيمي محمد محمد زبارة في كتابه (نزهة النظر) في رجال

القرن الرابع عشر الهجري الذي ترجم فيه لعبد الله أحمد الوزير الإمام الدستوري من ميلاده إلى استشهاده : « السيد العلامة الذكي الحلاحل عبد الله بن أحمد بن محمد بن محسن بن الهادي بن صلاح الوزير مولده في ذي الحجة سنة ١٣٠٧هـ في وادي السرّ ، ونشأ في حجر والده وأخذ عنه ، ثم هاجر إلى صنعاء لطلب العلم وأخذ عن القاضي علي بن حسين المغربي والعلاّمة محمد بن حسن دلال والقاضي إسحاق بن عبد الله المجاهد والحاج علي بن حسن سنهوب وعن السيد العلاّمة قاسم بن حسين العزي والحاج محمد بن يحيى مداعس وحقق في العربية والفقه ، ولمّا توفي والده في سنة ١٣٣٣هـ نصب (الإمام يحيى) صاحب الترجمة للقضاء في مدينة (ذمار) وجعل بنظره تقرير الواجبات فظهر كماله وحسنت سيرته في البلاد التي بنظره وامتدت يده إلى بلاد عتمه ، ثم في سنة ١٣٣٧هـ أناط (الإمام يحيى) بنظر صاحب الترجمة (بلاد يريم) وجهّزه لفتح (وصابين وجبل رأس) فأصلحها وتوجه إلى (المخا) ، وفي سنة ١٣٣٨هـ جهّزه الإمام إلى (صعفان) من بلاد (حراز) لإخماد ثورة عبد الله بن بشر ، وفي سنة ١٣٣٩هـ أرسله (الإمام) إلى (حاشد) و(أرحب) لإنهاء الحرب في حاشد ، وفي سنة ١٣٤٥هـ أرسله (الإمام) إلى بلاد (الجوف) فأصلحها ، وكان محمود السيرة كاملاً فيما تولاّه مع ذكاء ونشاط ، وفي سنة ١٣٥٠هـ أمره (الإمام) بفتح بلاد (مأرب) و(عبيدة) وأخيراً قام بأعمال لواء (الحديدة) ، ولما كانت الحرب الضروس بين أصحاب (الإمام يحيى) والسعوديين ، وخرجت هيئة للإصلاح إلى اليمن مؤلفة من الأمير شكيب أرسلان والسيد محمد أمين الحسيني والرئيس هاشم الأتاسي أرسل (الإمام يحيى) صاحب الترجمة للخوض مع المصلحين ، وكان عقد معاهدة الطائف في صفر ١٣٥٣هـ وبعد أن رُفع عن العمل في لواء الحديدة وقام مقامه سيف الإسلام عبد الله ابن الإمام لازم صاحب الترجمة مقام (الإمام يحيى) كمستشار في كثير من المهمات ، واستمرّ على ذلك إلى أن دعته نفسه إلى الخلافة فتطلع إليها وكان مالم يحمد عقباه ولما

قضى (الإمام أحمد) على الثورة وقبض على (السيد عبد الله الوزير) ومن شاركه في الانقلاب كان إعدامه في ذي الحجة سنة ١٣٦٧هـ » .

وهذه الترجمة لاتشير إلى هوية الحركة ولا إلى دستوريتها وشوريتها ولا إلى التنظيم الذي كان على رأسه (الوزير) لأن (زبارة) تناول سيرة (الوزير) كأحد الأئمة السابقين دون أن يصفه بالدستوري أو يشير إلى غاية مغايرة في حكمه ، ومن المعروف أن (زبارة) المتوفى في مطلع الستينات من هذا القرن يبدو محايداً بين الوزيريين وبين آل حميد الدين ، إذ لم يندد بالانقلابيين ولم يُشِدْ بالمنتصر عليهم ، وإنما يسرد الانتفاضات التي أخمدها (الوزير) من خلال ترجمة حياته ، وقد كان (زبارة) شبه معارض للإمام يحيى ولكن بدون انتماء إلى المعارضين ، وقد رويت له قصيدة في الثلاثينات بعثها إلى (الإمام يحيى) من (خولان) وكان فيها منتقداً ناصحاً على طريقة محمد بن إسماعيل الأمير من علماء القرن الثاني عشر الهجري وكلّ ما أشار إليه (زبارة) بشيء من المرارة في ترجمة الوزير : هي الأحداث التي أفزعت صنعاء إبان إسقاط الإنقلاب والتي عناها زبارة بقوله : (فكان مالم يحمد عقباه) ، أما لغة ترجمته للوزير فهي لغة المؤرخ التقليدي المحايد ، إذ لم ينسب للوزير وجماعته الصفات الرسمية ، كالبغاة ، المارقين ، المفسدين ، الدستوريين .

فقد كانت هذه لغة التشنيع على الانقلابيين من جهة القصر ثم تقبّلها الشعب وردّدها ، فترجمة (زبارة) على معايشته للحدث خالية من ذكر الحزب وكيفية التنظيم وصفة العهد الدستوري ، ومن آخر الستينات تعددت الكتابات عن حركة ٤٨ ، فاعتبرها بعض الكتّاب حركة سلفيّة إصلاحية كما في كتاب ثريّا منقوش (قضايا من اليمن) ، ولقّبها البعض بحركة الإقطاع المتنوّر على حدّ تعبير ثريا منقوش في مجلة الثقافة الجديدة وأدانها البعض بالعمالة للاستعمار الانجليزي مستدلاً على ماذهب إليه : بالتجاء الأحرار إلى عَدَن المحتلة وبإطلاق

مدافع البواخر الإنجليزية في ميناء الحديدة إحدى وعشرين طلقة تبشيراً بالانقلاب ، وبتجهيز مجموعة من الفدائيين من عَدَن إلى صنعاء ، وفي آخر السبعينات تصدّى بعض أبناء الانقلابيين ومن يشاركهم الرؤية الأربعينية لتفنيد هذه التهم حيناً وتبريرها حيناً آخر ، فرأى البعض منهم : أنّ التجاء الأحرار إلى (عَدَن) المستعمرة في الأربعينات كان إلى مواطني (عَدَن) وليس إلى النظام الاستعماري وهذا لايبدو مقبولاً عند أحد ، لأن المواطنين لايقدرون على استضافة تنظيم ولايقتدرون على حمايته ، فهذا من عمل الأنظمة لامن عمل المواطنين ، وبالأخص إذا أصدر التنظيم صحيفة وتنقل من مكان إلى مكان لِبَثّ دعوته .. هذه مسألة أما المسألة الأخرى : فإن بعض الأربعينيين يبرئون الأحرار بحكم الضرورة لعدم وجود ملجأ غير (عَدَن) ، وهذا يستدعي المناقشة لأن صاحب هذا الرأي محمد عبد الله الغسيّل من المفكرين المخضرمين .

فهل الالتجاء ضروري لكل حركة والسبيل الوحيد لاقتلاع السلطة المرفوضة ؟

لم يلجأ ثوار مصر إلى السودان مثلاً ، ولاثوار العراق إلى إيران مثلاً ، لأن العمل الناجح يتحقق من داخل الشعب وبالشعب ، وقد ثبت من تجارب شعبنا عدم جدوى الالتجاء ، فلم يفجّر انقلاب الـ٤٨ اللاجئون إلى (عَدَن) وإنما القوة الداخلية على يد القردعي ورفاقه ، عن أمر عبد الله الوزير ولم يحقق الالتجاء إلى (عَدَن) قدرة التنفيذ إلا بأيدي الصامدين في عقر دار الحكم .

فهل كان ذلك الالتجاء ضرورياً ؟؟ .

إذا كان التنظيم غير قادر على اكتساب الشعبية في الشمال فإنَّ الملجأ المحتل لم يعطه إلا تهمة التبعية عن قصد أو غير قصد ، أما إذا كانت شعبية الحاكم أغلب فإن هذا يسلب الحركة مشروعية التحرّك ، وهذا ماحدث بدليل أن

الحركة سقطت في أقل من شهر ، وهذا يقودنا إلى غلطة فادحة يتبنّاها بعض المتعصبين ويرددونها أحاديثاً وكتابة ، ومؤدى تلك الغلطة ، أن حركة صنعاء الدستورية أول حركة في الساحة العربية وفي القرن العشرين .

هل يصدق هذا طلاّب الثانوية وهم يقرؤون التأريخ العربي المعاصر في منهج دراستهم ؟

نرجع إلى الأحداث العربية قبل ٤٨ وسوف نجد أنها كلها سبقت حركة ٤٨ مثلاً مصر الذي قام جيشها بحركة على الخديويين بقيادة أحمد عرابي ١٨٨٢م أي قبل حركة ٤٨ بـ٦٧ سنة ، ثم حركة الدستور عام ١٩١٩ بقيادة حزب الوفد وزعامة سعد زغلول ، ويمكن أن نجد في العراق أمثالاً من الأحداث سبقت حركة صنعاء كحركة جعفر العسكري عام ٣٦ التي كان النقيب جمال جميل متهماً بقتله ، وهذا ماسبب التجاءه من العراق إلى صنعاء بعد إنهاء مدة البعثة العسكرية عام ٤٤ ، فكان قائد الجناح العسكري في انقلاب شباط ٤٨ بصنعاء ، تلت حركة جعفر العسكري ، حركة رشيد عالي الكيلاني عام ٤١م ، ولاينقص من حركة صنعاء تأخّرها عن هذه الأحداث زمنياً ، وإنما يعيبها دعوى المدعين بأنها بكر الأحداث ، ولو فرضنا أنها سبقت هذه الأحداث فهل يعطيها السبق فرادة ، وقد دلّ إخفاقها على خطأ نظريتها أو سوء تطبيقها ؟؟.

هذه أهم الأخطاء في الكتابات عن ٤٨ ، لأنها تدل على الجهل أو التجاهل لتأريخ الوطن العربي هذه مسألة . تليها مسألة فكرية ، يرى بعض الأربعينيين استحالة أي ملجأ للأحرار غير (عَدَن) ويتساءلون هكذا :

هل يلجؤون إلى مصر وهي ملكية آنذاك ؟

أو إلى العراق وهو ملكي في ذلك الحين ؟

وهذا التساؤل يؤدي إلى تساؤل :

وهل كان يتوخّى الأحرار غير قيام ملكية دستورية كملكية مصر والعراق يومذاك ، بل إن تلك الملكيتين كانتا أكثر تطوراً من طموح الأحرار اليمنيين ، لتعدد الأحزاب فيهما ، لحرية التعبير والتفكير ، لقيام المظاهرات والاحتجاجات .

فهل تمانع هذه الأنظمة قيام نظام في اليمن على غرارها ؟

ثم : هل مقياس التصارع بين الدول على شكل النظام أو على المصالح ؟

قد تتصارع ملكية وملكية ، كما حدث بين القيصرية الروسية والإمبراطورية العثمانية ، وكما كان يحدث بين المملكة السعودية والمملكة الهاشمية في العراق والأردن ، حتى أن رشيد عالي الكيلاني لجأ بعد إخفاق حركته ضد ملكية العراق إلى (الرياض) وقيل إنها التي حركته ضد ملكية العراق ، وكان عبد الله أمير شرق الأردن يؤوي الفارين من حائل ويخرج أكثر أيامه إلى (تبوك) يخطط لاستعادة مملكة أبيه من آل سعود ، فلا يمنع أن تتبنى ملكية مناوئين لملكية أخرى ، ولايمنع أن تهيئ جمهورية الجوّ للثائرين على جمهورية أخرى كما هو الحال بين الجمهورية الليبية والجمهورية المصرية ، بل إن هناك حرباً قائمة بين الجمهورية العراقية والإيرانية . . فادّعاء الأربعينيين بأن الملكيات العربية كانت ضد حركة شباط بصنعاء مجرد تبرير للالتجاء إلى (عَدَنْ) المستعمرة .

وهل كانت مستعمرة للملكية البريطانية أو للجمهورية الفرنسية ؟؟ .

إن هذا التبرير مفقود الموضوعية ، وهناك نقطة سببت اختلاف الآراء الكتابية ، بعد خروج كتاب (اليمن والغرب) ترجمة حسين عبد الله العمري عام ٧٩ ، إذ ورد في ذلك الكتاب مامعناه : « إن (عبد الله الوزير) طلب من المندوب السامي البريطاني بعَدَن إرسال طائرة لنقله هناك ، فلم يردّ المندوب على (الوزير) ، فاستدلّ الدكتور عبد العزيز المقالح بعدم ردّ المندوب السامي

على غياب العلاقة بين الانقلاب وبين الاستعمار البريطاني ، إذ لو كان ثمة علاقة لاستجاب المندوب السامي لطلب (الوزير) واستدلّ الدكتور محمد الشهاري بطلب الوزير نجدة المندوب السامي على تبعية الانقلاب للاستعمار ، لأن الطلب دليل على الاتفاق بين الانقلابيين والمندوب البريطاني ، وأن الذي منع المندوب البريطاني من نجدة (الوزير) هو إحداق المحاصرين بمدينة صنعاء ، حتى تعذر إرسال طائرة » .

بقيت مسألة ماتزال تردّد لغة واحدة إلى اليوم : (استعن على عدوك ولو بالشيطان والشيطان رمز للأقوى والأغلب) : فهل ستكون غاية حركة المستعين إلا للذي يعينه ؟

لأن الأنظمة لاتموّل أحداً لوجه قضية غير قضية مصلحتها ، فتصبح الاستعانة بالشيطان خدمة له لاخدمة منه ، إنَّ حركة ٤٨ في واقعها غيرها في الكتابة عنها من كل وجهة ، فالذين برؤوها وانتحلوا لها من المزايا مالم تفكر فيه تجاوزوا بها واقعها الزمني نتيجة معارفهم بثورات الخمسينات والستينات ، بمقدار ما تجاوز بها واقعها الذين استعاروا لها مصطلحات الخمسينات والستينات مثل (الكمبرادورية) عند الدكتور الشهاري والإقطاع المتنوّر عند ثريا منقوش ، فلم يكن لانقلابيي ٤٨ دراية بالكمبرادورية ولا كانوا كلهم من الإقطاعيين ، بل كان بعضهم أقرب إلى الفقراء من أمثال أحمد الحورش وأحمد البراق وعبد الله السلال وكان بعضهم من الأثرياء مثل : آل الوزير وآل عبد القادر والخادم وجيه ، ولم يكن بيت من هذه البيوت إقطاعياً : كهادي هيج في تهامة ، وآل الباشا في العدين . . صحيح أن آل الوزير وآل عبد القادر كانوا يملكون مزارع في عدة مناطق وكان يستثمرها فلاحون بالشراكة : للفلاح ثلاثة أرباع وللمالك الربع إذا كانت الأرض تسقى بالمطر ، وللمالك الثلث إذا كانت المزارع نهرية ، وهذا غير الإقطاع لأنهم لم يكونوا يملكون قرى بسكانها ومواشيها ومزارعها ،

وإنما كانت لهم مزارع شتى : في ذي السفال ، في السر ، في شبام ، في قاع صنعاء ، في كوكبان ، في لاعة . . وبهذا شكلوا طبقة من أغنياء لايدانيهم كبار الفلاحين وإن كانوا يدانون (طبقة الإمام) ، لأنهم من أعمدة وضعه وإن أرادوا أن يحتلوا موضعه .

إذن فأكثر الكتابات عن ٤٨ تتجاوز بها طبيعتها :

إما للتعصب لها ، أو خلع المصطلحات عليها . . ولعل التحليل الذي يزمن هذا الحدث بزمنه وعلى حجم رجاله ومقدار ثقافتهم أهدى كتابة التأريخ ، لأن التحليل الواقعي للحركات أقوى تعزيز للحاضر ولرؤية الآتي ، ولعل التعصب يخلق التعصب فتضيع الحقيقة بين الخصومات ، ولاجدوى من الخصومة على الفائت لأنه قد فات ، وإنما الموضوعية هي الغاية المنشودة ، لأن ذلك الحدث ملك كل الناس ومسؤولية الرأي فيه على صاحبه وما أعظم أمانة الرأي !.

صحيح أن حركة ٤٨ بطبيعتها أكثر إثارة للاختلاف وتعدد الآراء ، لأنها قامت وسقطت ، وهذا يقود إلى التساؤل عن فشل تلك التجربة ؟

هل يرجع إلى خطأ التنظير ، أم إلى قصور النظر ، أم إلى صعوبة المشكلة ، أم إلى خطأ الممارسة ؟؟؟.

فيرى البعض مردّ فشل الممارسة إلى سقم النظرية ، ويرى البعض أن التجارب الأولى ممكنة الإخفاق ، فأحياناً يمكن البناء عليها وأحياناً تختلف الظروف فتؤدي إلى عكسها ، ولعل حركة ٤٨ لم تتجاوز بتجربتها أسابيعها الثلاثة كما يرى البعض ، على حين يرى البعض الآخر أساسية تلك الحركة حتى كانت الثورة السبتمبرية ٦٢ امتداداً متجدداً لها ، وهنا ينشب خلاف آخر عن أثر تلك التجربة الأربعينية ، فيرى البعض أن ثورة سبتمبر منقطعة عن الثورة

الدستورية ، لأن الأحياء من رجالها ظلّوا إصلاحيين إلى بعد ثورة سبتمبر ، ويرى البعض أن ثور سبتمبر ذروة التمخض من حركة ٤٨ بدليل أن رئيس أول جمهورية كان من الأربعينيين غير أن الآخرين لايرون أن هذا دليلاً كافياً لأن الشروط الموضوعية لثورة سبتمبر تامة المغايرة للحركة الدستورية ، ورئيس الجمهورية كان من صنع الشروط الجديدة وإن كان من رجال الدستور .

فهل كانت ثورة سبتمبر ستحدث لو لم يسبقها حدوث ثورة شباط ٤٨ ؟ .

لاشك أن ثورة سبتمبر مغايرة للحركة الدستورية ، ولكن هذا لايمنع من أن تكون حلقة ممهدة في مسلسل الحركات الوطنية ، ولابد أن يختلف الحدث الجديد عن القديم باختلاف الشروط الموضوعية لكل فترة .

كل هذا الجدل يبدو صحياً لأنه ليس ماضوياً وإنما يتوخّى المستقبل ، إذ لاجدوى من الاصطراع حول أحداث الأربعينات والستينات لذاتها ، وإنما في سبيل التبصر لاكتناه أحداث الثمانينات والتسعينات ، لأن قيمة التأريخ تكمن في معرفة ما سيحدث على ضوء ماحدث ، مهما تغيرت المقاييس فإنها لا تفقد الدلالة والتشابه ، لأن الحدث يتكرر كما يتكرر عكسه وبالمقياس التأريخي تتجلى أطراف النقائض ووجوه الأشباه .

* * *

الفصل السابع

حركة ذمار

حركة ذمار

من مطلع السبعينات إلى بدء الثمانينات نشطت دراسات الحركات الوطنية أكثر من أي وقت ، فتقصّت البحوث والدراسات والندوات خطوط الحركات الوطنية في بلادنا بتواريخها وفصائلها ، ولاتكاد تخلو ندوة من التنويه إلى حركة (ذمار) بدون تفصيل لزمانها ونوع حدثها ، لأنها احتدمت في وقت خلو من التأريخ ، وهذا سرّ الجهل بتفاصيلها وسبب خطورتها معاً .

في ديسمبر ١٩٤٨ تجمع أفراد من مثقفي (ذمار) وناقشوا (مذبحة مارس) التي ارتكبها (الإمام أحمد) في (حجة) ، كما ناقشوا أوضاع السجناء وطريقة سجنهم وتطرقوا إلى عواقب تلك المجزرة ونتائجها على السلطة وآثارها على الشعب ، فقد روجت الأخبار أن السجناء لايأكلون إلا وجبة في اليوم من أخشن الطعام ، وأن السلطة حظرت عليهم النور والكتب والأقلام والأوراق وحتى المصاحف ، وبهذا شعر مثقفو (ذمار) أنهم على باب عهد أسود ، وحاسبوا أنفسهم على حماسهم ضد الدستوريين ، وتوقعوا أن يعم العنف كل المثقفين وكل أصحاب الرأي ، لأن (الإمام الجديد) جاهل ولايعرف قدر العلم كمعرفة أبيه ، وعنيف لايصغي إلى نصح ، وكان هذا النقاش يجري في همس وفي احتياط شديد ، لاشتداد الرعب في النفوس بعد استباحة (صنعاء) وسجن العشرات من أبنائها ومن يماثلهم من المدائن الأخرى وبالأخص كوكبان التي ينتشر فيها أولاد شرف الدين ، وقد كان من المنتظر أن تكون (ذمار) آخر من يتكلم لميلها إلى السلامة ، ولقوة الرعب الدموية التي أصبحت حديث كل الناس .

فهل كانت (ذمار) أول من ناقش نكبة (صنعاء) ومأسوية الدستوريين ؟ .

إن بعض الظواهر تدل على أخواتها ، فمن الجائز أن مدائن أخرى ناقشت نفس الموضوع وذلك بعد مقتل عبد الله بن محمد الوزير في تفتح ربيعه فإن هذا الحدث خفف من استنكار قتل الإمام يحيى لأن ذلك الشاب عطف عليه شتى القلوب فكان بداية تحول في مجرى التثاقف ، غير أن الصوت الذي ارتفع حينذاك هو صوت (ذمار) ، وذلك بفضل الشاب النابه (عبد الله محمد الديلمي المعاون) فقد ظل من بداية مذبحة (حجة) يهمس ويجهر بالتذمر والسخط ، لا لأنه مؤيد للدستوريين ، ولكنه كان مندّداً بالعنف الدموي الذي ارتكبه (الإمام أحمد) في مطلع عهده بدون أية محاكمة ، وبدون نص على جريمة وبلا تفريق بين صاحب الرأي السياسي وبين المجرم ، وكانت هذه الآراء على جدتها تَلْقى قبولاً ، كان (الديلمي) يثير هذه المسائل و(السيف الأحمدي) ينهمر دماءً ، والأصداء الدموية تجوب الوطن طولاً وعرضاً لقصد ترسيخ مهابة العهد الجديد ، ولتحذير البطولة الخرافية للإمام أحمد ، وفي منتصف عام المذبحة عيَّن (الإمام) على (ذمار) عاملاً غريباً عن عادات الوطن هو (الشيخ علي يحيى الهَمْداني) الذي كان تاجراً متنقلاً بين السودان وإثيوبيا وعِدَن ، وكانت هذه العُمالة تعويضاً له على خسارته في مقاولة ميناء (الحديدة)؛ وقد قيل عن هذه المقاولة عدة حكايات . كانت ثروة (الهمداني) ضحيتها ، قيل : إنه عجز عن تأليب المغتربين جميعاً ضد الدستوريين ، وقيل : إن مقاولته على ميناء الحديدة كانت مكافأة على نشاطه ضد الأحرار بعدَن ، أما حكاية (صنعاء) فترى أن الإمام يحيى طمع في قصر الهمداني وبستانه فورّطه بمقاولة بناء ميناء (الحديدة) أو دكة الحديدة كما كانت تسمَّى ، فأنفق الهمداني كل ثروته أملاً في الربح من هذا المشروع الذي أخفق ، وأدى إخفاقه إلى بيع البستان الذي يقع مقابلاً لدار السعادة ، والذي يسمى بستان اليهودي نسبة إلى مالكه ؛ فحقق

الإمام بشراء ذلك البستان أمنيةً ، وعندما تولّى (الإمام أحمد) الحكم أراد أن يرمي عصفورين بحجر ، فيجبر كسر الهمداني ويكسر عنفوان (ذمار) فاختاره لها عاملاً (مديراً) ، مع أنها كانت تحظى بالرعاية من (الإمام يحيى) لمكانتها العلمية ولولائها للإمام ، فلا يولي عليها الاّ من يرعى أهلها ويضاهي علماءها ، فكان (الهمداني) بقلة درايته بالعوائد المرعية فرصة (عبد الله محمد الديلمي) للتشنيع بالوضع مبرهناً عليه بتولية (الهمداني) النصف أميّ والنصف أعجمي على حد دعاية الديلمي ، وكانت تلك الفترة عهد التأسيس الأحمدي ، وكان على حذر من العُمَّال التقليديين ، لأن بعضهم والى الدستوريين وبعضهم تغاضى ، وأقلهم انتظر ماتبدي الأيام ، فكان لابد من اختيار محافظين للمناطق أو (عمالاً) يختلفون عن النوعية السابقة ، وكان من نصيب (ذمار) الشيخ علي يحيى الهمداني الذي لاتربطه معرفة بهذه المدينة ولابطبيعة أهلها ولا بشؤون عمله الجديد ، حتى أنه لم يستقبل الذين جاؤوا لتحيته من العلماء على المعتاد يومذاك ، بل استنكر ذلك الصف من المعممين وقال : (عايزين إيه) ، وفي يوم الجمعة اتجه إلى الجامع الكبير على سيارة بلا عساكر ولاطبول ولا أبواق ، فاعتبر أهل (ذمار) هذا إسقاطاً لشعائر الجمعة ولشارة المدينة ، بل وصلوا إلى حد الاحتقار للعامل لأنه يسوق سيارة ، وكان السائق في ذلك الحين من أقل الناس اعتباراً ، وكان يسمى (بالعربجي) ، وهذه المهنة ترادف التخلي عن الأخلاقيات ، فشعر أهل (ذمار) بإهانتهم من جهة الإمام ، وبهذا انتشر التذمر وأصبح مسموع الصوت بل أغلب مواد الحديث وبالأخص أن العامل منع مهنة التخمين وقبض الواجبات ، وكان يعيش على هذه المهنة مامعدله عشرون بالمئة من أهل (ذمار) ولايحترفون سواها ، فزاد السخط تأججاً لأن المضايقة وصلت إلى لقمة العيش عند بعض البيوت ، على أن (الهمداني) لم يكن هو الذي منع ، وإنما أراد الإمام أن يعبر للفلاحين أنه أحنى عليهم من الدستوريين الذين أعفوهم من بواقي الزكوات ، فأوكل الإمام أحمد في سنة تَوَلِّيه شيوخاً وعقالاً

جدداً في كل منطقة لقبض الزكوات ، وأراد بقطع إرسال المخمنين والقباضين إيهام الزرّاع بقطع سلطة المدينة عن الأرياف ، لأنها كانت تمتصهم في زمن شيخوخة أبيه عن طريق رشوة كتاب المقام اليحيوي ، وكان بعض متعلمي مدينة (ذمار) ينتظرون من الموسم إلى الموسم لتحصيل الضروريات اليومية عن طريق عائداتهم من قبض الضرائب من الأرياف .

فماذا يفعلون بعد إغلاق الباب الوحيد للرزق ؟

لقد لاحظوا أن بعض الخطيرين على السلطة حققوا الوصول إلى مناصب لإسكاتهم أو لإلهائهم ، لهذا انضمّ محترفوا تخمين الزكوات وقبضها في (ذمار) إلى (عبد الله الديلمي) فشكّلوا شبه تنظيم ضد (الهمداني) في الظاهر وضد رأس السلطة في حقيقة الأمر ، لأن (الديلمي) أشعرهم بأن العهد الجديد لايملك غير قطع الرؤوس ، فلا وسيلة غير التحدي لإشعار الطاغية بأن جموع الشعب لاتُقهر ، وكان ذلك التحدي في أحَدّ الظروف حساسية ، فلم يكن الإمام يتوقع أن يعلو في ذلك العام صوت أو يرتفع رأس ، وبالأخص من مدينة (ذمار) ذات النزوع الشيعيّ وذات السوابق الإمامية ، حتى أنها قتلت القائد التركي (سليم القانون) وهو في طريقه إلى صنعاء ، فتسمّت في آخر القرن التاسع عشر (بكرسي الزيدية) ، وكان يلاقي رجال السنّة فيها أعنف المضايقات ، كما كانت المعارك بين الشيعة والسنّة تتمخض بانتصار الشيعة لكثرتهم ، وكانت السلطات المتعاقبة تحاول أن تحجِّم ذلك الاعتراك في نطاق الجدل وإن أوصل إلى السِّباب والتقاطع ، لكن ذلك أهون من نيابة الجماهير عن السلطة في عقاب أعدائها ، لأن ذلك يؤدي إلى انتشار الفوضى وضياع مهابة السلطة ، وكان هذا الجدل ألصق بطبيعة الذماريين لقلة أشغالهم في مدينة محدودة ، وعند قيام حكم الدستور عام ٤٨ هدأت (ذمار) مدة أسبوع لذهول المفاجأة ، ثم ابتدأ التساؤل يبحث عن شفتيه ، فكان يرى البعض في العهد

الجديد انتقالاً إلى الأفضل وكان البعض ينتظر الأسوأ ، وكان البعض يُؤثر سلامة الصمت أو الاحتياط في الحديث ، ولمّا أطبق الحصار على (صنعاء) تأكد الكل من سقوطها ، إما على هدى تجارب التأريخ أو على تجسيم الأخبار لزحف (الإمام أحمد) أو على عقوبة الانتقام للإمام القتيل ، وبعد سقوط (صنعاء) بيومين جاءت أخبار (صنعاء) إلى (ذمار) وإلى كل المناطق ولها تهاويل الخرافات ، فقد قيل : إنه لم يبق في صنعاء بيت قائم ، وأن الآلاف قد سقطوا قتلى ، وأن (الإمام أحمد) أقسم على دكها حتى يساويها بالقاع الصفصف ، أدى هذا الرعب إلى الإشادة بالمنتصر والتنديد بالمنهزم كالعادة ، بل إن المتَّهمين وأشباه المتهمين بمشايعة الدستوريين كانوا أكثر حماسة للمنتصر ولكن في غمار حماس مرعوب ، وعبَّرت (ذمار) عن ولائها باستقبالها الأستاذ نعمان والأستاذ إبراهيم الحضراني ، والأستاذ محمد إسماعيل الربيع أشنع استقبال ، إذ تجمهرت حولهم منددة بالدستور ومؤيدة للإمام ، وزفت أولئك الرجال إلى السجن بأعلى زفة عُرفت بها ذمار مدينة الهتاف التأريخي ، لأن هذه المدينة سريعة الاستجابة لكل نداء ، سريعة التجمهر لكل حادث ، حتى أنهم في ساعات التعزير بأحد الناس يخرجون إلى التجمهر من الدكاكين والبيوت والمساجد ، حتى تصبح المدينة قفراً إلا من المقعدين ، فهذه مدينة جماهيرية حساسة الوجدان نزَّاعة إلى التنفس لأدنى مناسبة .

فكيف إذا كانت المناسبة القبض على مناوئين للإمام ؟ بمقدار الاستجابة للتشنيع بالدستور كانت استجابة المدينة للتشنيع بالمحافظ الجديد أو العامل كما كان يسمى ، فقد كانوا يلتفون حول سيارته كمتحمسين ضد منكَر ، إذ لاعهد لهم بمحافظ يقود سيارة لأن الخيول والطبول والأغاريد العسكرية كانت أبهة العامل يوم الجمعة وأيام الأعياد وفي الجولات خارج المدينة ، بالإضافة إلى هذا أن العامل كان قريباً من كل مواطن ، أما هذا فيخرج في سيارة مسرعة ويحتجب

عن الناس ولايصدر عنه إلا أوامر قطع الأرزاق ولغة غير مفهومة ، وبهذا تزايد السخط وتعاون المثقفون بريادة (عبد الله الديلمي) ومجاراة للتيار تركز التذمر على العامل ، وقيلت في هذا مجموعة قصائد تشخص لغة العامل وطريقة تعامله مستفيدة من أحاديثه القليلة إلى المتظلمين ، ومن أشهر القصائد قصيدة نونية منها :

اسْتَنْ عاوز ، أنا باشوف لابعدين
والمسألة حقتك ، باندبرها على ساني
ماعشكنوا دوْلْ ، عَسيرْ ، بعدما وصلوا
نرسم لهم ، باللَّخَنْ بائي على شاني
تسمع لغة شنج ، لاتلقى لها مثلاً
لاالصوت تركي ، ولا الحلقوم سوداني
قل للإمام ولاتخشى مهابته
ما القرد والأسدُ الضرغام سيان

ربما كانت بعض هذه المفردات من لهجات جنوب السودان وقد ثبتت في لسان العامل فاستغلتها القصيدة للسخرية ، ففي يوم واحد انتشرت القصيدة وعكف البعض على نسخها ونشرها في الشوارع ، وأخذ طعم المغامرة يحلو أكثر ، فكتبت منشورات تتجاوز العامل إلى الوضع ، وهنا بدأ المحذرون يرفعون أصواتهم ، فكان الردّ عليهم ، نريد عاملاً ثانياً ، وكان المحذرون ينكرون طريقة المطالبة بعامل آخر ويقولون . . إن الإمام سيغضب لعامله ويمثلون هكذا . . (من بصق في الدهليز بال في المفرج) ، أي أن العامل جزء من الإمام كالدهليز من الدار ، وتحقق تنبؤ المحذرين إذ أصدر (الإمام) أوامر صارمة لكبح جماح (ذمار) والقبض على الأشرار فوراً ، وفي نفس اليوم استضاف السجن ثلاثين ضيفاً من أمثال : علي العفاري ، محمد اليوسفي ، أحمد عبد الله العنسي ،

محمد المجاهد ، واجتمع أهل المدينة لتحديد الأشرار والمحرضين والفاعلين ، فتجمهروا إلى العامل بنفس الحماس بقيادة رئيس البلدية متبرئين من كل تهمة محملين بعض الأشخاص المقبوض عليهم كل تهمة ، وتهيبوا اسم (عبد الله محمد الديلمي) لأن جده كان عامل المدينة ، وقد يكون عاملها مرة أخرى ، ثم إنَّ للديلمي علاقات وأواصر قربى بعدد من البيوت فسكتوا عنه وأدى سكوتهم عنه إلى اتهامهم بالتواطؤ مع رأس المتهمين ، فأنذرهم (الإمام) ببرقية أخرى : بأنه سيدك (ذمار) إذا تستروا على الشياطين ، في اليوم التالي تجمهروا معلنين تهمة (الديلمي) ورجل آخر لاأسميه ، وكان هذا الآخر أطول مشجب لتعليق مئات السوابق والاتهامات ، وكان (عبد الله الديلمي) يشمّ التخاذل من أول تهديد إمامي ، فلاذ بالفرار تاركاً على ظهر صاحبه الريفي كل التهم وكل التلفيقات وكل الصحيحات المجسمات ، وكما فرّ (عبد الله الديلمي) لاذ (علي الدرويش) و(علي حمود الديلمي) بمقام تعز ، فأوصلهم الالتجاء إلى المناصب المنشودة إذ أصبح أحدهما عاملاً ، والآخر حاكماً بدون أن يقدما أي تقرير عن (ذمار) أو عن الشياطين .

إذن فقد أصبح هذا الحدث الصغير حركة وطنية ، ولعل أهميته تتألف من عنصري الزمان والمكان ، لأنه تفجر في الهدوء الزمني بعد المذبحة في حجة عام ٤٨م ومن الهدوء المكاني مدينة ذمار (كرسي الزيدية) فأهمية هذا الحدث تكمن في كونه صيحة تحدٍّ في زمن الصمت المذعور وأعنف ضجة في أشمل سكون ، فلو نجم ذلك الحادث في الخمسينات لما شكّل خطورة فريدة لعمومية التذمر حينذاك ، ولو صعد من غير (ذمار) لما كانت له تلك الأهمية ، لأن (ذمار) لم تعرف بالعنف السياسي ضد الإمامة حتى إن الإصلاحيين منها كالوريث والموشكي لم يمارسا نشاطهما إلا في صنعاء ، ثم إن مكانها في ذلك الحين كان في القلب من الشطر الشمالي لأنها بين (صنعاء) و(تَعِزّ) وملتقى

أربع مناطق ، فما يحدث فيها ينتقل إلى أوسع مساحة ، ويصل إلى صنعاء وتَعِزّ في مدة يوم وليلة ، ولقد وصلت أنباء حركة (ذمار) إلى سجن (حجة) في أسابيع احتدامها ، فعلموا في أول عام من سجنهم أن الشعب بخير ، ولابد أن الأخبار التي وصلتهم كانت مهوَّلة كما هو شأن الأخبار الشفوية عن الأحداث ، وكان بعض الذين سجنوا على صلة بالدستوريين قبل نكستهم :

كعبد الله بن يحيى الديلمي الذي استضافة سجن صنعاء مرتين لاتصاله بالإصلاحيين ، وكان يخرج من السجن في أقصر مدة بشفاعة عمه (زيد الديلمي) رئيس الاستئناف ، أما بقية السجناء فلم تكن لهم سوابق نضالية ، وإنما مسّتهم التهمة لاحترافهم تخمين الواجبات وتحصيلها ولغضبهم لتنحيتهم عن تلك المهنة حتى ولو مؤقتاً ، صحيح أنهم كلهم على درجات متفاوتة من التعليم والخبرة ، وقد كانوا يُعرفون (بالمشاغلين) فلا يستقر في المدينة عامل إلا بضمان مصالحهم الاعتيادية ، وإلا فسوف يواصلون ضده (الاحتساب) إلى (الإمام) ، وكان هذا أهم الأسباب في عزل الولاة ، لأنه كان يقوم على الترصد لهفوات (العامل) أو (الحاكم) كأخذ قدر من الزكاة ، كالتهاون عن حسم الشجار في منطقة ، كقلة واجبات العام كانتشار سرقات أو قطع طريق ، وهذا ما يهمّ (الإمام) معرفته وعليه كان يرتكز (المحتسبون) باسم الإخلاص للإمام والتنبيه على واجبات ولاته غير أن احتساب عام ٤٨ غاير الاحتسابات السابقة ، فلم يتجه إلى (الإمام) عن تقصير (العامل) وإنما اتجه إلى العامل مباشرة ، وهذا يشكّل قدحاً فيمن ولّاه ، فهي حركة ضد (وجه الإمام) كما كان يقال ، لأن هؤلاء المحتسبين تحولوا إلى مناوئين من وراء ظهر (الإمام) . لكن هل كان السبب قطع الانتفاع من التخمين والتحصيل ؟ .

لو لم تكن الثورة كامنة في النفوس لكانوا التجؤوا إلى الإمام كالعادة ، بدلاً من إعلان السخط المنطوي على رفض للعهد كله ، على أن أغلب هؤلاء

كانوا قادرين على الكسب الضروري من مصادر أخرى ، بل إن بعضهم من ميسوري الحال من أمثال : (محمد عبد الله اليوسفي) ، (وأحمد عبد الله العنسي) (علي العفاري) ، (محمد العرشي) . . وهؤلاء أكثر ميلاً إلى العافية ولايشاغبون أو يشاغلون إلا باسم الغيرة على حقوق الدولة أو أمن الدولة أو أمن الناس من الناس . حتى الشاعر (عبد الله يحيى الديلمي) فإنه دخل إلى التذمر في عهد الإمام يحيى من باب الاحتساب على (زيد زبارة) مأمور الأنبار ، وفي هذا قال أحد قصائده :

طعن الأنبار في أحشائه طعنة نجلا أودته الحماما
قسماً بالله لولا ذاك ما شربوا خمراً ولا ربوا غلاما

فكانت هذه قصيدة احتسابية على مأمور أنبار (ذمار) (زيد زبارة) صهر (الإمام) ، من هنا تجاوزت الاحتساب إلى مس العائلة المالكة ، ولو كان هذا الاحتساب على غير صهر (الإمام) لكان قربة إلى (الإمام) ، لكنه دلّ على ثورة ضد القصر وأقاربه ، وبرغم أن الاحتساب أدى إلى عزل (زبارة) كما أدى الاحتجاب إلى عزل (الهمداني) فيما بعد ، فإن المحتسبين والغاضبين لم يسلموا من العقوبة لدخولهم من الباب الخلفي ، أو لامتشاقهم خنجر التحدي ، فبعد سجن هؤلاء في ذمار انتقلوا إلى سجن (صنعاء) كتأكيد لإجرامهم وطول مدة سجنهم ، بيد أنها حدثت تدخلات تبرئ هؤلاء ، وربما كان أهمها عدم صلاحية (عامل ذمار) وبداية ارتفاع التذمر بصنعاء ، ثم إن (الإمام) حاول أن يتحامى زيادة الأعداء وتعدد المدائن المناوئة ، فقد أخذ استنكار نهب صنعاء يتعالى بعد حدوثه بشهور ، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الإمام أحمد يترك العاصمة (صنعاء) ويستعصم مدينة (تَعِزّ) ، لأن ولاء العاصمة أهم الشروط لاستقرار الحكم ، ولم يكن بينه وبين (تَعِزّ) أية مناوأة ظاهرة ، على حين أعلنت (صنعاء) العصيان وأقامت الدستور ، ولم تكن (ذمار) أقل شأناً

من (تَعِزّ) بل إنها تعدّ امتداداً لصنعاء من حيث منهج التعليم وأسلوب العيش وفن العمارة ، لأنها كانت تحاكي كل الأنماط الصنعانية ، ويسوءها امتياز (صنعاء) عليها بلطف أهلها وأرباح تجارتها وكثرة المتنفعين من السلطة فيها ، ولعل المنافسة بين (صنعاء) و(ذمار) متوالية على توالي العصور ، وأكثر ماتعتز به (ذمار) هو التهجير إذ أجمعوا على كونها هجرة أي محمية من جميع القبائل من أهل منطقتها ، فمهما كان انفلات السلطة ، فإن مدينة ذمار (مهجَّرة) أي مرعية الحرمة من الأرياف المجاورة لأهلها ، فلا تتعرض لنهب ولايحدث في أسواقها والطرق إليها قتال ، لأنها (هجرة عنس) . أو موضع توقيرها لكونها مدينة العلم والحلم ، ولوثاقة العلاقة بينها وبين الأرياف من تجارية وحل مشكلات ، لهذا عُرفت (ذمار) بالأمان كما عانت (صنعاء) الاضطرابات المتلاحقة لمركزيتها كعاصمة أولى ولاتخاذ مناوئي سلطتها قواعد في القرى المجاورة لها كهمدان وبني حشيش وبني مطر والحيمتين ، أما من الناحية التعليمية فإن (المدرسة الشمسية) بذمار تضاهي (الجامع الكبير) بصنعاء أو (دار العلوم) ، وإن كانت تساوي في دراسة كتب الشيعة مدينتي (صَعْدة) و(شهارة) و(المكلاّ) ، بل كانت (ذمار) أكثر تعصباً للتشيع : إما لوجود سنيين متكاتفين ، أو لقلة المشاغل .

لهذا كانت حركتها آخر عام ٤٨ شديدة الغرابة ، شديدة الوقع لأنها جاءت للسلطة من مأمنها وفي وقت اطمئنانها من كل طارئ ، لظنها أنها قد أسكتت كل نبض بمعرة (صنعاء) ودموية (حجة) ، على أن هذا توهمٌ لايبرره الواقع التأريخي لهذا الوطن ، إذ كل حدث يولِّد من نفسه نقيضه ، فتجر الدموية إلى الأكثر دموية ، ولعل لاستغراب (حركة ذمار) عامل آخر ، لأنها مدينة مفتوحة لاتحيط بها أسوار ، ولا تقف بالقرب منها جبال . فكيف تقاوم وجغرافيتها لاتملك المواقع الدفاعية ؟ لهذا ارتأى الديلمي المعاون في حركة ٤٨م أن يوزع

مجموعة من العساكر في رؤوس المآذن .

إذن فقد كانت (حركة ذمار) الدليل على إمكانية تلاحق الأحداث ، وعلى عجز دموية ٤٨ عن تسمير الفلك وإيقاف النهر الزمني ، فبعد حركة (ذمار) انطلقت الكوامن النفسية وأدانت نهب (صنعاء) ، حتى أن (الإمام أحمد) في منتصف الخمسينات ألغى اسم (عيد النصر) وسماه (عيد الجلوس) ، لأن استعادة ذكرى انتصاره ، استنفار لمرارة الشعب الذي ناصره ثم لم يكن نصيراً له ، وكانت (حركة ذمار) الصيحة الأولى في زمن الصمت الدامي .

* * *

الفصل الثامن

الازدواجية . . والثنائية
في انقلاب مارس ٥٥

الازدواجية .. والثنائية في انقلاب مارس ٥٥

ليس الرجوع إلى الماضي من أجل التبجح به .. ولا من أجل تعييبه .. إذ لاجدوى من التبجح به .. ولا قيمة من التشنيع عليه .. لأنه أصبح فانياً ، وإنما الرجوع إليه لاستخلاص ماهو تأريخي فيه وما هو آني لايتجاوز يومه وماهو غير معدود في الأحداث المؤثرة .. لأن بعض الأحداث قد استأثرت بالاهتمام .. واستغرقت أطناناً من الأوراق حتى لايكاد المرء يميّز بين الوثائق التي هي مرجع التأريخ .. وبين التأريخ الوثائقي .. مع أن ضخامة الوثائق أعجز من أن تخلق حدثاً مزمّناً بحينه كما يحاول البعض اليوم نفي حرب الجمَل بين علي وعائشة ، كما أن الوثائق أعجز من أن تجعل الحدث أكبر مما هو .. كما أن قلتها .. أعجز من أن يقلل من الحدث العظيم .. وبالأخص اليوم زمن امتحان الوثائق حتى وقع أكثرها في تهمة التلفيق أو التزوير ، أو المبالغة على أحسن الأحوال مع أن الحدث التأريخي يخلق تأريخيته ووثائق وجوده من نفسه بأقل المدونات ، وربما كانت المبالغات أو التزيدات سبب ضآلة الحدث - كوفرة الإعلانات عن البضائع الكاسدة - ولعل انقلاب مارس ١٩٥٥م من الأحداث اليمنية التي ظفرت في الأيام الأخيرة بالعناية التي لاتستحقها .. لأن ذلك الحدث من مئات الأحداث العائلية التي استفاضت بها تواريخ القصور ومكائدها .. فلم يكن قيام عبد الله بن يحيى حميد الدين على أخيه أحمد بن يحيى في مارس عام ١٩٥٥ غريباً على صراع العهود الوراثية .. فكم قام أخ على أخيه .. وكم خرج ابن أخ على عمه في التأريخ الإمامي باليمن .

وفي تواريخ الخلفاء في أكثر من عاصمة .. وفي أكثر من عهد من عهود

الهرقلية والكسروية والقيصرية والخلفائية . . حتى أن بعضهم لم يتول سوى ليلة - كعبد الله بن المعتز - وبعضهم لاقى الخلع على يد من ولاّه قبل شهور . . وهذه السمة منطبقة على انقلاب عبد الله بن يحيى . . على أخيه أحمد في مارس عام ٥٥ بتَعِزّ .

فهل تكوّنت عوامل هذا الانقلاب عائلياً أم شعبياً ؟

إنه عائلي مزدوج من عائلات وضباط على رأسها البيت الإمامي . . وعلى عائلية هذا الانقلاب المزدوج فإن له ثنائية شعبية . . .

إذ شاركت في صنعه عناصر وطنية نقية القصد . . وطنية الغاية . . ولكي نستغور هذا الحدث ، تتحتم لفتة إلى ينابيعه . . وأصول نظائره . . عندما تكاثر أولاد الإمام يحيى - الذي كان وحيد أبويه - طمح كل بنيه إلى ولاية عهده . . كما أشار إلى هذا علي ابن الامام :

ونحن بنو أسرة كلنا . خيولهمُ للمعالي جماحْ

وهذا الازدياد في عدد الطامحين من أبناء الخليفة أو (الإمام) يشكّل أهم أسباب الصراع داخل القصر لتعدد البنين من أمهات متعددات أو تعدّد منازع البنين من أمّ واحدة . . وقد أدّى اختلاف الأمهات إلى أول دموية عباسية . . بين الأمين بن زبيدة ابنة جعفر . . وبين المأمون ابن الجارية . . حتى تناسى الأمين والمأمون أبوّة (هارون الرشيد) . . أمام اختلاف الأمَّيْن . لأن (زُبيدة) كانت مشاركة في الحكم ، ولأن الفرس أرادوا الانتقام للبرامكة الذين أطاح بهم (الرشيد) فوجدوا في اختلاف الأخوين ستاراً كافياً للنوايا وللهجوم على العاصمة بغداد بقيادة عربي هو طاهر بن حسين الخزاعي .

فسقط الأمين واحترقت بغداد . . ومات مئات الأبرياء من جرّاء قتال الأخوين مدة عام وشهرين . . وأراد المتوكل العباسي بعد سنوات أن يتفادى

وقوع ماحدث بين الأمين والمأمون ، بين أولاده الثلاثة . . فعقد ولاية العهد لهم جميعاً وتسمّى (أبا أولياء العهود) على حدّ تعبير البحتري ، ومع هذا لم يحلّ مشكلة الصراع العائلي ، وإنما زادها تعقيداً ، فسقط صريعاً على يد ابنه المنتصر . . لأن الاشتراك في ولاية العهد سبَّب السباق على وراثتها وأراد كل واحد أن يتفرّد بوراثة أبيه ولو بمقتله . . ومن المعروف أن حياة العهود الوراثية تتشابه بكل مكائدها وبكل أدوات التنافس على الحكم . . وإن كانت (الإمامة) في اليمن تتميز - أو حاولت أن تتميز - على الخلفاء والملوك بتحديد اربعة عشر شرطاً لصلاحية الخليفة أهمها أن يكون الخليفة علوياً فاطمياً ، وأن يكون عالماً مجتهداً شجاعاً سخياً أكثر رأيه الإصابة سليم الحواس والأطراف حراً ولو بالعتق من عبودية سابقة ، وهذه الشروط اكتسابية ، لاوراثية . . وعلى صراحة هذه الشروط فإنها لم تمنع التوارث إلا في النادر . . إذ تلا (الهادي) ابنه (المرتضى) ، ثم ابنه (الناصر) القرن التاسع الميلادي ثم صار الالتزام بالشروط تقليداً . . كما صار التوارث شبه سُنّة لأن كل (إمام) كان يدّعي - حقاً أو باطلاً - استيفاءه الشروط ، وكان أكبر أولاده يبذل جهده لتحقيق هذه الشروط ، باستثناء النسَبَ الذي يملكه بالوراثة .

امتد هذا التوارث واكتساب الشروط أو دعوى اكتسابها إلى عهد (الإمام يحيى) في القرن العشرين . . إذ رأى كل أمير نفسه مكتمل الشروط . . فلم يكد (يحيى) يدخل سن الشيخوخة حتى طمح كل بنيه إلى استخلافه بعد أبيه على نفس المفهوم القديم . . حتى إن بعضهم مال إلى المعارضة من بعيد (كعلي بن يحيى) وبعضهم انتمى إليها فعلاً (كإبراهيم بن يحيى) وكانا أقل أنجال (الإمام) خطراً لاشتهارهما بالمجون . . وربما كان سبب تعاطفهما وانضمامهما إلى المعارضة شعورهما بجدارة أخويهما (أحمد) و(عبد الله) لميراث الخلافة . . إذ كان (أحمد) شهيراً بالبطولة الحربية خاض عدّة معارك انتصر

فيها . . كما كان (عبد الله) شهيراً بالمعارف السياسية والذكاء السياسي ، تعلّم (أحمد) في (شهارة) على يد الشيوخ الحفاظ التقليديين . . . وانتظم (عبد الله) بدار العلوم بصنعاء . . . فنشأت بينه وبين نابهي الثلاثينات علاقة الزمالة ، أو بداية قاعدة سياسية ، فعندما تولى عبد الله (وزارة المعارف) في آخر الثلاثينات أدنى منه مجموعة من زملاء الدراسة النابهين ، من أمثال : عبد الله العزب ، وعبد الرحمن عبد الصمد وعبد الكريم الأمير وعبد الرحمن السياغي وعبد الكريم السياغي وعلي الشماحي وأحمد المطاع وأحمد عبد الوهاب الوريث . . . وعندما أراد (الإمام يحيى) تنحية (علي الوزير) عن إمارة لواء تعِزّ . . وتنحية (عبد الله الوزير) عن لواء الحديدة . . أمَّر ابنه (أحمد) على لواء تَعِزّ كما أمَّر ابنه (عبد الله) على لواء الحديدة ، فلاحظ الناس النِّدية بين (أحمد) الرجل الحربي وبين (عبد الله) الرجل السياسي وأراد (يحيى) أن يخفف تيار الصراع بين الأخوين فكلف (عبد الله) بعدة مهمات خارج القطر فأقام بمصر فترة . . وأطال التنقل بين أوربا وأمريكا بعض سنوات . . وبهذا ابتعد عن عنف أحداث الداخل بين المعارضة ، وبين أبيه ، وبين أخيه والاتحاد اليمني في (عَدَن) ولم يكن عند الاتحاديين أمل في انضمام (عبد الله) إليهم كإبراهيم . .ولا كان مبدياً نحوهم تعاطفاً ولا عداءً .

وحين بلغت الأحداث ذروتها بمقتل (الإمام يحيى) في شباط عام ١٩٤٨م كان (عبد الله) بمعزل عن جملة الأحداث . . ولعل هذه الأحداث هي التي رشحت (أحمد) للحكم بسبب إخماده للانقلاب ، وامتلاكه السلطة بحد السيف ، بدون نظر إلى الشروط الهدوية للخليفة . . وبرغم كل الإخوة الطامحين .

بعد انقلاب عام ١٩٤٨ ساد الركود مؤقتاً . . ثم أخذ الناس يتساءلون عما جرى . . وكيف جرى ، وهل يمكن حدوث ماحدث ، أم حدوث غيره ؟

من مطلع الخمسينات قلّل (عبد الله) من رحلاته الخارجية ، وظل يتنقل

في الداخل بين تَعِزّ ، وصنعاء ، والروضة والوادي مبدياً اقتناعه بأشغاله التجارية . . لأنه اشتمّ خطورة مجازفة عائلية . . وبالأخص عندما شاع أنَّ (أحمد) دسّ لأخيه (يحيى) السم . . . لأنه جعل من توزّره على الصحة في الخمسينات سلطة وقاعدة من موظفيها ومن البيوت التي أمر بحمايتها من نهب مارس ٤٨ . . وكان ليحيى ثلة من الأصدقاء ، كما كانت له شعبية عند البيوت التي حماها من نهب ٤٨ ومن سائر الصنعانيين لهذه اللفتة إلى الناس وقت الشدّة .

كان موت (يحيى) الغامض سبباً في انطواء (السيوف) ولم يكن لأحد أي نفوذ غير (الحسن) الذي كان كرئيس وزراء في صورة نائب (الإمام) على (صنعاء) . . أو نائبه على كل الألوية ، لأنه كان قوة تنفيذية في سائر المراكز . . ولما كاد يطغى على (الإمام) في تسيير الأمور . . أدى هذا إلى افتعال مهمات له بالخارج ولعل هذا أفسح المجال لعبد الله . . لأن (العباس) أخاه أصبح كنائب للإمام بعد (الحسين) ، وكانا يشتركان في كراهية سيطرة (الحسن) الذي توارى أيام الزحف على صنعاء على حين كان (العباس) يقود جيشاً كبيراً كان له أول اكتساح (صنعاء) ، وكان أحق في منظوره وأخيه (عبد الله) بمكانة (الحسن) .

من هنا أكّد (عبد الله) صلاته القديمة . . واستقطب جماعات أخرى . . وكان في اختياره الرجال يعتمد على الشخصيات العملية والدينية ، والأدبية ، وكان أضخم إخوته ثروة لتعدد مناصبه وكثرة رحلاته الدبلوماسية وتوظيف أمواله في المصارف الخارجية وتشغيلها في التجارة الداخلية حتى كانت حوالاته المالية للأتباع من كبار التجّار أعلى (رقماً) من حوالات (الإمام) و(الحسن) إلى صناديق الحكومة . . وكان مجلسه عامراً بالوجوه المتنافرة ، والمتشابهة . . كما كان مايدور فيها مختلفاً عن مجالس (الإمام) و(الحسن) وسائر المجالس

القاتية . . لأنه كان يقص على جلسائه أخبار العالم الخارجي . . وأساليب العيش فيه . . وتطور الصناعات ، وحركات الناس ، حتى أصبحت الروايات عن مجالسه من أشهى المرويات ، والمسموعات ، ومن أكثر الرواة عنه أبناء إخوته وبالأخص المبعدين والمقتولين ولعلهم كانوا يروّجون له الدعايات عن قصد ، وعن منفعة لأنه لم ينجب . . فتوسَّم كل (أمير) أنه سيكون ولي عهده إذا وصل إلى الحكم .

أما المجتمع الشعبي فقد كان غامض الأحلام في تلك الفترة . . وإن كان شديد التطلع إلى مجريات العالم . . وبالأخص عندما توفَّر (الراديو) ، والصحيفة . . وتأرَّجت روائح الثورات والانتفاضات . . ولاسيما الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، لعراقة العلاقة الثقافية بين (اليمن) و(مصر) من منتصف العشرينات حتى وصلت إلى اختلاف الأحزاب المصرية حول الحرب اليمنية السعودية في منتصف الثلاثينات إذ كانت جماعة الإخوان المسلمين . . أميل إلى عبد العزيز آل سعود ، أو أقرب إلى دعوة حقن الدماء بدون تمييز للأسباب . . على حين كان حزب الوفد أحرّ حماساً لحكومة (اليمن) ، كما دلّت صحافة تلك الفترة المختلفة الاتجاهات .

لهذا لم يكن غريباً تقصي اليمنيين أطوار ثورة مصر ، وإناطة الأمل بها ، وإن كانت الإرادة المحلية تتعثر بين الحلم ، والخوف من الأحلام بعد نكسة ٤٨ . . إلا أن تسلل التيارات الجديدة ظل يتردّد ، وكانت فترة (أحمد) أقلّ تجمداً من عهد أبيه . . إذ انفتحت المكتبات ، وتعددت المدارس ، وانفتح المجال نسبياً للتوظيف ، وارتفعت المرتبات أضعاف مرتبات العهد اليحيوي . . فأمكن شراء الكتاب ، والمذياع ، والجريدة وبهذا تخفف أثر القمع الدخيل في النفوس . . لكن لم ينتظر المجتمع الشعبي حدوث مفاجأة سياسية لغياب الإمكانيات المادية والقيادات السياسية في السنين الأولى من الخمسينات ، ولم

يكن الشعب محباً لأحمد كأبيه ولا آملاً في (عبد الله) كمخلّص من أخيه . .

وفي هذه الظروف الحالمة العاجزة ، أخذ (عبد الله) يُعدّ نفسه بديلاً عن أخيه . . فأقنع ذويه بضرورة انقلاب عائلي . . بحجة أن (أحمد) زرع الأحقاد في نفوس الشعب على العائلة بشدة عنفه عام ٤٨ على (صنعاء) وبتقطيعه رؤوس رجال لهم خطر في عشائرهم .

بهذا التقت عائلة (حميد الدين) بكل فروعها ولم تقتصر على البيت المتوكلي . . من هنا كادت العائلة (القاسمية) أن تجمع سرّاً على صلاحية (عبد الله) بديلاً عن (أحمد) الذي أدمى وأغضب . . ورسّخ كراهية الشعب للأسرة ، بل لجموع الهاشميين .

وبرّرت العائلة صواب اختيارها لعبد الله بثلاثة أسباب هي :

١ - غيابه عن أحداث عام ٤٨ .

٢ - توسطه بين قسوة (أحمد) ، وبخل (الحسن) ، أيام نيابته لأخيه وأيام إمارته على (لواء إب) في حياة أبيه .

٣ - معرفته بالسياسات الكبرى في العالم المعاصر ، في وقت تقاربت فيه السياسات وتصارعت فيه القوى الكبرى .

وكانت جمهرة الشعب تسمع هذه الأخبار بدون اكتراث . . وبدون رجاء في القائم أو الذي سوف يقوم ، ولم يكن أحد يتنبأ بنتيجة هذا التدبير العائلي . . إلا أن البعض أشار إلى أن (عبد الله) قد أوكل بالمهمة خمسة من أولاد أخوته لكتف (الإمام أحمد) في حالة صعفه ، وإرغامه على التنازل سلمياً . . ولعل (أحمد) كان غير غافل عن هذا التدبير . . لأنه عامل أولاد إخوته من وراء حجاب ، ولم يستقبلهم مجتمعين بل بعث بعضهم إلى كليات مصر للدارسة . . ثم إنه لم يستخطر (عبد الله) لقلة خبرته بالسواد الأعظم من

الشعب ، ولأن أغلب رفاق (عبد الله) الذين كانوا زملائه في (دار العلوم) قد تفرقت بهم الطرق .. فمنهم سفراء في الخارج كعبد الرحمن عبد الصمد أبو طالب وعلي المؤيد .. ومنهم من هو أبعد عن المجازفة او أقرب إلى حب السلامة ، معتبراً بما حدث قبل سنوات .

لهذا كان انقلاب (عبد الله) حبيس جلساته الخاصة ولم تشكّل تلك الإشارات الخافتة إرهاصاً بحدث قريب الوقوع .. وفي هذه الأثناء حدثت مشكلة قرية الحوبان .. إذ اعتدى بعض الجنود على مواشي تلك القرية وبعض أهلها لمنعهم بعض العساكر من الاحتطاب من أشجارهم .. فرفعت شكواها إلى (الإمام) فاشتد غضبه لانتهاك جنوده قرية بمقربة من عاصمته .. فأمر بسجن بعض الجنود . وسلب بعضهم السلاح .. فثارت ثائرة جيش تعِزّ .. وامتدت عدوى الهيجان إلى جميع أفراد الجيش هناك .. فانقضوا على قصر (الإمام) بالعرضي وأمطروه برصاص البنادق .. ولعل بعض الضباط كانوا وراء دفع الجنود مستغلّين ذلك الهياج .. ولما عرفوا تصميمهم قادوا حركتهم .. وكان (أحمد يحيى الثلايا) من الضباط المحنَّكين والقادرين على الانضباط فأصبحت الحركة حركة الجيش بتعز برئاسة (الثلايا) وقيادة مجموعة من الضباط من أمثال :

أحمد الدفعي ، عبد الرحمن باكر ، والصعر وآزرهم نقباء قبليون كالمطري والغولي وكان هؤلاء من ذوي النزوع الوطني والرؤية التغييرية ومن المتابعين للثورات العسكرية في الخارج ، وربما تعاون في نفوسهم تأثير العدوى وحسّ الطموح إلى السلطة فتبدى الانقلاب كثورة عسكرية في بادئ الأمر .. وفي اليوم الثاني من بدء الحركة صدر عن تَعِزّ منشور .. موقع بخط الإمام أحمد .. يعلن تِنازله عن (العمل) لأخيه (عبد الله) .. واتّسع توزيع ذلك المنشور في سائر المدائن اليمنية وكان يقرؤه على الناس مديرو المراكز أما في (صنعاء) فقد

لصق ذلك المنشور على واجهة إدارة مأمور الضبط - بباب السبج - وعلى مداخل المدارس والمساجد والدوائر الحكومية ولم يثر هذا أي حماس للحادث أو ضده لعدم اكتراث الناس بذلك الحدث .. وإنما تبدى نشاط المقام بصنعاء الذي كان يدير الأمور فيه (العباس بن يحيى) أخو (عبد الله) ... فاستضاف السجن أفراداً ليس لهم سوابق سياسية وإنما أصابتهم تهمة مناوءة العهد الجديد .. ولعل برودة ذلك الحدث تنتسب إلى غياب الإرهاصات له والتبشير بحدوثه وغياب الأمل الشعبي عنه إذ لم يكن لذلك الحدث أي روائح .. فلم يسبق ذلك الانقلاب من البوادر التحركية كالذي سبق انقلاب عام ٤٨ لهذا تبدى انقلاب مارس ٥٥ على غير انتظار وبلا دهشة مفاجئة .. لأن ذلك الحدث كان يعاني ازدواجية .. إذ أيده بعض رجال ٤٨ من أمثال عبد الرحمن الإرياني ، ومحمد حسين عبد القادر .. إثر خروجهما من سجن (حجة) وشجبه بعضهم من أمثال الأستاذ أحمد محمد نعمان والأستاذ أحمد محمد الشامي والأستاذ محمد الزبيري الذي ندد بالحادث وحذر منه في أحاديثه من صوت العرب بالقاهرة .

أما الأستاذ (نعمان) فقد انضم إلى (البدر ابن الإمام أحمد) الذي أراد أن يقضي على الانقلاب عسكرياً من مركزه (بحجة) مهتدياً بتجربة أبيه عام ٤٨ ، حتى الأسَر المعروفة بالتماسك انقسمت في موالاة الانقلاب والتراخي عنه .. فبينما أيد (يحيى السياغي) حاكم المقام بتَعِزّ قيام (عبد الله) وعدم صلاحية أخيه (أحمد) لعجزه بسبب انهيار صحته مُصدراً في ذلك حكماً شرعياً ... تردد بقية آل السياغي في إظهار نواياهم .. رغم وثاقة علاقاتهم بعبد الله .

فهل كان ظهور (عبد الله) بتجمعه العائلي والإخواني دخيلاً على الحركة العسكرية ؟ أم أنه استغل غضب الجيش فامتطى الموجة إلى الحكم سلمياً ؟ ..

يرى البعض أن (عبد الله) و(الثلائي) وجّها الحركة العسكرية كوسيلة ضغط على (أحمد) ليتنازل . . ويرى البعض أن (عبد الله) استنح فرصة غضب الجيش ولكن عن تدبير مسبق مع (الثلائي) لتلمس الفرص أو إنضاج الظروف وكان ذلك الحين موسم التحرك العسكري في أكثر من مكان فعوَّل (عبد الله) على (الثلائي) لعسكريته غير الطامحة إلى السلطة .

لعل الالتفات إلى خليفة (الثلائي) تعطي رؤية للحركة من داخلها .

تعلم (أحمد الثلائي) بمدرسة الإشارة العسكرية بصنعاء بعد أن تخرج من الابتدائية . . وفي عام ٣٦ كان أحد أفراد البعثة العسكرية إلى (بغداد) وبعد رجوعه من بغداد غاير زملاءه ، فانطوى على نفسه ولم يشاركهم الرأي في القيام بانقلاب عام ٤٨ رغم علاقته العملية بجمال جميل الذي كان دولاب الحركة الانقلابية ، وربما كان (الثلائي) موضع شك عند (جمال جميل) فتعين قائد مفرزة بصَعْدة عام ٤٧ . . وبعد مقتل (الإمام يحيى) التزم الحياد حتى ظهور (أحمد) في حجة فالتحق به (الثلائي) مع مفرزته . . وكان هذا الولاء لأحمد سبب حظوته لديه . . فعيّنه معلماً لجيش تَعِزّ . . وكان (الثلائي) أميل إلى التدين رغم صرامته العسكرية . . وكان محدود الثقافة فلم يعرف عنه ميول إلى التطلع السياسي والثقافي كزملائه من أمثال الشاعر أحمد المروني وعبد الله السلال . . والمؤرخ زيد عنان . .

وحينما أصبح معلماً لجيش تَعِزّ كان معروفاً بالانقطاع لعمله الوظيفي . . وواجبه المنزلي . . ولم يشارك في أية مهمة من المهمات اللواتي كان يتطوّع الخيّرون بها للإفراج عن سجناء حجة .

إن نفسية (الثلائي) تقترب من نفسية إمام انقلاب مارس . . كلاهما أميَل إلى الحذر وإلى الانطواء . . وكان كل منهما يعاني عقدة الإنجاب . . (عبدالله)

لم ينجب ذكوراً ولا إناثاً .. على حين أنجب (الثلائي) بنتاً وحيدة ظل يحلم لها بإخوة وأخوات .. كان (عبد الله) محصوراً بثقافة الأخبار السياسية .. وكان (الثلائي) محصوراً بصرامته العسكرية .

كان (الثلائي) بمنأى عن غبار ٤٨ وإن انضم إلى المنتصر .. وكان (عبد الله) خارج القطر يومذاك .. كان (الثلائي) أقرب إلى الروتين العسكري التركي وألصق بالعائلات الشبيهة بالتركية كآل الجرموزي الذي تزوج إحدى بناتهم الشهيرات بجودة الطبخ وإرضاء الضجيع .. وكان (عبد الله) أقرب إلى الخليط من متوسطي الثقافة ومن متدنيها .. وقبل أن يقوم بالانقلاب أراد أن يدلل على اهتمامه بالثقافة الوطنية فطبع الجزء العاشر من الإكليل (لأبي محمد الهمداني) من مؤرخي القرن العاشر الميلادي وأعاد طبع كتاب (البحر الزخّار) لأحمد بن يحيى المرتضى - من أئمة العلم في القرن الرابع عشر ميلادي - وكان طبع المخطوطات اليمنية من علامات الاهتمام .. ومن دلائل الشعبية أو أسباب البحث عنها .. لهذا أراد (أحمد) أن يزيد على مافعل (عبد الله) في نفس الفترة فطبع ديواني الأنسي ، والعنسي ، وديوان شرف الدين ، وشمس العلوم ، والحور العين ، والمنظومة التأريخية لنشوان بن سعيد الحميري .. ولعل مبادرة (عبد الله) إلى طبع ذينِك الكتابين أولى لفتاته إلى الثقافة الشعبية الذي اتهمه البعض بجهلها لطول أسفاره في الخارج .

فبين الثلايا وعبد الله أكثر من وجه شبه والتشابه بين الرجال يؤدي إلى أصدق مودة ، أو أشد كراهية .. ذلك لأن (الثلايا) الرجل الهادئ قبل المخاطرة في ظل (عبد الله) وتريث في انقلاب ٤٨ عن التورط قبل استبانة الغالب .. فهل هذا يرجع إلى الالتقاء في النقاط النفسية بينه وبين (عبد الله) وبالأخص بعد أن ترفه (الثلائي) وأصبح من ميسوري العيش ؟ .

أما الضباط والجنود الذين استشهدوا مع (الثلائي) فهم من فقراء

(صنعاء) وبؤساء الفلاحين باستثناء الشيخ المطري . وكانوا يطمحون إلى الثورة كجيش مصر ، لهذا تبدّت مشاركتهم في انقلاب يستبدل إماماً بإمام غريبة أو ثنائية .

إن انقلاب مارس ٥٥ كان مزدوجاً عائلياً ، وكان الضباط والجنود هم الاستثناء من ذلك الازدواج .. وربما لم يكونوا على علم بإمامة (عبد الله) للانقلاب وإنما نفذّوا أوامر المعلّم أحمد الثلائي .. وكانوا رافضين للعهد الأحمدي وعلى غير دراية باقتحام أخيه .. حتى تبدى ذلك الحدث بفجائيته ووجوهه العليا كجملة معترضة في مسلسل الأحداث اليمنية المعاصرة .. صحيح أن (عبد الله) اتخذ الجيش أداة .. وربما تمظهر به قادته وهذا لايجعل الانقلاب مغايراً لخروج أخ طامح على أخيه الإمام المريض ، فما أكثر ماحدث مثل هذا بين (مهدي المواهب) وبين (مهدي القفلة) .. وبين (المنصور علي) .. و(المنصور أحمد) وبين المتوكل أحمد بن الحسن والمتوكل إسماعيل وكان كل إمام يقوم بقاعدة من الأنصار كما قام عبد الله بن يحيى في منتصف الخمسينات على قاعدة من معسكر تعز ومن التدبير العائلي وتأييد الصحبة .. ولأن هذا الانقلاب غير مسبوق بإرهاصات جماهيرية .. وغير قائم على إرادة شعبية .. سقط بعد خمسة أيام من قيامه واستعاد (أحمد) تأريخه الأسطوري إبّان اليأس من قدرته لأنهٔ خرج وحده متّشحاً سيفه فأرعب حراس قصره . . .

ولكن خروجه كان مسبوقاً بإعداد محكم .. لأن الازدواجية في الحركة أعطته مدخلاً لإفشالها من صميمها .. فعلى الرغم من أنها حركة عسكرية فقد اقتصرت على معسكر العرضي بتعز .. ولم تعقد صلة الجيش بصنعاء أو سائر المراكز بل لم تكوّن صلة مع معسكر القاهرة بتَعِزّ .. وكان مدججاً بالمدافع التي لايملكها معسكر العرضي .. لهذا مدّ (الإمام) اتصالاته بمعسكر القاهرة فأمطر معسكر العرضي بقذائف المدافع وقطع عليه الماء ، وفي عنفوان هذا الحصار

خرج (أحمد) على حصانه متّشحاً سيفه فوأد الانقلاب في مهده واحتز رؤوس قادته وإمامه وقيل إن أحسن علاج للإمام أحمد هو حدوث انقلاب ضده لأنه يتجاوز بذلك التوقد تداعيه ، ولو طالت مدة هذا الانقلاب لأمكن تقويمه من خلال تحركه . . ففي عمره المؤلف من خمسة أيام لم يصدر أي بيان عن نواياه أو عن مشاريعه . . بل لم يغير مسؤولاً عن مكانه سوى تعيين (عبد الله الشامي) مديراً لأمن صنعاء الذي كانت بينه وبين (العباس) صلة صهارة . . مهما تكن اعتراضية هذا الحدث فقد أفضى إلى تحولات سياسية واجتماعية . . لأن (أحمد) اشتم روائح المؤامرة الأمريكية من قيام أخيه (عبد الله) ، فتحداها عملياً إذ قوى من علاقاته مع المعسكر الشرقي فاستورد السلاح التشيكي والسوفييتي . . وتنفذت اتفاقية بناء ميناء الحديدة بالخبرة السوفييتية . . ورصف طريق الحديدة صنعاء بأيدي الخبرة الصينية . . وكانت هذه الفترة أخصب المناخات لنشوء التنظيمات السياسية والرخاء الثقافي النسبي ، ولهذا تغير مجرى الأحداث من ٥٦ برد الفعل على انقلاب مارس . . لامن التأثير المباشر لذلك الانقلاب . . فرغم ازدواجية ذلك الانقلاب . . وانتسابه إلى الأحداث القصورية ممتزجاً بالطابع العسكري . . فإن ردّ الفعل عليه افتتح آفاقاً جديدة للتحولات المتلاحقة ، لأن ذلك الحدث مهما كان اعتراضياً أحدث شقوقاً في العائلة الحاكمة ، كما أسرع في إخفات بريق (الإمامة) وبلور إرادة الشعب . . ولكن ليس بتأثير الحدث وإنما بتأثير معاكساته ومصاحبتها لمواسم المتغيرات المتتابعة .

إذ عقد القصر الأحمدي عدة اتفاقيات : ثقافية وفنية واقتصادية وعسكرية مع الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، فاستورد صفقات الأسلحة بزعم تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار وشارك في القمة الثلاثية بجدّة بينه وبين جمال عبد الناصر والملك سعود عام ٥٦ . . وفي عام ٥٨ طلب انضمام

حكومته المتوكلية إلى الجمهورية العربية المتحدة مصر وسوريا ، كما والى إرسال الوفود إلى موسكو لعقد الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية والفنية ، وكان المواطنون يسخرون من هذا التحرك ويتساءلون عن هذا التوفيق أو التلفيق بين رجعية (الإمام) وبين الثوار على اختلافهم ، وبالأخص عندما أوفد ابنه (البدر) على رأس مسؤولين إلى بغداد عقب ثورة تموز ٥٨ ، فما كان أحد يتوقع أن يؤيد (أحمد) ثورة العراق على العرش الهاشمي .

أما القوى الرجعية والاستعمار فرأت في هذا التقارب خطراً ، بغض النظر عن هوية (الإمام) ، وعن الأسباب الداخلية التي أراد تهدئتها بالتقرب إلى الثوار مجاهرة إلى حدّ أن (الإمام أحمد) رحب بالطلاب اليمنيين الذين أبعدتهم جامعة القاهرة بتهمة الشيوعية وأمر ببعث أولئك لإتمام دراستهم بألمانيا الديمقراطية ، وعلى العكس كان موقف المعارضين للإمام من أولئك الطلاب ، فقد نشرت جريدة العمال بعَدَن برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر تطالبه فيها بعدم إبعاد الطلاب إلى اليمن لأنهم سيعملون على نشر الشيوعية ، وكانت هذه البرقية مذيلة بتوقيع (عبد الله الأصنج) رئيس تحرير الجريدة (أحمد محمد نعمان) و(محمد محمود الزبيري) زعيمي الاتحاد اليمني في القاهرة ، بهذا تبدت مخاوف الرجعية والاستعمار أكثر في عامي ٥٩ و٦٠ فتحركت بعض القوى القبلية ضد (الإمام أحمد) ، فقد قيل في ذلك الحين : أن (الغادر) أحد شيوخ (خولان) كان يجلب الأسلحة من (سلطان بيحان) ، وأن (أمير بيحان) أراد تشكيل سلطنات في الشمال على شاكلة سلطنات الشطر الجنوبي في أواخر أيام الاستعمار البريطاني ، وكانت بعض الدول المجاورة تؤيد (سلطان بيحان) في هذا المسعى أو تشاركه في مدّ تلك القوى ، لكي يقضي على العلاقة بين (الإمام أحمد) وبين المنظومة الاشتراكية والثورات العربية ، وشكل هذا ضغطاً أدى بالإمام أحمد إلى معارضة الاشتراكية شعرياً ، وكان شعره في هذا

الخصوص بمثابة بيان سياسي ضد الاشتراكية ، وبالأخص هذا المقطع :

ولا يجـوز أخـذ مـال الغيـرِ إلا بـأن يـرضـى بـدون ضيـرِ
والـديـن قـد سـن الـزكـاة فينـا . . . . الـــخ . . . .

كانت مناوأة (الإمام) الشعرية للاشتراكية لاتقل غرابة عن محاولة انسجامه مع الاشتراكيين كما لاتقل غرابة عن جهله بالفقه الإسلامي حيث رأى الزكاة سنة وهي فقهياً واجبة كالصلاة والصوم بل هي أحد أركان الإسلام الخمسة ، وإن كان كل هذا من صنع تسارع التغيرات في الداخل وتوقه إلى تحقيق ماحقق الآخرون واجتنابه انتفاض الشعب .

أراد (الإمام) بعد انقلاب مارس ٥٥ أن يتمظهر بالثورية ضد الاستعمار ، وأراد في ٦١ أن يحتمي من الرجعية بالتقرب إليها ، وكل هذا هروب من واقع الثورة الذي أفرزته الظروف المتغيرة ، دون أن يفطن (الإمام) إلى استيراد الأسلحة بمثابة إعداد إمكانيات الثورة .

فعلى رغم تبديل الضباط المعلمين لطلاب الكلية الحربية ، وعلى رغم تغيير إدارة الكلية الحربية من فترة إلى فترة ، فإن الثورة كانت تتزايد في نفوس المجتمع الذي طلاب الحربية من أبنائه ، والذي يتكون الجيش من شتى شرائحه وطبقاته ، والذي تعددت تجاربه ونكساته .

لهذا تجاوز الجيش تفكير الأربعينات والخمسينات مستفيداً من كل النكسات ، فتبين أن نكسة جيش تعز في عام ٥٥ تكمن في ثلاث نقاط :

١ - الارتجالية كاستجابة للحدث الطارئ .

٢ - انفراده بالحركة عن جملة الجيش في كل المراكز .

٣ - تحركه لصالح (إمام جديد) .

وتابع ضباط الجيش خط الحركة مستغورين أسباب كل نكسة عسكرية لكي يتجاوزوها ، فكما تبينوا نكسة جيش تعز تعرفوا على سبب نكسة حركة (اللقية والعلفي والهندوانة) ورأوا أسباب تلك النكسة في انفراد أولئك الضباط بالحديدة بمحاولة اغتيال (الإمام أحمد) سنة ٦١ ، دون أن يرتبوا صلات مع كل ضباط الجيش وقطاعات المثقفين ، ودون أن يستكنهوا وجه البديل ، وإنما ركزوا على اغتيال (الإمام أحمد) لاستحالة عمل أي شيء في وجوده ، كما قال (اللقية) في إحدى محاكماته : (كنا نريد أن نزيح هذه الصخرة عن الطريق ثمن نعمل أي شيء) . فقد رأى هؤلاء الضباط الثلاثة إمكان التغيير الثوري في غياب (الإمام أحمد) ، دون أن يفطنوا للواقع العام الذي كان (الإمام) أهم ثمراته ، ودون أن يفطنوا لبقية القوى بما فيها ولي عهد الإمام بصنعاء .

فهل كانوا يثقون بالجيش وباستعداده على مواجهة الواقع بعد قتل الإمام ؟؟ .

ربما قام الجيش في صنعاء وسائر المراكز بواجبه لو تم قتل (الإمام) ، وربما انقسم إلى جيشين كما حدث في عام ٥٥ .

لهذا لجأ ضباط الجيش في مستهل ٦٢ إلى تشكيل لجنة الضباط الأحرار في كل المعسكرات ، ساعد على هذا التنظيم والتحرك له في سائر المدائن اشتغال (الإمام) بمرضه من جراء محاولة قتله ، واشتغال أعمدة العهد بحياة (الإمام) المشرفة على الزوال ، وفي يوم ١٩ سبتمبر ٦٢ مات (الإمام أحمد) فتهيأت فرصة الضباط الأحرار أكثر ، لأن ولي عهده كان قد أعطى بعض الضباط الموثوقين مهمة تدريب الجيش على الأسلحة الثقيلة عندما نشب التمرد القبلي في حاشد وخولان وذو محمد عام ٦٠ وزادت الحاجة إلى استحضار السلاح عند دفن (الإمام أحمد) خوفاً من الفوضى . .

بهذا وصلت بعض الدبابات إلى أيدي الثوار للتعليم ولإجابة أي خطر أمني ، وكان (الإمام البدر) قد استوثق إلى حدّ ما من تأييد الجيش له ، لأنه أبدى حماساً في غياب والده أيام استشفائه بروما عام ٥٩ ، وربما كانت ربكة موت (الإمام) مطبقة على كل أعمدة عهده ، فلم يستفيقوا من تلك الصدمة إلا على قصف الدبابات ليلة ٢٦ من سبتمبر ٦٢ ، وكانت الثورة منتظرة يوم دفن (الإمام) قبل أسبوع واحد من انفجارها ، إلا أن بعض الضباط ذوو التأثير لم يستجيبوا لتلك الدعوة احتراماً للموت وخوفاً من كثرة الضحايا البريئة ومن فقد الانضباط ، نتيجة تجمع الناس بمناسبة دفن (الإمام) ، فالتزم بحماية الأمن المشير عبد الله السلال رئيس الحرس الإمامي وعبد الله الضبي مدير الأمن يومذاك وحمود الجايفي مدير الحربية السابق وحسن العمري على المواصلات إبان الطوارئ عقب موت الإمام أحمد .

بهذا ترجح إرجاء ساعة الصفر ، فانفجرت الثورة يوم ٢٦ من سبتمبر ٦٢ بعد تخطيط وتنظيم وإجماع ، حتى لاتتكرر ازدواجية (٥٥) وثنائيته ، ولكي لاتعود مجازفة (اللقية) ورفيقيه .

لهذا كان نجاح الثورة يكمن في التنظيم العسكري واستجابة الجماهير ، حتى أن لجنة الضباط لم تعلن عن اسمها صبيحة الثورة ولا عن رئيس لها ، وإنما اتضح التنظيم في كتاب : (أسرار ووثائق الثورة) الصادر عام ٧٩ ، فقد كانت تصدر بيانات الثورة وبلاغاتها إبان انفجارها عن القيادة العليا للجيش .

كل هذه التحولات التي أوصلت إلى الثورة كانت من ردّ فعل انقلاب (٥٥) وما استجد بعده من تحولات - وبالخصوص حركة الجنود عام ٥٩ ، فلم تتطور القطاعات العسكرية وحدها ، وإنما تفجرت التغيرات فتعددت التنظيمات السياسية وأعلنت عن نفسها إلى القيادة العليا للجيش بعد قيام ثورة

الـ ٢٦ من سبتمبر ، كذلك الجماهير تنظمت تلقائياً ، فقبضت على أعمدة الحكم وأوصلتهم إلى (صنعاء) من جميع المراكز . وسوف يحاول البحث التالي أن يستقصي أهم الإرهاصات الشعبية .

* * *

الفصل التاسع

ثورة سبتمبر ٦٢

١ـ الخطوط التي تدفق منها سبتمبر .
٢ـ من اليمن المنشود ، إلى الجمهورية الرابعة .
٣ـ اليمن الجمهوري إلى أين ؟ .
٤ـ التساؤل الثوري . . واستمرار الثورة .

الخطوط التي تدفَّق منها سبتمبر

قبل ازدحام الاحتفال والاحتفاء بذكرى سبتمبر ، نتقصّى آثار خطاه الاحتمالية على رمال ستين عاماً ، لكي نتبين من أين جاء . . ؟؟

وبمعرفة المسارب التي تدفق منها كمغاير لمأتاه ، نتجلى المسارب التي ستمتد منها فروعه المنتمية إليه أو المنشقّة عنه ، ذلك لأننا نفرش اليوم العيون لسبتمبر الثمانينات ، بمقدار ما فرشنا العيون لسبتمبر الستينات الراحل من الخمسينات ، فهل سبتمبر الذي يهلّ اليوم ، هو نفس سبتمبر الذي أهلّ ذلك اليوم ؟ إنه غيره لكي يغايره البديل عنه المنبجس منه والخارج عليه ، ذلك لأن أحداث الناس كالناس ، يشيخ جيل من البشر ، لكي يربو آخر من منهى ربواته ، ويأتي شباب هذا من تداعي ذاك . هكذا الأجيال البشرية ومثلها أجيال الأحداث ، لأنها صنيعة الناس كما أن الناس صنيعة أزمنة انفجارها ، فكما أن لكل عصر عملته النقدية ومصطلحاته الفكرية والفنية ، فإن لكل عصر عملته الثقافية ، وعملته الأحداثية المطبوعة بلمسات وهج الثقافة ، ونبض السياسة .

فأجيال الأحداث تشيخ كأحداث الآدميين لكي تشب أجيال على أثر مامضى ، لأن تأريخ الذي كان ينسج تأريخ الذي سوف يكون ، سواء كان متفرعاً منه أو ثائراً عليه .

ومهما كان الامتداد للذي يكون من الذي كان ، فلا بد أن يغايره لاختلاف مناخ الآتي عن مناخ الذي ذهب ، ولا تربط بين المولِّي والصاعد إلا خيوط الصيرورة ، باعتبار كل ناشئ يقوم على أنقى عناصر المنقرض . وهذا مانسميه

(الصيرورة التأريخية) . أو مانسميه فلسفياً (بروحية الديمومة الدائمة التحول) .

وإذا التفتنا إلى مستهل الطريق ، فسوف نجده موصولاً بآخر طريق أوصل إليه ولاتخرجه نقطة التحول عن السياق التأريخي العام . ذلك لأن الانقطاع الكلي غير وارد في المسلسل الأحداثي والمسلسل الفكري ، رغم تغاير الوجوه بين حدث وآخر بفعل التأثير التطوري .

فهل هناك بداية معروفة لأول الأوليات ؟ .

وهل هناك نهاية يقينية لغاية الغايات ؟ . .

إن الذي كان متصلاً بالذي يكون كأبوة زمنية أحداثية مختلفة الذريّات عن أبوتها ، إذا أمكن تحديد البداية أو الدنو منها فمن المستحيل معرفة نهاية النهايات يقينياً . فهل نلمح أوائل خطوط سبتمبر تحت ذرور شمس القرن العشرين ؟ .

هذا ممكن ! ولكن للتقريب ، لأن القرن العشرين جاء من مئات القرون . غير أن اختلاف فلسفة أحداث هذا القرن تطبعه بسمات مختلفة عن العصور السوالف ، وإن كانت من عصير تمخضاتها ، فلم تكن حربنا ضد الاحتلال العثماني ، كحروب (يام) و(مراد) ومع هذا فإن حروبنا التحريرية متصلة قتالياً بطابعها القبلي والاقتصادي . بنزاعاتنا العشائرية لأن العراك العشائري على تتابع الزمن ، استبقى في أجيالنا روحية الجرأة ، وسرّ التحفّز للقتال عند صيحة كل طارئ . لهذا لم تختلف إلا وجهة القتال ، لاروحيته الوراثية . وهذا مايسِم اليمن بالفرادة في نضاله الوطني .

فقد لاقت الشعوب الأخرى الحملات التركية بكثير من الاستسلام وبالقليل من المقاومات السلبية ولاسيما في أول عهدها كالمظاهرات ورفع عرائض

الاحتجاج إلى الوالي . على حين تلقى شعبنا الاحتلال العثماني الثاني بقذف الحجارة وطعن الرماح وضرب السيوف ثم بإطلاق النار غير معتمد على المدد الانجليزي والتخطيط (اللورنسي) كما كان في الأقطار الأدنى من تركيا مكانياً ألا تتضح الفروق بين قتال اليمنيين للعثمانيين ، وبين مظاهرة (عُمَر مكرم) في أول القرن التاسع عشر بمصر ؟ . فلماذا اختلفت مقاومة شعبنا عن مقاومة سواه ؟ .

السبب أن هذه الأرض الجبلية البركانية والوديانية والتهامية ركّبت هذا المجتمع على النزوع الدموي لخشونتها وأثرها فيه ، وعلى العراك مع الطبيعة ومع الناس لأن أرضه مختلفة المناخ والتربة فتكونت العشائر المحاربة كطبيعة ومهنة ، فليس له سهولة عيش وادي النيل وأودية الرافدين ، فعندما جاء المحتل مرّتين تغيّرت وجهة الشجاعة من عشيرة إلى أختها ، إلى وطنية ضد المحتل . إذن فحرب التحرير التي فجّرها شعبنا ضد العثمانيين تنتسب إلى الحروب العشائرية وتختلف عنها أهدافياً واجتماعياً . . بعد جلاء العثمانيين أواخر العقد الثاني من هذا القرن ، ظلّت نزعات القتال مشبوبة الأوار ، ولكن مختلفة الغاية ، فلم تعد عشائرية خالصة وإنما وطنية ذات عصبيّة ، لإقامة الحكم الوطني الأفضل ، كبديل عن المحتل . فلم يكن خروج الأتراك نهاية المعركة ، وإنما بداية ميدان جديد من نفس المعترك مع الأدارسة بصبيا : (تهامة) ومع الانجليز بالجنوب ومايغذّي الخصمان من المناطق القبلية . من بداية العشرينات شبّت الأحداث ، من منطقة إلى أخرى من (البيضاء) إلى (حاشد) إلى (الحداء) إلى (المقاطرة) كما فصلت الفصول السابقة ، وتتابعت هذه الأحداث اتقاداً وانطفاءً حتى مطلع الثلاثينات ، من هناك التهب ميدان آخر من (باجل) إلى (أبها) . وكان ميدان حروب الثلاثينات رمال تهامة بأرضيتها الجمرية وجوها الجحيمي . تواصلت هذه الحروب إلى آخر الثلاثينات ، ثم

هدأت العاصفة لكي تتفجّر ، ودل على انفجارها المرتقب عدة تمردات في (مراد) و(البيضاء) إلى جانب مناوشات مع الإنجليز وعملائهم من السلاطين ، وكانت تلك التمردات كغطاء للانفجار الكبير في (سواد جزيز) إحدى ضواحي (صنعاء) حيث سقط (الإمام يحيى حميد الدين) في شباط عام ١٩٤٨م لأن (يحيى) الذي تزعّم ثورة التحرير ، تنكّر لأبسط الحريات ، بعد أن استتب له الأمر ، برغم أنه تزيّا في مطلع هذا القرن بزي الثوّار المعاصرين ، فحول القصور التركية إلى مدارس ومياتم ودور ضيافة ودوائر حكومية : مثلاً تحولت دار الوالي (بشرارة) إلى المدرسة العلمية (الوحدة وجمال جميل) اليوم وذلك بديلاً عن دار المعلمين التركية التي كانت شمال (البكيرية) وعن المدرسة الرشدية التركية التي كانت خاصة بأبناء الأتراك ومن يعدونهم منم أتباعهم للتوظيف ، كما تحول قصر القائمقام إلى دار ضيافة (داخلية الآن) كما أصبحت دار الحكم مصنعاً لنسيج الثياب (وزارة الشؤون الاجتماعية الآن) ، كما بات منتدى الضباط الأتراك ميتماً ، يتعلم فيه أيتام الشهداء وسائر الأيتام الفقراء ومايزال مقراً لإدارة تربية اللواء .

غير أن هذه الثورة الظاهرية بتقشفها المعيشي - على (الإمام) وبنيه وسائر موظفيه - لم تتحول إلى ممارسة خلّاقة وإلى صنع وضع (ديمقراطي) على أي شكل ، وإنما استبد (الإمام) بكل شيء حتى إدارة المناطق والسجون والمدارس والشؤون المالية والعسكرية ، فقد كانت كل الأمور تحت إشرافه المباشر ، رغم إخلاص موظفيه . وعزّز هذا الاستئثار بحمل بعض بنيه على رقاب الناس في الأربعينات ، فقلّدهم الوزارات بدون كفاءة . فأصبح زعيم الثورة التحريرية أحق بالثورة الشعبية عليه ، فسقط آخر الأربعينات كما سبقت الإشارة ونشأتْ من هذا الحادث عدة أحداث : قد تكون غير هادفة ، قد تكون ملتوية القصد ، قد تكون ذاتية الغرض ولكنها إحياءٌ للجرأة الموروثة ، وإخصاب

للطبيعة القتالية ، فكانت حروب (صنعاء) ضد الدستوريين عام ٤٨ بمثابة تدريب للانفجارات الوطنية لأن تلك حرب سياسية بين جبهتين قياديتين . من مطلع الخمسينات إلى الثورة ١٩٦٢ انتقل التمرد من الجبال إلى ثكنات الجيش ، فتوالت الأخبار عن تمرد (بلك القناصة) في (إب) ، عن تمرد (بلك داحش) في (ريمة) وكانت هذه الجمرات الصغيرة أول الحريق الكبير الذي تنامت عوامل اتقاده حتى أوصلت إلى حركة الجيش بتعز عام ١٩٥٥م . وكان الجيش هو أدوات القمع (الإمامي) ضد الانفاضات القبلية . هنا نلاحظ ثلاثة تخولات :

١ - تحول القتال العشائري إلى نضال وطني تحرري ضد العثمانيين .

٢ - تحول الغضب القبلي إلى عمل ثوري على مفهوم الأربعينات ، ضد (الإمام يحيى) ثم ضد الثائرين عليه .

٣ - تحول الجيش من آلة سلطة إلى بداية ثورة ضد السلطة ، كما تجلى ذلك في أحداث ١٩٥٥م . هنا أرادت السلطة (الإمامية) أن تعكس الآية ، وتجعل من الشجاعة العشائرية أداة فتك ضد الجيش بعد أن كان الجيش أدوات قمع المواطن ، لهذا كان معسكر (قاهرة تَعِزّ) المكوّن من نقباء غير نظاميين ، العامل الحاسم لإخماد ثورة الجيش بتعز عام ١٩٥٥م . من ذلك الحين بدا اعتماد السلطة على القوى القبلية التي أخمدت انتفاضاتها ببقية الأتراك (وبجنود النظام المستحدثين) كجيش متوكلي في العشرينات والثلاثينات .

من عام ٥٥م اجتاحت اليقظة الوطنية كل قطاعات الشعب ، وبالأخص في المدائن التي تزايدت إليها هجرة الفلاّحين ، وكان الجيش أقرب إلى التأثر بالمدينة ، فبعد أربع سنوات من إخماد الجيش ، حاول أن يقتلع السلطة التي قمعت به ثم قمعته بمثله ، فكانت انتفاضة الجنود عام ١٩٥٩ ثورة نقصتها القيادة

العليا و(المرشات) والبيانات الإذاعية ، هنا استعادت السلطة نفس أسلوبها في منتصف الخمسينات ، ولكن بشكل أوسع ، فاستدعى (البدر) رؤساء العشائر لإخماد ثورة الجنود ، وكان (الإمام أحمد) يستشفي في (روما) ، وعند رجوعه اشتمّ مؤامرة قبلية نسجها التجمع ضد الجيش ، وكانت تريد أن تحوّل (الإمامة) إلى (سلطنات) على غرار وضع جنوب الوطن في ذلك الحين . . فاستغلّ بقية مهابته ، وهدّد ففرّ رؤساء العشائر من (صنعاء) لتأجيج مناطقهم . فاندلعت الانتفاضات في المناطق التي كانت من دعائم (الإمامة) مثل : (حاشد) و(خولان) و(ذو محمد) و(ذو حسين) وكادت هذه الانتفاضات أن تطيح بالعرش ، فاستعاد (الإمام) أسلوب الأربعينات في استعمال الجيش مستغلاً السلاح الحديث والضباط الذين لم يوافقوا الجنود على الثورة عام ٥٩ ، فأخمد التمرد العشائري في بحر تسعة أشهر بالسلاح الحديث وبالقبائل التي لازالت على ولائها إلى حدّ أن كل قبيلة قاتلت شيخها المتمرد أو أعانت عليه . غير أن الإخماد يستولد الاتقاد الأعنف ، فقد استدعى هذا ، عقد تحالف غير مكتوب بين القوى العشائرية وقوى الجيش ضد الحكم (الإمامي) وذلك لخيبة الشيوخ في إقامة سلطنات بلا شعبية في كل منطقة ، ولأن الجيش هو الأقدر على اقتلاع السلطة وإبدالها ، وسيكون أكثر حاجة إلى ولاء الشيوخ .

ومن هذا المنسرب المتعرّج ، تدفق سبتمبر السلاح وفي يمينه مدفع وفي يساره بندقية ، فسبتمبر القتال ينتسب إلى هذه التحولات الاعتراكية على مدة ستين عاماً وأسلافها من التأريخ ، وهذا هو الخط الأول لسبتمبر ٦٢ . وهو لم ينفصل عن غيره من الخطوط ، فلم يكن استعمال السلاح مجرد ألعاب بالنار ، وإنما هو تفاعل تثقيفي بين البندقية الحديثة والإنسان الحديث ، وبين الدبّابة كصنيعة عِلم وبين الإنسان كمتعلم من كل جديد وبين الحس الوطني والعمل الثوري . إذا كان القتال بالرماح والسيوف ، قليل الجدوى الثقافية التقليدية ،

فإن السلاح المعاصر يستدعي ثقافة المحارب ويزيد منها بفعل العدوى بين حداثة السلاح واستعداد الإنسان للتحديث . من هنا يمكن الالتفاف إلى الخط الثقافي الذي كوّن الثائر نفسياً لكي يجيد زمالة السلاح فيتثقف منه ويثقّف به ، فإلى بداية الخط الثقافي لكي نتقصى خطوات سبتمبر الثقافة ، كما تقصينا مسيرة سبتمبر السلاح .

حاول الاحتلال العثماني في غزوته الأولى في القرن الـ ١٦ الميلادي وفي غزوته الثانية في آخر القرن الـ ١٩ وأول القرن العشرين حاول في الغزوتين محو الثقافة اليمنية كما حاول محو الثقافة الشامية والإفريقية ، بيد أن العسكرية التركية ، كانت أجهل من أن تعطي بديلاً لأن عجمتها عاجزة عن إعطاء جديد كبديل عن القديم ، والقديم الأصيل لايمحى إلا باستبداله بأصيل جديد أنضر وأنفع . وكانت العسكرية التركية لاتعرف معاصرة ولاتملك قديماً أصيلاً . لأنها ثمرة طبيعية لانحطاط العصور الوسطى ، فلا تبذر غير الانحطاط ولايحتاج الإنسان إلى مزيد من العلم لكي يميز بين وجه الوطن ووجه المستعمِر ، لهذا ازدهرت الثقافة اليمنية في ظل (الطربوش التركي) كأنجح وسائل المقاومة ، لأن هذه الثقافة كانت خصبة الجذور ، قريبة العهد بالينبوع الحضاري الإبداعي . . وبرغم أنها كانت (ثقافة إمامية) سلاطينية فقد كانت الإمامة في عهد الاحتلالين الوجه القيادي ضد المحتل ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن (العلوية) من ثورة (كربلاء) ظلت الزعامة الشعبية والثقافية النضالية . . لأن ذرية شهداء (كربلاء) كوّنت حزب الشعب في وجه السلطات المتعاقبة من (معاوية بن أبي سفيان) إلى السلطان (عبد الحميد) وإن تحوّل بعض أئمتهم إلى سفاحين في (القيروان) و(القاهرة) و(صنعاء) . فإن أكثرهم اتقدوا كالمصابيح في ليالي الكادحين وبالأخص أئمة العلم الذين لم يحكموا : كيحيى ابن حمزة في القرن السابع عشر الهجري وأحمد بن يحيى المرتضى في القرن

الثامن عشر الهجري الذي انكسر سياسياً لينتصر فقهياً ومنطقياً . وكانت (الثقافة الشعبية) رغم لاهوتية إماميتها موسوعية مستوعية كل الفلسفات وكل علوم الثورات ، وكانت (اليمن) تمد الجانب (الجارودي) من مذاهب التشيع رسمياً كما كانت ضد الجانب (الإسماعيلي) و(القرمطي) شعبياً . وعندما أرادت الزعامة الارتكاز على قاعدة ثقافية تبنّت (الزيدية الهدوية) وجارت بقية المذاهب الفكرية والفقهية في ظل الاحتلال حتى جلاء المحتل . من ذلك الحين أخذت تضطهد أتباع المذاهب الشيعية الأخرى ، وتقرّب الموالين من أهل (السُنّة) . كما أخذ رجال السنّة يتعلمون الفقه (الزيدي الهدوي) ويعلّمونه ويحكمون بمقتضاه في المحاكم الرسمية ، وفي الإصلاحات الخصومية فانتعشت (الثقافة الزيدية الهدوية) من منظور رسمي . فأمر (الإمام يحيى) بنشر الكتب الفقهية وأخرجتها آخر دور الطباعة ، وتقررت في المدارس الرسمية وفي المساجد وكان كتابا (البحر الزخّار) لأحمد بن يحيى المرتضى ، و(الأزهار) له أيضاً ، دستور الحكومة وعمدة (القاضي) في كل مناطق (اليمن) وليس في المناطق الجبلية كما رأى الدكتور (العطّار) الذي اعتبر (المحاكم الشافعية) تختلف عن (المحاكم الزيدية) مذهباً .

فقد كان تعليم الفقه (الزيدي الهدوي) والحكم به المؤهل الوحيد للقاضي ، حتى القضاة من المناطق الشافعية كانوا من المثقفين (هدوياً) كآل الحداد وآل المفتي من (إب) وآل السماوي من (عتمة) فكل هؤلاء كانوا من خريجي (دار العلوم بصنعاء) أو من (المدرسة الشمسية بذمار) أو من تلاميذ (جامع رضوان) أو من تلاميذ آل الشبيبي (بذي حُود - آنس) أو (دفينه بعنس) أو قضاة (الغرس) و(الأعروش) بخولان . على أن الفقه (الزيدي الهدوي) لم يكن كله من تأليف (زيد) و(الهادي) وإنما ألف فيه وأضاف إليه علماء غير هاشميين (كحسن الشبيبي) صاحب (المعتمد) و(ابن حريوه)

مؤلف (العدة) و(علي خليل) (مقرر المذهب) و(زيد الغرسي) صاحب (آية التمام على أصول الاحكام) و(ابن بهران) (صاحب الدرر) و(أحمد العنسي) صاحب (التاج المُذهب) وكثيرون غير هؤلاء بالإضافة إلى جمهرة شعراء التشيع من أمثال (ابن القم) و(سلطان حجور) و(عمارة اليمني) و(ابن هتيمل) و(الهبل) و(أحمد الزنمة) . .

من هنا يتبين أن الفقه (الزيدي الهدوي) ثمرة أقلام يمنية وثقافة وطنية . وبالأخص إذا عرفنا أن كبار رجال الفكر كانوا ضد الحاكمين من الأئمة الطغاة .

لهذا أخذ (الإمام يحيى) من مطلع العشرينات يتبنّى نشر الفقه ويحاول طي كتب الفكر بما فيها فلسفة (الإمامة) . غير أن طلاب (دار العلوم) بصنعاء وجامع الهادي بصَعْدة كانوا يقرؤون الفلسفات في بيوت خاصة ، فَرُبِّيَ طالب العشرينات على الجدلية وعلى النقاش المذهبي وكان (الإمام) يتغاضى عن النقاش مالم يصل إلى الوضع القائم بالنقد والتجريح .

إذا كانت كتب الفقه أبرز ثقافة العشرينات ، فإنها قد استدعت وسائل فهمها من علوم اللغة والآداب العربية والتواريخ العامة والخاصة ، فاتسعت دائرة الثقافة واختلطت بالتعليم ، وأصبح الفقيه شاعراً ، كما كان الشاعر فقيهاً ، كيحيى الإرياني رئيس محكمة الاستئناف وعبد الكريم مطهر كاتب الشوؤن الخارجية ويحيى الذاري قاضي (يريم) وزيد الموشكي قاضي (شرعب) وعبد الله العزب قاضي (حيس) . وهؤلاء امتداد لأشباههم من العصور العباسية والهدوية .

وكانت الكتب القديمة الخاصة بالأدب وتأريخه إلى جانب الكتب الفقهية في المدارس والمجالس . فنشب الصراع الفكري بين أدب البديع وأدب الفطرة الجاهلية ، كما احتدم حول (علي) و(معاوية) . فكانت العشرينات زمن

(الجدل الماضوي) بشقّيه اليميني واليساري .

ومن مطلع الثلاثينات تبازغ جيل أكثر حداثة وأحدث أدباً يجمع الجدل السياسي بالجدل الفقهي ، فأرادت السلطة أن تقوي جانباً آخر فنشرت بعض كتب (السُنّة) التي كانت شبه محظورة من أمثال : (الدر المضيئة) و(نيل الأوطار) للشوكاني . ومن أمثال : (سبل السلام) للأمير ومن أمثال : (الروض الباسم) للوزير . ومن أمثال (البحوث المسددة) للمقبلي . إلى جانب بعض الكتب التأريخية (كالبدر الطالع) للشوكاني . فلماذا التفتت السلطة إلى كتب السُنّة في الثلاثينات . . ؟!

كان ذلك لسببين :

١ - مسالمة رجال السُنّة .

٢ - إضعاف الجدل الشيعي لامتزاجه بالمعاصرة السياسية ، ولخوف عدواه إلى جدل حياتي .

مهما كان الأمر فإن العشرينات أول حركة ثقافية تعليمية مهما كانت رسمية خالصة السلفيّة فقد أدى اتساعها في الثلاثينات إلى نشر كتب السنّة ، وقد انتفعت السلطة برجال السنّة كدعاة إلى الرضى بالمقسوم والصبر على الظالم (مالم تروا كفراً بواحاً) .

غير أن هذا الاتجاه أدى إلى العكس ، فقد كانت طليعة المناوئين من لامعي رجال السنّة (كأحمد عبد الوهاب الوريث) و(حسين الدعيس) و(علي ابن حمود كوكبان) و(حسين الكبسي) أليس هذا غريباً . . ؟!

قد لايكون غريباً إذا عرفنا أن المعرفة تهدي إلى المزيد منها ، فيتأسس الجديد على أنقى أصالة القديم ، فلم يكن هؤلاء السنّيون المتنورون مغلقين أمام العصر أو منقطعين عن أصولهم ، وإنما كانوا أكثر انفتاحاً على الجديد المتطور

عن قديم مثل : كتب الشيخ (محمد عبده) المنتمي إلى (المعتزلة) ومثل : كتب (شكيب إرسلان) المتطورة عن قديم والممزوجة من الأدب والدين ، فما سبب هذا ؟. لعل أهم الأسباب : كون الحكومة شيعية فشكّل النقيض نقيضه ، فتزعم بعض رجال السنّة الثورة على (الإمامة الشيعية) . لا لأنها شيعية ولكن لأنها جائرة ، إنما متى دعا السنّيون إلى صراع الجور ؟ . انهم يرونه خيراً من الفوضى ويوصون الناس بالدعاء للجائر بالهداية وعطف قلبه كما روى (الصحيحان) ، أو كما قال ابن كثير : « إن جور الحاكم مدة عام أهون من فوضى يوم » .

ألا تبدو سنيّة آخر الثلاثينات عند بعض الوجوه في بلادنا مختلفة عن سُنّة (ابن حنبل) و(ابن تيمية) ؟. نعم ، ولكن ما السبب ؟!.

السبب أنها سنّة على أصل شيعي ومن نبت مجتمع ينتمي إلى العراك التأريخي ، فكان الوسط والوراثة والاصطراع التشيعي وجدلية المجتمع أغلب من أوراق كتب (الأمهات الست) . فلم تكد الثلاثينات تطوي صفحاتها ، حتى أصدر (الوريث) مجلة (الحكمة) عام ٣٩م كأول منبر رسمي إصلاحي نضالي . فمزج ذلك الجيل الأصالة بالمعاصرة والسلفية بظروف الحرب العالمية الثانية .

انطوت (الحكمة) في مطلع الأربعينات ، لكي يستجد لون آخر من الثقافة . ذلك هو الفن التأريخي ، ورغم اقتصاره على سِيَر (الأئمة) ومن نبغ في عصورهم من المادحين والمؤلفين ، فإنه قد أرّخ للثوار على (الأئمة) عن طريق التنديد بهم لعصيانهم كالمطرّفية ، والشيخ المحطوري الذي نعته (مهدي المواهب) بالساحر .

شكلت هذه الإضافة التأريخية سبباً آخر للتساؤل عن الثورة وسبب خروج الخارجين ، بالإضافة إلى هذا ، دخلت الكتب الجديدة المتطورة عن قديم

كـ (نظرات المنفلوطي) و(طبائع الاستبداد للكواكبي) ، إلى جانب دواوين (شوقي) و(حافظ) و(الرّصافي) و(اليازجي) . تبدّت الأربعينات زاخرة بالثقافة وأخبار الحرب والتغيرات المنتظرة بفعل الحرب ، فاستجدت ملامح جديدة في التعابير الشعرية عند (الزبيري) وفي المضامين الحديثة عند (الموشكي) وفي الأساليب الخطابية المنبرية عند (علي عقبات) و(محمد أبي طالب) ، و(علي الحضرمي) خطيب الجامع الكبير أيام الإمام يحيى إلى نصف عهد الإمام أحمد ، فانتقل جدل المجالس والمساجد من مسائل (النحو) و(الفقه) إلى (هتلر) و(الحلفاء) . ولكن هذا الجدل المعاصر وليد الجدلية القديمة التي ركّبت في مثقفينا طرح كل فكرة (للنقاش) بلا تقبّل أبله ، وبلا عناد بليد . لأن مجتمع تلك الفترة كان آتياً من أرومات خصبة عودته على المطارحة والبحث عن جمال الحقيقة ، وأثمرت كل المحاولات والتحولات بنضحها وفجاجتها . وهناك انتكست كل تلك المحاولات لكي يرين الذهول على كل نأمة ونسمة مدة أربعة أعوام إلى أن قرعت الأسماع ثورة (٢٣ يوليو بمصر) . فانبعث كل دفين في النفوس اليمانية ، لأنها معبأة بشعور الثورة ، فلا تحتاج إلا إلى أقل القبسات لكي تحتدم بما فيها ، فانتقلت الجدلية في مجالسنا وأسواقنا من (الحلفاء) و(المحور) إلى (الجمهورية) و(الملكية) في اليمن ، لأن الجدلية من نسيج ثقافتنا ومن عروق وجودنا . هناك استجدت ثقافة أو بالأحرى انبعثت ، فإلى جانب تواريخ الأئمة خرجت كتب الحضارة القديمة وبعض الأشعار الشعبية من أقبية الصمت ، لأن (الإمام أحمد) أراد أن يواجه اكتساح التيار (الثوري الناصري) بالخصومات الإقليمية وباستثارة الحسّ المحلي ، فصدر الجزء العاشر من (الإكليل) وسمحت السلطة بدخول رواية (بلقيس ملكة اليمن) لأميل حبشي وأمثالها : من نوع (قصة وضّاح) و(ملوك حِميَر) كما أوعز (الإمام أحمد) إلى (عبد الرحمن الآنسي) وتحقيقه وشرحه . وكلّف (إسماعيل الجرافي) و(وعلي المؤيد) بنشر قصيدة (نشوان

ابن سعيد الحميري - في تأريخ ممالك اليمن القديم) .

وكانت هذه الثقافة توازي نشر تواريخ الأئمة من أمثال : (نشر العرف ونيل الوطر) لزبارة ، و(تأريخ اليمن) للواسعي و(المقتطف) للجرافي . فكادت ثقافة الثلاثينات والأربعينات أن تتعطل ، وقلّ الإقبال على كتب الفقه (الزيدي والهدوي) وسائر التراث غير اليمني لكساد سوقها ولقلة مذاكراتها في المجالس . فقد أخذت كتب (الإحياء) تستحوذ على الاهتمام وبالأخص ديوان (الآنسي) والجزء العاشر من الإكليل مجموعة (مبيتات وموشحات) للشاعر محمد عبد الله شرف الدين الذي طبع في القاهرة . إلى جانب هذا نشأت صحيفتان بتَعِزّ في عامي ٥٣ و٥٤ : (النصر) و(سبأ) .

ولعل نشر صحيفة بعنوان (سبأ) التي بدأ صدورها في (عَدَن) عام ٤٦ باسم (الشباب) ثم انتقلت إلى (تَعِزّ) أحر إثارة للحس اليمني ، فما كان يجرؤ أحد أن يتحدث عن (سبأ) و(معين) إلى جانب (المنصور) و(المتوكل) و(القاسم) . غير أن الزمن تغيّر ، وحاولت السلطة امتلاك قياده ، قبل أن تسبقها طلائع الشعب إليه إلى حدّ أن (الإمام أحمد) سمى الطائرات بأسامي يمنية : بلقيسْ ، شبام ، ظفار . . بالإضافة إلى الباخرة (معين) ، ولكن السلطة (الإمامية) نظرت إلى القشرة الخارجية للواقع ، دون أن تسبر أغوار الشعب وبواطن الواقع ، وهذا كل مقدورها على الحس التغيري في شطري اليمن .

ففي الوقت الذي كانت تنشر فيه السلطة أثر الأجداد لتهدئة الأحفاد ، كان الشطر الجنوبي يشكل التنظيمات وتصدر صحيفة لكل تنظيم كصحيفتي (العمال) و(الأمل) الأوسع اهتماماً من صحيفة (فتاة الجزيرة) و(القلم العَدَني) . إلى جانب هذا طرأت مفاجأة وهي : افتتاح (محطة عَدَن للإذاعة) عام ١٩٥٣م . فحاول (الإمام) اللحاق بالعصر ، فامر ببناء إذاعة عالمية (بصنعاء) لم يتمكن من افتتاحها إلا في مارس ١٩٥٦ ، فدلّت على معاصرة

السلطة وزادت من نشاط الثقافة لأن الإذاعة اللاسلكية بصنعاء التي كانت تذيع مرتين في الأسبوع مقدار ساعة توقفت نهائياً عام ٤٩ فكانت بديلتها أقوى لكي تقاوم أثر الإذاعات الناصرية . ففي هذا الوقت تجاوز (المدّ الناصري) تخوم (مصر) وبالأخص بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ فتفجرت المظاهرات الناصرية في (سوريا) و(العراق) و(الكويت) و(عَدَن) . وتوالى انفجار الثورات فسقط عرش بغداد عام ٥٨ واستقلت الكويت عام ٦١م ، وارتعشت قوائم الاستعمار على أرض جنوب الوطن .

وفي عام ٥٨م ، أراد (الإمام) أن يؤكد تحرره فبعد أن استورد الأسلحة السوفييتية عام ٥٧م وتبنّى تحرير الجنوب ، انضم إلى اتحاد الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ من قبيل (قارب الخوف تأمن) ، فعلى رغم ذلك الإعلان الوحدوي ، ظل (الإمام) يواصل استنفار الحسّ المحلي عن طريق الإثارة الثقافية اليمنية كإذاعة الأغاني المحلية والأمة اليمنية في الكتابات الصحفية والكتابات عن شعراء اليمن خاصّة ، فانتقل الشوط من الإحياء إلىٰ التأليف . فأصدر (حسين الويسي) كتاب (اليمن الكبرى) عن إيعاز (أحمدي) لأن المؤلف من ثمرة العهد ، وكان كتابه يعنى بالمناطق ومزروعاتها ، فشكّل امتداداً لصفة الجزيرة العربية للهَمْداني من مؤرّخي القرن العاشر ميلادي كما أصدر (أحمد حسين شرف الدين) كتاب (اليمن عبر التأريخ) ونشره عام ٦١ باللغة الإنجليزية ، ثم بالعربية في أواخر عام ١٩٦٢م . وكان هذا الكتاب عرضاً تأريخياً لممالك اليمن وحضارته وللأئمة وتوالي عهودهم ، كما نُشِرَ في نفس الفترة الجزء الأول (من تأريخ اليمن السياسي) لمحمد يحيى الحداد .

ألا تتبدى القسمات المختلفة للخط الثقافي من كتب الهداية في العشرينات والثلاثينات . . . إلى تواريخ الأئمة في الأربعينات وبداية الخمسينات ، إلى التأريخ اليمني الخالص من منتصف الخمسينات إلى صبيحة الستينات . إلى

جانب ديوان الآنسي وديوان شرف الدين ونشر صحيفتي (سبأ) و(النصر) إلى جانب (الإيمان) التي تأرجحت بين الاحتجاب والسفور حتى احتجبت نهائياً عام ١٩٥٩ .

تألّق الشعر الوطني يواكب التيار الزمني والثقافي من مطلع الأربعينات إلى مطلع الستينات ، ثم عززته الكتب السياسية المباشرة ليمنيين وأجانب من أمثال (معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن) لمحسن العيني . و(كنت طبيبة في اليمن) للدكتورة كلودين فاين ترجمة محسن العيني أيضاً و(رسالة من الجحيم) لقاسم غالب و(الجزيرة العربية تتهم حكامها) لجانك بيري و(القضاء في اليمن) لأحمد المعلمي . وتوالى صدور صحيفة (صوت اليمن) من القاهرة حتى حجبتها الوحدة بين مصر وسوريا عام ٥٩ وانضمام اليمن الملكي إليها عام ٥٨ .

إن هذا الخط الثقافي بماضويته ومعاصرته ، وخليطه المنسجم والمتنافر لم يشكّل من الثقافة دليلاً نظرياً لثورة ولانظرية حكم من أي شكل وإن كوّن عن وعي أو غير وعي التيار السبتمبري الوطني ، فكان المنسرب الثاني الذي تتدفق منه سبتمبر الثورة .

إلى جانب خط السلاح وخط الثقافة ، كان هناك الخط السياسي الذي تمخض عن الثقافة ، فعبر بها وعنها ، على إمكانية التغيير .

وبالرجوع إلى بداية هذا الخط ، يمكن تحديده بعام ١٩٨٩م . فقد لاحظ (الإمام أحمد) أن سقوط والده كان لتجاهله العصر نتيجة حذره الشديد من التوغل الأجنبي تحت أي اسم ، فاستوعب (أحمد) مطالب الدستوريين ، وكان أهمها الاتصال بالعالم ، الحرية التجارية ، المزيد من التعليم ، تنظيم حكومة . من هنا اختلف (الإمام أحمد) عن والده بمقدار اختلافه عن زمانه ، ففتح

سفارات يمنية في عواصم العالم ، واستقبل سفراء من عواصم العالم ، بعد الانغلاق الذي كرّس له والده ، الذي لم يفتح سفارات ولم يبعث سفراء وإنما اكتفى بالاتفاقيات التجارية مع الاتحاد السوفيتي وإيطاليا الفاشية كعدوين لبريطانيا الجاثمة على جنوب الوطن ، إلى جانب علاقة عادية مع فرنسا ، وعلى العكس فعل (الإمام أحمد) : استقبل السفير السوفييتي كما استقبل السفير الأمريكي والإنجليزي وكانت أولى السفارات سفارة مصر الملكية بصنعاء عام ٤٩م .

ثم توالى افتتاح السفارات كبرهان على الانفتاح وتوديع الانعزال الذي كان أهم مغامز (الإمام يحيى) عند الأحرار ، وعبارة (الانعزال) تثير التداعيات .

فماذا استفاد الجيران من الانفتاح ؟!

لقد اكتسحتهم شركات فاستخرجت ثرواتهم نيابة عنهم وأثرت بالنيابة عن الشعب ، وإن أتخمت الأقلية العليا على حساب الشعب الذي مايزال إلى اليوم يسكن الخيام وبيوت الصفيح والبراميل .

فلم تكن العزلة إحدى عيوب العهد (اليحيوي) بل كانت أعظم الحصانات لشعبنا من شركات الاحتكار ومن أسواق بيع الإنسان .

ومع هذا نجح (أحمد) في تفنيد دعاية الانعزال فاتصل بالعالم حتى تجاوز وقار (الإمامة) ومحاذر الجيران ، فاستقدم الخبراء السوفييت لبناء ميناء (الحديدة) والفنّيين الصينيين لشَقّ طريق الحديدة صنعاء واستقدم صفقات الأسلحة عام ٥٦ و٥٧ ، بل واتحد مع (الأنظمة الثورية) عام ٥٨ . هذا من الناحية الدبلوماسية مع الخارج . ومن ناحية السياسة الداخلية عيّن وزراء ونواب ألوية من الطبقة الوسطى باستثناء وزارة المواصلات التي ظل فيها القاسم ابن الإمام إلى موته عام ٥٦ ، كما أتاح حرية التجارة إلى حد التغاضي عن المحظورات (إمامياً) بما في ذلك الكتب الثورية ، كما افتتح المدارس

الأحمدية (بتعز) و(حجة) و(الحديدة) . فتزايدت أعداد الثانويات والمتوسطات إلى جانب دار العلوم . . وكان طلاب هذه المدارس ، البراعم الواعدة بالثورة .

فقد كانوا صوت الوطن وصيحة ضميره كما شكّلوا نواة التنظيمات السياسية من مستهل الستينات إلى الآن ، لأنهم نشؤوا تحت ضوء جديد ، فأشعلوا المظاهرات الحاشدة عند نداء وطني : تظاهر طلاب تَعِزّ احتجاجاً على إعدام (الثلايا) ورفاقه ، كما تظاهروا على العنف الذي عاناه (عبد الله اللقية عام ١٩٦١) .

وفي مايو عام ٦٢ . اصطخبت مدائننا بأعنف مظاهرة ثورية قاد طلائعها الطلاب والخريجون محلياً وخارجياً ، وكانت تلك المظاهرة الزحف إلى أبواب ثورة سبتمبر ، فبعدها بثلاثة أشهر ، لبّت مدافع الثوار صيحة ملايين الشعب اليمني ، وهذا هو الخط الثالث الذي تدفقت منه سيول سبتمبر العظيم .

إن شعبنا أعظم من كل المحن وأعنف من كل عنف ، لأنه تجاوز كل الكوارث إلى العافية الخضراء ، داس قوة القمع إلى استئصال القامعين ، وتجاوز الجهل كما تجاوز التجهيل باسم العلم ، وأعظم معارفه هو اكتشاف نفسه ودوس المغريات التي حاولت شراءه .

واليوم وذكرى سبتمبر تقترب من مهرجان الأضواء ، لاتدهشنا القناديل الملونة عن رحلة هذا القادم : وعن التساؤل من أي الينابيع تفجرت أمواجه النارية ؟

لقد حاولت هذه السطور أن ترافق سبتمبر الجنين إلى سبتمبر الوليد الثورة في رحيله الطويل على ثلاثة خطوط :

١ - الخط البطولي .

٢ - الخط الثقافي التنويري .

٣ - الخط السياسي المباشر .

ومن هذه الممرات الصعبة ، عبَرَ سبتمبر ستين عاماً إلى أن أهلّ وجهه الفجري ليلة الـ ٢٦ من سبتمبر عام ١٩٦٢م .

فهل هنا نهاية المطاف . . أم هنا بداية السير الأعنف . . والطريق الأخطر . .؟

نقف هنا بين نهاية أصبحت بداية ، وبين بداية نرصد خطوها من سبتمبر ٦٢ إلى سبتمبر ١٩٨٠م .

ولعل هذا الرحيل مع الزمن وفيه ، يعرّفنا ماسوف يأتي من التسعينات على ضوء ماأتى إلى الثمانينات . وبمقتضى سُنّة الحياة فسوف نرى أن الآتي من آخر الثمانينات وأول التسعينات مغاير من كل وجوهه بمقدار ماغاير سبتمبر مأتاه الذي انصب منه ، ومجراه الذي تصاعد منه وتحدّر فيه .

وبمعرفة ماكان ، يمكن رؤية ماسوف يكون ، لأن كل بديل يخلق بديله بالضرورة ، وربما امتد منه ، عن مغايرة له ، وربما كان معاكساً لمقدمته لغياب الانسجام بين المقدمة والنتيجة . . ولايأتي من العكس إلا الأكثر عكسية .

هذه رحلة إلى سبتمبر الثورة ووقفة خاشعة أمام سبتمبر ذكرى الثورة .

* * *

من اليمن المنشود إلى الجمهورية الرابعة

حاول البحث السابق أن يتتبع خطوات سبتمبر الحلم إلى سبتمبر الإمكان ، ثم إلى سبتمبر الواقع . . إذا كان سبتمبر الحلم والإمكان وليد معاناة ستين عاماً ، فإن سبتمبر الواقع كان امتداداً لمعاناة ثمانية عشر عاماً ، اجتاز سبتمبر الإمكان ثلاثة خطوط :

الخط القتالي الوراثي المتطور ، الخط الثقافي المتنافر المنسجم ، الخط السياسي المباشر . . فهل اختلفت خطوط سبتمبر الواقع عن ممرات سبتمبر الحلم والإمكان ؟ .

لابد أن تختلف الجسور باختلاف العابرين ، لأن طريق الوليد تمتد من قدميه ، ومن آثار الطريق الأول على قدميه . لهذا اجتاز سبتمبر الواقع ثلاثة خطوط ، كسبتمبر الإمكان والحلم . . قاتل بالسلاح السلطة المسلّحة حتى اقتلعها ، ثم واصل نفس الخط مدة ثماني سنوات في قتال أشباح البائدين .

من هنا نواكب سبتمبر القتال ، أو نتقصى الخط الأول من خطوطه التي وصل إليها ، لكي نتلمس الفروق بين الطريق التي تدفّق منه ، وبين الطريق التي تدفق إليه ، ورغم انتماء الطريقين إلى الأصالة القتالية التي تحولت من عشائرية إلى وطنية ، فإن الخط السبتمبري على امتداده أكثر اختلافاً من حروب التحرير ضد العثمانيين ، ومن الحركات الدستورية والتمردات العسكرية والانتفاضات القبلية التي ملأت الخمسينات . . لأنه أتى حاملاً على كتفيه اليمن الجمهوري البديل عن اليمن الملكي ، وهذا الحدث يميز سبتمبر عن كل الحركات التي

تمخّض من خلالها ، وإن كان لم يتخلّص كلياً من آثارها ، لأن كل نقيض يحمل بعض سمات نقيضه بفعل المقاومة له ، والعدوى من آثاره ، فكل مقاوم يناقض قريعه ويحمل منه بعض العدوى ، لأن النقيض من فعل جدلية زمان واحد .

كان سبتمبر الخمسينات إمكانية تحاول تحقيق واقعيتها ، وكانت سلطة الخمسينات تحاول استحالة تحقيق الممكن . . كان السبتمبريون يحلمون بالستينات ويعاركون الخمسينات ، وكانت السلطة تحاول أن تتشكل بشكل الظروف ، لكي تبتلع الممكن قبل أن تحققه ، وكانت النزعة القتالية وراثية ممتدة في الحكم الذي ينبغي أن يسقط ، وفي الحكم الذي ينبغي أن يقوم ، فقد جاء (الإمام يحيى) إلى الحكم على أكتاف الثورة ضد الأتراك ، ثم سقط بثورة تحاول تحقيق الحكم الدستوري ، وجاء (الإمام أحمد) محمولاً على كتف الثأر لوالده (من البغاة) ، ثم سقط على يد ثورة إفرادية تحاول خلق البديل عن (الإمامة) . . فالطبيعة القتالية اليمنية متسلسلة التوارث في الحاكم والمحكوم ، فقلما وصل (إمام) إلى العرش على ظهر المبايعة وحدها ، وقلما نزل (إمام) غير قتيل في حرب ، وقد كان (الإمام أحمد) أشد ميولاً إلى القتالية لسببين :

السبب الأول أنه وصل إلى الحكم على حدّ السيف عام ٤٨ .

السبب الثاني أنه كان يريد أن يستوفي شروط إمامته بأساطير البطولة ، فلم يخض أي قتال من وراء المكتب كقادة الجيوش ، وإنما كانت القيادية عنده تقدم الصفوف في المعركة كتقليد يمني امتد إلى حروب الثورة ، طبق هذا عملياً في معركة (صَعْدة) و(حاشد) و(الزرانيق) ، حتى أصبحت أساطير بطولته حديث النصير والعدو ، وتوّج كل هذا بخروجه في مارس ٥٥ متحدياً جيشاً كاملاً حتى أسقط الانقلاب بأسرع مما أسقط الانقلاب الدستوري ٤٨ إذ لم يتجاوز انقلاب عام ٥٥ خمسة أيام مطوية على احتمالين ، كان أقربهما سقوطه ، وكان الثوار عليه على نفس المستوى من الشجاعة ، فما استسلم أحد إلا للاستشهاد ، غير

أن الظروف تغيّر البطولات بتغيّر علاقات المقاتل بالسلاح ، وهدف المقاتل من استعمال السلاح . . . والهدف الاجتماعي ينتزع بطولة الفرد إلى بطولة الشعب . . .

فلم يعد الثوار مجرد أبطال مقاتلين في الخمسينات وما تلاها ، وإنما تحولوا إلى شعب ثائر عن طريق التوعية السياسية ، لأن المغامرات البطولية لاتكفي من فرد إلا إذا كان معبراً عن شعب ، وإن امتد التقليد القتالي عند القائد والمقود .

لهذا تغاير تفكير الثوار وتفكير الحاكم ، أخذ الثوار يؤلفون الجماعات ويناقشون الوضع .. حتى أوصل هذا التفكير إلى نشوء التنظيمات في آخر الخمسينات ثم إلى تحالف بعض التنظيمات وبعض العسكرية في أول الستينات ، غير أن هذا غير كاف ليحل محل القتال ، لأن ذلك النظام قد جاء من القتال إليه فلا يمكن أن ينزل عند رأي شعب ، ولا أن يرى عنه كما يريد . . فكان استنفار النزوع القتالي هو العامل الحاسم لإسقاط السلطة القتالية ، أو إسقاط أعلاها رأساً .

لهذا تحتمت المغامرة الفردية عن حسّ جماعي فأراد (سعيد ذبحان) قتل (الإمام أحمد) كحل لقضية الشعب كلها عام ٦٠ فأخفق ولم ينم إصرار الشعب ، لأن اقتلاع رأس السلطة اقتلاع للحاجز الذي يحتجز سيول الجماهير . . .

فقام (اللقية) و(العلفي) و(الهنداونة) بالمحاولة الثانية بعد سنة من إخفاق (ذبحان) فأخفقوا وأنجحوا مهمة من بعدهم ، فبعد عام ونصف العام سقطت (الإمامية) بعنف السلاح الذي تفهم لغته ، ولم تدم إمامة (البدر) بعد أبيه (أحمد) إلا أسبوعاً واحداً كان آخر أيامه ليلة الثورة ، وانتهى جانب من

الخط القتالي السبتمبري ، لكي تستهل الدورة التأريخية مسيرتها على دوي القذائف .

هنا تبدو قسمات الفروق بين الثورة اليمنية وسواها ، كل الثورات العسكرية التي تفجرت في تلك الفترة أنهت مهمتها القتالية بإذاعة أول بيان من مذياع العاصمة ، أما ثورة سبتمبر اليمنية فإن إعلان أول بيان كان بداية حرب ثورية نتيجة فرار (البدر) وتبييت نية العدوان عند الجيران ومن وراءهم .

لقد قام اليمن الجمهوري وسقطت (الإمامة) كحكم وقامت كحرب ، وعادت الطبيعة القتالية إلى عنفوانها عند المعسكرين ، رغم تغاير المبادئ بين الوجه الثوري الدفاعي وبين الوجه العدواني الرجعي بيد أن كلا المعسكرين من سلالة القتالية اليمنية ، عززت هذه الوراثية سموّ المبادئ عند الثوار وطمع الارتزاقية عند أتباع البائدين ، فتواصل الخط القتالي بين المبادئ الوطنية المسلحة وبين الارتزاق المدجج والمسنود بثروات القصور وتخطيط الاستعمار ، وتبدى الانتصار الحاسم في استحالته كطائر (العنقاء) لشجاعة المعسكرين رغم اختلاف الثورية عن الارتزاقية ، لأن إرادة امتداد الحرب كانت أكثر إغراء لاعتمادها على مصلحة عند المرتزق ، ولاعتمادها على انتصار الشعب عند الثوار .

فكيف يرى المرء صورة حرب الستينات ؟ .

هل ينسبها إلى الحروب القبلية .؟ إنها تختلف عنها فقد كان ينقسم البيت الواحد إلى انتماءين :

ثوري ورجعي . . فلم يكن لها أي ملمح قبلي .

هل هي ملكية وجمهورية .؟

لم يعد للملكيين أمل في عودة الملكية ولكنهم يقاتلون ، ولم يكن هناك

خوف على الجمهورية ولكنها تقاتل وتخاف من نفسها عليها .

فهل لاح وجه الوطن المنشود من خلال الدخان .؟

لاشك أن هناك أصابع استعمارية كانت تستغل الجو الحربي لإضعاف اليمني كيمني مهما كان انتماؤه ، والغاية من هذا غياب اليمن المنشود ، وتجذير الواقع القائم تحت أي راية ، باعتبار أن الاستعمار سيتعامل مع أي نظام أقرب إلى الاعتدال أو أقل خطورة على المصالح الاستعمارية في المنطقة ، وقد تعرت هذه النوايا من خلال دعم البائدين من جهة ومن خلال المناورة في الاعتراف بالنظام الجمهوري .

اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالنظام الجمهوري بعد شهرين من قيامه ، وكان الاعتراف كمظلة لاستغوار الداخل عن كثب ، ومن آخر ٦٤ أصبح السلاح الأمريكي في أيدي الملكيين أكثر من الحصى ، أما بريطانيا وفرنسا فلم تعترفا بالنظام الجمهوري إلا بعد التصالح في بداية السبعينات ، لكي تجدا موقع ترقب لثورة الشطر الجنوبي من الوطن .

إذن فلم تكن الحرب أهلية إلا سلمياً ، ومجرد التسمية سببت امتداد المدة القتالية كأصالة يمنية تمارس مهنتها ، ورغم استعمارية العدوان فإن تواصل الحروب زاد من قوة عضلات الثورة والثوار ، فتسلحت بالمبادئ الوطنية إلى جانب السلاح ، وعندما تأكدت خطورة هذه المبادئ تنوعت وجوه المحاربين ، فتزايدت أعداد المحاربين القدماء الأوربيين في مواقع البائدين ، وشكل الانتهازيون من الجمهوريين متاريس داخلية ضد الثوار الوطنيين ، والتقى الانتهازيون والبائدون في نقطة واحدة : القضاء على الثوار المبدئيين . .

وكان هذا التهادن بين الانتهازيين الجمهوريين ، وبين المتميلكين شبه تحالف ضد الثوريين لأنهم عقبة في وجه التصالح .

من عام ٦٤ إلى ٦٧ تشكّلت الحرب في ثلاث جبهات : ثوريون ، ملكيون ، متآمرون من الطرفين . . وقد أدى هذا التآمر إلى حصار صنعاء عام ٦٨/٦٧ بنية الضغط على المحاربين الثوريين لا على رؤوس النظام النوفمبري أو أعمدة الجمهورية الثانية باعتبارهم أربعينيين جاؤوا إلى سبتمبر على متن الدخان ، لكي يتآمروا في ظله فشكّلوا غياب الوطن المنشود ، وشكلوا امتداد الذي يكون من الذي كان . . ومع هذا لم تتخل الأصالة القتالية عن أي فريق ، إلا أن المبدئيين كانوا يعاركون عن دافعين : انتصار المبادئ وانبجاس الوطن المنشود من الوطن التطوري . . وعندما بدأت الحرب تخفت اشتبك الجيش الجمهوري بالجيش الجمهوري في أغسطس عام ٦٨ وكانت المدافع الملكية إلى جانب الدبابات الجمهورية تقصف مواقع الذين حاصروا الحصار الملكي ، وعلى عنف التحالف لم تخمد نزعات القتال وإنما انتقلت المواقع إلى مناطق أخرى ، فاستدعت عدة حملات على امتداد السبعينات ، ولم يتميز غالب ومنهزم ، بل ظلت المعارك تنشب وتخبو على مقتضى الدواعي .

إذن فسبتمبر القتال متعرج الخط ، مختلف الحرب مختلف المحاربين ، بفعل تغاير مبادئ وغياب مبادئ .

فهل الطريق التي تدفق إليها سبتمبر هي نفس الطريق التي تدفق منها ؟

إنَّ اختلاف العابرين غيّر لون الطريق بلون خطواته ، فكانت الخطوط التي ابتدأ منها سبتمبر تختلف عن القنوات التي تدفق عبرها - رغم الانتماء الجذري - فقد حقق قيام اليمن الجمهوري كبديل شرعي عن اليمن الملكي ، وأدت الظروف المتغيرة إلى حروب مغايرة لكنها تنتسب إلى القتالية اليمانية وإن اختلفت وجهة ووجوهاً . . المهم أن انفجار سبتمبر شكل نقطة تحول في المجرى العام ، لكنه لا ينفصم عن أصول تحوِلِه لتعرجه منه ، إن الخط القتالي

لسبتمبر مواكب لخطوات الثورة من ميلاد الجمهورية الأولى إلى ضفة الجمهورية الرابعة . . هذه هو الخط القتالي .

فهل هو بمعزل عن الخط الثقافي والخط السياسي المباشر ؟ .

إنه ثمرة لهما ، لأن الحرب الثورية تفجرت عن نظرية ثقافية وعن تطور الفكر السياسي .

فمن أين ابتدأ الخط الثقافي ؟

يصعب تحديد بدايته تأريخياً ، ويمكن على جهة التقريب أن نلاحظ تصاعده من آخر الخمسينات ، لأنها فترة تصاعد الشعب وتداعي السلطة الحاكمة ، ولم يكن انضمام (الإمام أحمد) إلى الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ إلا محاولة احتواء ثورة الداخل ، أو محاولة احتماء بالثائرين من ثورة الداخل . . إن هذا برهان على تصاعد الثقافة الثورية وشبه انقطاع عن ثقافة الأربعينات ونصف الخمسينات . . لقد لاحظنا أن السلطة الإمامية الحاكمة حاولت إحياء الثقافة اليمنية بشقيها السبئي والإمامي ، لكي تستنفر الخصوصيات المحلية في وجه التيار الناصري ، غير أن إلحاح العصر كاد أن يقطع شباب الخمسينات عن ثقافة كل العصور . . فلم تعد أشعار (الآنسي) وسِيَر الأئمة وتواريخ الحميريين بقادرة على لفت الاهتمام إلى الخلف ، لأن التفجر العصري كان مادة الثقافة كتابياً ومحور اهتمام المثقفين ، كانت ثورة (الجزائر) تزلزل الأرض تحت أقدام الفرنسيين ، وكانت أصداء (جبال أوراس) مثار نقاش المثقفين في (اليمن) ، وكانت ثورة (العراق) عام ٥٨ أبعد أصداءً ، لأنها ثارت على عملاء الداخل ، فاقتلعتهم كما اقتلعت (حلف بغداد) الذي جاء على ظهورهم ، إلاّ أن ملكية العراق لم تقاتل الثورة أو لم تقتدر على القتال .

من هنا استجدَّت ثقافة ثورية تستقرئ تجارب الثُوَّار في العالَم ، فحاول

مثقفونا استيعابها لأنها فهمتهم وعبّرت عنهم ، فأرادوا أن يفهموها ويعبروا بها ، ومجرد عناوين كتب تلك الفترة تضيء جوانب اهتمام قرائها وموزعيها ، كما تدل على تباين مشارب المثقفين واختلاف منازعهم ، فقد كانت تلك الكتب شديدة التباين شديدة التقارب ، كلها ثورية وكلها مختلفة النظر إلى الثورة ، وكان يهم اليمني أنها ثورية ، من كتب تلك الفترة : كتاب (اللامنتمي) لكولن ولسن ترجمة دار الآداب ، كتاب (تأريخ الثورات) لنهرو ترجمة أحمد بهاء الدين ، كتاب (في سبيل البعث) لميشيل عفلق ، كتاب (فلسفة الثورة) لجمال عبد الناصر ، (فاروق ملكاً) لأحمد بهاء الدين ، (معالم الحياة العربية) لمنيف الرزّاز ، (النكبة والبناء) لوليد قمحاوي .

كانت هذه الكتب تنتقل من بيروت والقاهرة إلى (تَعِزّ) في خلال أسابيع ، وكانت تنتقل من (تَعِزّ) إلى (صنعاء) وسائر المدائن بسرعة ملحوظة ، لأنها لم ترد على شكل تجاري وإنما كان يستعجل وصولها أفراد قياديون ، ثم يوزعونها عن قصد إلى كل مثقف ، وكان يشترط حملتها على من يعطونه سرعة قراءتها وإعطائها إلى آخرين دون أي دعوة إلى انتظام أحد من القُرّاء ، وإذا كان هناك تجمّع فإن نسختين تكفي مدرسة ، وكان التوزيع مركزاً على طلاب الثانويات وطلاب الكليات العسكرية الناشئة مثل : الكلية الحربية ، كلية الشرطة ، كلية الطيران ، ظلّت تلك الكتب تجوب اليمن من ٥٧ إلى ٦٠ ، ومن بداية الستينات اهتم التوزيع بكتب أجدّ من أمثال : (رأس المال) ، ومن أمثال (الميثاق الوطني المصري) ، (عاصفة على السكر) لسارتر عن ثورة كوبا ، (باسم الحرية) لنكروما ، (عارنا في الجزائر) لسارتر . . وتوزيع هذه الكتب عن قصد يدل على اختلاف جهات التوزيع وعلى حِدّة نشاطها كلها ، كما يشير إلى جانب أهم ذلك هو حسن التقبل لكل كتابة ثورية على أي مفهوم ، لوجود الفراغ الفكري من ناحية ، وللافتتان بالجديد من ناحية أخرى . . نأخذ مثلاً

الكتب الوجودية فقد استوعب غيرنا جانبها الغثياني والكينوني ، على حين نظر مثقفونا إلى جانبها الالتزامي والتحرر والاختيار .. فقد اهتم مثقفونا بثورية (سارتر) على استعمار سلطة بلاده للجزائر ..

أما كتب كولن ولسن و(رأس المال) و(الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) فقد كانت معقدة الترجمة صعبة الفهم على قرائنا ومن العجب أنها من مكتبة الكلية الحربية خرجت تبحث عن قرائها الأفهم ، وبمقدار صعوبة هذه كانت سهولة الكتب القومية وبالأخص (النكبة والبناء) ، (والميثاق الوطني) المصري الذي صدر في مارس عام ٦٢ كردّ على حل الجمهورية العربية المتحدة بتحرك عسكري سوري .

كانت هذه الكتب على اختلاف وصولها وتوصيلها مادة التثقيف الثوري على مرحلتين : من ٥٧ إلى ٦٠ ثم من ٦٠ إلى نهاية سبتمبر ٦٢ .

فكيف كان انعكاس تلك الكتب الثقافية على تجربتنا الثورية ؟

لاشك أن هذا الخليط من الكتب أدى إلى خليط في التفكير ، لأن مدة القراءة كانت قصيرة ، لاتكفي لهضم القراءة وتكوين نظرية مستخلصة من صفحات الكتب وصفحات الواقع .

لهذا يمكن أن نستدل على أن جدوى تلك الكتب كانت إثارية أكثر منها عملية ، لأن الثقافة الجديدة تستدعي منهجة على ضوء الواقع ، كما تتطلب الاستفادة منها نظرياً قوالب محلية تملأ فراغها وتشع في داخلها .

من هنا حدث التباين بين الثقافة الثورية ، وبين الثورة المحلية ، لغياب قاسم مشترك أو مصطلح محلي من مجموع النظريات ، لانتفاء نظرية أو الاستفادة من المجموع ، فكان الانقطاع شبه قائم بين الثورة والثقافة الجديدة ، وكان النظر إلى الثقافة اليمنية القديمة يمثل الارتباط بالرجعية ، فقد اعتبر

الستينيون زمن الثورة منفصلاً عن كل الأزمان ، ورأوا أن كلّ ما كتبته عهود (الإمامة) أعجز من أن يشكل أساساً ثورياً أو دليلاً نظرياً ، إلى جانب أنه يكرس الإقليمية ضد القومية العربية أو ضد العلمانية الأممية ، مع أن الإمامة (الثقافة) شديدة البُعد عن الإمامة (الحكم) ، ولم يكتشف مثقفونا هذا الفارق إلا في آخر الستينات ، أما من قيام الثورة إلى نهاية الجمهورية الأولى ٦٧ فقد كادت تنعدم العلاقة بين المثقفين النظريين وبين الثُوَّار الحاكمين ، كما سوف نرى عند استعراض المؤتمرات الشعبية .

فهل كانت الثقافة الثورية بدون جدوى عملية ؟

لقد كانت غنية الجدوى لو اتسقت النظريات بالواقع المنظور ، ومع هذا فقد أسست الحسّ الثوري ووسعت الاهتمام المحلي ، إلا أنها طرأت أحداث غير منتظرة في مطلع الستينات . . وعندما فاجأت هذه الأحداث كان الاستعداد لها أقل من هجمتها ، فلأن الحروب التي احتدمت استدعت إلى حكم غير المثقفين من رؤساء عشائر وضباط قدامى ، انبث المثقفون في العشائر والمعسكرات لنشر الثقافة الجديدة وماأضافتها إليها المطابع من جديد .

فكانت الجمهورية الأولى تعاني عسر التوازن بين المثقفين كقوة تغييرية ، وبين العشائريين كقوة حربية تجابه شبيهها . . إلى جانب هذا جاءت العسكرية المصرية كمسؤولة عن حماية النظام ، ولأنها عسكرية عرفت سياسة الحروب ولم تعرف اختلاف سياسة الحكم . باختلاف بلدين وواقعين ، غير أن العسكرية المصرية من ٦٢ إلى ٦٥ كانت تحاول الابتعاد عن سياسة الحكم ، وإن كانت تشجع من بُعد الثقافة الناصرية على أساس اعتقادها الفراغ من أي ثقافة محلية ، فأدى هذا إلى توحد المثقفين النظريين وبعض الثائرين المسلحين ضد العسكرية المصرية ، مع ارتباط بقمة النظام المرتبط بتلك العسكرية ، من هنا تهيأ المجال لإجابة دعوات المثقفين إلى عقد مؤتمر عمران ٦٣ ثم مؤتمر خمر ٦٥ ثم مؤتمر

الجند ٦٦ إلى جانب مؤتمرات في الخارج كان يحضرها عن الحكومة زعيم أول معارضة (الزبيري) وكلها أي : المؤتمرات الداخلية كانت تستهدف وضع صيغة مستقلة للنظام وتحديد العلاقة ، مثل مؤتمر (اركويت) الذي بحث عن التصالح بلا تفريط بالثورة ومؤتمر (الطائف) الذي أراد اليمنيون المعتدلون منه بديلاً عن المصريين مع العسكرية المصرية . وبهذا لحظ الأعداء هذا الاختلاف كثغرة يمكن التسلل منها ، فاشتدت هجمات الملكيين واشتدّ تحكم العسكرية المصرية على النظام باعتبار الحرب سياسة تستدعي فرض ثقافة حماة النظام أو المدافعين عنه . . فبمقدار ماكانت القيادة المصرية مطمع المناصب الوزارية ، كان المركز الثقافي المصري بصنعاء مصدر التثقيف الثوري وكانت بعض مواد ذلك المركز من مقروءات مثقفينا قبل الثورة ومصدر نفورهم بعد الثورة ، لأنها جاءت في ظل الرعب (الكاكي) .

ظل التعارك بين المثقفين والسلطة يتّقد ويخبو حتى أسكته عدوان حزيران ٦٧ .

هناك جدت سياسة ملء الفراغ بعد رحيل العسكرية المصرية ، فانتقل الدور العراكي إلى المثقفين نفوسهم ، وكان محور الجدل حول البديل ، وهل هناك احتياج إلى بديل ، وسيطرت فكرة الذات اليمنية ، فأثارت الانتباه إلى الثقافة اليمنية قديمها وجديدها في ظل الجمهورية الثانية التي صعدت على حركة نوفمبر ٦٧ ، فانصرف المثقفون إلى المؤلفات اليمنية المنسية في المكتبات مثل : (اليمن عبر التأريخ) لأحمد شرف الدين ، (هذه هي اليمن) لعبد الله الثور ، بل وانصرفوا إلى كتابات بعض الملكيين مثل كتاب (قصة الأدب في اليمن) و(أحمد حميد الدين) لأحمد الشامي . .

واتسع الاهتمام بكل المؤلفات اليمنية في كل مجال من أمثال : (أضواء على طريق اليمنيين) لمحمد أنعم ، و(التخلف الاقتصادي والاجتماعي)

للدكتور محمد سعيد العطار ، و(دراسة في الأدب اليمني) لزيد الوزير . . وكانت هذه الكتب ،وأمثالها من نتاج الستينات لم يستفد منها مثقفونا في ظل الجمهورية الأولى ، وإنما انتفع بها كتاب التقارير من الأجانب الذين اضطرتهم الثورة إلى البحث عن كل ورقة مكتوبة تكشف عن ماضي اليمن وحاضره عن ثقافته وسياسته واقتصاده .

وفي عهد الجمهورية الثانية ساد الاهتمام بهذه الكتب وحفزت على الاهتداء بها إلى غيرها من الجوانب الأكثر إضاءة ، وكان كتاب (الحركة الصليحية والفاطمية في اليمن) للدكتور حسن الهمداني الذي نشر في عام ٥٦ مثار البحث عن فلسفة الصليحيين وثورات القرامطة وتأريخ حكمهم في اليمن ، ومثله تواريخ (عمارة اليمني ، والديبع ، والخزرجي) .

ومن بداية السبعينات ولدت المجلات الثقافية في صنعاء وعدَن وتَعِزّ والحديدة . . فامتدت من حكمة الوريث (الحكمة) المعبرة عن اتحاد الأدباء اليمنيين ، كما تبنت (اليمن الجديد) جديد الكتابة والشعر ، أما مجلة (الكلمة) التي صدرت في الحديدة ، فتميزت بالفكرية التقدمية من منظور محلي وإنساني . . وكانت البحوث اليمنية أو عن اليمن أغلب مواد كل هذه المجلات إلى جانب عديد من الصحف غير الرسمية كالرسالة والوحدة والسلام وصنعاء والشعب . . وكانت الجمهورية الثانية على تبعيتها للإمبريالية أكثر ليبرالية ثقافياً ، وأوسع صدراً لنقد المثقفين ، فكانت العلاقة بين الجمهورية الثانية والمثقفين ، عدائية من ناحية ، جدلية من ناحية أخرى . لقد تأسست ثقافة يمنية على أرومات قديمة من آخر الستينات وتواصلت إلى الآن ، غير أن ذلك الصراع بشقيه الجدلي والناري أتاح الفرصة المعاكسة لإسقاط الجمهورية الثانية ، وقامت الجمهورية الثالثة عام ٧٤ فاشتغلت بصراع أقطابها عن صنع اليمن المنشود وعن تجديد ثقافة تؤدي إليه ، إلا أنها لم تقمع الثقافة المتصاعدة ولم تتغاضَ عن

خطرها ، فقد أصبحت غنية المواسم ، وبالأخص من بداية السبعينات حتى أنها أصبحت موضوع الأطروحات للأجانب واليمنيين ، فأصدر محمد عبده غانم (شعر الغناء الصنعاني) لنيل الدكتوراه في بريطانيا عام ٧٠ ، كما تناول الدكتور عبد العزيز المقالح (الأدب اليمني المعاصر) في رسالة (ماجستير) عام ٧٤ بعنوان : (الأبعاد والفنية في الأدب اليمني) ، وخصص أطروحة (الدكتوراه) عن شعر العامية في اليمن عام ٧٨ . . وبهذه الكتب وأمثالها تجلت الثقافة اليمنية القديمة تحت ضوء جديد ، ومن خلال نظرة معاصرة ، بالإضافة إلى هذه الكتب مجموعات ناضجة من الشعر والقصص والمسرحيات والأغنيات الثورية ، حتى الشعر الشعبي مد قديم الآنسي إلى المصهر الثوري ، فانتقل من تقليديته الهجائية والمدحية إلى الثورة والتثوير . . ففي ظل الجمهورية الثالثة توالى صدور المجموعات الشعرية من فصيح وعامي إلى عام ٧٧ أضافت الحركة الثقافية في ظل الجمهورية الرابعة تألق الفن التشكيلي كابداع لوني إلى جانب الإبداع التعبيري ، فتآزرت اللوحة والقصيدة والأغنية على الرنو إلى الوطن المنشود التي تشير إليه إيماءات الثمانينات ، على أن كل هذه الفنون الناطقة والمشكلة تبازغت تحت شمس الثورة وبلغت رشدها الخلاق عند الضفة الأخرى من السبعينات .

كان هذا الخط الثقافي الموازي للخط القتالي كفاعل فيه ومنفعل به ، بمقدار انفعال الخط السياسي المباشر بالخطين .

إن السياسة المباشرة أكثر تعرضاً للضوء والكتابة عنها من نوع مباشرتها .

فماذا يعني المرء بالسياسة المباشرة ؟

إنها الوجه الثاني لفكرية الرمز الشعري ، واستقتال البندقية الثائرة .

لهذا نشأ الخط السياسي المباشر من الخطين كتوازن بين الممكن والقابل للإمكانية . . وأول طرف لهذا الخط موصول بفجر سبتمبر مباشرة ، بمقدار

اتصال فجر سبتمبر بليلة ونهار أمسه ، لأن فجر سبتمبر نقطة تحول لانقطة انقطاع .. فكما امتد الخط الثقافي من منتصف الخمسينات تواصل الخط السياسي من نفس ذلك الظرف الزمني .. وقد لاحظنا عناوين تلك الكتب وأسماء مؤلفيها ، ومن خلالها نستجلي هوية الناشرين وانتماءهم التنظيمي ، فالذين كانوا يوزعون الكتب الوجودية كانوا ماركسيين يتبنون من الوجودية الالتزام والاشتراكية والرفض ، ويقتنعون بالحد الأدنى كطريق إلى الفكر الماركسي المباشر الذي ركزوا على توزيع كتبه من مطلع الستينات من أمثال (قصة الإنسان) ، (وأرض الثورات) لجورج حنّا ، لأن هذه الكتب بتأليفها عربياً أكثر توصيلاً من ترجمة (رأس المال) (والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية) .

إذن فهذا النوع من الثقافة الماركسية ، يشي بتنظيم ماركسي في (تعز) ، وامتد منها إلى سواها .. وقد ظهرت هوية هذا التنظيم في صحيفة ناطقة عنه بالعنوان (الطليعة) التي رأس تحريرها (عبد الله باذيب) ، توالى صدورها من ٥٩ إلى منتصف عام ٦٠ بتعز ، وكان إلى جانب هذه الخلية أو هذا التنظيم عُدة تنظيمات تختلف بعض أسمائها عن هويتها ، فقد كانت الجبهة الشعبية تتبنى القومية المرحلية ، فتمد قنوات بينها وبين البعث العربي الاشتراكي وبين القوميين العرب وبين الماركسيين ، ومثل الجبهة الشعبية حزب الشعب الاشتراكي في الشطر الجنوبي فإنه كان ينتهج البعثية ويحاكي العمالية البريطانية ويرتدي المحلية كمنافسة لجماعة (عَدَن للعَدَنيين) وكمناقضة لتنظيم (اتحاد الشعب الاشتراكي) . وكان بين هذه الأنظمة شبه انسجام .. وبعد إعلان الجمهورية بساعات أعلنت كل التنظيمات هويتها في عرائض التأييد إلى قيادة الثورة بصنعاء ، وكانت الفترة مبعث أمل كل الطامحين ، فبدأ التناقض على الوسائل والغايات وكانت جماعة القوميين العرب أعنف نشاطاً وأكثر أعداداً لكثرة رفاقهم

في قيادة الثورة والمجلس التنفيذي .

فابتدأت مرحلة الصراع والتراشق بالتّهم بين التنظيمات ، وبهذا أمنت خطرها ذروة السلطة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن رئاسة الجمهورية الأولى أرادت رعاية كل المواطنين وإطلاق كل الحريات ، حتى لايكون اليمن الجمهوري امتداداً لليمن المتوكلي ، غير أن العسكرية المصرية التي لبت ثوار سبتمبر بعد أسبوعين من قيامهم ، كانت أكثر ميلاً إلى حركة القوميين العرب ، لأنهم يرددون نفس الهتاف المصري ونفس شعار الناصرية ، إلا أنها لم تستعمل أي قمع للتنظيمات الأخرى إلا من عام ٦٥ حين احتدت التراشقات بين عبد الناصر وحزب البعث في بغداد ودمشق ، وحين تحولت التناقضات إلى صراع بين المثقفين والقيادة العسكرية في اليمن ، هناك تركزت الحملات القمعية ضد البعثيين بعد الشيوعيين ، لكي تنفرج الظروف أمام الماركسيين عند شدة الخلاف بين عبد الناصر وجونسن خليفة كيندي ضحية تعاطفه المزعوم مع الناصرية .

هذه التنظيمات التي جاءت من الخمسينات تحت التستر تعرضت لسفور سبتمبر فدخلت مرحلة النضال الحقيقي ، غير أن هذا لم يكن الصراع الوحيد بين السلطة وسائر الساسة المحترفين والتنظيميين ، لأن انتهاء الملكية كان بمثابة انفراج لكل طموح مشروع وغير مشروع ، فكان هناك صراع بين الضباط القدامى ، وبين الضباط الأحداث . . وبين زعماء الاتحاد اليمني وبين العسكريين . . وكان الإصلاحيون يحاولون علاج الموقف بتشكيل الحكومات من عدة اتجاهات : حيناً من منظور تنظيمي ، وحيناً من منظور طائفي . . وكان جمهور المثقفين يستغل هذا الصراع بين السلطة وأقطابها ، وبين الطامحين والمتشبثين . . وقد دلّ أول تشكيل حكومي على مراعاة الجانب البرجوازي عندما استوزر ثلاثة من التجار بإجماع قيادة الثورة . . وهذا مابرّر نضال التقدميين عربياً وأممياً ، فتظللوا بكل الأجنحة ذات الحصانة : كالأستاذ الزبيري

أحد زعماء الاتحاد اليمني ، وعبد الله بن حسين الأحمر كنجل شهيد وصنو شهيد وقائد جمهوري ، وأحمد عبد ربه العواضي كقائد شهير بتحقق الانتصارات ، أرادت سلطة الجمهورية الأولى أن تخفف هذا الغليان حتى لإيستفيد منه العدو المحارب ، فوزّعت الاستيزار من كل الاتجاهات بطريقة غير جبهوية غير أن هذا لم يحقق الوطن المنشود الذي تطمح إليه الثقافة والسياسة الوطنية .

فظلت الجمهورية الأولى شبه مرفوضة ، فانتقل الجدل من ملكية وجمهورية إلى نوع الجمهورية وتشكيلها ، وإلى كيفيتها لا اسمها .. وكانت المعارك العسكرية في ظل الصراع السياسي تصل إلى ضواحي (صنعاء) أحياناً .. ونتيجة لهذا الضغط كان يتغيّب الرئيس ويترأس نائبه ، حتى أرادت كل القوى العسكرية أن تقيل الرئيس الأول وترئس النائب ، دون التفات إلى استفادة الرجعية عسكرياً من هذا التغيير الفوقي .

لهذا تدخل من يسمون بالعقلاء لإنهاء الأزمة ، وكانوا يبيّتون نية احتلال القمة بدلاً من الرئيس والنائب ، وهذا ماتحقق بانقلاب ٥ نوفمبر ٦٧ .

ومن هنا كاد الأحياء من رجال ٤٨ أن يتغلّبوا على كل محاور السلطة ، واختلفت معارك الاتهامات باختلاف رجال الفترتين ، فقد اتّصف رجال نوفمبر بالاعتدال .. كما اتصفت سائر القطاعات الثورية بالتطرف وعزت إليهم السلطة طلب المستحيل لتعويق الممكن ، فامتد القمع والتشريد والتسريح من عام ٦٧ وعلى امتداد السبعينات ، فشكّل ذلك القمع المتعدد الأطراف قوى سياسية مناوئة ، تعددت بالتالي مواقعها : كالمقاومين الثوريين والديمقراطيين الثوريين والقوميين المرحليين .

وفي حزيران ٧٤ قامت الجمهورية الثالثة رافعة شعار سبتمبر ، مقصية

السبتمبريين تحت شعار التصحيح ، وبحكم إفراز قوى جديدة ، ورغم الاصطراع القيادي داخل الحركة ظل البحث عن اليمن المنشود ، وعن ثورية الثورة شغل القوى الثائرة داخل السلطة وخارجها ، وفي مواقع المقاومة وفي السجون والمنافي ، غير أن الحركة الحزيرانية دخلت في عامها الثالث طوراً جديداً ، فتحت فيه الحوار بين كل القوى وحاولت تجاوز الماضي إلى رحابة العصر ، فأوصل هذا إلى أحداث أكتوبر ٧٧ ويونيو ٧٨ ، لأن الاصطراع الفوقي ألهى عن الحركة التأريخية الثورية .

من عام ٧٨ إلى الآن ترددت الشعارات الديمقراطية والإعلانات الإعلامية عن الوحدة والديمقراطية والانتخابات البرلمانية كشعور بحقيقة القوى الثائرة ، كوجود متصاعد يملأ الساحات ، رغم حشد المؤامرات وعسكرة المغريات ضد القوى الثورية التي تتبدى أقوى وأخفى عن كل الأساليب .

واليوم ونحن في عام ٨٠ تبدُو الثورة مشبوبة الأنفاس متوهجة الشباب .

لأن وراءها طريقاً طويلاً من التجارب ، وأمامها طريقاً أخطر ولكنه أقصر .

لقد تلاحقت مؤامرات وسقطت مؤامرات والثورة تزداد عنفواناً ، ورغم إخفاق مؤامرات ونجاح مؤامرات مؤقتاً ، فإن الأفظع لم يحدث بعد ، وإن الأخطر هو الذي سوف يأتي ، لأن ملامح هذا العام تشير إلى تغيرات أبعد من تصور السبعينات . . فإذا كان سبتمبر الواقع قد فرش بالدم خطوطه الثلاثة : القتالية والثقافية والسياسية ، فإن هذه الممرات قد أهّلته لمواجهة أخطر الأحداث وأعنف المواجهات ، ولعل الذي كان ، يبصر بالذي سوف يكون ، إلا أن إشارات اليوم تنبئ بخطورات لم تخضها تجربة ولم يتكهن بها حساب ، ومهما غايرت صور الأحداث ، فإن سبتمبر الشاب الذي نوقد اليوم شمعته الثامنة عشرة قد تجاوز خوف الخطر إلى صنع الأخطار .

اليمن الجمهوري إلى أين ؟

عندما ينفجر الحدث الشعبي يتساءل المهتمون في العالم عن المنبع الذي تدفق منه الحدث ، وعن المناخ الذي يحيط بالمنبع ، وعن الخلفيّة التأريخية للانفجار ، وعن نوعية مفجّريه وعن الحاجة الشعبية إليه . . . وتتفرع من هذه الأسئلة عدة تساؤلات ، لأن الحدث أصبح واقعاً متحركاً ، تتهامس الأسئلة الجديدة : إلى أين ؟

وما هي العوامل الموجهة للحدث إلى جانب أو آخر ؟

وعلى ضوء الحياة الاقتصادية والواقع المحلي ونوع قادة الحدث تتكاثر التنبؤات عن وجهة الحدث ، وعن الأحداث المضادة لاتجاهه والمؤازرة لاندفاعه ، تبدأ عوامل المعاكسة والاتجاه تشتبك في كل خطوة في طريق الحدث الثوري ، فبعضها يريد تحول مجراه أو توقفه حيث هو حتى لايمتد ، وبعضها يحاول أن يجتاز به كل الركام ، وإذا قاوم المعوّقات استجدت معوّقات أخرى مستمدة من خفايا واقع الحدث ومن خارجه ، وهذه العقبات تكشف أصالة الحدث فتضعفه أو تقويه على مقدار أصالته وانعدامها . . ويقيس المهتمون على الحدث أشباهه في أكثر من مكان وفي أكثر من فترة وربما تشابهت التيارات المعاكسة في أكثر من مكان وقع فيه حادث تأريخي ، ولاتخرج ثورة (اليمن) عن هذا المفهوم ، فمنذ قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ تزايدت التنبؤات عن مواقع شبيهة بمواقع تمخضت عنها أحداث تغييرية ، وموقع هذا البلد حادّ الحساسية ، لأن انفجار ثورة في الشمال تؤدي بالحتمية التأريخية إلى

تحرر الشطر الجنوبي من الاستعمار ، وبهذا يصبح (اليمن الواحد) محسوباً من التغيّرات الهامة في مجرى السياسة العالمية . لأن هذا المكان يطل على البحر الأحمر من بعض جهاته ويتاخم مناطق (الطاقة) من جهات أخرى فلا بد أن تتحير الأسئلة : من أين وإلى أين ؟ .

لقد جاء (اليمن الجمهوري) من (اليمن المتوكلي) و(اليمن المحتل) ، ومعرفة من أين تحير التساؤل : إلى أين ؟

لأن الشعب الذي يقهر القهر يختلف جذرياً عن الشعب الذي قَبِل القهر أو عجز عن تجاوزه لصعوبة الظروف أو لقلة الإمكانيات المادية ، وهذه هي خطورة (اليمن الجمهوري) واليمن الذي سيصبح جمهورياً بعد التحرير . . لهذا تآزر الاستعمار والرجعية والمرتزقة على مواجهة ثورة السادس والعشرين من سبتمبر لاطمعاً في عود الوليد إلى الأرحام وإنما أملاً في تقليم أظفاره حتى لايجترح مناطق المصالح المطمئنة على شماله ويمينه . . فإلى أين يتدفق هذا الحدث ؟

حاول السؤال أن يجيب على نفسه فيضيق حدود الثورة أو يثلّج أجواءها حتى لايدري إلى أين وإنما يمتلك الآخرون كل جهاته فيدور حيث هو حتى يتخلّع ، غير أن الحدث العظيم أقوى من كل المؤامرات فلا بد أن يشق مجراه ، ولابد أن تحاول القوى المعادية سدّ هذا المجرى ، أو تحجيم النهر الذي عرفت مأتاه .

وتساءلت : إلى أين ؟ .

في يوم السادس والعشرين من سبتمبر عام ٦٢ ضجّت الأنباء عن قيام ثورة في (اليمن) ، وألمحت أهم الأنباء عن احتمال معاكسات لهذا الحدث ، لأن وكالات الأنباء عرفت وقوع الحدث وعرفت من أين أتى ، قبل أن تتساءل إلى أين ، أَوْهَمت باحتمال سقوط الحادث ، مثلاً على هذا إذاعة (لندن) وصحفها

فقد حاولت أن تشكك في نجاح الثورة لتقليدية المجتمع الذي انفجرت فيه ولوجود أمراء كانوا خارج الوطن وفي إمكانهم قيادة ثورة مضادة على حد زعمها في ضوء معلوماتها القديمة عن (اليمن) ، هذا أول تلويح استعماري إلى إعداد المؤامرة ، وبعد أيام تناقلت الأنباء فرار (البدر) من (صنعاء) وخروجه من حدود الوطن سالماً ، وأشارت الأنباء الاستعمارية والرجعية إلى نشاطه وإلى استعداده لخوض الغمار ، لأن خروجه في رأي الاستعمار يدل على أمرين : أولاً ضعف الثوار ، ثانياً كثرة أنصاره . . فلو كانت الثورة ناجحة لما اجتاز (البدر) الحدود ، ولو كان بلا مؤيدين لما نجا من قبضة متتبعيه ، هذا خلاصة مانشرت الصحف البريطانية وتعاليق الإذاعة في الأسبوع الثاني لقيام الثورة . . وبعد أيام رأت هذه الأجهزة (البدر) ورقة رابحة لإسقاط الثورة ، لأن سائر الأمراء بلا صفة شرعية وبلا شعبية مجرّبة . . من هنا ابتدأت حروب الثورة ، وكانت الثورة قد انتقلت من ثوار معدودين إلى شعب ثائر يعدّ بالملايين ، فبمجرد احتمال التدخل تدافعت جموع الشعب تحمي الثورة بل وتهاجم مواقع المعتدين .

من هنا أصبح الشعب كله جيشاً (حرس وطني) ، وأصبح السؤال إلى أين يعيد نفسه ، لأن الحروب الأهلية تثور الثورة ، بل وتوصلها إلى الجانب المغاير الذي يجيب على : إلى أين ، لأن الثورة قد عرفت بداية الطريق ، وتحولت من مجموعة ثائرة إلى جموع ثورية .

بهذا سقطت الشرعية المزعومة عن الورقة المتسخة في يد الاستعمار ، فلم تعد الثورة عسكرية ، وإنما شعبية عسكرية ، لأن الشعب كله قد تحوّل إلى مقاتل ، وبالأخص المناطق الوسطى .

من هنا سكتت الأسئلة وتحوّلت إلى مؤامرة ضد (اليمن) الثائر وضد من يقفون إلى جانبه ، لأن الحدث الذي اتّقد في (صنعاء) قد مدَّ لهيبه إلى

(ردفان) في الشطر الجنوبي من الوطن بعد شهور من اشتعاله ، وأصبح الامتداد إلى الأمكنة الأخرى ممكن الحدوث ، لأن مايحدث في مكان يمتد إلى سواه بفعل العدوى وبفعل تقبلها .

من عام ٦٣ امتدت الثورة وتعددت مواقعها فقاتلت العدوان الرجعي والاستعمار المحتمي بالرجعية ، وكان الشعب اليمني بشطريه يدافع عن الجمهورية في الشطر الشمالي ويحفر قبر الاستعمار في الشطر الجنوبي ، وامتدت المعركة بكل جوانبها تحقق النصر تلو النصر على كل الأعداء من محتلين وأتباع محتلين .

من هنا شقّت المؤامرة ميادين مختلفة إلى جانب ميادين القتال ، فأثارت العصبيات الميتة : من قروية وطائفية رغم قلة عوامل انبعاثها في عهد المدّ الشيعبي ، وعزّزت هذا بالإغراء ، بالسلطة ، بالثروة ، بالتأييد .. غير أن كل هذا ظل في حدود ضيقة ، لأن حرارة الثورة والاستماتة دونها كانت أطغى في النفوس وأملك للإرادات الجماعية ، وبالأخص أن الشعب قد تذوق الحرية وتمتع ببواكير النصر على الاستعمار في الشطر الجنوبي وعلى الرجعية في شمال الشمال ، غير أن نقاوة المقاتلين كانت تبعدهم عن تصور انتهازية الوصوليين ، حتى لم يكن أحد يتوهم أن هناك من يخونهم من الداخل و يتستر بالثورية على رجعيته ، بيد أن امتداد مدة الحرب بدون أجهزة أمنية كافية أتاحت الفرص لتسلل المؤامرات إلى أكثر الأمكنة صميمية ، فانشق الصف الجمهوري في الشمال من عام ٦٤ إلى معسكرين : معتدل وثوري وسلمي وحربي ، وكانت المؤامرات والمؤتمرات تشكل من المعتدلين امتداداً للملكية وبديلاً عنها لفقدان الأولى شروط البقاء ، كما تشكل من المعتدلين جبهة داخلية ضد الثورة إلى جانب الجبهة الخارجية .. ولكن هل هذا من صنع ظروف الحرب الثورية ؟.

إنه ينتسب إلى ماقبل الثورة ، فالذين تردّدوا قبل الثورة هم الذين شكلوا

قاعدة المعتدلين بعد الثورة . حتى أنهم رأوا في فرار (البدر) فشلاً حقيقياً للثورة ، وكانوا يقولون في مناقشاتهم :

أين كان الجيش يوم الثورة ؟

وكيف تركت أبواب العاصمة بدون حراسة ؟ وكيف أمكن هروب (البدر) في ظل حظر التجول ؟

صحيح أن نجاة (البدر) من القتل أو السجن دلّ على ثغرة كان يمكن سدّها بعدد من الجنود على الأبواب ، لكن هل كان قتل (البدر) أو سجنه سيمنع المؤامرات والتدخل ؟ لايمكن أن يتوقف التدخل والمؤامرات على أية حال ، غير أن فرار (الإمام المخلوع) أعطى مبرراً للمؤامرات وسبباً مشروعاً للتدخل ، ولو وقع (المخلوع) في الأسر أو القتل لكانت المؤامرات أهون وأقصر أنفاساً ، لأن سلامة (الإمام المخلوع) أصبحت تكذيباً لدعاية الثورة ، فقد أعلن مذياع صنعاء صبيحة يوم الخميس الـ ٢٦ من سبتمبر في الساعة التاسعة بأن (البدر) قد دُفن تحت الأنقاض ، وكان خروجه سليماً سبباً في التشكيك الدائم لأطروحات الثورة ودعايتها مدة سنوات الحرب ، لأنها ابتدت دعايتها بأكذوبة مكشوفة للجميع في وقت حاد الحساسية . . صحيح أن هذا الخطأ أعطى سلاحاً مضاداً ، ولا ندري هل كانت تلك الأكذوبة ضرورية أو غير ضرورية ؟ لقد كان ينبغي اجتنابها حتى لاتشكك في صدق الثورة وحقيقية دعايتها ، وكان مجرد إعلان قيام الجمهورية كافياً لاقناع الشعب بانتهاء الملكية ، وبالأخص في تلك الظروف المتفجرة بالاحتمالات .

المهم أن عوامل الثورة المضادة ولدت مع الثورة وفقدت أظفارها وأنيابها في هدير الحماس الشعبي ، غير أن الحروب وحدها لاتكفي لتمخض الثورة الحقيقية مالم يواكبها رصد واع للاستفادة من الانتصارات والنكسات ، فقد اعتبر

المحاربون من القوى القبلية والعمالية أنفسهم بديلاً عن الثوار ، أو أنهم الثوار لأن الثورة دخلت دائرة الخطر من أسبوعها الأول ، وهذا الاختلاف الطبيعي والصحي بين الثوار والذين استقتلوا تحت راية الثورة ، هيأ المجال للمعتدلين والمشككين لكي يحلوا محل الثورة عن امتداد للملكية البائدة ، ساعد على نمو هؤلاء ، التآمر الخارجي الذي خاف من طول الحرب وأراد أن يحسمها من الداخل لعجز العوامل الخارجية عن إخماد نار الثورة .

لهذا ارتفعت الدعوات إلى المسالمة وعقدت عدة مؤتمرات في الخارج والداخل تنادي بالتصالح بين المعتدين والمدافعين بلا تمييز لوجه عن وجه وبلا فرق بين قتال مشروع وعدوان لامبرر له ، وكل هذا بعامل الخوف من الحرب الثورية ، كان خير مافي الحرب هو الإصرار على انتصار الثورة ، وكان أبرز معايبها وجود العنصر الخارجي إلى جانب الثورة ، لأنه امتلاء سيتفرغ وسيبحث عن امتلائه ولو بالنقيض وهذ ماحدث آخر الستينات ، فعندما أحست المؤامرات خطورة الثورة لجأت إلى خصيها وتوالت العمليات الجراحية لكل ثورة ، وكان عدوان حزيران ٦٧ أقسى عمليات الخصي لأنه كان خصياً دماغياً أو مركزياً . . هنا نجحت مؤامرات الإجهاض والخصي وأصبح ملوك الثروات ملجأ الثورات ، بحجة محو آثار العدوان الصهيوني وبدعوى التضامن . . أدى هذا إلى انسحاب القوات المصرية من (اليمن) لكي يملأ النقيض مساحة المنسحب ، هنا تبدى المعتدلون فرسان الساحة الضيقة ، ولكي تتسع ساحتهم دفعت فلول البائدين إلى آخر أرماقها في حرب ثلاثة شهور من ديسمبر ٦٧ إلى فبراير ٦٨ .

بعد هذه الهجمة الفاشلة تنوعت المؤامرات وتشابكت مصالح المتآمرين فنشبت معركة أغسطس عام ٦٨ لضرب الثورة الحقيقية بالثورة الشكلية بنفس أسلحتها التي حاصرت الحصار وهزمت المعتدين ، لكي يتم التصالح بين الجمهوريين المعتدلين والملكيين المجمهرين ، واستجد التساؤل من جديد :

اليمن الجمهوري إلى أين ؟

واليمن بشطريه إلى أين ؟ .

فكما سقطت المملكة المتوكلية في الشمال سقط الجنوب العربي ، وبحث الاستعمار في قواميسه عن اصطلاحات لتكريس التشطير ، فأطلق المصطلحات على الشطرين كما يلي :

اليمن الجنوبي ، اليمن العربية ، الجنوبية الشعبية ، الجمهورية العربية ، ثم اليمن الديمقراطية واليمن الشعبية . . . كانت اللغة الاستعمارية تواكب التطورات الشكلية مستهدفة التشطير في آخر الأمر ، لأنها عجزت عن إخماد الثورة نهائياً في الشمال ، حاولت شطر اليمن بحثاً عن معرفة المسير إلى أين . . ومن آخر الستينات بدأت المصطلحات الاستعمارية تمذهب الشطرين فاعتبرت الشطر الشمالي موالياً للغرب واعتبرت الشطر الجنوبي موالياً للشرق ، غير أن (اليمن) بشطريه أصر على الولاء لليمن بشطريه بغض النظر عن الهويات والشكليات ، فكان إصرار (اليمن) على وحدته مثار مؤامرات جديدة ، فكما حاول الاستعمار ضرب الثورة بالثورة في الشمال في أغسطس ٧٨ ، وكما أشعل حروب الشوارع بعَدَن بين المقاتلين الثوار عام ٦٦ ، انتقل إلى مواقع أخرى فحاول ضرب شطر بشطر في مستهل السبعينات ، فأدت هذه المحاولات التشطيرية إلى تجلي أصالة وحدة اليمن ، فحاول الشمال أن يتجاوز وصمة التصالح المفروضة واستنهاض الوطنية الغافية التي قمعتها جبهة التصالح .

من هنا نشأت فكرة تصحيح المسيرة الثانية التي بدأت من نوفمبر ٦٧ ، ونجمت عدة أحداث دموية وقمع وحشي ، وأدى هذا القمع والصمود إلى محاولة ضرب شطر بشطر في سبتمبر عام ٧٢ وفشلت هذه المحاولة ببلورة إعلان الوحدة رسمياً لأنها ثابتة شعبياً ، وفي عام ٧٤ سقطت أعمدة حرب سبتمبر ٧٢

ودعاة التصالح وذلك بانفجار حركة التصحيح ۳۱ يونيو عام ٧٤ ، وكان هذا الحدث مثار التساؤل إبان اندلاعه : هل كان ضرورياً ؟ وهل هو تطور ولائي للغرب ؟ أم أنه تجديد لثورة سبتمبر ؟

وظلت الأسئلة معلّقة حتى انكشفت الوجوه آخر عام ٧٧ فأبرزت تلك المؤامرة وطنية تلك الحركة وهويتها الثورية من خلال وجوه المتآمرين عليها ، لأن معرفة النقيض يجلّي وجه نقيضه .. بعد ذلك تبين أن حركة يونيو امتداد حقيقي لثورة سبتمبر بانفجارها والدفاع عن رايتها ، وكان من الطبيعي أن تفرز هذه الفترة قوى جديدة تمدّ الثورة وتختلف عنها وجوهاً وتجربة ، لأن السبعينات مختلفة المناخ عن الستينات فهي تستدعي عملاً وطنياً مختلفاً ، فكما كانت ثورة سبتمبر تجاوزاً للعهد الملكي ، كانت حركة يونيو تجاوزاً لامتداد الملكية في إطار الجمهورية ، لأن القوى التقليدية اتّصفت بالاعتدال في أول الستينات لكي تكون بديلاً للرجعية ومتعاونة معها في آخر الستينات وأول السبعينات ، فحاولت حركة يونيو أن تتجاوز امتداد الملكية إلى الثورة الحقيقية كتتمة لثورة سبتمبر أو كامتداد للنضال الثوري عن الثورة .

والآن وقد مضى على حركة يونيو ست سنوات عند كتابة هذه السطور يتساءل المتسائلون عن ثوريتها وعن امتدادها عن سبتمبر أو انفصالها عنه ؟؟؟.

تؤكد كل البراهين التأريخية أن حركة يونيو أعادت الدورة الدموية إلى عروق ثورة سبتمبر ، وأن الحماس الجماهيري الذي اتّقد صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر تأجج أعنف صبيحة الثالث عشر من يونيو عام ٧٤ ، وبغض النظر عن الأفراد والصراع على السلطة ، فإن الشعب قد استجلى وطنية ثورية يونيو وهويتها اليمنية ، ولقد دلّت المؤامرة عليها على صدق وطنيتها وعلى يمنيتها العامة التي تتبنى (يمناً واحداً) وترفض وهمية الشطرين ، وكل الأحداث التي استجدت لضبابية وجه يونيو زادت من إشراق وجهه اليمني .

إن الوحدة التي تحبو إلى الميلاد اليوم وليدة شمس يونيو التي تجاوزت امتداد الملكية إلى عصر الشعب والنقابات والقوى الثورية المبدعة .

فهل حركة يونيو على حساب ثورة سبتمبر ؟

إنها إحياء لها ولحسابها ، وتدفق حي من موجها الذي انحسر ، إذا كانت ثورة سبتمبر قضت على الرأس المتوج ، فإن حركة يونيو حطمت قوائم التاج وتجاوزت ذرية الامتداد إلى غمار الشعب الثائر ، هذا هو يونيو الحدث التأريخي كما دلت سنواته الأخيرة ، بغض النظر عن الأفراد على أهميتهم وبغض النظر عن الرضى عن فلان أو السخط على فلان ، لأن موضوع التقويم هو الحدث الشعبي وتأريخيته وجماهيرية صنعه ، لأن الأحداث تبرهن على صحتها أو زيفها من وجهين : من شعبيتها ، ومن نوعية المتآمرين عليها .

إذن فتقويم الحدث من خلال خطوات مسيرته أهم من الرؤية الإفرادية أو الأحادية ، لأن الأهواء تختلف في الآحاد ومن خلال اختلافاتها تحاول خطأ تقويم الأحداث .

إن حركة يونيو بكل المقاييس أهم حركاتنا الوطنية ، لأننا من يوم انفجارها ملكنا قرارنا اليمني وامتلكنا مصيرنا عن موقف يمني وعن وطنية لاتساوم ولاتنحني لأي عاصفة ، وهذه الفترة أزهى عهودنا الوطنية اجتماعياً واقتصادياً ودولياً ، إذ تقدمت اليمن من خانة الأقل نمواً إلى الدول النامية ، فقبل ثورة سبتمبر كان المصير اليمني في قبضة (دار الشكر) أو (قصر صاله) وبعد قيام الثورة كانت كل القرارات في قبضة (قيادة الجيش المصري باليمن) وبعد نوفمبر كانت القرارات في قبضة من يعطي أكثر ، ومن بعد حركة يونيو امتلك اليمن اختيار مصيره وتجربة نظامه ، ولم يكن سقوط تلك المؤامرة إلى ذلك الدرك الأسفل إلا أنصع دليل على خطورة حركة يونيو وعلى شعبيتها

الكاسحة ، لأن المؤامرات تفقد كل اتزانها أمام الخطورات الشعبية التحولية ، فحركة يونيو إحياء لسبتمبر وامتداد من شروقه ، وتجاوز لرماده وركامه ، لأن الفترة من سبتمبر ٦٢ إلى يونيو ٧٤ قد أفرزت بالضرورة قوى جديدة وتجارب مختلفة ، وحركة مختلفة تشق السبعينات إلى الثمانينات عن رصيد من التجارب وعن رؤية ثاقبة إلى الغد بكل احتمالاته وتغيراته .

* * *

التساؤل الثوري واستمرار الثورة

اليوم وقد تغير العالم سياسياً واقتصادياً بل وجغرافياً ، يحتفل شعبنا بالذكرى التاسعة عشرة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، وفي مهرجان هذا الاحتفال وفي ظل زيناته وضوضائه يخطر للبعض أن يتساءل : ماذا حققت الثورة ؟ وهل اجتازت موروثات العهد البائد من الأوضاع السيئة بكل أشكالها من محسوبية ونفعية وانتهازية ؟

وهذا التساؤل مشروع كثورة دائمة ، كما أن معرفة أسباب هذا من الضروريات لمعرفة تأثير العهد البائد في العهد القائم . فهل كان العهد الملكي بلا أزمات وبلا خيانة للوطن ؟ لقد كانت الأوضاع الملكية أهم الأسباب في تأصيل أكثر المعوّقات إلى اليوم ، لأنه بكبته العنيف لم يتح للشعب أن يمارس أقل المسؤوليات لكي يملك الاختيار ، لهذا تركز النضال الشعبي على اقتلاع الملكية ، وصرفه التركيز على الفوقيات عن بناء قاعدة شعبية تجذر مكان (الإمامة) أوضاعاً شعبية تامة المغايرة ، لهذا جاءت الثورة إلى وسط خليط من بشائر الثورة ومن أوضاع الملكية لنشأة الثوار في ذلك الوضع .

فما هي أهم الامتدادات من ظل العهد الإمامي وأصوله ؟

لعل السنوات التي سبقت الثورة كانت أكثر امتلاءً بالنقائض ، كانت هناك الطموحات التغييرية عند المناضلين ، وكانت السلطة الإمامية تحاول أن تمتص رغبة التغيير بتغيير الأشكال الإيهامية ، فتبنت السلطة الإمامية في منتصف الخمسينات دعوى تحرر الشطر الجنوبي ، لكي ترتدي أزياء الثوار في العالم ،

وفي عام ٥٨ طلب (الإمام) الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة ، لكي يتعضون في بنيان الثورة التحررية ، أضاف إلى هذا بل قبل هذا التسلح من المعسكر الاشتراكي عام ١٩٥٧ ، وكان بهذه الإيهامات يحاول إسكات الغضب الشعبي وإبطال دعواه عند الأنظمة المتحررة أو كان يوهم نفسه بسبق الثورة .

هذا بالنسبة إلى السياسة الخارجية ، أما بالنسبة إلى أوضاع الداخل فقد تراخت قبضة التشدد الإمامي على كبار الموظفين ، وأتاحت نسبياً فرصة التوظيف وفرص الالتحاق بالمدارس التي اتسعت في الخمسينات إلى جانب توسع إرسال البعثات الدراسية إلى الخارج وإن اقتصرت على أبناء البيوت العالية ، ورافق هذا بعض حرية الاستغلال لأموال الدولة ، فتزايد إثراء نواب الألوية ومديري المناطق وأمناء الصناديق ومديري الشؤون المالية في العاصمة وفي كل المحافظات ، بعد أن كان كل الاستغلال مصبوباً على المواطن ، ففي هذه الفترة احتلب كبار الموظفين عرق المواطن ودخل الدولة نتيجة تراخي قبضة العهد (الأحمدي) لاشتغاله بالمعارك السياسية الفوقية : كإخماد الدستوريين ، وصراع الطامعين من إخوته ، وتملق الأنظمة على اختلافها حتى لاتتعاطف مع الاتحاد اليمنيء بالقاهرة ، وكان النضال الشعبي يركز كل اهتمامه على الملكية كسلطة وليس على الإمامة كأوضاع من خلق السلطة ، صحيح أن جشع الموظفين الكبار أثار حسّ التذمر ، لكنه مجرد حسّ يتطلب الوعي الثوري إلى جانب الحسّ بالمرارة من تلك الأوضاع ، ولقد أراد (الإمام أحمد) أن يخفف حسّ التذمر من الاستغلال فاستدعى كبار الموظفين من كل المراكز لأداء القَسَم بأن يعفّوا عن الرشوة ، وهذا برهان تفاقمها يومذاك وقوة تأثيرها في الحس الشعبي إلاّ أن القَسم افتتح أبواب الحِيَل الفقهية ، إذ كان الذين يريدون الانتصار على الخصوم يقدّمون الرشوة في غير اسمها : كنذور وهدايا ، وشراء سلعة يمتلكها الحاكم بثمن باهظ ، حتى أن أحدهم اشترى فنجان القهوة من الحاكم بعشرة

ريالات وهو لايسوى ثُمن الريال وبالبيع والشراء والقبول استحل الرشوة في غير اسمها ، فقد كانت هذه الفترة تشكل قنوات التمخض الثوري ووجوه الثائرين ، وكان الثوار رغم مقاومتهم لتلك الأوضاع متأثرين بها تركيبياً وبيئياً .

فكيف يمكن أن يتخلصوا منها عائلياً إذا تخلصوا منها فكرياً ؟ إن الفكريات تزداد تألقاً بنقاوة المناخ الذي تنبت فيه وتترعرع في تربته .

فهل تنضج تلك الظروف بتفاعلها أم تلحّ الضرورة على إحراقها ؟ لقد تآزرت العوامل الثورية ونشأت التنظيمات من آخر الخمسينات ، واستهدفت كلها التغيير : إما عن متابعة سير النضج الظروفي ، أو إحراق المراحل . . رافقت هذا عدة انتفاضات قبلية لم يتساءل أحد عن هويتها ولا عمن وراءها ، لأن انفجار أي حدث من أي موقع كان في حد ذاته بشيراً بالخلاص ، لأن الوضع (الإمامي) كان مرتكزاً على القبلية شيوخاً وأفراداً ، فتفجر أي حدث قبلي يؤدي إلى سقوط ركيزة أو إلى ارتجاج مغرسها على الأقل ، لهذا تلاحقت انتفاضات الخمسينات كما تسارعت تداعيات القصور ، حتى أوصل ذلك التفاعلُ والتناضل إلى ثورة السادس والعشرين من سبتمبر . هناك سقطت الملكية كحاكمة وقامت كمحاربة . فكيف يحارب الثوار : هل يبدؤون بوضع (الإمامة) الذي أصبح وضعهم ؟ أم بمحاربة (الإمامة) التي تحولت إلى مواقع تحاول استعادة الأمس ؟ كان لابد للثورة أن تنتهج خطين : خط حرب الحرب ، وخط تأسيس الوضع الجديد . لكن من أين تتكون أحجار البناء الجديد وهي من ذلك المقلع ؟ إن الثورة طويلة الميلاد ، جاءت كحدث فكري عن عمل مسلح ، ولم تأت بكل كوادرها الإدارية ، فهي مضطرة إلى المسالمين من الكوادر القديمة ، وإلى اضافة عناصر جديدة ، وكانت الكوادر القديمة أقوى امتلاكاً لواقع التوظيف أو أقدر على ربكه أمام المخلصين غير المجربين ، ونتيجة اشتداد الحرب جعلت الضرورة المدفع أهم من الخبز ، وجعلت المحارب أهم من الكادر الإداري

برغم الترابط بين النجاح الإداري والنجاح العسكري ، لهذا تطور الاستغلال الوظيفي في مختلف المستويات في ظل الوضع الجديد ، وأدّى هذا إلى التساؤل : هل الثورة مجرد تغيير الراية والاسم ؟؟؟ هل الثورة مجرد اقتلاع فرد وزرع أفراد من نوعه ؟ ماذا أحدثت الثورة ؟.

هكذا كان يتساءل البعض ، وكان يرد البعض بأن إنهاء (الملكية) مجرد بداية ، ولكل بداية أخطاؤها لنقص تجاربها ، وبتحقيق النصر على الفلول البائدة تبدأ الثورة الإدارية وتنقرض الإمامة (الأوضاع) ، كما انتهت الإمامة (السياسة) ، وكان يتساءل البعض : هل الأولى الاختبار أم الإخلاص ؟ وكان البعض يرى أن الاختبار أنفع حتى يخلق بديله المعزز بالإخلاص ، وكان البعض يرى أن الإخلاص للثورة أولى بالمناصب الإدارية ، لأن الاختبار مكتَسَب من التجربة ، وظل التساؤل عن الكيفية يعلو ويتردّد ، كما كانت المدافع تعلو وتتردد ، حتى بدى للبعض أن يشيد بإدارة العهد البائد محتجاً بالقوة الشرائية للريال ورخص الأسعار وانضباط الناس للسلطة ، وكان يسكت هذا الزعم التأريخ الذي يقول بأن أكثر الناس إفساداً في عهد الثورة هم أكثر الناس انتفاعاً بالعهد البائد ، أما القوة الشرائية للريال فقد كان سببها ندرةُ الريال في العهد الإمامي حتى زادت السلعة عن الحاجة ، أما الانضباط فقد كان قمعاً لا انضباطاً ، لأن الانضباط يكون للأمر الواجب على حين القمع إخضاع للسلطة ، أدى هذا التحاور المتصل إلى عدة مؤتمرات : كمؤتمر عمران ٦٣ ، مؤتمر خمر ٩٦٥ ، مؤتمر الجند ١٩٦٦ مؤتمر الطائف نفس العام إلى جانب مؤتمري أركويت واليونان ، وصاحبت هذا عدة تشكيلات حكومية : تعدد محاور السلطة : كمكتب سياسي ، كمجلس تنفيذي ، كمجلس شؤون القبائل ، تعدّد نواب رئيس الجمهورية وإضافة مناصب وزارية ، ثم أدى هذا إلى قيام تنظيم الاتحاد الثوري كقاعدة تنظيمية عام ٦٦ ، أفضى هذا إلى قيام حركة باسم

التصحيح عام ٦٧ فتصالحت هذه الحركة مع المحاربين وأقامت تشكيلاتها من المعتدلين ، فكونت المجلس الجمهوري بدلاً عن الرئيس وشكّلت قواعدها من :

مجلس وطني ثم مجلس شوري ثم مجلس شعب ، وكان هذا المزيد يستدعي مزيداً من المال إلى جانب الانفاق العسكري ، ومع كل هذا كانت الثورة تحقق انتصارات عسكرية كاسحة ، ولم يكن التلويح بفلول العهد البائد إلا مجرد ضغط سياسي من جهة ، ومجرد سبب ارتزاقي للمحاربين المحترفين من جهة أخرى ، ومع هذا ظلت للأوضاع (الإمامية) بقية ، لأن ثوار الستينات من مواليد الثلاثينات والأربعينات فعليهم آثار تلك الظروف الكسيحة ولهم إرادة تجاوزها ، لكن الكيفية للتغيير هي التي استعصت على الإدارة لغياب تصورها مسبقاً ، لأن ظروف الثوار هي نفس ظروف الشعب ، إذن فالآمال معقودة على جيل الثورة أي مواليد آخر الأربعينات والخمسينات والنصف الأول من الستينات ، وهؤلاء الأخيرون مايزالون في الحقول والملاعب والمدارس ، وربما كان أهمهم مايزالون أجنّة في أحشاء الفلاحات والحاطبات .

فكيف يتصاعد هؤلاء ؟.

إن أول شرط تصاعدهم إبداع مناخ مختلف عن مناخ الثلاثينات والأربعينات .

وكيف يتسنّى إبداع هذا المناخ في ظل صراع النقائض وتطاحن الإرادات غير المريدة ؟

لقد كان الجمهوريون يتأرجحون بين الطفور والاعتدال ، وكانوا يطفرون لانتزاع تأييد الثوار ، ويعتدلون إرضاءً للمعتدين ، وكان أكبر مناصري الثورة أكثر تأرجحاً بين الشارعين ، ولمّا انتصفت الستينات تغير ملمح هام من ملامح

السياسة العالمية ، إذ جاهرت الإمبريالية تحت إدارة (جونسون) بوقوفها إلى جانب أعداء ثورة اليمن وبمعاكستها لمؤيديها ، فتألفت في الداخل قوة اتصفت بالاعتدال كما اتصف معاكسوها بالتطرف ، وهذا بفعل الإتجار بالحرب في الداخل واختلاف وجه السياسة العالمية ، وفي عام ٦٧ اضطرت القوات المصرية إلى الانسحاب من اليمن بفعل نكسة حزيران في نفس العام ، ولعل سبب تلك النكسة الوجود العسكري المصري في اليمن ، لأنه انتهج خطين :

مؤازرة ثورة الشمال ، وتسليح ثورة الجنوب عام ٦٢ ، ٦٣ وكانت هذه أثقب نظرية للقوات المصرية والثورة اليمنية ، إذ لايمكن انتصار ثورة الشمال إلا بتحرير الجنوب من الاستعمار ، لأن محتليه كانوا يشكّلون عدواناً على الشمال وتكريساً لطول مدة احتلالهم للجنوب ، ورغم انسحاب القواب المصرية ظلت الثورة شاهرة سلاحها رافعة رايتها ، كما ظل التساؤل الثوري مشبوب الأنفاس بفضل نمو العناصر التي صبّت في عهد الإرهاص الثوري وتفتحت طفولتها وشبابها تحت شمس سبتمبر ، فلم تكد الستينات تطوي صفحتها حتى بزغت قوة شابة من مواليد آخر الأربعينات وبدء الخمسينات ، فعززت هذه العناصر الجديدة مواقع القوى الثورية النقية ، وشهدت أيام السبعينات أبناء المدارس يحملون البندقيات بدلاً عن الأقلام ،.ويكتبون صفحة جديدة في كتاب التحولات ، في ذلك الحين تعززت القوى الثورية بقوة جديدة نشأت لكي تتنامى كيفاً وكمّاً ، إذ أصبح مواليد الخمسينات في العشرينات أو على أبوابها ، وكان هذا الرعيل أول رائد للمواكب الشابة والتي سوف تشب والوليدة والتي سوف تولد ، لهذا خاف تجار الحرب من تصاعد هذه القوى وتدفق أفواجها ، وأرادوا أن يحرموها فرصة التجربة الحارة ، فتعالت دعوة التصالح قبل أن تحقق الحرب أي هدف غير قيام الجمهورية واحتمال تغيير اسمها في دعوات كانت قيد الطبخ ، غير أن القوة الشابة واصلت تكاثرها ، فحاولت المؤامرات عدة طبخات :

التجهيل عن طريق التعليم ، الإلهاء بالمناصب ، حرية الاستيراد والتهريب ، الإتجار بالسلاح ، افتتاح الأوكار السرية ، فكانت لهذه الاستعدادات معاكساتها ، لأن ثورة سبتمبر قد أنجبت من نارها جبالاً من نار ، لهذا سكتت المؤامرات عن تغيير النظام الجمهوري وإن احتفظت بالعناصر الداعية إلى نظام معلب ، واهتمت بإفرازات الواقع الثوري وصحو مناخه وكثافة غاباته ، هنا تحالفت رؤوس القوى على الثورة لكي يبقى الحكم بلا ثورية ، غير أن الثورية كانت أصيلة في الشعب ، فتعالت قامتها رغم كثرة التشذيب ونارية العواصف ، وربما كان ذلك التشذيب والإعصاف أكثر عوامل التغذية لشجرة الثورة وأكثر أسباب نموها ، ظلت الثورة حاملة سلاحها رافعة رايتها مرددة أغنية انتصارها مهما انتقلت ميادينها .

المهم أن الثورة زادت اشتعالاً وامتداداً ، وكان في هذا الامتداد والاشتعال جواب التساؤل :

أين الثورة ، ماذا حققت ، لماذا لم تتجاوز الظروف الموروثة ؟

لقد تحول تساؤل الستينات إلى جواب من منتصف السبعينات إلى الآن ، فكان التساؤل الثوري ديمومة الثورة .

فهل يتساءل اليوم أحد :

ماذا حققت الثورة ؟ وهل جاءت بأفضل مما كان .؟؟

إن الثورة إلى الآن حققت الثورة كحدث تأريخي ، ثم واصلت ثوريتها وشعبية قواعدها وشرعية وجودها ، لأنها جاءت من منطلق ثوري بدأته ثورة سبتمبر ، لكي تأتي منه ثورات كما تتدفق من النهر العظيم جداول كثيرة ، فقد حققت الثورة ديمومة ثوريتها وإن كانت لم تبلغ الصيغة النهائية ، فإنها تصوغ قوالب ماهيتها من عنصر تجاربها ، وقد يقول البعض : ماذا حققت مدة تسعة

عشر عاماً ؟ إن أصح الأجوبة بأن هذه المدة قد خلقت ثورة سبتمبر وما تفرع منها كامتداد متجدد في زمن جديد وعالم متغير ، لأن فترة السبعينات غير فترة الستينات ، ولابد أن تكون الثمانينات أشد مغايرة ، وهذه الشواهد تشير من قريب ومن بعيد إلى عالم يكاد أن ينقطع عن أصوله ، وفي خضم هذه التغييرات اجتازت ثورة سبتمبر كل النقاط البركانية وجابهت الأخطار على عدة ميادين مدة الستينات ، وعلى امتداد السبعينات اختلفت ميادينها فصارعت التخلف والمؤامرات ، وظلت تواصل خطوها في الميادين الجديدة وتقاتل خيول الروم في كل ميدان .

إن الثورة إلى اليوم تبني قواعدها على أصح أساس وتعرف غايتها من أعلى القواعد ، لأنها تتحرك بالشعب وللشعب بحكمها ثورة من الثورة في الثورة ، فيكفي أن سبتمبر بثوريته الرائدة أنجب أجيالاً ثورية تتعاقب على الميادين تحت الظروف المتغيرة وأمام العالم الأكثر تغيراً .

إذن فلم يكن تصالح عام ٧٠ إنهاءً وإنما هو ابتداء ، لأن كل يوم يبدأ فجره وكل جيل يتجذر اليوم من خطاه ، لأنه يتقدم ووجهه إلى الأمام ، ولم يعد يلفته أي نداء .

فالتساؤل الثوري وديمومة الثورة أزهى أقباس الثورة السبتمبرية وأزهى عناصر خصبها ، لكي تبقى متدفقة المواكب مرفوعة الراية حاملة السلاح .

* * *

الفصل العاشر

مشاكل اليمن الجمهوري

١ـ الأخطاء الموروثة .
٢ـ موقف حسابي أمام الثمانينات .
٣ـ قضايا على بساط القلب .
٤ـ الديمقراطية . . بين الإعلان والممارسة .
٥ـ توحيد الواحد . . ووهمية الشطرين .
٦ـ الثائر من حقيقته إلى تحقيقه .

الأخطاء الموروثة

قد يمتد الزمان من الزمان ، ويؤدي هذا الامتداد إلى مقادير من الجدّة ، وإلى ملامح من الاختلاف . . أما التكرار الزمني فإنه يجعل الأزمان كلها زمناً واحداً ، وبهذا يفقد تأريخيته ، لأن التأريخ تحرك دائم يتكون من جملة التغييرات الإنسانية في الزمن وتغيير الزمن في رؤية مفجري تغييراته ، فليس التأريخ مجرد اختلاف الليل والنهار . . فالتحرك التغييري وتكرار المتشابه يشكلان : الفرق بين التأريخ كصيرورة ، وبين الزمن كتعاقب أوقات .

وماالذي يجعل الزمن يوماً واحداً ؟

إنه توارث الأخطاء : كالوراثة العضوية ، أو كتوارث المقتنيات .

لابد لكل إنسان أن يخطئ مرات كثيرة أو قليلة ، ولكن الذي يفقده إنسانيته : هو أن يكون عمره مسلسل أخطاء امتد من مسلسل سابق ، لأن الأخطاء قابلة التوارث إذا عززتها أعراف وجمود عليها ، على حين المزايا كسب شخصي أو كسب اجتماعي على أياد قيادية مبدعة تفجر التحرك من دخائل المزايا ومن بواطن الركود .

وفي حياة الناس ركام من العادات والتقاليد الموروثة ، لكنها تتغير بمجرد هزات اجتماعية ، أو بمجرد تعطّل العادات من طاقاتها ، على أن أفدح الأخطاء الوراثية : هي التي تتطور شكلياً دون أن يحدث تجديد في مضمونها ، أو محاولة تجاوز من آثارها ، لأن هذا يوهم بتجاوزها .

مجتمعنا توارث الكثير من العادات التي أصبحت مسلّمات أو شبه مسلّمات . . يختلف الفرد مع قبيلته أو قريته ، فيقطع صلته بها ، ويلتحق بقبيلة أخرى لكي تدفع عنه ضريبة فرديته أو ضريبة عداوته لعشيرته ويسمى هذا الخارج (ربيعاً) لأنه طلب السكنى في مربع القبيلة الأخرى ، وكان يسمى هذا النوع في القديم بالخلعاء لخلع قبيلتهم إياهم ولا تؤوي أي مخلوع قبيلة أخرى إلا في النادر لقيمة شخصية في المخلوع ، فشكل هؤلاء الخلعاء مجتمعاً تسموا صعاليكاً وشذاذاً وأغربة على عكس القائم في بلادنا إلى الآن ، فكم تشتعل الحروب القبلية من جراء الخارجين على قبيل والداخلين في قبيل ، وهذا الجانت أسوأ جوانب العادة ، فلو وقف الأمر عند إيواء المستجيرأو حمايته لكانت من أشرف العادات ولكن بعد معرفة غبن المستجير وإلحاق الضرر به من أهله ، أما أن تحارب جماعةٌ جماعة أخرى لشذوذ فرد أو لنوازع انتقام فردي فهذا أسوأ جوانب العادة .

إذن فالمسألة معرفة الكيفية . . هل القتال عن الفارّ انتصار لحق مظلوم ؟؟ أو إرغام معتد على الكف عن عداوته ؟ أو أنه حق الإيواء مهما كانت بواعث المستغيث !!

مهما كانت مزايا هذه العادات ومعايبها ، فإنها قَبَلية تتناسب ووراثتها مع التقليديين ، ولكن الأسوأ انطباق مثل هذه العادات على الجوانب السياسية التي يفترض فيها ثقابة النظر وتجاوز غير المجدي إلى الأكثر جدوى على المجتمع كله . . فما أكثر الذين غضبوا على زعيم أو (إمام) وأصبحوا من أنصار هذا أو ذاك ، دون أن يكون التحول الآخر عن معرفة بأنه الأصلح ، ودون معرفة الآخر بموقف اللاحق به وخروجه على سواه ، وقد أدى إلى هذا ، الصراع الطويل على الزعامة ، كما أدى إليه تعدد الزعامات في الفترة الواحدة . . كان الذي يفقد مصلحة من (إمام) قائم يلجأ إلى (إمام) منتظر القيام ، بغض النظر عن مشروعية المصلحة وبدون تمييز بين أفضلية القاعد على القائم ، ولعل هذا هو

الذي سبّب تعدد الأئمة ، وتعدد الزعامات في مختلف المناطق .

كان من يفقد مكانه عند الحاكم ، يميل إلى مناهضه ويضطر إلى التزام مذهبه ، وكان هذا يشمل المثقفيْن أو المتعلمين كالأميين تماماً ، حتى أن سلطاني (حجور) وكانا من نوابغ عصرهما القرن الخامس الهجري كانا يتخذان موقفين متناقضين : أحدهما إلى جانب (السيدة أروى) الصليحية وعلى مذهبها ، وثانيهما إلى جانب السنّيين وعلى مذهبهم . وهذا الاختلاف في الوجهتين لم ينشأ عن اختلاف ثقافتين ، وإنما عن اختلاف طرق المنفعة . . ولهذين السلطانين مئات الأمثال خلقهم تعدد السلطات ، أو خلقوا تعدد السلطات ، فاجتمع سيفان في غمد واحد أكثر من مرة ، وقد لايكون هذا – في جملته – مجانياً لعهود وراثية الحكم ، لأنه الوجه الآخر لتوارث العادات أو سبباً في امتداد توارث الأخطاء . . كل هذا محسوب على الماضي ، غير أن الأدهى والأمَرّ أن يمتد هذا التوارث المواقف النظرية وإلى عهد الشعب مصدر النظريات . فكيف امتد هذا الموروث إلى عصرنا بدون تعديل ؟

أو بتعديل لايتجاوز القشرة الخارجية ؟؟

من آخر الثلاثينات بدأ التذمر من استبداد (الإمام يحيى) ، وهذه ظاهرة مشرقة تبرهن على الحيوية ومحاولة التحول ، غير أن الظاهرة المشرقة تفقد بعض إشراقها أو كل إشراقها بوراثية سوء استثمارها وعراقة انتمائها إلى القبلية الفردية ، لأن الوسيلة تحمل في صميمها وجه الغاية ، لكي تتحول هذه الغاية إلى وسيلة تملك إبداع الغاية الأجد ، فليست الوسائل بمعزل عن غاياتها ، وإنما هي منها بمثابة البذور من الزروع ، فإذا كان التحول عن (الإمام يحيى) إلى الجانب الوطني الديمقراطي فإن القصد شريف ، أما الذين تحولوا عنه إلى (الإدريسي) المحتل لتهامة وإلى (عبد العزيز آل سعود) أو إلى (مشايخ) المستعمرات البريطانية في الجنوب ، فإن هؤلاء كانوا يشكّلون خروجاً على

الوطن مهما كان بعد الغاية ، لقد كانوا يبحثون عن الساخطين على (الإمام يحيى) بلا تساؤل عمّا يملك هؤلاء الساخطون من رؤية مغايرة ، أو عن إماكانياتهم لامتلاك رؤية مغايرة لأن السخط وحده على أي وضع لايكوّن سبباً جامعاً لإنهائه دون تبني بديل أفضل ، قد يكون السخط ثورة دائمة ، ولكن تحويله إلى وسيلة تغييرية يحتم رؤية الغاية من خلال الوسائل ، فلا يكفي السخط على (الإمام يحيى) بدون نظرية تغيير ، وبالأخص إذا لاحظنا أن أغلب قادة ذلك التحرك أبعدوا من مناصب أو عجزوا عن الوصول إلى مناصب ، لأن المناصب مجرد وسائل لغايات شعبية .

المهم أن المرارة من (الإمام يحيى) كانت مؤهلاً كافياً للانتماء إلى الثوار ، بغض النظر عن نوعية أفكار المنتمي . . وقد دلّت كتابات أولئك الرجال على اعتراف بسوء الاختيار وقِصَر النظر ، أو بنقص في التخطيط الوطني ، كما دلّ على هذا كتاب عبد الله الشماحي (اليمن الحضارة والإنسان) في تناوله للإمام يحيى وعينة السخط عليه ، يقول الشماحي ما معناه : « ولما وردت الأخبار إلى الطاغية (يحيى) عن هزيمة عسكره في (حرض) زاد وجهه الأسود اسوداداً واكفهراراً ، فلم يعد ذلك الأسد الكاسر وإنما أصبح أذل من ثعالة » . فهل تلك الهزيمة على (الإمام) وحده ، أو أنها على الوطن كله ؟ وهل الإشمات بالإمام في هذا الموقف نزوع وطني ؟؟. لقد كان ينبغي على الذين شمتوا بالإمام أن يلتحقوا بالمقاتلين لتحرير (تهامة) من الغزو ، لأن الفرد زائل والوطن باق ، إن التشفي بهزيمة (الإمام يحيى) يدل على أحادية النظرة إلى استبداده ، بدون تمييز بين ماهو وطني يهم الحاكم والمحكوم معاً ، وبين ما هو ذاتي يخصّ الفرد والحاكم وحده . . مثل كتابة (الشماحي) في هذا الصدد كتاب (من وراء الأسوار) الذي أجاب على أسئلة عن الحل وعن التجاوز ، وعن خلق بديل بطرق مغايرة ، فقد تناقضت الإجابات من الدستوريين إلى حد

أنها لاتدل على تنظيم ، وأجمعت على رأي واحد هو : حاجة اليمن إلى الخبراء العرب والأجانب ، دون أن تُلَمِّح إجابة إلى الواقع المحلي وإلى الحاجة الشعبية لنوع البديل ، وإلى خطورة الخبراء في غياب كادر إداري محلي . وأكد هذا المفهوم الشاعر (محمد محمود الزبيري) في كتابه (مأساة واق الواق) وفي أشعار آخر الخمسينات :

ألمح الشعب قابعاً يدرس الثورة كيما يأتي بأخرى جديدَهْ
يتحرى الأخطاء ، يغفر للأحرار أخطاءهم ، ليبقوا جنودَهْ

هنا اعترف بالأخطاء ، ولكن الاعتراف بها لايمحو آثارها ، إلا إذا أدى إلى معرفة تجاوزها . . ومن المؤسف أن معرفة أهم الأخطاء لم تقض عليها ، بل ربما عززتها أو أبقتها على وراثيتها ، ولكن بشكل آخر . . فقد ازدحمت الخمسينات بالتذمر العنيف كما ازدحمت بالاختلاف على الوسائل التي لم تسأل عن غايتها .

كان (الاتحاد اليمني) في آخر الخمسينات بالقاهرة يحاول سبق كل التنظيمات إلى قتل (الإمام أحمد) مع أنه لم يتبن قتل الإمام يحيى في شباط ٤٨ أيام كان معارضاً في (عَدَن) لأن المعارضة غير المقاومة المسلحة كما قال الأستاذ أحمد محمد نعمان أهم مؤسسي الاتحاد : « وقع خبر قتل الإمام يحيى علينا بصنعاء وقوع الصاعقة ، لأنه باسم الدستور والدستوريين وهو في حقيقته نزوع إمام إلى مكان إمام ، وحين دعينا إلى صنعاء قبلنا الواقع » . ورغم تجنح الاتحاد فإن أغلب رجاله في الداخل أصروا على إنهاء (الإمامة) وقيام الجمهورية ، إلا أن الذين خرجوا على (الاتحاد) انضموا إلى (البدريين) في الداخل بمقدار ما انضم رجال من الداخل إلى الاتحاد في مهجره ، وإلى هذا أشار الزبيري زعيم الاتحاد :

سوف لا تأخذ الخيانة إلا هَمَلاً من صفوفنا أو غُثاءا
لا يبالي يبايع الله صبحاً ثم إبليسه اللعين مساءا

هنا رأى (الاتحاد) تيارات جديدة إلى جانب التيارات القديمة ، كلها تختلف على الوسائل ، وكلها تؤجّل الغاية أو لاترى لها وجهاً ، كما دلّت الأحداث من بعد . لقد وصل (الاتحاد) إلى الاقتناع بالجمهورية في مطلع الستينات . . ولكن ما برنامجها ؟ مانوع رجالها ؟ ماموهلات قمتها ؟ . .

كل هذا لاتنمّ عنه إشارة ، ولا تدلّ إشارة على نوايا (البدريين) ، مع أن السخط على (الإمام أحمد) كان ملتقى (الاتحاديين) و(البدريين) باعتبار أن (البدر) سيختلف عن أبيه ، وعلى اعتبار (الاتحاديين) أن الأمل في اختلاف (إمام) عن (إمام) تجربة فاشلة ، فإنهم لم يقطعوا صلاتهم بالبدر كلياً .

لكن من أين وصلت كلتا الفكرتين إلى الفريقين ؟

لقد ورث (البدريون) هذا الخطأ من (الأحرار) الذي أصبح (اتحاداً) . . ففي مطلع الأربعينات رأى الجناح الأدبي من (الاتحاد) أن (أحمد) يختلف جذرياً عن أبيه (يحيى) وأن الالتفاف حوله يساعده على تجاوز ظروف أبيه بعد موته أو قتله ، وبعد فترة اكتشف (الأحرار) الفخ المنصوب لهم في قصر (أحمد) ، فواصلوا نضالهم ضد (الإمام) وولي عهده ، حتى مصرع (الإمام يحيى) ، هنا نجحت التجربة وفشلت في وقت واحد . . نجحت بقيام حكم الدستور ، وفشلت بسقوطه السريع ، ووقع أهم الرجال تحت السيف أو في قبضة السجن ، أو بين جدران المنفى . . لكن هذه التجربة الفاشلة امتدت إلى البدريين في آخر الخمسينات ، من انخداع (الأحرار) في أول الأربعينات ، وكاد هذا الخطأ الموروث يتكرر ، وأن يقع فيه أكثر رجال (الاتحاد) . إلا أن بزوغ قوى جديدة كادت تغير الحساب ، وإن

كانت لاتملك وسائل تغيير الموروث كلياً ، رغم اختلاف الوجهات . . فقد تشكلت في آخر الخمسينات عدة تنظيمات سريّة على غرار أمثالها في الوطن العربي : كالجبهة الشعبية ، والبعث العربي الاشتراكي ، والقوميين العرب . . وكان هؤلاء يملكون وسائل التغيير ولكن على نهج هذا القطر أو ذاك ، دون استخلاص أفكار من ميدان الممارسة . ودون صنع قوالب محلية تتمازج فيها الأفكار المستفادة والأفكار المستخلصة من واقع الوطن .

وفي مطلع الستينات تشكّل تنظيم (الضباط الأحرار) كما فصل هذا كتاب (أسرار ووثائق الثورة) وهذه التسمية تكاد تكون امتداداً لحزب الأحرار الذي تحوّل إلى (اتحاد يمني) إلى جانب محاكاة الضباط الأحرار بمصر غير أن هناك أدلة على أن هناك ضباطاً كانوا ينتمون إلى الجبهة الشعبية : كعبد الله اللقية ، ومحمد عبد الله العلفي ومحسن الهنداونة . . وقد أرادوا على يد اللقية والعلفي أن يسبقوا إلى تفجير الثورة عام ٦١م ، ولكن لم يعلن لهذه الجماعة برنامج مكتوب وكلما حققته هو محاولة اغتيال (الإمام أحمد) . لكن هل كانت تريد قيام جمهورية ؟ أو أن (البدريين) كانوا يخططون لمقتل (الإمام أحمد) لصالح (البدر) ، أو لصالحهم من خلال البدر ؟؟

وهذه التجربة تنتسب وراثياً إلى انتفاع (الإمام أحمد) من مقتل والده ، وهذا خط موروث منذ لبس (معاوية) قميص (عثمان) ، غير أن هناك جماعة تقدمية كانت تعارض استعجال الثورة ، لأن الظروف في بداية نضجها ، ولأن الوسائل لم تملك غايتها ، غير أن التوتر كان على أشدّه ضد (الإمام أحمد) ، وكانت كل المجاميع على اختلافها تتبنى مناوئيه كمؤهل وحيد ، بغض النظر عن أصالة ثورية هذا ، أو آنية ثورية ذاك ، أو نفعية ذلك ، لكن هل السخط على زعيم فترة مؤهل كاف للثورية ؟

إن الثورة مجرد وسيلة تخلقها الغاية ، لأن الوسيلة الطريق إلى الغاية ،

والغاية هي ملهمة الوسيلة ، فلا فواصل بين الوسائل وغاياتها ، حتى عند صاحب الفكرة (مكيافللي) ، فعندما رأى أن الغاية تبرر الوسائل ، كان يربط بين قوة الدولة كوسيلة ، وبين وحدة إيطاليا كغاية . . . كذلك السخط على أي وضع يكوِّن إمانية إنهائه وتتوالد من خلال إمكانيات الإنهاء الغاية منه : وهو قيام الأفضل . . ولايخلق الأفضل إلا الفضلاء الذين تمثلوا من خلال القائم ملامح الممكن ونوعية صانعيه وصنعه ، لأن جنس العمل من جنس عامليه . .

لقد تمخّضت كل هذه الاختلافات إلى اتفاق موروث ، وبلور هذا الاتفاق انعدام صلاحية (الإمامة للبقاء) ، فأصبح الشعب كله سبتمبرياً بكل عناصره : إما عن أصالة ثورية ، وإما عن عدوى مرحلية ، وإما من قبيل ملاءمة الزمان . . لكن نفس الموروث تداخل في الجديد الذي جاء من موروث . . هناك تغير شكل الموروث ، فلم تميز معرة الأحداث بين صناع العهد البائد كأساس لوجوده ، وبين أعمدته كسبب في امتداده ، وبين ثمرة أوضاعه كانعكاس لعهد خلقته مئات العوامل الوراثية ، فقد كان السخط على العهد الإمامي عن تعمل أو عمل : هو المؤهل الثوري : فمن سجنه (الإمام) لأي سبب فهو ثائر . حتى الذين سرقوا الصناديق وكانوا أمناءها ، مع أنها ثروة الشعب لاخصوصيات (الإمام) ، ولاسيما بعد انتهاء عهده ، لكنهم أصبحوا ثواراً لأنهم سجناء (الطاغية) ، كما أصبح الذين فرّوا من الطاغية إلى اي مكان ثواراً بغض النظر عن الملجأ الذي آواهم ، حتى لو كان حضن الاستعمار .

أليس هذا نفس موروث الماضي البعيد أو القريب ؟

فمن يعادي زعيم فترة . . أو يثور عليه فهو ثائر دون التساؤل عما يتبنى من بديل أو ما يتبنى من مشاريع مستقبلية .

إن نوع الثائر ونوع ثقافته ومواقفه وسيلة إلى جانب الوسيلة العملية ،

غاياتهما التغيير إلى الأفضل ، ثم إلى الأفضل منه . . ولكن استجدت أحداث كانت منتظرة أعادت الموروث الماضوي بشكله القديم ، وبأشكاله الجديدة المتفرعة عن قديم . . فانقسمت الجموع الشعبية في آخر ٦٢م إلى جبهتين متحاربتين جمهورية ، ملكية . ولعبت الغالبية على الحبلين ، كما كانت تلعب أيام خروج (إمام) على (إمام) أو كما كانت تتلاعب بين (الإدريسي) المحتل وبين (الإمام يحيى) المستبد ، برغم الفروق امتد هذا إلى جماعات الستينات ، وكان يهمها امتداد مدة التلاعب . . وكانت هناك جماعة تجعل من الحاضر تتمة للماضي ، وامتداداً للمستقبل عندما تسكت النار أو تخفت ويمكن التحرك من خلالها ، وامتدت هذه الفترة من ٦٢م إلى ٦٧ . فكان انقلاب ٥ نوفمبر صفحة مختلفة اللون من سجل الموروث ، فكل سجناء الجمهورية الأولى ، وكل من فرّوا منها إلى أي مكان وكل من تجمدوا فيها ، هم ثوار نوفمبر ، بغض النظر عن أسباب سجنهم,وبدون سؤال إلى من التجؤوا ، وبدون تساؤل عن عوامل تجميدهم . . بل وبدون تفكير عما أحدث تجميدهم أو سجنهم أو فرارهم .

هل عطّل هذا كفاءات . . ؟ هل كان هذا العمل تعسفياً ؟

هل كان سببه زيادة استغلال ، أو محاولة زيادة استغلال ؟ .

إن السجن أو الجميد أو الفرار قد يصلح مقياساً ثورياً على البعض ، ولكنه لاينطبق على كل الناس إذ لايكون المرء ثائراً بمقياس واحد ، وإنما بجملة مقاييس عن جملة مواقف ثابتة متطورة في حدود فن الإمكان .

بعد الخامس من نوفمبر تبنّت الجمهورية الثانية كل مناوئي الجمهورية الأولى ، حتى ولو عن دافع غير وطني . . الجديد في شكل هذا الموروث هو التسميات والعناوين : متطرّف ، معتدل ، وطني متحمس ، وطني هادئ ، وكانت هذه امتداداً لمضمون الاتهامات الإمامية لمناوئيها : كناصبي كزنديق

كدستوري . . وبعد إعلان هذا الاتهام الجديد للقوى الوطنية دلّت لغة الاعتدال على غير مفهومها . . لأن الاعتدال فلسفياً هو نقطة الوسط بين التهور والشجاعة ، وليس هو التراجع عن أي مفهوم ، ولا هو الجبن على أي لغة ، والحماس هو عنصر النار في نفس الثائر ، لكن ليس هو مجرد رفع الصوت ، وإنما الاستماتة عن موقف وطني تمثل جمرية الصوت عطرية دخائله . . ومثل ذلك الهدوء . . هل هو عن امتلاء مستبصر ؟ أم عن فراغ من فراغ ؟ . كل هذا لم يكن مدار التساؤل والتفاهم ، وإنما كان عدو العهد الأول رجل العهد الثاني ، ولو كان عدو الذي جاء منه مجرد انتهازي يبحث عن مكان .

هناك أصبحت المناصب فرصة الفارّين ، والمناوئين ، بل ومحاربي الشعب . . وارتدى الموروث شكلاً معاصراً : الذات اليمنية ، الاتزان ، الاحتفاظ بالممكن ، حسن العلاقات مع الجيران .

وبعد هذه العناوين تواصل البحث عن ملء محتوياتها بالموروثات ، فتشكل في بداية السبعينات (الاتحاد اليمني) من خليط الوجوه ، ومن خليط المراحل السابقة . . وأدى الالتزام بهذه الشعارات والشكليات إلى تجميد البعض ، وسجن البعض ، وفرار آخرين . . ولكن الأسباب أصبحت معروفة ، كما أصبحت المناصب حكراً على مجموعة معينة ، تتناوب الصعود والنزول من فترة إلى أخرى ، كانحصار (الإمامة) في (العترة) وتقاتل (العترة) على الأولوية أو كحصر الإسرائليين النبوة في آل إسحاق وحرمان إخوته بدون مقياس بين أولاد إبراهيم . . وأرادت قمة تلك الفترة أن تركز على شرعية وعلى قواعد . . فعينت كل أعضاء المجلس الوطني في آخر الستينات . لكن لماذا التعيين لمجلس تشريعي ؟ ليس التعيين كله سيئاً ، لكن المسألة نوعيته . . فهناك ظروف تستدعي التعيين عن اختيار لتنفيذ أجود ، باعتبار أن التعيين عن فهم أجود للتنفيذ على حين الانتخابات أصدق على التمثيل ، ومن خلال أسماء

المعينين للمجلس الوطني تبرهن الدلائل على أنه مجرد استحداث مناصب وقبض مرتب آخر . . هذا هو الشكل الجديد للموروث في آخر الستينات وأول السبعينات . . وعندما تطور المجلس عكسياً أصبح مجلس شورى تشابه فيه الانتخاب بالتعيين ، لأن الإرهاب الذي سبق الانتخاب يقضي على كل الحرية وتمتلك السلطة كل الحرية . . فقد تساوى التعيين والانتخاب ، لأنه من وجهة تعيينية في الغالبية . ثم أعيد تشكيل (الاتحاد اليمني) ، وكادت عضويته تصل إلى حد الإجبار سنة ٧٢ .

هنا تبدت حركة ٤٨ في مطلع السبعينات بكل وجوهها وبكامل قديمها وقليل جديدها . . وكل الذي حدث هو اختلاف أسماء البيوت وأسامي بعض الوجوه ، وكان هذا (الاتحاد) كالذي امتد منه بلا برنامج ، وكان هناك خلط بين البرنامج العملي وبين الدستور . . كما اعتبر الأربعينيون (الميثاق) ورقة عمل . . وهناك فرق بين الدستور أو الميثاق الذي يحدد السلطات وينظم العلاقات ، وبين البرنامج الذي يربط بين الأهم والمهم وبين المراحل ، ويحدد مدة كل انجاز وبداية كل تحول إلى غيره . . ومن الضروري أن يكون البرنامج معلناً لكي يخضع للرقابة والحساب ، لقد كانت آخر الستينات وأول السبعينات امتداداً للموروث وتشكيل بعض سطوحه ، حتى انتهى ذلك العهد بحركة ١٣ يونيو ٧٤م كتصحيح لحركة تسمت تصحيحاً ، واستمر الموروث في الجمهورية الثالثة في أشكال أكثر حداثة ، وبين تراوح وقفز ، وبين توقف وتجاوز . . فأعلنت الحركة ، الانتماء إلى سبتمبر ، واعتمدت على غير أوراقه ، بدون تساؤل عن الأوراق المستهلكة ، وعن القابلة للحياة تحت ضوء جديد . . لكن هذه الحركة اعتمدت أساساً على الشباب ، وهذه فكرة عامة ، فليست المسألة مسألة سن ، وإنما مسألة خبرة قد تتوفر للشباب ، وقد تكون أوفر عند المُسنِّين المتفاعلين عن ثقافة مع التغييرات . . إلى جانب هذا امتدّ الموروث : فمناوئو

القمة السابقة أصدقاء القمة الجديدة في يونيو ، وتمادى هذا الموروث ، فأصبح كل عدو لقمة قديمة هو صديق القمة الجديدة ، بغض النظر عن دافع الولاء والعداوة ، وبغض النظر عن وطنية التبْني والرفض .

إن هذه الأخطاء الموروثة بتماديها ، تجعل كل الزمان يوماً واحداً وكل التغييرات تجري على مفهوم واحد .

إن الولاء الوطني عن ثقافة واستمرارية موقفية هو مقياس كل المقاييس ، وإن التحقيق الوطني من خلال المنصب ، هو أهم من الطموح والوصول والتشبث والنزول . . ولايمكن أن تحقق المناصب أهدافها إلا بالوسائل الجديدة المتصلة بجديد غاياتها .

إن ما كان ممكناً بالأمس أو مبرراً بالظروف ، يفقد موضوعيته بانتهاء زمنه .

إن التمادي في توارث الأخطاء وتشكيلها على اختلاف الأضواء ، يجعل من شعبنا لا يخرج من شيء ولايدخل في غيره . . وهذا لا يضمن مصالح المسؤولين ، ولايعوق طموح الشعب كحركة تتولد وسائلها ، وتتوالد منها غاياتها .

إن الولاء لفلان أو العداء لفلان ، لايصلحان مقياساً لتقييم الشخص ، وإنما أصح المقاييس هو الولاء للمبدأ العظيم الذي يكلف الصراع ، لأن شرعية الغايات ، نفس مشروعية وسائل الطموح .

* * *

موقف حسابي أمام الثمانينات

يقول بعض المتتبعين ، إن السؤال الأمريكي الملحّ كان في آخر الخمسينات : ماذا تعلم ؟

وفي آخر الستينات كان السؤال الأمريكي : ماهي أسباب ثورة الشباب ؟

وفي السبعينات كان السؤال الدائر على الشفاه الأمريكية : بأي دين تلتزم ؟

إنّ اختلاف الأسئلة من فترة إلى فترة ، يدل على قلق المهتمين ، وعلى أن القضايا أكبر من الحلول وعلى إمكانية الحلول .

وبناءً على هذا : فما هي أسئلتنا المحلية ؟

كان السؤال اليمني في مطلع الستينات ، وفي طفولة الثورة بالتحديد : كيف كنا ؟

وفي ٦٤ كانت تتمة السؤال : ومازلنا ؟

وفي ٦٦ كان السؤال : أين أصبحنا ؟

وفي آخر السبعينات كان السؤال : كيف تراجعنا ؟

وعلى امتداد السبعينات امتد سؤال واحد : ماذا حققنا ؟ فكيف نتصور سؤال الثمانينات !

استنتاجاً من الأسئلة ، فإن الثمانينات ستسأل : هل تغيرنا قبل أن تعصف بنا التغيرات ؟

ولكي نواجه الثمانينات بإجابة إيجابية ، نلتفت إلى مستهلّ الطريق ، لكي نحاسب أنفسنا من الداخل قبل أن يتحدّاها الخارج بالحساب الأشد ، ومما يطاوع على هذه المحاسبة ، هذا الامتداد الزمني من عام ٦٢ إلى ٨٠م ، فقد أصبحت الثورة ابنة ثمانية عشر عاماً ، فلو كانت امرأة لأصبحت أماً أو قابلة للأمومة ، ولو كانت رجلاً لأصبحت في سن الإنجاب ، لأن الزواج المبكر من عاداتنا ، غير أن هذا الزمن الثوري لايقاس بالعمر الأحادي البشري إلا من قبيل الاستئناس التقريبي ، لأن هذا الزمن عمر ملايين من أبناء الشعب ، فقد قُصفت أعمار شابة ، وأريقت دماء وعرق لتغذية هذه الشابة العجوز المدعوة الثورة .

إذن فقد أصبح للثورة تأريخ رقمي وتأريخ عملي وتأريخ دموي فعمرها الرقمي أطول من العمر السياسي للإمام (أحمد) و(البدر) بأربع سنوات ، فصار في إمكان هذه المدة الأطول أن تمسح آثار هذه المدة الأقصر . . أما التأريخ النفسي للثورة فهو سابق لميلادها بعشر سنوات على أقل تقدير ، لأن إمكانيات بزوغها توافرت من مطلع الخمسينات ، وتألفت هذه الإمكانية : من رفض القائم ، وتبني ماينبغي أن يقوم . .

وكانت الثورة هي الامتداد والانقطاع لعمر (الإمام) و(البدر) في الخلافة ، كانت امتداداً لذلك العهد ، لأنها جاءت منه ، وكانت انقطاعاً عنه لأنها ردّ فعل عليه . . ولم تنفرد ثورتنا بهذه الخصوصية ، فكل الثورات جاءت من فساد لكي تتجاوزه وتتجاوز آثاره ، جاءت الثورة الفرنسية من عهد الملكية اللاهية ، وجاءت الثوررة الروسية من القيصرية المتداعية ، وتمخضت الثورة الأمريكية من ركام الاحتلال الإنجليزي ، وتفجر العلم الثالث من تحت الوطأة الاستعمارية بمختلف أسمائها .

كل الثورات ولدت من نقيضها ، كما تجيء النبوءات من الجاهليات ،

وعلى تقارب الينابيع ، فإن لكل ثورة سماتها ، لاختلاف مأتاها وتأثره على الآتي ونوع رده عليه .

لكن فكرية الثورات كلها تسبق العمل الثوري ، لكي تصبح الأفكار الأداة النظرية للقوات المسلحة ، وتصبح القوات المسلحة الأداة المادية للأفكار النظرية ، وذلك بفضل التحالف بين المفكرين الثوريين وبين القطاعات النقية من الجيوش .

ولاشك أن الثقافة الإمامية كانت أشحّ من أن تُكَوّن فكرية تصبح أداة أو أن تشكّل أداة تهتدي بالنظريات ، لكن هذا الشحّ لم يمنع من اقتحام أفكار وامتلاك أدوات عمل ، لأن محاولة الثورة عمل فكري على حجم القوة التي ستقتلعها القوة الثائرة ، فقد قابل شحّ الثقافة الشعبية تداعي الثقافة الإمامية ، وكان لثقافة الثورة - على صغر حجمها - نضارة الحداثة ، وكان سلاح الثورة هو المستقبلية ، وكان سلاح الإمامة هو الماضوية ، والمستقبل آت بالحتمية والماضي غير قابل للرجوع ، في شكله القديم .

لهذا كانت الفكرة الزمنية أمضى أسلحة الثورة يرفدها جديد الثقافات على ضآلة عطائها وإصرار العنصر الإنساني على التجاوز . . عندما تبرجت الثورة لشمس سبتمبر ٦٢م تبدّى الثوار في مستوى المسؤولية العظيمة ، فحشدوا كل المثقفين من كل مستوى ليتحملوا مسؤولية الحكم . . فشكلوا قيادة ثورية من أنقى العناصر المعروفة في الداخل والخارج . . هناك انتهى عهد الإمام ، وانتقل الثوار من المنافي والسجون والمخابئ إلى قمة السلطة .

هنا تكاثفت عدة ظواهر : اعتبر البعض نهاية (الإمام) بداية لهم لكونهم أطول صراعاً للعهد الإمامي ، ورأى البعض نهاية العهد المتوكلي ميلاد اليمن الجمهوري الذي صنعوه ، وتصور البعض لون الجمهورية ، وحاول البعض أن

تولد الجمهورية حاملة هويتها الخاصة .

كل هذه علامة صحة ، لأن اختلاف الثوار الدليل على غنى فكريتهم وعلى تعدد الرؤى بتعدد الأفكار ، فقد نشب الاختلاف بين الثوار في أكثر من مكان . إذن فأين تكمن المشكلة ؟

تكمن في توازي الاتجاهات وعدم تفوّق جانب على جانب عدداً وموقعاً ، مما يدل على تشابه النظريات واختلاف غاياتها ، حتى وصلت الاختلافات إلى شبه صراع طائفي أو جغرافي وانعدام قاسم مشترك ، إلا أن أنفاس الشعب كانت أقوى من كل العواصف . لكن كيف كان يتصور الشعب الثورة ؟

لقد كان يراها شيئاً مختلفاً عن العهد البائد كلياً ، وكأن الثورة نبات يومها ولا تربطها وشيجة بزمن رجالها الذين نشؤوا تحت الظل الملكي . . إن هذا تصور مشروع - رغم طيبته - وقد كان الثوار أو بعضهم أقرب إلى الشعب ، كان الثائر الذي يركب سيارة في أول عهد الثورة يحمّلها كل من يجد على الطريق معلناً : أن هذا الحق قد انتقل إلى الشعب الجمهوري ، لكن هذا لم يكن إلا شعور الجماهير وبعض الثوار ، وكان بصورة عكسية شعور وزراء الثورة .

لقد اختار الثوار خير من يعرفون من المثقفين السياسيين كوزراء ، غير أن هؤلاء الوزراء تصوروا الثورة إنهاء للإمامة بدون شعور بتجاوز تأثيراتها ، فحاول كل وزير أن يحمي مقعده الوزاري بإرضاء أكبر مجموعة من موظفيه ومن غيرهم كقاعدة شعبية قد توصل إلى مقعد أعلى ، غير أن كل هذا الاسترضاء لم يرض كل الناس لأن غايته الكسب الشخصي لا النفع العام ، فظل التساؤل والتذمر يشغل الشوارع والمقاهي ومجالس القات !!

وبالتالي تحول تذمر الشعب إلى سوء ظن ببعض الوزراء لامتزاجهم من خليط متنافر من عدة اتجاهات ومن عدة حرف : فقد التقى التاجر إلى جانب

الضابط ، والمثقف المعاصر إلى جانب حامل العمامة ، هذا في مقاعد الوزارات ، ومثلها المجالس والمكاتب كالمكتب السياسي الذي تبدّى أعلى سلطة : فقد تلاقى فيه الضابط والشيخ ، والجمهوري ونصف الملكي ، والمثقف والأمي .

بهذا تعتم الجو أمام المسؤول والسؤال ، لغياب الناظم المشترك بين شتى المراتب ، فتصرف كل مسؤول كإمام جمهوري : مثال على هذا كان وزير كذا يبيع ماحول وزارته من البساتين والمساحات الخالية قابضاً الثمن إلى جيبه الخاص أو مودعاً إياه البنكِ باسمه الشخصي لا باسم وزارته ، حتى البنك الوليد عندما أراد عمارة ملحقات اشترى من إدارة تقع جواره وقبض المدير الثمن دون أن يحسب هذا للحكومة ، وتمادت هذه الفوضى في سباق متصل ، وباتساع العمران اشترت كل وزارة من وزارة ، وباعت وزارة لأخرى ، ومن كانت أرضه أوسع فرصيده أعلى وكان من المعتاد في الحي الراقي أن يتبع الدار بستان ومدخل له ممر طويل إلى باب الدار لأن هذا الحي الذي يسمى (بئر العزب) كان متباعد البيوت لحداثة عهده بالإعمار ، فلم يقم في ذلك السهل العمران إلا في آخر القرن التاسع عشرِ ، ثم ورث العهد الإمامي تلك الدور وحوّلها إلى وزارات وإدارات ببساتينها ، ثم تلاحق الإعمار من أول القرن العشرين إلى أن اتصلت منطقة (بئر العزب) بحي اليهود ، الذي يجب فصله عن أحياء المسلمين بميلين ، نتيجة لتباعد الدور تكاثرت البساتين التي أصبحت عمارات من ٦٢ إلى الآن أول التسعينات ، فتشكلت إدارة الأملاك الحكومية لكي تحدّ من هذه الأطماع ، ولكنها خضعت لأصحاب النفوذ وللعلاقات الشخصية مع الوزراء ، كأن كل وزارة قطاع خاص للوزير يقبض ثمن المبيعات مباشرة أو عن طريق الشؤون المالية أو قسم المبيعات ، إلى جانب هذا كانت البلدية تبيع لحساب مسؤوليتها بلا تخطيط ، ومثلها أو أكثر فوضى وزارة الأوقاف ، فامتلك القادرون

أوسع المساحات وأضخم المبالغ ، دون أن يصل الفقراء إلى سد الضرورة المعيشية والسكنية .

إذن لم تشكل الثورة جهازاً إدارياً ، وإنما شكلت أشلاء معلقة على مشاجب جديدة ، وكانت تنكشف هذه الانتهازيات كلّ يوم للجماهير المضحية عن حاجة إلى التغيير ، غير أن دخان الحرب كانت تغطي وجوه النفعيات البشعة وتشغل الثوار عن التساؤل في اختيارهم لتلك العناصر ، وعن نقص معرفتهم بها قبل الاستيزار ، وكان بعض المسؤولين يرفضون هذا التصرف ، ولكنهم كانوا يؤثرون تآلف القلوب على إلحاق العقوبات ، نظراً للأحوال الحربية ، على أساس أن الجمهورية تواجه من العداوات ما فيه الكفاية ، فقد يلجأ الوزير المعزول إلى الجبهة المعادية للشعب .

لهذا ازدهر الاستغلال في مئات الأشكال والصور لغياب العقاب والتسيير المنظم ، ذلك لأن حاسة الضمير لا تتوفر إلا لأقل الأنقياء ، ولقد كان هذا الاستغلال يمارس نشاطه والبؤس الاقتصادي يسفر عن وجهه في كل ملمح ، فصغار الموظفين ينتظرون المرتب قرابة أربعين يوماً ، فقد اختفت النقود (ماري تريزا) تحت مبرر إبدال العملة . . وبعد ظهور الريالات الفضية الجديدة بشهور ظهرت العملة الورقية .

هنا انتبه الرأي العام متسائلاً عن النقود الفضية كم كانت وكيف صرفت وأين اختفت ؟

قيل : إن الثورة ورثت أربع مئة مليون ريال فضي كانت مخزونة في صنعاء وتَعِزّ وحجة إلى جانب عدد من صناديق الذهب . فأين ذهبت تلك الملايين وتلك الصناديق الذهبية ؟ كان التساؤل يشكل اتهاماً مصوباً إلى الذين دخلوا القصور لافتتاحها أو لحصر مقتنياتها .

صحيح أن الحكومة رفعت المرتبات لبلد يريد أن يحول الأموال إلى مشاريع ، وكانت هذه الزيادات من نوع بيع أراضي الوزارات والبلديات تقصد الترضية وإسكات الاحتجاجات ، فقد شُكِّلت الإدارات والأقسام بدون معرفة كفاءة وبدون عملية إدارية ، كانت بعض الإدارات تتكوّن من أربعة موظفين ومدير ، وكان أحياناً يتكون القسم من رئيس بلا رعايا وكان القصد من كل هذا قانونية رفع المرتب ولتغطية انتفاع بعض الوزراء ، كل هذا أدى إلى انهيار الاقتصاد اليمني عند شدّة احتياجه إلى الإمكانيات المادية للتغيير وللحرب الدفاعية .

هل تصور مسؤولو تلك الفترة مشاريع زراعية للريف أو مشاريع صناعية للمدينة ؟ وبالأخص إذا عرفنا أن المناطق المنتجة كانت خارج دائرة الحرب ! . . غير أن الحرب أصبحت مبرراً لغياب فكرية المشاريع ، كما تحولت إلى ذريعة للكسب الشخصي عند الرؤوس العالية في المكاتب والمواقع الحربية ، وامتدت هذه الظواهر السيئة دون أن يؤثر عليها تحويل وزير إلى سفير وتغيير سفير إلى وزير أو تحويل المحافظ إلى وزير ونقل الوزير إلى محافظ ، ومن المؤسف أن أغلب هؤلاء الوصوليين ينتمون إلى رفض العهد الإمامي وإلى رصيد الحركات الوطنية .

إذن فقد كانت الحرب الثورية تعاني الخيانة من الداخل عن قصد أو غير قصد ، وعن اعتماد على العون الناصري عند أحسن السيئين .

مثلما كان يحدث في كراسي الحكومة ، كان يحدث في المواقع القتالية :

استزادة الميزانية ، سوء القيادة حتى تنتفض المنطقة ، افتعال الأحداث ، تقبل التهم عن أغراض قبلية ، كان يتجذر كل هذا في تربة الثورة ، وهي في ربيع نموها . . وكانت التبريرات تُحمّل العهد الإمامي أعباء المسؤولية وكانت

مقولات الستينات : (كل هذا من رواسب الماضي) لكن لو كان الماضي راسباً ما تمخضت عنه ثورة . فهل السائل من لون الإناء ؟

أما تشكّلت الثورة عن تصورات مسبقة للعهد الجديد وبنائه على أنقى الأسس أو تأسيسه على أرض أكثر صلابة !

لقد رفعت الثورة أهدافها الستة ، ولم يتبعها تفسير فكري تنبثق عنه لوائح إدارية وناظم مشترك للتسيير .

فلماذا لم تنفذ تلك الأهداف ممارسة ؟

لابد أن الأفكار التي ألّفت الأهداف ترعرعت في مناخ الخمسينات ، وغاب عن حسابها احتمال الستينات ، وقاست نجاحها بمقياس نجاح الآخرين دون أن تفكر باختلاف شعبنا عن سواه .

لقد مارس غيرنا من الشعوب أساليب الحكم والتنظيم في أشكال متعددة ، ورغم شكلية الديمقراطيات فقد امتدت التجارب بعضها من بعض .

نلاحظ مثلاً القرن التاسع عشر : كان عندنا (محمد بن علي الشوكاني) وكان في مصر (رفاعة الطهطاوي) كانت غاية الشوكاني تجاوز المذاهب الخمسة والرجوع إلى الكتاب والسنّة ، وكانت غاية الطهطاوي مواكبة الإسلام للديمقراطيات الفرنسية ، ولتعليم البنات وتوظيف المرأة ولها بعد تجارب الوظيفة أن تسفر أو أن تتحجّب ، كما في كتابيه : المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين ، الابريز في تلخيص باريز . شكل الشوكاني مذهب السنّة الحرفية ، وكون الطهطاوي أساس المعاصرة .

فما أبعد المسافة بين المصلح الديني والمنظِّر السياسي من قاعدة دينية !

تلى رفاعة الطهطاوي جمال الدين ومحمد عبده ، ومدّ طريقة الشوكاني

بعد مئة عام (أحمد عبد الوهاب الوريث) .

فتح الشوكاني باب الاجتهاد الفقهي ، وحاول الوريث تأسيس الإصلاح الوطني على هدى الدين . . ولعل هذه المسافة بين الشوكاني والوريث برهان القحط في خليفة (الوريث) الذي تأخرت دعوته الإصلاحية إلى آخر الثلاثينات زمن الثورات المتجاوزة للإصلاح إلى ثورة الجماهير .

وكان ثوار ٤٨ ينتمون إلى السُنّة الشوكانية ويجمعون بين السنيّة والوطنية ، حتى أطروحات الأربعينات والخمسينات المكتوبة بقلم الزبيري ونعمان ، كانت أقل طموحاً من كتابة (علي عبد الرزاق) عام ٢٥م .

في سوريا تكّون حزب البعث العربي الاشتراكي في فترة تكوين حزب الأحرار في بلادنا عام ٤٤م ، وما أبعد الفرق بين الطموحات التي طرحها التنظيمان ! .

إلى جانب هذا فإن كل التنظيمات في الشعوب الأخرى مارست علنياً نشاطها فنجحت وانتكست في عدة تجارب .

في بلادنا نشأت التنظيمات الجديدة من أول الخمسينات في الجنوب ، ومن آخر الخمسينات في الشمال ، ولم يصدر أي كتاب عن فلسفة أي تنظيم مثل كتاب (في سبيل البعث) لميشيل عفلق أو مثل (المنبر الذي اخترناه) لجورج حنا .

لهذا جاءت الثورة حاملة المدفع ومعتمدة على مثقفين لم تعلن كتاباتهم فلسفة منهجية ، فكانوا بعد الثورة كما كانوا قبل الثورة يتلمسون أسهل الحلول . يقول الأستاذ علي محمد عبده في كتابه (مسار الحركة الوطنية) : « إن قادة الاتحاد اليمني بالقاهرة كانوا مؤيدين للحسن بن علي عندما يصبح بديلاً لعمه (الإمام أحمد) على أن ينفذ مطالبهم الدستورية » .

وإلى جانب مؤيدي (الحسن بن علي) كان من رجال الاتحاد من يؤيد (البدر) ضد أبيه وعمه (الحسن) أكبر المنازغين له على السلطة .

ونتيجة لهذا تبنى الشباب من كل التنظيمات : (الجمهورية) كوريث شرعي شعبي (للملكية) بمعتدليها ومتطوريها ، لأن الذين ارتدوا التطورية من الملكيين حاولوا ركوب الموجة .

من هذا المناخ جاءت الثورة قبل نضوج أفكار وبعد شيخوخة أفكار ، فحلت الوصولية الشخصية ، أو تعتيم الرؤية محل تجذي المناخ الثوري ، فكان الانتقام من الفقر الذاتي بديلاً عن إنشاء رخاء الشعب عند أغلب القيادات السياسية والعسكرية ، بيد أن الإخلاص للجمهورية أصبح ظاهرة شعبية بدون إلماح إلى الكيفية للنظام الجمهوري ، وغطت مداخن الحرب مجال الرؤية من آخر ٦٢ إلى نهاية ٦٩ وحلت المداراة محل المواقف الشعبية الواضحة على امتداد هذه السنين الحاسمة ، وهذا ما أدى إلى غياب التحول الجذري الذي يطالب به الشعب ويضحي من أجله في كل موقع .

فهل العهد الماضي مسؤول ؟

نفترض جدلاً أنه كان مسؤولاً من جانب أحادي ولكن في السنوات الأولى للثورة ، ولعل رمي المسؤولية على هذا الجانب قد برّر الثورة المضادة نوفمبر ٦٧ . فماذا تغير بعد أن أسست هذه الفترة جذور الآنية والانتهازية ؟ تكاثرت المراكز والركائز ، ولم تختلف إلا بعض الوجوه والأسامي ، لزيادة الانفاق على المراكز وركائزها ، وانتشرت الرشوة وأصبحت المدخولات الشخصية بالملايين ومن عشرات الطرق ، وعندما انتهى عقد الستينات كانت لكل وزارة اتصالاتها بأكثر من جهة ، حتى المصالح والنوادي أصبحت لها مساعداتها الخارجية ، وبزيادة الدخول الواردة تزايد التضخم ، وأصبحت بعض المحافظات دويلات

مستقلة أو قطاعاً خاصاً للمحافظ (الشيخ فلان) غير أن الشعب لم يستكن ، لأن أعمدة الجمهورية الثانية وأتباع (الملكية) قد تواجدوا في جبهة واحدة ضد جيش الثورة وشعب الثورة ، ولأن الشعب جيش بالاستعداد والممارسة حل الغزو الإلهائي بكل أشكاله الرأسمالية محل القتال الدموي ، فسقط القابلون للسقوط ، غير أن الشعب لم يخفض له جبيناً ، لأن ثورته الجماعية حصّنته من هجمات المغريات في شكل : سيارات وشيكات وعمارات وسفرات ترفيهية .

هنا تنبّه الطامحون في القيادة إلى مشروع تصحيحي تسمى (مشروع القوات المسلحة للتصحيح المالي والإداري) وأعلن ذلك المشروع عام ٧٢ عن موافقة المجلس الجمهوري وكان هذا أول مبرر لحركة جديدة ، وجاءت حركة يونيو ٧٤ تتبنى السبتمبرية وتعلن : تنفيذ مشروع التصحيح الإداري والمالي ، وبعد شهور أعلنت إنهاء كل ولاء لغير اليمن وتبنّي الولاء الوطني بدلاً من تعدد الولاءات عن طريق الحزبية التي سادت أكثر الستينات وأول السبعينات ، وانتقلت الحركة إلى خطوة ثالثة : تشكيل لجان التصحيح ، غير أن أغلب الوجوه ظلت في مراكزها من أول الستينات وإلى الآن عند كتابة هذا ، فقد كانت تسقط القمة وقل من يستقيل مكرهاً من وزارة ، أما بعض النواب والوكلاء وبعض رؤساء المصالح فقد ينتقلون ولا يستقيلون ، مع أن الوكالة والنيابة في بلادنا منصب سياسي عن قرار ، وليس منصباً إدارياً عن تدرج وظيفي أكسب الكفاءة .

كان لتشكيل التصحيح وجهان : الوجه الظاهري تصحيحي ، والوجه الباطني تنظيمي كقاعدة للجمهورية الثالثة .

غير أن التصحيح على هذا الشكل أعجز من أن يصحح ، لأن رتبة الاستغلال والتلاعب فوق رتبة التصحيح بمسافات وأقوى مواقعاً في بعض الجهات . .

فهل يمكن أن يتم التصحيح عن طريق اللجان بوجهيها ؟

من المجرب أن أنجح طريق ، اقتلاع المستغلين الفوقيين .

ولماذا لانختار الصحيح بديلاً عن التصحيح ؟

إن اختيار الأصحاء أجدى للمهمة الوطنية من تشكيل لجان تصحيح ، وبالأخص أن التعيين يتم بقرار رئاسي ، والقرار التعييني عن مسؤولية يختار أجود المنفذين ، إن اختيار الأصحاء يغني عن التصحيح بل يغني عن الفساد الذي يستدعي التصحيح ، لكي تعمل تلك اللجان في ميادين أخرى بما عندها من أفكار تصحيحية ، لأن الإثمار في أي موقع يؤثّر بالعدوى على سائر المواقع وإن كانت عدوى الفساد أسرع .

فماذا حققت السبعينات ؟

إن الاختلاف والامتداد في الوجوه لم يأت عن حسن اختيار للأنقى والإيجابي ، فاتسمت السبعينات باختلاف شكل الاستغلال لانوعه ، وبزيادة المبالغ الفردية بديلاً عن توظيفها جماعياً .

ومن يرى مكاتبنا على اختلاف درجاتها ومبانيها تصعقه الدهشة من هذه الفخامات في دوائر شعب يعرق في بلاد الآخرين ويذبل في دياره .

لماذا لاتحل البساطة والنظافة محل الفخامات المكتبية ؟

هل تستر الفخامات المكتبية وجوه الإفلاس من الكفاءات ؟

قد يكون من اللائق بعض الفخامات لمكتب الوزير كمظهر أمام الزوار ، لكن الفخامة تعممت رغم ارتفاع أسعارها المتصاعدة ، ورغم انتزاع تكاليفها من أفواه الشعب الفقير ، وإذا كانت هذه التكاليف الخرافية من الصدقات النفطية فإنها على حساب الأرض والعرض قال مسؤول إماراتي : « هذه هي التغطية

الثالثة لمشروع توسيع الكهرباء في اليمن ، لأن الوزير الأول لايبقي من المساعدة مايمكن الوزير الثاني من الإنفاق على المشروع ، ولكن بحمد الله الخير وفير » ، تعممت الفخامة العالية الأثمان من مكتب الوزير إلى مكتب مديره إلى مكاتب الوكلاء والنواب والمستشارين والخبراء والمديرين .. حتى أصبحت الإدارة الصغيرة أكثر أثاثاً من إحدى حجرات البيت الأبيض ، ومن العجيب أن هذه الكماليات الفارغة مرصودة لحساب كل عام وعلى سباق مع موضات الديكور المختلفة الأشكال ، ومن المؤسف أن هذه الزوائد اللماعة على حساب الضروريات في بعض الوزارات والمصالح كالمراحيض والماء ومن يدخل وزارة العدل لايدري هل هو في حرم الشريعة أم أنه في فندق (شيراتون) لأنها مفروشة من أسفلها إلى أعلاها أمام الكادحين الذين يقضون العمر في البحث عن حل قضاياهم بدون رشوة أو بها ، إذا جازت فخامة الديكور ، فهل يجوز تعليق القضايا على أرقام المبالغ ؟

إن دخول السبعينات تبحث عن رقم فوق الأرقام المعروفة لكثرتها ، ولكن أين تذهب هذه الأموال ؟

في سباق موضة الديكورات واللهاث عن أحدث موديلات السيارات ، في بناء أحدث الشقق وآخر طراز الاستراحات ، بالإضافة إلى هذا تفرع من كل وزارة وزارات باسم إدارات ألوية ومؤسسات متعددة الأسماء .. على حين الملايين من شعبنا يذويون فوق رمال الصحارى النارية وتحت أمطار إفريقيّة وشمسها ، وعلى حين المئات من أطفالنا في بعض المناطق لايجدون مدرسة ، ومن يلاحظ الشوارع صبيحة كل يوم يرى الأطفال ملء الشوارع : إما لانعدام المدارس ، أو لانعدام كفاءتها التربوية والتعليمية .

أليست فخامة المباني والمكاتب والسيارات وتعدد المؤسسات المبهرجة تدل على الاهتمام بالسطوح دون أرضية الجذور وعلى الاهتمام بالكماليات بدلاً

عن الضروريات من مستشفيات ومستوصفات ومياه نقية ومنازل صحية ؟

مثل هذه الفخامات المكتبية كثرة السيولة النقدية في أيدي القلة لكي يزداد التضخم وتصبح السلعة أقل من طلب المترفين وأبعد عن تناول الغالبية .

هذه الظواهر السيئة المتلاحقة ، نمت مع قامة الثورة وتحولت فصول نموها من فاسد إلى أفسد ، حتى أصبحت أثقل الأعباء على كتف الثورة الناهد في عامها الثامن عشر .

فهل كانت الثورة هي المسؤولة ؟ أم الثوار هم المسؤولون ؟ أم المناخ هو المسؤول ؟ لايمكن الفصل بين الثورة والثوار والمناخ العام .

إن الشعب اليوم يصرّ على تفجير الثورة على النفس ، وها نحن نواجه الثمانينات بحساب النفس وإرادة التقشف ، لكي تشهد الثمانينات أننا تغيرنا من الداخل قبل أن تغيرنا غضبة الخارج ، لأن من يغير نفسه ومحيطه عن اختيار مسؤول ، لايتكسّر أمام تغير الخارج عن اضطرار المستسلم .

* * *

قضايا على بساط القلب

يقال إن الإنسان عالمٌ في حجم شخص .. لأن كل واحد من الناس موصول بكل الناس لاشتراكه معهم في المنافع العامة ... والمضارّ العامة ... إذ لا يضمن المصالح الخاصة إلا التضامن العام للشعب ، لذلك أصبحت الهموم الاجتماعية خاصة لأنها عامة ... أو عامة لأن لها اختصاصاً بكل قلب يهتم ... وبكل تفكير يبحث عن تحويل الهموم إلى أفكار ... ثم تحويل الأفكار إلى بدائع عملية يطلق عليها علمياً (الإبداع العام) ، لأن كلّ ما يدور في الرأس من أفكار نشأ في القلوب خفقاً لكي يصعد إلى الرؤوس تفكيراً ... ثم إلى الوجود إبداعاً ... فلم يكن (سد مأرب) مثلاً مجرد بناء لاختزان المياه وإنما تحول من اعتلاج في الصدور إلى أفكار في الأدمغة ... ثم انتقل من بساط القلب إلى بساط البحث ... ثم من جلسات التداول والتأجيل إلى حقيقة تحت الشمس ... فالقلوب التي تشعر هي قاعدة الأدمغة التي تفلسف ... ثم تمتد الجسور بين الأفكار وواقع الإبداع ... ولعل أكبر القلوب هماً هي أكثرها اهتماماً بالغير ، ويحسّ المسؤولية عن الغير ، لأن هذا الاتصال بالغير يخلط الذات بذوات موضوعها فتتحقق في شكل ما تحقق خارجياً .

ومن هذا المنطلق تراكضت الأفكار كالينابيع في شكل إبداعات عظيمة ... ولعل الثورات المتلاحقة كانت بدافع الحس عن الغير وحقوق هذا الغير أو ادعاء حقوق هذا الغير على الأقل ...

إذن لابد من التنادي بين هموم العظماء ونوازع كل الناس .

كانت النبوءات استجابة للظروف التغييرية ، لكي يتحول الكشف إلى اعتقاد تغييري لأن الحق والخير والنفع العام سبقت وجود النبوءات والتنبؤات وإنما كان للنبوءات والتنبؤات فضل سبق الرؤية إليها... والدلالات عليها . . . ولاشك أن أمام كل تحقيق عام ركاماً من الصعوبات . . . وكل هذه الصعوبات سبب في مزيد اختبار الإنسان واقتداره على التجاوز . . . إذ الإنسان مجبول على تجاوز نفسه والرحيل من اقتداره الشخصي إلى الاقتدار العام ، لكي يتجلى اقتداره بسواه وفي سواه . . . ولأن تحقيق الأعم نفعاً يستدعي التآزر على انقياده إلى جماعية الغايات ، عبَّرت القيادات عن هموم الشعوب ، وثبت منذ القدم أن الأكثر هماً هو الأكثر نفعاً . . . وأن الانتفاع من القيادة هو وجودها المضيء لكل العيون ولكل السائرين . . . لأن الأضواء لم تخلق لنفسها وإنما لغيرها . . . لهذا توالت الانتفاضات على توالي العصور بحثاً عن الأنفع للجميع والأضمن لمصالح الغالبية . . . وكانت أغلب الانتفاضات عائلية أو فئوية لتميز تلك العائلة أوتلك الفئة بمكانة أعلى أو نظر أبعد أو تحريك أوسع . . . وكانت تقابل تلك العائلات أو الفئات عائلات وفئات إما ممتدة من نفس الفصيلة أو معاكسة لها من أشباهها وأمثالها . . . وظلت الشعوب تبعاً لكل صائح لتوقها إلى الخروج ، بغض النظر عن مطلِق الصيحة ذلك لأن العالم تحرك وتغير . . . غير أن التحرك لذاته لايستهدف نفعاً . . . كما أن التغير قد ينحصر في مصالح قلة . . . أو يتغير إلى الأفضل أو الأسوأ . . . كل هذا كان عمل التأريخ لأنه عمل الإنسان . . . غير أن الناس لم يكونوا أتباع كل ناعق – كما قيل – إلا بفعل اشتياقهم إلى ما يترتب على النعيق باعتبار الصيحة لغة الإرادة الناطقة . . . لهذا كانت الثورات الشعبية في عصرنا أعرض الصيحات لأنها هتاف كل الحناجر وهمّ كل القلوب . . . ولعل ثورتنا لا تخرج عن هذا المفهوم العام . . . فقد كانت أعلى الصيحات لانتقالها من كل خفقات القلوب إلى تعبير الفعل . . . غير أن هذه الخفقات

كانت مختلفة الجيشان على واحدية لغتها الثورة . لكن الثورة لمن ؟ وبمن ؟ وعلى من ؟ . . .

لقد اتفقت كل الخفقات القلبية والإرادات الفعلية : على من ؟! . . . على الطغيان . . . واتفقت بمن ؟ بالشعب . . . واتفقت لمن ؟ . . . للشعب أيضاً . . .

ومن هذا الاتفاق القلبي والفكري والعملي توالد الاختلاف النظري .

هل الثورات على الطغيان مضطرة إلى الطغيان . . .؟؟ لأنها قامت على طغيان مسلّح فلابد لها من طغيان يحميها من مخلفات الطغيان ومن تكالب المؤامرات . . . وهذه غاية شعبية على أساس أن طغيان الثورة قتال ضد القتال أو طغيان ضد آثار الطغيان . . .

من هنا كانت مشروعية الطغيان كحرب في وجه . . . حرب . . . أو كسلاح يقارع سلاحاً . . . لأن الحق الأعزل لايثبت أمام الباطل المسلح . . . ولعل طغيان الثورة ممتد من طغيان الخارجين عليها .

فهل طغيان الثورة شعبي . . .؟! إذا فقد شعبيته فسوف يلحق بالطغيان الذي أنهته الثورة . . . لأن الثورة بالشعب . . . لكن من هو الشعب . . .؟؟

إنه القوة التي اقتلعت الطغيان أو كانت ضحيته . . . أو كان ضعفها أحد أسبابه . . . عندما تملك الثورة أسباب قوتها تتصف من قبل أعدائها بطغيان جاء من طغيان . . . ويتباكى هؤلاء الأعداء . . . عل الحرية وعلى الديمقراطية . . . وعلى الجماليات التي ازدان بها العهد المنقرض . . . لكن لمن كانت حرية العهد المنقرض ؟ لقد كانت محصورة في السلطة وحدها . . . ولم يكن حظ الشعب غير القهر . ولمن كانت ديمقراطية العهد المنقرض ؟ لقد كانت مِلكية خاصة لأعمدة السلطة ولثمرات وضعها . . . ولم يكن للشعب من الحرية والديمقراطية

إلا فتات الآراء الجانبية . . . أما الجماليات فقد كانت ترفاً خاصاً للقصور ولا نصيب للشعب سوى جمال الطبيعة التي تعجز كل سلطة عن احتجانها لنفسها . . .

إن أهم ما يشهر أعداء الثورات من السلاح هو النواح على الحرية . . . ولكن حرية من ؟ إنها حريتهم وحدهم التي لا تنتعش إلا باستعباد الشعب : تارة باسم الحرية ، تارة باسم التطرّف ، حيناً باسم تعويق الممكن .

إذن لابد للثورة من طغيان ولكن لمصارعة الطغيان لكي ينطلق الشعب . . . ولكن من هو الشعب . . .؟ إنه كل الناس الذين ثاروا أو الذين علمتهم الثورة أن لهم حق الحياة الحرة والسيادة على الوجود ، لأن الثورة قامت بالشعب أو باسمه فهي له على كل حال . . . ولا ينبغي أن تكون الثورة بكل قواها إلا بالشعب ومنه وله . . . وتلك هي الحرية المشروعة للطغيان المشروع . . . أو القوة الشرعية بمعنى أصح . . .

ولاشك أن كل السلطات في اليمن الجمهوري منذ قيام الثورة تبذل أقصى الجهود في الثورة بالشعب وللشعب . . . وللانطلاق من الشعب إليه . . . ولكن هناك فروقاً بين النوايا وتحقيقها . . . وبين الشعب والشعب . . . لأن كل من يريد الوصولية يلبس لها عباءة الشعب . . . وكل من يحمل الهراوة ضد الشعب يرتدي اسم الشعب لأن الشعب أصبح حقيقة الحقائق . . . باعتبار الثورة تصاعدت منه وبه وعلى تبريكاته ونداءاته . . . فلا يمكن أن تتحقق النفعيات على حسابه إلا باسمه . . . أو باسم أفراد تدّعي تمثيله . . . وإذا لاحظنا الخطوات المتعاقبة فسنجد عدة مسؤوليات لم تؤدّ مسؤولياتها لسبب واحد :

لعدم تفريقها بين الفئات وبين الملايين ، وبين الشعب والمحسوبين عليه وعدم التمييز بين الأهم والمهم ، أو بين الكمالي والضروري . . . فهل الشعب

أو بعض أفراده مشتركون في حمل هذه المسؤولية . . . ؟

إن التفاوت في حمل المسؤولية على حسب مواقعها . . . وإذا كانت الثورة مضطرة إلى القوة لمجابهة القوة فإنها أكثر اضطراراً إلى الكوادر التي يترتب عليها مشروعية القوة وشعبية غاياتها . . . وفي إمكان وقفة عند الكوادر أن تثير التساؤل .

إن كل الشعوب ترتب خطواتها إلى الأمام على عدد المتخصصين والخريجين من كل تخصص كما فعلت اليابان مثلاً . . . فما مدى جدوى هذا في بلادنا . . . ؟

لقد كانت بلادنا في ثلاثينات هذا القرن ترسل البعوث وتستوفدها ولكن بشكل محدود في العقد الرابع وبدء الخامس . . . أما من منتصف العقد الخامس إلى آخر السادس فقد تزايدت الإرساليات إلى الخارج ولكن من منظور طبقي ، لأن العهد البائد حاول دعم انهياره بأنفاس جديدة من خبرة العصر والملمين باختباره . . . غير أنه أراد أن يطبع الناس بطابعه . . . فقد تخرجت في الخمسينات جماعات في عدة تخصصات . . .

والتحقت جماعات بعدة معاهد وكليات ودورات . . . ولم تتمخض عن هذا نتيجة مرضية لفساد السلطة ولازدياد فسادها لمطلقيتها . . .

وكان غياب الجدوى من الإيفاد والبعثات مردوداً لسيطرة السلطة المطلقة . . . وكان من الممكن أن يتغير هذا جذرياً بإشراق الثورة كعهد مغاير تحت نظام مغاير . . . وفي جو أكثر مغايرة . لقد أثبتت أحداث الثورة تحمّس خريجي الخمسينات وأوائل الستينات للعهد الوليد : فهل كان ذلك بعدوى الحماس الشعبي ؟. أم كان عن نظرية ثورية ؟.

اختلف المنظور باختلاف النظريين نتيجة تمادي العدوان وإصرار دفاعنا

الشعبي على النصر . . .

من هنا تعدّد الشعب أو تعدّدت الدعاوى باسم الشعب . . . فقد أراد كل فريق شكلاً معيناً من الحكم . . . أو أراد أن يجعل قالب ذلك الشكل كما يرى . . . غير أن هذا لم يشكل مانعاً من الثورة بالشعب ، لكي يملك الاختبار والاختيار الثوري من الشعب لكي يتجذر الوضع . . . ويمتلك واقعية جِدَّته من تسارع واقعه . . . والثورة للشعب لكي يحقق الشعب منافعه ولكي تكتسب السلطة شرعيتها وشعبيتها . . . إذ لم يكن هناك اختلاف على شعبية الثورة . . . وثورية الشعب وإنما على الكيفية . . . ومهما تعددت النظريات إلى الحكم وهويته أو إلى الطريق إليه فإن توفر الكوادر الإدارية ضرورة لكل نمط أو لأي نمط . . .

لهذا تزايدت أعداد الخريجين في الستينات وتكاثر كمّ البعثات ومع كل هذا لم يؤثر هذا الكمّ على هذا النوع في قدرة الكوادر الإدارية . . . بالإضافة إلى هذا تزايدت أعداد الدورات إلى كل الدول والمنظمات الدولية . . . فبعثت كل وزارة وكل مؤسسة الأعداد تلو الأعداد للدورات الإدارية أو التخصصية أو الاستفادة على الأقل من تجارب الناس ، وكان المرء يلاحظ أن العائدين من الدورات يتخرجون وكأن لم يدخلوا . . . إما لأنهم كانوا يديرون إدارة ناقصة الكفاءة أو أنهم لم يملكوا كفاءة لخلق كفاءة غيرهم أو حسن تسيير سواهم . . . وربما لم تكن تلك الدورات تعود بأي مردود وإنما كانت تجعل من المهمة مجرد تغيير هواء ، وكان المسؤولون على اختلافهم يحاولون إرضاء بعض الموظفين بالرحلات الترفيهية باسم : دورة ترفد الاختبار .

لاشك أن هناك أفراداً اكتسبوا خبرات ولكنها ضاعت فيما نسميه بالسلبيات . . . أو فيما نسميه قلة الإمكانيات مع أن الاختبار الإنساني أول شروط الإمكانيات .

من آخر الستينات إلى أوائل الثمانينات تكاثرت أعداد الخريجين من كلياتنا وكليات العالم واستجدت مشكلات أخطر تعوق خبرات المتخرجين داخلياً وخارجياً ، وذلك من خلال تعدد المؤسسات الأهلية وشبه الحكومية والحكومية وتفاوت المرتبات على تعدد المؤسسات ... لهذا أصبح بعض المتخرجين يبحث عن الدخل الأكثر في تخصصه أو في غير تخصصه ... المهم حمل الشهادة وزيادة الراتب يضاف إلى هذا مشكلة الانتماءات والولاءات ... فهل تغيّبت مسؤولية التسيير الراصدة للتخصصات وباعث التخصصات وقيمة الإيفاد إلى الخارج ؟.

هذه مسألة أو همّ قلبي يستثير التساؤل .

لماذا لم تؤثّر أعداد المتعلمين على امتداد ثلاثين عاماً ؟

المسألة الثانية : هل محاولة التجاوز مسؤولية مشتركة ؟... وإذا كانت مشتركة فلماذا لايقوم نصب الهمّ مبدأ ؟ إن أكثر الناس نفعيون ، ولكن النظام هو الذي يقف إلى جانب النفع العام وضد الخاص إذا كان على حساب العام ...

فهل تجدي زيادة الخبراء المجلوبين وتنوب عن اختبار الشعب ؟

لقد احتضنت بلادنا أفواج من الخبراء من منتصف الخمسينات إلى الآن ولا يلاحظ أي متتبع جدوى هذه الأفواج ... لا في الاقتصاد ولا في الزراعة ولا في الصحة العامة ولا في الأجهزة الإدارية كلها ، بالقدر المنشود في ظل التغيرات الثورية .

لقد كان الخبراء في العهد الإمامي كالخريجين تحت التسيير الفردي وفي ظل الفردية المطلقة ، فلماذا لا تبدو جدوى الخبراء منذ التصالح عام ٧٠ إلى الآن ؟.

السبب أن الخبراء يحتاجون إلى خبرة إدارية محلية تسيّر أعمالهم وتتعقب مسيرتها وجدواها . . . صحيح أن السلطات منذ عام ٦٢ إلى الأن تحاول مرافقة التغيير وانتقاله إلى الأفضل . . . ولكن بدون اقتدار لإمساك زمام الكوادر ووضع كل اختصاص في ميدانه وبدون يقظة على الخبراء ومن ذا يخدمون بخبراتهم .

هل الوطن الذي جاؤوا إليه أم الدوائر التي جاؤوا منها ؟ .

هذه مسألة ولكن هل هناك مسائل أشد أهمية ؟

إن السلطات المتعاقبة تركز على المشاريع كالطرقات والمستشفيات والمدارس . . . والتلفزيون والكهرباء ، ولهذه مكانها بين الأولويات لكن هل تلتقي وجهة الشعب والسلطات في هذا المنظور ؟

وهل هذه أهم أم أن غيرها أولى بالأهمية ؟ .

إن مجتمعنا قبلي حربي ولا تتهيأ قابلية المشاريع التعليمية والفنية إلا في ظلّ سلام صحو . . . وهل ينبغي التأكيد على أن الشعبية الوحيدة للإمامة تأسست على تأمين الناس من الناس ؟ . . . فلا تقع خصومة بين قرية وأخرى إلا والحكومة أسرع من رد الصوت إلى الصائح . . . ولا يشتبك اثنان بالعصي في أي سوق إلا ألقي عليهما القبض فوراً ولايتشاجر حيان في أي قرية إلا وأسكتت الحكومة الشجار بسجن رؤوس الفتنة وأيديها وبسرعة فضّ الخصومات .

صحيح أن الشعب كان أعزل وكانت السلطة الإمامية قوية لوجود هذا الضعف في الشعب ، وأن القضاء على الخصومات المسلحة كان أسهل ، لكن إمكانيات العهد البائد كانت أقل بالقياس إلى تعدد أجهزة الجمهورية ووفرة قواها الأمنية والعسكرية .

منذ قيام الثورة إلى الآن لم تتدخل المحافظات والقيادات تدخلاً جدياً

وعن مسؤولية لتأمين المواطنين من بعضهم على أهمية هذا الوجود للدولة وللشعور بحنانها ويقظتها فما السبب ؟

مهما كانت الأسباب فإن تأمين المواطنين من المواطنين أهم المهمات . . . وأول الضروريات قبل كل المشاريع لأن الإنسان أعظم المشاريع ، ولأن الأنظمة لا تطور مشاريعها بل ولا توجد قابليتها إلا بوجودها كنظام مانع للاقتتال والاشتجار ، وبالأخص في مثل شعبنا الذي أصبحت الأسلحة النارية فيه أكثر من المناجل والمعاول .

لقد كانت أسلحة الخصومات في العهد الإمامي هي العصي والأحجار والخناجر . . . وكانت البندقية على قلتها آخر الوسائل في كل اقتتال . . . أما اليوم فقد صارت البندقية الدرجة الثالثة بعد المدافع والرشاشات . . . ومع كل هذا فإن السلطات المتعاقبة أقوى وأقدر بل ومن ضرورة وجودها أن تحكم هي بدلاً من احتكام المواطنين إلى أسلحة الدمار والموت . . . لأن هذا يوهم بغياب السلطة بل يجعل غيابها حقيقة فإذا سألت المقتتلين في أي منطقة إلى متى الاقتتال وإهمال المزارع والمواشي ؟ . . .

أجاب كل الأطراف (ما بش دولة) ولاشك أن هذه الإجابة صادرة عن الغضب لا عن الحقيقة كاملة ، ولكنها دالة على ميول الناس إلى حكم السلطة بدلاً من الاحتكام إلى الدموية غير الهادفة . . . إذن فوجود السلطة أمنياً وفي كل مكان (المشروع الأول) وأساس كل المشاريع لما يترتب عليه من الأهميات التالية :

أولاً : إن حكم الناس لنفوسهم بنفوسهم بدون وعي جماعي بالتسيير الأصح ، يوهم بخلو الساحة من النظام .

ثانياً : إن هذا التنازع يشكّل المقاومات ، فعندما ينتصف كل غريم من

غريمه بيده ، يبحث عن خصومة أخرى لأنه قد أدمن هذا الاعتياد . . . وبهذا يسري الشغب غير الهادف ويمتد في الأعقاب بمقدار استحكامه في الآباء . . . ولعل أهم الوسائل لحسم الحروب المحلية منع أسواق السلاح ليسهل انتزاعها فيما بعد ، لأن وجود السلاح في وجود الإهمال الأمني يوسع دوائر العداوات ويجعل الإنتاج كله قتلاً . . . قد يرى البعض من المتنفذين أن هذا الاقتتال يصرف المشاغبين عن السلطة أو يتيح الكسب الآني باسم إخماد القلاقل ، غير أن لامتداد الحروب الأهلية وجوهاً باطنية هي أخوف ما تخاف السلطة والمتعاونون معها ، فهل هذا اتهام ؟ إنه مجرد سؤال وأظن أنه يهم المسؤول قبل المواطن .

ومن حسن الحظ أن السلطات تؤمن بالنقد البناء وتدعو إليه . . . والنقد البناء لا يُعَمر قصوراً على المدلول الحرفي وإنما يعمر قلوباً لكي تصبح بساطاً للبحث . . . ويهز رؤوساً لكي تمتد نظراتها إلى الواقع الذي نظر إليه النقد . . . أو الذي ألمح إليه التساؤل . . . فالنقد البنّاء هو الذي يتبنّى حقائق موضوعية يعرف أنها أهم من غيرها وأن الاهتمام بها طريق إلى ما يليها في الأهمية .

صحيح أن بعض الحقائق مُرَّة يشقّ على البعض استساغتها ولكنها في نفس الوقت حقائق لا يغيرها تزويقها ولا يمسحها تجاهلها ، بل يزيد التغاضي عنها من خطورتها .

من الجميل أن تنتشر المصابيح الكهربائية . . . وأن يتعمم التلفزيون والهاتف . . . وأن تحل الأضواء الكهربائية محل مصابيح الغاز ووميض النجوم . . . لكن . . . هل يشكل هذا خصباً حياتياً ؟

والمدافع الرشاشة تتساجل أراجيز الفناء من دار إلى دار . . . ومن جبل إلى جبل . . . ومن رواب إلى أودية . . .؟

إن أكثر القرى المضاءة بالكهرباء لا تتمتع بالقناديل لأنها دليل الرصاص في أكثر من ألف قرية . . . وأكثر من عشرين منطقة بعضها على مقربة من صنعاء بنحو خمسين كيلومتراً . . . وبعضها أمضت سنين داجية استعصت على الإصلاح المحلي لاحتياجها لردع السلطة ، ولعل ردع السلطة غير مستحيل بل إنه متوفّر الأسباب بمقدار توفر أسباب الاقتتال ، لأنه نتيجة لحروب الثورة على امتداد الستينات . . . وللحروب الجانبية على امتداد السبعينات . . .

فلماذا تتجه القذائف إلى غير أهدافها . . .؟

إن القتال في اليمن يختلف عن القتال في لبنان لأنه ليس حرب طوائف ولا تنظيمات . . . ولكن غياب الأمن جسَّم التوافه وأحل الرشاشات محل مسؤولية سلطة الأمن ، فما أكثر ما يشتجر القتال عل ذراع في مرتع أو مساحة منزل في سفح . . . فهل سلبيات الأمن امتداد للعجز الإداري . . .؟

إن الدولة جهاز واحد وإن ضعف أي جانب من أثر الكل أو على حساب الكل . . . إننا نبحث عن رخاء اقتصادي وننشد مجتمعاً متقدماً ونحاول الرحيل من التخلف . . . هذا همّ يؤرّق كل الحاكمين والمحكومين : ولكن كيف يتقدم الهم وكيف يليه المهم . . . وكيف يتبعه الأقل أهمية . . .؟ ألا يمكن أن نفهم البدائيات في الحكم . . .؟

كيف يتعلم الخائف ؟ كيف يستمتع بالتلفزيون مرسل الرصاص ومستقبله ؟ كيف ينتفع بمشاريع الطرق الذي لايملك الخبز . . . أو الذي لا يقدر على ركوب السيارة . . . أو الذي يملك السيارة ولا يجد الطريق الآمن ؟؟

إن التأمين والخبز والدواء هذه الثلاثة على الترتيب ، أول الأوليات وأشد الضروريات إلحاحاً ، بعدها يمكن أن يمتنّ الشعب بكل مشاريع الترف لأنه لا يلاقي شهية إلا بعد التغلب على الضروريات من خوف وجوع ومرض .

قد يبصِّر التعليم النافع وقد تؤثر مشاريع الرخاء في تبريد الحدة القبلية ولكن بعد عقود من السنين ، أما الآن فلابد أن يبدأ التغلب على الضروريات كأساس حقيقي لمشاريع التعليم والري والإضاءة و(التلفزة) .

صحيح أن هناك مناطق أقل مشاكل حربية ولكن مسؤولية الدولة تمتد إلى كل منطقة وإلى كل قرية بل وإلى كل فرد في أي قرية أو في أي طريق ، فكما تكافح الجيوش والشرطة الحريق والفيضانات في كل شعوب العالم ، فإن خطورة الاقتتال في مناطقنا لاتقل أهمية عن فيضانات الهند أو القرن الإفريقي أو حرائق أمريكا ، بل إن الاحتراب في بلادنا أخطر لأصالته وتوارثه إذ لم يكن موسمياً كالفيضانات . . . ولا طارئاً كالحرائق وسقوط الطائرات وصدمات القطارات .

إذا كان لمشاكلنا لون من الفرادة فإنها لا تعدم النظائر والأشباه من مشاكل العالم . . . والمسألة حسن مواجهة المشاكل لا انعدام المشاكل لأنها من ضروريات الحياة . . . ومن ضروريات اختبار التغلب . . . فلكل شعب مشاكله . . . ولكل نظام أعباؤه الثقيلة . . . وليست المسؤولية إلا مزيداً من الأعباء ومزيداً من الطاقة على تحملها . . . لكي تنتقل مشاكلنا من بساط القلب المهموم إلى بساط البحث المسؤول ثم إلى مواقع التطبيق . . . وبهذا نتنفع من التعليم ونبني عليه خبرة وثقافة خبرة . . . وندلل على أننا نهتم بالغير بمقدار اهتمامنا بثقة الغير في جدارتنا ، ولا شك أن السلطات المتعاقبة من يوم انبلاج الثورة إلى هذه اللحظة تحاول الإفصاح عن خير ما في نفوسنا وتجهد في البرهنة للشعب على شعبيتها . . . لهذا يتحتم على المواطن المبتلى بمهنة الحرف أن يترصد ويبدي إخلاصه متوخياً واقعية القضايا ، لأنه يهتم بالوطن ويعرف أن حقيقة وجود كل إنسان في بذله لوطنه ، وكل ما توارد في هذه الأوراق تساؤل مع المسؤولين لا اتهام . . . وتفهّم معهم لا إنقاص لفهمهم ، لأن الهم واحد بمقدار واحدية أبوة الوطن .

الديمقراطية بين الإعلان والممارسة

من أكبر هموم البشرية المتحضرة ، البحث عن صيغة فكرية لممارسات سياسية مقبولة مهما كان طابع هذه الصيغة . . . لهذا كانت فلسفة الحكم من أعقد الفلسفات وأكثرها تطوراً وتناقضاً ، وذلك لشدة الاختلاف بين منظور الحاكمين ومصالح المحكومين فكلما وصل الحاكمون إلى صيغة طمحت الشعوب إلى أفضل منها بفعل التطور الثقافي والتجدد في أهداف الشعب تبعاً لزيادة أعداده ، وتوسّعه في الكماليات التي أصبحت اليوم ضروريات ، وبهذا لم يجمع كل الناس على الرضى المطلق ، عن أي مذهب من المذاهب السياسية أو سلطة من السلطات ، فكان طموح كل سلطة أن ترضي أكثر عدد ممكن من الناس لاستحالة إرضاء الكل .

من هنا لبت الديمقراطية هذا الإلحاح ، لكي يمثل الانتخاب الغالبية العظمى من سكان كل بلد ، لكن مجرد الانتخاب لا يحقق حسن التمْثيل ، فقد يكون النجاح فيه عن : قدرة دعائية ، قوة شخصية ، إثارة جماعية ، قوة شرائية في سوق الأصوات . ثم تأتي مسألة التطبيق فلا تجد الرضى الذي أوهم به الإعلان . . . وعلى قدم الديمقراطية في مدائن اليونان فإنها لم تحقق رضى الكل فتمادى البحث الفلسفي عن نوع الحكم وصفات الحاكمين ، ولعل الانتخابات اليونانية رغم اقتصارها على المدينة ، كانت أصح من النتخابات اليوم لغياب الدعاية ولممارستها في ضوء الشمس وتحت أعين الجموع بدون صناديق اقتراع وبدون دوائر يشرف عليها البوليس .

لقد جاءت الديمقراطية اليونانية من أفكار فلسفية ، ومع هذا لم تقف الفلسفة عند صيغة واحدة مهما حققت من نجاح ، فقد ظلت الفلسفة السياسية تساؤلاً يبحث عن الأفضل ، كما في (جمهورية أفلاطون) وكما في (السياسة) لأرسطو ، بالإضافة إلى عدة مدارس عالجت فلسفة الحكم . . . كـ : المكيافيلية ، والنازية ، والآرسوية . . . إلى جانب الغابية التي لم تصل دائرة التطبيق . . . .لكن كل هذه الفلسفات أصّلت أصولاً يمكن البناء عليها ويمكن تجاوزها عن تجربة فكرية ، مثل هذا حدث في الفكر العربي الإسلامي ، فقد أوصى (عمر بن الخطاب) أن يختار ستة من الصحابة (خليفة) واستثنى من الستة ابنه (عبد الله) ولعل هذا أول أصل لفكرة الديمقراطية في التأريخ العربي الإسلامي ، لكن هذا الإعلان لم يطبق رغم التزام (عثمان) بتطبيق الشروط التي فرضها عليه الصحابة الستة ، ونتيجة الفصم بين الإعلان والتطبيق سقط (عثمان) ضحية التناقض ثم تزايد التذمر بعد أن غلب (معاوية) (علياً) ذا البيعة الإجماعية ، فمن المتذمرين من حمل السلاح كالخوارج ، ومنهم من أعد نفسه للصراع الدموي كالشيعة والزبيريين ، ومنهم من التزم الزهد كاحتجاج يلبي على التسلط دون تحقيق مطامح الناس ، وقد كان أشهر الزاهدين (عبد الله ابن عمر) وكان يعلن من حين إلى آخر غضبه على التسلط الأموي ، فقد كان الزهد نوعاً من الرفض لما كان قائماً ، لخروجه عن الأصول كما جاءت في الكتاب والسنّة ونفذها أتباع النبي من الخلفاء والولاة ، ولما وصلت السياسة إلى الحضارة العربية من منتصف القرن الثاني الهجري عن طريق الترجمة من الفلسفة السياسية اليونانية ، بزغت الأفكار الدينية كأساس لفلسفة الحكم ، وكانت هذه الأفكار تقوم على أساس ديني خالص ، وعلى تجربة بشرية خالصة ، على أساس أن الدين في مصلحة الناس وليس الناس في مصلحة الدين لأن الله غني عن العالمين كما أكدت مئات الآيات القرآنية .

من هنا تبلورت المذاهب على أساس سماوي وأرضي ، إلاهي بشري ، لكي تشكل معارضة للسلطة الوراثية التي تحتمي بالدين وتنتهك قداسته ، فكانت الأصول الخمسة التي قامت عليها فلسفة (المعتزلة) تستهدف اقتلاع السلطة ، وتبتغي تأصيل فكرية الحكم ، حتى ركب (المأمون) الموجة وطبق بعض نظرية المعتزلة ، قبل أن تكون الأفكار الشعبية بديلاً عن سلطة الخلافة ، فكانت المعتزلة أول حزب حاكم في التأريخ العربي لكن هذه المدة لم تطل أكثر من عمر ثلاثة خلفاء ، ولما أحسّ (المتوكل) خطر تطور الأفكار رفض (الاعتزال) باعتباره سلطة أو باعتبار السلطة حكمت باسمه ، لما أحسّ (المتوكل) هذا في القرن الثالث الهجري تبنى (رجال السنّة) لأن سخطهم تجاوز المدى حينذاك فكادوا أن يشكلوا قوة معارضة تضاهي المعتزلة أو تحل أصحاب الرواية محل أصحاب الرأي ، وبالأخص بعد موت (أحمد بن حنبل) متأثراً بالتعذيب السلطوي . . . من هنا نشأت الفلسفة الصوفية على أساس الثنائية ، أو على أساس أن الشريعة مجرد ظاهرة للحكمة ، فالمنطوق ظاهر الشريعة ، والحقيقة باطن لتلك الظواهر ، وهذا يدل على رفض الحكم الوراثي عن نظرية فلسفية لأن الحكم كان يرتكز على الشريعة . . . ولعل الذين يؤرخون الصوفية يعزلونها عن واقعها الاجتماعي النضالي ، مع أنها جاءت كامتداد من الزهد الرافض مضيفة حكمة (الهند) ونظرية (الفيض) وحكمة (التجلي) .

لقد جاءت الفلسفة الصوفية من الزهد الإسلامي ، كما بزغت الفلسفة الخالصة من الكلامية الاعتزالية والحقيقة الصوفية . . . من هنا نشأت الفلسفة السياسية في : آراء أهل (المدينة الفاضلة) عند (الفارابي) وفي (رسائل إخوان الصفا) ، فإذا كان (أفلاطون) رأى أن يحكم رجال الفلسفة ، فقد رأى (الفارابي) أن يحكم العلماء غير أن (الفارابي) ، يحدد العالِمَ الفاضل بأنه الحاكم الذي يؤهل بلده للحكم الصالح ، وقد استعاد هذه الفكرة (ابن خلدون)

في رأيه المعروف : « ليس هناك من يرى نفسه دون الرئاسة ، لأن كل الناس يصلحون لها بقوة الشوكة ومواتاة الحال . » .

إذن فقد أدت مذاهب الزهد والتصوف والاعتزال ، إلى الفلسفة السياسية المباشرة ، بعد أن كانت المذاهب مناوئة للسلطة دون طرح فكر بديل علني ، وقد انتقلت هذه المذاهب أو خلاصتها إلى (اليمن) وتواصل انتقالها على تعاقب المراحل إليه ، فتكونت في القرن التاسع الميلادي المدارس اليمنية .

إن هذه المدارس من ضحوة نشوئها قد هيأت الأرض لانفجار حركات ، فكان القرن الثالث الهجري معرض أعنف الحركات الحمر ، ففي عقود متلاحقة من هذا العصر تفجرت الثورة (الزنجية) في (البصرة) وانتشرت مدة خمسة عشر عاماً ، ثم أخمدت لكي تشتعل الثورة (البابكية) على إثرها ، لكي تتقد بعد إخمادها الثورة (القرمطية) إلى نهاية القرن الرابع ، وبما أن هذه الحركات جاءت عن مذاهب ، فقد كان من المنتظر أن تغير شيئاً من الواقع السياسي ، كالذي حدث في أوربا فيما بعد عندما انتقلت من (الحق الإلـهي) إلى (العقد الاجتماعي) .

فلماذا فشلت الثورات العربية القديمة ؟ هل يرجع السبب إلى ضعف الأصل الفلسفي أو إلى سوء التنفيذ أو إلى القطيعة بين الفكرة والممارسة ؟؟ .

لقد كانت غالبية الثوار من أشد الناس فقراً باتفاق المؤرخين الرسميين والشعبيين ، لكن الفقر وحده لايكفي أساساً لثورة وإنما الوعي الاجتماعي أكثر أهمية ، لقد سقطت الحركات الزنجية والبابكية والقرمطية بعد أن زعزعت السلطات والتفكير الشعبي معاً ، فتحولت الصوفية إلى (حروفية) وحلت فلسفة (الغزالي) الأشعرية محل فلسفة (الاعتزال) وما نشأ عنها من فلسفات عند بعض الجموع المحافظة ، وأدى الاضطهاد الفكري إلى غياب فلسفة الحكم ،

وإلى تداعي قصور الحاكمين معاً .

لهذا كان (اليمن) الأرض البكر لامتداد الحركات الفكرية أو انتقالها ، غير أن هذه الحركات كانت تنتمي إلى أصول مثالية ،أو كانت ترافقها مثالية خالصة ، فكانت (الزيدية) امتداداً ناقصاً للمعتزلية وكانت (الهدوية) امتداداً مغايراً (للزيدية) في بعض الفروع ، إذ جعلت (الإمامة) حقاً إلاهياً وأصلاً من أصول النظر ،على حين ارتأت (الزيدية) حكم المفضول في وجود الفاضل ، وكانت قرمطية (علي بن الفضل) امتداداً مشوّهاً أو مغايراً لفلسفة (الأحساء) في البحرين فلم يجاهر (علي بن الفضل) بمذهبه كما جاهر (أبو طاهر الجنابي) ، وإنما اعتمد على فلسفة (الظاهر والحقيقة) كبداية الصوفية ، أو كأيام سرّية (الإسماعيلية) ، ومع هذا عانى (ابن الفضل) تهمة القرمطية من الزيود الهدويين ، ومن السلاطين اليعفريين الذين كانوا يتبعون خلافة بغداد اسمياً ، دون أن يعلن القرمطية أو يمارسها ، فما أبعد الفرق بين حكم (الاحساء) و(مذيخرة) ، قال (ناصر خسرو) :

« كانت دولة القرامطة في البحرين تصنع للناس كلهم طعاماً واحداً لا يتفاضل فيه الحاكم والمحكوم ، وكانت الدولة تبني المساجد للناس ولا أحد يصلي من رجالها » .

أما (علي بن الفضل) فقد كانت أكثر أوقاته للعبادة ، أو للاعتزال بدعوى العبادة ، وكان للحكام امتيازات على المواطنين .

فهل يرجع هذا إلى ضعف ابن الفضل وقوة العلويين واليعفريين في الجبال ؟ أو إلى ضعف انتمائه إلى المذهب ؟؟

مهما يكن فقد أسس (ابن الفضل) حكم (الصليحيين الباطنيين) في شمال الوطن (والزريعيين) في جنوبه ، وبعد انقراض الصليحيين والزريعيين

والنجاحيين خلا الميدان للشيعة الهدوية والسنّة الحَرفية وكانت الشيعة أكثر تطوراً فيْ غير الأصول المنصوص عليها ، فكما كانت (الزيدية) امتداداً ناقصاً للمعتزلة ، فإن (الهدوية) كانت امتداداً تحريفياً للزيدية دون أن يؤدي التحريف أو الامتداد إلى حركة تطورية ، فقد حرّف الهدويون حكم (المفضول على الفاضل عند الزيدية) إلى أحقية (آل علي) بالحكم دون غيرهم ، باعتبار أن النسب إلى (علي) و(فاطمة) أعطاهم الأحقية لا الأولوية ، وهذا خروج على (الزيدية) ، لأنها ترى للعلوي الأولوية ، وتجيز لغيره الحكم مع الصلاحية ، فقد تجاوزت الهدوية (الزيدية) في أهم أصول الحكم ، بالإضافة إلى الاختيارات المخوّلة للإمام ، فقد كانت اختيارات (الهادي يحيى بن الحسين) شبه مستقلة عن الأصل (الزيدي) بانتمائه إلى (الاعتزال) ، ولكن بدون بُعد فلسفي كالذي أحدثه (الكندي) بالنسبة إلى (الكلاميين) ، أو الذي أحدثه الفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) .

من هنا تحوّلت الفلسفة السياسية إلى سياسة مباشرة وتحوّل (علم الكلام) وما امتد منه من فلسفة إلى ما سمي (أصول الدين) ، (معرفة الله) .

فعلى ضوء اختيارات (الهادي) ومؤلفاته تنامت الفلسفة اليمنية كتطوير لعلم الكلام ، وبالأخص في أصل المسائل : كالعدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . فقد اعتبر (الهدويون) حب أهل البيت متصلاً بالعدل والتوحيد ، واستدلوا بقول الشافعي أو ما نسب إليه :

العدل والتوحيد في جانبٍ   وحب أهل البيت في جانبِ

واعتبروا الجانبين كشيء واحد ، أو كائنين كل منهما سبب الآخر ، أما (الوعد والوعيد) فلا خلاف بين الهدوية والمعتزلة ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أن الهدوية والزيدية معاً يخالفون المعتزلة في (المنزلة

بين المنزلتين) فترى (الهدوية) أن هناك كفراً صريحاً وكفراً تأويلياً ، بدلاً من منزلة بين المنزلتين ، وترى (الفسق) قطعياً وهو ما نص عليه دليل ، وظنّياً وهو ما لا ينص عليه دليل فلا يترتب عليه حكم ، كذلك خالف الهادي : الإسماعيلية والمعتزلة ، في ثبوت زواج المتعة مستدلاً على تحريم زواج المتعة بهذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

لقد أثمرت الأقلام اليمنية كتباً فلسفية : كالأساس ، نور اليقين ، الثلاثين المسألة الكبرى ، الثلاثين المسألة الصغرى ، باب ما يجب معرفته (الينابيع) ، وكانت تركز كل هذه الكتب على الغايات التالية :

الولاء للإمام ، الحقوق عليه والحقوق له ، الخروج على الظالم ، صحة البيعة ، تعطّل الاجتماعات في موت (الإمام) حتى يقوم غيره ، عدم معارضة (الإمام) إلا من مثله ، وبذل النصح ممن هو دونه من غير شجرته وجواز قيام إمامين في قطرين متباعدين . . . وكان أساس هذه الفلسفة منتمياً إلى (علم الكلام) المعتزلي والأرقام (الفيثاغورية) ، وكان بعضها يروي الفلسفات الكلامية ولا يضيف غير مسألة (الإمامة) ، غير أن الكلامية المعتزلية ، قد شكلت من آخر القرن الثالث الهجري أساسيات فلسفية مستقلة عند (ابن سينا) و(الفارابي) ، بينما لم تؤصل الفلسفة (الهدوية) فلسفة سياسية تشير إلى (الديمقراطية) أو إلى حكم (الفلاسفة) أو فلسفة الحكام ، اكتفت بشروط العلم ، والنسب ، وإصابة الرأي واللياقة البدنية في (الإمام) ، كبديل عن العلوم النظرية بغض النظر عن أصلها الديني أو الدنيوي .

وبهذا تغيبت الأصول الفلسفية عن الحكم طيلة عهود الأئمة والملوك وما طرأ عليها من احتلالين تركيين ، إلا أن تلك النظريات كانت أصلاً ثقافياً يؤدي إلى تأصيل أي أصل للحكم ، فعندما ناضل شعبنا الاحتلال العثماني كانت تلك

الثقافات النظرية من أفتك أسلحته ، باعتبارها تراثاً وطنياً وأساسيات لصنع البديل عن المحتل ، غير أن نوع النضال كان يختلف عن النضال العربي ضد العثمانيين ، باختلاف سلطة المحتل ، فقد كان العثمانيون من آخر القرن التاسع عشر لا يحكمون (اليمن) إلا شكلياً ، لأن الإمام (المنصور) كان يملك حق تحصيل الزكوات والأوقاف وتعيين القضاة المتخرجين من مدارس الفقه (الهدوي) ، وهذا ما جعل النضال غير حار ، فقد كانت فترات التفاوض بين (يحيى) نجل (المنصور) وبين الوالي العثماني أكثر من فترات القتال ، وكانت تؤدي مفاوضات (يحيى) إلى اتساع سلطة والده الداخلية ، وعندما أصبح (يحيى) (إماماً) بعد أبيه تواكب التفاوض والقتال ، ولا شك أن قتالاً من هذا الصنف لا يعطي اختباراً ولا يقوم على نظر فكري ، لأن التفاوض كان يخنق القتال قبل أن يعطي تجربة ، كما أن القتال لم يكن إلا مجرد تعزيز للتفاوض أو ضغط للوصول إليه ، وكانت جبهة المحتل على نفس المستوى من الضعف ولاسيما بعد أن انقطع المدد بفعل ثورة (شريف الحجاز) وهيمنة السفن البريطانية على البحر الأحمر ، فأدى ضعف جبهة العدو إلى ضعف جبهة الصراع معه لأن يحيى كان يقاتل بحسَّين :

نزوع الحكم ، وشعور الحرج من قتال مسلم تعاديه دُوَل الاستعمار .

من هنا كانت تجربة النضال غير غنية لتقطعها ، ولشعور قيادتها بالحرج والخوف من البديل ، فقد عقدت عدة تفاوضات على الصلح ، وعلى سعة مصالح الإمام ، ثم على الانسحاب . . . فقد أدى صلح (القفلة) عام ١٩٠٥ إلى سيطرة (الإمام يحيى) على الداخل مقابل دفع ضريبة سنوية للباب العالي تساعده على الجهاد ، كما أدى صلح (دعّان) عام ١٩١١ إلى التنازل عن هذه الضريبة السنوية ، وعلى شرط تقوية العلاقة الإسلامية بعد الانسحاب الذي أصبح منتظراً . . . ألا يختلف نوع الاحتلال العثماني لليمن عن نوع احتلاله للشام

والعراق ومصر التي نادت بالقومية والديمقراطية ؟ .

وهذا الاختلاف هو الفاصل بين النضالين . بالإضافة إلى أن نضال الشعوب العربية كان بقيادة تنظيمات قومية ووطنية ، على حين كانت قيادة النضال اليمني فردية دينية وعلى نظرية سلفية :

هي وارثية الخلافة الإمامية بشروطها الهدوية .

لقد أدى هذا القتال والتفاوض معاً إلى التحرير ، غير أن الشعب الذي كان يخوض ميدان القتال كان بمعزل عن كل موائد المفاوضات ، وكان على غير علم بمضمون الرسائل المتبادلة بين (شهارة) و (الآستانة) .

لهذا اقتطف (الإمام يحيى) وحده كل ثمار النصر التفاوضي والقتالي ، وكل المآخذ على فرديته لا زعامته لأن كل قادة النضال على أي مستوى يتحولون إلى حكام بعضهم مدى الحياة (كالحبيب بورقيبة) ، كانت هذه الفترة تستدعي نظرية سياسية جديدة وشكلاً مختلفاً من الحكم ، فقد كانت الديمقراطيات على أي شكل معلنة ومطبقة في أكثر شعوب العالم ، وبالأخص بعد سقوط النير العثماني ، فقد نشأت أحزاب وتشكلت برلمانات في مصر وسوريا والعراق ، على حين كان الميدان في بلادنا مهيأ لفارس واحد هو (الإمام يحيى) ، وكان (العقد الاجتماعي) لعهده هو كتاب (الأزهار) لأحمد بن يحيى المرتضى من علماء القرن الثامن الهجري ، بالإضافة إلى شروحات هذا الكتاب واختيارات (الإمام) الجديد وبعض الأنظمة التركية في غير المجالات الشرعية :

كالعسكرية والمالية والوظيفية ، وكان من المنتظر أن تتمخض تلك الفترة عن نظرية متطورة عن قديم أو مسترفدة من جديد ، معتبرة إطار العصر وحاجة الواقع ، غير أن النظريات لم تشكل حركة تطورية تصلح خلفية ، فكان رد الفعل هو تمرد بعض المناطق الوسطى والشمالية على الحكم الوطني ، وكان هذا

التمرد ناشئاً من أصليْن :

اعتياد النضال الذي لم يثمر ، والحنين الباطني إلى حكم وطني مغاير ، ولكن كل هذه الحركات قمعت لكي تتنامى عوامل تجددها لكمون أسبابها السياسية ، لأن القمع يربّي القوة المناوئة على الصلابة والتطور ، فما خمدت منطقة إلا لتشتعل أخرى من عام ١٩٢٠ـ١٩٣٧ من هذا القرن ، هناك طرأ هدوء غير مبرَّر ولعله الهدوء الذي يسبق العاصفة . . . فمن مطلع الأربعينات تهامس التذمر عن هجس منتم ، وعن هجس سينتمي ، ومن ٤٤ انتقل التذمر من الهمس إلى الحوار ، وكانت عبارة الديمقراطية أبهى الأصوات ، ولو لم تصل إلى تجليّات نظرية عامة . . .

لكن أي ديمقراطية ؟ إلى ذلك الحين لم يقم أي تنظيم علني ، ولم يعلن أي انتخاب عن أي شكل ، ولم تلح أي صحافة غير صحيفة (الإيمان) التي ورثت صحيفة (صنعاء) التركية ، وغير مجلة (الحكمة) التي حامت حول الإصلاح وعبّرت عن غيره ،. ومع هذا كانت السلطة في أقلق يقظة من ذلك الإصلاح الملتوي التعبير أو الذي لم يتجل قصده ، المهم أن عبارة الديمقراطية سبقت تكوين أصولها .

لهذا ارتدت غير ردائها في منشورات تنظيم حزب الأحرار عام ٤٦م : كالدستور والشورى والفصل بين السلطات ، وهذه قد تكون إحدى وجوه الديمقراطيات ، لكنها ليست الديمقراطية الاجتماعية ، ولا الديمقراطية السياسية ولا الديمقراطية الجديدة . . . فالدستور ليس غاية في حد ذاته ، ولكن ما نوعه ؟ إلى أين تنتمي أصوله ؟ ما تعبيره عن الواقع الاجتماعي ؟ . . . إن الدستور لا يدل على الديمقراطية إلا إذا كتبه حس ديمقراطي ، ونفَّذه التزام بالديمقراطية ، ومثله الشورى : مشاورة من ؟ هل الشورى السبئية المكونة من سادة الأرض وقادة الحرب ؟ .

أم الشورى الإسلامية للاستعانة بالرأي ؟، إن شورى الأربعينات لم تحدد نوع الشورى ولا نوع رجالها ، ومثلها العدل هل هو الإنصاف بين المتشاجرين هل هو التساوي في الحقوق والواجبات ؟ إن كل هذه التسميات من أشكال الديمقراطية وليست الديمقراطية ، باعتبارها أحد وجوه الحرية وكل أصول الحكم .

لكن لماذا لم تتجلَّ الديمقراطية عن وجهها ؟ ولماذا الحومان حولها أيام صدور نشرات الأحرار بعَدَن ؟؟ . .

السبب هو غياب أصولها نظرياً والعجز عن تأصيلها في مثل تلك الظروف ، لغياب التطور التأريخي ثم الانفعال بالعصر كغاية لامتداد التطور من أقصى ينابيعه .

لقد تشكل في تلك الفترة أول تنظيم وتسمى بجمعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في أول أيامه ، ثم (حزب الأحرار) ، ثم (جمعيةِ اليمن الكبرى) بعَدَن ، والمهم أن هذا أول تنظيم أو أول تجربة في النضال المنظم ، غير أن هذا التنظيم لم يعلن له برنامج ، غير دعوة الحكم إلى الإصلاح أو مقاومة الحكم لكي يقوم حكم الأحرار والدستور ، كبديل عن الاستبداد ، لكن هذا التنظيم لم يمارس نضاله تحت الشمس وفي عقر الحكم المرفوض وإنما كان مقره (عَدَن) أيام احتلالها وكانت الغضبة الشعبية على الاستعمار في حدود المظاهرات في بعض الأقطار ، بينما كان الاستعمار شبه مطمئن في جنوب الوطن بل ومناط الأمل في شماله ، فإن الالتجاء إلى ظله مثار التساؤل إلى اليوم ، ولا شك أن الأحرار أضافوا جديداً إلى ثقافتهم السياسية بما فيها النهج الديمقراطي والدستور والفصل بين السلطات ، ولكن هذا يشكل فكرة غائمة عن نظرية الديمقراطية عند الأحرار اليمنيين ، والمقارنة بينهم وبين أحزاب تلك

الفترة سيكشف عن بداثية تجربتهم ، فقد كانت التنظيمات تترشح للانتخابات وتمثلها عضويات في البرلمانات وعضويات تنظيمية في أجهزة التنفيذ بالتالي ، ووصل بعضها إلى الحكم : كالوفديين بمصر ، وحزب الأمة بالسودان . وبهذا كانت تكسب جماهيراً عن طريق الأطروحات وتستعطي اختباراً من موقع الممارسة العلنية ، على حين كان تنظيم (الأحرار) سريّاً في الشمال على قِلَّة أعداده ، وعلنياً في (عَدَن) صحافةً ووجوداً ، وعندما حقق غايته بإسقاط (الإمام يحيى) عن طريق العمل المسلح ، واجه الحكم بدون نظرية مبلورة ، وبدون إطار اجتماعي كقاعدة ومصدر نظريات جديد . . . فكيف يمكن قيام حكم ديمقراطي لم تتكون أصوله ؟ .

بعد ثلاثة أسابيع سقط الانقلاب بكل تنظيمه غير تارك نظرية مكتوبة سوى (الميثاق الوطني المقدَّس) الذي يحدد مهام الحكم ولا يشير إلى فلسفة له والذي كتب قبل الحركة الشباطية بسنة ، على غرار نظام الإخوان المسلمين بمصر ، فهل يمكن هذا التنظيم أن يكون أحد الأساسيات لجذور ديمقراطية في السبعينات ؟

لقد عرف الشعب عبارة : الدستور ، الشورى ، الديمقراطية . . . وكانت هذه المسميات غامضة الدلالة في آخر الأربعينات ، ولو طالت مدة هذا الحكم لعرفنا من خلال ممارسته نوع فلسفته ومقدار صلاحيتها كأصل ديمقراطي يمكن تأصيله أو تعزيزه أو الانطلاق منه . هذا إذا كانوا حكّام أسابيع الانقلاب الذي نفذه (الوزيريون) وكان ذلك التنظيم مجرد شكل ، لأن (عبد الله الوزير) هو (الإمام) .

إلى بداية الخمسينات لم يلح قبس نظري لعمل سياسي ، لكن كانت هناك نوازع دخيلة تتوق إلى التغيير وإلى صنع أي بديل ، وكان الشعب يسمع بانفجار الثورات وسقوط العروش ، ثم يتتبع فلسفة تلك الثورات : العوامل الاجتماعية لاندلاعها ، مقاومة الشعوب للاستعمار ومؤامراته . من هنا تهامس الشك عن

التجاء الأحرار إلى ((عدَن) وعن طبقيتهم الفوقية ، وعن اختلاط الدوافع الشخصية والإرادة الوطنية . لقد بدأت مرحلة الاستبصار ، وأصبح استحداث الشكل الديمقراطي ممكناً لو واتت أقلّ أصول له ، لكن غياب كل الأصول لم يحدّد سمات البديل عن (الإمامة) ، أو سمات تطور (الإمامة) .

لهذا لم يكن لانقلاب ٥٥ بتَعِزّ أي وقع ، وإنما كان إبدال أخ بأخيه ، دون إعلان نظرية أو رفع شعار .

هذا بالنسبة إلى الداخل ، أما بالنسبة إلى حزب (الأحرار) الذي أصبح (الاتحاد اليمني) بالقاهرة في منتصف الخمسينات ، فقد قاوم انقلاب (تَعِزّ) واعتبره دماً جديداً في شرايين الملكية المتداعية ، وفي تلك الفترة نشرت (صوت اليمن) لسان (الاتحاد اليمني) بالقاهرة ، تنديداً متواصلاً بالانقلاب ، ثم والت إذاعة (صوت العرب) فضح تلك المؤامرة غير أن الاتحاد لم يكن مؤيداً لأحمد من خلال التنديد بأخيه (عبد الله) الذي قام ضدّه وإنما كان يندد بالمؤامرات الأمريكية كمؤيدة لحكم (الإمامة) وتجديدها في بداية انقراضها .

في آخر الخمسينات تجلّت للاتحاد قبسات نظرية عن الحكم ، فقد أذاع الأستاذ (الزبيري) حديثاً من إذاعة صوت العرب بعنوان : (من حقي أن لا يقطع رأسي بدون محاكمة) ورافقه (نعمان) في نفس الموضوع تحت نفس العنوان المسلسل (أحاديث الأحرار اليمنيين) ، عبارة بدون محاكمة تلفت الانتباه إلى بداية نظرية ديمقراطية لكن هل المحاكمة وحدها الدليل على ديمقراطية الحكم ؟

المسألة ترجع إلى نوع الوضع السياسي ونوع المسؤولين فيه ، فمن الجائز أن تزيّف المحاكمة ويرتدي التعسف رداء الديمقراطية ، فهل المحاكمة تعطي المتّهم حق الدفاع العلني ؟ وهل الاتهام عن نص جريمة ؟

كل هذا لم توضّحه الأحاديث كمشروع نظري ، لهذا أمكن (الإمام أحمد) أن يستغل عبارة المحاكمة فشكّل عام ٦١ أكبر محكمة لمحاكمة (اللقية) و(الهندوانة) وكان الحكم هو الإعدام ، كما لو لم تعقد محكمة ، فعبارة المحاكمة عبارة مطّاطة تُعدِم بواسطتها أكثر الأنظمة استبداداً خصومها ، فهي مجرد شكل كبعض الأشكال الديمقراطية التي تمارس غير ما تعلن .

في مطلع الستينات أصدر (الاتحاد اليمني) كتاب (مأساة واق الواق) للأستاذ محمد محمود الزبيري دعى فيه إلى قيام (جمهورية ديمقراطية) وهذا هو التحول الثاني والهام ، لأنه يتبنى جمهورية ويُعيِّن نوع الحكم (الديمقراطي) . فهل هذا الكتاب كان يصلح نظرية حكم لثورة سبتمبر ، (كالعقد الاجتماعي) لرسّو مثلاً ؟ إن (مأساة واق الواق) لم تحدد أصول الديمقراطية وكيفية رجالها ، وإنما عبَّرت عن (جمهورية ديمقراطية) لم تتكون أولياتها الضرورية . . . صحيح أنها نشأت تنظيمات من منتصف الخمسينات ولكنها لم تمارس علنياً نظرياتها تحت الشمس لكي تكتسب خبرة عن تقبّلها ، وعن كيفية قولبتها محلياً ، وعن تطويرها على حرارة ميدان الفعل ، وهذا يرجع إلى شدة قمع السلطة وسرية التنظيمات ، وعندما انفجرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ أعلنت مضمون الديمقراطية في مبادئها المكتوبة ، وفي الشعارات الخطابية والتعليقات السياسية ، إلا أنها لم تحدّد نوع النظرية ونوع الديمقراطية في نشرات خاصة ، مع أن كل التنظيمات قدمت تأييدها مكتوباً إلى قيادة الثورة موقعاً بأسماء القيادات التنظيمية ، وكان من المنتظر أن تتآزر النظريات والعمل المسلَّح ، أو أن تستعين القيادة العسكرية بأحد البرامج أو بكل البرامج ، فهل كانت البرامج غائبة ؟

ربما : هل كان الساسة المحترفون أسرع إلى القيادة العسكرية من الثوار السّاسة ؟

لقد أدى هذا إلى غياب نظرية ديمقراطية مبلورة ، فكانت التجربة الفعلية بديلاً عنها ، لكن هل يمكن أي عمل أن يحقق أدنى غاية بدون فلسفة مسبقة ومواكبة ؟

إن من يعمر داراً مضطر إلى الخطة الفكرية العلمية قبل وضع أي حجر . . . إن النظر الفكري دليل كل عمل مهما كان حجمه . فماذا تتبنى الثورة لكي تغاير الوضع الذي انبثقت منه ؟ لقد أسكتت الحرب المفروضة كل سؤال ، وكانت حماية النظام الجمهوري من السقوط أعلى الصيحات وأولى الغايات ، وهذا أمر ضروري غير أن امتداد الحرب قد أذهل عن البحث عن نظرية تكتسب مشروعيتها من الواقع وصحتها من واقعية فكرتها ، وعندما انطفأت الحرب عن جملة أسباب ، تعالى النداء بالحكم الجماعي وانتخاب المجلس الوطني ، ثم مجلس الشورى ، ثم مجلس الشعب أخيراً ، هنا أعلنت الديمقراطية نفسها من أعلى المنابر ، كمقاومة لديمقراطية أخرى وكدليل على ديمقراطية الوضع . . .

لكن هل تكوّنت أصول تلك الديمقراطية ؟

وهل أصبحت في مرحلة تأصيل تقاليدها ؟

هل سبقت فترة الإعلان مناخات حرة وممارسة قوى لأفكارها ؟

هل تكافؤ الفرص تحقق ؟

هذه أرضية الديمقراطية ، أو أول خيوط أرومتها ، لقد كانت آخر الستينات فرصة كافية لحرث الأرض وتأصيل الديمقراطية ، لكي تلي هذه المرحلة التقاليد الديمقراطية ، ثم مرحلة تطويرها إلى الحريات العامة ، ثم إلى الانتفاع بالحرية . . . عندما أعلنت الديمقراطية نفسها آخر الستينات ، كانت مشاكل الديمقراطية قد تفاقمت في الغرب ، فقد وصل التضخم أعلى ذرواته ، واتسع مضمار القلاقل بثورات الشباب كما سُميت ، وانتشرت بطالة الملايين ، واتسعت

الإضرابات العمّالية حتى عجزت الديمقراطية التقليدية عن مواجهة الضروريات والتحديّات . . . فهل تصلح هذه الديمقراطية الشائخة بداية تجربة أي شعب ؟ وهل نعني أننا نتبنى الديمقراطية التقليدية ؟

لابد أن نعتبر أننا في مرحلة التأسيس وأننا نمارس تجربة خطيرة نحاول إيجادها لا تجويدها ، لغياب الخلفية عندنا ، فقد سبقت المراحل الديمقراطية مراحل الصراع العنيف بين الاستعمار والشعوب ، بين الانتقاء والأوربة ، بين الإصلاح والمحافظة ، بين العلمنة والدين ، وكل هذه المهيئات التي كونت الثوابت عند غيرنا ، لم تتواجد في تأريخنا المعاصر لانعدامها في تأريخنا القديم .

من هنا فنحن نخلق ديمقراطية من الخيوط الدقيقة التي لاحت وانطفأت على وجه الستينات والسبعينات ، ولابد أن يسبق هذه المرحلة جو حر وفرص متكافئة وحس بالمسؤولية كمناخ صحي للوليد الموعود ، فإننا إلى الآن لم نصنع لشعبنا المتطلع أدنى ما يصبو إليه ، فماذا أنتم صانعون ؟

* * *

توحيد الواحد ووهميّة الشطرين

بعد أن خرجت الشعوب من خصوصيات القصور إلى عمومية الشعب ومن فلك الاستعمار إلى ملكوت التحرر ، رفضت كل تقاليدها العبودية ، فانطلقت من الشعب لا من القرية ، وتبنت غايات كل الجماهير بدلاً من المنطقة أو الحارة ، لأن الثورة تعبير بالشعب عن الشعب لكل الشعب ، لكونها وعي جماعي جاء من حسّ التغيير للكل . . . وبهذا أصبح الشعب كله قبيلة واحدة ، بدلاً من القبائل المتعددة التي صنعتها العبودية وصاغتها التقاليد الكهفية ، وتقبلتها الطفولة الإنسانية ولم يكن الخروج عن التقليد القروي والعشائري سهلاً ، وإنما احتاج إلى التضحيات بعد التضحيات وإلى التغيير من الداخل عن نضج ثقافي وطني ، لأن الشعب الذي يولد من الموت هو الذي يقهر الموت الآتي من أقبية الاستعمار ويتجاوز مذهب (العرصة) إلى الشعبية العظمى عن حسّ وطني إنساني دفعته الضرورة إلى تماهي الكل في الكل . . . ولقد كان شعبنا في الشطرين يعاني معاناةً واحدة ، الاستعمار هناك ، والاستبداد هنا ، السلطنات هناك ، والعرقيات العائلية هنا ، نفس محتل الشطر الجنوبي سياسياً هو نفس محتل الشطر الشمالي اقتصادياً . . . والاحتلال السياسي يتوخّى غاية اقتصادية حتى أنه شن الحروب تحت الصليب وتحت تأثير اللون لمزيد من الاستغلال ، فواحدية معاناة الشطرين بالاحتلال زادت من واحدية الشعب الواحد ، فظل واحداً على طول تأريخه الحافل بالصراع الطبقي : كان واحداً في ظل الحضارة المعينية والسبئية والحميرية ، ثم واحداً وموحداً في ظل الأذواء والأقيال ولم تؤثر على واحديته تعدد أسماء الإمارات ، ولما اشرأبت إليه مطامع

الاحتلال القديم تصدّى الشعب اليمني كله لدحر الاحتلال ، فقاتل اليمن بشطريه الغزو الروماني ثم الغزو الحبشي ثم الغزو الفارسي في فترات متلاحقة من ٤٠٠م إلى ٦٠٠م ... وعندما تعددت مناطق الإدارات في ظل الراية الإسلامية كان تعددها لا يمس واحدية الشعب ، وإنما كان ذلك التوزيع الإداري لتسهيل مهمة الولاة بفعل اتساع الأرض ، ولتهدئة القلاقل اليمنية المتلاحقة على العمال الوافدين من القصر الأموي بالشام أو القصر العباسي ببغداد ، وعلى تعاقب هذه القصور وولاتها ظل اليمن واحداً يقاتل الأعداء المتعددين ، ويصارع المستغلين من كل شكل إلى حد أن اليمنيين تعقبوا بالموت بعض الولاة بعد عزلهم من أمثال (معن بن زائدة) الذي قتلوه بفارس (ويحيى بن موسى) الملقب بالجزّار وأدهى قادة (المأمون) والذي لاقى مقتله ببستانه في الديوانية على مقربة من الخليفة . لهذا انتصرت عدة أنظمة رفعت راية وحدة الشطرين كراية : الصليحيين والطاهريين من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي .

وعندما تعددت الأنظمة في الشطرين ، كان الشعب واحداً ... كان الفاتكيون في (تهامة) مختلفين مع الزريعيين في (عَدَن) ، غير أن الصليحيين كانوا متحدين مع الزريعيين في المذهب الفكري الباطني الإسماعيلي ... وعندما قفز الخطر البرتغالي على الساحة مستهدفاً احتلال الشطرين في القرن الخامس عشر الميلادي تجمّع الشطران كجيش واحد ينازل البرتغاليين على شواطئ حضرموت ... وعندما استنجد (عامر عبد الوهاب) الطاهري بالمماليك حكام مصر في القرن الخامس عشر لصد البرتغاليين ، كانت هذه أول ثغرة ولكن في النظام لا في الشعب ... فقد كان الشعب يعادي أي نظام يعتمد على غير الشعب ، ويحتمي بالأجنبي أو يستعين به ... لقد كان الوجود المملوكي سبباً للغزو العثماني الأول في القرن السادس عشر وحين احتل الأتراك شواطئ (عَدَن والحديدة) وامتدوا إلى سائر المناطق في الشطرين قاتل الشعب

سلطة المحتل حتى ارتد على أعقابه بعد ثمانين عاماً ، وعلى أثر هذا الانتصار سادت التجزئة مناطق الشمال ومناطق الجنوب فتعددت (الأئمة) في مناطق الشطر الشمالي وتعددت الزعامات في الشطر الجنوبي ، فأدت تجزئة الأنظمة إلى الحملة العثمانية الثانية ، وهنا اشتعلت مقاومة الشعب من آخر القرن التاسع عشر إلى آخر العقد الثاني من القرن العشرين ، وعلى أثر هذا الانتصار قامت عدة رايات : في تهامة كان الإدريسيون ، وفي الجبال الخلافة المتوكلية ، وفي الجنوب تسع سلطنات ، ومن هنا ابتدأ الشعب يناضل التقسيم ، فحاول إقامة نظام للشطرين بعد الأتراك فاسترجع الشمال بعض (تهامة) ، ورغم تخاذل السلطة (الإمامية) بصنعاء وطموح السلطنات في الشطر الجنوبي ، فإن تخطيط الشعب الواحد ظل واحداً ، وإن تعدّدت مواقعه ، فتواصل نضاله من آخر العشرينات ضد الاستبداد الذي ورث الاتراك في الشمال وضد الاستعمار البريطاني الذي احتلّ مكان الاحتلال التركي ، ذلك لأن الشعب واحد في وجه المطامع المتعددة وهذا ما فطن إليه الحكم الاستقلالي بصنعاء ، حتى أن (الإمام يحيى) رفض تسمية مناطق الجنوب بالمحميات وسماها (النواحي التسع) باعتبارها نواحياً من اليمن تنتظر التحرير . من مستهل الثلاثينات تبدّى اختلاف الثقافة بين الشطرين عن هدف تسييسي ، فكانت ماضوية الأفكار أغلب ثقافة الشطر الشمالي كفلسفة حكم ، وكانت ثقافة الشطر الجنوبي من اللون الماضوي التقليدي ومن جديد الإلهائيات الاستعمارية رغم تنافر اللونين ، إذ كان الاستعمار يؤكد الحس الشافعي ويزعم حمايته من الزيود ، وإلى جانب هذه الماضوية افتتح دور السينما التجارية والملاهي والبارات ووقف في وجه قيام النقابات المتحررة متغاضياً عن النوادي الأدبية والقروية والصحافة غير الملتزمة لانعدام خطورتها ، غير أن اختلاف الثقافتين كان من صنع السلطتين لا من اختيار الشعب الواحد لأن المعارف لاتتجزأ والثقافات المتعددة توصل إلى خير ما فيها لكي ينشأ منها غيرها بمقتضى التغيرات ، وبمقتضى النظام المعرفي لهذا

فشل التخطيط في التجزئة الشعبية عن طريق تكييف ثقافة لكل شطر ، فتعاون المثقفون في الشطرين على اجتياز ثقافة القبور إلى الحياة ، وعلى الخروج عن مذهب الحارة إلى شعبية العمل والإبداع لتجاوز الثنائية الثقافية التي لا أصل لها في الجذور التأريخية ، وذلك لأن عصر الإنسانيات أفاض معطيات ثقافية جديدة ، قضت على الثقافة القروية والعصبيات البدائية ، ولم يبق من الثقافة المحلية إلا مجرد أساس أصيل لإبداع جديد ، ومن مطلع الأربعينات زادت واحدية الشعب رسوخاً بفضل حديث الثقافة وحداثة التفكير كثمرة للتثقف عن نزوع وطني تغييري ، فتشابهت أجناس الإنتاج الثقافي في صحف الشطرين وفي أدبيات الشطرين وبالأخص الشعر ، إذ دخلت مقادير من الحداثة على شعر : عبد الكريم مطهر والزبيري والعزب وعلي عبد العزيز نصر في الشمال ، وعلى قصائد : جرادة وغانم وعلي محمد لقمان في الجنوب ، ومن مطلع الخمسينات ابتدأت مسيرة الشعب الواحد تناضل الاستبداد في الشمال والاستعمار في الجنوب ، لكي تحقق الدولة الواحدة فتنمحي وهمية الشطرين ، وتتوّج كل هذا النضال بانفجار ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ وثورة الـ ١٤ من أكتوبر ١٩٦٣ .

وكانت الثورتان من صنع الشعب الواحد في الشطرين . . .

عندما أحسّت الجماهير في الشطرين فرار (الإمام) المخلوع من (صنعاء) عام ٦٢ تألّبت الجماهير عل ترسيخ العهد الجمهوري في الشمال فأقبلت الجموع من (عَدَن) و(تَعزّ) ومن (يافع) و(البيضاء) ومن (لحج) و(خولان) ومن (دثينة) و(الحديدة) دون أن تحسّ من أين جاءت وإنما تعرف إلى أين جاءت فقد انخرطت كل هذه الجماهير في سلك الحرس الوطني فكونت جيش الثورة عام ٦٣ ، وازداد هذا الجيش أفواجاً إلى أفواج فقاتل العدوان في شمال الشمال وأشعل فتيل الثورة في جنوب الوطن ، لأن اليمن الواحد كان يلاقي عدواً موحّداً . فقد التقى الاستعمار بالفلول البائدة الفارّة من

ثورة الشمال وانضمّت كل الأنظمة التقليدية في جبهة واحدة ضد ثورة الشطر الشمالي وضد احتمال الثورة في الشطر الجنوبي ، وزادت الجبهة تكاثراً ضد (اليمن) من شاه إيران إلى سلطان بيحان . . . لهذا أجج اليمن ثورة (ردفان) إلى جانب معارك (سنوان) و(الجوف) و(حرض) وكان عام ٦٤ عام تكامل الثورة اليمنية كثورة واحدة لشعب واحد وإن تعددت مواقعها ، في ذلك العام دخلت ثورة الشطر الجنوبي إلى قلب (عَدَن) وامتدت سيطرة ثورة الشمال إلى (صَعْدة) و(الجوف) . من هنا عرف كل الأعداء أن (اليمن) واحد وأن ثورته واحدة .

من عام خمسة وستين أخذ الاستعمار العالمي ينظم المؤامرات على الأنظمة الثورية ، وعلى الجماهير الثائرة في الوطن العربي كله ، وظهرت أول خيوط النوايا في شكل مؤتمرات باسم التصالح اليمني : كمؤتمرات أوركويت واليونان والطائف ، وتجلّت قمة تلك المؤامرة في عدوان عام ٦٧ ضد ثورة (مصر) التي كانت تؤازر ثورة اليمن في شطريه وضد جماهير الأردن وفلسطين ، وفي تلك الفترة كانت الثورة في الشطر الجنوبي قد حققت استقلالها بعد معارك ضارية بين الشعب والاستعمار ، وبين فصائل المقاتلين في أوقات كثيرة ، بهجمة عام ٦٧ حاول الاستعمار ترسيخ شطري اليمن كامتداد لمحاولاته السابقة : كتسمية الجنوب العربي ، وتسمية اليمن الجنوبية ، وتسمية اليمن العربي والجمهورية العربية إلى غير ذلك من المصطلحات الاستعمارية التي تهدف إلى تجزئة الواحد من خلال تعدّد التسميات ، كشكل يتطلب محتوى تجزيئياً ، غير أن الواحد الذي انشطر سياسياً برغمه لم ينشطر اجتماعياً وثورياً ، رغم المحاولات المتعددة لإجهاض العمل الثوري في كلا الشطرين ولتكريس التشطير كما دلت الأحداث المؤسفة والمتشابهة في الشطرين ، وكما حدث القتال بين الفصائل المناضلة في الشطر الجنوبي عام ٦٦ ، انفجر القتال بين

جيش الثورة والنظام التصالحي في الشمال في أغسطس عام ٦٨ ، وكانت معركة أغسطس عام ٦٨ بصنعاء كمعارك شوارع عَدَن عام ٦٦ ، وهذا التشابه في وجوه الأحداث انعكاس لوجوه المؤامرة على واحدية (اليمن) ، وانعكاس لواحدية أهدافه معاً ، فقد كانت المؤامرات تحاول إجهاض الثورة أو القضاء عليها بيد قياداتها من داخل مواقعها . . . لهذا تسللت إلى القيادات الثورية هنا وهناك فاصطرعت القوى فيما بينها لقلة خبرة القيادات ، ولطفولة تجربة الجماهير ، غير أن الشعب الواحد ظل واحداً ، ولم تصل أصابع المؤامرات إلى الجوهر الثوري الواحد .

من آخر الستينات أشعلت المؤامرت معارك سمّتها حدودية بين الشطرين ، ورغم تلك المناوشات المفتعلة ظل الشعب واحداً ، وظلت المؤامرة تنسج خيوطها ، حتى أدت ثمرتها المُرّة في صورة أحداث ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ وأدت تلك الحرب المؤسفة إلى مكاشفة النفس ومعرفة رؤوس الحراب ومعرفة الأكف التي مدّت الحراب . لهذا كانت حرب سبتمبر ٧٢ الأم الطبيعية لفكرة إعادة وحدة اليمن لأن الحرب على مآسيها تستنزف الدم الفاسد وتحرك رواكد المياه لكي تتجدد .

لكن كيف توحيد الواحد ؟

وهل أصبحت الثنائية أمراً واقعاً ؟

لقد دلت الدراسات أن أحداث ٧٢ مجرد عرض طارئ ، وأن مؤامرة التجزئة قد سقطت ، وكانت المؤامرة تستهدف ضرب شطر بشطر ، فكانت الغاية المعاكسة حتمية وحدة اليمن الواحد .

من عام ٧٣ ارتفعت أناشيد الوحدة في الشطرين وانتظرت الجماهير التنفيذ بمقتضى بيان (طرابلس) وإرادة الواقع اليمني . غير أن الوحدة لاتصنعها

البيانات ولا تولد في مكاتب اللجان وإنما تولد تحت الشمس كبُنّ (يافع) و(الحيمة) ، لأن واحدية هذا الشعب مواكبةٌ لشمس جباله مخضرة تحت كل فصول أزمنته . فهل كان بيان الوحدة ولجانه مجرد مظلة للمؤامرات ؟ لقد اهتدت الجماهير إلى مماطلة الوعود ورأت أسفار اللجان بين (صنعاء) و(عَدَن) مجرد صلات تحاول أن تكون بديلاً عن الوحدة ، فأشارت أصابع الاتهام إلى المزايدين والمناورين بتهمة التواني عن الوحدة وبإخلاف الميعاد . من هنا فرضت الجماهير على القيادات اتخاذ خطوات أسرع في طريق الوحدة وأدت هذه الجديّة إلى أحداث ١١ أكتوبر بصنعاء عام ٧٧ كان ضحيتها رئيس مجلس القيادة إبراهيم محمد الحمدي ، الذي كان عهده أزهى العهود الجمهورية ، ثم إلى أحداث يونيو ١٩٧٨م في صنعاء وعدَن معاً التي كان ضحيتهما رئيس الجمهورية أحمد حسين الغشمي بصنعاء ورئيس المجلس الجمهوري في اليمن الديمقراطية سالم ربيّع علي ؛ فهل انتهت الوحدة بانتهاء ثلاثة من القياديين ؟ إن الشعب وهو مصدر القيادات وينبوع فكرياتها ظل واحداً كما كان واحداً ، كما أن خيول الروم لم تتغير وإن غَيَّرَتْ ميادينها وألوانها ، لهذا جدَّدت المؤامرات أدواتها فكانت حرب فبراير ٧٩ تستهدف ضرب شطر بشطر في الظاهر وقتل واحدية اليمن في الباطن ، من عام ٧٨ إلى مطلع ٧٩ كشفت المؤامرات عن كل وجهها ، وكشفت حقيقة واحدية (اليمن) عن كل أسرار تأريخيتها وعن كل ضمائر أصالتها .

ومن مارس عام ٧٩ زاد نشيد الوحدة حماساً وعلوّاً وزادت حقيقة (واحدية اليمن) تألقاً وبروزاً وكان ظن الرجعية العربية يرى (عبد الفتاح إسماعيل) أممياً مغالياً لا يمكن تقبّله الوحدة مع المتخلفين فإذا بعبد الفتاح أسرع استجابة قابلاً تنازله عن رئاسة الجمهورية إذا كانت معوّقاً لتحقيق الوحدة ، وفي مصالحة الكويت قال عبد الفتاح : من الآن أتنازل لعلي عبد الله صالح

لرئاسة جمهورية اليمن الواحد عن طواعية واختيار ، فتألّبت عليه المؤامرات حتى خلعته من كل سلطاته ، وكانت هذه أعنف ختام حوادث السبعينات . ومن عام ٨٠ إلى الآن ٨٣ زاد تطلع الجماهير إلى واحدية (اليمن) الديمقراطي الثوري فشكل ضغوطاً متوالية على الرؤوس العالية ، لإعلان (الوحدة) رسمياً كما أرادها الشعب ، وأصَّلها التأريخ واختزنت حرارتها نفوس الجماهير وحنايا التراب . . . ومرت شهور وعادت شهور وجماهير الثورة تعمّق الوحدة وتصنع إمكانيات إعلانها ، غير أن الصورة القديمة عادت في آخر السبعينات ومطلع الثمانينات ، فذهبت لجان وعادت لجان ، واستقبلت عواصمنا وفوداً وودعت وفوداً ، ولكن ليست هذه هي الوحدة . . . قد تكون بشكلياتها ولكن طول مدة هذا التشكيل جعلته يتبدى كبديل عن الوحدة ، لأن طول استعمال الوسائل يفقدها إمكانية الوصول إلى الغاية ولا يجعلها بديلاً عنها ، قد يتزاور المسؤولون وهذا جميل وقد تسافر الوفود وهذا جميل ، لكن هذه علاقات وليست وحدة ، هذه اتصالات ودية قد تؤسس إعلان الوحدة ، ولكن ليست الوحدة . إن ثمان سنوات من المواعيد واللقاءات واللجان كافية لإعلان الوحدة ، لأن الجماهير لا تتحمل مدة أطول لعقد جلسات التأجيل ، لأن السرعة تسود كل حياتنا إلا أكثرها أهمية فإنها سلحفية السير . اليوم ونحن في منتصف عام ٨٠ ننتظر إشراقة وحدة اليمن الواحد . فلماذا تعوقها المواعيد وهي مجرد دليل على الإنجاز ؟ ولماذا تؤخرها كَثرة اللقاءات وهي مكلفة بتحقيق الوعد قبل أن تنسحب الثقة من أماكنها ؟؟ إننا إذ نرحب بالزوار في عاصمتهم الثانية ونودعهم إلى عاصمتهم الثانية نذكرهم أن هذا التحرك ينتظر النتيجة العاجلة في إعلان تحقيق الوحدة . أمّا هذه الاتفاقيات التجارية ولقاء المؤسسات وعقد الجلسات التأجيلية فهو مجرد علاقات تجري بين شعوب متباينة وأنظمة مختلفة كظاهرة ودّية أو كتعبير عن حسن النوايا أو كتحقيق مصالح مشتركة ، لكي يشمخ أمام الأطماع ولكي يمتلك شموخه على أرضه وسيادته على أعنة مصيره ، لقد أصبحت الوحدة أكثر من

ضرورية ، لأن تغطيتها باللجان واللقاءات والجلسات يتيح للمؤامرات الرجعية التقاط أنفاسها لكي تنسل من جديد . إننا إذ نبارك اللقاءات ننتظر نتائجها الحتمية الفورية وكما ننتظر شمس الغد ننتظر أن تطلع الوحدة من جلسات التأجيل إلى واقع الوجود المشمس ، لكي يتوحد الواحد ، لأن الصعوبات أمام توحيد الواحد أهون من توحيد الاثنين لاختلاف تركيبهما ، أما شعبنا الذي انشطر برغمه فلم يقبل الانشطار وإنما هو يعبّر عن واحديته فلتنطلق الوحدة من واقع الثورة اليمنية كما انطلقت مدافع الثورة تحت النجوم والشموس ، إن هذه الصفحات التي تؤرّخ واحدية اليمن تعبّر عن الملايين من المغتربين والمقيمين في وحدة اليمن الواحد ، حتى لاتصبح الوحدة مواعيد بلا ثقة ، ولقاءات بلا جدوى ، إن تحسين العلاقات غير قيام الوحدة ، إن بروتوكول اللجان غير قيام الوحدة ، إن لقاء المؤسسات التجارية والثقافية غير إعلان الوحدة ، إذا كانت هذه وسائل حقيقية فإنها تختلف عن غاياتها بمقدار اختلاف عناقيد البن عن أوراق أغصانه . إن طول أعمال اللجان وتكرار المواعيد والاتصالات لايشكّل بديلاً عن الوحدة كما لاتشكّل واحدية اليمن عقبات توحيده ، ومهما اختلف لون الرايات فإن تجارب الشعوب لا تختلف ، ومهما تباينت الشعارات فإن الصوت واحد ورافع الشعارات واحد ، وبالأخص شعبنا الذي ينتمي إلى تربة واحدة ويرنو إلى مستقبل ثوري واحد . إذا كانت فكرة الوحدة ولدت رسمياً في مطلع السبعينات فإنها قد تحققت شعبياً منذ ثلاثة آلاف عام ، وإذا كانت لجانها بدأت من مطلع السبعينات فإن الثمانينات زمن الوحدة بلا (بروتوكولات) وبلا شروط ، سوى الشرط الاجتماعي لشعبنا ، والشرط التأريخي لمستقبلية اليمن الواحد الذي رفض الشطرية وزرع الواحدية في تربة الاستشهاد البطولي ، إن شطري اليمن مجرد وهم انتفت وهميته وانطلاؤها من مطلع الستينات لكي تتألق الوحدة في الثمانينات متكاملة الشروط وردية الجبين بنيّة الراية والإرادة . فإلى واحدية اليمن يا شعبنا الواحد العظيم .

الثائر من حقيقته إلى تحقيقه

روَّج كثير من المفكرين لتأثير البيئة الاجتماعية والمكانية ، وكان هذا الترويج يتوخّى منع التجاوز أو يقرر استحالة التجاوز ، ومن الأكيد أن للبيئة المكانية والاجتماعية تأثيراً ملحوظاً ، لكنه غير مانع من التجاوز ، وليس خروج الإنسان عن البيئة كخروج كيان الإنسان عن جلده ، لأن البيئة من صنع الناس وطوائف مؤثراتهم ، وبمقدار تغيرهم من الداخل يغيرون الخارج فيقتحمون نفوسهم إلى نفوسهم الأخرى ، فإذا لم يكن في مقدور المرء أن يتخلى عن تركيبه العضوي ، فإن في مقدوره أن يغير صيغة داخله حتى يخلق منه بديلاً عنه تام الانفصال عن أصوله ، وقد ثبت أن الثوار الحقيقيين يتجاوزون تقاليدهم البيئية عن طريق إعادة صيغتهم الداخلية ، التي لا تتحقق إلا بطول مزاولة تُرهف الملكات .

إذن فالثائر يأتي من التقليدي كما يأتي النهر من منبعه ، فيخرج عن تقليديته إلى تجدده الدائم ، فكما أن النهر يختلف عن منبعه فهو يختلف عن نفسه بالتدفق الدائم وبالتماهي في التربة والجذور التي يُرَويها ، كذلك الثائر يخرج من تقاليده لكي يثبت حقيقته التغييرية ، ثم ينتقل من حقيقته إلى تغيير سواه ، كما فعل النهر حين يحقق وجوده بما تنبثق عنه عوالم الاخضرار والازهرار بفعل تغيير التربة الذي توالد من تغيير الري . . . فأول مهمات الثائر أن يتغير حتى يتبدّى حقيقة جديدة تنتقل بالتحقيق إلى ملايين الحقائق ؛ صحيح أن هذا التغيير ليس سهلاً ولكنه غير مستحيل ، فملايين الأفذاذ من الأفراد والشعوب تغيرت وغيرت وراءها تقاليدها كما تترك الأشجار أوراقها الشتائية

لمهبات الرياح .

اختلف (محمد رسول الله) عن تقاليد أبيه وجده ورمى جسده التقليدي على باب (غار ثور) لكي يخرج منه إنسان جديد عدائي لأشرس التقاليد الوثنية الرجعية الاحتكارية ، ولم يتجاوز كيانه التقليدي بسهولة ، وإنما بعد هزة (جبريلية) حطّمت (محمد بن عبد الله) لكي يخرج منه (محمد رسول الله) ليصبح هذا الإنسان الجديد حقيقة مغايرة تغير كل الحقائق الثابتة وتستنبت كل الحقائق التحولية ، وبتغييره غيّر ما كان قائماً وأقام كل ما كان ممكن القيام ، فكان الصحابي يقاتل أباه وأخاه بعد أن كانت العصبية ديناً بلا نبوة أو بنبوة أرضية من صنع الأعراف . . . لهذا نشأ مجتمع جديد لأن الثائر القائد نسف تقاليده فجذّر جِدّته في غيره بعد أن حققها في نفسه ، ليس من المحال تجاوز المألوف إلى نقيضه ، لأن في كل إنسان إمكانية تغيير نفسه وإمكانية تغيير سواه ، ولايأتي هذا إلا بالصراع الدائم بين تقاليد المرء وتجدّده بين أنانيته واجتماعيته ، فليس كل إنسان عبد منفعته الخاصة بالضرورة كما قيل ، لأن في مقدور الثائر تحقيق سيادته على المنافع العامة . . . جاء (عقيل بن أبي طالب) إلى أخيه (علي) وهو (إمام) فاستوهبه قدراً من المال ، فقال (علي) : لاأملك شيئاً ، فقال (عقيل) : تحت يدك خزائن العراقين ، فقال (علي) : تلك أموال الأمة لا أملك منها نقيراً ، فلاذ (عقيل) بمعاوية غير مأسوف عليه . . . هذان الأَخَوان من بيئة واحدة أحدهما تجاوز بيئته وتجاوز كيانه العائلي واندغم في غمار الجماعة المتغيّرة ، وثانيهما ظل حبيس تقاليده المكانية والجسدية فالتجأ إلى مثيله .

إن تحقيق الثورية مُهِمَّة شاقة لا يقتدر عليها إلا أقوياء النفوس ، ولكنها ليست مستحيلة ، ولا أقوياء النفوس من الندرة وإنما هم كثرة بكثرة الشعوب وبديمومة نضال الشعوب . . . قد تبدأ الثورية الداخلية فردية أو إفرادية ، ولكنها

بتبلورها كحقيقة تصبح في الجموع ، لأن التغير الإبداعي لا يأتي إلا من متغيرين بدؤوا بتغيير صيغتهم ثم صاغوا قواعدهم من منظور إبداعي وعن رؤية جديدة ، وكل هذه من إمكانيات الإنسان إذا تعهدها التنامي والترويض على التجاوز ، لأن هذه الإمكانيات مزروعة في الفطرة ، فالإنسان يتجاوز صلب أبيه إلى طوايا أمه ثم يخرج عن أمه عن انفصالين من الأبوين ، وهذه بذرة إمكان التغير والتجاوز المتواصل كالنهر تماماً ، حتى أن محاولة التجاوز المتّصلة قد أدّت بأفراد إلى أفدح التضحيات ، أوصلت عبقرية الرؤية (نيتشه) إلى الجنون كبحث عن الأعلى ، لأنه رأى المعقول في عكسه وذلك عندما أصبح ما هو ضد العقل هو العقل كما رأى التقليديون . . . مثل (نيتشه) (بيتهوفن) فقد أراد أن يتجاوز المسموعات إلى حنايا الصامتات لكي يعزف لغة الصمت ، فأوصلته عبقرية السماع إلى الصمم لكي يسمع أفضل بغير أذنيه ، لأن السماع بالأذنين أصبح تقليدياً ينبغي تجاوزه إلى سماع الصمت بحاسة سادسة أو سابعة ، فقد أبدع أعظم معزوفاته عندما تجاوز تقاليد السمع ، فقد كان صمم (بيتهوفن) ثورة إبداعية ، كما كان جنون (نيتشه) عقل جديد يحقق (السوبرمان) في الحلم حين عز تحقيقه في واقع العيان ، كذلك كان عمى (المعرّي) سبب إشعال العيون الداخلية فيه ، حتى رأى ما لا يرى ملايين المبصرين ، وكان أول من فطن إلى العيون الداخلية كما يقول :

سـواد العيـن زار سـواد قلبـي ليتّفقـا علـى فهـم الأمـورِ

هذه أمثلة للثورة الفكرية والفنية ، وهي من جملة التجاوزات الإنسانية مما يسمى واقعاً إلى ما يمكن وقوعه . . . ولا تقلّ الثورة الاجتماعية مكابدة عن الثورة الفنية والثورة الفكرية ، لأن كل الثورات تبتغي هدفاً واحداً : هو تحطيم ما كان وإقامة ما ينبغي أن يقوم ، فإذا لم يحقّق الثائر نفسه وينتقل إلى تحقيق التغيير في خارجه فهو لم يصنع شيئاً وإنما أحسّ صنع شيء ، والثورة الكاملة

تبدأ حسّاً بالتغيير ، ثم وعياً بنوع التغيير ، ثم خلق ملكات جديدة تتناوب المواقع وتتآزر على بلوغ الهدف ، فيحل الأجدّ مكان الجديد عن تواصل يتلو تواصلاً .

فإذا كنا إلى الآن لم نثر ! فلأننا لم نُعِد صياغة نفوسنا لكي نصيغ سوانا . . . لقد انفجرت عدة ثورات ولكن عن حسٍّ ، ناقص وعي ، وثورات السلاح وحدها عمل تقليدي من العهد الحجري إلى الآن ، فكل الحيوانات تتناهش على الفريسة وتقتتل على الأنثى ، كذلك البشر تقاتلوا على المراعي والمناهل وعلى الغنيمة والسبيجة والضعينة ، وعلى الرغيف ، ثم وصل القتال إلى معترك السلطة ولكن الغرض واحد : من يحكم ؟ بدون سؤال : كيف يحكم . . . تساقطت تيجان وارتفعت تيجان دون أن يتغير سوى اللون ، لأن الذين طمحوا لم يكونوا أكثر تغييراً من الذين تشبثوا بمقاعدهم .

إذن فالسلاح أداة تقليدية لا يكسر إطار تقليده إلا تغيير مفهوم استعماله وتغيير توجيه استعماله ورقي غايته ، وإلا لا فاعلية له أمام القوة المتغيرة داخلياً ، وقد لاحظنا أن الثورات التي هزت العالم من الأساس اكتسحت بدون سلاح أعنف الأسلحة . . . اشتعلت الثورة الفرنسية حتى أحرقت نارها الحماسية بنارها ، لأنها تجاوزت تقاليدها دون أن تكسر تقاليد غيرها . . . لكن هل انطفأت ؟

لقد انتقل حريقها الكبير إلى العالم ، فكانت كل ثورة تهتدي بشرارتها وترفع شعائرها ، لأنها جاءت خلاصة التفكير الثقافي الأوربي ، فامتدت من حيث جاءت على ضياء الثورة الفرنسية . . . فما سبب احتراقها ؟؟ .

لأنها صاغت خطواتها قبل أن تصيغ طريقاً جديداً لزحفها ، ولأنها كانت وسطية الطبقة ، وكانت الأفكار العملية كمِلكية خاصة للبرجوازية بفضل ما

حققت من وسائل العيش . . . لكن هل احتكرت هذه الطبقة عن سواها الأفكار ؟

إن الأفكار لا تقبل الاحتباس وإنما ينشق عنها نقيضها من صميمها ، برجوازية الثورة الفرنسية خلقت نقيض البرجوازية وعزّزت إمكان البرجوازية ، مهما أكلت الثورة نفسها فإنها تحوّلت إلى نفوس غيرها بشكل مشابه وبشكل معاكس ، وأهم ما في الثورة أنها وليدة التغيير ، ولهذا غيّرت ولو بعد حين ، لأنها نشأت في ظل الجماليات الملوكية وتحت أغاريد أدب الصوالين الأميرية . وهذا ما دعا كبار الروائيين إلى التزام الملوكية ، لأن (ثورة الدكاكين) كما قالوا : « تعرف الأسعار وتجهل ملكوت الأشعار » .

إذا كانت هذه الثورة عزلاء من السلاح ، فإن تغيّر الثوار أنجح سلاح ، كما برهنت ثورة أكتوبر السوفييتية التي اكتسحت الدبابات والمدافع بصدور عارية ولكن بوعي تغييري تقوده عبقرية فلسفية وتسوقه عبقرية إرادية ، ولم تكن هذه هي الثورة الأخيرة بل اشبهتها من بعض الوجوه الثورة الإسلامية الإيرانية آخر السبعينات فأسقطت أعتى قوة في العالم الثالث بدون سلاح والآن تجابه قوة الإمبريالية بنفس الإصرار الثوري . . .. فماذا عن ثوراتنا ؟

من مستهل الخمسينات هبّت الثورات في أقطارنا . . . ولكن كيف كانت ؟ . . .

ومن أي الينابيع انهمرت ؟

لقد تصاعدت عن حسّ شعبي ولكن غير تغييري ، لأن سائق المدرعة لم يخلّف وراءه سائق الراحلة وإنما امتد منه رغم عصرية الآلة وسلفية الراحلة . . . لقد كان تفجير السلاح ضرورياً لأنه يقتلع سلطة مسلّحة . . . لكن هل اختلف نوعا الوعي بين الذي قام من قعود وبين الذي قعد من قيام ؟

لقد كان القائم الجديد شديد الحسّ بالفساد قوي النوايا للتغيير ، غير أن التغيير لايتحقق بالحسّ الخارجي والنوايا الدخلية ، وإنما بتحطيم الداخل التقليدي كلياً وانبلاج الداخل الجديد في الثائر .

لكن هل هذا كان ممكناً في واقعنا العربي ؟

إن الإمكان شيء والانتفاع به شيء آخر ، إن العربي واحد من الناس يمكنه إعادة خلق وجوده لأن وراءه مئات النظريات العربية في تجاوز سن التقاليد إلى الجِدَّة . . . قال (ابن سينا) : « يأتي الوليد جديداً حتى يغرس الأهل في فراغ نفسه عاداتهم » ، فهذه دعوة تربوية لرفع راية العصيان على الأبويّات ، وإلى مثل هذا يشير ابن الرومي :

لـولا عـلاج النـاس أخـلاقهـم إذن لفــاح الحمــأ الـــلازبُ

علاج الأخلاق دعوة إلى تجاوز الطين اللازب عن طريق ابتكار صياغة مغايرة للحمأ المسنون والطين اللازب ، إن هذا البيت مستمد من أقباس فلسفية رأت الإنسان كالنهر يتجدد دون أن يرى أحد تجدده ، كما رأت فلسفة أخرى تكوين الإنسان من تراب ونور وأن هذين المزيجين يظلان في صراع ، النور يطمح ، والطين يكبح ذلك الطموح ، وفي هذا الصراع تكمن إمكانيات التغيير المتلاحق ، فليس التأريخ العربي خالياً من الفلسفة التغييرية ولا الإنسان العربي أعزل من إمكانيات تجاوز الإنسان لذاته إلى تغيير مجتمعه إلى تلاحق تغيراته .

فلماذا لم يغيِّر ثوارنا ؟ . .

لأنهم بدون تغيير داخلي يصعدون منه ، وإنما أكثرهم من نوع ذهنية السلطة التي حلوا مكانها ، والشواهد على هذا ، سجل الثورات نفسها ، فقد خرج على الملوك ياوراتهم وحرّاسهم وأركان حروبهم ، وهذا غير معيب في ذاته ، فمن الجائز أن يختلف رئيس أركان الحرب عن الملك والياور عن سيده ،

لكن الأهم من هذا نوعية الثائر ومقدار خروجه عن تقليديته هو ، حتى ينقطع الثائر عند حلم الثورة وحقيقتها عنه ، قبل أن يهجس فيه داعي الخروج عن الكيان الموروث ، لقد ثار على الملوك قادة جيوشهم بدون تغيير نوعي فتحققت ثورات ولكن ناقصة لمحدودية التغيير في الثائر ، ولضآلة تأثير هذه المحدودية ، لأن القليل يعطي الأقل . . . وهذا ما جعل الثورات العربية ناقصة التكوين .

فهل يمكن نمو هذا النقص إلى الكمال أو هل يؤدي إلى تزايد النقص ؟؟

لقد ظل النقص في تنامٍ إلى الأكثر نقصاً ، فأدّى هذا إلى الثورات المضادة اعتماداً على النقص الذي تسمّى سلبيّات تحوّلت إلى إيجابيات للثورة المضادة ، لأن تلك النقائص التي تراكمت مع ثوراتنا رسّخت الركائز الكثيرة للثورة المضادة ، فأدّت الثورة الناقصة إلى الرِدّة الكاملة ربما لمدة أطول . . . كما ثار قادة الجيوش على الملوك في الخمسينات والستينات ثار نواب الرؤساء على الرؤساء أو النواب على النواب في السبعينات ، فكانت كل هذه الحركات فوقية بمعزل عن الطاقة التحوّلية في نفس الشعب . . . والأساس لكل هذه الحركات المتشابهة نقص ثورية الثورة الأولى ، لأن حضورها الحسّي على العدو الأول جعلها في غيبة عن نفسها الجديدة كلون الثورة .

إذن فليست الثورة تحريك دبابة أو احتلال إذاعة أو إعلان بيان تتبعه مَرْشات ، كل هذه مجرد لحظات عاطفية أو مجرد روائح آنيّة لحسّ آني . . . أما الثورة التأريخية فهي انقطاع الثوّار عن أنانيتهم ودخولهم أرضاً جديدة بالثورة ومع الثورة ، هذه هي الثورة التي تنقشها الشمس على صفحات التحوّل الدائم . . . قد يكون مطلق النار بطلاً وقد يكون مستقبِل الطلقة بطلاً وقد يستشهد شجاع تلو شجاع . . . لكن السؤال ماذا حقق الاستشهاد ؟

هل هي بطولة تغييرية من متغير ؟

ما أبعد الفرق بين البطولة التغييرية وبين البطولة الحربية ، تلك تفتتح عالماً جديداً وتلك تمدّ تقاليد صراعية غير تغييرية لانطلاقها من تقليدي لم ينفصل عن مناخ الآباء .

لقد استحكم الفساد في تركيب العالم الثالث عن علمية استعمارية وعن توارث تقليدي فيه ، ولا يمكن أن تغيّر هذا ثورات السلاح إلا عن جدة أصيلة وعن أصالة متسارعة التجدد ، وبهذا يثبت الثائر حقيقته كنبي أرضي ، وينجز تحقيقه في الأرض التي انتقل إليها من الأرض الفاسدة .

صحيح أن في كل واقع فاسد عناصر سليمة ، وقد يكون البحث عن النقاوات فيها جزءاً من مراحل التغيير ، باعتبار أن أنقى العناصر في القائم تشكّل أول أساسيات الممكن ، ومن المستحيل أن يشمل الفساد كل شيء وإلا لما كان تغيّر الثوّار رد فعل على السيئ لكي يتألق الممكن الأبهى ، ولعل ثورات الخمسينات والستينات لم تقدّر أنها تنمي معاكساتها أو أنها كانت تقدّر ذلك وتعجز عن تغييره لضعف التغيير فيها ، فكلما كانت تقتدر عليه تلك الأنظمة الثورية هو إمساك وسط العصا بين القوى كلها كمصالحة بين التناقضات أو توازن بين القوى . . . فكان المسؤولون من الخليط المتنافر وكانت الذروة العليا تحتمي بتصارع المتنافرات ، وكانت تشكل مناصب من اليمين واليسار والوسط وتارة تقوّي جانباً وتارة تضعّف آخراً بمقتضى الطقوس الدولية .

وبهذا أصبحت الثورات شبه إصلاح وشبه تصالح بين الكائن وبين الذي ينبغي أن يكون ، وكانت السلطات أكثر ضغطاً على التغييريين تحسباً لخطورتهم ، حتى داهمها الخطر من حيث لا تحتسب وهي القوى الرجعية التي وقعت بدورها بين خطرين من الأكثر ثورية ومن الأكثر رجعية ، وكل هذا ناشئ من مستهلّ المسيرة الثورية ، لأنها أحسّت بالتغيير دون أن تعي نوعيته ودون أن

تغيّر أدواته وماهيته ، في شكل قواعد مسؤولة وفي شكل رقابة ناقدة عن مسؤولية ، بل إن السلطات الثورية ألغت كل التنظيمات وعندما حاولت استحداث بديل شكّلت مجرد موظفين ومصفّقين لم يمسهم أي تغيير لأن الذي شكّلهم كان لا يملك قوة تغييرية في نفسه حتى يغيّر بها أدواته .

فهل حدث شيء ؟ وهل ثرنا ؟ وهل غيّرتنا الثقافات ؟؟ لقد حدث شيء كثير ربما لم يُستغل جيداً ، وربما لم يكن كافياً ، وربما لم يحدث ماكان ينبغي أن يحدث . . . مهما يكن فقد كان هناك اتجاه ولكنه خلق معاكساته من أول هجسه بالتغيير حتى أسقطته المضادات ، والآن تنتظر المعاكسات عكسها .

فهل اجتاحته التغييرات لكي يغيّر ؟

لعل البديل سيختلف عن نوع بديله ولا يكفي أن يكون عكسه وإنما طاوياً لكل تأريخه مبتدياً عالمه من أول خطواته المتغيرة المغيِّرة ، هناك يجدّد الثائر حقيقته ويبتكر تحقيقه مبتدئاً بالإنسان كمصدر للتغيرات ، مُثَنّياً بتجاوز الضرورات لكي يتمادى صراع الجديد ليبزغ الأجد ، لأن كلّ ما تحقق يستدعي مزيداً من التحقيقات ، وتغيّر الإنسان هو الذي يبصِّر بصنع التغيرات الجذرية ، ومن المضحك أن نعتبر تغيُّر الألوان والموضات تغييراً أصيلاً ، إنه تنقيش لا تغيير ، لكي يثبت الثائر حقيقته يخلع كيانه التقليدي ، ولكي يجذِّر تحقيقه يخلق نوعية عالمه عن طريق إبداع منتجه وإنتاجه ، ولا شك أن هذا ليس سهلاً ، ولكن مزاولة الصعوبات العديدة تخلق الاختبارت المبدعة ، وإذا كانت السياسة هي فنّ الإمكان ، فإن في استطاعة الإنسان تجاوُز الإمكان بالقوة إلى الإمكان بالفعل .

* * *

الفصل الحادي عشر

رؤساء الجمهوريات

١ـ جمهورية الثورة .
٢ـ المجلس الجمهوري .
٣ـ الجمهورية الثالثة .
٤ـ في الشطر الجنوبي .

جمهورية الثورة

اتَّسمت سنة ١٩٦٢ بتزايد الاحتمالات التغييرية ، حتى لاحت الثورة واقعاً يقيني الوقوع . . . وذلك لتزايد عواملها من جهتين : من خوف السلطة ، ومن توافر إمكانيات الثورة شعبياً . . . فقد تلاحقت الإشاعات بأن القصر (الإمامي) اتفق مع الإدارة الأمريكية على بناء قاعدة عسكرية أمريكية في (الجَنَدْ) ، وأن هذه الاتفاقية قيد التنفيذ ، والإشاعة بما فيها من سر التهامس قوية الإغراء لأنها إعلام الشعب الذي لا يملك غير الإشمات بحكّامه الجائرين . صاحبت هذه الإشاعة خصومة علنية بين أعمدة السلطة من قرابة (الإمام) ومن المتقربين إليه بالإخلاص ، وبرهن على هذه الخصومة السلطوية فرار (أحمد السياغي نائب الإمام على لواء إب) إلى (عَدَن) وتوجّس (عبد الله الحجري) وزير المواصلات و(عبد الرحمن السياغي) وزير الداخلية و(محمد عبد الله عاموه) وزير المعارف من سوء المصير ، نتيجة التعصب العرقي ضد المخلصين للعهد ، لأول مرة في التأريخ الإمامي ، لأن الإمامة كانت ترى من تسمّيهم (الأنصار) من الشعب سرَّ قوّتها وتغذية اعتقادها التشيعي ، فكشفت هذه الخصومة ضد المخلصين ذعر الحاشية ومحاولتها تأسيس حكم فئوي يعتمد على الحماية الامبريالية . . . وكانت كل هذه التصرفات القصورية تشي على غياب حكمة المسؤولين ، لأن الحاشية التي يجمعها بالإمام النسب تجاوزت سنَّة آبائها الذين كانوا يحكمون بالموالين خارج العائلة الإمامية ، فابتدعت معاداة المخلصين ، وهذا بسبب الرعب من الثورة الذي حجب التبصر ، لأن عوامل الثورة أخذت تتكاثر ، وكانت أخبار القاعدة الأمريكية (بالجَنَد) ، أقوى المحرضات على

الثورة التي بدأت تمتلك إمكانياتها ، فقد تخرّجت في تلك الفترة كوكبة من العسكريين الذين أنهوا دراستهم في الكلية الحربية بمصر من أمثال : عبد الله جزيلان ، علي سيف الخولاني ، محمد المخدي ، عبد اللطيف ضيف الله ، محمد محسن الشامي ، لطف العرشي ، عبد الله المقبلي ، لطف الزبيري ، عبد الكريم المقحفي . . . وكان هؤلاء مشبّعين بروح الثورة الناصرية وبالثقافة الثورية وبالوعي الوطني ، فأضافوا إلى المدد الحماسي في الداخل وقوداً جديداً ، ونظراً لحتمية وقوع الثورة ، بدأ التخطيط المجالسي يتصوّر البديل عن (الملَكية) ، ويرسم الكيفية التي تتم بها الثورة عسكرياً ، والكيفية التي يتشكل بها نظام الثورة ، فردّدت الروايات عن جلسات الضباط : بأنه سيتم اكتساح قصر (الإمام أحمد) بتعز وقصر (الأمير البدر) بصنعاء في لحظة واحدة ، وأن الثوّار سيحتفظون برجال العهد الملكي مؤقتاً للاستفادة من خبراتهم ، ثم تتبّع سلوكهم ، على غرار ما حدث في الشهور الأولى من ثورة مصر . . . التي احتفظت باسم الملكية في شخص ولي عهد (فاروق) تحتْ الوصاية مدة إحدى عشر شهراً . . . وفي غمرة الروايات عن هذه الأفكار ، تزايدت صحة (الإمام أحمد) سوءاً ، بتأثير محاولة اغتياله على يد (اللقية) ورفيقيه عام ١٩٦١ ، فأصبح موته حقيقة ، ولكن متى ؟

أدّت محاولة اغتيال (الإمام) إلى سجن الزعيم (حمود عائض الجائفي) مدير الكلية الحربية ، وهو موضوع إجماع الضباط الأحداث على ترشيحه لقيادة الثورة ، ولما أكدّت لجنة التحقيق مع (اللقية) براءة ساحة (الجائفي) من أي ارتباط بحركة اللقية والعنفي والهندوانة ، لم تقتنع حاشية (الإمام) التي كانت تحكم عنه باسمه في مرضه بهذا التأكيد كلياً لأنها كانت تستخطر كل العسكريين في ذلك الحين ، وبالأخص (حمود الجائفي) الذي شاع خبر ترشيحه لقيادة الثورة من جهة الضباط الأحداث ، والخرّيجين من الكلية الحربية بمصر .

لهذا خُفِّف سجن (الجائفي) مجرد تخفيف ، إذ صدر الأمر باسم (الإمام) بحل قيده والسماح له بإجازة يوم في الأسبوع يقضيه في بيته ، فرأى الضباط الأحداث في هذا السماح فرصة مواتية لتهريب (الجائفي) ، إبقاءً عليه إلى اليوم المناسب أو خوفاً من إعدامه ، فتصدّى الملازم (صالح الرحبي) لأداء هذه المهمة مستعيناً (بمحمد أبو لحوم) ، لخبرته بالطرق الملتوية إلى الشطر الجنوبي . . . فأصبح فرار (الجائفي) أهم أحداث سنة الثورة عند الضباط وعند القصر . . . إذ رأى الضباط تهريب (الجائفي) نصراً موعوداً ، كما اعتبره القصر خلاصاً من أهم المرشحين لقيادة الثورة ، غير أن هذا التهريب لم يعد مستغرباً في ذلك الحين ، فقد أدّى مرض (الإمام) واصطراع العائلة الحاكمة إلى تراخي السلطة ، فتتالت الأخبار عن الفرار من السجون ، وعن سرقات أمناء الصناديق نقود الدولة ، وفرار بعضهم من السجن بمبالغ من النقود .

وبعد فرار (الجائفي) إلى (عَدَن) بشهور ، أراد (البدر) اكتساب (الجائفي) ، فبعث إليه من يطمئنه ، وأعطاه عهداً بالأمان ، ولكي يؤكد (البدر) حسن نيته بعث (الجائفي) إلى (روما) للاستشفاء ، وبهذا تم إقصاؤه واكتسابه معاً . . . وربما كان (البدر) أقوى دراية بالجائفي ، إذ فطن بأنه لم يطمح إلى قيادة ثورة ، ولاسيما بعد سجنه إثر الانقلاب الدستوري عام ١٩٤٨ .

فقد عُرف (الجائفي) منذ إطلاقه بالهدوء وبانطوائه على نفسه ، فلم يكن بينه وبين الضباط الأحداث غير العلاقة الإدارية في إطار الكلية الحربية . . . فكان أكثر التزاماً بالطاعة وبلزوم بيته ، وكان كثير العكوف على كتب التأريخ والطب القديم لماضوية ذهنيته ولفرط حساسيته نحو صحته ، ولا يخرج عن هذه العزلة إلا إلى مجالس المسؤولين : كمجلس أمير الجيش النظامي وأمير الجيش الدفاعي ومجلس (البدر) في المناسبات . . . وعلى رغم اتصاله بأعلى المسؤولين وزهده عن التحرك الثوري ، ظل ترشيحه عند الضباط الأحرار

قائماً ، فكان في جانب وترشيحه في جانب آخر كما برهنت الأحداث . . . ولعل الثقافة التأريخية القديمة بالإضافة إلى السجن كرَّهت إليه الأحداث الدموية ، لأن كل حدث دموي كان يكنس مئات البيوت إلى المقابر ، وتترتب عليه أسوأ العواقب على الأحياء ، ربما زهَّدت هذه الثقافة التأريخية (الجائفي) في الطموح ، كما جرَّته الوساوس النفسية إلى قراءة الطب القديم .

بهذا كان معاصراً موصولاً بالقديم ثقافياً ووجدانياً دون أن يبدي عداء للمغرقين في المعاصرة أو المسرفين في السلفية ، لأنه ودّي القلب واسع الصدر ، فهو أشبه بزميله المقدم (أحمد يحيى الثلائي) في الانطواء على النفس والاعتدال في العلاقات ، وهذا ما استكنهه (البدر) في (الجائفي) ، ولم يفطن إليه الضباط إلا ليلة ٢٤ من سبتمبر عام ١٩٦٢ ، عندما أبى على (عبد الله جزيلان) و(أحمد الرحومي) قيامه بقيادة الثورة بعد أن قصداه من (صنعاء) إلى (الحديدة) .

بامتناع (الجائفي) عن قيامه بقيادة الثورة ، سقط أحد جوانب التخطيط ، هذه مسألة .

المسألة الثانية تباطأ تنفيذ الثورة بالشكل المرسوم لها قبل شهور ، وفي ١٩ سنتمبر ١٩٦٢ مات (الإمام أحمد) في (تَعِزّ) ، فتسبّب هذا في إلغاء اكتساح قصر (تَعِزّ) من جملة التخطيط لعدم الحاجة إليه ، وبهذا أصبحت مهمة الثورة أسهل ، وكان (الجائفي) في موكب دفن (الإمام أحمد) بصنعاء مسؤولاً عن انضباط الأمن إلى جانب الزعيم عبد الله السّلال والعقيد عبد الله الضبي مدير أمن صنعاء . . . ولما استرأى الضباط (الجائفي) في تنفيذ الثورة ساعة دفن (الإمام أحمد) ، رفض هذا بحجة موقف دفن (الإمام) وما حدث في سطوح بيوت صنعاء من المناحات ثم زيادة الضحايا وغزارة الدماء نتيجة كثرة مشيعي جنازة (الإمام) من كل الطبقات وهذا ما سيؤدي إلى انفلات الأمن ، وثبت صواب

رأي (الجائفي) ، لأن (الحسن بن يحيى) أخا (الإمام أحمد) لم يحضر جنازة أخيه كما كان متوقعاً ، بل لم يستدعى من (أمريكا) ، فإذا تم قتل (البدر) ودفنه إلى جانب أبيه ، فإن (الحسن) وهو أخطر في رأي (الجائفي) سيجد الميدان خالياً أمامه ، وكانت جماعات المستنيرين تؤيد (البدر) لأنه ضد (الحسن) الأشد جموداً .

بعد مراسم دفن (الإمام أحمد) ، عاد (الجائفي) إلى (الحديدة) ، لكي يبتعد عن الشبهة من قِبَل السلطة ، وعن الصلة بتخطيط الضباط .

وعندما طلب منه قيادة الثورة ، بذل كل جهده في خدمة الثوّار رافضاً قيادتهم . . . فلم يحصل (جزيلان) و(الرحومي) على غير موافقة (الجائفي) في التعاون مع الثوار ، وهذا كسب ولكن المطلوب كان أكثر منه .

وفي ليلة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م شعر الضباط في لحظة تنفيذ الثورة بشدة إلى رتبة عسكرية عالية ، لكي تعلو فوق تنافس الزملاء ، ولكي يكون للرتبة تأثيرها على الضباط الثُوّار وسائر قادة الأسلحة . . . وكان الاتجاه إلى زعيمين : الأول (عبد الله يحيى السلاّل) أمير حرس (البدر) ومدير كلية الطيران ، الثاني (حمود رشدي) قائد سلاح المدفعية . . . وكان اختيار (السلاّل) أرجح لسبقه في النضال وانتمائه إلى الطبقات الشعبية ، أما (حمود رشدي) فقد كان الارتياب به شديداً ، لأنه سجن الكثير من المناضلين فترة إدارته لأمن صنعاء عن أوامر القصر .

بهذا انطفأت فكرة اختيار (حمود رشدي) لسوء سوابقه ، وقويت فكرة اختيار (عبد الله السلاّل) ، فذهب لاستدعائه إلى بيته الملازم (أحمد الرحومي) الذي خبيه الجائفي ، والملازم (صالح الحبي) الذي غامر بتهريب الجائفي من (صنعاء) إلى (بيحان) . . . وكان هذا الاختيار موفقاً ، لأن

(السلّال) كان نقي الصفحة أمام الجيش وأمام الشعب ، فلم يستغل منصبه العسكري ولا استغل منصبه الإداري على ميناء الحديدة ، ولا تسبّب في الاضرار بأحد مهما كان مناوئاً للعهد ، ولا أوصلته مناصبه ورتبته إلى حدود الإثراء ، على حين كان يثري سواه من مناصب أدنى ، إلى جانب هذا تجلّت له مواقف بطولية في إخماد فوضى جنود القناصة بذمار ، عندما حاولوا نهبها إثر تسريحهم من الجيش بتَعِزّ عام ١٩٥٩م ، وكانت هذه الوحدة شهيرة بالشغب والتهور القتالي ، كما تجلّت للسّلال مواقف شعبية عندما أناط به (القصر) مهمة سحق الطلاب المتظاهرين في يونيو عام ١٩٦٢م ، فأبدى تعاطفاً مع الطلاب إلى حد اتهام الحاشية إياه بالتواطؤ .

بهذا تبدّى صواب اختيار (السلّال) ، كما تجلّت ثوريته في سرعة استجابته إبان الاضطرار إليه لأنه من الشرائح الشعبية المقهورة ، مع أن الضباط كانوا يتوقعون وقوفه إلى جانب (القصر) ويخافون من هذا حتمية الفشل ، فكانت استجابة (السلّال) لتحمل عبء قيادة الثورة في ذلك الظرف العصيب منسجمة مع انتمائه الشعبي ، لأنه من غمار الفقراء : تعلم في مدرسة الأيتام مع أبناء الفقراء ، والتحق بالكلية الحربية العراقية في منتصف الثلاثينات ، وبعد تخرّجه شارك في الانقلاب الدستوري عام ١٩٤٨م ، واستضافه سجن حجة من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٥٥ ، ثم شغل عدة مناصب مدة سبع سنوات ، فقاد الثورة وعلى ظهره ثلاثة وخمسون عاماً من التجارب المريرة .

فمرشّحات (السلّال) أوفر من سواه لأن الثورة شعبية : تحالف على تنفيذها أقسام من المثقفين وأقسام من العسكريين . . . وعلى فوريّة استجابة (السلّال) فإن الضباط الأحداث كانوا يرون قيادة (السلّال) آنية قياساً على (محمد نجيب) في ثورة مصر وعلى (عبد السلام عارف) في ثورة العراق .

لهذا كان (جزيلان) هو المرشّح المستقبلي عند الضباط الأحداث قياساً

على (جمال عبد الناصر) أو على (عبد الكريم قاسم) ، وهذا بفعل حساسية بين من كانوا يسمون بالضباط الأحداث والضباط القدماء ، وبتأثير أحداث الثورات العسكرية في مصر والعراق والجزائر والسودان ، غير أن الأحداث التي تلت الثورة اليمنية قلبت المقاييس كلها ، وكان أهمها نجاة (البدر) وهذه ذات خلفية في التخطيط وفي حدوث عكسه ، فقد كلف الضباط الأحرار (حسين السكّري) أحد ضباط وحدة حراسة القصر على أن يقوم بقتل (البدر) ليلة ٢٦ سبتمبر ، وبعد القتل تتحرك الدبابات لاحتلال (القصر) ، فأخفقت مهمة (السكّري) لأن أحد الجنود ثنى مسدس (السكّري) إلى حلقه ، وظل الضباط ساعتين ينتظرون إشارة من (السكّري) عن نجاح مهمته ، ففاجأتهم الأخبار بإسعاف (حسين السكّري) إلى المستشفى وإصابته بسلاحه ، فتأكدوا من فشله ، وكانت هذه أول صدمة في أحرج اللحظات ، حيث لا مفرّ من الإقدام مهما كانت النتائج ، فتحرّكت الدبابات إلى (قصر البشائر) ، واستمرّت في قصفه ست عشرة ساعة ، ولما كانت الدبّابات على مقربة من القصر بأمتار ، كانت قذائفها تحدث فتحات لا تتسبب في هدم القصر ، لأنها كانت تنفجر بعيداً من المرمى ، وكان القصر يقاوم بكل قوّته حتى أحرق دبابة في الساعة العاشرة من يوم الثورة ، وهنا تدخلت مدافع الهاون من مرمى مناسب كان أشد تأثيراً على القصر ، وعندما اقتحمت الدبابات القصر بعد ١٦ ساعة لم تجد جثة (البدر) ، وإنما وجدت خواء ودماراً يسيراً ، وكان لهذا فاعلية في معاكسة التخطيط ، فبعد أن نوى الضباط سلامة رجال العهد الإمامي ، تسبّبت طوارئ الأحداث في اتخاذ الاحتياط الأقسى ، وساهم بعض رجال العهد الإمامي في عنف الدموية ، فعندما استدعت قيادة الثورة مسؤولي العهد البائد بصنعاء ، قاوم بعضهم فقتل من أمثال : (عبد القادر أبو طالب) الذي أراد تحريض معسكر (جبل نقم) على مقاومة الثورة ، ومن أمثال : (محمد علي زبارة) الذي استقبل مدرعات الجيش بإطلاق النار عليها ، ومن أمثال : (علي ابن الإمام

يحيى) الذي لم يستسلم إلا بعد أن طوّقت قصره المدرعات ، وكان أقرب مصدر إطلاق نار على الإذاعة ، ومن أمثال : الحسن بن علي الذي احتمى بقرية جدر وقبض عليه هناك ومن أمثال : عبد الله بن الحسن الذي تمادى في إطلاق النار من دار الشكر المطل على ممر الدبابات وقتل أبرياء وأصاب الملازم محمد حسين السيراجي إثر خروجه من دبابته فاكتشف فوقع إطلاق النار . . . واستجاب البعض مبدياً الرفض العنيف للثورة ، من أمثال : (يحيى محمد عباس) رئيس الاستئناف الذي شهر خنجره في ساحة القيادة أمام المدافع الرشاشة صائحاً : « لن يحكمنا هؤلاء الصبيان » فقتل فوراً ، ومن أمثال : (محمد عبد الله عاموه) وزير المعارف الذي أصرّ صراحة على تمسكه بمبايعة الإمام المنصور (محمد البدر) .

من هنا بدأت الدموية المعاكسة للنية السليمة ، ونتيجة إعدام هؤلاء ، أبرق بعض الوزراء إلى المذياع بتأييدهم للثورة من أمثال : عبد الرحمن عبد الصمد وزير الخارجية ، وحسن إبراهيم وزير الدولة ، وحمود عبد الملك محافظ حجة ، وإسماعيل بن يحيى حميد الدين . . . ولكن خروج البدر من (صنعاء) أثار الشكوك في موالاة رجال العهد الإمامي للعهد الجديد وإمكان تكتّلهم في وجه الثورة في ظل شرعية (البدر) الذي تمكن من الإفلات ، فاعتبر الثوار هذه البرقيات مجرد تغطية ، فأذاع راديو صنعاء صبيحة ٢٧ سبتمبر هذا البلاغ : (ياجماهير اليمن العظيم ، إن الثورة ثورتكم ، وحمايتها مسؤولية الجميع ، فتعقّبوا حاشية العهد البائد وألقوا القبض على كل من يحاول الفرار) .

وفي نفس اليوم وما تلاه أوصلت جماهير المناطق العشرات من مديري المناطق وقضاتها ومديري أموالها ، كما حاصرت جماهير الشطر الجنوبي طريق (المفاليس) حتى لا يفر أحد إلى الشطر الجنوبي ، كما هاجمت الفندق الذي كان ينزل فيه (عبد الرحمن يحيى حميد الدين) وحاشيته ، حتى اضطرتهم إلى مغادرة (عَدَن) فوراً ، فقد كانت جماهير الشطر الجنوبي كجماهير الشطر

الشمالي في التجاوب الحار مع الثورة نتج عن ذلك معاكس آخر ، فلأن أكثر أعمدة العهد الأحمدي وثمراته من الهاشميين كان قتلاهم أكثر ، فتألب المندسُّون في الضباط الصغار من الهاشميين وخوّفوهم من استئصال آبائهم وإخوتهم ، فاتصلوا بالضباط من كل شريحة ووافق الكل على إعدام أتباع (البدر) من أمثال عبد الله السلّال ، عبد الحميد الشوكاني ، إبراهيم الحضراني ، علي أبو الرجال ، يحيى الحرسي ، استدعا هاشم طالب من القاهرة . . . ولما كان السلّال على رأس القائمة اتفق الجميع على توقف الاعدام إلا لضرورة حربية دفاعية ، ونسبت القيادة حوادث قيل البعض إلى الغوغاء الذين اندسّوا في الثورة في أسبوعها الثاني ، وفي يوم ٢٩ سبتمبر أذاع راديو صنعاء تشكيل مجلس السيادة من رئيس الجمهورية : عبد الله يحيى السلّال ، عبد الله جزيلان ، علي عبد المغني ، عبد السلام صبرة ، محمد إسماعيل المنصور . كما أذاع بلاغاً كلف فيه شيوخ الضمان في مناطق شمال الشمال بحماية حدودهم ، وقلّدهم مناصب وزارية إلى جانب ربع زكوات مناطقهم ومن هؤلاء أعلن تشكيل مجلس الدفاع ، وكان هذا بسبب تدخل (شريف بيحان) وإرساله المسلحين إلى مأرب وحريب ، وبسبب أخبار راديو لندن بأن (الحسن بن يحيى حميد الدين) قد أعلن نفسه (إماماً) نظراً لغموض مصير (البدر) ، واكبت هذه الإجراءات والتغيرات نكسات وانتصارات من اللحظات الأولى للثورة ، فقد استشهد (المحبشي) و(الشراعي) صبيحة الثورة في دبابتهما التي احترقت بالبترول المراق عليها من قصر البشائر ، وبعد أيام استشهد (علي عبد المغني) أهم أعضاء مجلس السيادة في (حريب) ، كما تمّ القبض على وزراء العهد البائد والحاشية الملكية ، ولكي يتضح العدل شكلت قيادة الثورة (محكمة الشعب) برئاسة المقدم (غالب الشّرعي) وعضوية المقدم (عبد الله بركات) والنقيب (هادي عيسى) وعضوين مدنيين من رجال القضاء الشّرعي . . . إلا أن معرّة الأحداث أدّت إلى إعدام البعض قبل تشكيل المحكمة لخطورتهم من أمثال :

إسماعيل ابن الإمام يحيى وأخيه علي ، والحسن بن علي ، ويحيى النهاري ، وأحمد عبد الرحمن الشامي ، ومحمد علي زبارة ، وعبد الرحمن السياغي ، وحسن علي إبراهيم ، وزيد يحيى عقبات ، وعبد الرحمن عبد الصمد . . . ومن هؤلاء من قاوم في بيته ، ومنهم من حكمت عليه سوابقه في نظر الثوار .

صاحبت هذه الإجراءات تعديلات في التشكيل إلى حد إعلان تشكيل جديد في يوم ٣١ أكتوبر ١٩٦٢م ، إذ تشكل مجلس قيادة الثورة مؤلفاً من : الزعيم عبد الله السّلال رئيس المجلس ، وعضوية الدكتور عبد الرحمن البيضاني ، المقدم عبد الله جزيلان ، الرئيس محمد قائد سيف ، الطيار عبد الرحيم عبد الله ، الرئيس عبد اللطيف ضيف الله ، عبد الرحمن الإرياني ، عبد السلام صبرة ، العقيد حسن العمري ، الملازم الأول سعد الأشول ، الملازم أول محمد مفرح ، عبد القوي حاميم ، عبد الغني مطهر ، الرئيس محمد المأخذي ، محمد مهيوب ثابت ، علي محمد سعيد ، الرئيس محمد الأهنومي ، والرئيس حسين الدفعي .

وكان هذا التشكيل بديلاً عن (مجلس السيادة) ، الذي لم يدخل فيه بعض هذه الأسماء ، وربما كان توسيع المجلس وإضافة أسماء بدلاً عن أسماء وتغيير الاسم بسبب حضور بعض المناضلين المشرّدين ونتيجة صراع على السلطة وبتأثير الظروف الحربية التي استدعت وجوداً عسكرياً مصيرياً ، كان له تأثير على التشكيل الجديد لمجلس قيادة الثورة ، وعلى تأليف الحكومة في نفس التأريخ الذي تم على النحو التالي : (الزعيم عبد الله السّلال رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس الوزراء وقائداً عاماً للجيش ، الدكتور عبد الرحمن البيضاني نائباً لرئيس الجمهورية ووزيراً للخارجية ، المقدّم عبد الله جزيلان وزيراً للدفاع ، الرئيس عبد اللطيف ضيف الله وزيراً للداخلية ، الرئيس محمد قائد سيف وزير دولة لشؤون رئاسة الجمهورية والإعلام ، الطيار عبد الرحيم عبد الله وزيراً للطيران ، عبد الرحمن الإرياني وزيراً للعدل ، عبد السلام صبرة وزيراً للأوقاف ولشؤون

القبائل ، العقيد حسن العمري وزيراً للمواصلات ، عبد القوي حاميم وزيراً للبلديات والقرويات ، عبد الغني مطهر وزيراً للتجارة ، محمد مهيوب ثابت وزيراً لشؤون المغتربين ، علي محمد سعيد وزيراً للصحة ، الرئيس محمد الأهنومي وزيراً للتموين ، الرئيس حسن الدفعي وزيراً للعمل ، الرائد محمد الرعيني وزيراً للزراعة ، عبد الله الكرشمي وزيراً للأشغال ، الدكتور عبد الغني علي وزيراً للمالية ، الدكتور حسن مكي وزيراً للاقتصاد ، محمد محمود الزبيري وزيراً للمعارف ، أمين عبد الواسع نعمان وزيراً للإرشاد القومي ، علي سيف الخولاني وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وعلي أحمد الأحمدي وزيراً للإعلام) .

بعد هذا التشكيل الذي تبدى مُرضياً ، والذي كان تعديلاً لتشكيل ٢٩ سبتمبر ، تتابع التغيير والتنقّل : فتحوّل وزير إلى محافظ لواء ، وتعين وزير سفيراً . . . وكان يتم هذا التغيير والتنقل واستحداث وزارات جديدة في أقصر مدة نتيجة السباق على المناصب ، حتى أن (محسن العيني) لم يتوزر الخارجية إلا شهراً واحداً وأضيفت أعمالها إلى البيضاني نائب رئيس الجمهورية ، كذلك وزارة الإرشاد فلم يتقلدها (أمين عبد الواسع نعمان) إلا نحوَ شهرين تعين بعدهما محافظاً ، لكي يقتعد (أحمد المروني) مكانه ، ثم تسارع التعديل والاستحداث في كل وزارة باستثناء وزارة المالية والأشغال . . . فتوزَّر (أحمد المروني) مثلاً : على الإرشاد ، التربية والتعليم ، الأوقاف ، الإعلام في ظرف سنتين ثم تعيّن سفيراً . ومثله وزير الشؤون الاجتماعية ، والعمل ، والعدل .

وكذلك الوزارات المستحدثة ، فقد تسارع تعاقب الوزراء على وزارة الإدارة المحلية التي كان اسمها وزارة الحكم المحلي ، وكان أول من تقلدها فور استحداثها الأستاذ أحمد محمد نعمان الذي عاد إلى صنعاء بعد شهور من الثورة لشدة الاختلاف حوله ، مثلها وزارة الوحدة فقد تتالى عليها أربعة وزراء في مدة خمس سنوات ، حتى حل محلها مكتب شؤون الوحدة ، وكتعدد

التعديلات كان تعدد التشكيل الحكومي ففي ظرف خمس سنوات شكل الحكومة : عبد اللطيف ضيف الله ، محمد أحمد نعمان ، حمود الجائفي ، حسن العمري ، رئيس الجمهورية عبد الله السّلال . . . وبهذا تكاثر الوزراء السابقون والحكومات السابقة ، حتى رئيس الجمهورية كان يتغيب أسابيع في القاهرة ، ويبدو نائبه رئيساً مطلقاً ، لانقطاع الرئيس في راحة إجبارية أو إجازة مرضية . . . وكان يحدث هذا بتأثير اشتباك المصالح تحت ظروف حربية ، لأن الملَكية البائدة أصرّت على الحرب رغم تأكدها من خسرانها وتحقيق مصالح الذين دفعوها . . . وبهذا ظلت الجمهورية الأولى تكابد فترة الانتقال ، بحكم مغايرتها للعهد الملكي ومحاولة تجذير العهد الجديد في ظل القتال . . . وكان تعدّد التشكيلات والتنقلات لايحقق رضاء الغالبية من الطامحين ، لأنه اقتصر على مجموعة من عدة فئات يتناوبون الصعود والنزول والتحوّل من منصب إلى آخر . . . وكان رئيس الجمهورية رغم كثرة أسفاره هو الرأس الثابت . . . لأن إعلان تنحيته سينم عن التصدّع في البنيان الجمهوري . . . وكان رئيس الجمهورية (عبد الله السلاَّل) على طول اختباره يواجه تجربة جديدة أكبر من طاقته وطاقة أمثاله ، حتى قال : « هذه معجزة ليست ثورة وما يزال يردّد هذه المقولة عند كل مناسبة إلى الآن » . . . ومع هذا كان يبدو بالقياس إلى كل الضباط مقنعاً ، لأنه عسكري من طراز ممتاز وشعبي السلوك وأكثر زملائه ثقافة ، وبالأخص بقواعد النحو الغائبة عن العسكريين فكان يعتمد في خطاباته الضغط على قواعد الإعراب : كرفع الفاعل ونصب المفعول وكسر المجرور بحرف الجر أو الإضافة ، ويحاول إظهار هذه المزيّة ، لتفنيد زعم الفقهاء بجهل العسكريين ، وكان في خطاباته يحبط كل الدعايات المضادة . . . فبعد حملة الإعدام ضد أعمدة العهد البائد ، أشاع المرجفون بأن الثورة تستهدف الهاشميين ، فدحر (السلاَّل) هذه الإشاعة قائلاً : إن الثورة ثورة الشعب كله وإن الضباط الهاشميين من أوائل الثوار ، وإن الإعدام استهدف كل الرجعيين

المتآمرين ، ولم يفرق بين ابن السياغي وابن المتوكل .

ومضى يعدد أسماء الذين حُكِم عليهم بالإعدام من غير الهاشميين من أمثال : الضابط حسين الحرازي ، المدفعي قاسم الثور ، الضابط علي خليل ، محمد عبد الله عامورة ، محمد مجفَّن ، عبد الله طميم ، عبد الرحمن السياغي .

بهذا نفى (السّلال) الدعايات العرقية ، لأنه يريد استفتاح عهد الشعب لا مدّ عهد (الإمام) ، فإذا أراد (الإمام) أن يتعصَّب عرقياً في لحظات انهياره لكي يحتمي بالعصبية ، فإن الثورة ترفض الرجعية بكل صورها العائلية والاقتصادية والفكرية ، بل وتتخطى الإقليمية إلى العالمية .

صحيح أن الإعدامات تبرر الإشاعة ، ولكنها لم تفطن إلى السبب ، فقد كان آخر عهد الإمام أحمد يتدرع بالعصبية ، ولكنها لم تشكل نزوعاً طائفياً إلا بدافع المصلحة ، فلم يفجر الثورة أو يقف ضدها هاشميون ولا قحطانيون لذات القحطانية والهاشمية ، وإنما فجرها الوطنيون ووقف ضدها المنتفعون بعكسها بغض النظر عن الحسب والنَّسَب . . . فحارب أحمد السياغي إلى جانب السيّاني ، وحارب الغادر إلى جانب عبد الكريم الوزير ، وقاتل قاسم منصر إلى جانب حسين ساري . . . كذلك الجبهة الجمهورية ، قاتل أحمد الكبسي إلى جانب عبد الله بركات ، وقاتل لطف العرشي إلى جانب محمد مطهر ، واستشهد الحمزي كعلي عبد المغني . . . فالثورية ثمرة ثقافة ناضجة وخلاصة وعي شعبي وتجاوز للعرقية نتيجة التحولات الاجتماعية الكاسحة ، ولم تكن ثورة سبتمبر إلا ضد التآمر والتخلف أينما كانت أوكاره وأينما قامت قواعده .

لقد خاضت الجمهورية الأولى معركة السلاح ومعركة الأكاذيب ، لأنها جديدة تؤسس عهداً جديداً . . . وكان الرئيس (السلاّل) بوفرة تجاربه العسكرية والشعبية يعرف سوء الذي كان وصعوبة الذي سيكون ، فبذل كل جهده في

مغايرة العهد الجديد وعدم استحداث سوء الجِدّة ومزالقها ، فأبى أن يوافق على شراء غرفة تعذيب قائلاً : « إن الشعب اليمني معذب على طول تأريخه » ، فقد أراد (السّلال) أن يتمتع الشعب كله بالحرية النافعة ، ولكن للحرب شذوذها لأنها تحمل على غير ما يريد الخيِّرون .

وكانت الثورة تقاسي حروب المؤامرات إلى جانب توق المعارضين إلى جمهورية أفضل ، وكانت عبارة أفضل من اللغة المطّاطة تشكلها الأهواء كما تريد ، حتى أصبح (السّلال) وهو قائد الثورة مستهدَفاً من جهة زملائه .

ففي عام ١٩٦٦م تكتَّل بعض الضباط إلى جانب نائب رئيس الجمهورية الفريق حسن العمري ، وكادت تشتبك قوة الرئيس والنائب ، رغم قوة المؤامرات التي كانت تشن هجومها من عدة جبهات ، إن هذا أشد انقسام بين محاور سلطة الجمهورية الأولى ، ولعل ذلك الانقسام خصَّب التربة للثورة المضادة ، التي ارتدت الاعتدال والتصالح ودعوى الحكم الجماعي ، كنقيض لثورية الجمهورية الأولى .

فبعد خمس سنوات من رئاسة (عبد الله السّلال) للجمهورية الأولى ، بدأت تتقوّى حركة ٥ نوفمبر ١٩٦٧م وأرادت أن تنهج الاعتدال وأن تجتنب الدموية كلياً حتى دفاعياً ، فدبَّر رجالها (للسّلال) زيارة لمصر والعراق ، فأحس (السّلال) أن تلك الزيارة إبعاد له ، فقال لمودعيه : أهم من رئاسة الجمهورية الحفاظ على الجمهورية . وكأنه يرى كل ما سوف يقع من بَعده .

* * *

المجلس الجمهوري

فصّلت الفصول السابقة توق الشعب إلى الحكم الشعبي ، وتزايد التذمر على مدّعي الثورة نيابة عن الثوّار ، واستغل البعض هذا التذمر لتحقيق مطامحه ولو كانت ضد طموح المتذمرين الثوار ، فنشأت في وجه الجمهورية الأولى جماعة معارضة في وقت الافتقار إلى التضامن أمام الهجمات الرجعية الاستعمارية ، إذ أعلن الأستاذ (محمد محمود الزبيري) آخر سنة ١٩٦٤م المعارضة ودعوة السلام ، وكان (الزبيري) هو الواجهة السافرة للمعارضة التي انطوت تحتها عدة وجوه : مشيخية ، تنظيمية ، ضباطية . . . وكانت هذه المعارضة تتبنى : الجمهورية العادلة ، والحكم الجماعي ، والشورى ، والاعتماد على المشيخات ، وقد دلّ على هذا مقرّ المعارضة والوجوه التي أحاطت بها : إذ أعلنت نفسها في منطقة (برط) على مقربة من خنادق الملكيين المحاربين ، وفي ظل (آل أبي رأس) أصحاب الدور التنفيذي في حركة ٤٨ ، فكان يؤازر تلك المعارضة الجانب المعتدل من الجمهوريين من شتى المنازع : كان (الإرياني) و(نعمان) على صلة مباشرة بزعيم المعارضة (الزبيري) ، وكان الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر وأحمد علي المطري وسنان أبو لحوم على تدبير واحد مع شيوخ المنطقة التي آوت المعارضة : كأمين أبي رأس ومطيع دمّاج وعبد العزيز الشايف ، وكان بين الشيوخ وبعض العسكريين تنافر ملحوظ ، لتوجس كل فريق من قوة الآخر كما كان البعض من العسكريين على وفاق مع الشيوخ وبالأخص الضباط الحقيقيين والفخريين ، فكان إبراهيم الحمدي وحسين المسوري ومحمد عبد الخالق . . . تبع القيادة السياسية النوفمبرية ، كما كان عبد

الرقيب عبد الوهاب وحمود ناجي ومحمد عبد السلام منصور من الثوار على تلك السلطة ، وفي مطلع ١٩٦٥م استكثر (الزبيري) من التلميح إلى (عبد الرحمن الإرياني) وأطلق عليه في إحدى الجلسات لقب الشهيد الحي ، لخلاصه من إعدامي ٤٨ و ٥٥ م وأطلق عليه في جلسة أخرى صفة ضمير الأمة اليمنية ،وشايع (الزبيري) في تقبّل هذه الصفة جماعة الإسلاميين الذين تسموا تحت زعامة (الزبيري) بحزب الله . . . تسبب تركيز (الزبيري) على (الإرياني) في غضب (النعمان) والنعمانيين ، وتساءل البعض عن تجاهل (الزبيري) لزميله الأستاذ أحمد النعمان : وهل كانت تلك الرفاقية غير تنظيمية ؟ وفي نفس العام أصدر الأستاذ محمد أحمد نعمان كتابه (الأطراف المعنيّة في اليمن) متهماً التسلّط الزيدي واستغلاله للمناطق الوسطى تحت أي راية ،والعمل على امتداد هذا التسلّط تحت راية الجمهورية ، وأشار في كتابه هذا إلى أن الأطراف المعنيّة هم زعماء كل المناطق ، ومنهم يتكوّن الحكم الجماعي ، وكان صدور هذا الكتاب في وقت التفتيش عن التصالح الذي لايتم إلا بتصفية الجو مع السعوديين والتقاء كل الأطراف اليمانية ، وتحجيم مهمة العسكرية المصيرية . . . انتشر هذا الكتاب بعد استشهاد الزبيري في أبريل ١٩٦٥ م ،ولعل المؤلف وهو نجل الأستاذ (نعمان) رأى وآخرون والده بديلاً عن (الزبيري) بحكم الرفاقية الطويلة ، واعتبر غياب (الزبيري) حضوراً لوالده ، وربما كان يقاوم فكرة ترشيح (الزبيري) للإرياني ، لأنه لم يشارك (الزبيري) في عذاب المنفى كوالده .

وكان بين النعمان والإرياني ما بين الندَّين المتشابهين من مودة مطوية على كره ، أو من كراهية مطوية على ود ، أو من منافسة على التفوّق مقنَّعة بالمجاملات .

باستشهاد (الزبيري) تنوَّعت المعارضة بإطماع (النعمان) الفريق العمري

برئاسة الجمهورية في غياب السلاّل بمصر ، وتبدّى النعمان والعمري كفصيلة داخل المعارضة ، أما (الإرياني) فلم يكن واضح الاتجاه في المعارضة ، وإنما كان على علاقة وثيقة بالسّلال وعلى علاقة احتياطية بالمعارضة ، فكان يثق به المعارضون والسلطة معاً ، كما كان يثق به الثوار و(الإمام) قبل الثورة ، فعلى رغم أنه كان يؤدي المهمات الرسمية (الملكية) ، فإن الثوار كانوا يستنيرون برأيه ويرونه منهم كما كان يراه (البدر) وأبوه من رجال عهدهما ، أما (النعمان) فلم يحقق بتفانيه إلى جانب (البدر) عام ٥٥م ما حقق (الإرياني) من الحظوة عند القصر وعند الثوار المرتقبين .

لهذا التحق بالزبيري في القاهرة عام ٥٧م وعلى زمالته الثانية للزبيري ، فإن (الزبيري) في زعامته لمعارضة الجمهورية الأولى لم ينوّه إلى (نعمان) ، بل استكثر من إيماآته إلى (الزبيري) ضارباً صفحاً عن (نعمان) ، كذلك كان حظ (نعمان) مع (الإرياني) عندما أصبحت المعارضة سلطة نوفمبر .

على أي حال لبث هؤلاء على ما بينهم من الوفاق والخلاف أهم أساس المعارضة للجمهورية الأولى إلى أن أصبحت حركة انقلابية في ٥ نوفمبر عام ١٩٦٧ جاءت منها سلطة المجلس الجمهوري أو الحكم الجماعي كما قيل ، هنا دخلت الحركة طور تطبيق دعوتها التعقلية والاتزانية والتصالحية ، فأبرزت الاعتدال في كل شيء فلم تنل السلاّل بأي تهجّم ولم تتحفظ إلا على ثلاثة من رجال عهده : قاسم غالب وزير التربية ، جبر بن جبر وكيل وزارة المالية ، عبد الرحمن جابر مدير مكتب السلاّل ، بل كادت حركة نوفمبر توقف الدعاية ضد (الملكيين) وأشياعهم ، فسمت انقلابها (حركة بيضاء) مع أن بياضها بفضل غياب الجبهة المقابلة ، التي تُسبِّب حمرتها ، كما سمَّتها تصحيحاً .

بدأت رئاسة الجمهورية الثانية من نوفمبر ١٩٦٧م تبدي مغايرتها للجمهورية الأولى من ناحية ، وتبدي امتدادها من ناحية أخرى ، فحافظت على

اسم الجمهورية وتصالحت مع محاربيها ، وعاكس التشكيل الجمهورية الأولى ، فتشكل مجلس جمهوري بدلاً عن رئيس الجمهورية ، تحت مبدأ (الحكم الجماعي) ، وتألف ذلك المجلس من أربعة أعضاء : عبد الرحمن الإرياني ، الفريق حسن العمري ، أحمد محمد نعمان ، محمد علي عثمان . . . على أن تكون الرئاسة دورية بين الأربعة ، وترأس أول دورة (عبد الرحمن الإرياني) الذي شغل سابقاً عضوية قيادة الثورة ، ووزارة العدل ، ثم نائب رئيس الجمهورية الأولى . كان (عبد الرحمن الإرياني) يناهز الستين من عمره في بدء رئاسته للمجلس الجمهوري ، فهذه السنوات كفيلة بحصيلة هامة من الخبرة ، لأن (الإرياني) من أبناء القضاء ومن بيئته توارث التعليم والثقافة والتحرك السياسي

كان والده (يحيى الإرياني) صاحب حلقة درس بجامع (الفليحي) بصنعاء ، وكان يدرِّس إلى جانب الفقه والنحو عروض الشعر (للخليل بن أحمد) ، وكان الوحيد الذي يحسن تدريس ذلك الكتاب ، فرشّحه الفقه لرئاسة الاستئناف ، كما أهّلته الثقافة الأدبية الخاصة لقرض الشعر وتعليم علومه الموسيقية ، وكان ابنه عبد الرحمن امتداداً متطوراً له ، فجمع بين التحقيق الفقهي واللغوي وكتابة الشعر ، وركّز عل متابعة الثقافة المعاصرة وسياسات العصر ، وزاول الكتابة في المحاكم الشرعية ثم تولى محكمة (الشِّعر) وغيرها ، وفي الأربعينات جمع بين ولائه الرسمي للقصر وبين تعاطفه مع المعارضة ، حتى قيام حكم الدستور عام ٤٨م ، وعلى ثانوية منصبه في حكم الدستور ، فقد جنى ثمرة نكسة الدستور ، فنزل سجن حجة من عام ٤٨ إلى ٥٣ وفي انقلاب مارس ٥٥ م كاد (الإرياني) أن يُعدم لمشايعته ذلك الانقلاب ، ولما تقدم إلى ساحة الإعدام أدهش (الإمام أحمد) وحاشيته والجماهير بابتسامته العريضة التي لاقى بها السيف المصلت على عنقه ، ولما شاهد (الإمام) ابتهاج (الإرياني) بالاستشهاد أمر باغماد السيف عنه فوراً ، وعن هذا الموقف تشعّبت الروايات كل

مشعب . . . فروى البعض : أن أهم رجال حكم (الإمام) ارتموا بين قدميه مستشفعين للإرياني طالبين له سرعة العفو ، وروي أن (الإمام أحمد) أراد إدخار (الإرياني) لعهد ابنه (البدر) ، وروي أن (الإمام) أحس جرأة (الإرياني) تحت السيف إسقاطاً لمهابة الإعدام ، وأن هذا الموقف قد يجرئ آخرين ، فاضطر إلى سبق السيف بالعفو إستبقاء للمهابة واستعلاءً على مخترقها . وروي أن الإرياني تعنون بذلك الابتسام لتحقيق غايتين : إما اغتصاب الخلاص من الإعدام ، وإما تحقيق البطولة النضالية الهازئة بجبروت الجلادين .

وكل هذه الروايات لا تخلو من الصحة ، فإذا تشفّع رجال الحاشية للإرياني فهم بذاك يخدمون الضمير الإمامي ، لأنهم شمّوا قبول (الإمام) للشفاعة ومصلحته من العفو عن رجل عالم تحت السيف ، إذ لم تكن من عادات الحاشية أن تشفع لمحكوم عليه بالإعدام ، إلا إذا توسّمت رضى الضمير الإمامي بتلك الشفاعة . صحيح أن (الإرياني) كان صديقاً لأولئك الشفعاء ، فقد كان صديقاً لمحمد يحيى الذاري ، ولأحمد زبارة وعبد الله عبد الكريم ، بل كل هؤلاء زملاء (الإرياني) وظيفياً في الهيئة الشرعية وفي (الديوان الملكي) ، إلى جانب الجلسات القاتية بما فيها من نقاش أدبي ومذاكرات علمية ، وكان (الإرياني) متفوّقاً في الفقه ومعرفة الأدب التقليدي والرومانتيكي ، فشفاعة الحاشية ممكنة هنا ، كما أن هزء (الإرياني) بسيّد الإعدام ضرب من الدهاء (الإريانيّ) المعروف ممكن أيضاً ، لأن المعهود عنه الجدية في كل الأمور ، كما أن إرادة (الإمام) في استبقاء (الإرياني) ممكنة أيضاً ، وآية ذلك ترقّي (الإرياني) بعد هذا الحادث إلى عدة مناصب ، واستسفاره إلى عدة دُوَل ، لقوة حجته ومهارته في المفاوضات . . . فقد تعين أميراً للحج من عام ٥٩ إلى ٦١ م ، وهذه الإمارة منصب سياسي تشريفي وإن كانت الغاية [إمامياً] هي إقناع (السعوديين) بإمامة (البدر) وعدولهم عن ترشيح عمّه (الحسن) الذي كان

مبعداً بأمريكا ، فقد كانت إمارة الحج في هذه السنوات مهمة سياسية خاصة ، لايحسن القيام بها لتلك الغاية غير (الإرياني) ، لمكانته الفقهية والبلاغية ولدرايته بالسياسات الكبرى ، ومن المعروف أن (السعوديين) الأوائل كانوا يتأثرون بالبلاغة ، فيهضمون بتأثيرها بعض الأخطاء السياسية ، وفي عام ٦٠م أصبح (الإرياني) وزير دولة ، وكان إبان مزاولته للأعمال الرسمية وثيق الصلة بالمعارضة وبالثوار المنتظَرين ، وذلك بفعل الانفلات السياسي يومذاك .

لهذا أصبح الإرياني من الثوار ، ورُقّي في العهد الجمهوري وكان يجمع بين إرضاء (السلاّل) ومعارضيه ، وبين القيادة المصرية في اليمن والساخطين عليها ، ولما أصبح نائباً لرئيس الجمهورية عام ٦٦ـ٦٧م أشارت وقائع الفترة بأنه سيصبح رئيساً للجمهورية ، غير أن الحركة التي قام على رأسها أبت الاستمرارية للتي قبلها ، فترأس المجلس الجمهوري من عام ٦٧ إلى ٧٤م ، لأن المجلس الوطني ثم مجلس الشورى من بعده كانا يصوّتان على استمرار رئاسته في نهاية كل دورة ، فظل رئيساً وظل زملاؤه أعضاء فلم يتم تناوب الرئاسة طبق الإعلان ، على أن المجلس الجمهوري خضع للكثير من التغييرات ، فبعد التصالح مع الملكيين عام ٧٠م أصبح (أحمد محمد الشامي) وزير خارجية الملكيين ـضواً خامساً ، وبرغم الزمالة بين الإرياني والشامي في سجن حجة ، فإن الشامي كان أميل إلى الفريق العمري القائد العام للقوات المسلحة ، وفي ذلك الحين انضمت قطاعات من الجيش الملكي إلى الجيش الجمهوري ، فقويت الريبة في العمري والشامي بإحداث انقلاب ، فتمكن (الإرياني) من إقصاء الاثنين بوسائل مختلفة : انتهز قتل المواطن (الحرازي) بيد (العمري) أهم أسباب إدانة مسؤول يقتل مواطناً ، وعزّز هذه الإدانة تجمهر (الحرازيين) ضد (العمري) وتهديدهم بالثأر لدم صاحبهم ، ويقول البعض : إن للإرياني يداً في تحريك الحرازيين ، حتى أصبح إبعاد (العمري) ضرورة شعبية وحجة

رسمية في يد (الإرياني) ، أما (الشامي) فكان أسهل للإقصاء ، بفضل تزايد الغضب الشعبي على التصالح مع الملكيين .

فتم إقصاء الوزراء الملكيين : إما من (صنعاء) إلى المحافظات ، أو إلى السلك الدبلوماسي في الخارج . . . فكما أبعد (العمري) إلى القاهرة ، أصبح (الشامي) سفيراً بباريس وهنا أمسى المجلس من رئيس وعضوين اثنين : هما أحمد محمد نعمان ، ومحمد علي عثمان الذي قتل بتَعِزّ سنة ١٩٧٣ ، ومع هذا ظل اسم الحكم الجماعي قائماً بعد انفراط عقده حتى صار من رئيس وعضو هو (الأستاذ النعمان) الذي شكل الحكومة في مطلع السبعينات وتسمَّت حكومته حكومة الشهرين ، نتيجة الضائقة الإقتصادية التي أعلنها (نعمان) وسمّاها بؤساً ونتيجة المظاهرة الشعبية ضد الوضع كلياً ، فسحب مجلس الشورى الثقة من (نعمان) محمِّلاً إياه وحده مسؤولية التفجّر الجماهيري ، فأصر (نعمان) بعد هذا على توزيع مسؤوليات المجلس ، فاختص بمسؤولية التربية والثقافة والإعلام ، وكاد أن يجرّ الثقافة والتعليم إلى الهاوية ، إذ حاول الوقوف في وجه الثقافة الجديدة ومنع الندوات والمحاضرات والكتب الموصوفة بالتطرف .

وكان المجلس يبتغي بهذا إسكات السخط المتكاثر من عام ٦٧ فقد رأت الجماهير في التصالح تنازلاً عن الثورة ، ولم يقلّل من هذا الاتّهام إقصاء (الشامي) والوزراء الملكيين في الجمهورية ، وأكد المجلس هذا بإقصاء الثوار ومضايقتهم على إثر أحداث أغسطس ٦٨ ، وبالمزيد من تسليط المستغلين من تجار وشيوخ وساسة محترفين ، وكان يعالج المجلس الجمهوري هذا السخط بالاستكثار من التشكيل الحكومي ، وكان هذا الاستكثار من التشكيل مقصوراً على تجمع واحد كثير الوجوه متشابه الأدوار ، فأغلب الذين شكّلوا الحكومة في آخر الستينات وأول السبعينات كانوا من المعارضة أو من مشايعيها ، بعضهم كانوا وزراء وبعضهم كانوا رؤساء مصالح وبعضهم كانوا سفراء كمبعدين . . .

فشكل أول حكومة نوفمبرية الأستاذ محسن العيني الذي كان وزيراً للخارجية في أول تشكيل للجمهورية الأولى ، والفريق حسن العمري الذي كان عضو مجلس قيادة ووزيراً للمواصلات في الجمهورية الأولى ، ثم محسن العيني مرة ثانية ، كما ترأس مجلس الوزراء عبد الله الكرشمي الذي سلم وزارة الأشغال ليحيى المضواحي بعد التصالح ، وكانت حكومة (الكرشمي) على قصر مدتها حكومة حساب تحاول ضغط مصروفات المسؤولين من أعلى رأس إلى ميزانية شيوخ الحرب ، فأقيل (الكرشمي) في نطاق امتصاص الغضب المشايخي لكي تلقى حكومة (النعمان) مظاهرة الجماهير ثم حجب ثقة مجلس الشورى ، ولكن الحكومة التي شكّلها النعمان كانت أفضل عند الجماهير من إعادة (عبد الله الحجري) إلى تشكيل الوزارة بعد أن كان من الوزراء المدانين عند الثورة ، ولكنه تمتّع بحماية الرجل السبتمبري وهو الفريق حسن العمري الذي كان مدير عام اللاسلكي أيام وزارة الحجري الملكية ، وكانت أقرب الحكومات إلى الشعب هي حكومة الدكتور حسن مكي ، لا لاختلاف وجوهها ونهجها وإنما لتميز رئيسها بالوعي الوطني والثقافة الثورية ، وكان رئيس المجلس الجمهوري يجعل من الدكتور حسن مكي بديلاً عن محسن العيني الذي كان عريض القاعدة من (نادي الخرّيجين) وبعض التنظيمات وبعض المشيخات ، وكان إذا شكّل الحكومة يزاول اختصاص رئيس وزراء حقيقي .

فهؤلاء الستة الذين شكلوا الحكومات في مدة سبع سنوات ، أشبه بأعضاء المجلس الجمهوري أو من نفس الاتجاه العام لعهد الحكم الجماعي ، الذي رأى الجماعية في تعدد الرؤوس لافي التعبير عن المجتمع .

لهذا كاد صراع النقائض المتشابهة أن يصل مداه ، وكاد المجلس الجمهوري أن يتبدى اسمياً ، فتركزت الملاحظات على العهد كله وكان أول شرخ في ذلك العهد من داخله هو إعلان مشروع القوات المسلحة للتصحيح

المالي والإداري الذي صدر عام ٧١ كأول اعتراف بالفساد ، ترتّب على هذا تحجيم المجلس الجمهوري وفي عام ٧٤ شمّت أعمدة الحكم جهد (الإرياني) في محاولة الانفراد بالسلطة ، ورأت عليه شواهد ملموسة : كتقوية حرسه الخاص ، وتشكيل غالبيتهم من منطقة (إريان) وما حولها ، وتعيين محمد الإرياني قائداً عاماً للقوات المسلحة ، إلى جانب بعض الاحتكاك مع الذين صالحهم من الجيران والزملاء ، فتفاقم الخلاف بين محاور السلطة عام ٧٤م هنا هدّد (الإرياني) - كعادته - بتقديم استقالته إلى مجلس الشورى ، وتبيّن أن استقالته هذه المرة تختلف عن التهديدات السابقة ، لأن قادة المعسكرات بدؤوا يتحرّكون مستغلين غياب القائد العام محمد الإرياني ، ولما أحس (عبد الرحمن الإرياني) اختلاف الظروف أراد تطبيق المقولة (الشمشونية) ، فاستدعى رئيس مجلس الشورى عبد الله بن حسين الأحمر ، وسنان أبو لحوم محافظ الحديدة ، وأحمد علي المطري صاحب الثقل السياسي في مجلسس الشورى ، فارتأى (الإرياني) تقديم استقالة جماعية من ناحية كل رؤوس السلطة ، باعتبار أن الحكم جماعي ، وتمّت استقالة المجلس الجمهوري ورئاسة مجلس الشورى ومحافظ الحديدة . . . وتقدمت الاستقالة في هذه المرة إلى القوات المسلحة صاحبة المشروع التصحيحي ، وتخلّص (الإرياني) من احتمالات دامية هي أخطر من (سيف الوشاح) الذي انسلّ من تحته ضاحكاً عام ٥٥م .

وباستقالة بعض الشيوخ إلى جانب المجلس الجمهوري ، ألحق (الإرياني) العقاب بالمتآمرين عليه دون أن يدري ويدروا . . . فقد تسببت استقالة سنان وابن الأحمر والمطري في كسر شوكة المشيخة على يد الجمهورية الثالثة ، وما تزال تعاني أثر تلك الاستقالة التي جاءت عن مؤامرة فاشلة بالنسبة إلى كبار الشيوخ .

لقد مهّدت السنوات الثلاث الأولى من السبعينات طريق الجمهورية

الثالثة ، لأن الجمهورية الثانية لم تشكل استمراراً للجمهورية الأولى ، وإنما عاشت فترتها وهي ملفوتة الوجه إلى الأربعينات .

صحيح أن الإرياني والسلّال من مصدر زمني واحد ، ولكن هناك اختلاف في الصدور باختلاف المنشأ ، فالسّلال ثائر لبس عباءة السياسة ، والإرياني سياسي لبس عباءة الثورة ، والسّلال من العسكريين الذين كان يترفع عن مهنتهم أبناء الأسياد والقضاة الأثرياء .

والإرياني من أبناء القضاة الذين يوازون طبقة الأئمة والطامحين إلى الإمامة ، لأن لقب القضاة لفئة المتعلمين من القحطانيين كانت معادلة للقب الأسياد من الهاشميين ، لأن لقب القاضي أطلق على كل فقيه غير هاشمي سواء مارس القضاء الشرعي أو لم يزاوله ، فلقب القضاة صفة تكريميّة ، ولقب الأسياد قيمة تشريفية ، وكان التعادل بين القيمتين قصداً إمامياً .

لهذا كانت الضبّاطية في الغالب من الطبقة الثانية والثالثة . أما الجندية فكانت من مهنة الطبقة الثالثة كالفلاحة والنجارة والحدادة ، فالترقي إلى الضابطية دنو من الطبقة الفوقية ، وبالأخص في الخمسينات ، فقد كان (السّلال) ينتسب إلى طبقتين : الفلاحية التي أتى منها أصله ، والضابطية التي أتت منها رئاسته . . . أما (الإرياني) فهو من بيت الفقه حتى أن أحمد الشامي في بعض قصائده أطلق على (دسكرة إريان) اسم مدرسة البيان وكعبة العرفان ، والاختلاف بين السّلال والإرياني بيتي ، يستدعي الإلماح إلى ظروف الرئيسين .

جاء (السّلال) إلى الرئاسة في مطلع الستينات وهي أرغد مواسم التفجر الثوري ، فكان الطفور وفير الدواعي وأقوى مؤهلات الزعيم ، وجاء (الإرياني) إلى المجلس الجمهوري في شتاء نكسات الثورات العربية بتأثير عدوان حزيران ١٩٦٧ ، فكانت أنسب لمزاجه الاعتدالي ، فحاول أن يجعل التطور الهادئ

بديلاً عن القفز الثوري ، نتيجة المؤامرة على الثورات ، حتى بردت جذواتها في أقطار وخبت في أقطار وتورّدت في أقطار . . . فكما كانت ظروف (السّلال) تستدعي الطفور ، كانت ظروف (الإرياني) تستدعي التعقل الذي كان مصطلحاً سياسياً في السبعينات ، وهذا ما جعل الجمهورية الثانية تنتهج طريق التوسط بين الثورة والتطور ، وبالأخص بعد الحرب الهادرة مدة ثماني سنوات ، فقد كانت ظروف (الإرياني) أشد تعقيداً ، ولو لم يتمتّع بخبرة وذكاء لما استطاع أن يحكم سبع سنوات في ظل الصراع عل غنائم السلام والاحتفاظ بمخصّصات الحروب .

لهذا كان تركيب الجمهورية الثانية متنافر الخليط ، ولو لم يكن على رأسها رجل مجرّب لتداعت في مدة أقصر ، لأنها كانت تحمل عناصر تداعيها من سنة قيامها ، بفضل ما يختزن الشعب من حرارة ثورية ضد كل استغلال .

تمكن (الإرياني) على تعاقب سبع سنوات عجاف من مجاراة كل التيارات المتعاكسة بطرائقه المتطورة عن أصول ، وبمعرفته بأطروحات كل اتجاه ، فاستبقى الثورية النسبية وحوّل الّذين كانوا أعداءً إلى أصدقاء ولكن على حساب صداقة الأقرب ، إذ استحال عليه بسط الاستقرار واستئصال المقاومة ومنع الحروب الحدودية مع الشطر الجنوبي التي بلغت ذروتها في سبتمبر ١٩٧٢م ، أما موقفه مع الطرف الآخر من الجيران فكان يمزج بين الاستقلالية والتصافي ، كما يشهد تعقيبه على تصريح سعودي بعدم الاعتراف بالجمهورية عام ١٩٦٩م ، فكان ردّ (الإرياني) مزيجاً من الاستقلالية والتودّد : « نحن نقول لجيراننا آل سعود : اعترفوا أو لاتعترفوا وحسبنا أن نستشهد بما قاله المرحوم الملك عبد العزيز لحكومة بريطانيا : (حنَّا هِنا) » .

فإذا كان في هذا التعقيب بداية تودّد ، فإن (الإرياني) اختتم عهده بتلك الكلمة الشهيرة : « إن الشعب اليمني من أقوى الشعوب حساسية بذاته ولا يقبل

عن سيادته بديلاً » . جاءت هذه الكلمة في خطاب افتتاح المحطة الجديدة للكهرباء عام ١٩٧٤م وهي أصرح تحدّ بعد تحدي (الوشاح) عام ١٩٥٥م ولعل (الإرياني) بهذه المكاشفة أراد تسجيل موقف وطني قبل تنحيته عن الرئاسة .

لهذا كان خروجه من الرئاسة ، كخروجه من تحت (سيف الوشاح) ، أو كخلاصه من سجن ١٩٦٧م عند احتباس المسؤولين اليمنيين بالقاهرة .

ففي يوم ١٤ حزيران ١٩٧٤م ودّع (الإرياني) عهد الرئاسة وأرض الوطن محاطاً بالتكريم وبالوداع الرسمي وكأنه راحل لمهمة رسمية لا خارج من ذروة الحكم ، حتى شبّهه البعض بعمرو بن العاص : (ولاّج خرّاج) فكما ودعت (تَعِزّ) الإرياني رسمياً استقبلته (دمشق) استقبال الرؤساء ، وبتوديعه واستقباله انطوت صفحة الجمهورية الثانية .

* * *

الجمهورية الثالثة

كما أهلّت الجمهورية الأولى منقطعة عن مأتاها - لأنها عكس الذي كان بالضرورة - جاءت الجمهورية الثانية موصولة بالجمهورية الأولى منقطعة عنها ، لأنها تضرب إلى الماضي بجذرين : جذر إلى تربة الجمهورية الأولى ، وجذر إلى إصلاحية الأربعينات . . . فحاولت أن تستعيد الإصلاحية ، وتمسّكت بالنظام الجمهوري وأقنعت الآخرين به . . . فحين أراد بعض الجيران تحويل اسم الجمهورية إلى (دولة إسلامية) ، قال رئيس المجلس الجمهوري عبد الرحمن الإرياني لمحاوريه : « أنتم لم تطلقوا على نظامكم اسم الدولة الإسلامية ، لأن الإسلام ليس مجرد عنوان ، وإنما هو مضمون تحت أية تسمية » .

وجاءت الجمهورية الثالثة من أساس الجمهورية الأولى ومن أرومة حكم المجلس الجمهوري ، فكما رُبّيَت الجمهورية الثانية في حضن الجمهورية الثانية ، ربَت الجمهورية الثالثة على جذوع المجلس الجمهوري ، والفرق أن الجمهورية الثانية جاءت من المعارضة ألى السلطة ، وجاءت الجمهورية الثالثة من الولاء للجمهورية الثانية وإن انطوت على بعض المعارضة في بدء السبعينات حول الإصلاح الإداري والمالي .

لقد كان أعضاء المجلس الجمهوري من ثمرة أوضاع العهد الإمامي ومن أركان الجمهورية الأولى . . . وكان بعض أعضاء مجلس القيادة في الجمهورية الثالثة من أقوى دعائم المجلس الجمهوري ، رغم شبه المعارضة التي تبدّت في أوائل السبعينات .

سبق التنويه إلى مشروع التصحيح المالي والإداري الذي قدمه (إبراهيم الحمدي) باسم القوات المسلحة عام ١٩٧٢م إلى المجلس الجمهوري ، فتقبله رئيس المجلس وعيَّن (إبراهيم الحمدي) نائباً لرئيس الوزراء لكي ينفّذ مشروع التصحيح من موقع الاقتدار في حكومة (محسن العيني) .

وفي حكومة (عبد الله الحجري) تحوّل (الحمدي) إلى نائب القائد العام للقوات المسلحة محمد الإرياني ، وكان ذلك التحوّل لايُنْذِر بخطر ، لأن (الحمدي) مضغوط بين موقعين مواليين للسلطة : موقع القائد العام (محمد الإرياني) ، وموقع رئيس الأركان (حسين المسوري) ، فتوهّم البعض أن مد (الحمدي) قد انحصر بين حائطين ، ولكنه أخذ يعزّز علاقاته بسائر الضباط من وراء ظهر القيادة ورئاسة الأركان ، مستعيناً بتجربته في قيادة الاحتياط وبوكالته في وزارة الداخلية في آخر السِتينات وتحت ذرور قرن السبعينات وبخبرته السياسية من انتمائه الحزبي إلى القوميين ، إلى جانب تطلّعه الخاص إلى أعلى ذروة ، وعندما رأى تداعي النقائض في المجلس الجمهوري ومجلس الشورى ، ركن إلى القوة المحركة التي كانت تختفي وراء صورة السلطة ، وكانت تتكوّن هذه القوة المحرّكة من شيوخ وضباط من عائلات الشيوخ .

لهذا كان عهد الجمهورية الثالثة مزيجاً من عهد الجمهورية الأولى وعهد المجلس الجمهوري ، فيوم حركة ١٣ حزيران عام ١٩٧٤م شكّل (الحمدي) مجلس قيادة من قادة أهم الأسلحة : كعبد الله عبد العالم قائد سلاح المظلات ، علي أبو لحوم قائد الاحتياطي العام ، محمد أبو لحوم قائد اللواء السادس مدرع ، مجاهد أبو شوارب قائد الجيش الشعبي ، علي الضبعي نائب رئيس الأركان . . . فحلّ (مجلس القيادة) محل المجلس الجمهوري الذي طوت صفحته حركة يونيو زمنياً دون أن تطويه تأثّراً واقتداءً كما في أول بيان أصدره الحمدي : « لقد حمّلتنا الظروف عبأً ما اخترناه وإنما اختارتنا المرحلة لصراع

التناقض بين السلطة وبعضها وبينها وبين بعض الدول التي تعهدت لها بما عجزت عن أدائه وبالأخص تلك القوائم » إشارة إلى قوائم الإعدامات التي تريد السعودية التخلص ممن شملتهم القوائم في أوقات متباعدة . وهذا أبرز وجه الاستمرارية للذي كان ، لأن حركة يونيو كحركة نوفمبر ارتدت الاعتدال ولاسيما في أول أيامها . . . ففي ليلة ١٣ حزيران أذاع مجلس القيادة بيان الحركة ونهجها السياسي ، فتبدّى أن ذلك الانقلاب عن اضطرار سياسي لا ضرورة شعبية ، على حد إفصاح ذلك البيان : « ياجماهير شعبنا ، ياأبناء سبتمبر العظيم ، نظراً إلى أن المجلس الجمهوري ومجلس الشورى قدّما استقالتهما إلى القوات المسلحة ، تحمّلت قيادة القوات المسلحة والأمن أمانة المسؤولية ، وإننا نعاهدكم على مواصلة ثورة سبتمبر وعلى الالتزام بالنهج الحكيم الذي اختطه رئيس المجلس الجمهوري (القاضي عبد الرحمن الإرياني) ، ولن نألوَ جهداً في تحقيق طموح جماهير شعبنا والله على ما نقول وكيل » .

العقيد إبراهيم الحمدي
رئيس مجلس القيادة

فهذا البيان يختلف عن بيان حركة ٥ نوفمبر ١٩٦٧م ، لأنه لم ينوّه إلى الفساد الإداري والمالي الذي تصدّى مشروع القوات المسلحة لإصلاحه ، على حين ألمح بيان حركة نوفمبر إلى ضرورة تلك الحركة ، لكي تحقن الدماء وتخلّص الشعب من الفوضوية والديماغوجية على حد تعبير البيان النوفمبري الذي عمل على نجاح سياسته ثقافياً وسياسياً ، ففتح لعبد الرحمن البيضاني الضوء الأخضر لإلقاء محاضرات أسبوعية على طلاب اليمن بالقاهرة تحت إشراف السفارة وكان حضورها إجبارياً ثم نشرت تلك المحاضرات في شكل كتب تحمل عناوين متشابهة : بدلاً عن الصراع الدموي ، سوق الشعارات في اليمن ، نحن نرفض الماركسية . وهذا هو الفرق بين بيان يونيو وبيان نوفمبر ،

فلم يعلن بيان يونيو مغايرة الحركة الحزيرانية لعهد المجلس الجمهوري ، وإن كان الشعب قد بدأ يلاحظ الفرق بين حماس الإذاعة ونارية أناشيدها ومن تحمّس التأييد الجماهيري لحركة يونيو ، لأنها ضغطت في بيانها وبلاغاتها وخطابات رئيس مجلسها على السبتمبرية وعلى الإثارة الوطنية ، وكانت السنوات السبع التي سبقتها قد حاولت تبريد الحسّ الوطني وإطفاء التوهج الثوري ، حتى كانت تردّد بعض المجالس التنديد بالحماس الوطني وتسمّيه تشنجاً ، وتعيب الألق الثوري وتسمّيه مزايدة بالشعارات ، كما كانت تشيد الدعاية الإعلامية بالوطنية الهادئة وبالتعقّل والاتّزان ، إلى حدّ أن (عبد الله الحجري) أمر في أيام حكومته بتغيير الشعلة الحمراء التي كانت تزدان بها صحيفة الثورة كرمز للحدث التأريخي (ثورة سبتمبر) .

لهذا ركّزت حركة ١٣ يونيو على الكوابت النفسية وأطلقت أنفاس الوطنية الثورية ، فلاقت شعبية لأنها تبدت ثورية الثورة ، ونتيجة للابتهاج الشعبي والمدّ الجماهيري أعلنت الحركة : المزيد من اتقادها السبتمبري الوطني ، فأنتجت الشهور الأولى للحركة أجود الأناشيد الوطنية وأكثرها حماسة مثل : (اليمن بلادنا ، يايمن احنا رجالك ، امش بنا سريعاً يامجلس القيادة) .

بهذا وأمثاله تحدّدت سمات الحركة وتميّزت روائحها ، برغم الخيوط التي تنم على اتصال العهد الحزيراني بأصول عهد الحكم الجماعي ، ولعل هذا بسبب التشابه الضئيل بين رأسي القيادتين .

سبق الإلماح إلى تأريخ عبد الرحمن الإرياني والمشير عبد الله السلّال ، وهذا يستدعي الإلماح إلى رئيس مجلس قيادة يونيو لتلمس مكوناته : ولد (إبراهيم الحمدي) في بداية فترة القلق الوطني وفي آخر زمن الاطمئنان ، لأن الأربعينات - مدرج طفولة الحمدي - كانت فجر اليقظة الحالمة ، كما كان الميلاد الزمني للحمدي مرتعش الساعات ، فإن أمكنة طفولته وصباه ، كانت

متنوّعة المناخات ، ولد في منطقة (ماوية) أيام كان والده القاضي الشرعي فيها ، وتعلّم الابتدائية في عدة مراكز تبعاً لتنقل والده من محكمة إلى محكمة في مركز آخر ، وأهمّها مدينة (ثلا) التي ينتمي إليها آل الحمدي ، فالحمدي من أبناء القضاء كالإرياني ، ولكنه لم يشكل امتداداً لأبيه كالإرياني هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن (محمد الحمدي) والد إبراهيم كان فذّاً في عائلته ، فلم يكن من عائلة قضائية كالإريانيين وإنما من بيت فقهاء من صغار الموظفين فكوّن نفسه فتميّز على ذويه ، فكان فقيهاً متبحّراً ، وكان فرَضياً حاذقاً . . . فتنقّل من محكمة إلى محكمة ، واتُّصف بالعدل وقلّة الاختلاس ، وفي مطلع الخمسينات سجّل (محمد الحمدي) موقفاً فرَضياً دلَّ على صرامته في العدل ، حتى شبَّهه معاصروه بـ(أحمد بن أحمد الجرافي) في تحرّي العدل حتى في أحرج المآزق ، فكما حكم (الجرافي) لعنقاد على (الإمام يحيى) بالبستان المتنازَع عليه ، حكم (الحمدي) على مكتسبات (الإمام أحمد) في حياة أبيه : بأنها من أملاك والده يجب أن توزّع حصصاً بين كل الورثة ، ولا تكون حصة (الإمام أحمد) منها إلا كحصة واحدة من الورثة الذكور .

لكن (إبراهيم الحمدي) لم يصادف زمناً كزمن أبيه وأسلافه من علماء (ثلا) الشهيرة بإنجاب النوابغ : كصالح مهدي المقبلي في القرن الحادي عشر الهجري ، فاختلف إبراهيم عن أبيه على كثرة محاولته اكتساب صفاته كإظهار أبّهة القاضي وإسكات الخصومات ليجري القضاء مجراه ، ونتيجة لهذه المحاولة آثر (محمد الحمدي) ابنه إبراهيم بمكانة خاصة في قلبه ، لمحاولة تشبّهه به ، أو لأنه أصغر بنيه أو لأنه ابن الزوجة الأثيرة ، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ، وربما أصاب هذا التدليل (إبراهيم الحمدي) منذ الصغر ، فبعد أن تلقى الابتدائية في عدة مراكز غلب عليه الميل إلى تحولات الخمسينات ، فلم يلتحق بدار العلوم كسائر أولاد القضاة ، وإنما ظل تحت جناح والده يتلقى أوائل الفقه

بدون استيعاب وبدون تشدّد من جهة الأب ، فكاد أن يضيع صبا (إبراهيم الحمدي) ، ولما فُتحت المدرسة التحضيرية بصنعاء عام ١٩٥٥م التحق بها بعد افتتاحها بعام واحد ، وكانت تلك المدرسة تقع بين موقعين : أعلى من ثانوية الخمسينات ، ودون دار العلوم التي كانت تخرّج القضاة . . . كانت مدة الدراسة في التحضيرية أربع سنوات ، فهي أكثر من الثانوية التي مدتها ثلاث سنوات ، وأقل من دار العلوم التي يتم التخرج منها بعد دراسة اثني عشر عاماً ، وعلى اختصار التحضيرية من دار العلوم ، وعلى تركيز الأضواء عليها واختيار تلاميذها من أبناء الموثوق بهم وعلى انتقاء أساتذتها ، فإن (إبراهيم الحمدي) لم يصل إلى مرحلة التخرج ، وإنما خرج بعد عامين ، وظل مساعداً لوالده إلى أن افتتحت كلية الطيران في آخر الخمسينات ، فالتحق بها مدة شهور ، ثم صحب والده في رحلة استطبابية إلى (روما) ، رجع من تلك الرحلة وكيلاً رسمياً لأبيه ، فاصبح كحاكم في مدينة (ذمار) ثم صار حاكماً تام الصلاحية ، وكان أقل الحكام دراية بالفقه الشرعي ، وإنما تقلّد ذلك المنصب بفضل أبيه ، واستطاع مزاولته بفضل كاتب المحكمة العلاّمة (علي بن حسن الديلمي) الذي تمم نقص الحاكم ، ولما شعر (الحمدي) بعجزه عن إصدار الأحكام بمقتضى معرفة خاصة به ، مال إلى المصالحة بين المتشاجرين ، فأشبه بهذا الأسلوب (عبد الله بن أحمد الحجري) أيام تولّيه القضاء في آخر الأربعينات وأول الخمسينات بمنطقة (النّادرة) ، إلى حد أن المتشاجرين كانوا يرتضون إصلاح (الحجري) بعد عزله ، ويؤثرونه على الحاكم الرسمي ، ونتيجة تحوّله من حاكم رسمي إلى حاكم تراضي أقوى من الرسمي وأقدر على فضّ الخصومات بالصلح ، لفت اهتمام القصر إليه فترقى إلى أن تقلّد أكثر من وزارة وأحياناً شغل وزارتين في وقت واحد في آخر الخمسينات وأول الستينات ، غير أن (الحجري) لايشبه (إبراهيم الحمدي) من كل الوجوه ، وإنما في وجه واحد هو الخبرة بالتصالح ، الذي يستدعي معرفة النقطة الوسط التي يمكن للغرماء

الالتقاء عندها ، على أن (الحجري) كان على إلمام يسير بالفقه ، لأنه درس إلى الشعبة الثالثة من الصف الأول بدار العلوم ، على حين لم يصل (الحمدي) إلى هذه المرحلة ، فالحكم التصالحي يعتمد على الذكاء الاجتماعي بدلاً عن الفقه الشرعي ، على أن له صفة الشرعية إذا كان عليه صبغة منها ، والمهم رضى الغرماء كما يقول المثَل الشعبي : (الصلح سيد الأحكام) .

على أن مدة (الحمدي) في محكمة (ذمار) لم تكن طويلة تشكّل حكماً على تجاربه ودرايته بنقاط الالتقاء بين أطراف الخصومات ، إذ قطع مدته قيام ثورة الـ ٢٦ من سبتمبر ، فوصل إلى (صنعاء) هارباً من جماهير (ذمار) التي كانت توصل المسؤولين إلى قيادة الثورة بصنعاء مكتوفين أو محاطين بالجماهير كسائر جماهير المراكز .

هنا تأتي مشابهة بين الحجري والحمدي ، إذ تحصّن الاثنان بكنف (الفريق حسن العمري) ، إلا أن الحمدي أحسن استغلال تحصّنه بمرافقته العمري في الأعمال الحربية والمدنية ، فبات جزءاً من السلطة وباحثاً عن المستقبلية ، فانتظم بمنتصف الستينات في تنظيم حركة القوميين العرب . . . وبعد حركة نوفمبر ١٩٦٧م عُيّن وكيلاً لوزارة الداخلية ، وأخذ يتراوح بين الابتعاد عن تنظيمه وبين الاقتراب منه لحساسية مكانه في السلطة ، فتسبّبت حركيته في إلحاق الضرر الشديد بتنظيمه الذي فجّر حركة أغسطس عام ١٩٦٨م ، فكان (الحمدي) يتعقّب ذلك التنظيم عن معرفة بأعضائه وأطروحاته ومخابئه وكانت الحساسية بين الجبهة القومية حكام الجمهورية الأولى في الشطر الجنوبي وبين أعمدة جمهورية نوفمبر إلى حد أن النوفمبريين بصنعاء أقاموا حفلة ابتهاج بسقوط نظام الجبهة القومية برئاسة قحطان الشعبي الذي كان يحرّك قطاعات من جماهير الشمال ويحققون انتصارات على مواقع حكومة الشمال بقيادة أحمد عبد ربه العواضي ، وفي عام ١٩٦٩م أصبح (الحمدي) قائداً

لمعسكر العاصفة ، وبعد المعركة الحدودية بين الشطرين سنة ١٩٧٢م التي ترتّب عليها تشكيل لجان الوحدة وقف (الحمدي) في وجه الوحدة بطريقة غير مباشرة ، إذ رأى التصحيح المالي والإداري في الشطر الشمالي أولى بالسبق على الوحدة ، لكي يتحِد متشابهان ، لأنّه كان يتوهّم دقّة السير الإداري في (عَدَن) أو كان يريد اكتساب المتخوّفين من الوحدة ، وهذا ما برَّر تقديمه مشروع التصحيح المالي والإداري باسم القوات المسلحة ، وكان هذا المشروع شبه معارضة يختلف عن معارضة الستينات التي جاءت منها سلطة نوفمبر ، إلا أن ذلك المشروع التصحيحي كان أول الروائح الواشية بطموح (الحمدي) .

فمن ذلك الحين كوَّن الصلات المتعددة مع الأصدقاء ، وتعززت مكانته بتنصيب أخيه (عبد الله) قائداً لمعسكر (العمالقة) بذمار ، وعندما أصبح نائباً للقائد العام للقوات المسلحة ، استغلّ غياب القائد ورئيس الأركان ومضى يحرّك الأحداث ضد المجلس الجمهوري ، حتى قدَّم المجلس الجمهوري ومجلس الشورى استقالتهما إلى القوات المسلحة في ١٣ يونيو ١٩٧٤م .

من ذلك الحين أصبح (إبراهيم الحمدي) رئيس مجلس القيادة العامة للقوات المسلحة ورئيس الدولة ، ونظراً لثقل بيت (أبي لحوم) مشيخياً وعسكرياً يومذاك شكّل صهرهم (محسن العيني) أول حكومة في الجمهورية الثالثة ، وكالعادة لم تطل مدة (محسن العيني) ، ولم تطل حسن علاقة مجلس القيادة ، إذ أصابه ما أصاب المجلس الجمهوري من قبله من تناقص العضوية ، نتيجة الطموح والتشبث ، فلم يكد يمر عام حتى أقصى (الحمدي) (مجاهد أبا شوارب) و(آل أبي لحوم) ورئيس الأركان (علي الضبعاني) فأضحى مجلس القيادة من رئيس وعضوين هما : عبد الله عبد العالم ، وأحمد الغشمي ، وكان الإقصاء يبرّر نفسه بزعم تعدد الولاءات ، وهو يضاهي مراكز القوى عند (السادات) .

من بداية ١٩٧٥م انفرد (الحمدي) بالسلطة مقصياً أركان نوفمبر وسبتمبر معاً ، فأهاج شعبية واسعة المدى ، لأن أكثر السبتمبريين ماعوا في عهد التصالح ، وأغلب النوفمبريين تلاشوا في معركة المصالح ، فلم يحرق (الحمدي) غير محروقين سلفاً ، ومع هذا تسبَّب في فتح النار على نفسه ، لأنه حاول أن يبدو أكثر من حقيقته ، فحوَّل مشروع التصحيح إلى لجان تصحيح تراءت كتنظيم سياسي ، ولكن من تلك التنظيمات التي تولد ميتة ، لأنها من صنع النظام وليست من صنع الحاجة الشعبية والتحوّل الاجتماعي عن نظرية ، فأشبه ذلك التنظيم كل التنظيمات التي تشكّلها القيادات من أمثال : الاتّحاد الوطني الذي شكله (الملك حسين) عام ١٩٧١م ، أو الحزب الذي شكله (شاه إيران) عام ١٩٧٨م ، أو الحزب الوطني الديمقراطي الذي شكّله (السادات) .

فهذه التنظيمات لاتنبض فيها حياة ، لأنها مجرد شكل توظيفي لايحمي شكله من الشعب ولا يحمي الذين شكَّلوه من السقوط ، ومع هذا بدت لجان التصحيح كتنظيم مخيف لاختلاطه من كل الوجوه والاتجاهات ، وثبت عدم وجوده يوم لقي (الحمدي) مقتله في ١١ أكتوبر عام ١٩٧٨م .

في ذاك اليوم لقي (الحمدي) أغرب مقتل إذ سُجلت الجريمة ضد مجهول لأول مرة في مقاتل الرؤساء . . . فقيل فيه عدة أقاويل ، كلها في صالح (الحمدي) لبذاءتها وعدم تركيزها على غاية سياسية أعلى . . . إذ شيّعت نعشه أكبر مظاهرة جماهيرية عرفتها صنعاء مردّدة : أين الحمدي ياغشمي ، لأن مقتله حدث في بيت الغشمي بظلاع همدان وكان مدعواً إلى وليمة غداء حضرها كبار المسؤولين فشكّل هذا على الحمدي شدّاً إلى حضوره فكان التوجّس ، ولعل ذلك القتل على تلك الصفة كان منعاً لزيارة الحمدي (عَدَن) في اليوم التالي لاغتياله . ومن غمار المظاهرة المندّدة بالقتل والقتلة ، صعد (أحمد حسين الغشمي) إلى رئاسة مجلس القيادة والجمهورية كاستمرار لفترة (الحمدي) ،

وقبل أن يمر أو يستمر لقي مقتله بعد ثمانية شهور صاخبة مندّدة . . . وكان قتل (الغشمي) أغرب وأعلى دوياً من مقتل (الحمدي) لأنه نتيجة صراع بين إيديولوجيتين . . . قيل : إن رسول (سالم ربيّع علي) رئيس جمهورية الشطر الجنوبي فجّر حقيبته الملغومة في مكتب (الغشمي) ، وقيل إن لغماً كان مدسوساً تحت مكتب (الغشمي) انفجر به وبرسول ربيّع .

من هنا لاحت الرئاسة كأخطر الأخطار ، فلم يكد المواطنون ينسون مقتل (الحمدي) ، حتى دوّى مقتل (الغشمي) . . . فلأن رئاسته كانت مفاجئة ، كانت نهايته العنيفة مفاجئة أيضاً .

لقي (الغشمي) مصرعه وهو على باب الأربعينات من عمره ، وكان الحمدي يوم مقتله في تلك السن أو يقاربها ، وعلى تشابه المصيرين ، فإن خلفية الرئيسين متباينتان .

نشأ أحمد الغشمي في (دسكرة ظلاع) من قبيلة همدان ذات الصيت التأريخي ، وكانت نشأته في بيت قائم بين دار الشيخ وبيوت الفلاحين ، فبيت (الغشمي) من البيوت التي تُسمّى بـ (العقّال) أي بين شريحة المشيخة وشريحة الفلاحين . كان (محمد قائد العذيب) شيخ (ظلاع) إلى عام ١٩٤٨م ، ومن ذلك الحين صعد (عاطف المصلي) بفعل تفانيه في نصرة (الإمام أحمد) على الدستوريين عام ١٩٤٨م ، وظل يتربّص بالعُذَيب حتى دسَّ له من يقتله ، وبهذا خلا الميدان لعاطف المصلي ، غير أن مقتل (العُذَيب) جمهر أهل ظلاع حول (محمد حسين الغشمي) كمزاحم مرتقب لعاطف المصلي ، وظل عاطف أغلب وأقوى ، حتى أنه كان يسجن كالحكام ويحل الخصومات كمديري المناطق ، ولأن نجمه تألّق في غير مداره ، انطفأ بأول ريح ، ولأنه دخل من باب القتل خرج من باب القتل . . . ففي صبيحة ثورة سبتمبر وقف آل الغشمي إلى جانبها ، وأراد (عاطف المصلي) اتخاذ الأحوط فأعلن تأييده للثورة لكي يغطّي تهريبه

للبدر ، فلقي مقتله بسبب الذي أراد نجاته أو بفعل الثأر الغيبي للعُذَيب .

من سبتمبر ١٩٦٢م فرغت ساحة مشيخة (ظلاع) لأولاد الغشمي ، فارتكبوا نفس الجرائم التي جرَّت (عاطف) إلى مقتله تخلصاً من المنافسين ، فكما ارتكب (عاطف المصلي) قتل (العُذَيب) وأمثاله في الخمسينات ، ارتكب (أولاد الغشمي) قتل (يحيى القناني) وأشباهه في آخر الستينات . . . وكان انتماء شباب الشيوخ إلى القوات المسلحة في الستينات من أقوى نوازعه ، لكي تحتمي العشائرية بالعسكرية ، فالتحق (أحمد الغشمي) بالجيش عن تعليم ابتدائي ، وترقّت به الحال حتى وصل إلى رئاسة الأركان عام ١٩٧٥م ، وكان في مدة رئاسته على الأركان أكثر صرفاً من الخزينة العسكرية حتى فاقت حوالاته حوالات الرئيس .

بهذا كسب واكتسب ووصل الرئاسة على جثمان (الحمدي) في أكتوبر ١٩٧٧م ، واحتسى نفس الكأس بعد ثمانية شهور أي : في ٢٤ يونيو ١٩٧٨م ، ومن أجل الاستمرار رأس الجمهورية نائب الرئيس (عبد الكريم العرشي) مدة أربعين يوماً ، ثم أجمع مجلس الشعب على ترشيح (علي عبد الله صالح) الرئيس الحالي .

جاء (علي عبد الله صالح) إلى الرئاسة من أنقى الشرائح الشعبية ، ومن أكثرها إنتاجاً ، لأنه من طبقة الفلاحين الذين عجنت تربتهم أنامل الأشعة وقبلات المطر .

درج (علي عبد الله صالح) على الأرض التي يروِّيها العَرَق الإنساني وعبير السنابل وتتكئ عليها أهداب المجرّات ، فمن المعروف عن قبيلة (سنحان) قوة التفاني في الأرض وعشق الفلاحة ، يتساوى في هذين الرَّجل والمرأة ، لأن الأرض ينبوع عطاء الرَّب الذي وضعها للأنام وزخرفها بالخضرة والأنداء .

تلقى (علي عبد الله صالح) القراءة والكتابة بذكاء ابن الفلاح ، .ثم التحق بالجندية في (بلوك سنحان) فتحول من موقع شعبي إلى موقع أوفر شعبية ، وعندما حملت الثورة فجر (اليمن الجمهوري) كان الرئيس من جنودها الأوفياء على امتداد مسيرتها القتالية ، برغم أن أشباه الاقطاعيين من منطقته وسائر المناطق تاجروا بالحرب بين المعسكرين ، وجارى بعض جنود النظام تجّار الحروب ، أما (علي عبد الله صالح) فإنه يؤكد في كل أحاديثه جنديته للثورة ، ولا يدّعي ما لا يفعل ولا يحب أن يدعي له أحد ، لأنه خير من يعي أن نفاق المديح يعزل الممدوح عن الحقائق الموضوعية ، كما أن الحقيقة ذاتها أهدى إلى دخائل الأمور ، ويكفي أن (علي عبد الله صالح) من شرائح القوة المنتجة التي تصنع رغد اليمن ، فالفلاحون بكل المقاييس هم غالبية شعبنا وغالبية كل الشعوب ، وهم طاقة الإنتاج والعطاء ومواطن البراءة والطيبة .

انتقل (علي عبد الله صالح) من الفلاحية إلى الجندية ، فكان تناميه من الشعب إليه ، وكان ترقّيه بتدرج خبرته ، فمن حركة يونيو ٧٤ إلى ٧٨م مارس الاختبار المباشر في العسكرية والموطن ،تولى عام ٧٥م قيادة لواء تَعِزّ ، وقوّى صلاته بكل المواطنين ، وبعد مقتل أحمد الغشمي في يونيو ٧٨م ترقّى علي عبد الله صالح إلى رئيس أركان ، لكي يضبط الأمور ويحقق الأمن في الوقت الذي أفزع منصب الرئاسة كل الشجعان ، لأنه رادف القتل العنيف ، فأصبح الطموح إليه فراراً منه ، وعلى خطورة ذلك المكان قبل (علي عبد الله صالح) ترشيح مجلس الشعب له رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة في يوليو عام ١٩٧٨م وعمره يقرع بوّابة الأربعين .

فكيف يمكن تأريخ هذه الفترة وهي لم تزل تصنع تأريخها حياتياً ، لكي تنتقل إلى مادة كتابية ؟؟ . .

بغض النظر عن حياة المؤرخ له أو غيابه ، فإن لهذه الفترة معالم تستحق التنويه قبل أن تصبح تأريخاً ، فإذا كان التأريخ علم الماضي ، فإن هذا لا يمنعه من الإشارة إلى الحاضر ، قبل أن تتحوّل ملامحه إلى تأريخ علمي ، فلأن الفترة مازالت تنسج تأريخها ، فإنها مازالت تكتب نفسها لكي يستكتبها المؤرخون على أن أبهى المعالم التي ستحول تأريخاً ، هي مغامرة الرئيس في استلام الرئاسة في ذلك الظرف الذي تحالف فيه النظام العراقي والنظام السعودي في وجه الجبهة الوطنية الديمقراطية ، التي كانت تقيم في (عدَن) ومن حملة الوفاق بين النظامين اختيار علي عبد الله صالح رئيساً للجمهورية . المعلم الثاني ، هو أن الرئيس أول رئيس من أبناء الفلاحين الكادحين الذين يشكّلون غالبية الناس وأكثرية القوى المنتجة . المعلم الثالث أن الرئاسة الحالية اقتدرت على استمرار الكائن من منتصف عام ٧٨ إلى آخر عام ٨٠م ، وكان مجرد الاستمرار أهم الحاجات الأمنية في ذلك الحين ، أما من عام ٨١ إلى ٨٣م فقد بدأ الرئيس يشكل عهده المميّز ، ففتح صدره للحوار الشعبي الديمقراطي وأصدر (الميثاق الوطني) وشكّل (المؤتمر الشعبي) كأول تنظيم علني رسمي وعاد إلى دورته الثانية في الرئاسة على أكتاف المظاهرات الجماهيرية التي أصرّت على استمرار رئاسته . . . وهذه المعالم مهما كانت موطن إعجاب فإنها لم تَؤُلْ إلى مادة المؤرخ ، فالجمهورية الثالثة سلسلة واحدة تواصل نفس المسيرة من يونيو ٧٤ إلى كتابة هذا ١٩٨٣ .

ولعل المؤرخ الآتي هو الذي سوف يلاحظ اختلاف الفترة الحالية وخصبها عن سوابقها ، ولعل أجمل ما فيها قيمتها في ذاتها ولما سيترتب عليها ، كقيمة وقيمة ناتجة عنها ، فإن البواكير التي تلوح الآن تثير حاسة التنبؤ بأن هذه الفترة واعدة بالمأمول وبغاية ما ينشد الناشدون ، فليست هذه الوقفة حول هذه الفترة إلا مجرد إشارة إلى البعيد ودلالة على الحاضر الخصب ، لأن كل كاتب لايملك الكلمة الأخيرة إذا صح أن للكلام آخر .

في الشطر الجنوبي

ليس تقديم اسم شطر على اسم شطر في الكتابة والحديث دليل المفاضلة بين الشطرين ولا التقديم والتأخير لأهمية المقدم لغوياً ، وإنما لقصد ترتيب الأحداث في سياقها التأريخي ، وليس شعار الوحدة هو الرمز لمكانين في الشطرين ، فإذا رمزتَ بالميفعة اضطريت أن ترمز بيافع ، وإذا وصفت (همدان) تكلَّفت أن تصف (بيحان) ، فالمشاكلة في الأمكنة وتجاور أسمائها ليس برهان الوحدة ، لأنها مضمون فوق الرمز والتنويه ، فقد توهّم البعض أن مجرد ذكر اسم منطقتين من الشطرين في شعر الأغاني والقصائد والكتابة ، أغنى دلائل الوحدة ، وتصوّر البعض أن دخول وفدي الشطرين قاعات المؤتمرات والمهرجانات أزهى آيات الوحدة ، وهذا التساوي والتشابه في الرمز بالأسماء أو توحيد الوفدين أقرب إلى تساوي أعداد لجان الوحدة وأعداد جلساتها كل مرة في عاصمة من الشطرين ، كل هذا التشكيل قد يجمع أضداداً ولا يثري مفهوم الواحدية ولا يؤصل قيام الوحدة ، وسوف يخالف هذا البحث إخوته من البحوث ، فلا يلتفت إلى خلفيات رؤساء الجمهوريات وإلى المكوّنات الشخصية والتعليمية لكل رئيس في الشطر الجنوبي ، لسبب واحد هو أن الرئاسة في الشطر الجنوبي لم تتحقق بعبقرية شخصية أو فرادة ذاتية ، وإنما تأتّت من صراع تنظيمي طمح إلى السلطة وحقق الوصول إلى المطمح أو أخفق في الوصول ، وكل هذا الإخفاق والفوز عائد إلى قوة القاعدة حزبياً ، على عكس رئاسات الشمال فإن قوة الشخصية أو العائلية من أهم المؤهلات للرئاسة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن تقديم رئاسات الشطر الشمالي ترجع إلى سبق الشمال بالثورة التي

حملت على أجنحة نارها (النظام الجمهوري) ، الذي سبق قيام النظام الجمهوري في الجنوب بخمس سنوات ، كانت هذه السنوات أقوى المواقع لانطلاق ثورة الشطر الجنوبي التي حملت على موج اتقادها (النظام الجمهوري) الذي هو محور هذا البحث ، ومن أقرب القريب إلى الذاكرة أن أول نظام جمهوري قام في الشطر الجنوبي عام ٦٧م بزعامة الجبهة القومية ورئاسة (قحطان محمد الشعبي) الذي تدرج رقيّه بتطور تنظيمه ، فقد نشأ تنظيم (حركة القوميين العرب) في الشطر الجنوبي عام ١٩٥٧ ، وكان ذلك التنظيم يحتمي بالسرِّية ، فلا تنطق عنه صحيفة ولا تهدي إليه لافتات مكتبية ، وإنما نشأ بين الجماهير بدون اسم حزبي علني في غمرة عناوين التنظيمات والنقابات والاتحادات من منتصف الخمسينات إلى آخر الستينات ، وكان يتميّز ذلك التنظيم بمتابعة الصحف القومية ومؤلفات القوميين مثل : كتابات ساطع الحصري ، محسن إبراهيم وعبد الرحمن البزّاز ، وكان مثقفو التنظيم ينشرون كتاباتهم القليلة في صحف الكويت ومجلاتها وبالأخص مجلة الطليعةِ ، وفي صحافة الشطر الشمالي عندما تحوَّلت من (النصر) و(سبأ) إلى (الثورة) و(الجمهورية) بقرار جمهوري .

إذن فلم يكن لتنظيم (حركة القوميين العرب) علنية التنظيمات في الشطر الجنوبي في أصيل الخمسينات وأسحار الستينات . . . وكانت أول ما ظهر (قحطان محمد الشعبي) كزعيم لحركة القوميين العرب في أكتوبر عام ٦٢م في حوار سياسي نشرته جريدة (الحرية) البيروتية ، وكان في ذلك الحين بصنعاء كأحد أعضاء (جبهة التحرير) التي سوف تصبح جبهتين ، والتي تكوَّنت جبهة واحدة أهم غاياتها تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار ، وكانت عبارة (التحرير) عند القوميين العرب بديلاً عن الحرية في مبادئ أمثالهم من التنظيمات القومية ، فكانت صفة (جبهة التحرير) أقرب إلى مبادئ الحركيين القوميين وأنسب لطبيعة النظام التحريري ، إذ كان عبير (جبهة التحرير

الجزائرية) يعبق في الآفاق صبيحة الستينات .

لهذا امتزجت الجبهة القومية في إطار جبهة التحرير التي جاءت من حزب الشعب الاشتراكي وسائر الشرائح الاجتماعية ، وتوارى اسم الحركيين تحت اسم القوميين ، وهذا غطاء عريض يلفّ كل القوميين على اقترابهم وابتعادهم ، وكانت شدة المعركة تلم سائر الأفواج المقاتلة ، التي تتعنون بجبهة اِلتحرير ، وينطوي تحت عنوانها فصيلان من التنظيم وفصول من التخطيط ، ومن عام ٦٤م أعلنت (الجبهة القومية) اختلاف وجهتها عن وجهة (جبهة التحرير) ، وكان (قحطان محمد الشعبي) يضاهي زعيم جبهة التحرير في السباق على تأييد جمهورية سبتمبر وتأييد (الجمهورية العربية المتحدة) الواقفة إلى جانب جمهورية سبتمبر ، غير أن التأييد الرسمي من الجمهوريتين كان يتبنى جبهة واحدة تسمَّت (جبهة التحرير) وانصهرت فيها كل العناصر النضالية ، ومع هذا انفصلت الجبهة القومية عن جبهة التحرير عام ٦٤ ، واتّخذت تحريك المقاتلين من الريف بدلاً عن تحريك شوارع (عدَن) بالمظاهرات ، وحدث بين الجبهتين من الصراع الدموي ، كالذي حدث بينهما وبين قوى الاستعمار ، ولعدة أسباب سبق إيضاحها رجّحت كفّة الجبهة القومية ، فأصبحت زعيمة الشطر الجنوبي وأقامت (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية) في عام ١٩٦٧ برئاسة (قحطان محمد الشعبي) ، من ذلك الحين انطوى اسم (الحركية) ولمع اسم (الجبهة القومية) في الجنوب ، وعلى تغلب الجبهة القومية ، فإنها واجهت القلاقل والانفجارات من مطلع عهدها ، فنسبت هذا إلى طبيعة التوتر أيام القتال ضد الاستعمار ، كما أعلنت تعليقات راديو (عَدَن) التي دعت المواطنين لِنَبْذ السلاح لذهاب أوان تحريكه ، فقد كانت تواجه الجبهة القومية مقاومتين : من الأكثر يسارية في داخلها ، ومن عناصر (جبهة التحرير) التي كانت تتلقى المدد والتوجيه من زعامتها في (تَعِزّ) . . . فارتأى (قحطان الشعبي) ضمان

الاستقرار يكمن في تحريك عناصر الجبهة القومية في الشطر الشماني ، لكي يقطع نهر القلاقل من ينبوعه ، وكان في (صنعاء) وتعز أعداد من (الجبهة القومية) ومن (جبهة التحرير) يسمّون بالحركيين والتحريريين ، غير أن الحركيين كانوا في مواقع أقوى ، بل كان بعضهم قادة أسلحة في جيش صنعاء ، وبالأخص في ظروف حصار صنعاء ١٩٦٧م . إذ كان (عبد الرقيب عبد الوهاب) قائد سلاح الصاعقة و(حمود ناجي) قائد سلاح المظلات و(علي مثنى جبران) قائد سلاح المدفعية ، فمدّوا الجبهة القومية من وراء ظهر الحكومة المعترفة سياسياً بجبهة التحرير بالسلاح والمقاتلين .

لهذا سعى (الحركيون) على تفجير انقلاب في ٢٣ أغسطس عام ٦٨م ضد المجلس الجمهوري بصنعاء الذي اعتمد على سلاح المدرعات والقوى القبلية ، وانطفأ انقلاب الحركيين في مدة ٢٤ ساعة ، وتعاون على إنهائه جماعة التحرير إلى جانب قوة المجلس الجمهوري والقوى المشيخية ، ورغم وأد ذلك الانقلاب في مهده فقد استعاد بعثه من عدة مهود ، لأنه لم يكن من جهة واحدة ، وإنما من تنافر الوجوه ومنسجمها ، وتسبب (المجلس الجمهوري) في تزايد مدّ الحركيين ، لأنه استغلّ ذلك الحادث الانقلابي وفشله كذريعة لضرب كل العسكريين ، بقصد إماتة فكرة الانقلابات العسكرية مستقبلاً ، وبهدف إضعاف العسكريين جملة لكي يخلو الميدان للقوى القبلية ، التي كانت القوى المحرّكة للسلطة السياسية ، فشمل التسريح والإقصاء إلى الخارج ضباطاً غير (حركيين) بل من الذين قاوموا (الحركيين) في محاولتهم الانقلابية . . .

ولعل القوى المشيخية - كعادتها - كانت تريد الحروب مع أي أحد ، فلم يؤد القضاء على الانقلاب ، القضاء على أدواته ، بل تجمّع المسرّحون والهاربون والثائرون على القوى التقليدية في معسكر واحد (المقاومة الشعبية) فشهدت الشهور الأخيرة من عام ٦٨م والأولى من ٦٩م عدة أحداث حمر بين حدود

الشطرين وفي داخل الشمال ، فأشارت اتهامات (صنعاء) إلى (قحطان الشعبي) بأنه يحبو زحفاً إلى صنعاء .

وبهذا نقل القلاقل من الشطر الجنوبي إلى الشطر الشمالي دون أن يتمكّن من تأصيل جناحه في الجبهة القومية ، فقد جر عليه تفجير قلاقل الشمال نقمة صُنّاع الحدود في شمال الجزيرة ، فألّبت (صنعاء) كل النازحين من الشطر الجنوبي ردّاً على تأليب (الشعبي) لعناصر المقاومة والمسرّحين من الجيش عل قلّتهم ، وكان الجناح اليساري في الجبهة القومية يواصل اختباراته التنظيمية ويستطلع بوارق الأحداث التي كانت تتألب حتى وصلت ذروتها في أيام معركة (الوديعة) ، فبرّر سقوط تلك المنطقة سقوط رئيس الجمهورية (قحطان الشعبي) عام ١٩٦٩م ، فابتهجت (صنعاء) لسقوط الشعبي ، دون أن تفطن ودون أن يفطن أمثالها إلى نوع البديل ، لأن نوع الانقلاب على (الشعبي) كان أغرب انقلاب ، إذ لم يتفجر فيه سلاح ولا احتلال قصر وإذاعة ، وإنما حدث هياج جماهيري جرف الشوارع وأسكت الإذاعة ، وبعد ساعات من أيام شهر يونيو ١٩٦٩م طويت صفحة (قحطان الشعبي) ، وسُمّيت تلك الحركة تصحيحية ولكن عكس تصحيح نوفمبر بصنعاء عام ١٩٦٧ ، رغم تشابه الظواهر فإن الفروق أكثر وضوحاً ، كان انقلاب (عَدَن) في ١٩٦٩م أبيضاً هائجاً ، وكان انقلاب (صنعاء) في ٥ نوفمبر ١٩٦٧م أبيضاً صامتاً ، لم تخدش هدوءه غير تلك الدبابات الست التي احتل بعضها الإذاعة وبعضها القصر الجمهوري بدون أي هجوم أو مقاومة ، فكلا الانقلابين سلمي : انقلاب (صنعاء) سفَّر رئيس الجمهورية إلى خارج القطر قبل أيام من حدوثه ، وانقلاب (عدَن) طوى رئيس الجمهورية داخل السجن ، من يونيو ١٩٦٩م هدأت المقاومة والمناوشة الحدودية بين الشطرين ، لأن الرئيس الجديد (سالم ربيِّع علي) والأمين العام (عبد الفتاح إسماعيل) اشتغلا بتقوية التنظيم والنظام في الداخل وبإبعاد ضباط

(الليوي) عندما أرادوا تحريك انقلاب عسكري على (الشعبي) فأحبطته قوة الجناح اليساري ومن ذلك الحين تبدّى تأييد الجيش (الجبهة القومية) لكي ينقلب عليها من داخلها ، فتشابهت أحداث (صنعاء) و(عدَن) غير أن زعيمي الجبهة القومية ركّزا على تجذير القواعد الاقتصادية وتماسك أجهزة النظام ، فأتمَّ (نوفمبر) مخططه التصالحي بصنعاء مع الملكيين وتوثيق علاقاته مع الجيران ، وتبدّى النظام في (عدَن) هادئاً من بداية رئاسة (سالم ربيِّع) للجمهورية سنة ١٩٦٩م إلى معركة سبتمبر بين الشطرين عام ١٩٧٢م أو بعد التصحيح الثاني في الشطر الجنوبي وقبل التصحيح الثاني في الشطر الشمالي ، لقد أراد (سالم ربيِّع) بالاتفاق مع الأمين العام أن لا تطفر التغييرات ، فلم يعلنا غير أطروحة الجبهة القومية وتنقيتها من الانتهازيين ، فشكَّل (محمد علي هيثم) رئاسة الوزراء كامتداد لقحطان الشعبي الذي انتهت مدته ، وظلّت الرئاسة والأمانة العامة على أتم يقظة إزاء ذلك الامتداد حتى لا يتجاوز مداه ، فأمكنت تنحية (محمد علي هيثم) بمجرد تعديل وزاري وحل محله (علي ناصر محمد) الرئيس الحالي .

من هنا حقق الجناح اليساري إمساك كل أعنَّة السلطة ، فتهيأ الجو العام لانزراع القواعد الاقتصادية ، ولتدفق التحولات الاجتماعية . من يونيو ١٩٧٢ إلى يونيو ١٩٧٨م تراءى الانسجام سائداً ، ووشت بعض الأخبار على الصراع بين الأمانة العامة ورئاسة الجمهورية ، وكانت رئاسة الوزراء هي المحبس القوي التي تمنع الانفجار وتبدي ظواهر الانسجام ، وكان رئيس الجمهورية سالم ربيِّع يزاول مسؤوليتين : سياسية وتنظيمية ، فهو رئيس الجمهورية سياسياً ، وهو مدير الإدارة السياسية للجيش تنظيمياً وعسكرياً ، وكان (عبد الفتاح) يزاول مسؤولية التنظير للتنظيم وقيادة (المليشيا الشعبية) ، ومن حين إلى حين تردّدت أخبار عن قتل جندي هناك وعن قتل عضو مليشيا هنا ، ولم يستطع أحد أن يلاحظ

صراعاً بين المليشيا والجيش ، وذلك بفضل أمن الثورة وبموقع (علي ناصر محمد) بين الموقعين ، وفي ٢٠ يونيو عام ١٩٧٨م شمَّت الأمانة العامة ورئاسة الوزراء علاقات (سالم ربيِّع) بعدة أطراف ، وعقدت اللجنة المركزية جلسة تدارست فيها أسباب التذمر في قيادة الجيش ومجاهرة أعداد من الضباط بالسخط ، وألزمت اللجنة (سالم ربيِّع) رئيس الجمهورية بتقديم تقرير مفصّل عن أسباب تذمر الضباط بصفته مسؤولاً تنظيمياً عن الإدارة السياسية للجيش ، فأبدى موافقته وأخفى المماطلة والتسويف ، وفي يوم ٢٤ يونيو تعالى هدير ذلك الحدث بصنعاء الذي أطاح بأحمد الغشمي والذي اتُّهم فيه رسول سالم ربيِّع ، وقيل إن الأمانة العامة استرجعت الرسول الأول لربيِّع من المطار واكتشفت أنه يحمل مخطَّطاً إلى (الغشمي) فحواه : أن يشن (الغشمي) هجوماً على حدود الشطر الجنوبي ، لكي يستعيد (سالم ربيِّع) مكانه القيادي في الجيش فيقود انقلاباً ضد المتطرفين ، ولما اكتشفت الأمانة العامة هذا غيَّرت الرسول وشحنت حقيبته بمواد مقتل (الغشمي) وقد تفنَّنت الروايات في صحة هذا الحدث وفي عكسه ، وتوالى في حدود يومين موقفان : في ليلة ٢٤ يونيو نفى مذياع (عدَن) تهمة (صنعاء) ضد (سالم ربيِّع) وفي ليلة ٢٦ من نفس الشهر أعلن مذياع عَدَن مقتل (سالم ربيِّع) بسبب محاولته قيادة انقلاب عسكري ضد النظام والتنظيم ، وكان يوم ٢٦ يونيو أشد عنفاً من يونيو ١٩٦٩م الذي أنهى (قحطان الشعبي) من الرئاسة ، لأن يوم (ربيِّع) تفجّر بالنار وتسربل بالدم ، فكان (ربيِّع) أول رئيس في رئاسة الشطر الجنوبي يموت قتلاً ، كما كان (الغشمي) ثاني رئيس يسقط في صنعاء قتيلاً .

بعد هذا سقط التخطيط (الغشمي) (الربيِّعي) المزعوم بما ينطوي عليه من رهان على تغيير النظام في الشطر الجنوبي فخلت ساحة السلطة والتنظيم من يومذاك للأمين العام (عبد الفتاح إسماعيل) و(علي ناصر محمد) فأصبح رئيساً

للجمهورية وهيئة مجلس الشعب الأعلى من ٢٧ يونيو ١٩٧٩م إلى ٢٢ إبريل عام ١٩٨٠م ، وكانت مدة (عبد الفتاح إسماعيل) مليئة بالتوتر والاحتكاك ، ربما لمجيئها من التوتر والعنف ، فقد توالت الملاحظات على مقتل (سالم ربيِّع) . ولماذا تم إعدامه بعد أن انتهى خطره ؟

وكان (سالم ربيِّع) قد أشاع في ظروف رئاسته الحسّ الشطري والنزوع القروي ، ولم يمسح تلك الإثارة دم (سالم ربيِّع) ، فعانى (عبد الفتاح إسماعيل) شدة الاعتراضات وهمس الشوارع والمقاهي حول اقتداره وحول حكمة تنظيره وحول أصله العائلي ، برغم تفوّقه الثقافي على كل رفاقه ، وبرغم حنبليته الحزبية التي تجاوزت به العصبية والقروية ، ومع هذا تكالب الطموح من الذين شايعوا (ربيِّع) ومن الذين تواكبوا عليه مثل (علي ناصر محمد) رئيس الوزراء ، واستهدفت نقمة الطامحين الأمين العام ، وفي أمسية ٢٢ إبريل سنة ١٩٨٠م أعلن راديو عدَن استقالة (عبد الفتاح إسماعيل) من رئاسة الجمهورية ورئاسة هيئة الشعب الأعلى ومن الأمانة العامة للحزب اليمني الاشتراكي ، وأحدث هذا البيان أغرب دهشة عند البعض وتأكّدت نبوءات البعض ، فقبل استقالة (عبد الفتاح) تردّدت عدة إشاعات عن محاولة قتله في (عدَن) وعن تزعم (محمد صالح مطيع) و(علي عنتر) التهجّم على الأمين العام ، وعن محاولة قتل (الأمين العام) بطريقة فنية عندما عجزت طائرته عن الهبوط في مطار (ليبيا) لامتناع عجلاتها عن التدلِّي ، فتتابعت الإشارات إلى مكيدة طيرانية طبخت في (عدَن) وكادت أن تؤكل في مطار (ليبيا) ، وأريد إبطال تلك الإشاعة فدمغت إبطالها ومبطليها استقالة (عبد الفتاح) الإجبارية ، التي سبقت إمكان انقلاب عسكري بقيادة (علي عنتر) .

في ٢٢ إبريل سنة ١٩٨٠م تنحَّى (عبد الفتاح إسماعيل) عن السلطة بعد نضال عشرين عاماً في ساحة القتال ومجال الجدال وقمّة السلطة ، وأصبح

مجرد رئيس رمزي للحزب لا يرمز إلى شيء ، وتسبَّب تنحِّي (عبد الفتاح) في تمادي التساؤل :

هل هو بداية تراجع أو أول مراجعة للحساب ؟

وهل يؤدي إلى تغير ورائي أو أمامي ؟

وما موقف ذاك ، وما مصلحة هذا ؟ وهل الجمع بين قدرة التنفيذ وثقابة التنظير لايصلح في هذا الزمان ؟؟ . .

من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٣م عند كتابة هذا ترأس الجمهورية في الشطر الجنوبي (علي ناصر محمد) الذي تولَّى رئاسة مجلس الوزراء من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٠م فارتقى من الرئاسة إلى الرئاسات : رئاسة الجمهورية ، رئاسة هيئة مجلس الشعب الأعلى ، رئاسة مجلس الوزراء ، الأمانة العامة . . . وما يزال (علي ناصر محمد) ينسج خيوط سياسة عهده حياتياً ، لكي تتحول إلى تأريخ متصل بالحلقات الماضوية والمستقبلية ، لأن المقاييس التأريخية لا تمتلك صحة استنتاجها وتقويمها إلا بعد انتهاء العهد المؤرخ له ، بل بعد انتهاء العصر الذي تداخلت حلقاته على مختلف الرؤوس التي تعاقبت على سِدّة الحكم فيه .

وبعد : هل أرَّخ هذا الفصل رؤساء الجمهوريات أحياءً وأمواتاً ؟

لقد وقف مع حقائق فتراتهم طارحاً أفكاره عنها ، عن مودَّة للحقيقة وعن احترام للرئاسات ، دون أن تغلب المجاملة الضرورية على الحقائق العامة ، ودون إصدار أحكام وإنما مجرد تدارس للحاضر الذي يفسِّره الماضي وللماضي الذي يعزِّز الحاضر ، فإذا كان الماضي يصلح تفسيراً للحاضر ، فإن الحاضر يرفع علامات تومئ إلى المستقبل .

ولقد حاول هذا الكتاب على تعاقب فصوله أن يمد التفاتة إلى الماضي ويطيل وقوفه عند الحاضر ، لكي تتألَّق نظرات اليوم إلى بواكير الغد .

محتويات الكتاب

الموضوع **صفحة**

إلمامة من بعيد ٥

الفصل الأول : الخطوط الجدلية ١٣

١ ـ الأرومة الأولى ١٥

٢ ـ تعدد الخطوط الجدلية في الأربعينات ٣٩

٣ ـ اتفاق المختلفين واختلاف المتفقين ٥٥

الفصل الثاني : تفجرات المناطق ٧١

١ ـ حركة حاشد ٧٣

٢ ـ انتفاضة المقاطرة بين دعوى وتهمة ٨٥

٣ ـ موقف الشعر الرسمي من انتفاضة المقاطرة ٩٧

٤ ـ الامتداد والعكس لأحداث المقاطرة ١١١

٥ ـ حركة الزرانيق تحت مفهومين من التأريخ ١١٧

٦ ـ النتائج العكسية والامتدادية لحرب الزرانيق ١٣١

٧ ـ صورة حرب الزرانيق في شعر الإمام أحمد ١٤٣

الفصل الثالث : التفجرات في الشطر الجنوبي ١٥٧

١ ـ معركة (عدن) ضد اليهود ١٥٩

٢ ـ التحولات في الشطر الجنوبي وأشباهها في الشطر الشمالي ١٦٩

الفصل الرابع : تنظيم الاتحاد اليمني من ٤٢ إلى ١٩٧٤ .... ١٨٥

١ ـ من الدعوة إلى إخفاق التجربة ١٨٧

٢ ـ الاتحاد اليمني بين الاجترار والتحول ٢١٥

الفصل الخامس : حركات الفصائل ٢٣١

١ ـ حركات الجنود ٢٣٣

٢ ـ التيار الطلابي ٢٤٧

٣ ـ موقع المرأة . . في واقع التطور الاجتماعي ٢٦١

الموضوع **صفحة**

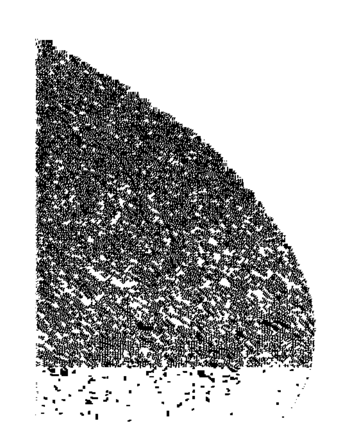
الفصل السادس : حركة ٤٨ .... ٢٨٥
٢ ـ أثر الحركة وتأثيرها ٢٨٧
٢ ـ ثقافة الانقلابيين ٢٩٩
٣ ـ حركة ٤٨ بين واقعها وواقع الكتابات عنها ٣١٣
الفصل السابع : حركة ذمار ٣٢٩
الفصل الثامن : الازدواجية والثنائية في انقلاب مارس ٥٥م ٣٤٣
الفصل التاسع : ثورة سبتمبر ٦٢م ٣٦٣
١ ـ الخطوط التي تدفق منها سبتمبر ٣٦٥
٢ ـ من اليمن المنشود ، إلى الجمهورية الرابعة ٣٨٣
٣ ـ اليمن الجمهوري إلى أين ٤٠١
٤ ـ التساؤل الثوري ، واستمرار الثورة ٤١١
الفصل العاشر : مشاكل اليمن الجمهوري ٤١٩
١ ـ الأخطاء الموروثة ٤٢١
٢ ـ موقف حسابي أمام الثمانينات ٤٣٣
٣ ـ قضايا على بساط القلب ٤٤٧
٤ ـ الديمقراطية بين الإعلان والممارسة ٤٥٩
٥ ـ توحيد الواحد ووهمية الشطرين ٤٧٥
٦ ـ الثائر من حقيقته إلى تحقيقه ٤٨٤
الفصل الحادي عشر : رؤساء الجمهوريات ٤٩٣
١ ـ جمهورية الثورة ٤٩٥
٢ ـ المجلس الجمهوري ٥٠٩
٣ ـ الجمهورية الثالثة ٥٢١
٤ ـ في الشطر الجنوبي ٥٣٤

* * *



يؤرخ المؤلف لليمن المعاصر، لكنه يرى العشرين سنة التي هي عمر اليمن الجمهوري، حصيلة عشرات السنوات، بل يؤكد أن عصرنا خلاصة عصور.

ولذا فهو يطيل الالتفات الى الينابيع، ويرافق التطورات على تعاقب العصور إلى عهد اليمن الجمهوري، ثم يقف عند اليمن الجمهوري في الثلاثة الفصول الأخيرة، ويستحضر الخلفيات لكل ظاهرة من ظواهر اليمن الجمهوري معللاً لكل حادث مبرهناً على كل رأي.





دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع